

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

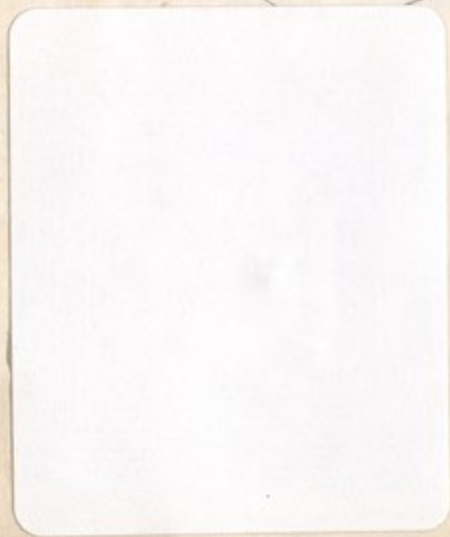
3 8534 00851 1168

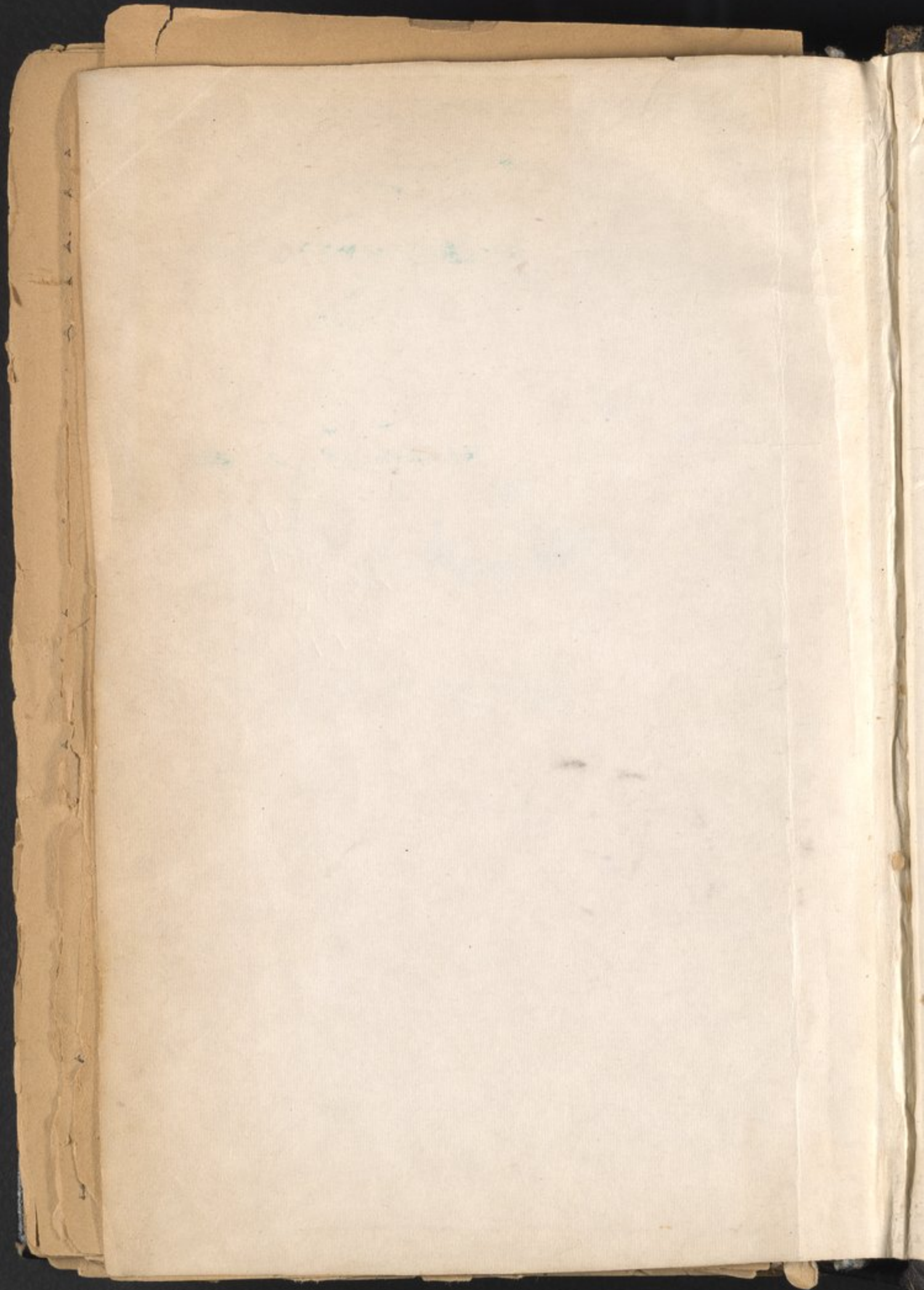


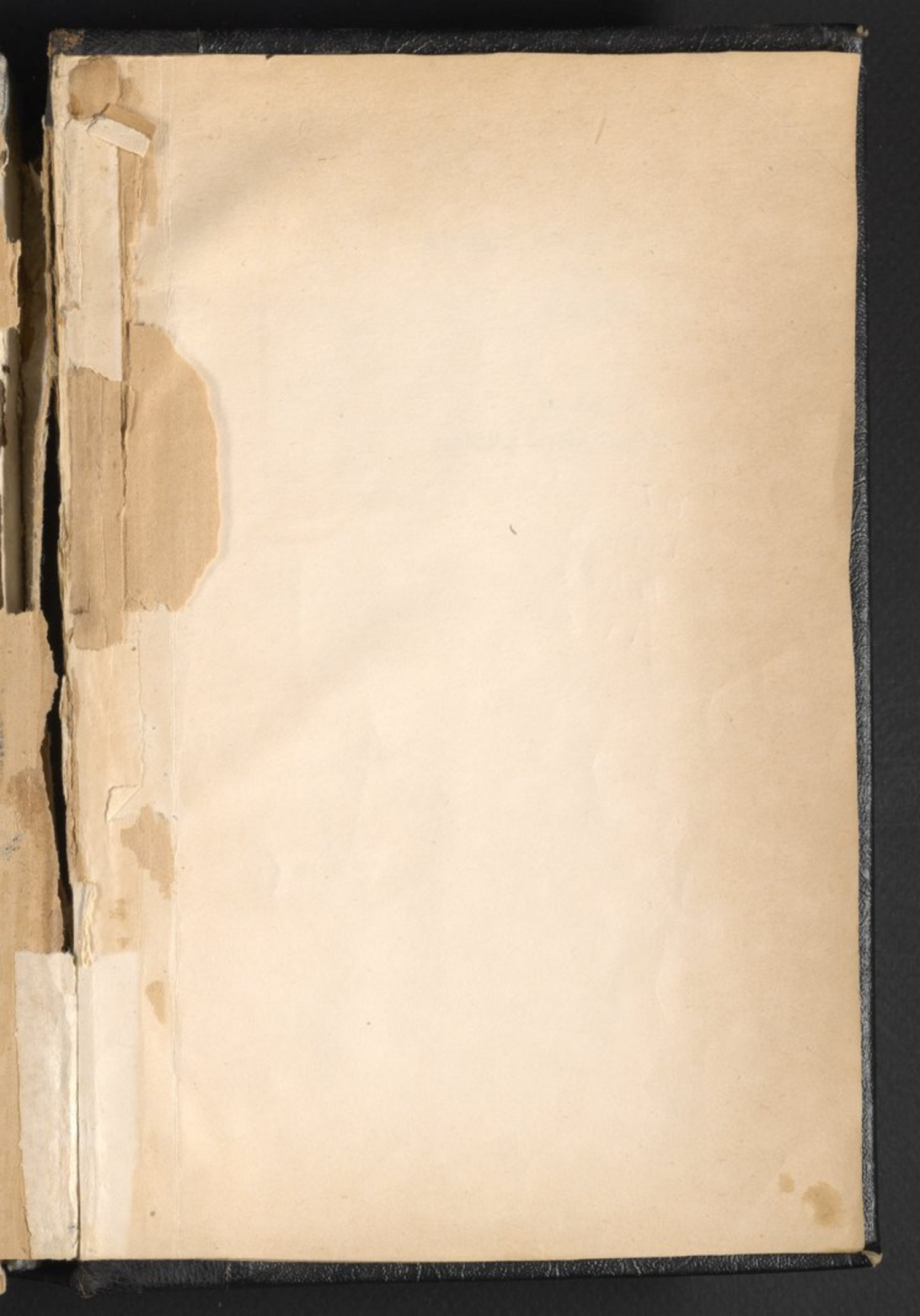


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة







923-1
Z 13 a

943, 970
سجل
ع

الاهداء
إلى ذكرى
عند

18237

تمهيد

الصديق والمؤرخ في الكتابة عن رجل كسعد زغلول يستويان أو
يتقاربان ، لأن الصديق لن يقول فيه ما ينكره المؤرخ ، والمؤرخ لن يقول
فيه ما ينكره الصديق . ومن النقص في جلاء الحقيقة أن يكتب المؤرخ
ترجمة لعظيم ثم لا يكون على مودة لذلك العظيم ، لأن الترجمة فهم حياة ، وفهم
الحياة لا يتسق لك بغير عطف ومساجلة شعور ، ولأن يكون الكاتب مؤرخاً
وصديقا خير للتاريخ نفسه من أن يكون مؤرخاً وكفى ! ولا سيما حين تستوى
الحقيقة والمجاملة في ميزان الأعمال والصفات

وإنما في هذه السيرة — أو هذه السيرة والتحية — قد أنظقت المؤرخ ولم
أحاول قط أن أسكت الصديق ، لأن الصديق هنا جدير بأن يتكلم ، فما
أثبت حرفاً في هذه السطور إلا الذي أعلم أنه صحيح لاشبهة عليه ، وما تميل
في الصداقة إلى الاعجاب بل الاعجاب هو الذي مال بي إلى الصداقة في الحياة
وبعد الممات . وحسبك من إنصاف أنك لا تقول إلا ما يقره العدو في الجملة
وإن ناقشه في التفصيل ، ولعله لا يناقشه في التفصيل بدليل قاطع أو برأى
جميل .

وكل ما في هذا الكتاب من وصف أو ترجمة أو تاريخ فالمقصود به بادية إلى
الأمر هو جلاء الحقيقة عن حياة سعد زغلول أو «نفس» سعد زغلول ، دور
فأكبر الحوادث ما لم تكن لها يد في جلاء الحقيقة عن تلك النفس لالمحل لها
في هذا الكتاب ، وأصغر الحوادث التي تزيدنا علماً بها ونفاذاً إلى سريرتها
لها المحل الأول فيه ، وما ذكرناه فيه عن مصر أو عن الجيل أو عن هذا
الرجل أو تلك الطائفة فانما نذكره بمقدار ما نتأدى منه إلى تلك الغاية ،
ولشرح الحوادث بعد ذلك معرض غير هذا المعرض وسياق غير هذا السياق .

ولقد تدعو الضرورات إلى التغاضي عن بعض الأمور والاجتزاء بمثل
واحد يغني عن عدة أمثال . فان حدث هذا في قليل من مواضع الكتاب
فاليقين الذي لا ريب فيه أنه لن يحجب سرّاً من تلك السريرة الواضحة
ولن يطوى جانباً من ذلك السجل الممدود ، ولن يزيدنا ذكره وتفصيله
علماً بما أردناه بهذا الكتاب ، وهو استجلاء الحقيقة عن نفس سعد زغول ،
وغاية ما هنالك أنه يضع الظلال حيث ينبغي أن يوضع الظل ولا يوضع
النور ، وقد يكون ذلك أقرب إلى المثال وأعون على الجمال .
وخير ما أرجوه لهذا الكتاب أن يكون تفصيلاً وافياً لتلك التحية
المجملّة التي نطق بها المصريون كثيراً ولا يزالون ينطقون بها في كل عام
وكل مقام ، وهي تحيتهم إذ يهتفون « لتحي ذكرى سعد زغول »

عباس محمود العقاد

الطبيعة المصرية

في أوهام الناس

طبيعة المصري موضع دراسات كثيرة ، جنسية ونفسية ، واجتماعية
وسياسية ، يقوم كثير منها على الاشاعة والغرض ، وقليل منها على التحقيق
والانصاف .

وليس ذلك لغموض أو تعقيد فيها ، فان هذه الطبيعة واضحة سهلة ،
ليس في الأمم العريقة كافة - فيما نعتقد - أمة أوضح منها وأسلم .
ولكنها قد احتجبت طويلا لما أحاط بها من أقاويل الأمم المنافسة لها أو
الموتورة منها ، وقد طال عهد مصر بمراس المنافسين والجيران الموتورين ، وطال
اعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها ، حتى وقر في الأذهان وأصبح
التعرض له بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة والوقائع المكررة
تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لا تبدو على تلك الأقاويل المفتراة
ونحن نرجع إلى الصفات الكثيرة التي تواترت بها أقاويل الأمم النامية
أو الأمم الحاسدة فنستعرضها صفة صفة ونحاول أن نجد فيها ما يقنع السامع
أو ينفى عنه الشك والتردد فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الأذهان من
ناحية الاقناع ، ولا نعجب لشيء عجيبنا من سرعة الأكاذيب في النفاذ إلى
الأذان وسرعة الأوهام بعد ذلك في الاستقرار بالاخلاد ، حتى إذا جاء دور
التفنيد والتصحيح كان العجب الأكبر أن تلك الاخلاد التي استقبلت
الأوهام بالأذعان والاستسلام تنقلب فجأة من السلاسة والهوادة إلى التصعب
والتشدد في وجه الحقيقة ، كأنما الأوهام صديق مسلم ينزل بها نزول النصير
المأمون الجوانب المحمود العواقب . . . أما الحقيقة فهي عدو مهاجم يدك
الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبداً دون أن تلتفت له وتثور عليه .

ورأس الأ كاذب على الطبيعة المصرية أمها طبيعة أمة لا تحكم نفسها
بنفسها ولا تبالي غارة الأجنبي عليها . فمن من أعداء المصريين يشك في
هذه الأ كذوبة ؟ أو يكلف نفسه وهو يقذفهم بها أن يضاهاى بينهم وبين
غيرهم ليعلم مقدار الشبه في هذه الخلة بينهم وبين أبناء الأمم الأخرى ؟

على أنها كما قلنا رأس الأ كاذب وأيسرها تفنيداً عند النظر القريب ،
فضلا عن النظر البعيد

فليس شأن المصريين في هذه الخلة بمخالف لشأن الأمم كافة في العصور
القديمة ، إذ هي كلها مزيج من غالب ومغلوب وأصلاء وغرباء ، لا تدرى
من أحقهم بوصف الوطنى ومن أحقهم بوصف الدخيل ، إذا مضى عليهم
جيلان أو بضعة أجيال

ولقد كانت هذه الأمم جميعا لا تبالي من يحكمها من أبناء البلاد
أو غير أبناء البلاد ، لأنها كانت منهوبة مظلومة على كلتا الحالتين . وكانت
تطبق الحاكم حتى يجاوز بها حد الطاقة فتثور عليه وتمالى أعداءه سواء
كان من الأجانب أو من المواطنين العريقين فيها ، ولم تنشأ الفكرة
الوطنية بمعناها الحديث إلا حين نشأت فكرة الحكم بالحق والحكم لمصلحة
المحكومين وبطلت فكرة الحكم للغالب القاهر بقوة المال والسلاح ، فقد
أبطأت « الانسانية » طويلا قبل أن تخترع الديمقراطية أو الفكرة الوطنية !
وقد أصيبت جميع الأمم بما أصيب به المصريون من جراء هذا الإبطاء الذى
لا ذنب فيه على أحد ، فلو أننا استعرضنا تواريخ انجلترا أو فرنسا أو المانيا
أو ايطاليا أو تواريخ الفرس والهند والصين وما بين أولئك من شعوب المشرق
والمغرب التى استقرت فيها الدول وقامت فيها العروش لما استطعنا أن نعثر
على شعب واحد خلا من سلطان الأجنب ، واستعصى حكمه على أسرة بعد
أسرة من الواغلين الطارئين عليه فى عنف المقتحم تارة وفى رفق المتودد تارة
أخرى . وربما كانت مزية الأمة المصرية على أمم كثيرة فى هذه الخلة أن

الحاكم الأجنبي كان ينتحل دينها ويتخذ عاداتها ومراسمها ويحفظ ماله في أرضها ولا ينقله إلى عاصمة بعيدة منها . فان جرى على هذه السنة في سياستها طالت أيامه فيها وتمهدت حكومته بين أكنافها ، وان خالف هذه السنة لم يأمن انتقاضها ولم يزل على خطر منها ، وحذر من جموحها وانقلابها

وانما شاع اتهام المصريين بالخضوع للسطوة الأجنبية ولم يشع ذلك كثيراً عن الأمم الأخرى لأن المصريين أمة لها تاريخ قديم متصل بالعالم في شرقه وغربه وقديمه وحديثه ، فالأخبار عنها متصلة وذاكرة الشعوب بأخبارها مشغولة ، ولأن العالم القديم والعالم الحديث كليهما قد تلقيا تاريخ هذه الأمة من أفواه الأعداء والمغرضين ، ولم تحفل هذه الأمة بتصحيح ما يقال عنها لأن تصحيح التواريخ القومية بدعة جديدة ، لم يُعرف لها خطرها ومبلغ الحاجة إليها قبل عصرنا الأخير

فاليونان في العالم القديم كانوا ينقمون على المصريين الترفع والشمم واعتبارهم الاغريق جميعا في الحضيض الأدنى من مراتب الشعوب ، وكانوا يشعرون بنفور المصريين منهم لأنهم أعانوا الفراعنة الغاصبين عليهم ، ودخلوا زرافات زرافات في الجيوش المرتزقة التي كان أولئك الفراعنة يستعينون بها على حراسة عروشهم واخضاع رعاياهم ، وكان اليونان يزعمون بطبيعة الحال أن الفراعنة يتخذون الجيوش المرتزقة من الأجانب ومن اليونان خاصة لأن أبناء البلاد لا يصلحون للحرب ولا يصبرون على مضانك الجندية ! أما الحقيقة فهي أن الفراعنة الغاصبين علموا بغض الرعية لهم وتربصها بهم وتحفزها للثورة عليهم فخافوا أن يسلبوا زمام القوة العسكرية إلى تلك الرعية ، واصطنعوا الجندا الأجانب ليتقوا بهم خطر الثورة وبواد الفتنة ، وبلغ الخوف بهم أشده في عصر الغزوة الفارسية فأكثروا من جند اليونان وأقلوا من التعويل على جند البلاد ، وقد عرضنا لهذا المبحث في رسالتنا عن « رواية قبيز التمثيلية » فقلنا ان اليونان مغرضون إذ يتكلمون عن الجنود الوطنيين . « وقد

كان ضلعهم ظاهر مع الملوك الفراعنة المكروهين الذين كانوا يحذرون التعويل على الجنود الوطنية فيكثرون من استخدام الجنود اليونانية ، وكان أولئك الفراعنة يحابون اليونان ويتبرعون بالمال الكثير لتعمير هياكلهم في بلادهم واقامة الهياكل لهم في جوار المعابد المصرية ، وكان أبناء البلاد يمتنون فراعتهم من جراء هذا ويتربصون بهم وبالجنود الدخيلة الدوائر ، وينعتون هؤلاء بأقبح النعوت ويحرمون الأكل من أيديهم والتنزل إلى معاشرتهم ، ويقدمون في شجاعتهم وأمانتهم بكل لسان على أن استخدام المرتزقة خطة لم تنفرد بها مصر أيام الغزوة الفارسية ، لأنهم كانوا يُستخدمون في جيش فارس وساموس في هذه الفترة بعينها ، فليس من الانصاف أن يتخذ وجودهم في الجيش المصري برهانا على نقص في كفاءة المصريين للجندية والقتال . وكل ما افتراه مؤرخو اليونان على شجاعة المصريين في ذلك العهد إنما كان حديث مواتور ودفاع دخيل ممقوت ، وما كان هذا ليخفى على أحد له بصيرة وفضيلة وله إلمام بمواقع الأغراض والدعايات ، فما كان يحمل بمؤرخ باحث — ولا بمصرى على الخصوص — أن يتخذ شهادة الكتاب اليونان دليلا على جبن آبائه الغابرين . ولو صفر التاريخ من الأدلة النافية لهذه الفرية لكان للمصرى شبه عذر في الاصغاء اليها والاهتمام بشأنها ، أما والتاريخ حافل بالدلائل النافية لها فلن ينساق مع أكاذيب اليونان الأقدمين إلا رجل تعوزه الغيرة أو يجنح به الغرض إلى تصديق تلك الأكاذيب وإلى القراء بعض الدلائل التي حفل بها التاريخ حتى في رواية أولئك المؤرخين المغرضين

« فمنها ان الفرقة المصرية هزمت الفرق المرتزقة في كل مرة اجتمعت فيها تلك الفرقة الى فرد راية . فلها خطر لـ « وهاب رع » أن يشد ازر « ذكران » الزعيم اللوبي في حربه للمستعمرة الاغريقية ببرقة — رأى من الحكمة أن لا يرسل في هذه الغزوة جنود المرتزقة مخافة أن يتمردوا ولا تطيب نفوسهم

لنصرة ذكران وهزيمة إخوانهم الاغريق ، وعلم ان الفرقة المصرية تبغض
الاغريق وتصدق في قتالهم فأرسلها إلى الحدود . ولكن حسابه ما لبث أن
التوى عليه فكرت الفرقة المصرية راجعة إلى حربيه حين أحست اجتماع
الكلمة ووحدة القيادة ، فجزع « وهاب رع » واستعان بجميع جنوده
الاغريق وخرج بهم لقتال الثائرين فهزمه هؤلاء شر هزيمة ورفعوا قائدهم
« أحس » إلى العرش شريكا لذلك الفرعون ، ولولا ان علو « أحس »
على زملائه قد أثار في نفوسهم حسد الند للند فخاف اجتماع كلمتهم عليه لما
عدل بعد ذلك عن تأييد الجنود الوطنيين إلى مشايعة الأجانب والمرتزين .
« هذا ما حدث في الواقعة الأولى بين المصريين والاغريق ، فلما التقى
الفريقان بعد ذلك مرتين كان الغلب الحاسم في المرتين للمصريين

..... » وأدل مما تقدم على منعة مصر وهيبة جيشها ان كورش
مؤسس دولة الفرس وفتح الأمصار شرقاً وغرباً قد تهيّب أن يقدم على
غزوها فتركها وشأنها كما قال مسيو « جستاف جكفيه » في كتابه تاريخ
الحضارة المصرية مع أن كورش كان يعلم اشتراكها في الحلف الذي
تألب عليه مع البابليين والليديين والسبرطيين والمصريين ، فخارب بابل
وليديه وسوّف في محاربة مصر إلى أن مات

..... » ومن الدلائل على كذب الأقاويل على هذه الفترة أن قميز —
مع تهجمه وفتوته — لم يحسر على غزو مصر الا بعد أن استوثق من خيانة
فانيس اليوناني واطلع منه على أسرار الهجوم وفوض إليه رشوة البدو
الضارين في صحراء سيناء ، ثم لم يكفه هذا حتى الب الاسيويين على المصريين
وأعدّ لهم ستة أضعاف قوتهم من الفرسان ، وجيش مشاة يفوق جيشهم بعدد
غير قليل . وأسلحة لا عهد لهم بها في ذلك الزمان ، وأسطولا لبولكرات
الطاغية الساموسي مال إلى فارس بعد أن كان في حلف المصريين
..... » ولقد غلبت مصر وملكتها الفرس وما انكسرت قلوب أهلها

ولا خنعت رقابهم لنير الفاتح القوى المعتر بياسه وسلطانه ، فابرحوا يتجبنون
الفرص ويثبون على غاليهم مرة بعد مرة حتى قلق « دارا » الأول وحضر
إلى مصر وقتل « ارياند » والى الفرس الذى كان يتغطرس على المصريين
ويستنفرهم الى الغضب والثورة ، وبالغ فى تمليق الشعب والسكهان حتى بنى
معبدآ لأمون واشترك فى موكب الحزن على العجل « هانى » واكتب بما
يعدل اثنين أو ثلاثة وعشرين ألف جنيه من نقود هذه الأيام ، مكافأة لمن
يعثر بعجل جديد تجتمع فيه الشروط المفروضة فى أسفار السكهان

« وظهر شمم السكهان المصريين على أمه يوم اقترح « دارا » عليهم أن
يقيموا تمثاله إلى جانب تمثال « رعسمو الثانى » فى معبد فتاح ، فلم يبال
أحدهم أن يجبهه بتفضيل رعسمو عليه وان يقول له فى غير موارد ولا
دهان : انك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تبل مثل بلائه ، فتلقى
الجواب كاظما وقال فى حلم واناة : سأفعل كما فعل اذا عشت كما عاش ، وعدل
عن اقامة التمثال اذعانا لكبرياء رعاياه المغلوبين

« ثم استرجعت مصر استقلالها وكأخت حوله كفاح المستميت ، ولا
حل هنا لتفصيل الوقائع التالية لأنها خارجة عما نحن فيه

« فالحوادث التى انتقلت إلينا من مؤرخى اليونان أنفسهم تنفى ما تخلل
رواياتهم من سوء الشهادة للشجاعة المصرية وسائر الخلائق الكريمة ، ويجب
على المؤرخ المصرى أن يفظن لهذا ولا يجارى الأحاديث المشاعة التى لن
تخلو من الهوى ولن ترتكز إلى سند صحيح »

وفىما تقدم مثال صالح يقاس عليه فى التعريف بتاريخ الأمة المصرية على
جليته فى كثير من أدواره وأطواره .

وأخطر من هذه الدعاية اليونانية كثيراً دعاية أخرى تحدرت من العالم
القديم وشاعت بين الشعوب التى أخذت بقبس من مآثورات بنى إسرائيل ،

كان
على
الفر
واقا
فرا
هو
ويق
خط
جيش
وج
وال
إنما
له
بمؤ
اليو
له
أه
الأ
||
ر
تا
الز
لا

ونعني بها نبوءة السخط والنقمة التي فاه بها بعض كهان اليهود وتوارثها
الأعقاب عن الأسلاف ، كأنها وحى سماوي تنزل من عند الله

فقد كان الاسرائيليون الأفدمون يبغضون المصريين لأنهم سخروهم في
أرضهم تسخير العبيد ، فهجروا الأرض كارهين إلى صحراء سيناء ثم إلى
تخوم فلسطين ، وظلوا يتمنون الهزيمة للدولة المصرية ويتلقون بالقبول
والترحيب كل ما يبشرهم بزوال مجدها وأفول نجمها ، وزادهم بغضاً على بغض
أنهم استنجدوا مصر على البابليين فأبت أن تنجدهم وكرهت أن تخوض
أهوال الحرب مع بابل من أجلهم ، فلما هزمتهم بابل وأسرت قبائلهم
وهدمت أركان دولتهم الصغيرة في فلسطين راحوا يتمنون لمصر مثل هذا
المصير وينذرونها سوء العاقبة إلى أمد مديد ، كما يفعل الكهان حين يقذفون
باللعنة على الأعداء الأقوياء ، وزعموا أن المعتمد على مصر لا يعتمد على سند
متين ولا يأوى إلى ركن ركين ، لأنها صانت دماء أبنائها عن حرب
لامصلحة لها فيها ، ولا داعي عندها لاقتحامها

وما من دولة كبرى في العصر الحديث أو في العصر القديم إلا تعلق بها
رجاء أمة ضعيفة في طلب الحرية والانصاف ثم خاب ذلك الرجاء ، فماذا فعلت
مصر غير ما فعلته قديماً وتفعله حديثاً كل دولة يراد منها اقتحام الحروب في
غير طائل ؟؟ وقد تسخط الأمم الضعاف على تلك الدول الكبار فيكون
سخطها معقولا مفهوماً ، ولكنها لا تكون على حق فيما تدعيه أو فيما تتمناه ،
ومن واجب الناس أن يأخذوا كلماتها ولعناتها مأخذ الريية والمراجعة لا أن
يصغو إليها إصغاءهم إلى الوحي المنزل والقضاء الدامغ ، فإذا تسهل أناس في
قبولها وتصديقها لأنها لا تضيرهم ولا تغض من سمعتهم فلنحن المقذوفين بها
أولى أن نتفهم أسبابها ونفطن لبواعثها ومراميها ، وقد تيسر لنا الآن أن
نفهم أسبابها كما نفهم كل شيء في هذه العصور ، فلا سلطان لتلك اللعنات
على عقائدنا في أنفسنا ، ولا على ماضيها أو حاضرنا الذي نحن فيه .

— ١١ —
أما قبل اليوم فقد كان أناس من أبناء مصر يحسبون الايمان باستعبادها
وإخلادها إلى المذلة فرضاً عليهم ، ويحسبون الشك في تلك اللعنات خروجاً
على قضاء الله فيهم ، ولهذا قلنا إن دعاية بني إسرائيل في العهد القديم كانت
وأخطر من دعاية الاغريق ، وظلت كذلك إلى زمن غير بعيد

وأخطر من الدعايتين معا خلط العامة من المسلمين بين اسم الفراعنة واسم
قدماء المصريين ، أو ظنهم أن كل « فرعون » هو فرعون موسى الموسوم
بالكفر والطغيان في سور القرآن . فأصبح اسم قدماء المصريين مرادفاً
عندهم لاسم فرعون المنبوذ في كتاب الله ، وأصبحت سلالة هذا الجنس في
أوهمهم رجساً مذالاً غير مستغرب فيه قدح قاذح ولا منتظر فيه دفاع مدافع ،
ومن ذا الذي يدافع عن فرعون وآل فرعون ؟

ومن أدباء المصريين أو متأديبهم من قرأوا هجاء المتنبي فأثر فيهم بعض
الأثر ، وخيل إليهم أن الشعر والتاريخ والواقع والنبوءات قد تضافرت على
تصديق ذلك الهجاء من أقدم العهود . وأتى على الأدباء زمان كان البؤس
فيه وسماً لكل شاعر وكانت شكوى الشاعر فيه من ظلم قومه وغفلتهم عن
حقه موضوعاً قلباً خلا منه ديوان ، فكان الشعراء الذين يحفظون أبيات
المتنبي يستريحون إلى ترديدها ويجدون فيها مصداقاً لشكاياتهم ومتنفساً
لمضاضة نفوسهم ، وشهادة لهم بالأدب ومحاكاتهم لاعلامه الأفاضل !
وصرفهم ذلك عن وزن الأبيات بميزان التاريخ والبواعث النفسية ، فبلغوا
بها فوق مبلغها من التصديق والعناية ، وما كان في وزنها صعوبة عليهم لولا
شهوة الشكوى والبؤس أو « التباؤس » التي أشرنا إليها ، وإلا فهل كان
المتنبي إلا شاعراً مخنقاً يقول ما لا بد أن يقوله كل شاعر محقق في ذلك الزمان ؟
وهل وصول الخصى كافور إلى عرش مصر أغرب من سيادة إحدى البغايا
على دولة الروم لو كان المتنبي على علم بتاريخ الروم القديم ؟ وهل كانت أمة

الفرس ملعونة على السنة الكهان أو مقضياً عليها بالاستسلام حين تولاهما
سلطان خصى بعد زمن المتنبي بعهد طويل ؟ وهل الخصيان والبغايا هم شر
الناس أو هل سيرتهم في الحكم أقبح السير التي عرفتها شعوب العالم ؟
فأبيات المتنبي ان هي إلا صريحة حنق تنفعنا إذا أردنا أن نفهم نفسه
ومضامين شعره ، ولكنها لا تنفعنا إذا أردنا إن نفهم بها نفس أمة أو نقابل
بها بين جيل وجيل ، ولو أننا أحصينا كل ما ادعاه شاعر أو متشاعر على
رجل أو قبيلة أو وطن أو عنصر لخرج بنو الانسان جميعاً وليس فيهم فريق
حقيق بكلمة ثناء

* * *

ثم جاءت العصور الأخيرة والمصريون لا يسمعون عن أنفسهم إلا
التشهير بهم وسوء القالة عليهم وتفسير التاريخ على الوجه الذي يريده لهم
أعداؤهم والطامعون فيهم . فالأوروبيون نظروا إلى الشرق نظر المستعمر
الطامع إلى الغنيمة المطموح فيها ، فوصفوه في ماضيه وحاضره بالصفة التي
يحبونها ويتمنون دوامها ، وهم لا يحبونه مستقلاً ولا أهلاً للاستقلال ،
ولا يحبون لأنفسهم أن يكونوا ظالمين مغتالين يقتلون روح الحرية ويحكمون
بالذل على أناس يستحقون العزة والكرامة ، فليس مما يشبع مطامعهم أو
يريح ضمائرهم أن يتصف الشرق بصفات الشعوب التي تشبه الأوربيين في
الفطرة وتساويهم أو تقرب منهم في نعمة الحرية والسيادة ، وإنما يشبع
مطامعهم ويريح ضمائرهم معاً أن يتخيلوا الشرق مفطوراً على الخضوع مطبوعاً
على الاستسلام ، لا يغيرون من أمره شيئاً إذا أخضعوه وسيطروا عليه
واستمتعوا بخيرات الضائعة وثمراته المهملة واصقاعه الفسيحة

وهكذا دونوا لنا تاريخنا ولقنوه لنا في المدارس والكتيب حتى رأينا
منا من يصدقه ولا يتحرج من تلقينه على هذه الصورة لصغار الأبناء ، كأنه
يحافظ على أمانة الدرس ويتحرج من التصرف في لوح العلم المحفوظ !

الجريمة

كربية

ذلك

رب

يهوى

صربية

ين

بداية

تاريخ

ب أن

لمجوم

سلمين

ط

هزم

المبيد

عثمانيا

نابطاً

سعيد

نلال

أهم

ونشأت في ابان ذلك بدعة الآرية والسامية وهي تلك البدعة التي تقضى
للآريين بالسبق والرجحان في كل فضيلة من فضائل الأمم أو فضائل الأفراد ،
وقد ظهر بطلانها الآن أو ظهر على الأقل ان الحاجز الذي أقامه مبتدعوها
بين أجناس الشعوب مصطنع ملفق لا يسلم من ثغرة شك هنا وثلمة ضعف
هناك ، بل هو ينعكس في أحوال شتى فتصبح المزية للساميين من حيث أرادها
القوم للآريين ، ولكن البدعة قد خدعت أناسا كثيرين في ابان نشأتها
فتحدثوا بها كتحدث الناس بالغرائب والملح المستطرفة ، وما زالت تجنى
على الأفكار حتى أوغل فيها بعض الغلاة من دعائها فاستخرجوا منها دليلا
على رجحان بعض الأمم الأوربية على بعض واستئثار جماعة من تلك الأمم
بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الأخرى ،
فتصدى لها يومئذ من الأوربيين من ينكرها ويزيفها ويبالغ في السخر بها ،
بعد أن كانوا يتفوقون على ترويجها والاعضاء عنها حين كانت معرفتها لاصقة
بالشرق وحده ، موقوفة عليه دون غيره

وقد رأينا بين الانجليز — ولاسيما الذين عاشوا في مصر والسودان —
فئة تقرر المسبة الباطلة للمصريين وبين يديها ما ينقض تلك المسبة نقضاً لو
أنها عنيت بالالتفات اليه أو لم تعن بالتعالي عنه ، ومن هؤلاء جاكسون
صاحب كتاب « عثمان دقنة » زعيم الدراويش المشهور ، فانك تقرأ الكتاب
فلا ترى أحب إلى صاحبه من اتهام المصريين بالجبن والاستشهاد بالنوادير
التي يتندر بها الدراويش عن الجنود المصريين المسوقين إلى قتالهم في أوائل
الحملة السودانية ، ويعلم جاكسون مع هذا — ويروى في الكتاب نفسه — أن
هؤلاء الجنود كانوا فلولا من اللصوص والشطار المسجونين المعاقين بالشغل
المؤبد أو الموت العاجل ، قذفت بهم الحكومة المصرية يومئذ الى أحشاء
السودان لتستريح منهم أو تستريح من الدراويش . فكأنما كانت تجريدة
السودان طريقة من طرائق تنفيذ العقوبات في ذلك الحين ، ولو شاء

جاكسون لفهم أن اللص الذي يساق لتنفيذ العقوبة مزوداً بعار الجريمة
غير الجندي الذي يساق الى الحرب مزوداً بنخوة الوطنية والحمية العسكرية
أو لو شاء لقارن بين هؤلاء السجناء والجنود الذين فتحوا السودان بعد ذلك
أو اشتركوا قبل ذلك في حروب الروس واليونان والترك والعرب ،
ولكن من له بأن يشاء هذه المشيئة العصية وهي على خلاف ما يهوى
ونقيض ما يريد ؟

على أن كتابا انجليز ينصفون الشجاعة المصرية أو الجندية المصرية
في بعض ما يكتبون ، ومن ذلك ما قرأنا أخيراً لواحد من هؤلاء المنصفين —
وهو مستر جريفز الذي كان مندوباً خاصاً لصحيفة التيمس في بداية
المفاوضات مع الجبهة الوطنية المؤتلفة — فانه يقول بعد استعراض تاريخ
الجيش المصرى من عهد محمد على إلى العصر الحاضر : « ولا ريب أن
المغامرين الأوربيين والترك احتكروا القيادة ، وأنه كان هناك جنود المهجوم
من الترك والألبان في الحروب الأولى التي دارت في سورية ومن المسلمين
والسودان في الحروب التي دارت بعد ذلك . ولكن صغار الضباط —
ومعظمهم من المصريين — كانوا هم الجزء الأكبر من الجيش الذى هزم
الحملة البريطانية في سنة ١٨٠٧ وفتح معظم السودان وأحرز النصر المبين
فغلب صحراء العرب وأعي مراس الوهايين وكاد يقضى على السلطنة العثمانية
لولا الدول الأوربية »

وخالفا لما يقال عن ضعف الطبيعة الحربية في المصريين رأينا ضابطاً
يابانياً يشهد لهم بأنهم أمة مقاتلين ، ويقول بعد أن قضى شهراً في بور سعيد
عقب الحرب العظمى : « ووافق ذلك ابتداء الجد في حركة الاستقلال
فسنحت لي فرص شتى للتحدث إلى المصريين والعرب والاصغاء إلى آرائهم

راجع كتاب لا بد لليابان من حرب بريطانيا لمؤلفه الضابط توتا اشيهارو

Japan must fight Britain, by Tota Ishimaro

وعقائدهم . وعجبت لما وجدته بينهم من فرط الشغف بالاستقلال وحسن
المودة لنا نحن اليابانيين باعتبارنا اخوانا مشرقين . والمصريون أمة مقاتلة
كالعرب . يبدو عليهم الاقدام والجرأة ، وإذا حسنت القيادة نشأ منهم
جيش حسن »

وهذا كلام رجل حربى من أمة حرية ، أقل ما فيه أن تجرد المصريين
من الطبيعة العسكرية ليس من الظهور بحيث لا يجوز فيه مثل هذا
الخلاف البعيد

وابتلى المصريون إلى جانب المنكرين المستعمرين بطبقة من الترك
أو المتتركين ترفعوا عن « الفلاح المصرى » وحسبوا أنفسهم جنسا أكرم
وأعظم من جنسه العريق فى المدنية ، فشاعت هذه النزعة بين المترفين وأصحاب
المناصب ، وكان لها أثر ليس بالهين ولا بالمحمود فى تربية الأمة وعقيدها
القومية .

ثم بدأت النهضة الوطنية فلم تخل من طائفة متعجلة ساخطة تستحث
الجماهير الغافلة ويملكها الحزن أن لا تسرع الجماهير الى مجاوبتها والنهوض
معها ، فتهمها فى سليقتها واستعدادها على سبيل الزجر والحض والاهابة ،
ويخطئ السامعون معنى الزواجر والتهم فيزعمونها حجة على صدق ما يقال
فى الطبيعة المصرية ، يزكيا أنها تصدر من أفواه « الوطنيين الغيورين » وانها
شاهد من أهلها المقربين !

على أن هذا وأشباهه قد حدث فى أوائل النهضات فى كل أمة شرقية أو
غربية قديمة أو حديثة ، وهذه المانيا — وهى فى طليعة الامم الكبرى —
قد عابها بعض أبنائها النابهين فى أوائل نهضتها العصرية بما لو صدقه السامع
لنفض منها يد اليأس وسجل عليها الجمود والتخلف إلى آخر الزمان ، ولكننا
نقرأ اليوم زواجر نيتشه وشوبنهاور وهينى وجيتى وغيرهم وغيرهم فلا نفهمها

الا كما ينبغي أن تفهم صيحة النصيح الآمين في غضبة التذمر ، أو غضب
الرجاء المعتاق وهو على مقربة من الفلاح

تلك هي عناصر الأوهام التي أحاطت بالطبيعة المصرية في أدوارها
السابقة واللاحقة :

وهي كما يرى القراء كثيرة ومليئة أن تحدث ما قد أحدثت من أثر عميق ،
نعود إليها لتبين من استعراضها كيف تشيع أمثال هذه الأوهام مع بطلانها
وسخفها وقلة ثباتها على النقد حين نلاحظها قريبا أو نرجع بها إلى أسباب
المعقولة ، فإن الرجوع بتلك الأوهام إلى أسبابها لكاف وحده لابطالها
وتفنيدها والعلم بمداهما من الصدق والرجاحة ، ولن يتسنى لباحث أن ي
هذه الأمة في مكانها أو يضع بطلانها في مكانها قبل أن يجلو عنها غائبات
الأوهام التي أحاطت بها وكادت أن تلتصق بتاريخها ، ثم ينظر إليها في جو
منزه عن كذب الاجحاف وكذب المحاباة

الطبيعة المصرية

في حقيقتها

قصدنا من الفصل السابق أن ننفي الأباطيل عن تاريخ الأمة المصرية ولم
نقصد أن تتأدى منه إلى تقديسها، على النحو الذي ينحوه بعض المتعصبين في
الزمن الأخير كلما كتبوا عن أوطانهم في معرض المنافسة والمنافرة، فليست
أمة المصرية أمة معصومة من العيوب والمآخذ، وليس من دأب الأمم
يقتضى أن تحتاج إلى هذا الضرب الرخيص من التقديس والتنزيه، لتحصر
أقرب كلها فيها وحدها وترجم الأمم الأخرى كلها بالنقائص والمثالب،
فربما كان هذا الضرب الرخيص من التقديس والتنزيه حاجة يشعر بها دعاة
الأمم المحدثه التي يعيها أن تضع نفسها في موضعها بين أجناس العالم بغير
هذا الادعاء الملقق والامتياز المصطنع، وشأنها في ذلك شأن حديث النعمة
كان وحيث كان، يلقق نسبه إلى الأصول العريقة والأحساب الباذخة
بأقربها كلها على الطراز الأول بين الأعراق والأحساب، في حين يقنع
العريق الصادق العراقة بالنسب الصحيح على ما يشوبه من العثار والتقلب،
ومن الفضائح والمضحكات في بعض الأحيان.

كلا! ليس من همنا أن تتأدى من تبرئة الأمة المصرية إلى تقديسها
والاغراق في تمييزها على غيرها، وإنما همنا - بل كل همنا - أن ندفع
عنها الغواشي التي تحجب حقيقتها وتضلل الصديق والعدو في قياسها وسبر
أغوارها، ولن تخرجها هذه الحقيقة عن أن تكون أمة لها محاسنها
وعيوبها ولها أخلاقها وعاداتها، ولها خصائصها ولوازمها التي ليست بمحاسن
ولا عيوب، ولكنها أوصاف تنفرد بها لأسباب لم تعرض للأمم غيرها.
ولعلنا لا نلخص الأمة المصرية في كلمة هي أوجز وأصدق، أجمع من

وصفها بصفتها الجغرافية التاريخية المتفق عليها ، وهي أمة طويلة التاريخ
قديمة عهد بالمدينة في أرض زراعية .

فهذا الوصف الوجيه البين يجمع من أوصافها كل شيء ولا يند عنه شيء ،
وإذا توسعنا في تفصيله واستنباط دخائله كان كفيلا أن يفسر لنا أخلاقها
وعاداتها ويوضح لنا غرائبها ونقائضها ، ويرد كل خصلة من خصالها وكل
طور من أطوارها إلى النصاب المحكم والوضع الصحيح .

فالأمة المصرية ليست أمة بداوة تنوثب إلى الحرب لأنها باب الرزق
وطريق السلامة من الجار المعتدى أو الجار المخيف ، ولكنها أمة حضارة
مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ إلى الحروب حين تلجأ إليها لأنها ضرورة
لا يحصى عنها ونكبة لا تستهين بها إلا إلقاء لنكبة أكبر منها ، وأصعب عاقبة
من عاقبتها .

وهي لا تطيع حكامها كما يطيع البدوي زعيمه أو كما يطيع العسكر قائده :
إلى الحرب يارجال فاذا الرجال كلهم على أهبة القتال !

وإنما هي أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل وأصبح لها من
بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من
غيرتها على المال والثروة ثم هي أمة ذات أرزاق مطردة ومعيشة مستقلة
لا يعنيتها صلاح الحاكم كما يعنيتها صلاح الأرض والسماء والعوارض
والأجواء ، فاذا دعاها الحاكم إلى حرب لا تعنيها فذلك شأنه وليس بشأنها
وتلك خسارته وليست بخسارتها ، أما إذا أصيبت في عقائدها وموروثاتها
أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومرافقها فهناك يستعصى قيادها كأشد
ما يستعصى قيادة أمة ، وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول
عليها ، ولسعد رحمه الله كلمة بليغة في هذا المعنى قالها للإنجليز فلمست من
نفوس أذكيائهم جانب الحصافة وجانب الفكاهة في لمحة واحدة ، وجاءت
في موقعها وأوانها لأنها قيلت على آثار الحرب العظمى أيام كان تحضير الأروا
مع

شغلا شاغلا لكل من فقد عزيزاً أو شك في دين ، قال رحمه الله : « إننا لو استحضرننا اليوم روح يوليوس قيصر وسألناه عن الأمتين اللتين جشمتاه أكبر العناء وحرمتا عليه الراحة لقال لنا إنهما هما المصريون والإنجليز ! »
وتلك كلمة حق من كلماته التي تقرب البعيد وتجمع الأطراف المتفرقات في حروف معدودات .

ولا شك في أن هذا الخلق الذي امتزج بالفطرة المصرية هو باعث الحاكمين جميعاً إلى مجاملة الأمة في عقائدها والحذر من المساس بموروثاتها ومألوقاتها ؛ فمن لم يفظن من الحاكمين لهذه السياسة الرشيدة لم يعرف الراحة معها في سياسة أخرى ، ولم يأمن أن يزول حكمه ويفسد الأمر عليه فساداً لاصلاح بعده ، وكثيراً ما انتهت المجاملة بالحاكمين إلى التدين بالدين المصرى والتخلق بالأخلاق المصرية ، إذا كانوا من الغرباء

وقد حارب المصريون في جيوشهم المنظمة ولقوا في حروبهم أعداء ذوى بأس كالترك والعرب والروس ، فكانوا مثلاً في الشجاعة والنظام ولم يقل عدو قتال ولا عدو جنس أنهم نكوا عن مواقف الثبات والأقدام .

ولو أحصيت الثورات في تاريخ مصر القريب لما كانت في عددها دون ثورات الأمم التي اشتهرت بالتمرد ولم تشتهر بالاستسلام ، فقد ثار المصريون على الفرنسيين وثاروا على الترك والمتركين ؛ وثاروا على الإنجليز في نحو قرن واحد ، وكان للعقيدة والموروثات في معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصلحة والمرافق القومية أو الفردية .

وقدم العهد بالمدينة يتلخص في حب الأسرة واستقرار النظام البيتي على أساس بعيد القرار

فنحن لانستطيع أن نفهم كيف يكون المصرى محافظاً شديداً في المحافظة
مأثراً متأهباً للتمرد — إلا إذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجل ذلك

للموروثات والتقاليد ، فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها ، وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة أبدأ لصيانة موروثاته وتقاليده . وقد يبدو غير معقول في ثورته وهياجه لأن العهد بالناس أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلدين ، ويزيدهم استغراباً لها أن لا يجدوا تفسيراً لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع . فيقولون مدهوشين : أمثل ذلك الشعب الوداع المستقر يشور هذه الثورة لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الاطلاق ؟ والواقع أن الذى يشور هذه الثورة غالباً هو المحافظ المغرق في المحافظة ، لأنه لفرط محافظته ينسى المصلحة في سبيل العادات ولطول الكبت أثر في هذا الجنوح إلى التمرد كلما سنحت الفرصة التي تنطلق فيها الغرائز وتخرج فيها على القيود .

فالمصرى يستمتع بهذه الفرصة ويسترسل فيها إلى أمد بعيد ، لأن كبت العادات وكبت الخضوع الأعمى أمران لا يطاقان إلى زمن طويل ، فاذا سنحت المناسبة فقد يكون الكبت الذى تعانیه النفس من العادات الطويلة سبباً من أسباب التمرد والشذوذ ، وتلك نقيضة في النفس الانسانية تظهر أبدأ مع كل إفراط وكل استغراق .

إن المصرى لينسى كل شيء إلا وشائج الرحم وآداب الأسرة . وقد يسف المجرم إسفاف الخبث والنذالة أو يسف المسكين إسفاف الضعة والمتربة ، لكنه لا يزال في صميم نفسه ذلك الخلف المتحدر من أجيال وراء أجيال ، عاشت جميعاً في ظل الأسرة ، ودانت جميعاً بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيتية والأخلاق المصطلح عليها .

راقبت هذا الخلق في نفوس العلية والسفلة ، وفي نفوس الشرفاء والمجرمين ، فوجدته على قرار مكين في جميع هؤلاء .

وأردت — وأنا في السجن — أن لا يفوتنى سبر هذا الخلق في طبائع

اللصوص والفتاك والمخاتلين والأندال ومدمنى الخمر والسوموم فاذا هم كلهم
« بيتيون » فى طوية النفس ، يتمردون على القانون والفضائل والعظمت ،
ثم يقف تمردهم عند حدود العلاقات البيتية ، والعواطف التى تأصلت بين
الأعمار والاسنان على حكم الأبوة والنبوة والآخاء والقرابة فى الأدهار بعد
الأدهار ، فقلما يخطو التمرد خطوة وراء تلك الحدود

رأيت مرة طفلاً صغيراً من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر
ريثما ينقلونهم إلى سجن الأحداث فى الجيزة ، وكان هذا الطفل مع أقران
فى سنه ينتظرون الترحيل فى فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين
فمر به سجين من العائدين فى جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه
فى لهجة المسكنة الطبيعية التى يشعر بها الصغير فى غيبة أهله ، « جوعان !
فتمهل اللص العائد وقال له : وماذا أصنع لك يا بنى ؟ وانصرف آسفاً
فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك فى الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن
عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقة من الخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل
نصفه واستبقى لنفسه النصف الآخر ، ولو ضبطوه وهو يسرق الخبز لما
نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد

ورأيت رجلاً شيخاً نازلاً من درج المستشفى وهو لا يقوى على الحركة
ولا يجد الممرض الموكل به من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع
لم يتجاوز السادسة عشرة لا يدل مرآه على ضلاعة ولا على صحة سليمة ،
فشق عليه أن يبصر الشيخ المريض يتعثر فى خطاه ويئن من وجعه ، وتقدم
إليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياه حمله ، دون أن يكلفه الممرض
ذلك أو يخطر له انه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله

وتلاحى شيخ فان وقتى عارم مشهور بالشر والعريضة فى السجن وفى الحى
الذى يعيش فيه ، فسبه الشيخ سباً لا يطيقه من أنداده ولا يأمن من يسبه به
أن يستهدف لضربة قاسية ، فما صنع الفتى المسبوب إلا أن بدا عليه الدهش

والتردد لحظة ثم هز رأسه وقال لمن حوله : « أنظروا إلى الرجل الشائب يعيب ولا يخجل ، وقال للرجل الشائب : « لو غيرك قالها لقتلته ، ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبي ؟ »

ومن المشاهدات المألوفة في طرقات مصر أن ترى بائعا فقيرا يصطحب ولده الصغير ليأنس بصحبته ويخفف أعباء السعى والكسح برؤيته ومناغاته . ومن سائقي مركبات النقل من لا يخرج لشغله إلا ومعه وليده يجلسه في مكان القيادة ويتعجل الفرح بنموه وقيامه مقام الرجال في أشغال معاشه ، وأذكر أنني رأيت في بعض المنازل التي سكنتها طفلا لا يتجاوز الخامسة يقيم عند أبيه الخادم في المنزل بمعزل عن أمه التي تقيم في بلدتها مغضبة من زوجها ، فرثيت لطفل في هذه السن يفارق أمه ويحرم حنان الأنوثة وهو في أشد الحاجة إليه ، وليكني لم أثبت ان رأيت موضع عناية الخدم والباعة في الشارع كله : يلاطفه كل خادم أو بائع يعبر الطريق ويسألون عنه ليضاحكوه ويلاعبوه ، حتى أصبح « مدلل » الشارع والعبوته الحية ، وحتى ألف المقام وطابت له هذه الغربة ، وطفق بعض أصحابه الكبار يضايقونه بذكر البلد والسفر إليه فينفر أيما نفور

وقد أنكر الغريون ما أنكروا من مقام المرأة في الحياة الشرقية وقاسوا كلامهم عنها بمقياس الحقوق المدنية أو الحقوق السياسية التي كثرت حولها الجمعية بينهم على غير طائل ، ولكن الذي نعرفه نحن ويعرفه كل مطلع على أحوال البيئتين المصرية ان مقام الأمومة فيها مكروه الجانب مرعى المكانة في البيوت كافة والبيئات قاطبة ، وان الأم المصرية تنعم بين أبنائها وآلها بمنزلة يغبطها عليها الأمهات في بلدان المغرب والمشرق

فالاسرة عظيمة الشأن في آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ ، ولن يتجرد المصري من عواطف الارحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وآصرة دانية أو قاصية ، وذلك هو قوام العرف الاجتماعي في أخلاقه

وعلاقاته ، وهو أيضا قوام « المحافظة المصرية » التي تحب الالفة وتعرض
عن البدع والخوارق

والوصايا باتخاذ الاسرة معروفة في الأدب المصرى منذ آلاف السنين .
ففي وصايا « فتاح حوتب » التي كتبت قبل أكثر من ستة وأربعين قرنا
يقول الوزير لتلميذه : « إذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب
قرينتك الحب الجميل . وأطعمها واكسها وطيب أوصالها ، وأدخل السرور
على قلبها طول حياتها »

ولم تُنس الوصية بتوقير الاسرة وصلة الارحام بعد ذلك كلما كتبت
الوصايا في العهد القديم ، ففي نسخة من وصية « عانى » محفوظة في مخطوطات
الاسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم : « اتخذ لك زوجة في شبابك
لتنجب لك ولدا تربيه وأنت في صباك ، وتعيش حتى تراه في عداد الرجال .
وما أسعد الرجل الذى له عشيرة كبيرة ! ان الناس يوقرونه من أجل بنيه »
وفي هذه الوصايا يقول الحكيم : « ضاعف لأمك خبزها واحملها كما
حملتك ، لقد أثقلتها وما نبذتك ، وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك ،
وظل ثديها ثلاث سنوات في فمك ، ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط :
ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك إلى المدرسة تتعلم الكتابة ، ووقفت لك بالخبز
والشراب كل يوم تنتظرك . واذكر إذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف
ولدتك أمك وكيف ربتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة ، عسى أن
لا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها إلى الله بالدعاء عليك ، ولا يستمع الله
منها الى شكاية »

فهذه الرحمة « البيتية » قديمة لم تتغير في الزمن الحديث ، ومن عظم
الراقة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم إلى ثلاث سنوات كما يفهم من هذه
الوصية ، وأن الراقفة في تلك الأجيال السحيقة لغربية ولو كانت راقفة
الآباء بالبنين

ومن الأخلاق التي تلازم حب الأسرة ومثانة الوشائج البيتية غيرة
الزوجية وصيانة العرض واستهجان التفريط فيه لبلوغ مأرب واثقاء سطوة ،
فيروض المصري نفسه على الضنك والرهبة ولا يروض نفسه على بيع العرض
وابتذال البيت ، وينبغي هنا التفريق بين عرض وعرض والتميز بين غيرة
وغيرة . فإن البدوى مثلاً ليأبى أن يبدل عرضه ويشور على من ينتهك حرمة ،
ولكنه يأبى ذلك كما يأبى أن يداس عليه مرعى الأبل ومورد الماء ، ويغضب
للزوجة وكأنه يغضب في منافرة أو مصاولة ، لأن اعتداء المغير على زوجته
هو عنده بمثابة هزيمة في حرب أو نكوص في مجال صراع . أما المصري فغيرته
على عرضه من نوع آخر ولعلة أخرى : إذ هو يغار على الزوجة اعتزازاً
بصداقة متينة وأرحام أمينة ، وضناً بملاذ ألفة وسكينة ومأوى سعادة وطمانينة ،
وانه ليغضب للزوجة وكأنه يغضب لقراءة تقطع أو محراب يهان ، وهذا
هو الفرق بين الغيرة التي منشؤها أدب الأسرة والغيرة التي منشؤها أدب
القتال .

فالمصري اجتماعي من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعي
من ناحية انتظام العادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظام الاسر
والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية ،
وهو ارتباط أقوى في نفسه جداً من ارتباط النظام السياسي والمراسم
الحكومية . فلم تكن الحكومة في تلك الأزمان الطويلة لتمتج بنفسه قط امتزاج
الألفة والطواعية والمعاملة المشكورة . بل ربما كان صدوده عن الحكومة بما
ضاعف اعتماده على الأسرة وحصر عواطفه الانسانية في علاقاته البيتية ،
لأنها ملجأ خفيض ومهرب أمين من القسوة والمظالم ، وغاية ما يخامر من
أمر الحكومة أنها شيء يدارى ما استطاع له المداراة ، ويستفاد من سطوته
وجاهه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس بارضائها بالهدايا والمجاملات في غير

حفيظة ولا استكراه ، ولا عجب في هذا الشعور المبهم في زمن كان الناس فيه يعبدون آلهة الشر ويتزلفون اليها بالصلوات والقرابين ، فعلاقته بالحكومة على الأغلب الأعم هي علاقة عداوة مريبة أو مهادنة محتملة ، لم تبلغ ان تكون علاقة ود يحرص عليه أو ضمان يحميه الا في الندرة التي لا يقاس عليها . ومن ثم كان محافظا ومتحفزا للتغيير في وقت واحد ، أو كان محافظا في مسلكه الذي يدور على أصول الاسرة وعلاقات الرحم ، متمردا في مسلكه من ناحية الشؤون السياسية والمسائل الحكومية ، ومتى جد عليه جديد الاصلاح فلن يفلح عنده ولن يظفر منه بالترحيب والموافقة الا ساعة يمتزج بنظام البيت والاسرة ويتسرب إلى حياته من باب عواطف الأرحام ومناظرات المنازل ، والافلا أمل لاصلاح في توفيق لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن المصري ضعيف الاهتمام بالسياسة أو أنه مصدوف عن تتبعها واستطلاع أخبارها وماجرياتها ، وأنه قليل البصر بمدخلها ومخارجها ، فان الواقع قد كان على خلاف ذلك بل على نقيضه في عصور كثيرة ، والمشهور عن المصريين أنهم من أشد الأمم شغفاً بأحداث الدول وعناية باستطلاع أحوال الحكومات ، وقد يسرى بينهم شعور ملهم بدخائل الأغراض الخفية واتجاه الخير واتجاه الشر في الخصومات السياسية ، لما تعاقب عليهم من التجارب وتوالى على أسماعهم من أحاديث الصاعدين والهابطين والمقبلين والمدبرين ، فاذا قيل إنهم اجتماعيون من قبل الاسرة وليسوا باجتماعيين من قبل الحكومة فليس معنى ذلك أنهم لا يشتغلون بالسياسة ولا يأنسون لحديثها ، وإنما معناه ان اشتغالهم بها في العصور القديمة لم يكن يتعدى جانب التحرى والاستطلاع إلى جانب الخلق والتكوين وإذا بدا على المصري أحيانا أنه ينقاد في السياسة فليس معنى ذلك أنه لا يفهم . بل معناه أنه ينقاد لأن الطاعة أشبه بنظام الاسرة من جهة ، ولأن أزمة الركود الطويلة من جهة أخرى ليس من شأنها ان تبعث روح الابتداء

والاقتحام، فالبقاء في الصفوف أيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق، وهو حتى في ثورته يريد أن يرى الصفوف حوله ولا يريد أن يعتسف الطريق وحده، وكلما غلبت فيه نزعة الابتداء والاقتحام بغلبة الحرية والاستقلال — قلت فيه عادة الانقياد الاجتماعي أو قل فيه النفور من المخاطرة والأفراد.

وبما لا شك فيه أن الحضارة المصرية كانت منذ عهد عهد حضارتين متجاورتين: إحداهما لأصحاب السيادة والأخرى للسودين الخاضعين، وقد زعم بعض المؤرخين أن السادة والمسودين كانا جنسين مختلفين وعنصرين مستقلين، وحدثاً رأينا أن ذوى السيادة بين المصريين كانوا من بلاد شتى وأجناس عديدة، بعضهم ترك وبعضهم عرب وبعضهم غرباء من صنائع الفريقيين، وبعضهم مصريون من أصحاب النباهة واليسار، ويجب أن يحسب لذلك حسابه في اختلاف المشارب والأخلاق وتباين الميول والملكات، إلى أن يتم مع الزمن امتزاج هذه العناصر كما امتزجت عناصر غيرها، في كل فترة من فترات التاريخ.

والذهن المصرى العريق ذهن عملي واقعي سهل المنطق واضحه في نظرتة إلى الدنيا وحكمه على الأشياء والناس، شأنه في ذلك شأن أبناء الأمم الزراعية عامة.

فالأرض والغلة والنيل والفيضان كلها من الوقائع المحسوسة المطردة في قياس العقل بغير توثب في خيال ولا جماح من خاطر، وهى تتصل بعالم الغيب اتصالاً بسيطاً لا يحوج صاحبه إلى التخيل والتغلغل، وإنما يحوجه إلى التدين والايمان والانتظار في شئ من التسليم. ثم يتوطلد الايمان والتسليم مع توطد الكهانة وتوطد الموروثات والعادات، فيسلس ما جمع ويستقر ما اضطرب ويجرى على نمط هادى من التفكير والنظر المحسوس. ولهذا خلق المصرى القديم عالمه السماوى فخلقه عالماً أرضياً آخر على غرار هذا

العالم الأرضي المشاهد بالعيان ، يأكل فيه الانسان ويشرب ويستعد له بزيادة من طعام هذه الدنيا وبمتاع وآنية من متاعها وآنيتها ، ويحتفظ له بجسده من العطب لأنه سيعيش هناك كما عاش هنا ، ويكون بعد الموت كما كان في الحياة ولهدوء العقيدة المصرية واستوائها وحضارة الامة التي تعتقدها وعذوبة طبعها وإيناس عشرتها قد سلم الدين في مصر من لوثة العصية العمياء وقسوة الهمجية الرعناء ، وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية والضغائن الدينية ، إلا أن يتسلل اليها ذلك من طائفة غريبة أو نحلة دخيلة ، وقد سلم الدين المصري من لوثة الضحايا البشرية كما سلم من لوثة التعصب والضعينة ، فلم تؤثر عن المصريين في أقدم عهودهم شعائر التضحية بالآدميين ومناسك التعطش إلى الدماء . وكل ما حدث من التضحية الآدمية في عهود التاريخ القديم فانما هو الفتك ببعض الأسرى قبل أن تفرض حماية الأسرى في آداب الحروب ، ولا يحسب هذا من الشعائر أو المناسك التي يفرضها الدين ويجرى عليها عرف المعابد والكهان

والمصري عامل في حياته كما هو عملي في النظر إلى الحياة ، يخطئ كنهه من يقرفه بالكسل ، ويجمله كل الجمل من يعزو اليه الركود وبغض الحركة ، نعم أنه يألف أرضه ويسكن إلى تربة وطنه ولا يخف إلى هجرتها كما يخف إلى الهجرة سكان البلاد التي لاصلة فيها بين المرء وتربة وطنه ومعاهد بلاده . إلا أن عذره في ذلك هو عذر جميع الأمم التي تعيش من الزراعة وتتصل العلاقة بينها وبين أرضها ونباتها ، فأما أنه يعمل ويصبر على العمل فتلك خصلة مشهودة يراها فيه رأى العين كل من شاهد الفلاح ينهض من الفجر للحرث والسقى والبذر والجنى فلا يفرغ من عمله قبل الغروب ، إلا أن تكون غفوة القيلولة في حمارة القيظ ، وهو يفعل هذا ويدمنه في مواعيته ولو كان هو مالك أرضه وزارعها ، بلا تكليف من سيد أو مستأجر

ولقد صبر المصري على العمل والمشقة ، ولقد عودته المواسم الزراعية أن ينتظرها كل شيء في أوانه ، ويربط كل أمل بأجله ، فهو من ثم صبور طويل البال ، فيه اثارة من « القدرية » وانتظار الغيب وقلة استعجال المقادير ، وله في هذا المعنى أمثال وحكم يتفق فيها عصر الفراعنة وعصر البخار والكهرباء ، أو يتفق فيها الأناة وعصر السرعة والوثوب

وشعار المصري في الخصومة : « اصبر على جار السوء يرحل أو تجيء له داهية » فهو صبور مسالم لا يعجل بالشر ولا يتفزز إلى الانتقام ، بيد أنه يصبر لينتقم ويصبر على المكايدة والنكاية كما يصبر ليرى عدوه راحلا عنه أو مصابا بدهاية على يد غيره ، ومن الصبر وكتمان الغيظ ذلك اللدد الذي لا ينسى الخصومة ولا يقنع في الثأر بما دون الاصماء والايجاج ، وشأن الأسرة في خصوماته كشأنها في جميع عاداته . فان عداوات الأسرة ومنافساتها لمهي التي تدفع به إلى القتل وحرق الزرع وتسميم المشاة دون العداوات التي تغلب عليها الصبغة الفردية أو الصبغة العامة ، فيندر أن يقع انتقام فاجع في الريف خاصة إلا لمحت فيه أن « ابن فلان » يثار من « ابن فلان » وقلما يحدث أن هذا الفرد على حدة يثار من ذلك الفرد على حدة ، بغير نظر إلى القرابات والمنافسات

وهنا أيضا مجال تتبين منه الفرق بين تأصل الاخلاق الاجتماعية من ناحية الأسرة وتأصل الاخلاق الاجتماعية من ناحية النظام السياسي في نفوس المصريين ، فالمصري لا يحجم عن خطر في سبيل الخصومات الأهلية من بذل المال إلى بذل الحياة ، فاذا احتمل من الحكومة ما ليس يحتمله من غيرها فليس انصافا ولا تمحيصا أن ينسب ذلك إلى الجبن والفتور ، وانما الفرق الصحيح أو الفرق الأهم أنه لا يشعر بالنظام السياسي كما يشعر بالأسرة ، ولا يعيبه الخضوع للحكومة في نظره أو نظر منافسيه كما يعيبه الخضوع لخصم

بيته وأقربائه ، وما لم يتساو الأمران عنده لا يحق للنصف أن ينسب احتماله
إلى جبن أو فتور

وقد اشتهرت « النكتة المصرية » بين جيران مصر وعرف المصريون
« بالتنكيت » في الزمن القديم كما عرفوا به في الزمن الحديث ، حتى قيل إن
الرومان حرّموا عليهم المحاماة في محاكم الاسكندرية ، لأنهم كانوا يغضون
من هيئة القضاء الروماني بالمزاح والدعابة ، في أثناء الدفاع وشرح القضايا ؛
وليست اللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة بالخصال
المستغربة في أمة قديمة الحضارة عريقة الآداب منصرفة في أكثر الأحيان
إلى السلم والمعيشة الوادعة ، وأخلاقاً بهذه الخصال وحدها أن تكون ينبوعاً
فيأضاً للنكتة ولباقة التعبير في الجد والهزل على السواء ، فإذا أضيفت إليها
عبر الأيام ونقائض التاريخ وأطوار الحوادث المتعاقبة ففي ذلك مدد للفكاهة
لا ينضب ، وإغراء بالترويح عن النفس لا يزال يهديها إلى التبسط والمزاح
لذلك كان المصري مزاحاً بحكم لباقة الاستفادة من قدم الحضارة ، ومزاحاً
بحكم الحوادث التي تلجئه إلى التخفيف وقلة الاكتراث ، ومزاحه في جميع
الأحوال متمم بالصبغة المصرية ، مطبوع بطابع إقليمه وتاريخه ، بحيث ينم
على خصائصه الفكرية والنفسية ويميزه نمطاً وحده قليل النظائر بين أنماط
الفكاهة والتنكيت .

والنكتة كما يعلم القراء إما نكتة دعابة أو نكتة تهكم ، وفي كلتا الحالتين
تتميز للمصري دعابة تشبهه ، وتهكم يناسب طبيعته وتاريخ بلاده
فأما الدعابة فهي تقوم في الغالب على إدراك النقائض وملاحظة المفارقات
ويختلف فيها الناس باختلافهم في التفكير والشعور والنظرة إلى الحياة .
فالعاملون الحسيون يدركون النقائض بين الأشكال والصور ويوجهون

التفاتهم إلى المشابهات اللفظية والتجنيسات المعنوية ، التي لا تمعن في التعمق
ولا في التفتيش الخفي عن الأسرار

والخياليون المتعمقون على خلاف ذلك ينصرفون عن الأشكال والصور
إلى ما وراءها من نقائص الأسرار ودخائل الاحساس والعاطفة الخفية ،
فيقل في نكلتهم جناس اللفظ والالتفات إلى المحسوسات ، ويكثر فيه
جناس البداءة البعيدة ، والالتفات إلى الأسرار العويصة

ومن البديه أن النكتة المصرية لن تكون في جملتها إلا نكتة
محسوسات لا تهادى في الخيال ولا تتعلق بالغوامض ، لأن أصحابها قوم
عمليون حسيون يقيسون الأمور بمقياس الوقائع والتجارب العيانية
أما التهمك فأنت خليق أن تعرف أخلاق الأمة بمخاديفها من عرفانك
بأسلوبها في تهكمها وسخريتها

فانك إذا عرفت ماتسخر به الأمة عرفت ماتجمله وتحوطه بالهيبية والكرامة
وتهكم المصريين كله مصبوب على الجلافة والغفلة ، فمثال الرجل الكامل
عندهم هو اللبق اليقظ الذي يتجنب الخشونة ويفطن للخداع والمراوغة فلا
تجوز عليه حيلة ، وأي شيء هو أدنى إلى الطبيعة المصرية وأشبه بالتاريخ
المصرى من التهمك على هذا الأسلوب !

فالجلافة في القول أو في التصرف هي أول شيء يضحك منه أبناء أمة قديمة
الحضارة مصقولة الحاشية تأنقت في الكلام حتى جعلته فنا كثير اللحن
والاشارات ، وتأنقت في الكياسة وآداب المعاملة والمعاشرة حتى جعلتها
فنا كثير المراسم والأصول ، لا يتقنه إلا من نشأوا عليه بالترية والمرانة

أما الغفلة فالمصرى يزدريها ويزدري من يقع فيها ، لأن الحوادث
والمظالم قد أحوجته إلى الحيلة وحسن التخلص ، واضطرته إلى التصرف بين
الناس على حذر وكياسة توافق مصلحته وتليق بأدبه ، وجاءه المرتزقة من
أبناء الأمم المشتغلة بالتجارة وترويج السلع الغربية فأحوجوه مرة أخرى إلى

الحيطة واليقظة واجتناب الغفلة ، لأنهم كانوا جميعاً قنّاص كسب لا يتورعون
عن خطفه واختلاسه بكل وسيلة ميسورة ، ولا يزالون محميين مرعيين وهو
بينهم فريسة مباحة الذمار ، لا تأوى إلى حماية ولا تعدل على رعاية

وقد زار مصر رجل انجليزي هو روبرب كرزون صاحب كتاب
« الأديرة والمعابد » في شرق بحر الروم قبل قرن على التقريب ، فوصف
أخلاق بعض الباعة المخادعين الذين ابتلى بهم المصريون في ذلك الحين ، فقال
إنهم على الجملة أنذال يتفاخرون بالختل والاحتيال ، وان هناك بيانا صحيحا
لنصيب كل طائفة من القدرة على الغش والسرقة يدل عليه هذا التقدير
« فلا بد من أربعة أتراك لخداع أفرنجي واحد ، ولا بد من أفرنجيين
متعاونين لخداع أغريقي واحد ، ولا بد من أغريقيين مشتركين لخداع يهودي
واحد ، ولا بد من ستة يهود معا لخداع أرمني واحد »

وهؤلاء كلهم كانوا في العصور الوسطى وما بعدها مسيطرين على المصري
الأعزل ، يزيفون له البضائع القريبة ويخدعونه عن قيمتها وعن درجتها وعن
ثمنها وعن حاجته إليها ، بعد أن قضى العصور وراء العصور محتاجا إلى
الحيلة والكياسة لا تقاوم ظلم الظالمين وغضب الغاصبين ودسياسة الدسائين .
فليس بعجيب بعد ذلك كله أن يزدري الغفلة وأن يجعلها هدفا لتهمه وغرضاً
« لقوافيه » وقفشاته

ولقد يكون ولعه بالكناية — بل إفراطه في حب التورية والجناسات
اللفظية — ناجما من هذه الحاجة إلى الكيافة في التعبير واللباقة في إبلاغ
الأشارات والتلميحات إلى المعنيين بها من السامعين

ولم يظهر حب اليقظة والزراية بالغفلة في النكتة المصرية وحدها ، بل
ظهر في جميع الآثار الفنية التي تعبر عن معاملات الشعب ومعايشاته ،
فامتلاّت القصص والنوادر بكلمة « الملاعيب والمغازز » وازدحمت بأفانين
الشطار والعجائز الماكرات في نصب الفخاخ والأشراك كما ازدحمت بأفانين

الأذكياء والظرفاء في اجتناب ما ينصبه من فخاخن واشراكهن . فكان مدار
القصة والنكته معا على الغفلة واليقظة أو على الجلافة واللباقة ، وكان في
هذه وتلك مجال واسع للانتقام من الحكام ، الذين يصلون بالسلاح والبأس
وهم فيما وراء ذلك أجلاف مغفلون !

ويخيل لي أن النكته المصرية والنسك المصري أخوان توأمان أو
صنوان يتجاوران ، فالنفس المصرية التي أرهقتها الحضارة ودمتها المؤانسة
وصقلتها المعيشة المنتظمة لن تستغنى عن ملاذ تسكن اليه كلما اشتد عليها الجور
وضاقت بها مفاصد الحياة العامة ، فاذا غلبت على المصري محبة المتعة والنعمة
الرخية فلاذ النكته والفكاهة ، يروح بها عن نفسه ويفرغ فيها جعبة
ضميره . وإذا غلبت عليه الصرامة وقلة الصبر على الفساد جنح إلى النسك
والزهادة وعمد إلى الرهبانية أو الدروشة كما فعل مرات كثيرات في عهود
الديانتين المسيحية والاسلامية ، أما إذا سنحت فرصة التمرد والانتفاض
فالثورة ملاذ لا ياباه صاحب المتعة ولا صاحب الصرامة

وقد رجحنا أن النسك المصري والمزاح المصري أخوان توأمان ،
لأنهما يدوران معا على الاستخفاف بسوء الحال واليأس من صلاح الأمور ،
وإنما يستخف أحدهما بحاله فيهمجره ويعزف عنه ، ويستخف به الآخر
فيأخذه على هينة ويسخر به لكيلا يجهد نفسه بهمجره وكفاحه ، فليس
المصري بناسك على طراز ذلك النسك اليابس العقيم الذي يجهل الحياة
ويقابلها بالنفي والانكار ، ولكنه ناسك حين يكون النسك « عملا إيجابيا »
يقاوم الشر ويود صاحبه لو يقرر الخير في هذه الحياة ، وليس بالمستطيع

وأشبه بهذا أن يضاف إليه ما كتبناه في مقال « معبد ايزيس » عن
الطبيعة المصرية حيث قلنا منذ بضع عشرة سنة : « كلما اقترب الموكب الضاحك

من جيرة المعبد بدا لنا منظر عجب : ههنا شعب يطير حول السرور طيران
الفراس حول النور ، وههنا معابد تسكن فيها حركات النفس وتركد فيها
نسمات الحياة . وهذه المعابد تقيض ذلك الشعب وعلى خلاف سمته وسنته
ومن واد غير واديه الذي يهيم فيه ، فكيف مع هذا كانت معابده التي يذ كر
فيها ربه ويعكس عليها ظل العالم في نظره ؟ ويشكو لديها ما يلقاه من أمور
دنياه وحظوظ حياته ؟؟ أليس هذا من التناقض الحقيقي بالعجب ؟؟ أليس
هذا الشعب المستبشر قد كان أولى بغير هذه المعابد الكاسفة الواجمة ؟؟

أما التناقض فلا شك أنه ملحوظ لكل ناظر ولكن في ظاهر الأمر
لا في باطنه . فالحقيقة التي يهتدى اليها المتأمل ان هذه المعابد خلقت لهذا
الشعب ، وان هذه الجهامة لازمة لتلك الطلاقة ، وأن الشعب الذي يملك
حسه السرور ويسهل استخفافه للطرب وانتقاله إلى المجانة ليس يصلح له
معبد فيه أثر من الطرب والبهجة ، وليس ينقله من عالم اللهو الى العالم الالهى
منظر عليه مسحة من الطلاوة والبشاشة . فلا بد له إذن من جهامة تخيم حوله
على كل شيء حتى يثوب إلى مقام الخشوع والضراعة ، ولا بد أن ينسى كل
ما يذكره بالهزل والخفة ساعة يغشى محراب العبادة ، كالطفل اللعوب لا تعلمه
أن يهابك ويتحامى التأديب منك باللعب معه والتطلق في كلامك له ، وانما
يتعلم ذلك بالاحتجاز والجد أو بالقطوب والجفوة

من مثل هذا جامت الصرامة البادية على معابد المصريين وتطرفت
الشدة إلى شعائرهم الدينية ، وبلغ من حاجتهم أو من رغبتهم فيما يذ كر بالحزن
ساعة الصفو والرغد انهم كانوا إذا اجتمعوا في ولائمهم وظهر السرور على
وجوههم وأخذوا في الرقص والمعاقرة وأمعنوا في القصف والمسامرة خرج
عليهم العبيد بجثة مخنطة في ناووسها ففروا بها بين الموائد وعرضوها على
الضيوف والندماء لينظروا اليها ويعتبروا بها ، ويذكروا مصير ما هم فيه من
نعيم زائل ولذة عاجلة

ولا يفوتنا أن نقول إن المصرى إذا سر فانما يملك السرور حسه ولا
يغمر نفسه ، فهو لا يألف السرور الصامت القرير ولا يعرف إلا التهليل
والابتهاج أو السكون والخواه . لا تسر نفسه وجسمه ساكن ولا يسكن
جسمه وأمامه محرك للسرور أو مذكرة به ، وكيف يطيق من كان هذا طبعه
أن يجمع بين التعبد وشيء من بوادى الصفو وبشائر الحياة فى أما كن عبادته
ومناسك دينه ؟ ثم إنك أن أردت أن ترد المصرى إلى طبعه وترى حقيقة
المناسبة بينه وبين معابده فانظر إليه حين يفرغ من سروره الذى يستحوذ
على حواسه ويستخف أعضاء جسمه ، فانك تراه واجماً مقفر النفس بادية
الظلمة هامد العاطفة ، ويذكر أول شيء بالمعبد المصرى القديم الذى نستغربه
ونعجب أن يكون محل صلاته وباب دنياه الآخرة . فاذا هو هو فيما يقيم على
ظاهره من الكآبة والخوف ، ويرين على باطنه من الظلام والتسليم

ولنعلم أن المعبد المصرى فى العصور الأولى هو قرين المقبرة وصنو
الموت ودهليز العالم الأخير ، ثم لنعلم بعد ان الموت عند قدماء المصريين
هو هجعة الحس إلى حين وراحة الجسم إلى أجل ، ثم تعود الروح إلى هذا
الجسد الأول كما كانت قبل بعثها من عالم الأموات

ومرادنا بذلك أن نقول : إن الجسد جزء من الانسان لم يكن يستغنى عنه
فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ولا يجوز أن يهمل فى حالة من الحالات أبداً .
فما كانت تعرف للنفس حياة بغير هذا الجسد ولا كان يفهم لها سكون أو
حركة بغير سكون الجسد أو حركته ، فاذا أرادوا أن يحملوا النفس على
الخشوع والتطامن فسيبيلهم أن يتقدموا إلى ذلك باستئسار الحس وإحاطة
الأعضاء بما يكف من نشاطها ويغل من حراكها وينسيها أبراً مرخصات
الحياة وأبعد موحيات الطرب ، وأن يدخلوا العابد المصلى فى برزخ بين الحياة
والموت وجسر بين الدار والقبر . . . وما ذاك إلا الهيكل القديم كما بناه

المصريون لأنفسهم أو كما بنته لهم الطبيعة التي لا تخطئ لها هندسة ، ولو بنت
بأيدي الخاطئين «

تلك خطوط عاجلة لخصائص « النفس المصرية » كما ترى بعين الواقع
لا كما ترى بعين الغرض والخرافة ، وهي خصائص إنسانية تقترن بالقوة
فتعد من أقوم وأفضل ما عرف عن أخلاق الشعوب ، وتقترن بالضعف فتسوء
وتنغل . ولكن نظيرها في مساوي الضعف بين شعوب العالم ليس بقليل

Saad = Strong

ع (Eyes)

و
ن
ال
ن

أصل سعد

fanais

بعد الأوهام التي شاعت عن الطبيعة المصرية وناقشناها في الفصلين السابقين يسهل علينا أن نفهم لماذا يشك بعض الناس في انتساب سعد إلى الأمة المصرية، لأنهم يستكثرون أن ينبغ رجل كسعد في مضاء عزيمته وعلو همته وصراحة رأيه، في أمة شاع عنها ماشاع من تلك الأوهام

ومن عجائب العظمة — والعظمة كلها عجائب — أن يتناول الخلاف في أمر زعيم الوطنية المصرية كل شيء حتى نسبته إلى تلك الوطنية، ولعله لو لم يتبوأ مكان الزعامة منها لأصبح في نظر المتقولين مصرياً لا نزاع فيه !

وسيرى القراء من الفصول الأخيرة في هذا الكتاب أن مزايا سعد جميعها كانت مزايا « المصري القوى » بلا استثناء خصلة من الخصال ولا خلة من الخلال ولا عمل من الأعمال . فهو في خلائقه العملية وفكاهته الحاضرة واعتداده بالأسرة وكرهته للغفلة وإيمانه بالغيب مصري فلاح من طينة المصريين الفلاحين : طبيعته هي طبيعة الفلاح في صورة واسعة وأطار كبير ، وطبيعة الفلاح هي طبيعة سعد في صورة ضيقة وأطار صغير أو منحرف بعض الانحراف ، ولكنهما على نموذج واحد في الوضع والصناعة .

وإن شئت التقريب بتشبيهه « فلاحى » فقل إن كل فلاح في مصر إن هو إلا جدول صغير إلى جانب ذلك النيل الكبير ، يخالفه في طوله وعرضه وعمقه واتجاهه ؛ وقد يخالفه في الركود والحركة والتغير والنقاء ، ولكنه لا يخالفه في أصل المورد ولا في عنصر الماء .

يبد أننا نلتفت إلى الأقاويل التي قيلت عن أصل سعد لأنها جزء من تاريخه ، ومن الواجب علينا أن نعرف منشأها وسبب ورودها على بعض

الخواطر ، وأن نعرف مبلغها من الصدق والشبهة ، لتأخذ حقها من العناية
وقد اتسعت مسافة الخلف بين أقوال المتقولين وفروض الفارضين
اتساعاً يدل على ضعف الأسانيد والظنون التي يعتمدون عليها . فبعضهم
ينسبه إلى المغول أو الترك وآخرون ينسبونه إلى البدو أو العرب ، وغير
هؤلاء وهؤلاء ينسبونه إلى المغرب أو إلى القبائل البدوية التي ذهبت من
مصر إلى المغرب في الفتوح الإسلامية الأولى ثم قفلت راجعة بعد جيل أو
جيلين ، بعضها إلى الصعيد وبعضها إلى إقليم البحيرة وما جاوره من إقليم
مصر الشمالية

والأجانب هم الذين ينسبونه إلى المغول ومن يدخل فيهم من العناصر
التركية ، وقد لمحت « التيمس » إلى ذلك تليحاً عارضاً في خلال كلامها عنه
بعد وفاته ، فقالت : « إنه كان طويل القامة نحيل البنية عريض المنكبين
أسمر اللون مع شيء من الصفرة وعظماً خديه بارزان ، وعيناه ضيقتان ،
فكان له في ذلك مسحة من سيماء المغول »

ونعتقد نحن أن أبعد شيء عن الحقيقة هو هذا الفرض الذي لا يستند
إلى غير هذا « الشبه » المزعوم ، وليس هو مع ذلك بالشبه الصحيح .
فإن ملاح سعد لا تذكر أحداً بالملاح التركية ولا سيما شكل الجمجمة
المستطيل والأنف المنفرج ، وأسماء الأسرة كلها ليس فيها اسم واحد يشبه أسماء
البيئة التركية التي لا يعقل أن تنسى أسماءها وتندمج في عنصر الفلاح كل هذا
الاندماج بعد جيلين أو ثلاثة . فسعد الله وفتح الله وفرج الله وشلي وستهم
والشناوي وشعث واسم زغلول نفسه هي من الأسماء التي لا تمت إلى البيئة
التركية ولو بعد أحقاب . وقد تكون فيها مشاركة للتسمية البدوية ولكنها
لا تشارك الأسماء التركية من قريب ولا بعيد

أما الذين ردوا أصله إلى البدو والعرب فشبهتهم في ذلك هذه الأسماء ،
وأن أباه كان يلبس الطربوش البدوي والنطاق البدوي ويحمل السلاح كما

يحملة زعماء البدو على خلاف عادة الفلاحين . ومن البديه أن هذه الأسماء شائعة بين الفلاحين كشيوعها بين العرب ، فليس فيها دليل ولا مظنة دليل . أما لبس الطربوش والنطاق فلم يكن هو لبس القبائل البدوية الأصيل وإنما لبسوه لأنهم كانوا يقلدون حكام العثمانيين ، كما كان يلبسه سروات البلاد جميعاً ومنهم كبراء القبط الذين لا يشك في نسبتهم إلى العنصر المصري العريق ، والذين يحتفظ أبناؤهم واحفادهم إلى الآن بصور لهم ظهرها فيها بالطربوش والنطاق والسروال كما كان يظهر الأمراء والحكام

وقد عثرت على نسبة قديمة لبيت من بيوت إقليم الغربية يسمى بيت الدباوية دلتى عليها السرى المعروف السيد عبد الهادى القصبى واهتدى إليها هو فى مراجعة بعض التركات . هذه النسبة تصعد إلى رجل يسمى السيد جبير « الكائن مقامه بمحلة الأمير بإقليم البحيرة بالبحر الغربى بناحية رشيد » وتصدق من ثم إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه . ومن فروعها رجل هو كما جاء فيها بنصه « من جملة عصابة البطل الهمام سيدى محمد الخشوعى الكائن مقامه بالبرلس بحارة الهزالان من أقارب أقاربه من حملة المائة ثمانين الشريف الذين توجهوا صحبته من مدينة فاس إلى أن أتوا معه بأرض مصر وكانت النصر على أيديهم وهما محبين للبطل الهمام بايعين أنفسهم فى الحرب والقتال » ويقول كاتب هذه النسبة : « ويرجع القول المفصل فى نسب السيد يوسف بن السيد عز الدين المذكور أعلاه أنه عقب ولده لصلبه السيد يوسف والسيد يوسف عقب السيد منصور والسيد منصور والسيد شاهين والسيد حسين . فأما السيد حسين عقب السيد محمد الأشعث وعقب السيد زغلول وتوجهوا ونزلوا بناحية مطوبس . فأما السيد محمد قطنى بقرية تسمى القنى وأما السيد زغلول قطن بعد مطوبس بالبيانات وكل منهم عقب رجالات . وأما السيد منصور والسيد شاهين توجهوا من البهنسة الغربى ونزلوا بإقليم الغربية وقطنوا بقرية تسمى سنباط الخ »

وأقوى ما في هذه النسبة أنها لم توضع لأسرة زغلول ولا لأسرة تدعى
القرابة منها في الزمن الحديث حتى يقال إنها وضعت لمصلحة الأسرة، ولكن
الاتصال « بزغلول » جاء فيها عرضاً، وجاء موافقاً للبعروف من أن جد
الزغلولين نزل في « إبيانة » أو في البيانات كما كانت تعرف في ذلك الحين .

كذلك يتفق ما في هذه النسبة وما هو معروف من طريق القبائل العربية
التي رحلت إلى المغرب وعادت منه إلى الصعيد الأدنى في المنيا وبنى سويف
والقيوم أو إلى الأقاليم الشمالية في البحيرة وما جاورها . ومن قديم الزمن
— إلى أبعد عصور الفراعنة — كان إقليم البحيرة مرتاد القبائل البادية التي
تردد في أفريقية الشمالية بين مصر وأقصى المغرب .

فهذا أقوى ما في هذه النسبة من مظنة، ولكنتنا لا بد لنا من الإشارة إلى
بعض مزاعمها ليقف القارئ على حظها من التحقيق في شتى المسائل . فمن
كرامات بعض سلالتها : « أنه أرسل نقيبها إلى مدينة فوة وقال له تتوجه
إلى أفندي فوة وتأخذ منه إذن على الحجر الذي في الوكالة الذي عليه الطلاسم
وتحلى الأفندي الكائن بمدينة فوة يرسل معك رجالا من أتباعه ينزلون لك
ذلك الحجر في المركب فان أجابوا بذلك يا ولدي فخذ وأحضر لنا به وإن
أبوا وتخلفوا ولم يسمعوا الكلام ويمثلوا إلى الفقير ولربه الخبير وإلا
يا ولدي ترجع من عنده إلى الحجر وتقف عند طرفه اليمين وتشير بيدك
يا ولدي وتقول له يا ولدي إن الشيخ يدعوك إلى منزله أيها الجماد وهو
يحضر لنا في ذلك فاذا كان البحر يا ولدي فاجلس فيه فانه يحضر لنا بك .
قال فتوجه النقيب فأبوا عن ذلك وقالوا له لانسلم لك في ذلك الكلام . فان
سلمنا فان الوكالة تخرب ، ولكن قل يا فقير إن كان أستاذك له كرامة فتقل له
يأخذ الحجر بشرط لا يؤذى وإلا لا يكون هذا الكلام . وإحنا لا نمنع
من ذلك ، فما كان أمر النقيب إلا أن توجه إلى الحجر حكماً ما أشار له أستاذه
ودعاه فها تم كلامه حتى انتقل الحجر من مكانه ولم يأذ البنا ونزل في البحر

وجلس النقيب عليه وتوجه إلى ناحية القبلة والناس بمجموعين عنده ينظرون
الخ الخ . «

وفي موضع آخر من النسبة « أما من كرامات السيد الشريف جبير كان
يطوى كل ثلاث سنين طيا صيام ومن جملة كراماته أنه كان يناغى الطير في
جو السماء والسمك في قرار البحار والوحوش من الأبقار وتتكاثر عليه
السباع وكل منهم ينخ لحضرة الأستاذ أن يركب عليه . . . »

وفيما بيناه من جانبي القوة والضعف في هذه النسبة الكفافية ؛ ولولا أن
اعتقاد هذه الكرامات لأصحابها لا يمنع وجود أولئك الأصحاب في تلك
البلاد لما تكلفنا الإشارة إليها

قال لي الأستاذ محمد زيد الأياني رحمه الله وهو من الثقة : « إن إيانة
تنقسم إلى ساحل وبرية . وفي هذه البرية - وهي الآن تابعة لكفر الشيخ -
ضريح ولي اسمه زغلول على قرب من سيدى غازى » قال الشيخ زيد :
وقد حضرت مجلساً فيه أشقاء سعد قدم إليه نقيب ذلك الولي وقال لهم : « تعالوا
خذوا نسبتكم من عندي » . فلم يحفلوا بأمره .

ومن هذا نعلم أن أسرة سعد لم تكن تعتد بذلك النسب ولم تكن تحتفظ
به من باب أولى . على أنه لو صح على علاقته لأثبت أن لسعد سلفاً في مصر
عاشوا بين أهلها وصاهروهم مصاهرة طويلة يرجع تاريخها إلى مئات السنين ،
فله بذلك عراقة في بيئة الفلاح لا تفوقها عراقة زعيم من أبناء الأمم الأخرى
في بيئة قومه . إذ ليس بين كبراء الإنجليز أو الفرنسيين أو الإيطاليين أو
الألمان من هو أعرق في الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية من
سعد في السلالة المصرية .

وقد خطر لي أن أسأل سعداً في صحة ما يقال عن نسبه المغربية فقال لي
وهو يضحك : « إن القصة كلها من وضع محام عتيق كان من أصحاب الحيل
الدفاعية والأساليب المستظرفة في « تخليص القضايا » على طريقة تلك الأيام

قال رحمه الله : « قبض علينا في بدء عهد الاحتلال ولبثنا في السجن زمنا بعد وضوح براءتنا وإبداء المحققين رأيهم الصريح بهذه البراءة ، وألح علينا بعض الصحاب أن نبلغ الأمر إلى الانجليز طلبا للافراج عنا فرفضنا ، فكان من الحيل التي لجأ اليها محامينا الأريب أنه التمس لنا أصلا أجنيا وكتب لنا نسبة مسلسلة كنا نحن اول المستغربين لها الضاحكين منها حين اطلعنا عليها بعد الافراج عنا ، وإنما لجأه إلى هذه الحيلة أن فرنسا كانت قد استولت على تونس وأخذت في ضم التونسيين المقيمين بمصر إلى رعاياها ، وكان بعض الناقمين منا يريد عقابنا وتلفيق الشهادات التي تلصق التهمة بنا ، ثم أرادوا أن ينفوننا إلى السودان بعد تهافت التهمة وظهور بطلانها ، ولم تكن النسبة المغربية سبب نجاحنا كما أراد محامينا جزاه الله ، ولكنها بقيت فكاهة تنذاكرها ويتحدث بها أصدقاؤنا ، وتخلفت منها تلك الاثارة التي سمعت بها ، ولا منشأ لها غير تلك النسبة الموضوعه »

ذلك هو رأى سعد في أصل النسبة المغربية ، وكل ما قاله سعد عن أصله يدل على أنه كان يعتبر نفسه فلاحاً مصرياً ولا يرضى بأن يسلكه أحد في غير زمرة الفلاحين المصريين

والعجيب أن الذين نعتوا سعداً بالفلاح لم يكونوا كلهم من أنصاره ، بل كان فيهم فئة من أعدائه لم ينسبوه إلى الفلاحين اعترافاً بزعامته أو تصحيحاً لنسبه ، ولكنهم جروا على عادة فريق من المتتركين ظلوا يترفعون عن طبقة الزراع ويحرصون على نسبتهم التركية ، حتى استقرت النهضة الوطنية في قرارها فغيرت شيئاً من تلك العادة

ويشبه ذلك في العجب أن الذين شكوا في نشأة سعد من سلالة مصرية صميمة لم يكونوا كلهم أعداء له أو أعداء لهذه الأمة ، بل كان فيهم فئة مصرية خالصة النسب صادقة الغيرة داخلها الحزن على أحوال بلادها والريب في غيرة اخوانها ، فضعف رجاؤها في مصيرهم ، ويئست على مضض أو كادت

أن تياس من فلاحهم ، وأصبحت وكأنها لا تصدق أن واحداً منها يرتفع إلى ذلك الأوج الذي ارتفع إليه زعيم مصر في نهضتها ، وينطوى على مثل تلك العزيمة الماضية والهمة الرفيعة والقدرة الراجحة ، فهي تشك في نسبة سعد إلى طبقة الفلاحين من فرط الاعجاب به وفرط الأسى على وطنها ، وتبدي ذلك الشك وبين جوانحها شعور الأب الذي يقول لابنه « إنه لن يفلح » وما يتمنى له من وراء قوله إلا الفلاح

وقد شاع بين الفلاحين أنفسهم المثل القائل : « إن الفلاح إذا تمدن يجر على أهله داهية » وهو فيما يلوح لنا من وضعهم لامن وضع الأجانب المتمصرين ، لأنه أدنى إلى السليقة المصرية بما فيه من روح الفكاهة والتهكم ، وإنه لدليل على ما صارت إليه حالة الأمة من الظل بنفسها قبل النهضة الأخيرة التي عاودت بها ثقها وكبرياءها ، وإن كان المثل في مغزاه لا يدل على تجرد الفلاح من القدرة وخلوه من دوافع الطموح

وينبغي للذين يستريون هذه الريبة ويحسبون الفلاح مخلوقاً للضميم والاستكانة أن يذكروا ثورة الفلاحين على الحكم التركي وثورتهم على الحماية البريطانية ، ككتاهما نشبت في جيل سعد بين شبابه وشيبه ، وكتاهما كانت ثورة قومية في سبيل الوطنية المصرية والسيادة المصرية ، وكتاهما قادها فلاح ابن فلاح وهما احمد عرابي وسعد زغلول ، وقد انتسب عرابي إلى السلالة النبوية كما كان يفعل كثير من المسلمين ، ولكنه على كل حال أعرق في بيئته المصرية من أكثر زعماء العالم في بيئتهم القومية ، ولم يكن في وسعه أن يصنع شيئاً بغير طبقة الفلاح ، حامل الفأس ولا بس الجلباب الأزرق

جيل سعد

جيل سعد هو الجيل الذي نشأ وترعرع فيه ، وهو أقرب الأجيال إلى جيلنا الحاضر ، لأن أبناء الجيل الحاضر قد شهدوا بعض سنواته وعاشروا بعض أبنائه ، وانساقوا لبعض عوامله وتأثروا ببعض مؤثراته . فهو من ثم أصعب علينا فهما من الأجيال التي بيننا وبينها فجوة بعيدة

لأنك ترى رأى العين ما يشبه جيلك وما يخالفه في وقت واحد . فلا تقول هو شبيه بجيلنا حتى تعود فتقول : هو على خلافه ، وتشك في المشابهة التي لمحتها بيننا وبينه . ولا تحاول ان تحصر الخلاف في مواضعه حتى تلتبس عليك وتمتزج أمامك بمواضع المشابهة والمقاربة . وكثيراً ما يكون الفرق بين جيلك والجيل الذي قبله فرقا بين ابتداء المرحلة وانتهائها لفرقا بين نحوين مختلفين أو مذهبين متعارضين . فأنت محتاج إلى مقياس واحد ومحتاج كذلك إلى مقياسين لاغنى لأحدهما عن الآخر . وهنا يكون التبلبل والتردد والضلال

وليس هذا كل ما يعترضنا من الصعوبة عندما نحاول الحكم على جيل متقدم علينا ، إذ نحن لانسى ان الأمم الشرقية قضت ردحا من الزمن تعجب بكل ما مضى وتنكر كل ما حضر ، وأنها تحولت من ذلك رويداً رويداً في أيامنا حتى انعكس الأمر فأصبح الغالب على الناس أن ينكروا كل ما مضى وينقلوا الإعجاب كله إلى الحاضر تارة وإلى المستقبل تارة أخرى

فقبل خمسين سنة كان الحكم على الأجيال السابقة من أسهل الأمور عن كل انسان ، لأن الأجيال السابقة كانت هي الفضلى في كل شيء ، والمقتدى بها في كل غاية ، أما اليوم فلا خوف من مجابة الماضي وتفضيله في غير مدعاة لتفضيل ، وإنما الخوف أن نجور عليه ونستصغره ونمسخ مزاياه ونرى غريباً فيه ما لم يكن بغريب

ومحل الصعوبة هنا أن أعداء الماضى وأنصاره لا يزالون كلهم فى قيد الحياة ، وأن منهم من هو عدو للماضى فى ناحية وصديق له فى ناحية ، فإذا تناولنا المقياس لتقيس به جيلا سبقنا ولم يعزب عنا بجميع مزاياه وجميع عيوبه ، فهنا لك أيضا تلبيل وتردد وضلال

والذى ننتهى إليه بعد طول المقابلة بين جيل سعد وما بعده إن ذلك الجيل — على نقص نصيبه من التعليم والتقدم — لم يخل من مزايا خاصة يرجح بها ما بعده رجحانا كان له شأن كبير فى نشأة سعد وأعماله فهو قبل كل شىء جيل ثقة ويقين متفق عليه ، سياتى فى ذلك عقائد الدين وأفكار العصر الحديث

اليوم لا يعرف الناس عقيدة من العقائد ولا مذهباً من المذاهب الا قد عرضوها مرات على محك النقد والتحليل

فما هو الخير وما هو الشر ؟ وما هو الحسن وما هو القبح ؟ وما هو الشرف ؟ وما هو الضمير ؟ وما هو الجور وما هو الانصاف ؟ كل أولئك قد تعددت فيه الأقوال وتناقضت فيه الحجج وتصادمت فيه العقول ، فمزقته الشكوك وتعذر فيه اليقين المتفق عليه

أما قبل ستين سنة فقد كان العرف من هذه الجهة على صراط مستقيم لا حيرة فيه : فالحلل بين والحرام بين ، وما يستحق النقد والتشهير من أعمال العلية الحاكمين أو غير العلية الحاكمين أمر مفروغ منه لا يقبل الشك والمناقشة . وربما وقع الخلاف على الرجل هل هو خير أو شرير ولكن لن يقع الخلاف على الخير أو الشر ما هو وما علاماته وما اشرطه ، ومرجع الرأى فى هذا وذاك الى القانون الدينى الذى كان سارياً بين المتدينين سريانه بين غير المتدينين

ولم يكن ذلك شأن القانون الدينى وحسب ، بل كان شأن المذاهب

العصرية والدعاية الشائعة يومئذ عن الحرية وحقوق الشعب ،
وحقوق الحكومة .

فكانت الثورة الفرنسية في جدتها ، ومبادئ الحرية والأخاء والمساواة
على أشدها ، وكانت في أذهان المستنيرين كأنها تنزيل لا يجوز فيه جدال ،
بل لم تكن أطوار الاجتماع وفلسفة الدراسات النفسية قد أخرجت للناس
تلك الدعاوى التي يستند اليها من يجادل الآن في مبادئ الحرية والأخاء
والمساواة ، فكانت حقوق الشعوب ومعايير الرجال والأمم قسطاسا لانزاع
فيه من جانب الدين ، ولا من جانب الفلسفة الحديثة ، والمذاهب
الاجتماعية السارية .

وفي أجيال الثقة واليقين التي من هذا القبيل يسهل تكوين العزيمة
وتعريف الحقوق التي تطلبها الأمة ، وتثور من أجلها وتدين من يخالفها

هذا وقد اجتمع لأبناء ذلك الجيل سببان لطلب الإصلاح : أحدهما من
داخل الأمة والثاني من خارجها

فأما السبب الداخلي فهو استفاضة المظالم واستفحال الخطوب ، وشيوع
الخراب والفساد في أعمال الحكومة ومرافق الرعية ، وتمادى الشر في ذلك
كله إلى مدى لا يطاق الصبر عليه فوق ما صبر الصابرون

وأما السبب الخارجي فهو انتشار دعوة الحرية في الغرب وتعاقب الأبناء
بالثورات على الطغاة ، ابتصافا للشعوب وذوداً عن حقوق الأفراد

هذا وذاك — مع الثقة بالحق وانتباه العقول في طور النهضة الأولى —
قد كان لها جميعاً أثر في تكوين جيل سعد وتزويده بالحمية والصرامة اللتين
لا غنى عنهما في عصور الوثوب والإصلاح

أضف إلى ما تقدم أن جيل سعد كان بمشيئته وبغير مشيئته — أقرب إلى الوطنية المصرية الصحيحة من الجيل الذي لحق به في أوائل عهد الاحتلال البريطاني . فقد كان جيل سعد يحارب طائفة من الترك والمتركين ، ويناضل في ميدان مشتبك بين عنصر الفلاح وعنصر الحكام المستأثرين بالمناصب المترفعين على سواد الأمة ، فكان من الطبيعي أن يناضل لمصر دون غيرها ويجعل شعاره في الوطنية ان « مصر للمصريين » وأن البلاد لأبناء البلاد ولمن لا يبرأون من النسبة إلى البلاد ، ولم يكن الجيل الذي لحق بالاحتلال ينحو هذا النحو في دعوته الوطنية ، لأنه كان يصطنع الحكمة ويختصر المسافة فيما يحسب حين يضرب الاحتلال البريطاني بالسيادة التركية ! فكان يصز على اتباع الدولة العثمانية اصرارا لا معنى له في دعوة ترمى إلى تحرير الأمة وتحقيق الاستقلال ، ولم يزل يمضى في طريقه الخاطئة حتى جاء سعد مرة أخرى في أعقاب الحرب العظمى فرد الأمة إلى وجهة قويمه . وجعل شعارها من جديد ان « مصر للمصريين » وأن البلاد لأبناء البلاد ، وتمكنت الروح الوطنية الصادقة بعد اضطرابها زمناً طويلاً حتى أصبحت السيادة العثمانية والسيادة البريطانية بمنزلة واحدة عند طلاب الاستقلال ودعاة الحرية ، فغنمت مصر غنيمة نفسية لا تقوّم ولا تنحصر فوائدها في النتائج المحسوسة ، ويكفي لتقويم بعض قيمتها أن نسأل أنفسنا : كيف تنهض من رقدتها وتنطلق إلى حريتها أمة تتخذ من سيادة الآخرين عليها مثلاً أعلا وغاية موموقة ؟ وتتطلع بعينها فلا ترتفع إلى مرتبة الأحرار المستقلين ولا تعدو مرتبة الخدم التابعين ؟ فصر قد استفادت في عالم الروح هنا أضعاف ما استفادته في عالم الاوضاع السياسية والمراسم الدولية

وقد يُتم تقدير الجيل الذي نحن بصدده أن نذكر - إلى جانب ما أسلفنا - أنه كان جيلاً لم تنتشر فيه الطباعة هذا الانتشار ، ولم يعم فيه « التخصص »

هذا العموم ، وكلاهما مما يجور على الشخصيات ولا سيما في الخطابة
ويكلفها في سبيل الظهور مشقات جساما لا تصمد لها الا بقوة خارقة
وعدة ممتازة .

فالتباعدة لا تحوج الزعيم أو المصلح إلى استخدام مهابته الشخصية
وبلاغته اللسانية لأنه يتصل بتلاميذه من طريق الكتب والصحف فلا يعينهم
شخصه كما تعينهم افكاره وبراهينه ، ومن ثم يصعب ظهور « الشخصيات »
أو يقل ظهورها بقلة الحاجة اليها

والتخصص يحيل الناس أجزاء من رجال بدلا من الرجال الكاملين
الذين يستعدون بكل عدة في المسائل المتفرقة ، وان لم يبلغوا في كل مسألة
على حدتها مبلغ الاخصائيين المتفرغين للدقائق والتفصيلات ، وفي هذا
ما في التباعدة من الجور على الشخصيات وتضيق ظهورها وتقليل
الحاجة اليها

فجيل سعد كان أوفق لظهور « الشخصية الممتازة » من الجيل الذي
تلاه ، وهي مزية قد نفسر بها رجحان الجيل الماضي بالقوى النفسية
ورجحان الجيل الحاضر بالقوى الفكرية ، على أننا لم نعن بهذه المقابلة ان
الشخصيات في جيلنا هذا أقل عددا من مثيلاتها في الجيل المتقدم عليه ،
ولكننا عينا ان المصاعب في طريقها أكبر وان الحاجة اليها أخفى وأندر .
ولهذا حدثت بيننا بحدود لم تكن معهودة قبل أيام الثورة العراقية

فمن حقنا إذا نظرنا الى تقدم جيلنا في المعارف والصناعات ان نغتبط بما
وصلنا اليه ، ومن واجبا اذا نظرنا الى الجيل السابق أن لا نغبط حقه وان
لا ننسى عذره ، وأنه لم يخجل من مزايا قيمة يوازن بها مزايا العصر التي أتينا
بها أو أتى بها العصر ، فلا فضل لنا فيها

بيئة سعد ونشأته

التوفيقات التاريخية في تراجم النوابع مشهورة متواترة ، والعظماء الذين سبقهم أسبابهم قبل وصولهم إلى الدنيا غير قليلين في تاريخ العالم . فقد يتفق أحيانا أن تنهياً الأسباب لنبوغ العظيم كما يتفق التحضير المرتب الذي ينتهي إلى غاية مقصودة ، فإن لم يتفق هذا فأيسر ما يلاحظ في تراجمهم من التوفيقات والتمهيدات أنهم ينبغون في أوانهم الذي لا عائق فيه لنبوغهم ، وأن تكون العوائق نفسها كأنها رياضة لهم وامتحان لقوتهم ، فلا بد في حياة كل عظيم من تمهيد أو توفيق ، ولا بد من الابتداء بترجمة العظيم قبل ولادته بسنوات

وسعد زغلول من عظماء العالم الذين تجلّى توفيقات التاريخ في بيئتهم ونشأتهم تجليها في حوادث زمانهم ، فهو ابن زمانه في طفولته وصباه وفتوته وكهولته وهرمه ، لم يولد قبل حينه ولم يولد بعده كما يحدث أحيانا في نشوء بعض العظماء ، ولم تكن رسالته متقدمة ولا متأخرة عن الرسالة المطلوبة منه ، بل جاء كل عمل من أعماله بتقدير وتدير ، يخيل إلى من يراجع أنه منقول من برنامج مرسوم

نشأ سعد بين الفلاحين ، ولكن لم ينشأ من فقراء الفلاحين . فاستطاع أن يحس شقاءهم ولكن لم يستطع أن يصير عليه كما يصير الزراع المساكين في كل أرض منيت بالظلم وابتليت بالفاقة ، وفسدت فيها النخوة وبطلت فيها الغيرة على المظلومين ، لطول ماشغل الناس بمصائبهم عن مصائب الآخرين ، ولطول ما أحسوا من الضعف عن مغالبة القوة متفرقين

(2) كان أبوه « ابراهيم زغلول » عميد بلدته ومن أكبر أصحاب الثراء فيها ، يملك نيفا ومائتي فدان فيما يسمى بالجزائر ، وبيتاً فسيحاً له منظره تتسع لأكثر من مائة زائر ، وكان يتحدى الحكام الترك في مظهره وأبهة مسيره

ومقامه ، فكان يمشى في ركب من العبيد الذين يلازمونه ويقيمون معه ويعتمد عليهم في نضال خصومه ، لقلّة أبنائه في أيام شبابه ، وكان يجرى على سنة « العصور الاقطاعية » في زعامته على أبناء بلده . فهو بهم كفيل وبحمل مغارمهم زعيم ، يؤدي عنهم الضرائب إذا أجدبوا ويدفع عنهم المظالم اذا وقعت البتة بينهم وبين الحكام ، يركب الخيل ويتقلد السيف ، ويُرَى كأنه مستعد في كل لحظة لنضال

3) ووالدة سعد السيدة « مريم » بنت الشيخ عبده بركات من أسرة عريقة إتصل آباؤها بالولاية منذ عهد محمد على الكبير ، وجمعتهم المصاهرة بأعرق البيوت في اقليمى الغربية والبحيرة ، وتولى أخوها « نظارة القسم » بمركز دسوق في زمن كانت فيه هذه الوظيفة وأمثالها وقفا على الترك والشراكسة والمألوف في تاريخ العالم كله أن يبدأ إنصاف الفقراء من غير الفقراء أو أن يبدأ بين أناس يحسون إحساسهم ولا يصبرون صبرهم ويجهلون جهلهم فلم يعرف في تاريخ الأمم المظلومة ان الفقراء المستضعفين أنصفوا أنفسهم بأيديهم ، ولم يعرف كذلك أن الطبقات الغنية التي تحكم وتستأثر بمنافع الحكم تقبل إنصاف الفقراء طواعية من عند نفسها ، بغير دعوة صادقة ووثبة مزعجة ، تأتيها من غيرها وتضطر هي اضطرارا إلى مجاراتها وإنما عرف أن الدعوة إلى الانصاف وكف الطغيان تأتي من طبقة لا هي بالمهضومة المكسورة ولا هي بالهاضمة الكاسرة ، أى أنها تأتي من طبقة قريبة إلى الفريقين ، تشبه الطبقة التي نشأ فيها سعد زغلول

والطبقة الوسطى ليست على نسق واحد في التحفز لرفع الظلم والقدرة على إنكاره والتفكير في كبحه ، فلا بد فيها من تفاوت بين موقع وموقع وأسرة وأسرة وحالة وحالة ، ولا بد من أسباب ترفع بعضها على بعض في هذه

الخصلة ، وتتيح لأناس منها ما لا يتاح لغيرهم على اختلاف الموطن والترية
والحالة النفسية أو الاجتماعية

— ولقد كانت هذه الأسباب كلها في الجانب الذي يوافق عظمة سعد من
طفولته الأولى ، ويرشحه من مهده لكرهه الظلم والتمرد عليه ، ويجعله بالنشأة
والوراثة ذلك الزعيم المدخر لقيادة النهضة الوطنية

① ولد في قرية « ابيانة » في أطراف بعيدة من العواصم التي تستقر فيها
هبة الحكام و سطوة الرؤساء ، ولكنها ليست بعيدة من آثار عسفهم
وجرائر فسادهم ، وسوء القالة فيهم

وولد في أسرة عزيزة أئمة من ناحية أبيه وناحية أمه ، فكل أب من
آبائه بقيت له سيرة مذكورة لم تخل سيرته من حادثة اصطدام وقعت بينه
وبين حاكم مرهوب ، ذي سطوة تملك الغنى والفقير أو تملك الحياة والموت
في بعض الأحيان

وقد كان جزاء من يعتدى على حاكم بالقول الخشن — بله الضرب
والاثخان فيه — أن يسجن حتى يبلى في السجن أو يجلد حتى يتهراً جلده أو
يموت ، وربما أمروا به فيشنق ثم يبقى جسده في الهواء أياماً للعبرة والمبالغة
في الارهاب ، وحدث فعلاً باقليم الغربية أن عمدة فلاحا اجترأ على ناظر
القسم التركي بالاهانة فجوزى بالموت شنقا وأمروا بتعليق جثته ثلاثة أيام
في ساحة الديوان زجراً لغيره . ففي تلك الأيام مر ناظر القسم بأرض الشيخ
ابراهيم زغلول على ساحل النيل فأبى أن يعبرها دون أن يثبت مروره كما
يليق بالحاكم الأمر الناهي الفعال لما يريد ! وعلم أنه في نجوة من كل سوء يصيبه
من أنفة الشيخ ابراهيم بعد العبارة الماثلة في أذهان الفلاحين من حادث العمدة
المشوق . فاجترأ على الشيخ ابراهيم بالتأنيب والاستخفاف ، وكبر على
الشيخ أن يساء اليه هذه الاساءة لمحض الغطرسة وإظهار القدرة على الاذلال

والتحقير ، فمد يده إلى الحاكم المخيف وهو على متن جواده فأهوى به إلى الأرض وأوجعه ضرباً وانصرف إلى سبيله كأنه لم يأت أمراً يقوده إلى الموت . وسرى الخبر في جوار القرية فهرول إليه صهره « عبد الله أفندي بركات » فزعا متوجسا من العاقبة يلومه على ما فعل ويذكركه مصير ذلك العمدة الذي اجترأ على أمر هو دون ما اجترأ عليه . فلم يتحرك ولم يفكر في عمل يعتذر به أو يصلح به ما فعل ، وعلم صهره أن لاحيلة له وللأسرة إلا أن يدبر الأمر بنفسه لمن لا يشاء أن يدبره لانقضاء حياته ، ولحق بالناظر فما زال به يسترضيه ويبدل له المال حتى قنع بمائة بجر ، وسكت عن المسألة فانقضت بسلام

وكان الشيخ عبده بركات - جد سعد لأمه - من أغنى الأغنياء في أقليمه ، يعتز بمكانه أشد من اعتزازه بماله ، فخلق عليه المدير التركي ونوى أن يجمع وجهاء البلد إلى ساقية هناك ثم يرسل في استدعاء الشيخ عبده ليلقاه بينهم لقاء مهينا ويغض من كبريائه وبسطة جاهه ، وأمر في أثناء ذلك برجل مغضوب عليه فشدته إلى ثور الساقية وترك الثور يدور فيها ويجره وراه ! وإنه لكذلك إذ أقبل الشيخ عبده على متن جواده ورأى المسكين المشدود على الساقية فلم يحفل بشيء وهو قادم على حاكم البلد بين جنده وحاشيته إلا أن يبادر إلى ذلك الرجل فيحل وثاقه ولا يبالي بما هو صانع وظن الحاضرون أن الشيخ عبده مقضى عليه لا محالة ! وان الحاكم سيغضب عليه ويتخذ من عمله ذريعة إلى التنكيل به وإذلاله ، وكان الحاكم خليقا أن يفعل ذلك لولا أن حكام تلك الأيام كانت تعاورهم نوبات يصطنعونها وغرائب يفاجئون بها من لا ينتظرها ، ويحكون بها ما يروى عن الخلفاء السابقين إذ يعظون الناس بالغضب في ساعة الرضى والرضى في ساعة الغضب ، وإذ يفاجئونهم بالعقاب حيث لا ينتظر العقاب وبالاحسان حيث لا ينتظر الاحسان . فلم يغضب الحاكم على الشيخ عبده ولم يعاقبه على اجترائه ، بل نهض له واقفاً وحياه مرحباً وقال

و
و
س
م
و
م
3
إتة
الي
دس
أو
نفس
الح
وو
لا هو
طبقة
و
إنكار
وأسر

للو جهاء الحاضرين « إن هذا الرجل الذي جلستم تنتظرون له المهابة لأشرف
منكم جميعا . . . ! »

ولد سعد في هذه البيئة التي تحس الظلم بآثاره ولا تحسه بهيبته واقتداره
ولد في أسرة تشاهد الظلم في غيرها ولا تشاهده في نفسها ، والبلدة التي
ولد فيها — ونعني بها إبيانة — بلدة أكبر من القرية الضئيلة وأصغر من
المدينة الكبيرة ، وأمثال هذه البلدان من أصلح البيئات لنمو العظمة الفطرية
لأنها تعلق على خمول القرية الضئيلة التي تركد فيها الحياة وتضعف فيها الحوافز
والمنشطات ، ولأنها تنجو من ضجة المدينة العامرة التي تشغل الأذهان بالجلبة
والمظاهر الفخمة ، فتأخذها الظواهر الخلابة ويضيق فيها مجال الذهن الباطني
فلا يستوفى حظه من النمو والتثقيف والمراجعة المفيدة ، ويقال ان بلدة إبيانة
هذه كانت أول مصيف التفت إليه طلاب الاصطيف في القطر المصري بعد
الفتح العثماني ، إذ كان يؤمها وكلاء الدول وكبار الأجانب صيفاً لترويح
النفس بهوائها المعتدل وجوها الندي ، على مقربة من البحر والمروج الفيح ،
فهى بلدة ذات تاريخ ينجو بها من إهمال الخمول

وكان لسعد أخوان شقيقان من أبيه وأمه هما فتح الله وفرج الله وأخت
هى ستم — أما إخوته الآخرون — وهم شلبي والشناوى واحمد ومحمد
وعبدالرحمن وفرحانة وستهم فهم إخوته لأبيه من غير أمه

ويلوح لنا أننا أمام أسرة مطبوعة بطابع الاستثناء في بنية التركيب لأن
الأب على صلابته وقوة نفسه قدم مات ولما يقارب الشيخوخة ، ولأن أخا
صغيرا وهو فرج الله قدم مات في سن الطفولة . وقد عاش الأخوان سعد الله
« سعد » وفتح الله « فتحي » حتى بلغا سن الشيخوخة وامتازا بالنبوغ
والألمعية ، ولكنهما لم يعقبا ولداً في السنين الطويلة التي قضياها في المعيشة
الزوجية ، ولم يولد لفتحى إلا بنت واحدة ماتت بعد شهرين ، ولسنا نجزم
بصواب جميع الملاحظات التي استعرضها « لمبروزو » في مذهبه المعروف

عن أسر النوابغ والعبقرين وما يشاهد فيها من العقم تارة والموت العاجل تارة ، والخصائص الغريبة في المرض والصحة والضعف والقوه تارات ، إلا أننا نعتقد أن المترجم الذي يمر بظاهرة كهذه الظاهرة في أسرة زغلول دون أن يسجلها ويعرضها للملاحظة يقع في تقصير

ولا نعلم من سجلات المواليد تاريخ ميلاد سعد . فلا غنى لنا في إثباته عن الترجيح دون التحقيق . والأرجح أنه ولد في ذى الحجة سنة ١٢٧٤ هجرية (أى في يوليو سنة ١٨٥٧ ميلادية) لأنه التاريخ الذى ذكره سعد لبعض سائله عن ميلاده . أما التاريخ المكتوب على شهادة « الليسانس » التى حصل عليها من باريس فيقال إنه هو أول يونية سنة ١٨٦٠ ولد سعد فى تلك السنة او بعدها بقليل ، وهى بيئة زمانية صالحة لميلاد الزعيم الذى قدر له أن يحارب الظلم كصلاح البيئة البيتية التى نشأ منها ، والبيئة المكانية التى نبت فيها

فقبل الثورة العراقية بعشرين سنة كان تدمر الرعية المهضومة يختمر فى أرجاء القطر كله ، وكان الشعور بحق الشعب وحق الفرد يتنبه ويتعاضم سنة بعد سنة ، وكان حق الحاكم المستبد قد أخذ فى التزعزع والتراجع ، لأن العصر كله فى الأقطار كلها امتلأ بالثورات ومطالب الإصلاح وحركات العصيان ، أما على الحاكمين الأجانب أو الحاكمين من ملوك البلاد فالطفل الذى يولد فى هذه البيئة الزمانية ، مزوداً بميراث الأنفة والجرأة والعطف على الضعفاء ، خليق أن يبلغ مدى استعداده ، ويترقى إلى أوج اقتداره

وقد ورث سعد من أبويه بنية الفلاح وصلابة الخلق وصدق العزيمة ، وعوجل بموت أبيه وهو فى نحو السادسة من عمره فخرم عطف الابوة وحمايتها ، ولكنه حرمان لم يصادف ضعفاً فى مزاج نفسه فينكها ويمحقها

وهي في نواتها ، بل صادف منه قوة أصيلة فأعان ما ركب فيه من ميراث
الجد والشعور « بالذات » والاعتماد على النفس في تذليل المصاعب ومواجهة
الناس ، حتى قيل إنه كان يتأني على اللعب ولا يطيل المراتة عليه ، فكان
« يخيب » في ألعابه إذا أغراه باللعب داع من دواعي الطفولة الغالبة ، وسماه
رفاقه من أجل ذلك « بالخبية » كما روى بعض أتباعه الذين شهدوه في طفولته
وعاشوا بعده

وكان يعرض عن أخيه الصغير وأقاربه الآخرين حين يمعنون في ألعابهم
كما يمعن جميع الصغار ، ويقول في لهجة الرجل الكبير المترفع : « هؤلاء
صدية مدللون ! » لأنه راض نفسه على سميت الرجولة من صباه الأول ،
وظفق من عهد الصبا ينظر إلى اللعب نظرة الرجال لا نظرة الأطفال
ولا يفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أن اللعب لم يكن في ذلك العصر رياضة
سائغة للصغار والكبار كما عرفناه نحن في العصر الحاضر ، ولكنه كان اسفافا
لا يليق بغير الطفل المدلل الكسلان ، فلما زينت خليقة الجد لسعد أن يكون
رجلا قبل أوانه علم أنه لا يستطيع الجمع بين الطفولة والرجولة في وقت واحد
فأعرض عن اللعب وأبى أن ينزل نفسه منزلة الصغار المدللين ويتخلى عن
وقار الرجال المحنكين

على أنه كان أفكه طبعاً وأعذب خلقاً وأروح سجية من أن تستغرقه
الصرامة العابسة وتقتل فيه الأريحية الضاحكة ، لأن الصرامة العابسة
لن تستغرق إلا نفساً يؤديها حمل الجسد فلا يدع لها فضلاً من القوة
تمرح به وتطرب ، ولم يكن سعد بالذي تستغرقه الصرامة في الشيخوخة
المحوظة بالآزمات والخطوب بله الطفولة الدارجة في مهاد اللعب والمرح ،
فانك لتعرف له في الشيخوخة طرائف من الفكاهة والعبث بالخصوم لم تفارقها
خفة الصبا وجدة الطفولة ، ولكنه علم في نشأته أن اللعب ليس من شأنه
فتجافى عنه وقصر في ميادينه ، ولعله لو نشأ في العصر الحاضر لكان له شوط

سابق في الألعاب إن لم يكن من كبار اللاعبين . وقد كان يألف ركوب الخيل وهو يافع لأنه لعبة تليق بالرجال ! وظل يركبها في القاهرة ويفضلها على المركبات إلى ما بعد اشتغاله بالمحاماة

ربى سعد بعد موت أبيه في كفالة أخيه الأكبر وزوج خالته الشناوى أفندى ، وهو رجل حازم كريم القلب جم المروءة ، شملت مروءته الأتباع والخدم فضلا عن الأخوة والأقارب ، وبما يروى عنه أنه تجشم السفر من بلدته إلى القاهرة ليعود خادما مريضا سافر إليها في صحبة سعد يوم قصد إلى الجامع الأزهر . وهي مبرة انسانية ، وهمة من همم الرأسة تزيدنا علما بشمائل هذا البيت وبما يفهمونه من معنى الوجاهة . وقد ورث الشناوى أفندى وجاهة أبيه من بعده وتولى رئاسة مجلس القضاء في مركز دسوق ثم في مركز زفتى ورأى الأخ الكبير في أخيه الصغير نجابة مرجوة ومخائل ذكاء ضمن بها على الفلاحة والزراعة ، فعول على توجيهه إلى العلم وترشيحه للرأسة الدينية ، وأدخله المكتب ليتعلم القراءة ومبادئ الدراسة الميسورة في المكاتب ، ويحفظ القرآن تمهيدا لأشخاصه مع بعض أفراد الأسرة إلى الجامع الأزهر لإتمام العلوم الدينية فيه

ولعل من حسن الشهادة لطفولة سعد أنه برم بالمكتب في بداية عهده كما ينتظر من كل طفل مستقيم الطبع قوى الشكيمة يمتحن بتلك الأساليب العوجاء التي كان يجري عليها التعليم قبل ثمانين سنة . فاشتد عليه أخوه مرة بعد مرة حتى اطمأن إلى المكتب ، وشامت الأقدار أن توفر للصبي اليتيم كل ما يعين فيه عزيمة الجد وينجوبه من وخامة التدليل التي يبتلى بها الأيتام الصغار في حضانة الأمهات الشواب ، فكانت أمه تشتد عليه كاشتداد أخيه كلما أنست منه تقصيرا أو شعرت بحاجة إلى تقويم ، وكانت تشكوه إلى الفقيه ليضربه ويؤدبه كلما استوجب العقوبة . وكان الضرب إذ ذاك مصابا على الجسم ولم يكن مصابا على النفس ، لأن ضرب التعليم بركة وحسنة !

والسعيد السعيد من الأطفال من تلقى العلم صعباً شديداً تتضاعف فيه المثوبة والأجر بمقدار ما تضاعفت الصعوبة والشدة ، حتى لا وشكت السلامة من الضرب أن تعاب وأن تحسب نقصاناً من حسنات الجهاد في سبيل العلم والدين ؛ وهذه هي العقيدة التي شاعت بين الآباء والأبناء وبين المعلمين والمتعلمين فظهرت الضرب من هوانه ، وجعلته أماً لا تتبعه ذلة أو شماتة

ان الذي يعلم عن أمهات العظماء المصريين في القرن الماضي لقليل جد قليل ، ولكننا لا نحتاج إلى غير ما نعلمه لنعلم ان السيدة « مريم » رحمها الله كانت أما جديرة بنجلها العظيم . فهي في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها عرفت كيف يكون الحنو الرشيد على الصغير اليتيم ، وعرفت كيف تحنو بالقسوة كما تحنو بالرحمة ، وعرفت كيف تغض عنه كما تهش له وتقبل عليه وتبتلت وهي في عنفوان الشباب لتعكف على تربية بنينا الصغار في غير شاغل يشغلها عن هذه الفريضة النبيلة . ولا شك أن سعداً قد ورث عنها كثيراً من مواهبه العقلية والنفسية ، واستمد منها كثيراً من البأس والاصالة ، وقد سئل في شيخوخته عن بعض ما يلاحظ عليه من التراوح بين الحماسة والاناة والثورة والحكمة فقال : « ان خلق والدي هو الذي يتجلى في حينها أقدم أو أثور . أما المرحومة والدي فقد عرفت بين أهلها بالحكمة والدهاء والقدرة على ضبط النفس ، فكانوا يحتكمون إليها فيما بينهم من خلاف ويرجعون إليها في القضايا والمشاكل . فذاك هو خلق والدي الذي يتجلى في عند ما تروني أشير بالتريث والاناة »

ومن كمال عقل هذه الأم ولا ريب أنها ، وهي بنت الريف في ذلك العصر المتخلف ، كانت تنزل في بيت ولدها العظيم بالقاهرة بين عقائل الأسر اللواتي نشأن على التربية العصرية والمعيشة التركية فلا تشعر بينهن بغرابة ولا يشعرن منها بغرابة ، لأنها رزقت من رجاحة العقل وكرامة النفس ما يبوئها مكانة التوقير في كل بيئة وعند كل طبقة . وقد عاشرت كتبها الناشئة

على أحدث ما تكون ثقافة العصر الحديث فاتصلت بينهما صلة الرعاية والمحبة وماتت بين يديها ودفنت في مدفن أبيها ، بعد مرض طال عليها وأضناها وصبرت عليه صبرها الماثور من صباها ، وقيل انه هو السرطان

لقد كانت ولا ريب ذات قسط عظيم من مجد ولدها العظم ، وكانت ذكراه لها شهادة من قرارة نفسه بفضلها ، فقد كان يذكرها الى أخريات أيامه كلما عرضت مناسبة للكلام عنها ، ومن ذلك أنه عزى صحفياً مشهوراً في فقد أمه بجاءه الصحفي يشكر له عزاءه ، فأطرق متأسياً وقال له : « يا فلان . هذا مصاب عرفته قبلك . ان فقد الأمهات خطب وجيع ، وانهن حقيقات منا بكل حب ومبرة ، لأنهن يخلصن لنا الحب ويقبلن منا كل شيء . »

وليس حب الأبناء للأمهات بغريب ، ولكننا لا نحسب القلب الكبير يصون فيه جبا طويلاً لانسان دون أن يكون ذلك الانسان مستحقاً له بالعدل وحسن التقدير ، ولو كان من الأمهات

دخل سعد المكتب في نحو السادسة وانهى منه في نحو الحادية عشرة .

ووضحت عليه في تلك السن الغضيرة خصلته اللتان امتاز بهما في جميع أدوار حياته — وهما الفهم والعزم — فكان يصحح كتابة اللوح من قراءة واحدة ، ويفرض على نفسه من الواجبات فوق ما يفرضه المعلم ، فيعيد في كل يوم ثلاثة أرباع المصحف وهو لا يطالب بأكثر من إعادة ربعين ، حتى حفظ القرآن حفظاً جيداً ولم يبق له ما يتعلمه في مكتب البلدة ، فتردد سنتين أو ثلاثاً بين رشيد ومطوبس يحضر على الشيخ احمد أبي رأس الذي توفي أخيراً وهو شيخ معهد دسوق ، ويدرس النحو والفقه ويتلقى أحياناً أصول التجويد بالجامع الدسوقي والقراءة على الشيخ عبد الله عبد العظيم المقرئ المشهور فيه ، ثم صحت النية على إرساله من هذه الجوامع الصغيرة إلى الجامع الأزهر الكبير ، وهو قبلة طلاب المعارف الاسلامية

في مشارق الأرض ومغاربها ، وغاية ما يطمح إليه الفتى المتطلع إلى مقام
الإمامة الدينية .

طرب سعد لهذه الرحلة كما يطرب كل ناشئ إلى رؤية الجديد من
البلدان والجديد من الناس ، ولا سيما القاهرة التي اجتمع لها من سحر
السمعة وخلابة الأوصاف كل ما يشوق نفس الريفى المتشوف الطموح
وكان للأزهر في الإسماع سحر كسحر القاهرة أو يزيد ، فهو مجتمع
السادة علماء الإسلام الذين تُتروى عنهم الكرامات وتضرب بتقواهم
الأمثال ، ينتهى إليهم نحر السلف الصالح وتراثه من العلم اللدنى والعلم
المنقول ، ويتوافد عليهم الطلاب من تخوم الصين إلى عبر الأطلس ، فما
أسعد الناشئ الذى يتاح له أن يشهد عجيبة القاهرة وعجيبة الأزهر في رحلة
واحدة . وما أحق سعداً على ما فيه من تشوف وطموح أن يطرب لذلك
النبا السعيد .

وينبغى أن ننسى الآن كثيراً وأن نذكر كثيراً لتقدر الأزهر كما كان
يقدره أبناء مصر قبل مائة سنة .

فعدنا الآن مدارس ابتدائية في معظم البلدان الصغيرة ، وعدنا مدارس
ثانوية في معظم عواصم الأقاليم ، وعدنا مدارس عليا وعلماء مشهورون
فيها ، وعدنا أقدار رفيعة ومراتب شريفة لأولئك العلماء المشهورين ،
وعندنا الوف من التلاميذ يتزاحمون على أبواب المدارس ويغبطون أنفسهم
على نعمة الظفر بالقبول ، ويستطيعون أن يتدرجوا في طلب العلوم العصرية
من مكتب القرية إلى الجامعة المصرية ، أو جامعات أوروبا الكبيرة .

عدنا ذلك كله الآن فينبغى أن ننسأه كله لنفهم الباعث الذى أوحى إلى
آل سعد أن يرسلوه إلى الأزهر دون غيره ، وأوحى إلى نفس سعد أن
تغبط بهذه القسمة وترتاح إلى هذه الأمنية .

فلم يكن في إقليم الغربية على إتساعه مدرسة ابتدائية واحدة على النظام

الحديث يوم ان دخل سعد مكتب القرية ، ولم يكن في القطر من المدارس الثانوية غير اثنتين إحداها في القاهرة وهي المدرسة التجهيزية بالعباسية التي أسست في سنة ١٨٦٣ وسميت بعد ذلك بالمدرسة الخديوية ، والأخرى في الاسكندرية وهي مدرسة رأس التين التي أسست في السنة بعينها .

ولم تنشأ دار العلوم ، التي تشبه الأزهر في بعض دروسه الا بعد قدوم

سعد إلى القاهرة بسنة .

ولم يكن على أبواب المدارس القلائل طلاب يتزاحمون ، بل كان الطلاب وآباؤهم يصدفون عن أبوابها ويهربون من رواد الحكومة وهم يحوسون القرى لاختيار النجباء من الأطفال وإلحاقهم بالمدارس والبعثات . إذ كانت الحكومة متهمة في قلوب الرعية لا تؤمن على شيء بله الايمان على الأبناء ، وكان التليذ الذي في عهدتها كالجندي الذي تسخره في خدمة لاشرف فيها ، وتقذف به الى البلدان السحيقة بلا أجر ولا عناية ، وكان من الناس من يخاف المدرسة الحديثة على دين ابنه كما كان يخافها على حياته وسلامته ، لأنها كانت موضع ريبة بين جماعة الفقهاء الجامدين وجمهرة الأمة على الاجمال ، ولما تبذرت هذه الأوهام لم تبدد الا على بطء وكراهية ومقاومة ، ولم تكن الفئة المحدودة التي عرفت حقيقة التعليم الحديث وشاهدت بعض فوائده الفكرية والدينية بقادرة على اعداد الأبناء له من المدرسة الابتدائية إلى الثانوية إلى العالية ، لندرة المدارس في أنحاء الريف وصعوبة إرسال الأبناء الصغار إلى الحواضر البعيدة فاختيار سعد للتربية الأزهرية ليس بغريب في ذلك الزمن بل هو الاختيار القريب المعقول ، نعم انه لم يكن بالاختيار الوحيد المستطاع ولكنه كذلك لم يكن أقل من غيره في النفع والسداد

وكانما جاء سعد والاصلاح إلى الأزهر على موعد

فقد جاءه في سنة ١٨٧١ ، وهي السنة التي تولاه فيها الشيخ محمد العباسي المهدي وشرع في تنظيمه وتجديده ، فانشأ فيه بعد ولايته المشيخة بسنة واحدة

لجنة لامتحان الطلاب وإعطائهم اجازة العالمية ، ولم يكن لهذه الاجازة نظام
قبل ذلك

وفي هذه السنة أيضاً قدم السيد جمال الدين الأفغانى إلى القاهرة ،
وقدمت معه تلك الدعوة الجريئة الميمونة التي كانت تسير معه حيث سار

لقد كان التعليم في الأزهر يومذاك تعليمين ، وكان المجاورون فيه فريقين
فريق المحافظين على القديم ، وفريق النازعين الى الجديد ، أو فريق
الماضين على ما وجدوا عليهم آباءهم ، وفريق المختارين لأنفسهم بهدائيتهم
وحسن توفيقهم

وكان على سعد أن يختار لنفسه بين الفريقين ، فالى أيهما جنح ؟ ومع
من منهما التى بمصيره ومستقبل حياته ؟

إن الفصل في هذه المسألة التي تتناول فيما تناولته مذاهب السلف
والخلف معضلة كثيرة الشعب تحتاج إلى عقل أوسع وأعلم من عقل يافع
في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة على أكبر تقدير ، ولكنها لا تحتاج إلى
طبع أكبر من ذلك الطبع ولا بديهية أعلم من تلك البديهية ، فحسب اليافع ان
يكون ذا طبع يختار لنفسه وينفر من الاملاء عليه ليهجر الفريق الذي يمضى
في طريقه مغمض العينين ويجنح إلى الفريق الذي يفتح عينيه ، ويعتمد على
رأيه في الاختيار

وهكذا كان سعد ، وهكذا اختار

لقد تهادى إلى طريقه بوحى من البديهية في تلك السن الباكرة ، ولكن
عقله فسر لنا بداهته بعد خمسين سنة ، فقال في خطبة القاها بالأزهر بعد
عودته من أوروبا في سنة ١٩٢١ :

« جئت اليوم لأؤدى في هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة ،
وأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه ، وكان له فضل كبير في النهضة
الحاضرة ، تلقيت فيه مبادئ الاستقلال لأن طريقته في التعليم تربي ملكة

الاستقلال في النفوس ، فالتلميذ يختار شيخه ، والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ . الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه . ومتأهل له : يوجه إليه كل منهم الاسئلة التي يراها . فان أجاب الأستاذ وخرج — التلميذ — ناجحاً من هذا الامتحان كان أهلاً لأن يجلس مجلس التدريس ، وهذه الطريقة في الاستقلال التي تسمى الآن خلافاً في النظام جعلتني أتحوّل من مالكي إلى شافعي حيث وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفأ من غيرهم »

وامتحن سعد أساتذته كما قال فعرف الأساتذة الناجحين الكفيلين بالنجاح ، وما نظن أستاذاً أنصف في امتحان تلاميذه كما أنصف هذا التلميذ الصغير في امتحان أساتذته الكبار ، وأى امتحان للأساتذة وزملاء الدراسة كان يؤدي إلى انتقاء معلمين أفضل من محمد عبده وجمال الدين ؟؟ أو انتقاء زملاء في الأزهر وخارجه أفضل من اللقاني وأبي خطوة وعبد الكريم سلمان وأديب اسحق ؟

ومن ذلك الحين التي سعد بسهمه على سهام دعاة الإصلاح غير مبال بالعواقب ، واشترك في حركة الإصلاح بالقسط الذي استطاعه في أثناء الدرس والطلب ، فألف جماعة من إخوانه الطلاب لإصلاح الأزهر وكتب منشوراً علقه في سواد الليل على أعمدة الجامع يبين فيه مواضع الخلل ووسائل العلاج التي تنجع في إصلاحه ، وثابر على حضور الدروس بين يدي الشيوخ النافعين من أنصار الجديد . فحضر « القطب على الشمسية » وبعض كتب التوحيد على الشيخ محمد عبده ، واختلف إلى مجلس السيد جمال الدين في داره بخان أبي طاقية حيث كان يجلس لتعليم تلاميذه بعد أن حيل بينه وبين حلقات الجامع ، ويروى أنه قال بعد أن رأى السيد جمال الدين لأول مرة « هذا بغيتي ! » وان السيد جمال الدين استكتب تلاميذه موضوعاً عن الحرية فأجاد سعد في كتابته إجابة فاق بها أقرانه وأعجب بها أستاذه

فقال السيد « مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر أن يجيد في الكتابة عنها

هذا الناشء »

وخير ما استفاده سعد من جمال الدين — فيما نعتقد — هو هدايته إلى معرفة نفسه وهدايته إلى التعبير عن تلك النفس في صور الخطابة والبيان فقد كان جمال الدين زعيم حركة إصلاحية لا بد لها من دعاية بالقول والكتابة ، فكان هو يدعو ويحب أن ينشر الدعوة على السنة تلاميذه ومريديه ، ومن ثم اتجه سعد إلى الخطابة والكتابة ، وسبر غور نفسه حين اشتغل بالتعبير عنها في كلام مسموع أو مقروء ، وأقبل على المطالعة إقبال من يريد أن يفهم ويفهم . فما هو إلا أن قرأ كتاب ابن مسكويه « في تهذيب الأخلاق » حتى تجرد لتأخيه — وهو دون العشرين — ونشط للكتابة في الصحف والخطابة بين الإخوان ، فكان ذلك خير تعريف له بملكاته العقلية وملكاته اليبانية ، أو خير هداية له إلى « معرفة الذات » والتعبير عنها بالأقوال والأعمال

وقد كان على رأس الوزارة في ذلك العهد وزير خطير من رجال الأريحية والهمة الذين يبرزون في عمود الظلم والاستبداد لأن الاستبداد يملك سلطان الخير والنية الحسنة كما يملك سلطان الشر والنية السيئة . وكان رياض يبجل جمال الدين ويحتفي به ويرجو النفع لهذا البلد من أعماله وأعمال مريديه . فرتب له عشرة جنيهاً مشاهرة ، واستعان بمريده الأكبر الشيخ محمد عبده على تحرير « الوقائع المصرية » صحيفة الحكومة . فاحتاج الأستاذ إلى مساعدين له في عمله ، ولم يجد بين تلاميذه من هو أقدر من سعد على المساعدة في هذه المهمة . فسعى في تعيينه لتحرير القسم الأدبي بالصحيفة الحكومية . وتم هذا التعيين في خامس أكتوبر سنة ١٨٨٠ بمرتب شهري ثمانية جنيهاً ، وهو مرتب كبير على المبتدئين في تلك الأيام ، لا يعطاه إلا رجل ظهر له امتياز نادر في علم أو صناعة ، فأصبحت هذه الصحيفة الرسمية

صحيفة الثورة الفكرية ، تنطق بمبادئها ، وتنحى على الاستبداد ، وتبشر
بالحرية والشورى !

لقد كان محمد عبده أستاذاً لسعد في الدرس وقدوة له في الخلق ، وكان
سعد يدين له بالأستاذية ويكتب إليه بعد نفيه إلى سورية في أعقاب الثورة
العراية كتابة التلميذ الأمين المخلص إلى الأستاذ الموقر المحبوب المعترف له
بالفضل والتقدم . فاذا قابلنا في هذا المقام بين أسلوب محمد عبده وأسلوب
سعد في أوائل عصر النهضة الكتابية فليس من همنا أن نفاضل ونعادل ،
وإنما نريد أن نبين مكان سعد من استقلال الطبع وقدرته اللدنية على الاتجاه
بفكره إلى قصده على استواء لا يعوقه زخرف اللفظ وقبوره . فانظر مثلاً
إلى الأستاذ الامام وهو يقول في مقدمة رسالة الواردات « الحمد لله الواجب
وجوده ، العام جوده ، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكماء العالم ، ومن
هو لأساطين الآلهيين خاتم ، أما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن
خير الله ، الناشئ باقليم مصر بقرية تسمى محلة نصر ، خادم خدمة الحكمة ،
المعرض عن نحو الكلام والكلمة ، المتخلى عن قيد لباس الطوائف ، إلى
فضاء اقتناص صيد المعارف ، إني كنت مشتغلاً بطلب العلوم ، فيبينها أنا
حول الرياض أحوم ، إذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حباً
ولكن لم أجد من هي له طوية ، فحرت في أمرى ، وأخذت أجيل فكري ،
وكلما سألت أجاووني بأن الاشتغال بها حرام ، أو قد نهى عنها علماء
الكلام وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق فوضحت لنا بها
رقاق الدقائق ، بوفود حضرة الحكيم الكامل والحق القائم أستاذنا السيد
جمال الدين الافغانى لازال لثمار العلوم جاني »

إلى آخر المقدمة ، وكلها على هذا النمط الذي يكاد يلتزم السجع في كل
جملة ، وفي كل فقرة من جملة

فهذا أسلوب كان شائعاً في ذلك العصر ، وكان الشيخ محمد عبده يلتزمه في المقدمات أحياناً وفي الفصول من بدايتها إلى نهايتها أحياناً أخرى ، ولعل عذره من ذلك أنه كان أقدم أصحابه عهداً بالدراسة العتيقة ، فان كان هذا عذراً له فليس هو بعذر للكتاب الآخرين الذين لم يطيلوا الدراسة على النظام العتيق وكانوا يلتزمون ذلك الأسلوب في غير المقدمات ، وظلوا على التزامه إلى ما بعد الثورة العراقية بسنين

أنظر إلى هذا النحو من الكتابة في أول مقدم جمال الدين وانظر معه إلى النحو الذي نحاه سعد حوالى ذلك الوقت في فصوله بالوقائع المصرية ، ومنها فصل عن الشورى يقول فيه :

« المستبد عرفاً من يفعل ما يشاء غير مسئول ، ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أو خالفه ، ناسب السنة أو نابذها . ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه إلى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم به وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من الاضرار ، وحق لهم النفور والاشمئزاز . إذ لم ينالوا من جرائمه إلا وبالاً ، ولم يلقوا من أحكامه إلا نكالا . بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلماً وتوكل فيه الأموال أكلا لماً . وتسفك الدماء زوراً وتدمر البلاد تدميراً ، فلا تثريب عليهم إذا كرهوا سوقه في سياق المدح ، ولو يراد به غير ما عرفوه

« ولقد تبين لك مما قدمناه أن الشريعة لا تبيحه ؛ وإنما توجب تقييد

الحاكم بالسنة والقانون

« ومن البديهي الواضح أن نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها فانها

ليست إلا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة وعلمائها ، أو مدلولها عليها بنقوش مرقومة في الكتب . ولا يكفي في تقييد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد في ذلك من وجود أناس يتخلقون بمعانيها ويظهرون بمظاهرها ، فيقومونه عند انحرافه عنها ويحضونه على

ملازمتها ويحشونه على السير في طريقها ، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضى الله عنه الناس في خطبته إلى تقويم ماعساه يكون منه من الاعوجاج في تنفيذ أحكام الشرع الشريف . وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) إذ لا يفي أن هذه الآية الشريفة عامة في دعوة الملوك وغيرهم إلى الخير ، وتأميرهم بالمعروف وتنهائهم عن المنكر ، ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده ، حاكماً كان أو محكوماً ، وليس الأمر هنا للندب كما فهم بعضهم ، بل للوجوب والفرض على ماصرح به العلماء ، وقد فرض على الأمة الإسلامية أن تقوم منها أمة — أى طائفة — وظيفتها الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حفظاً للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتدودون وصوناً لأحكامها من أن يتعالى عليها ذوو الشهوات »

هذه فقرة من فصل « الشورى » تعمدنا أن تكون أكثر الفقرات سجعا وتقفية ، ولعلها أكثر الفقرات سجعا وتقفية في فصول سعد عامة ، فمن يقرأها لا يسعه إلا أن يعجب لقلة التزام السجع فيها على النحو الشائع بين كتاب ذلك الزمان ، ومنهم استاذه ورئيسه في تحرير الوقائع المصرية ، فان السجع فيها يعرض نفسه عرضا ويؤدي معناه كأداء الترسل المطلق بغير تكلف ولا تصيد ، وهو إنطلاق من قيود العرف له دلالة بعيدة المدى لا تنحصر في الملكة اللغوية أو البيانية ، بل تدل على العقل والخلق وملكة التعبير في وقت واحد ، وتنبئ عن نفس يتمكن منها معناها فتتجه إليه قداماً بغير التفات إلى الحواشي والنوافل ، وان استلزمها العرف وفرضتها العادة

لقد كان لقاء سعد بجمال الدين مرحلة في حياته ، لأنه وجهه إلى وجهته وأقامه في مقامه بين طلاب الإصلاح

ولقد كان اشتغاله بالوقائع المصرية مرحلة أخرى ذات شأن عظيم في تاريخ حياته كله ، لأن العمل فيها لم يقتصر على تصحيح العبارات وكتابة المقالات الأدبية ، بل تناول نقد أحكام المجالس الملغاة وتلخيصها والتعقيب عليها ، فتفتحت أمام سعد أبواب الدفاع القانوني والدراسة القانونية ، وأبواب الدفاع السياسي والأعمال السياسية ، وهي الوجهة التي صمد عليها بقية حياته ، وتم عليها تكوينه وتشبث مواهب عقله ، ولم يلبث على الاشتغال بها غير قليل حتى ظهرت كفاءته في نقد الأحكام وفهم مباحث القانون وما يقابلها من الشريعة ، فانتقل إلى وظيفة معاون بوزارة الداخلية مرتبها في الشهر خمسة عشر جنيا ، ثم انتقل إلى وظيفة ناظر لقلم قضايا الجيزة في ديسمبر سنة ١٨٨٢ وهي كما قال في خطبة ألقاها عند اختياره لمنصب القضاء : « أشبه بوظيفة القاضي ، إذ كان من خصائصه أن يصدر الأحكام في كثير من المواد الجزئية » .

وشاءت المصادفات أو التوفيقات التي أشرنا إليها في مستهل هذا الفصل أن تكون هذه الأيام فاصلا بين عهدين في حياة سعد ، وفي حياة الأمة المصرية .

فنقلته الوظيفة من الأزهر إلى الحكومة ، ومن العمامة إلى الطربوش ، ومن دراسة العلوم الدينية إلى دراسة العلوم القانونية ونشبت الثورة العراقية في تلك الأيام ، فانتقلت مصر بأسرها من حال إلى حال ، وانطوت في تاريخها صفحة معلومة وبدأت فيه صفحة مجهولة وقدرة لهذه الصفحة المجهولة أن تعود فتلتقي بتاريخ سعد في صفحة واحدة

سعد من الثورة العراقية

إلى الوزارة

أخذ القرن التاسع عشر حصته من مصر كما أخذها من أمم كثيرة ،
فثارت مصر في أواخر القرن كما ثارت أمم البحر الأبيض المتوسط في بعض
سنواته الأولى أو الأخيرة ، ولم تثر إلا كمعادتها في كل ثورة : أي حين
أزعجها الخطر في عقائدها كما أزعجها في مصالحها ، وخولفت أحكام دينها
كما خولفت أحكام العقل في سياستها ، فهانت الأرواح وضاعت الحرمات
وكسدت الأعمال وغاض معين الأرزاق ، واستنزفت الحكومة أموال
الرعية جباية ونهباً واحتيالا حتى لم يبق لها ما يستنزف . فكان الفلاح عاجزا
عن سداد الضرائب المنوعة مرة في العام وهي تجبي منه مرات لتنفق في البذخ
والسفاهة ، أو ليؤدي بها بعض ربا الديون الأجنبية التي أنفقت قبل ذلك في
البذخ والسفاهة : ظلم وإسراف وربما وجور ومخالفة دين من جميع
الوجوه وكان الحكام الذين جنوا كل هذا وجروا على الناس الخراب
والضياع يتيهون كبرا واختيالا كأنهم أحسنوا الحكومة كل الاحسان
وأسبغوا على الرعية نعمة الرغد والأمان . ويستكبرون على المصرى أن
يشكو ويستنصف لأنه فلاح مخلوق للسخرة والشقاء ! وما بهم في حقيقة
الأمر من كبر عنصري ولا كراهية لعنصر الفلاح المصرى ، ولكنها الجهالة تسول
لهم ما استمرؤه من المظالم وتعميهم عما يجرونه على أنفسهم وعلى غيرهم من
الضنك والبلاء ، فلو أنهم كانوا حكاما في بلاد الترك أو الجركس أو الأرمن
أو مقدونية لظلموا إخوانهم وأبناء عموماتهم هذا الظلم وتصلفوا هذا الصلف :
كما كان أمثالهم يصنعون هناك في ذلك الأوان ، ولكنهم لسخفهم وغبايتهم

أبو إلا أن يصبغوا الظلم بصبغة الحزازة العنصرية والاهانة القومية ، وان
الظلم وحده لكاف للتفسير والتخريب

هبت الثورة العراقية كما تهب العاصفة بعد طول السكينة ، فاشتركت فيها
من الأمة كل قوة فكرية أو عسكرية ، وشايعها الجامدون والمصلحون على
السواء ، لأن المظالم والمفاسد لم تدع للمصريين سلوة يتعزون بها أو مهرباً
يثوبون إليه ، فمستهم مسا عنيفا في إيمانهم الديني وفي مصلحتهم الوطنية وفي
نخوتهم القومية وفي أرزاق الأفراد وما يغارون عليه من حرمة مصونة ،
ومن خصائص الطبيعة المصرية في هذه الثورة ان رجال الدين والأزهريين
جملة كانوا على رأسها وفي طليعة دعائها ، خلافا لرجال الدين في كل ثورة
داخلية ، فان الطبيعة المصرية على ما نظن لم تكن لتسيغ ثورة ليس فيها
« للمحافظة » مكان

لم تفلح الثورة العراقية لأنها أحيطت بدواعي الجبوت من الدسائس
الخارجية ، ومن تهالك الحكام على الدول الأجنبية ، ومن خطل الزعامة ،
وعبت الدولة العثمانية

ولولا ذلك لسارت في طريق أقوم من طريقها وانتهت إلى مصير خير
من مصيرها ، ولكنها تعرضت لذلك جميعه فانهى أمرها إلى الهزيمة ،
وكانت نهايتها بداية احتلال أجنبي للبلاد
واعقب الثورة ما أعقبها من نكال وانتقام ، ومن تجسس وسعاية ، ومن
خيانة الأصحاب ومكائد الأعداء . فنكصت الاخلاق شرنكوص ، واران اليأس
على الضمائر ، فمات فيها رجاء الخير أو كرب أن يموت

اشترك سعد في الثورة كما اشترك فيها أساتذته وبعض زملائه ، وناله من
أذى الاعتقال بلاه غير يسير ، وخسر وظيفته وبات في مرصد الشبهة من
أنظار الحكام ، أعداء العراقيين

وكان في وسعه — لو رضى ضميره — ان يعتذر ويتزلف كما اعتذر
وتزلف مئات وألوف ، وان ينفذ يده من أصدقائه المهزومين ويتراعى في
أحضان أعدائهم الغالبيين ، ولكنه أبى لرجولته ان يسومها هذا السوم ،
وكره لخلائقه ان توصم هذه الوصمة ، وظل على وفائه لأصدقائه المبعدين
يراسلهم ويراسلونهم ، ويعتمدون عليه في قضاء شؤونهم فيقضيها لهم جهده
ما يستطيع ، وفي تاريخ الاستاذ الامام رسائل كتبها سعد إلى الاستاذ بمنفاه
يتبين منها ألمه وعزائه وحالة النفوس والضماير يومذاك ، وفي إحداها وهي
مكتوبة في أواخر سنة ١٨٨٢ يقول :

« توجهت إلى اليك صاحب تاريخ العرب وسألته اعارته ، فأجاب بأن
عمود سامى أخذه منه وسافر ولم يرده اليه ، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام
ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم في أى شىء تريدون حسياً كان أو معنوياً ،
وسأتحرى هذا الكتاب فى كتب سامى عند بيعها فاذا وجدته فيها اشتريتها فى
الحال وأرسلته إلى حضرتمكم أو أحضرته معى إن وافق ذلك استجماعى لوسائل
السفر . والحال العمومية على ما تركتها ، غير أن الناس أخذوا فى نسيان ما فات
من الحوادث وأهوالها ، وقلت قائلهم فيها ، وخفت شماتة الشامتين منهم ،
وأصبح المادحون للانكليز من القادحين فيهم . وبالعكس . والكثير يتوقع
انقلاباً أصلياً والله أعلم بما يكون »

وفى رسالة أخرى يقول — ويعنى الشيخ عبدالكريم سلمان — « أسفت
بل خجلت بما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبدالكريم الفاضل ثابته صدقه
بشهادة من سئلوا من الصادقين . ولولا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم
ومن وثوقه بى فيما أرويه لكان الأسف مضاعفاً

« انى كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا للشيخ ، وما سمعت منه ما يقصد به
مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمامى يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين
« المعروف » الا بما معناه الأسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف »

ومن هاتين العبارتين يبدو لنا مبلغ وفاء سعد ومبلغ الثقة به في نفس
الاستاذ الامام ، حتى أنه كان يرجع اليه في عتبه على خلاصانه المقربين اليه ،
ويبدو لنا كذلك أن سعدا فكر في كل شيء بعدنني أصحابه — حتى الهجرة من
مصر — ولم يفكر في التقلب ومصانعة الأحوال ، ونسيان الأصدقاء
وقد خطر له أن يستعيد وظيفته أو وظيفة غيرها في الحكومة فاذا بهم
يسومونه من التزلف والتسكّر ما لا يطيق ، فعُدل عن التوظف وقيل أن
يحترف المحاماة ، وفضل هذه الصناعة على انتظار الوظيفة بالتشفع إلى هذا
واستعطاف ذلك

ونقول « قبل أن يحترف المحاماة » لأن المحاماة يومئذ لم تكن بالصناعة
الشريفة التي نعرفها اليوم ، وإنما كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من
لا يحسب « المرافعة » إلا مجالا للبداء وطول اللسان ، ومن لا يحسب النجاح
في القضايا إلا ضرباً من الاحتيال و « الشطارة » يغش به القاضى ويغش
به الخصم ويغش به الموكل ، ويعتمد فيه على الكذب والمراوغة والاختلاس ،
ولم تكن للمحامى منزلة في نظر القضاء ولا في نظر العلية ولا السواد ، بل كانت
كلمة من القاضى تكفى لفصله ، وكان كل رجل « مستور » الحالة يأنف من
معاملته فضلا عن مزاملته ومصاهرته ، وكان اسم المحامى مساويا لاسم المزور
كما قال سعد . فاتصل بهذه الصناعة « والحجل يستر وجهه لسقوط اعتبار من
كانوا يتعاطونها » وقال في خطبته التي شكر بها من كرموه لتعيينه في
مناصب القضاء قال : « انى اشتغلت بالمحاماة متنكراً عن أهلى وأصحابى .
وكلما سألتى سائل : هل صرت محامياً ؟ أقول معاذ الله أن أكون كقوم
خاسرين ! وجملة القول أتى كنت أجتهد أن لا يعرفنى إلا أرباب القضايا وان
كنت أجها ماذا تكون العاقبة »

رضى سعد أن ينتمى إلى طائفة مزدراة ولم يرض أن يكون هو نفسه أهلا
للإزدراء ، بالتسكّر لأصحابه والترامى على إقدام أعدائه

ولم يخف موقفه هذا على أناس من أعداء الثورة العراقية كانوا لا يفرقون في العداوة بين الملموم والمعذور والمدين والبريء ، لأنهم كانوا يبرصد لكل ما بقى من آثارها وآثار دعايتها ؛ وكان الثائرون أو المتهمون بالثورة بين منفي أو سجين أو قتل ، وكانت الدولة البريطانية قابضة على ناصية الأمور ، ومع هذا لم تزل الرجفة في قلوب أعدائهم يخافون ولا يهدأون ويظنّون إلى الانتقام ولا يرتوون . وغازهم من سعد وبعض إخوانه أنهم لم يتزلفوا ولم يستغفروا ، واستكبروا ما في ذلك من التحدى لهم وقلة المبالاة بانتصارهم ، وما فيه من الانذار بعواقب هذا الاصرار ، وما عسى أن يختبيء وراءه من النيات والأفكار ، فظلوا يترقبون الفرصة السانحة أو يترقبون خلقها إذا هي لم تسنح كما يرومون

ونمي اليهم — أو زين لهم الوهم — أن سعداً وزميله في مكتب المحاماة حسين افندي صقر قد ألفا جماعة سرية سماها « جماعة الانتقام » لقتل الشهود والجواسيس الذين خانوا الثورة العراقية والرؤساء الذين نكلوا بالعراقيين ، فألقوا القبض عليهما وأحالوهما إلى المحاكمة ، وشكلت للنظر في قضيتهما لجنة مختلطة أسندت رأسها إلى القاضي البلجيكي فلينكس «Flaminx» واشترك فيها حسين بك واصف وحامد بك محمود ومحمود بك سالم ومسيو دي هولتز Deholtz الذي زامل سعدا بعد ذلك في دوائر محكمة الاستئناف وندبه المستشارون للخطابة في الاحتفال الذي أقاموه لتوديع سعد عند اختياره للوزارة . وكان فلينكس ودي هولتز من القضاة الأجانب المندوبين لإصلاح النظام القضائي وتنظيم المحاكم الأهلية

فلما نظرت اللجنة في التهمة لم تعثر بدليل ولا شبه دليل ، ولم تجد بداً من تبرئة المحامين المتهمين

ولكنهما بقيا معتقلين بعد إعلان البراءة أكثر من ثلاثة أشهر ، لأن الحكومة عازمت على نفيهما إلى السودان ، وكلفت عثمان ماهر باشا

محافظ العاصمة أن يكتب المذكرة بطالب نفيهما لعرضها على مجلس النظار ،
وأوشك الأمر بالنفي أن يصدر لولا أن وزير الحقانية في ذلك العهد حسين
نخري باشا عارض فيه ، وقال ان صدوره بعد حكم البراءة يعد تحديا للقضاة
الأجانب الذين جىء بهم لتنظيم القضاء في البلد

فتأخر النفي وبقى السجينان معتقلين ، ولبثا في السجن إلى أن اتصل خبر
القضية بالمستر ما كسويل النائب العام فعجب لهذا التصرف المريب ، وأمر
بالافراج عنهما على الفور

عاد سعد إلى المحاماة بعد خروجه من السجن . عاد إلى الصناعة المكروهة
التي لا يحيص عنها ؛ فإذا أردنا أن نعرف كيف تكون « الكرامة الشخصية »
كافية وحدها لتكريم صاحبها على الرغم من ضعة الصناعة التي ينتمى إليها
وشيوخ العرف باحتقارها بين عليّة الناس وسوادهم - فسعد زغول في صناعة
المحاماة هو المثل البارز لتلك « الكرامة الشخصية » أو تلك الكفاءة القوية ،
التي لا تحتاج إلى سند من غيرها لتعلو وتنبه وتستكمل قسطها من المبالاة
والتجلة والعرفان

فبالكرامة الشخصية وحدها أصبح المحامي سعد زغول أهلا لمعاشرة
الأمراء والاميرات على سنة المساواة ، في زمن كانت فيه حدود الطبقات
كمحارم الدين التي لا تأذن بسماح ولا هوادة

وبالكرامة الشخصية وحدها أصبح المحامي سعد زغول أهلا لولاية
القضاء . في زمن كان فيه المحامي كالخادم عند القضاة ، وكانت كلبة واحدة
من القاضى تكفي لحرمانه حق الاشتغال بهذه الصناعة

لم تهبط صناعة المحاماة بسعد زغول كما كان يخشى ، بل كان سعد زغول
هو الذي ارتفع بصناعة المحاماة ، وهي معجزة خارقة لما اعتاده الناس ،

ولكنه لم يتكلف لها إلا ما تعود من عادة الجد والأمانة والعزة ، أو من طبيعة الجد والأمانة والعزة التي طبع عليها

كل ما صنعه لتقرير مكانته وتقرير مكانة المحاماة من أجله أنه كان سعد زغلول ولا زيادة . وقد سأله أحمد بليغ باشا في لجنة الامتحان : ما هي واجبات المحامي ؟ فقال : درس القضية جيداً ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضاء

وهذا كان كلامه ، وهذا كان عمله من يوم أن اشتغل بهذه الصناعة ، فلم يقبل قط الدفاع عن باطل ، ولم يرفض قط الدفاع عن حق ، ولم يحضر قط في جلسة إلا وقد درس جميع القضايا التي حضر للدفاع فيها ، دراسة لا يستدرك عليها القضاة ولا وكلاء النيابة ولا الخصوم نقصاً أو اهمالاً في موضع من المواضع . وكان من عادته إذا عرضت فرصة للصلح أن يتنزهها ويشجع موكله عليها برد « مقدم الأتعاب إليه » . فكان يقيد « مقدم الأتعاب » في باب الأمانات لا في باب الموارد ليقى نفسه ضعف نفسه كما كان يقول . حتى إذا أراد الموكل الصلح رد إليه ماله وقال له : هذه أمانتك ردت إليك

واشتهرت أمانته وإخلاصه في عمله بعد فترة وجيزة ، فملاّت شهرته القطر من أقصاه إلى أقصاه ، وأصبح توكيله في قضية مدنية أو جنائية ضماناً لكسبها وخذلان خصومه فيها ، ووثق به القضاة فأصبح قبوله القضية بمثابة حكم قاطع فيها ، وحرص كل صاحب دعوى على أن يكون سعد معه ولا يكون عليه . ومن المتقاضين من كان يوكله ويبدل له الأجر الوافر لارهاب خصومه باسمه . ولو كان حقه أظهر من أن يحتاج إلى دفاع

جاءه رجل من القليوبية يستحق عند آخر ديناً يبلغ الخمسة والثلاثين جنيهاً بوثيقة مكتوبة . وكان الدين ينكر الدين ويستند في انكاره إلى « مخالصة » مزورة بامضاء الدائن . فقال سعد لصاحب القضية : إن الأمر لا يحتاج إلى

محام ، وإنك إذا اعتمدت على وثيقتك وطعنت بالتزوير في المخالصة الباطلة
ضمنت الحكم بغير حاجة إلى توكيل يكلفك كثيراً أو قليلاً من المال . فأبى
الرجل إلا وكالة سعد ، ودفع له خمسة وعشرين جنيهاً مقدماً وهو يعد بدفع
خمسة وعشرين أخرى عند انتهاء القضية ، وصدر الحكم كما كان ينتظر بالزام
المدين مبلغ الدين كله والمصاريف ، وماهى إلا أيام حتى جاءه الرجل بالمبلغ
المتأخر . . . فعجب سعد لأمره وسأله عن سر هذه الحكاية وهو لا يصدق أن
تاجراً رشيداً يكلف نفسه خمسين جنيهاً من أجل خمسة وثلاثين مضمونة كل
الضمان ، فقال الرجل : « إننى رجل كثير المعاملات ، وبين عملائى كثير
من المماطلين ، فاذا علموا أنك وكيلى استرحت من شرور كثيرة ، وخاف
منهم من يماطل ويطمع فى الروغان أن يضطر لا محالة إلى سداد الدين ومعه
مصاريف القضية ومصاريف المحامى سعد زغلول . فأنا لا أبذل الخمسين
بذلاً ولكنى أفتدى الألوف بهذه الخمسين ! »

فسر سعد بهذه الثقة ، وأقسم على صاحب الدعوى ليردن إليه مقدم
أتعابه ، فقبله بعد تشديد طويل

وجاءه وجيه من اقليم المنوفية متهم بتزوير عقد يدعى به امتلاك ثمانية
عشر فداناً لبعض أقربائه ، ورجاه أن يقبل الدفاع عنه فأبى كل الآباء ، ولم
يقبل رجاءه إلا بعد اعترافه بالتزوير ، وكتابته إسهاداً على نفسه بالنزول
عن الأرض لأصحابها ، يحفظه عنده ليسلهم هذا الاشهاد بعد صدور الحكم
بالبراءة ، وقد كان ما أراد

كان هذا المثل القليل النظير — بل المثل الوحيد — كافياً للسمو بصناعة
المحاماة عن مهانة الابتدال ، وتطهيرها شيئاً فشيئاً من أديعتها الذين عرضوا
للناس من صناعتهم أسوأ الأمثال . فهذا محام يقيم الحججة ويكسب القضايا
دون أن يشتم ودون أن يخون ودون أن يشتط على الموكلين ، فلا محل
فى الصناعة — مع هذا المثل — إلا لمن سار على هذه السنة وتخلق بهذه

الخليقة ، ولا رواج لمحام غير مستقيم بعد أن وجد أمام الناس مثل الاستقامة
النافعة ، سواء عند المستقيمين وغير المستقيمين ، ماداموا من طلاب المصالح
وأصحاب الحقوق

ومن طرائف سعد ما حدثني به في هذا الباب ليقيم الدليل على أن
الاستقامة تبعث الثقة بصاحبها بين أهلها وغير أهلها ، وكنت قد دخلت عليه
بعد ظهور نتائج الانتخاب سنة ١٩٢٦ أهنته بفوزه . فسألني سؤاله المعتاد :
ما أخبارك ؟ أو ما قولك اليوم ؟

قلت كلها أخبار خير يادولة الرئيس . شيء لم يكن في الحسبان . قال متهللاً
أو ليس كذلك ؟ ثم أبدى ثقته بعناية الله . وقال : إنها نتيجة لو توصلنا إليها
بغير وسيلة القصد الصريح لما بلغناها

وتبسط للكلام كعادته حين يستريح بعض الراحة من همومه الكبيرة
فقال :

« إن استقامة القصد قلما تخيب عند مستقيم أو غير مستقيم . أذكر انني
كنت في مكنتي أيام المحاماة وإذا بسيدة في زى نساء البيوتات تدخل المكتب
وتحييني تحية الأدب والاحتشام ، فأشرت إليها بالجلوس والتفت إليها بعد
أن فرغت من عمل الحاضرين أسألها : من السيدة التي شرفتنى بهذه الزيارة ؟
قالت : محسوبتك ع . اسكندر اسم امرأة من صواحب البيوت المربية
المشهوره في ذلك الحين . فما سمعت ذلك الاسم حتى ثارت ثائرتي وعجبت
للوكيل كيف سمح لها بالدخول وكيف اختارتني هي لقضيتها أو للسألة التي
قصدتني لأجلها . وخاطبتها بكلام قارص لم أرفع فيه حق الأنوثة . فلم تحر
جواباً وتركتني أقول ما أريد . حتى إذا هدأت ثائرتي وسكت قالت لي :
أسمح لي بكلمة ؟ قلت تفضلي ! قالت : إن الناس إذا رأوني عندك في قضية
كان هذا شهادة لك لا عليك . إذ لو كنت أنت من معارفني لما صدقوا اني أثق

بك واثمنك على المصالح ، ولولا انك مستقيم لما جئتك اليوم ، وإلا فان
زوارى المحامين كثيرون لم أفكر في واحد منهم لأننى أعرفهم ، وفكرت فيك
لأننى لا أعرفك ولا أراك فيمن أراهم كل يوم ... »

قال رحمه الله : فسمعت كلاماً أريياً ولباقة معجبة ، وسرتنى هذه الشهادة
بالسمعة الحسنة من صاحبة السمعة السيئة !

وهنا يحق لنا أن نسأل :

ترى لو لم تلجىء الضرورة سعداً إلى مراس هذه الصناعة المكروهة على
مضض — أما كان من الجائز أن يتغير تاريخه كل التغير ، وأن تحتجب فيه
المزايا البيانية التى رشحته لزعامه الأمة المصرية ؟

إنه كان على التحقيق سيغدو عظيماً نافعاً حيث كان ، ولكننا لا نعرف
لزعامه سعد طريقاً كان أقرب إليها وأشبه بها من المحاماة . لأنها مجال كل
مزينة كبيرة فى طبعه وفكره ولسانه : هى هيات له وسائل النمو على منبته
وفوق جذوره ، وهى التى أتاحت له فرصة طويلة لتفتيق ذهنه وتجويد
ملكاته ، وهى شحذت فيه بديهة المنطق وقريحة البيان ، وصانت قدرة الخطابة
فيه عن التعطل والركود ، ولم تحرمه تلك الفضيلة الأصيلية التى ورثها عن آل
أبيه وآل أمه ، وهى فضيلة النجدة والدفاع عن المظلوم

« عسى أن تكرر هو شيئاً وهو خير لكم ... » ومصداق هذه الآية
الحكيمة يمر بنا فى كل ترجمة معروفة ، ويستطيع كل امرئ أن يراجع سيرته
وسير معارفه فيرى مصداقها يتكرر فى حياته وحياة غيره : كم أمنية يتلطف
عليها المرء ثم يهين نفسه بقواتها ؟ وكم نكبة يتشاءم بها ويحتهد لا تقائها ثم
تنقلب يمناً عليه وهداية له فى الحيرة ؟ يتفق ذلك فى حياة العظيم كما يتفق فى
حياة الصغير ، ويشاهد مع النجاح كما يشاهد مع الاخفاق ، وفى ترجمة سعد

مواقف عدة يتمثل فيها المتمثل بتلك الآية الحكيمة ، وفي مقدمتها على ما نعتقد
موقفه من المحاماة

لقد خسر سعد وظيفته على كره ، وقبل المحاماة على كره ، وعدها صناعة
لا يجمع بينه وبينها إلا عشرة الجد ونكد الدنيا وخيبة الرجاء ، ولكنه لو فكر
بعد ذلك بعشرين سنة وفكرت معه هذه الأمة لما اختار لنفسه ولا اختارت له
الأمة غيرها صناعة . فكم يكره الانسان من تجربة وهي خير مأمون ! وكم يجب
الانسان من أمل وهو شر وخيم !

بعد ثماني سنوات أو تسع من اشتغال سعد بالمحاماة عرضت عليه وظيفة
« نائب قاض » بمحكمة الاستئناف في سنة ١٨٩٢ قبلها على ضالة مرتبة
بالقياس إلى ما كان يربحه من المحاماة . إذ كان هذا المرتب خمسة وأربعين
جنيها ولم يكن ربحه من مكتبه يقل عن خمسمائة جنية في الشهر ، أي أكثر
من عشرة أضعاف مرتب القضاء

وقد تبع في ولاية القضاء خطوات استأذنه الشيخ محمد عبده كما تبعه في
الدراسة الأزهرية وفي مصاحبة جمال الدين وفي تحرير الوقائع المصرية ،
وكان الشيخ محمد عبده هو صاحب الاقتراح في تعيينه ، لا مصطفى فهمي باشا
رئيس الوزراء كما تبادر إلى أوهام بعض الناس بعد ذلك ، لحسبانهم أن مصاهرة
رئيس الحكومة هي السر في تمييز سعد بتلك الوظيفة !

والحقيقة ان سعد لم يصاهر مصطفى باشا الا بعد تعيينه في القضاء بأربع
سنوات ، ولم يستفد درهما واحدا علاوة على مرتبه بفضل تلك المصاهرة ،
إذ كانت الترقية في مناصب القضاء العليا لا تجرى لذلك العهد الا بترتيب
مقدور ونظام محسوب لا استثناء فيه

وكان سعد أول محام أسندت اليه وظيفة القضاء ، فكان هذا التعيين خليقا
أن يقع من الناس موقع الأمر المستغرب المفاجيء ، ولكنه على نقيض ذلك

قوبل بالتأمين والموافقة البدهية كأنه أمر منتظر لا غرابة فيه . وابتهج به المحامون كما ابتهج به القضاة ، فأقاموا له حفلا كبيرا أعربوا فيه عن شكرهم لهذا الاختيار واغبتاطهم بهذا التعيين ، قال فيه وكيل المحكمة — اسماعيل صبرى (بك) الشاعر المعروف — « ان تعيين حضرة سعد أفندى زغلول عضوا في محكمة الاستئناف دليل على أن المحاماة والقضاء شيئان ضريعان .. »

وألقى بعض المحامين كلاما يدل على حقيقة العلاقة بين القضاء والمحاماة في تلك الأيام ، لعل أصرحه وأقربه إلى الغرض كلمة حسن أفندى الشمسى و ابراهيم أفندى اللقانى لأنهما قد عمدا الى الهدف في تلك المناسبة دون الاطناب في التحية والمجاملة ، فقال حسن أفندى الشمسى : « أنت أيها الفاضل أدرى باحساساتنا من جهة القضاة ، وكثيرا ما كنت معنا حينما كنا نكيل في ذكر كل واحد منهم بالكيل الذى يستحقه ، وقد علمت أن فى القضاة من يتغالى فى حب الاستقامة حتى ارتاب أن يكون فى طائفتنا مستقيم . فبك اليوم نأمن على أنفسنا من مثل هذه الأفكار . فكن واسطة بيننا وبين حضرات القضاة لتوفيق ما بين الاحساسين ، ان كان ثم اختلاف »

وقال اللقانى : « ياسعد . وفى هذا اللفظ من معانى الاجلال والتعظيم ما يكفينى كلفة المقال . فياسعد قد عز على القول فى هذا المقام مع مالى من الاثرة والاختصاص بك ، والاحتفاظ على جليل فضلك ، الى حد يحتبس معه لسانى فى البيان فأقتصر الآن على أن أهنيك من قلب يخالطه الأسف على انسلالك من بيننا وقد كنت واسطة عقدنا ، وبقدر هذا الأسف نهنيك على اتصالك بنخطة القضاء . ولكن علام ؟ هل انتقلت الى مقام تكون أثرى وأوسع دنيا مما كنت فيه ؟ كلا . بل إلى مقام يحبس فيه رزقك على راتب زهيد . . . فعلام نهنيك ؟ هل انتقلت الى مقام تزاوول فيه علما لم تكن تزاووله ، أو تزداد سعة منه وقد كنت فيه قصير الباع ! كلا . اللهم الا أن يكون علم الاقتصاد ! فبأى شيء نهنيك ! نهنيك لأنك كنت تناضل عن الحق ،

وتحارب للانصاف ، وتجاهد للعدل ولم يكن بيدك ، فأصبحت والعدل بيدك
يطلب منك الحق . . . »

فهاتان الخطبتان — فضلا عن اشتغالها على القول المفيد والتعبير
الصادق — تدلان على بعض البواعث التي بعثت سعداً الى قبول القضاء ،
وتدلان من وراء ذلك على بواعثه النفسية في جميع الأمور على وجه التعميم

قال سعد في شكره للبحتلين به تلك الليلة :

« سادتي . تعلمون ان الحق صعب الاكتشاف ، وأن الحقيقة إذ تكون
ضالة تتشعب طرق نشدانها على الباحث ، ويعلم الله كم من ليال مضت ما كان
أمرها عندي . لا لأنى كنت فى عيش ضنك ولا لأنى قليل الميسرة ، ولكن
لأن الحقيقة ضائعة لا أجدها فى طريق نشدانى لها ، بين أناس عهدت اليهم
أمانة ولا من يؤديها منهم إلى أهلها . كنت أرى القانون يكرهنى على احترام
القضاة وضميرى يابى الامتثال لاحترام كثير منهم ، فكنت أجمع بين
الاحترام والتحقير ، ولا استطيع التوفيق بين الظاهر والباطن ، فأعجبوا
أيها الأفاضل من مطيع غير مطيع ! ولا جناح على لأن القوانين لاحكم لها
على الأسرار والضمائر . أقول الحق إنى كنت أسأل من القاضى حقا ومن
النيابة واجبا فلا أجد هذا ولا ذاك . أما الآن فكلنا يعترف فى سره وعلنه
بأن القضاء ارتقى ، والحق عنده مسؤل »

ان سعداً الصريح فى كل مقام ، وسعداً المطبوع على اعتبار الحقائق
الواقعية والمقاييس العملية ، وسعدا المزدرى بالمال فى سبيل كرامته أو فى
سبيل فرض هذه الكرامة على المكابرين والمتعنتين ، هو سعد الذى يتجلى
لنا فى هذا الموقف أوضح جلاء

لقد استطاع الرجل أن يصبح علما فى الشرف والكفاءة بين طائفة كانت
محرومة من الشرف والكفاءة . ولكن هل استطاع أن يخرس الألسنة التى
تمحل الأسباب لانكار الفضل كلها وجدت ذريعة الانكار ؟ وهل استطاع

أن يمنع النفوس الحاسدة أن تسف وتلوم وتبحث عن الاساءة بما في وسعها من غمز وتعريض وتجاهل واضطغان؟ هؤلاء لا يثنهم عليهم بفضل المحسود عن الكيد له والاستطالة عليه . بل فضل المحسود وشهادة الناس به هما باعث الكيد والاستطالة وعلّة البغض والديسة ، وأنهم ليزيدهم ضراوة بالايذاء ان يعتصم المحسود بأنفته ويغار على حوزته ، وأن يعرف قدره ولا يفرط في حقوقه ، فذلك قمين أن يهيج حفاظهم ويهبط بهم إلى مادون حضيضهم ، ويخيّل لنا أن سعداً قد لقي الكثير من سفساف هؤلاء الحاسدين الصغار من أصحاب المناصب والمراسم ، ولو شاء لأعرض عنهم واكتفى بما يعرفه الناس من قدره وأقدارهم ، ولكنه رجل عملي لا يرضيه من الاقناع إلا الاخام العملي والارغام العملي ، وإلا الواقع الذي تبطل معه المكابرة والملاحاة ، فجوابه على من يستطيل عليه بمنزله أن يحتل هو تلك المنزلة ، ويريح نفسه من « عناء التوفيق بين الباطن والظاهر وبين الضمير والقانون » كما قال ، وتلك طبيعة فيه لانظنه كان قادراً في يوم من الأيام على الاغضاء عنها والتهاون فيها ، سواء في أيام المحاماة أو القضاء أو الوزارة أو الزعامة وشبيهه بقبوله القضاء اجتهاده في تحصيل إجازة الحقوق وهو في نحو الأربعين ، قاض كثير الأعمال ، وزوج حديث عهد بالزواج

فقد أبدى رأياً في إحدى المسائل الفقهية فعجب رئيس الجلسة الانجليزي لصدور هذا الرأي منه ، أو تظاهر بالعجب وهو يقول له : إن هذا الرأي لحقيق بمن درسوا العلوم التشريعية وأحرزوا فيها الاجازات من أمثال فلان وفلان ، ولا ندري لماذا خاطبه رئيس الجلسة بهذه العبارة . فلعله أراد أن يعض من عزته ويسيء اليه ، ولعله لم يفظن لموقع العبارة من نفسه ولم يتجاوز بها عادته من الصراحة والخشونة . ولكن سعداً أحس منها أنها تصغير له واستطالة عليه بالشهادات بين زملائه ، فكان جوابه عليها ثلاث سنوات في دراسة الفرنسية والعلوم التشريعية ! والحصول على الاجازة « في سنة

١٨٩٧ « بدرجة متفوقة ، وهذا جواب بالعمل لاموضع بعده لمكابرة ولا حاجة معه إلى كلام !

ومن ثم تتجلى لنا البواعث الكبرى في نفس سعد إلى العمل في كل ميدان لا في القضاء وحده ولا في المحاماة وحدها ، وهي العزة والكرامة وفرض هذه الكرامة على المكابرين والمتعنتين كلما وجب أن تُفرض ، وفي هذا السبيل يهون المال ، ويهون العناء ، ويهون كل شيء

بيد أننا حريون أن ننظر اليوم إلى التعيين في مناصب الحكومة بغير العين التي كانوا ينظرون بها إليه قبل أربعين سنة ، فان وظائف الحكومة اليوم فائضة بحاملي الشهادات المستجمعين لشرائط الاستخدام ، لا يكون التفات عليها إلا علامة عجز عن أعباء الحياة ورغبة في التواكل والخمول ، أما قبل أربعين سنة فقد كان البحث عن الموظف الكفو - ولا سيما في القضاء - مشكلة قومية من أعسر المشكلات ، وكان ملء الوظائف بذوى الكفاءة والنزاهة عملا وطنيا جليلا يساوى الاشتغال اليوم ببناء المصانع وتأسيس الشركات ، وكانت قلة الموظفين الأ كفاء الأمانء حجة للأنجليز على المصريين في دوام الاحتلال . ثم كان سعد أول محام انتقل من المحاماة إلى القضاء وأثبت أن المحامي لا يقل عن القاضى في فضله أو في مكاتته الرسمية والاجتماعية ، وهي مرحلة ذات بال في تاريخ الوظائف وتاريخ المحاماة وتاريخ سعد وتاريخ التقديرات الاجتماعية ليس الاعراض عنها بمعقول ولا بمحمود . وإذا كان الاقبال على الوظائف الحكومية اليوم دليل العجز عن أعباء الحياة الحرة فمن ذا الذى يقول إن سعدا قبل الوظيفة لعجز عن تلك الاعباء ؟ بعد أن نال من الصيت والكسب في عالم المحاماة ما نال ؟

لقد أنصف سعد صناعته وأنصف كرامته ولم يظلم إلا نفسه بقبوله تلك الوظيفة التي تحد من رزقه على قول زميله . بل أنصف القضاء والقضاة كدأبه في تعظيم كل عمل يتولاه : وقلبا صان كرامته أحد الإسرى الصيان

الى العمل الذى هو فيه ، وهكذا أصبح من العسير بعد أن أصبح سعد قاضيا أن يعامل القضاة بغير ما يحمل ويليق بجرمة القضاء ، وأول ما بدا من ذلك أنه استنكر من وزارة الحقانية أن تعلن خطأ القاضى فى رسائل رسمية تذاع على جميع المحاكم ببيان الخطأ وتصحيحه حسبما تراه الوزارة ! فعدلوا عن الاعلان الصريح شيئا فشيئا إلى توجيه الرسالة سرأ إلى صاحبها المقصود ، وكتبان اسمه فى الرسائل التى تذاع على جميع القضاة ، وقس على ذلك نظائر شتى من معاملات كل ساعة ومناسبات كل حالة ، مما يحدث ويتكرر يوما بعد يوم ، ويكون له أبلغ الأثر فى ترقية القضاء ، ولكنه لا يدخل فى إحصاء

سمعت من السيدة الجليلة صفية زغلول أن سعداً كان ينذر فى أوائل عهده بالمحاماة لئن أربى دخله على ستين جنيهاً فى الشهر ليدافع عن الفقراء الذين يقصدونه بغير جزاء .. وسمعنا كثيراً عن قضايا الفقراء التى كان يهتم بها كاهتمامه بالقضايا التى يتناول عنها أحسن الأجور ، بل سمعنا عن دستور المشهور الذى فرض به على نفسه أن لا يطلب فى قضية أكثر من خمسمائة جنيه بالغاً ما بلغ شأنها من الضخامة وكأنا ما كان أصحابها من اليسار . وقد ظل يذكر نذره للفقراء أيام المحاماة إلى ما بعد قيامه بالنهضة الوطنية الأخيرة . فقال لقرينته الجليلة : « الآن نوفى كل ما فاتنا من دفاع عن المظلومين . فهذه قضية المصريين جميعاً ، والغنى منهم فى طلب الاستقلال فقير »

لكننا نعتقد أن المظلومين والضعفاء الذين أنصفهم سعد بالحكم لهم أضعاف المظلومين والضعفاء الذين استطاع أو كان يستطيع أن ينصفهم بالدفاع عنهم ، ففى كل قضية نظرنا مظلوم على الأقل قد أمن الجور أو استرد حقه المضيع ، واشتهرت معدلة القاضى سعد فى أنحاء البلاد فاستطاعت كل مدينة أو بلدة أن تتحدث عن مآثرة من مآثره فى فض المشكلات وجلاء الخفايا والضرب على أيدي أصحاب المطامع والألاعيب . ومن هذه المدن مدينة فى أقصى صعيد مصر هى اسوان بلدة كاتب هذه السطور . ففىها أيضاً سمعنا قبل

نيف و ثلاثين سنة بحكم من أحكامه في قضية ولا كالقضايا . تقلبت بين المحاكم
من اسوان إلى قنا ومن قنا إلى القاهرة زهاء عشر سنوات ، ولم يكتب لها
الفصل الأخير إلا على يدي سعد زغلول

كان صاحب الدعوى فقيراً لا يملك شيئاً لأن ما يملكه كله قد استولى
عليه خصمه وهو غائب منقطع في السودان أيام الثورة المهدية ، وكان خصمه
رجلاً غنياً مفرط الذكاء شديد العناد واسع العلم بالحيل القانونية التي تعوق
تنفيذ الأحكام أو تؤجلها من موعد إلى موعد ، ملها بمداخل الدواوين ومخارجها
وطرائق النفاذ إلى الموظفين بالشفاعة تارة وبالهدية تارة أخرى ، وكان قد
استولى على ملك غريمه فأصلح فيه وبدل أيام كان هذا الغريم مهاجراً في
السودان على عهد الدراويش ، لا ترجى له عودة أو يظن أنه فارق الحياة . فلما
فتح السودان وأبيح النزول منه وعاد صاحب الملك إلى بلده يطلب حقه لم
يجد سميماً ولا مجيباً . وأصبح — وهو الغني — فقيراً حائراً لا يعرف كيف
السييل إلى القضاء ، ولا يكافيء خصمه في المال ولا في الحيلة ولا في المعرفة
بلجاجة المقاضاة ، أو أصبح كما كان يقول لمن يلقاه وهو في حيرته لا يدري
من وسيلة غير الشكاية والتشهير : « غنمى — أى نهبنى — الدراويش في
الغربة وغنمى هذا الرجل في بلدى ... »

وطالت السنوات بالقضية ولا جدوى ، فكلما دنت من الحكم احتال
الخصم الغني الذكي في تأجيلها إلى أمد بعيد ، وكلما صدر حكم فيها احتال في
تعويقه بالتماس أو اشكال أو ما شابه ذلك من أحاييل التنفيذ ، وأيسر حيله
في ذلك أن يعتمد على علم أجنبي يرفعه على الدور والدكاكين ، ويقدم إلى جانبه
يونانياً أو إيطالياً فقيراً يتصيد من أنحاء أسوان بأبخس الأجر

ويؤس صاحب المال من رد ماله فهم أن ينزل عن بعضه وفتح خصمه
في الأمر فأبى وأعرض عنه ، لا عزازه بمكانته ويقينه من غلبته ووصول
الخلاص في القضية إلى أقصى مداه ، فانقسمت أسوان إلى معسكرين متناظرين

على ماجرت به العادة بين أهل الري ، في أمثال هذه القضايا . . . واشتهرت
القضية بين الظرفاء من قراء الصحف « بقضية » « دريفوس » !
ثم انتهت إلى مرحلتها الأخيرة في القاهرة ، فاجتمع أحد أنصار الخصم
الغنى الذكى بأحد أنصار الغريم الفقير ، وكان الأول ثملاً لا يضبط لسانه فزين
له السكر أن يغيب صاحبه فراح يهزأ به ويقول له : « عوضكم الله في القضية
خيراً . إن المال قد لعب فيها لعبه الذى لا يخيب ، وإن فلانا قد دفع إلى فلان
الف جنيه ووثق من النتيجة ، فلم يبق لكم إلا أن تنطحوا الجبل ! »

وأسرع من سمع هذا الكلام إلى نائب أسوان فى مجلس الشورى ،
وأسرع هذا إلى الأستاذ الامام فى عين شمس ومعه الرجل المنكوب وهو
يكاد يجن من الفزع واليأس بعد أن أصبح على مقربة من النهاية ، وكان
نائب أسوان يزور الأستاذ الامام لزمالته فى المجلس ، فقص على الأستاذ
مأسمع وترك الرجل يقص عليه ماجرى له من السودان إلى القاهرة ،
فأدركت الأستاذ تلك النجدة التى اشتهر بها واشتهر بها أشباهه من تلاميذه
ومريديه ، وسعى إلى الاطلاع على القضية بحذافيرها فأجيب فى وزارة
الحقانية إلى طلبه لما كان له من المنزلة وعلو الكلمة ، وما هو إلا أن
استوعب أوراقها حتى علم صدق الرجل وأحس ما أصابه من الحيف والكمد
والحيرة فى السنوات الطوال التى قضها بين انتظار يتلوه انتظار إلى غير
قرار ، فتارة ينتظر مناقشة الخبراء وتارة ينتظر حكم القضاء ، وتارة ينتظر
التنفيذ أو الفصل فى التماس أو إشكال أو استئناف ، وهال الأستاذ أن
يهضم صاحب الحق هذه الهزيمة بين سمع القانون وبصره ، تخفف إلى
الروساء فى وزارة الحقانية فأفضى اليهم بشكوكه واقترح عليهم أن يدفعوا
الريبة باحالة القضية إلى دائرة يرأسها سعد زغلول ، فقبلوا اقتراحه

وجاء يوم الجلسة (التاسع من شهر مايو سنة ١٩٠٥) والخصوم لا يعلمون
بشيء مما حدث ، واذا بهم يجدون دائرة غير الدائرة ، ويباغت الغنى الذكى

فيلغى توكيل محاميه ويتحيل بذلك لتأجيل القضية إلى جلسة أخرى ، فحبطت جميع حيله ، ومضى الفقير المظلوم يشرح مصائبه ومتاعبه ويقول على عادته في ختام كل شكوى : « الدراويش غنموني في السودان وهذا الرجل غنمني في أسوان » . . . والتبست العبارة على سعد زغلول وسأل عن معناها ففسرها له بعض الأسوانيين الحاضرين في الجلسة . فقال للرجل مبتسما : « دراويش ورامك ودرأويش أمامك يامسكين » . . . وفضن محامي الخصم لمعنى مارأى وماسمع فجمع أوراقه والتفت إلى صاحبه يقول له : « لا فائدة ! » . . . وقد صدق حدسه وصدر الحكم على أثر ذلك بتأييد حق الفقير المظلوم

فاذا كانت إغاثة المهضومين في المحاكم على هذا النمط فليس لهم أن يأسفوا لانتقال سعد من الدفاع عنهم إلى الحكم لهم ، وليس لسعد أن يأسف على النذر الذي كان قد نذره أيام المحاماة ، فان قضاءه أوفى بذلك النذر من الدفاع بغير أجر عن صاحب الحق الضعيف

ترقى سعد في الوظائف القضائية من مرتب خمسمائة وأربعين جنيها إلى ألف جنيها في السنة ، وأحرز رتبة التمايز بعد سبع سنوات ، وأنعم عليه بعدها بالنوط المجيدى الثالث . وبقى في هذه الوظائف أربعة عشر عاما من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٦ التي دعى فيها للوزارة . وأوجز مايقال عن تاريخه في تلك الوظائف — وهو في الوقت نفسه أوفى مايقال — إنه لم تكن قط في سجل القضاء صفحة أنقى ولا أجمل من صفحة سعد زغلول

في طريق الوزارة

انتقلت مصر بعد هزيمة الثورة العراقية إلى شيء من الذهول

فأما الجيل العراقي فقد تفرق زعمائه بين النفي والسجن والاضطهاد والاعتزال ، ولو أنهم تركوا أحراراً لما استطاعوا القيام بعمل يذكر في الأحوال الجديدة . لأن الجيل الواحد قلبها يقوى على النهوض بدورين متعاقبين ، ولا سيما بعد الهزيمة الصريحة ، وأما الجيل الجديد فلم يكبر بعد ، ولا بد من انتظاره بضع سنوات

ولبثت مصر زمناً في حالة من الخمود والاعياء ، ولعل الأصح انها كانت في حالة الترقب والانتظار ، ريثما تنجلي الأيام عن مصائر الأمور

فلم يدر الناس في مبدأ الأمر ماذا يصنع الانجليز؟ وماذا ينوون أن يصنعوا؟ أغلب الظن انهم باقون في مصر إلى زمن لا تعرف له نهاية! ولكن ماذا تصنع أوروبا؟ وماذا تصنع فرنسا على الخصوص؟ وماذا تصنع الدولة البريطانية في ايمان الشرف التي أقسم بها رجالها؟ وماذا تصنع بالوعد التي صرحت فيها بأنها لم تقدم إلى مصر إلا لتوطيد عرش الامارة؟

لم ينجل ذلك كله في بادئ الأمر ، ولكنه أخذ ينجلي رويداً رويداً حين أخذت الدولة البريطانية في انتحال الأعذار عاماً بعد عام لتطويل أجل الاحتلال . فبعد ان كان قدومها إلى مصر لتوطيد عرش الامارة أصبح لها غرض آخر وهو تنظيم الادارة المصرية تنظيمًا يكفل سداد الديون الأجنبية... ثم أخذت تزعم انها ستعنى بتربية المصريين وتدريبهم على حكم أنفسهم واستلام مقاليد الأعمال في بلادهم ، وعرضت على السلطان عبد الحميد مرة أن تغادر مصر على أن تعود إليها لتوطيد النظام إذا طرأ فيها ما يدعو إلى ذلك ، فأبى السلطان أن يبرم مع الدولة البريطانية معاهدة بهذا المعنى ، لأنه اعترف لها بحق الحماية أو ما يشبه الحماية ، وشجعته فرنسا وروسيا

على الرضا لانهما حسبنا أن انجلترا لم تقترح هذا الاقتراح إلا وهي تشعر
بتزعزع مركزها في مصر وتنوي أن تعود إليها بحجة أثبت وأوضح ، فعن
لهما أن ترك انجلترا حتى تجلو في زمن قريب خير من جلائها بمثل هذه
المعاهدة ثم عودتها بحجة مشروعة لا تقدر الدول على مناقشتها

وبعد أن جاء مختار باشا الغازي إلى مصر — سنة ١٨٨٥ — للبحث في
المعاهدة المقترحة سكنت المسألة وعدل الانجليز عن متابعة البحث فيها. وفي ذلك
دليل على اتجاه الأفكار يومئذ بين المصريين والانجليز والدول الأوربية والدولة
العثمانية فيما يتعلق بمركز الاحتلال وما يقدر له من الدوام ، وفيه دليل على
الاسباب التي كانت تملي للمصريين في حالة الترقب والانتظار ، مع ما هم فيه
من الاعياء الذي لا تسهل معه الحركة ، ولا سيما الحركة إلى غير اتجاه
معروف

وكان الانجليز عقب الاحتلال يتقربون الى الناس بالعدل وتنظيم الشؤون
الحكومية ، ويحسبون أنهم يجتذبون اليهم قلوب المصريين بهذه السياسة
ويصرفونهم عن الاستقلال والحرية الوطنية ، ثم انكشفت حقيقة مطامعهم
وتبينت نية البقاء الطويل من أعمالهم وتمهيداتهم ، وقد كان جيل الثورة يذكر
دسائس الحكومة البريطانية قبل الاحتلال ويعلم أنها هي التي أحبطت الثورة
وتوسلت بها إلى دخول مصر وتحقيق مطامعها القديمة في الاستيلاء على طريق
الهند ومفتاحها من قناة السويس ، فلم يؤخذ بتلك المظاهر وسامت ظنونه
بكل غرض من الإصلاح ، ثم نبت جيل جديد يشعر بالنفور الطبيعي من الحكم
الأجنبي ولا يسمع من دعاوى الاستعمار البريطاني إلا كل ما يريب ويشير
فانبثقت ينابيع الحركة الوطنية هنا وهناك ، وكان انبثاقها كما رأيت من
مصادر شتى بين بقايا الجيل الماضي وبواكير الجيل الحاضر ، فلم تكن على اتفاق
في غير الشعور بالنزعة الوطنية ، وحتى هذا لم يكن متفقاً منسجماً في معناه
ومرماه ، لأنه كان يمتزج أحياناً بالعلاقة العثمانية والصبغة الدينية ، وكان يمتزج

أحيانا أخرى بسوء فهم للمصلحة المصرية والسبيل الأقوم لنجاح القضية القومية .

وتغلغل سوء الظن عند جميع المصريين فدأبوا على تزييف كل دعوى يدعيها الإنجليز وكل حجة يتذرعون بها إلى إطالة أيام الاحتلال ، ولما كانت حجة توطيد العرش قد انتهت زمانها وانتهى معها زمان الحجج التي من قبيلها فقد أصبحت دعواهم محصورة في تربية الأمة واعدادها لحكم نفسها.... وأصبحت هذه الدعوى هدف الحملة الكبرى من كل جانب بعد أن سلك الإنجليز مسلكهم المغيب في وزارة (١) المعارف وأهملوا التعليم الصحيح إهمالا ظاهرا مقصودا لا تجدى فيه المغالطة ، وحصروا همهم كله في المدارس على تخريج الموظفين ومن لا يحسنون ابتغاء الرزق من غير الوظيفة ، فصار « التعليم » هو الراية التي يحارب حولها دعاة الوطنية من جميع الصفوف .

والآن نحن نعرف الأحزاب السياسية والانتخابات الحزبية ، ونحسب أن مصر لم تخل قط من هذه الأوضاع والمراسم في عهد من العهود ، فيجب أن نذكر أن أحزابنا كلها ما بقي منها وما انقرض لم تكن معروفة قبل ثلاثين سنة ، ولم يكن في مصر كلها حزب واحد له اسم وبرنامج ورئيس وأعضاء على النحو المعهود بيننا اليوم . وأن القرن التاسع عشر كله قد انتهى ولما تبدأ الأحزاب المصرية في الظهور ، وأن المرحوم مصطفى كاملا زعيم الجيل الجديد بعد الثورة العرابية لم يظهر له اسم في السياسة المصرية قبل سنة ١٨٩٥.. وأنه لم ينشئ صحيفة اللواء إلا بعد ذلك بخمس سنوات... يجب أن يذكر الناشئ في جيلنا الحاضر كل هذا ليفهم كيف إن رجلا كسعد زغلول يكون محاميا في بعض تلك الفترة ثم لا يكون زعيما لحزب ولا داعيا في حركة وطنية ، كما ينبغي لرجل رشحته الحوادث في الشيخوخة لزعامه الأمة بأسرها

(١) كانت الوزارات تسمى يومئذ بالنظارات. ولكننا آثرنا اسم الوزارة لتوحيد التسمية في جميع فصول الكتاب .

فجهد ما كان يصنعه المصري الراغب في خدمة بلاده يومذاك أن يساعد على إيقاظ الحمية الوطنية ورفع صوتها من جهة ، وأن يعمل ما استطاع لتعميم التهذيب والتعليم والثقافة من الجهة الأخرى ، وذلك ما كان سعد يعمل في الوظيفة وقبل الوظيفة ، فأمد الشيخ على يوسف بالمال لاستبقاء صحيفته التي لم يكن للبلاد صحيفة وطنية غيرها ، وبذل له مائة جنيه — وهي في ذلك الوقت مبلغ غير قليل — ليؤديها إلى شريكه الشيخ ماضي وينقذ الصحيفة من الاحتجاب ، وفي ندوة سعد وصحابته كان مصطفى كامل يتلقى التشجيع والتحييد يوم أن برز على مسرح السياسة المصرية للمرة الأولى .

وكانت الدعوة الوطنية كما أسلفنا شعباً مختلفات في المقصد والنتيجة المأمولة ، فمنها ما كان يتجه إلى الدولة العثمانية ، ومنها ما كان يتجه إلى فرنسا لأنها أكبر الدول الأوروبية التي كانت تناوى انجلترا في مطامعها الشرقية ، ولم يشترك مع هؤلاء ولا هؤلاء حصفاء الثورة العراقية الذين شهدوا بأعينهم تذبذب السياسة الفرنسية والسياسة العثمانية قبل الاحتلال . فقد رأى رجال هذا الفريق ما هو حسبهم وزيادة من هذه الآمال الكاذبة وهذه الجهود العقيمة . فاستقاموا على الطريق الوحيد المفيد الممهّد لهم وهو طريق النهضة المصرية الصميّة واستقلال المصريين أنفسهم بطلب الاستقلال ، وتزويد الأمة بعدة العلم واليقظة والمثابرة ، لأنه مامن وسيلة إلى الاستقلال في رأيهم أنجع من وسيلة فهمه ، والاستعداد له ، والاصرار على طلبه ، ومن هذا الفريق كان أناس من فطاحل المصريين أمثال محمد عبده وسعد زغلول

وكانت خطة سعد أن يساعد مخالفة فيما من شأنه إيقاظ الشعور وبث الحمية الوطنية ، ولكنه يقف عند هذا فلا يرجو الاستقلال من الدولة العثمانية ولا من الدولة الفرنسية ولا يعول فيه إلا على الترية الوطنية واستقلال الأمة بالمطالبة ، وكل أولئك هو مستطيعه من حيث عمل في المحاماة ومن حيث كان يعمل في القضاء ، فلم تسنح له فرصة لخدمة الدعوة الوطنية على حسب اعتقاده إلا انتهزها وعمل

فيها كل ما هو قادر عليه ؛ أيد مصطفى كاملا وعلى يوسف وغيرهما من كتاب الصحافة فيما تكفلوا به من إيقاظ روح الأمة وتكوين رأيها ورفع صوتها وإن لم يؤيدهم في توجيه الأمل إلى العثمانيين أو الفرنسيين ، وأيد قاسم أمين في تحرير المرأة وإصلاح الحياة الاجتماعية فلم يجد قاسم من يهدى إليه كتابه غيره .

ولما هبت في البلاد تلك الدعوة المباركة إلى إنشاء الجامعة المصرية كان هو على رأسها وتبرع لها مع المتبرعين بمائة جنيه ، ومن منزله صدر منشورها الأول إلى الأمة في الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٩٠٦ - وفيه يقول بلسان المجتمعين :

« في هذه السنة هب في الرأي العام تيار من نفسه لتحقيق هذه الأمنية لأن الأمة انتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها ناقصة ودأثرته ضيقة تقف وتنتهي بالطالب قبل بلوغ الغاية ، وان من وراء الحدود التي انحصر فيها معارف سامية وحقائق عالية وقضايا جليلة ومشكلات غامضة تشتاق النفوس إلى حلها ، واختراعات جديدة وتجارب بديعة واختبارات كثيراً ما شغلت وتشغل عقول كبار العلماء في أوروبا ولا يصل إلينا منها إلا صداها الضعيف . فمنها ما يختص بالوجود وما يتعلق بالهيئة الاجتماعية وما يبحث فيه عن لغة الانسان وعن الآداب والفلسفة والشرائع والترية وكل ما يهيم ماضى الانسان وحاضره ومستقبله ، وهو موضوع علوم شتى لا يعرف واحد شيئاً منها ولا يهتم بما كمل منها ولا بما هو سائر نحو الكمال ، وأبلغ من ذلك أنه لا يوجد لدينا درس نعرف منه قيمة المؤلفات العربية في الآداب والفلسفة والعلوم ولا قيمة من اشتهروا من مؤلفيها عند الاورباويين الذين بحشوا عنهم وعرفوهم ووفوهم حقهم من الاجلال والاحترام

« ان جميع الذين يشعرون منا بنقص تربيتهم العقلية يرون من الواجب أن يتقدم التعليم في بلادنا خطوة نحو الامام وأن أمتنا لا يمكنها أن تعد في

صف الأمم الراقية لمجرد أن يعرف أغلب أفرادها القراءة والكتابة أو أن يتعلم بعضهم شيئاً من الفنون والصناعات كالطب والهندسة والمحاماة . بل يلزم أكثر من ذلك : يلزم أن شباننا الذين يجدون في أوقاتهم سعة ومن نفوسهم استعداداً يصعدون بعقولهم ومداركهم إلى حيث ارتقى علماء تلك الأمم «
وفي المنشور إفاضة في هذا المعنى ، ولكن ما تقدم كاف لبيان الغرض الذي توخاه سعد وأصحابه من إقامة جامعة كبيرة في مصر ، وحاول في أخريات أيامه أن يعود بالجامعة إليه ، لأنه كان يعتقد أن قيام المدارس العليا في بناء واحد لا يحقق الدراسة الجامعية التي تشعر الأمة بالنقص فيها والحاجة إلى استكمالها .

سنة ١٩٠٦

من حق هذه السنة التي صدر فيها مرسوم الجامعة أن تترىث عندها قليلا لأنها أول سنة ذات بال في تاريخ الحركة الوطنية بعد الاحتلال فقد علم الانجليز لأول مرة أن «أعيان المصريين» الذين حسبوهم بمعزل عن حركة الحرية الناشئة يؤازرون هذه الحركة بقلوبهم ولا يحجمون عن التصريح بتأييدها في الآونة المناسبة . فلما حضر ولي عهد إنجلترا إلى مصر كتب اليه جماعة من الأعيان يذكرونه وعود الجلاء ويومئون إلى خطة إنجلترا في معاملة البوير بالحسنى بعد هزيمتهم في ميدان القتال ، ويعلنون رغبتهم في استقلال الحكومة المصرية راجين من حكومة الأحرار في إنجلترا أن تكون على مبادئها فلا تنكر على مصر حقها في الحرية «

وفي هذه السنة وقع الحادث الأكبر الذي علم الانجليز منه حقيقة الشعور الذي يشعر به الفلاحون الصغار لابسى « الجلايب الزرقاء » نحو الاحتلال البريطاني ، بعد ما حسبوهم زمنا طويلا من أنصارهم الراغبين في حمايتهم لهم من ظلم الباشوات ومفسدات الحكومة الوطنية . . . ونعنى به ذلك الحادث الفاجع الذي اشتهر باسم قضية دنشواى ، والذي كان له من الأثر في إيقاظ هذه الأمة ما لم يبلغه حادث سواه في الجيل كله . إذ ليس في مقدور المؤرخ أن يذكر قبل الحرب العظمى حادثا جمع قلوب المصريين كما جمعها قضية دنشواى ، وآلم نفوسهم كما آلمتهم ، وأحيا شعور التضامن القومى كما أحياه بينهم ، وينبئنا عن ذلك بعض النبأ ما كتبه قاسم أمين في مذكراته حيث يقول : « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجزارة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى . رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا

مخوقاً ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات . كان الحزن على جميع
الوجوه : حزن ساكن مستسلم للقوة محتلط بشيء من الدهشة والذهول .
ي الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . منظرهم
يشبه منظر قوم مجتمعين في دارميت ، كما كما كانت أرواح المشنوقين تطوف
في كل مكان من المدينة »

والواقع أن قضية دنشواي كانت نقمة في طيها رحمة . لأن مستعمري
الانجليز آمنوا بعدها بالقومية المصرية إيماناً لا يجدي فيه التجاهل ، وعلوا أن
الفلاح وابن المدينة المتعلم في الشعور الوطني سواء ، وإن إصطناع المودة للفلاحين
لا يجعلهم انجليزا ولا ينسبهم أنهم مصريون ، ورأوا رأى العين نفور أصحاب
« الجلاب الزرقاء » من الرداء الأحمر المغير على أرضهم وأرض آبائهم
وأجدادهم . فحفظوا قليلاً من جواهر النعمة التي كانوا يرمون بها حب
الفلاحين لهم وحبهم هم للفلاحين . . . وذهبوا يلتمسون العلل من ناحية
التعصب الديني تارة والدسائس الأجنبية تارة أخرى ، لهذا النفور الذي كانوا
يستغربونه أو يعلنون استغرابه . . . وليس فيه غريب .

خلاصة هذا الحادث أن بعض الضباط الانجليز خرجوا في رحلة لهم إلى
الأسكندرية يصطادون الحمام على مقربة من أبراج قرية دنشواي ، فعلوا ذلك على
الرغم من تنبيههم كثير إلى إجتنب الصيد في جوار القرى ، فخرحوا امرأة وأحرقوا
جريناً واحتدم بينهم وبين الفلاحين شجار أصيب فيه جماعة من الفلاحين وثلاثة
من الضباط ، وجرى أحد هؤلاء وهو مجروح - إلى المحطة القريبة يلتمس النجدة
فسقط ميتاً بالرّعن (ضربة الشمس) بعد مسافة غير قصيرة ، لأن القيظ
كان على أشده في الثالث عشر من شهر يونيو ، فلم يقو الضباط الانجليز
على احتمالها بعد ما أصابه من جهد الصيد والجرح والعدو الطويل .

حدث هذا والموظفون الانجليز الذين أقلقتهم بوادر الوثبة الوطنية يتوقون
إلى مناسبة يضربون فيها الضربة المصمية ويبتشون فيها رهبة الدولة البريطانية ،
فلم يترددوا في إغتنام هذه المناسبة ، وأصدروا الأوامر برسالة المشنقة

وأدوات التعذيب إلى دنشواى قبل انتقال المحكمة . وبعد يومين اثنين من وقوع الحادث كانت المحكمة قد انعقدت ، وكان الحكم قد صدر ، وكان المستشار الأنجليزى ينفذه بين الجند المسلحين على مرأى من الآباء والأبناء والأقارب والأزواج ، وهو يقضى على أربعة من الفلاحين بالشنق واثنين بالسجن مدى الحياة ، وثلاثة بالسجن سنة وجلدهم خمسين جلدة

وازدادت شناعة الحكم بشناعة التنفيذ ، فكان المشنوق ينظر إلى الجمهور والجمهور ينظرون إلى المشنوق ، والشيوخ والأطفال والنساء ينظرون من قريب إلى المشنوقين والمجلودين بين صفوف الجند المحدقين بهم ، وهم يققعون بالبنادق والسيوف ، والمستشار فى خيالاته يجول بينهم ويصول

إن القارىء ليتخيل الآن وقع هذا الحادث الأليم فى نفوس المصريين ، ويعينه على تخيله ذلك الوصف الوجيز الذى وصفه به قاسم أمين فى مذكراته ، ويزيده قدرة على التخيل أن يعلم أن قاسماً كان يكتب لنفسه ولم يكن - على إتصاله بالأصلاح الاجتماعى - من المغموسين فى الحوادث السياسية ، لكن كلام قاسم وكل كلام موجز أو مسهب يقصر عن تمثيل ذلك الوجوم المرهوب الذى خيم على الأمة المصرية يوم تسامعت بأبناء الحكم وأبناء تنفيذه ، ولقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى اسوان ، فأغمى على واحد منا ولم نستطع إتمام القراءة إلا بصوت متهدج تخنقه العبرات

وحسب القارىء من هذا الحادث أن يعلم أن غضب الأمة قد هال الوزراء الأنجليز أنفسهم وزرع بينهم سمعة كرومر بعد طول الإعجاب به والاعتماد عليه ، ودق المسامير الأخيرة فى نعش سياسته المصرية ، فعاد إلى القاهرة مقسوراً على إتباع سياسة جديدة غير سياسته الأولى من التجاهل والكبرياء ، ولم يكن يدري أنها سنته الأخيرة التى عزل بعدها وأذيع خبر عزله قبل أن يعلم به ! ولولا عادة الحكومة البريطانية أن تدارى هزيمة رجالها لعزلته فى أعقاب الحادث ، بغير إبطاء ، لفرط ما فاجأها من سخط الأمة المصرية وسخط الذين سمعوا به فى أوروبا والبلاد الأنجليزية .

وزارة المعارف

عاد اللورد كرومر إلى القاهرة في ختام السنة - أوفى مطلع السنة السياسية بخطة جديدة تميل إلى الاعتراف بالوطنية المصرية وتخوّلها حقاً في حكومة البلاد أكبر من حق الأصغاء والتسليم ، وتحاول ما وسعها أن تنفي التهم الكثيرة التي أحاطت بنيات الدولة البريطانية وفي مقدمتها إهمال التعليم عمداً وحرمان الشبان المصريين حظ التربية الصالحة والتثقيف النافع . فكان أول ما بدأ من دلائل هذه الخطة الجديدة دعوة سعد زغلول بك ليتولى وزارة المعارف العمومية ، وهو الرجل الذي تصدى قبيل ذلك لنقد التعليم في مصر ، وإنشاء جامعة كبرى تستدرك ما فيه من نقص وخلل .

ولم تكن هذه أول مرة عرض فيها اسم سعد لولاية الوزارة مع فئة من أبناء الفلاحين المعروفين بالنزاهة والحصافة ، فقد كان ترشيحه للوزارة من المطالب التي اشترك في طلبها مستر بلنت الشاعر الأيرلندي المستشرق والشيخ محمد عبده ومحمد المويلحي بك منذ سنة ١٨٩١ . وكتبوا بذلك خطاباً إلى لورد كرومر ذكروا فيه اسمه مع أسماء تسعة آخرين .

وكان لورد كرومر يعرف سعداً من زيارته لنادي الأميرة نازلي فاضل ، ويسمع عنه من أحاديث الأستاذ الامام ، ويعلم ما اشتهر به في القضاء من الجِد والنزاهة وحسن الدراية ، ويتبين فيه تلك الصفات التي جعلته يقول في خطبة الوداع بعد ذلك بنحو سنة : « إن هذا الرجل قدير شجاع في عقيدته . وقد علمني كيف أحترمه » وهي كلمة كبيرة من عميد بريطاني ، شديد الاعتداد بنفسه وبجنسه كاللورد كرومر ، لم يقلها عن مصري ولا نذكر أنه قالها عن صاحب من أصحابه الأنجليز أو الأوربيين .

ومن المحقق أن لورد كرومر عرف من اللحظة الأولى بعد لقاء سعد في

نادى الأميرة نازلى أنه يرى رجلاً كالرجال وموظفاً مصرياً لا يعد من أحلاس
الوظائف المتملقين . فقد جلس معه ساعة فأدهشه أن لا يسمع منه ملقاً أو
وصية أو رجاء كما تعود أن يسمع من رواد النادى ومن طلاب الحاجات الذين
يلقاهم فى كل مكان ، فسأله بين المزح والجد والاستطلاع : « والآن
ياسعد بك اليست لك حاجة ؟ » أو قال له فى عبارة أخرى : « وأنت اليست
لك حاجة أيضاً ؟ » فامتعض سعد لهذا السؤال ، وأحس فيه تعريضاً به وبغيره
من أبناء وطنه فقال له : « شكراً ! ولكن لم أسألك أنت قضاء الحاجات ؟ ! »
فلما عاد كرومر إلى مصر على أثر فاجعة دنشواى مزوداً من وزارة
الأحرار بسياسة الهوادة والتسامح مع الوطنية المصرية ، والتقرب إلى
المصريين الفلاحين بعد ما أصابهم من حيف فى تلك الفاجعة ، علم أن هذا
الفلاح أصلح الناس لأن يكون رمزاً واضحاً للاعتراف الجديد والتقرب
المقصود ، فتم الاتفاق على تعيينه وزيراً للبعارف العمومية ، وأعلن هذا
التعيين فى الثامن والعشرين من شهر أكتوبر ، أو فى مستهل السنة السياسية
تلقت الأمة وزارة سعد على هذا الاعتبار ، وفهمت منها أنها ابتداء
خطة جديدة فى السياسة البريطانية ، فيها معنى العدول عن التجربة الماضية
وفى معنى الترضية والاعتذار ، فقال المؤيد فى يوم تعيينه : « مضت إحدى
عشرة سنة وبضعة شهور على الوزارة المصرية وهيتها على حالة واحدة لم
يحصل فيها تغيير ولا تعديل بفضل سكونها وعدم حركتها حتى كادت تنسى
الأمة المصرية أن لها وزارة من كبار رجالها وصار كل عمل فى الدواوين
للمستشارين وكل ظلامه ترفع لهم وكل اعتراض يوجه اليهم . وبينما نحن
كذلك فى هذا القنوط من وزرائنا إذا برنة جرس قوية صلت على الآذان
فنبهت الأذهان إلى حركة جديدة فى الوزارة : حركة تعديل تبعث فى
النفوس أملاً جديداً من جانبها ، لأننا لانفهم بهذا التعديل الجديد معنى إلا
أن ولى الأمر ومستشاريه من أصحاب النفوذ رأوا أن يعيدوا للنظار شيئاً من

سلطتهم فلا يكونوا مع المستشارين كما هم قبل اليوم ، ولعل هناك تعليمات من قبل خارجية انكلترا قضت بذلك بعد الذي جرى من الحوادث في مصر وأساء المصريين »

ثم قال : « وسعد بك زغلول يعرفه المصريون قاطبة بالعلم والفضل وعلو المبادئ واستقلال الرأي كما يعرفونه بالمقدرة الفائقة . فيوم كان محامياً اشتهر بقوة عارضته وقوة بيانه وقوة استقامته ، وإذا اجتمعت هذه القوى في شخص رقت به لا محالة إلى ذروة الاحترام »

« ومنذ تولى القضاء في الاستئناف كان راية للعدل ومثالاً للنزاهة واستقلال الرأي ، فكم أنقذ ارواحا كانت ضائعة بغش التحقيق وغرور القضاء الابتدائي ؟ وقد عرف في كل أدوار حياته بالنشاط وحب المزيد من العلم والتضلع فيه حتى أنه وهو حوالى الأربعين من عمره تعلم الفرنسية حتى برع فيها وأدى بها امتحاناً نهائياً في الحقوق »

ثم قال : « وهو القائل بالأمس إن الأمة المصرية ينقصها العلم الصحيح وهو الداعي إلى الجامعة المصرية . فما يطلب منه في نظارة المعارف أضعاف ما يُطلب من سواه »

أما « اللواء » وهو لسان حال المتطرفين فقد كتب في التعقيب على تعيينه : « أن ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو في المحاماة أولاً وفي القضاء ، ثانياً يحملهم جميعاً على الارتياح لهذا التعيين الذي صادف مصرياً مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير وحب الانصاف والعدل »

« ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصباً لا عمل فيه وكان المستشارون الانكليز أصحاب السيطرة الثابتة في النظارات ، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول في نظارة المعارف : هل سيكون

كبقية الوزراء أمره وأمر المعارف بيد دانلوب ؟ أم يكون وزيراً أسماً وعملاً
ويحي سلطة الوزراء المصريين ؟

« اللهم إنا عرفنا سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكاً
بإستقلاله وحقوقه وأكثرهم انتقاداً على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم
وسمعه يقرع بلمهجة حادة الكسالى والمقصرين كباراً كانوا أو صغاراً ، فإذا
بقى سعد بك في وظيفته كما هو وكما كان — وهو مانعته — أملنا خيراً كبيراً
للمعارف ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة الحياة المصرية
إلى الوزارة

« على انه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيراً
للمعارف تقديراً لعلمه وإعلاناً لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية واتباع
لسياسة جديدة قاضية باعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة — فان
هذه السياسة تقضى قبل كل شيء بأن يكون الوزير وزيراً حقيقة وأن يكون
العامل عاملاً مؤدياً لوظيفته متمتعاً بكل حقوقه ، لا أن يكون آلة في يد
الموظف الانكليزى ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة
المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير والمحقق لآمال الأمة في نظارة خابت
فيها مع المستر دنلوب كل الآمال

« فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيراً للمعارف
إلا بأمل أن يكون كما كان على باشا مبارك والفلكى باشا وأمثالهما ممن خدموا
العلم في هذا القطر خدمات خالدة ، وكانت لهم في مناصبهم الكلمة النافذة
والرأى المتبع ، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك وأن
يكون في مستقبله كما هو في حاضره وكما كان في ماضيه ، الرجل المستقل الذى
لا يخذعه منصب ولا مال »

ولم تكتم التيمس غرض السياسة الجديدة من هذا التعيين فقال مراسلها
في القاهرة « إن الناظر الجديد الذى كانت له منزلة ممتازة في المحاماة والقضاء

هو من شيعة المرحوم محمد عبده الذين امتازوا بالارتقاء والنهذيب ، وهم الذين ساهم اللورد كرومر فريق الجيروندي في النهضة الوطنية المصرية — إشارة إلى الحزب الجيروندي في الثورة الفرنسية — وهو مصرى عريق في وطنيته أجمع الناس على اكرامه والاعجاب به نظرا لما اشتهر عنه من الاستقامة والاستقلال . اما تعيينه لمنصبه الحالي فسوف يعزز مركز الوزارة المصرية وهي تجربة جمعت بين الاقدام والتوسع ، ومن شأنها ان قد تدحض الانتقادات التي ترمى بها الحكومة من أنها مهملة للتعليم «

وقال الماركيز زتلاند Zetland الذي ألف كتابا في تاريخ اللورد كرومر بصدد هذا التعيين .

« ان كرومر نفسه قد خطا في سبيل صبغ الحكومة بالصبغة الشعبية المحبوبة خطوة الى الامام قبيل رحيله من مصر حين أوصى بتعيين مصرى معروف بنزعة الوطنية وزيراً للمعارف ونعنى به سعد زغلول ، وقد أوصى بهذا التعيين على أن يكون تجربة تلاحظ بالدقة الواجبة قبل تكرارها «

فما تقدم نرى ان تعيين سعد وزيراً للمعارف انما كان تسليما من الاحتلال للوطنية المصرية ولم يكن تسليما من الوطنية المصرية للاحتلال كما زعم خصوم سعد بعد ذلك في لجاج العداوة الحزبية المشوبة بالثرات الشخصية

وأنه لمن لغو القول ان يعزى تعيينه الى مصاهرة رئيس الوزراء وهو الرجل الذى يعتد بنفسه ويعتد به الناس هذا الاعتداد ، ولم يشتهر بشيء في حياته كلها كما اشتهر بالشخصية المستقلة والارادة الحديدية ، فمثل هذا الرجل لا يقع عليه الاختيار حين يكون المقصود رعاية غيره أو ارضاء صهره ، وانما يقع على رجل امعة لا خطر له ولا يذكر الا بالاضافة الى أقربائه .

وقد كان منصبه يرشحه للوزارة بغير محاباة بعد أن أصبح في طليعة المستشارين بمحكمة الاستئناف ، تضاف الى ذلك مزاياه الشخصية ، وتقدمه

بين شيعة الشيخ محمد عبده إمام المصلحين ، وتاريخه الماضي في الحركة الوطنية ، وانتقاده سياسة التعليم قبيل عرض الوزارة عليه ، والرغبة في ترشيح وزير من عنصر الفلاحين يكون انتقاؤه ترضية متفقا عليها للنهضة الوطنية ، فكل أولئك يخصصه ويكاد يسميه تسمية ولا يجعل له مزاحما واحدا بين زملائه ، عند البحث عن الوزير الذي يفتح بوزارته عهد السياسة الجديدة .

وكل أولئك يدل على أن جلوس سعد على كرسى الوزارة كجلوسه بعد ذلك على كرسى الرئاسة إنما كان ترشيحاً « قومياً » يراد به وجه الأمة المصرية ، وإنما كان خطة لازمة لم يجد التجليز محيصاً عن السير فيها ، إذعانا لمجرى الحوادث واعترافاً بمشيئة الأمة

ذلك إجماع الحوادث والآراء السياسية من كل جانب على استحقاق سعد لذلك الاختيار والتميز ، وعلى مطابقة تعيينه لجميع الدواعي والمناسبات في تلك الأيام . وما يلحق بهذا الباب أن نضيف إلى الإجماع المتقدم إجماع القضاة والمحامين الذين احتفلوا بتوديعه يوم ترك القضاء لولاية الوزارة فالمسيو « دى هولتز » الذى ناب عن المستشارين لأنه أكبرهم سناً يقول : « سألتزم الاختصار لأن المحكمة متنورة وهى تعلم مقدماً ماسأقول ، لأنها فى هذا الموضوع متفقهة معى فى الرأى والشعور ، ولا أطيل عليك يا عزيزى سعد فى تفصيل ما أنت عليه من صفات الكمال العقلية والعقلية . بل اكتفى بأن أقول : إنه ربما خطر ببالك عند ما تركت المحاماة إلى القضاء إن ذلك كان شرفاً لك . نعم إنه كان شرفاً ولكنه شرف لنا معشر القضاة . شعرنا به عقب وجودك بيننا إذ تمكنا من أن ننظر عن كشب إلى أخلاقك ومعارفك فنقدرك قدرك . إنك من بعض الوجوه قد تربيت فى حجر محكمة الاستئناف ، فهى تنظر اليك الآن وقد تركتها ودخلت فى عمل جديد

نظر آسفة على فراقك ، آمنة عليك ، لأنها على يقين من نجاحك فيه كل النجاح .
ومن المصادفات الطريفة أن القاضى الذى شهد له هذه الشهادة العالية
هو القاضى الذى حكم له بالبراءة فى شبابه على ما يذكر القراء

أما المحامون فقد قال كبيرهم الأستاذ عمر لطفى بك بلسانهم « نحن
معشر المحامين قد تلقينا هذا النبأ بمزيد الفرح والسرور وبغير استغراب .
لأننا عرفناك محامياً وخبرناك قاضياً ، فكنت فى كلتا الحالتين محل ثقتنا
واحترامنا وإعجابنا ، وكل منا يعتقد أنك أهل لأن تسند اليك المناصب
السامية التى يصح أن يتولاها من امتاز بالفضل مثلكم . ولا حاجة بنا أيها
الزملاء الى أن نشرح ما أثر المحتفل به لما كان محامياً فانكم تعلمون — أو يعلم
أكثركم كيف كان يدافع عن الحق بقدرة ونزاهة واستقلال ، مع ما كان
يلاقيه المحامى الشريف من الصعوبات للذود عن مصالح موكله ، فى عصر
لم يكن نظام المحاكم الجديدة فيه مألوفاً لدى القضاة والمتقاضين

« وقد خبرناك ياسعادة « الناظر » قاضياً فكان لك من الخدمات
النافعة مثل ما كان لك فى المحاماة أو أكثر . وقد شهد بفضلك زملاؤك
القضاة يوم احتفالهم بك فلم يتركوا لنا مجالاً للقول ، إلا أننا لانستطيع أن
نغفل ما كان لك من الصبر والجلد فى جلسات المحاكم ، استقراراً للحقيقة
وحباً للعدل ، ولا ما كان لك من المشاركة فى تكوين الأحكام ذات
المبادئ القانونية الجليلة التى تشرف اليوم القضاء الاهلى . . . »

وهو كلام موزون تدل عباراته على أن قائله يعنى ما يقول ولا يرسل
القول على عواهنه ، فاذا أردنا أن نلتفت إلى مزاعم الخصوم بعد ما تقدم
فإنما نلتفت إليها لأنها تستحق الالتفات لما فيها من العبرة التى هى أنفس
ما يستفاد من تراجم العظماء ، والعبرة هنا أن لا يحاول أحد من العاملين اتقاء
مزاعم الخصوم ، لأن الخصوم يجدون ما يقال حتى فى رجل اجتمعت
له كل هذه الشهادات ، وحتى فى تعيين اجتمعت له كل هذه المناسبات

سعد الوزير

من الواضح أن الواجب الأول على سعد حين دعي الى الوزارة أن يقبلها ولا يتردد في قبولها ، لأنه يطلب اصلاح التعليم وهذه فرصة سانحة لاصلاحه بيديه . ولأن المصريين يريدون ان يقرروا كفاءتهم لتدير شؤونهم ولا وسيلة لهم الى ذلك غير الاضطلاع باعباء المناصب

الا ان المعارضين لسعد بعد ولايته الوزارة وجدوا لهم سببا كان يقضى عليه برفض الوزارة فيما زعموا ، وقالوا إنه تخلى عن اتمام الجامعة المصرية حبا للوظيفة ، وأن تخليه عنها كان وشيكا أن يميمت الفكرة في مهدها ، وأوغلوا في الظن السني . حتى اشاعوا أن الانجليز وسعد اتواطئوا على اهمال «المشروع» و صرف الانظار عنه ، ولم يتخرجوا من دعوة الناس الى مقاطعة اللجنة القائمة به والكف عن التبرع للجامعة المنشودة ، واتخذوا من تبرع الحكومة لها بالمال حجة يستدلون بها على وجوب مقاطعتها ، ولم يشاءوا أن يعتبروا هذا التبرع أول خدمة نافعة خدم بها سعد مشروع الجامعة وهو وزير للبعارف ، ولعله لم يكن مستطيعا أن يخدمها هذه الخدمة أو غيرها لو لم يقبل الوزارة .

ولما كثر اللغظ في هذه الفرية المجحفة تعمدت أن أسأل سعداً عنها ليسمع الناس جوابه فيها . فقصدت اليه في شهر مايو من سنة ١٩٠٨ يوم كنت أكتب في صحيفة الدستور . وسألته عن شأن الجامعة وبعض الشؤون الأخرى فقال :

« إننا لم نبحث إذ ذاك في التفصيلات ولكن الذي كنا نرمي اليه من إنشاء الجامعة وأعلناه للأمة أنها تعلم التلاميذ ما لا يتعلمونه في المدارس العالية ، وآداب اللغتين الانجليزية والفرنسية مما يدخل في هذا الباب . ولكن لجنة الجامعة لا تكتفي بذلك إلا في أول الأمر ، وقد أشرت عليها

بإضافة آداب اللغة العربية إلى هاتين المادتين ، وهي تتناقش في ذلك الآن
« وقد علمت أن حضرات أعضاء اللجنة سينفون كل الجهد في ابلاغ
هذه الجامعة أقصى ما تبلغ إليه . وكل من يعلم من هم أعضاء هذه اللجنة يثق
ثقة تامة بنجاح المشروع على أيديهم ، وأن من الغريب أن يكون في الناس
من يثبط همم العاملين والمكاتبين لهذا العمل الجليل

« أن الهمم فاترة من طبيعتها فليست هي في حاجة إلى من يثبطها ولكن
هذه الأقوال ربما دفعت الخجول الذي تحمله الغيرة على الاقتداء بأمثاله
إلى قبض يده عن الاكتتاب ، فان فيها مسوغا يبرر عمله ويظهره في أعين
الناس بمظهر الوطني الغيور على مصالحة بلاده

« يقولون أن الجامعة وقعت في أيدي الموظفين فانتشلوها منهم ، ولكن
ألا يتدبرون في عاقبة ذلك ؟ من يقوم مقام رشدي باشا وزكي بك وعلوي
باشا والمسيو بيرو من غير الموظفين إذا عولنا على إنقاذ الجامعة من يد
هؤلاء وتسليمها إلى غيرهم ؟ لست أنكر أن الجامعة كما هي الآن ليست
كجامعات أوروبا ولكن الحالة الحاضرة تقضى علينا بالابتداء بالبداة لا بالغاية ،
فاذا كانت لنا اليوم جامعة صغيرة فغداً تكون كبيرة ، ولا يبعثنا كونها
كذلك على احتقارها ونفض أيدينا منها ، لأن في ذلك جناية كبرى ونحن
في حاجة إلى ما هو دون الجامعة بكثير

« أذكر أنه لما انشئت الجمعية الخيرية الإسلامية قام بعضهم واستضعف
شأنها لأنها نشأت صغيرة كما ستنشأ الجامعة ، فما هي الا سنوات قلائل حتى
اتسعت دائرتها وأخصب موردها وكثر عدد مدارسها حتى بلغ ماتراه . ولو
أن القائمين بها جبنوا أمام الانتقادات لقبرت في المهدي ولم تبلغ ما بلغته الآن
« وفضلا عن ذلك ان المال الذي جمع الآن لا يفي بالحاجة ، لأن ستة
وعشرين ألف جنيه لا تكفي لإنشاء جامعة كبرى كجامعات أوروبا . هذا لو

دفع كل مكتب ما تبرع به ولم يقتصر الأمر على العشرة الآلاف التي دفعت حتى الآن . ولو قدرنا ما ينتجه هذا المبلغ بأجمعه في السنة لما زاد عن ألف جنيه مصرى وهو مالا يكفي للانفاق على الجامعة في حالتها الحاضرة . كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلون انها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف مادفعه المتبرعون في أنحاء القطر المصرى بأجمعه ، وليس هذا كل ما أمدت به الحكومة هذه الجامعة فان اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس إلى الاقبال عليها اقبالا لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل ، وربما لا ننسى أن بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة اعانة المشروع ماديا . فرفضهم الآن إشرافها عليه بعد أن أدت الحكومة ما طلبوه منها يعد من الغرابة بمكان ، ويدل على تناقض لا يمكن الجمع بين أطرافه

« وهب أن اشراف الحكومة على الجامعة مضر بها كما يقولون أفهذا يحملنا على حض الناس على عدم الاكتتاب واسترداد ما تبرعوا به ؟ لا أظن ذلك . لأن انقاذها من يد الموظفين وتوسيع نطاقها عما هي عليه الآن من امکينات وليس من المستحيلات ، وانما يكون ممكنا بكثرة المال والمتبرعين ، فهى فى هذه الحالة أحوج إلى المال منها وهى بعيدة من الحكومة ، ومهما يكن من مخامرة اليأس للنفوس فلن يبلغ إلى درجة يحزم معها بأن الجامعة لن تفلت من يد الحكومة إلى الأبد . فمن العبث على كل حال العمل على اسقاطها وحرمان البلاد منها

« أقول هذا وأنا على يقين أن الحكومة لا تقصد سوا بهذه الجامعة ولم تفكر فى اعاقه سيرها ، وان مراقبتها لها على هذه الصورة تفيدها فائدة قد لا تتيسر بغير ذلك . وأود لو نفيت كل ريبة بشأنها ، فانها على أى صورة ظهرت معهد علمى يفيد البلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجاجه »

هذا جواب سعد عن المسألة الوحيدة التي قال المعارضون إنها كانت

تقضى عليه برفض الوزارة . وأبلغ منه في الاقناع جواب الحوادث الواقعة كما ظهرت في ذلك العهد ثم ظهرت في السنوات التالية . فان الجامعة لم تمت بعمله وانما كانت تموت لو أحجمت الحكومة والشعب عن التبرع لها كما كانوا يريدون ، وأن الحكومة المصرية لم تخسر بولاية سعد منصب الوزارة فيها بل كانت وزارته أول خطوة عملية في طريق استقلالها وإثبات وجودها بعد انفراد المستشارين والمفتشين الانجليز بتصرف شؤونها وتوجيه سياستها . وفيما يلي بيان وجيز لما عمله سعد في هذا السبيل :

كانت الشرعة التي شرعها الاحتلال في سياسة الحكومة المصرية ، وجرى عليها بالعمل ، وأعلنها اللورد كرومر بالقول الصريح أن الانجليزى رئيس ولو كان مرؤسا ، وان المشورة منه أمر نافذ وان جاءت في قالب النصيحة .

وكان كل شيء في ذلك العهد يتفق — بل يتآمر — على اعتبار الحكومة المصرية « كما مهملا » وآلة مسخرة ، بلا استثناء الحكومة نفسها ولا الذين تقع عليهم قبل غيرهم مسبة الاهمال والسخرة وكانت وزارة المعارف خاصة عنوان « الحكم المهمل » والآلة المسخرة في وزارات الحكومة المصرية ، فلم تكن وزارة مستقلة بوزيرها بل كانت ذبيلا ملحقاً بوزارة الأشغال العمومية يحضر اليها الوزير مرتين في الأسبوع ، يوم الاثنين ويوم الخميس ، لتوقيع الأوامر والمنشورات المجهزة التي يعرضها عليه المستشار في خلال ساعة أو أقل من ساعة فيمضيها بغير مراجعة ولا مناقشة ، فأصبح هذا المستشار سيد الديوان بغير منازع ، وكان رجلا عنيدا ضيق الذهن شديد التعصب من أثر البيئة التي نشأ فيها ، لا يعرف من النظام إلا نظام الآلات ولا يرضى من المرءوس إلا بالاسراع إلى الطاعة والتنفيذ ، ولا قيمة للتعليم عند — على قلة قيمته في ذلك العهد — إلى جانب النظام على الوجه الذي يفهمه ويرضاه ، والوجه الذي يفهمه ويرضاه ينحصر في سرعة

الحركة واتخاذ الطاعة العسكرية قدوة في التفكير والسلوك . والاستعداد الدائم لاطهار الموافقة والأذعان بلا كلام ولا تريث . وكلها أمور لا تعدو عنده الظواهر ، ولا عبرة فيها بالنتيجة بل العبرة كلها بالحركة المتعجلة والنشاط العقيم والنظافة السطحية !

زار مدرسة أسوان — وأنا بعد تلميذ بها — فما هو إلا أن نمي إلى المدرسة خبر قدومه حتى تأهب الناظر والمدرسون والفراشون غاية الأبهة ونشطوا لاستكمال كل نقص واستبعاد كل نقد ، وملاحظة كل ما يخافون أن يلاحظه المستشار المرهوب . فما تركوا زاوية في المدرسة ولا في الحديقة إلا تعقبوها يوماً بعد يوم بالتنظيف والتنظيم ، ثم وصل المستشار بعد طول الانتظار . فزار الفصول في خلال الدروس وسمع الأساتذة والتلاميذ ، وأبدى ملاحظاته وتعليماته فماذا لاحظ وماذا علم ؟ في الزيارة الأولى لاحظ موطن القدم في مكتب أحد التلاميذ يعلوه غبار خفيف لمسّه المستشار بأصبعه فعلمت به مسحة منه ! . . . وفي الزيارة الثانية لاحظ أن الخيط الذي يمسك الخرائط الجغرافية لم يمنعها أن تنحرف بعض الانحراف وكان الوقت شتاء والهواء يتخلل الغرفة ، ولا بد أن يتخللها . وإلا حاق بالمدرسة سوء الجزاء !

جلس سعد في كرسي وزارة المعارف وهي في يدي هذا المستشار وفي أيدي أعوانه من الانجليز والفرنسيين ، ثم في أيدي صنائع له من المصريين شبوا في كنفه وانطبعوا على غراره ، وهابوه على القرب والبعد لأنهم علموا أنه يعزل من يشاء بكلمة ، ويرقى من يشاء بكلمة ، ويقضى في الديوان وفروعه بما يشاء ولا راد عندهم لقضائه

ومن لم يكن منهم صنيعه له فهو لا يرى أمامه سابقة واحدة توسوس له بان ينضوى إلى « الوزير » ولا ينضوى إلى المستشار ، بل يرى أمامه

سابقة لا تنسى ولا تحتاج إلى إعادة ، وهي أن أمير البلاد يومئذ خالف قائد الجيش ونقد النظام في بعض الفرق فأوشك أن يفقد عرشه واضطر إلى أن يرجع في كلامه ويسجل اعتذاره قبل أن يعود إلى عاصمة ملكه

ومن الموظفين المصريين من كان يسوءه أن يؤتى للوزارة التي نشأوا فيها وترقوا على درجاتها برجل غريب عنها . وانهم لأحق عند أنفسهم بالترقي إلى مكانه ، وأكفاً لصلاحها من قاض لم يكابد صناعة التعليم في حياته !

وعمل الموظفون الانجليز كل ما في وسعهم لاقامة العراقيين حول الوزير الجديد وتأليب العناصر المتفرقة عليه ، ومن ورائهم دار الوكالة البريطانية تحميمهم وترحب ولا شك بفشل هذه « التجربة » وقيام الدليل من جديد على قصور الطبيعة المصرية وضرورة الوصاية البريطانية ، بعد ما كشف الساسة البريطانيون عن حسن نياتهم وسماحة نفوسهم واستعدادهم لاعانة المصريين على ولاية شئونهم !!

وانكأ من هذا أن الوزراء الآخرين تقموا من سعد أن يكون معقد الرجاء ومثار الضجة وهم حاملون مزويون في مكاتب الدواوين ، وأحسوا أن هذا الطارئ الجديد يقتضيهم عنتاً ويكلفهم ما لا يطيقون عمله ولا يطيقون تركه .

فعزيز عليهم أن يستكبنوا وبينهم زميل أصغر منهم يحفظ حقه ويبرم أمره ويسيطر على ديوانه

وعزيز عليهم أن يتمردوا ولا قدرة لهم على التمرد ، وقديماً ألفوا الاستكانة ووطنوا ضمائرهم على الاغضاء والمجاراة ، وليس من اليسير على وزير أن يستغنى عن مؤازرة زملائه ويشعر بخذلانهم لأعماله وآرائه فكان كل شيء في يد المستشار العتيق ، ولم يكن شيء قط في يد الوزير الجديد .

ومع هذا لم يمض اسبوعان حتى كانت كل ورقة من أوراق الوزارة الهامة

تعرض على الوزير ، وكل أمر من أمورها يظل معلقاً حتى يؤخذ فيه رأى الوزير . وكل موظف يعلم أن عهداً انتهى وعهداً بدأ ، وان الوزير هو رئيس الديوان ، وأن المستشار مستشار يقول ما يعن له والرأى الأعلى فى قوله لرئيسه .

هذا يسير فى الكلام ولكنه فى العمل والانتفاذ جد عسير

وما عمد سعد فى انتفاذه إلا إلى وسيلة بسيطة قريبة . ولكنها على بساطتها وقربها لا تفلح وحدها ولا غنى لها عن المهابة الشخصية والعارضة القوية لتفعل فعلها وتوحى إلى المعنيين بها أنهم أمام حتم مطاع لا بد من نفاذه ، وأن من يعصيه يقع فى مخالفة صريحة لا يسوغها أحد ، ولا يحميه المستشار من مغبتها كائناً ما كان سلطانه وعناده ، ولا سيما وهو كما أسلفنا صاحب النظام وفارض الطاعة العمياء للأصول .

ذاك أن الناظر الجديد كان يستدعى إليه الموظف الصغير ، أو الكبير ، فيلقى إليه بالأمر فى سكينته الرئيس الذى لا ينتظر غير الطاعة ولا يشك فيها ... فاذا الموظف أطاع فذاك . وان لم يطع فالعقاب أو الانذار بالعقاب فى حدود السلطان المخول للوزير بحكم القانون ، وكثيراً ما اعتمد فى العقوبة ما يهون ضرره ويشد ألمه وتشيع العبرة به فى وقته ، كالنقل أو تغيير العمل تغييراً يفيد معنى التأخير والغض من المكانة ، ولا يمتد أذاه إلى الرزق والمعيشة

ومن أمثلة ذلك أنه كان فى وزارة المعارف رجل فرنسى اسمه « برنار » منوط بتحضير الميزانية وتقييد « تعليمات » المستشار عن أبوابها وأقسامها فى خلال السنة ، وهو عمل جليل متغلغل فى جميع أعمال الوزارة ترتبط به الترقية والعلاوة والعقوبة والمثوبة ، ويجرى فى الخفاء والسكران فلا يطلع عليه أحد غير المستشار ومن يرتضيه ، حتى يقر الرأى على طبع الميزانية وتوزيعها فيعلم بها الوزير بعد ذلك كما يعلم بها أصغر صغير !

فدعا سعد مسيو « برنار » هـذا وأمره أن يوافيه بجميع ما عنده من
بيانات الميزانية وحساباتها ، وصرفه دون أن يزيد على ذلك كلمة
وخرج برنار وهو يعجب لهـذا الأمر الذى لم يسمعه من أحد غير
دنلوب ! ومضت أيام ولم يرجع للوزير بالبيانات والحسابات ، فأرسل اليه
سعد ولم يمهل حتى يتكلم بل فاجأه بلهجة حازمة يقول له :
— انى أمرتك يامسيو برنار أن توافينى بالبيانات والحسابات التى عندك
من الميزانية ، فلماذا لم تصدع بالأمر ؟

فتلعثم الرجل ولم يدر بماذا يجيب انه فى محضر مهيب ، وبين يدى
رئيس لا يستهان بكلامه ولا يجترأ على غضبه ، ومهما يكن من الأمر فليس
فى وسعه أن يقول لمثل هذا الرئيس أن رغبته لا تطاع وأنه يطلب شيئاً لا
يحق له طلبه ، فخار هنيهة ثم استمهل سعداً إلى أجل قريب . فلم يغير سعد
لهجته فى خطابه وقال له بذلك الحزم الصارم :

— حسناً . انى أمهلك إلى ذلك الأجل ، ولكنى أعاقبك إن تأخرت عنه
وخرج مسيو برنار مرة أخرى وهو لا يصدق أذنيه ، وذهب تواء إلى
المستشار فقص عليه ما سمع فى الأولى والثانية ، وانتظر ما يقول المستشار
فاذا به لا يمنع أن يطيع ولا يطمعه فى حماية ، وإذا بالمسيو برنار يتسأل من
الحجرة إلى مكتبته ثم يعود إلى سعد فى الأجل المضروب بجميع البيانات
والحسابات ويقول فى ضراعة واعجاب .

« إليك يا مولاي ما طلبت ، وانى من الساعة رهين أمرك ، أعلم أن
فى الديوان وزيراً مطاعاً بين مرءوسيه ، فان لم أكن علمت ذلك قبل اليوم
فليس الذنب ذنبى ، وقد يكون لى بعض المعذرة »

وعلى هذه الوتيرة سار سعد فى تقرير وجوده وتدعيم نفوذه واقناع
الموظفين بتغير العهد وتحول الأحوال ، سواء كانوا من الوجلين المستسلمين

أو من المتصلفين المكابرين ، فهو لا يطلب من احدهم إلا ما يحق له طلبه
ويجب على الموظف تنفيذه . ومن ركب رأسه جهلاً أو عناداً أو استخفافاً
برئيسه إلا كبر فهو لا يغضى عن استخفافه ولا يعامله إلا بما في يده من
حقوق الرأسة المسطورة في قوانين الوظائف : تعززها الهية الفطرية
والثقة بالنفس والمعرفة بأنجع الوسائل في التنفيذ والتطويع ، ولا نجاء لمن
يأبى منهم أن يشعر بالتغير أو يروض نفسه على أدب العهد الجديد ، فانه
ملاق جزاءه لا محالة ، ومكره على قبول الجزاء بقدر ما في خلده من التحدى
والثقة بالحماية والنجاة من القصاص

حدث أن سيده انجليزية كانت ناظرة لمدرسة البنات السنية ، خطر لها
أن تتحدى هذا الوزير المصرى الذى يأبى أن « يلزم حدوده » فأصرت على
فصل تلميذة لم تستحق الفصل ولم ير الوزير بعد البحث فى شكواها أنها
استوجبت هذه العقوبة . فله أمر باعادتها إلى المدرسة رفضتها الناظرة ثم
أعادتها مع حرمانها من دخول الفصول مع التلميذات ، وأمرت بحجزها فى
حجرة قريبة من باب المدرسة . تتناول فيها طعامها وتقرأ فيها دروسها
ولا تخرج منها إلا باذنها ، واتصل الخبر بالصحف المصرية فكتبت إحداها
مقالاً بعنوان (النفوذ الوهمى فى نظار المعارف) شرحت فيه هذه المعاملة
ودعت الوزير إلى التحقق منها ليعلم — إن كان لا يعلم — أن أوامره لا تنفذ
فى مدارس القاهرة على مقربة من ديوان الوزارة !! فبكر سعد فى اليوم النالى
بالذهاب إلى المدرسة ، ورأى بنفسه صدق ما كتبه الصحيفة فى جميع
تفصيلاته . فأمر بوقف الناظرة وإحالتها إلى مجلس التأديب ، وأدخل التلميذة
فى الحال إلى الفصل مع سائر التلميذات

وعلم « الترف كلوب » نادى الموظفين الأنجليز بالقصة فثارت نائرة
أعضائه ونسوا أن المسألة مسألة رئيس على الحق ومرؤسة مستخفة بحقه
علانية ولم يذكروا إلا أنها مسألة رجل صارم وسيدة من الجنس اللطيف .. !

وأخذت الصحف الانجليزية المحلية تحمل على الوزير ومن ورائها الجالية
الانجليزية كلها تتوعد وتتألب وتسعى هنا وهناك لالغاء الأمر بحالة الناظرة
إلى مجلس التأديب ، وكان لا بد لسعد من تنفيذ أمره أو الاستقالة ، فان لم
يكن هذا ولا ذاك فالبقاء في المنصب كالرسم المعطل لا يملك رجوع تلميذة إلى
مدرستها وهي لا تستحق الفصل ولا العقاب

والتفتت مصر كلها تنظر ماذا يكون من وراء هذا الصراع الغريب الذي
لم يسبق له مثيل ، وخيل إلى « الترف كلوب » أنه روع هذا الوزير المجازف
وجفله واضطره إلى الأحجام والتردد ، ولكنه لم يرع ولم يتجفل ومضى في
قراره فأعلن موعد المحاكمة وانعقد المجلس واتفق على الأدانة . ولكن الضجة
التي لم ترع سعدا راعت المجلس وضاعفت عناد الموظفين الانجليز - ومنهم
كثيرة الأعضاء - فصدر الحكم على الناظرة بجزاء طفيف لا يعدو لفت النظر
والتحذير ، وهو جزاء على خفته كان فيه مخرج كاف من الورطة لوزير آخر ،
أو كانت فيه ذريعة إلى طي هذه المسألة والاستراحة من ضوضائها ، ولكن
الوزير المجازف كما كانوا يسمونه لم يشأ أن يختمها هذا الختام وأعقب ذلك
الحكم الضعيف بنقل الناظرة من المدرسة السنوية إلى مدرسة المعلمات الأولية
في بولاق ، وهو أيضاً حق من حقوقه لاشك فيه . فكاما صب النفط على
شعلة الغضب الانجليزية في جميع الدواوين ، وسرى هذا الغضب إلى
لندن فسأل أحد النواب في البرلمان « عن الاجراءات التي اتخذت ضد الوزير
المصري الذي أهان الناظرة الانجليزية » . . . فلم يغن شيء من ذلك عن
الناظرة المعاقبة ، لأن الوزير أصر على إبقائها في المدرسة التي نقلت إليها حتى
اعتزلت خدمة الحكومة المصرية

وكان لدار الكتب الاميرية مدير ألماني له شأن خاص في العلاقات
الدولية التي تدور حول مناصب الأجانب في الحكومة ، لأن الانجليز أحبوا
أن يزدلفوا إلى بعض الدول على أثر الاحتلال باحتكار بعض المناصب

المصرية لأبنائها . فتفاهموا على أن يحفظوا رأسه دار الكتب للألمان ،
وشاءت سياسة الامبراطور غليوم أن يعظم من شأن هذا المنصب في عاصمته
الشرق العربي فاختر له عالما من صحبه المقربين الذين كان يعتمد عليهم في
ترويج الثقافة الألمانية بين العرب والمسلمين

ولم يكن عجيباً من رجل كهذا أن يعتز بشأنه ، ولا كان عسيراً عليه ان
يغلو في ذلك الاعتزاز الذي لا يكلفه مشقة ولا يعرضه لخسارة . فلما أراد
سعد أن يوجهه إلى نظام جديد في دار الكتب تهاون برأيه وأسرف في تهاونه
وتجاهل وجود هذا الوزير كما كان يتجاهل من قبله ، فلم يزد سعد على أن أمر
ادارة المستخدمين بارسال « إنذار » اليه كالنذر التي ترسل إلى صغار
الموظفين ، وهو يعلم أن الانذار سيقبمه ويقعده ويبلغ من نفسه ما يبلغه
العقاب الجسيم

وقد قام الرجل فعلا وقعد ، وقامت معه وقعدت دار الوكالة البريطانية ،
فخطبت سعدا فيه ورجت منه أن يردف الإنذار بخطاب يمحو أثره
ويفسره على وجه يسوغ مذاقه ، فكان جواب سعد ان التفسير الوحيد الذي
عندى هو « أنتى أنذرت هذا الموظف لأنتى أنذرتة » وعليه هو أن يصدع
بالأمر أو يستقيل

وكان الدكتور كيتنج ناظر مدرسة الطب رجلا لا يقل في الصلف
والاندفاع عن مستر دنلوب المستشار . فدخل يوما على سعد دون أن
يستاذن ، فأبى سعد أن يصغى اليه فيما حضر من أجله قبل أن ينهه إلى خطئه
ووجوب الاعتذار منه ، فلم يجد الرجل مناصا من الاعتذار لأنه واجب
يفرضه عليه أدب اللياقة وأدب الوظيفة ، ولم يعد الى ذلك الخطأ مرة أخرى
ومن أعاجيب الدكتور كيتنج هذا ، بل من الدلائل على الغطرسة التي
كان يفرضها بعض الموظفين الانكليز يومئذ على الحكومة المصرية ، أنه كتب
تقريراً يسجل فيه على المصريين أنهم لا يصلحون لتدريس العلوم الطبية .. !

لأن سعدا اقترح أن يوفد إلى أوروبا بعثة من الطلاب المصريين لدراسة هذه العلوم وتدريسها بعد عودتهم إلى مصر بدلا من الأساتذة الأجانب... وقد أراد من سعد أن يعدل عن اقتراحه عملا بذلك التقرير... فقال له سعد: ألم يخطر لك يادكتور كيتنج أن تبحث عن وزير « غير مصرى » يسجل على أبناء جلده هذا العجز السرمدي ؟ ، وبلغت المسألة إلى اللورد كرومر فلم يسعه إلا أن يوافق سعداً ويعترف بأنها غلطة !

وكما كان سعد يعتمد في تقرير وجوده على حقوق سلطته القانونية كذلك كان يعتمد فيما يطالبه أو يأمر به على نصوص الحججة ، والشجاعة في ابداء تلك الحججة لمن يخالفه كائناً ما كان شأنه . فمن ذاك أنه بحث في تحسين مرتبات الموظفين المصريين فلم تسعفه الميزانية في مبدأ الأمر ، فظل يترقب الفرصة حتى أذنت وزارة المالية لوزارة المعارف باعتماد مبلغ ألفاً وأربعمائة جنيه أو نحو ذلك ، فخصص منها أربعمائة للزيادة المطلوبة . وأبى دنلوب أن تجي الزيادة لموظف في الوزارة من غير طريقه . ! فهرول إلى دار العميد يسالغ في وصف العواقب الوخيمة التي تنذر الوزارة من مغامرات سعد في شؤونها المالية . وقال اللورد كرومر لسعد في أول لقاء بعد هذه الشكاية : « إنك ياسعد باشا تعرف القانون ولكنك لا تعرف الشؤون الاقتصادية ! ! .. فأجابه سعد : إتنى أعرف من هذه الشؤون ما يكفي للتصرف فيما نحن بصدده . أنتى أعرف انتى إذا ملكت ثلاثة جنيهات وصرفت واحداً منها فأنا أول المقتصدين في العالم . وأعرف أن وزارة المالية لا يحق لها أن تدخل في حسابى إلا إذا طالبتها بمال من عندها . أما إذا هى قررت لى ألفاً وأربعمائة فصرفت منها أربعمائة فقط فلا حساب لها عندى »

قال لورد كرومر : أو هذه هى المسألة ؟ قال نعم . فقال اللورد : أنت

على صواب ، وقد أخطأ دنلوب .

وبهذه الحججة الحاضرة وأمثالها كان يلقي مخالفيه فلا يجدون لهم مناصاً من موافقته أو من تكليفه أن يعمل الخطأ وهو عالم بخطئه ، وذلك ما لا

يستطيعه رجل مذهب يخاطب رجلاً مثل سعد في صراحته وشجاعته واقتداره
على توضيح رأيه .

وبما يدل على مصدر نفوذه في وزارته وأنه كان يعتمد فيه على نفسه لا على
صداقته للورد كرومر أو غيره أنه احتفظ بهذا النفوذ بعد أيام كرومر في عهد
السيرالدون غورست الذي كان يجري على سياسة الوفاق مع الخديو عباس الثاني ،
ولا يجمل أن سعداً لم يكن من أصحاب الخطوة عند سموه . ففي عهد غورست
كان سعد يستقل برأيه حتى في تعيين الموظفين الذين توصى بهم دار العميد ويوصى
بهم غورست نفسه : كان في مصلحة المباني مفتش انجليزي لا يحسن الاشراف
عليها ، وكانت المباني الحكومية تتهدم أحياناً قبل استلامها . فارادوا إقصاء
ذلك المفتش عنها والتخلص منه بنقله إلى وظيفة أخرى . فطلبوا من وزارة
المعارف أن تعينه أستاذاً في مدرسة الهندسة فرفض سعد . وتحدث غورست
إليه في هذه المسألة فقال له سعد : اننا نريد أناساً يعلمون الطلاب البناء ،
ولا نريد أناساً يعلمونهم الهدم ! ومدرسة الهندسة مهجورة منسية . فليس
من دواعي التشجيع على انتظام الطلاب فيها أن يعلمهم أستاذ كهذا الأستاذ »

قال غورست : ولكنه رجل طيب

فسأله سعد : لو كنت أنت في مركزى هل تعينه ؟

فلم يسع غورست إلا أن يقول « لا » . . . ويعدل عن طلبه

وعلى هذا النحو استقامت لسعد السلطة التي تليق بوزير في ديوانه ،
وشعر دنلوب أن العراق في هذا الميدان ليس بالسهل ولا بالمفيد . فانحرف
بالخلاف معه من الصراع إلى المراوغة ، ولجأ إلى خطة جديدة في تنفيذ
ما يريد ويرفضه سعد أو يتوقع منه رفضه . وهي الانتظار إلى أن يسافر سعد
بالإجازة الصيفية في أواخر السنة الدراسية ، وعندئذ يسرع إلى مطالبه المطوية

فيظهرها وإلى الوظائف التي يرشح لها أعوانه فيشغلها ، ويعود سعد وهو لا يملك تغييراً لما حدث ، إلا بعد جهد جهيد وانتظار قد يطول إلى زمن بعيد وقد تمت في زمن هذه الفترات مكيدة من المكائد التي كانت لها ضجة في ذلك الحين استغلها خصوم سعد في الحملة عليه وهم يعلمون أنه لم يحضرها ولم يكن يجيزها لو حدثت في حضوره . فقد سافر سعد للاصطياف في شهر مايو سنة ١٩٠٧ وناب عنه محمد عباى باشا وزير الحربية ، فها هو إلا أن غادر الديوان حتى عمده دنلوب إلى ناظر مدرسة الحقوق الفرنسى الأستاذ لا مبير - فتعنت في مضايقته بالأعيب صيدانية لا تخفى فيها نية الأحرار والنكايه . ثم ألغى أجازته بعد الترخيص له بها وأمره بالبقاء في المدرسة إلى أن تصدر له أوامر أخرى فعز على الرجل أن يخضع لهذا الأحرار فاستقال وغادر البلاد .

وكان دنلوب ينتظر هذه الاستقالة بفارغ الصبر فبادر إلى قبولها وتعيين مستر هل الأنجليزى في مكانه ، ومن هنا ثارت الضجة التي أشرنا إليها واشتركت فيها الصحافة الفرنسية والمصرية بلسان واحد ! لأن مستر هل لا يحمل من الشهادات غير شهادة الليسانس التي يحملها كل طالب يتخرج من المدرسة ، ولأنه أول ناظر إنجليزى لمدرسة تنتظم فيها الدراسة على أصول القوانين الفرنسية ، وتم ذلك كله في غياب سعد كما يتم السكمين المختلس في جنح الظلام .

هذه الحادثة التي استغلها بعض الخصوم ليس فيها ما يعاب على سعد أو يغضب من قدره ، بل هي تدل على أن الرجل قد أو في على الغاية من القيام بواجبه والاحتفاظ بحقه ، ولم يدع للمستشار صاحب الحول والطول في الوزارات الأخرى إلا أن يتحين الفرص ويتربح أوقات غيابه ليعمل ما هو عاجز عنه في حضوره . وأي شهادة للوزير المصرى أكبر من هذه الشهادة ؟ وأي دليل على قدرته الشخصية أكبر من بلوغه هذه القدرة وهو

يحارب المستشار الأنجليزى بغير سند من الحاشية الخديوية ؛ ولا من الصحافة
التي تحمل عليه بالباطل ؟

إننا اذ نقول انه أدرك ما أدرك من تلك المكانة في ديوانه بحسن التصرف
وقوة الحججة لا نفسر السر كله بهذه الكلمة ، فهي لا تفسر إلا الظواهر
العرضية ، وانما تحيلنا الى قدرة كبرى لا يغنى حسن التصرف ولا قوة
الحججة بغيرها . وهي القوة الكامنة التي يلوذ بها الرجل العظيم في طوية نفسه .
فالأسلوب الذي توصل به سعد إلى غرضه هو من أسهل الأساليب على
المتصرف القادر عليه ؛ ولكنه من أصعبها وأعضلها على غير أهله ، فاذا أقدم
عليه رجل مستباح الهيبة قليل الدراية فقد يتعثر به في بداية الطريق أو
يتراجع به دون الغاية .

ثم لا تكفى الهيبة والدراية وحدهما لضمان النجاح في مثل ذلك التصرف ؛
إذ لابد معهما من شجاعة على احتمال التبعة ، وقلة المبالاة بما تجر اليه ، وفي
مقدمته إعتزال المنصب

ثم لا تكفى الشجاعة أيضاً حتى يكون الرجل الذي يشغل المنصب
ذا قدرة يحسب حسابها وتخشى عواقبها إذا هو انتقل من الحكومة إلى الحياة
العامة ، وينبغي أن يكون اعتزال المنصب خطراً يخشاه محرجه أكثر مما
يخشاه هو على نفسه ، وهذه هي القدرة التي إعتصم بها سعد وتغلب بها على
عقبات شتى ودسائس لا تحصى .

أقام سعد في وزارة المعارف أربع سنوات عمل فيها كل ماني الطاقة عمله
مع هذه المعارك الدائمة التي كان لا يفرغ منها لتوطيد سلطته الوزارية ، بل
لاختراع سلطة لا وجود لها من قبله . وكان عليه أن يدبر المال والمال في
وزارة أخرى بيد المستشار المالي الذي يقول وقوله الفصل في جميع المصروفات ،
وأن يدبر الأنصار وهم قليلون في ديوانه وفي الدواوين الأخرى وفي قصر الأمير

وفي دار العميد وفي الصحافة بل قليلون حتى بين الموظفين الذين كان
يخدمهم ويسهر على مصالحهم ويناضل الأقباط جميعاً لأنصافهم وتحسين أحوالهم
فمن عمله بين تلك المعارك والمحاولات انه وجه عنايته إلى تعليم الأخصائيين
وتعليم الشعب في وقت واحد . فأعان الجامعة المصرية بما استطاع من مال
وتضحية . ورأى أن انتظار ثمراتها يطول قبل أن تنتفع البلاد منها بتخريج
الأخصائيين المطلوبين في فروع الدراسة العالية ، فاستأنف إرسال البعثات إلى
المعاهد الأوربية ، وأشرف بنفسه على إنتقاء الطلبة النجباء متحريراً في ذلك
الأخلاق كما كان يتحرى الذكاء والكفاءة . . . ومن ملاحظاته في هذا الصدد
أنه استعرض الطلبة المرشحين لأحدى البعثات يوماً فسأل أحدهم — وقد
استكبر سنه — هل تزوجت ؟

قال الطالب : نعم

قال : وكيف تصنع بزوجتك وأنت مقدم على سفر قد يعتاقك في أوروبا

بضع سنوات ؟

قال الطالب : إنني طلقها ياسعادة الباشا !

فأمر بحذف اسمه وقال : مثل هذا لا يؤتمن على تعليم

أما تعليم الشعب لمحاربة الأمية — أو الوصمة الرائنة على سمعة مصر كما
كان يسميها — فقد اتخذ العدة له بالا كشار من المكاتب في القرى الصغيرة ،
وتولى بنفسه الطواف بالوجهين البحري والقبلي للتحض على انشائها وتوسيعها
وتشجيع الفقهاء والمعلمين على خدمتها ، وقد رفع الاعانة المخصصة لها إلى
أكثر من ضعفها ، وزاد عدد المدارس التي يتخرج منها معلمو المكاتب
لسد الحاجة إلى المعلمين المدربين الذين يستلزمهم شيوع هذا النوع من التعليم ،
ولم يسمع برجل له هممة ماضية في نشر هذه المكاتب إلا قربه وكافأه ولو كان
في وزارة أخرى . فنقل القاضي عبد الرحيم احمد بك من وزارة الحقانية إلى
وزارة المعارف ، واتصل بالمديرين في الأقاليم يحضهم على تشجيع الفقهاء

والوجهاء على إنشاء المكاتب ويوصيهم أن يحتفلوا بتوزيع جوائزها احتفالاً
يغرى الطامعين في جاه الحكومة والزلفى إليها. وعنى بإنشاء الأقسام الليلية
للذين جاوزوا سن التعليم في المكاتب والمدارس ، ليحارب الأمية بين
الكبار كما يحاربها بين الصغار بالمكاتب النهارية

وكان في بعض طوفاته بمكاتب الصعيد إذ التفت إلى تلميذ صغير حسن
الأجابة بين الذكاء ، فأمر لساعته بنقله إلى المدرسة الأميرية بغير
مصروفات ... وهنا قامت القيامة في ديوان الوزارة وغضب مستر دنلوب
غضبه العسكرية لمخالفة القوانين . ماذا ؟ أتلميذ بغير مصروفات وليس في
الميزانية باب للمجانبة ؟ إن النظام إذن لفي أشد الأخطار . وماذا يصنع مستر
دنلوب في الديوان إلا أن يحافظ على النظام ويضيع التعليم ؟ ... فلها عاد سعد
إلى القاهرة كان مستر دنلوب قد نفخ في المشكلة حتى أوشكت أن تنقلب إلى
أزمة وزارية ، وسمع لورد كرومر بالخلاف المستحکم فسأل سعداً فيه وقال
له : ألا تعترف أن تعليم هذا التلميذ بالمجان مخالف لنظام الوزارة ؟ فقال سعد
نعم هو مخالف ، ولكنه ليس بالمخالفة الوحيدة التي اقترقتها الوزارة فيما
سبق . وسرد له مسائل كثيرة كلها مخالف للقوانين وكلها في غير مصلحة
التعليم . ثم قال : فلماذا لا نخالف القوانين مرة واحدة في مصلحة التعليم ؟

وأصر سعد على بقاء التلميذ في مكانه ، وسوغ بقاءه بما كان في أبواب
الميزانية من « الأوقاف » المحبوسة على تعليم الفقراء وقد أضيفت إلى وزارة
المعارف منذ عهد طويل ، ثم أصر على فتح باب المجانية ليكون تعليم الفقراء
بغير مصروفات مطابقاً للقوانين . وفتح باب المجانية فعلاً في المدارس الثانوية
فأصاب به غرضين : أحدهما تسهيل الدراسة على الفقير ، وثانيهما ترغيب
الطلاب في دخول مدرسة المعلمين ، لأنه اشترط على التلميذ الذي يتعلم
بالمجان في المدارس الثانوية أن يشتغل بالتدريس بضع سنوات

ومن المآثر التي تلحق بهذا الباب ولا يجوز « لأسوانى » أن ينساها
في ترجمة سعد أنه استكثر المصروفات المدرسية على أهل الصعيد الأعلى

فأمر بتنزيلها الى ثلاث جنبات في المدارس الابتدائية باسنا وادفو واسوان

*
*

ومن أجل الأعمال التي قام بها سعد في وزارة المعارف وجازف من أجلها بمنصبه وبحسن العلاقة بينه وبين الأقباط عملاً : أحدهما كان مغضباً للانجليز ، والآخر كان مغضباً للخديو وأتباعه من الشيوخ الأزهريين

نقل التعليم من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية فأغضب الانجليز أشد الغضب ، واحتاج إلى تدليل عقبات أخرى غير عقبات المقاومة السياسية ، وهي تحضير الكتب وتحضير المدرسين وتهيئة الجو للتدرج من نظام متغلغل متشعب مضت عليه خمس وعشرون سنة إلى نظام طارى لا يزال في دور التمهد ، محتاجاً إلى المعدات والمنقذين

وأنشأ مدرسة القضاء الشرعي وهي تغضب الخديو واناسا يتبعونه من شيوخ الأزهر الذين كانوا يكرهون الاصلاح في معهدهم ويحبون في الوقت نفسه أن يستأثروا وخدمهم بمنصب القضاء الشرعي والمحاماة الشرعية وما اليها من المناصب . وكان إصلاح المحاكم الشرعية أمراً لا يدخل في برنامج وزارة المعارف العمومية ، فلا موجب لاهتمام سعد به ومغاضبة الخديو من أجله إلا اهتمامه بالاصلاح حينما استطاع وجهه ما استطاع .

كان الخديو حريصاً على استبقاء الأزهر في قبضته لاطلاق يديه في اختيار القضاة الشرعيين والاشراف على المجالس الحسينية وما يعهد اليها من محاسبه الأوصياء على التركات والنظار على الأوقاف ، ولكنه كان يعارض في اصلاح الأزهر وتمكينه من اعداد القضاة والمعلمين والمحامين على الوجه المطلوب . وقد تعب الشيخ محمد عبده في علاج هذا الاصلاح العسير حتى نفض يديه آخر الأمر واضطر إلى اعتزال منصبه في مجلس الأزهر الأعلى . فلما تصدى سعد لهذه المعضلة العصيبة هاجمته الأغراض والسعايات والعراقيل من كل جانب ، فعزم عزمته و « نكب عن ذكر العواقب جانباً » كعادته

حين يتصدى لأمر هو على يقين، من صلاحه ومن وجه الحق فيه ، وجاء إلى مجلس الوزراء الذي سينظر في المشروع وهو معول على أمر من أمرين : إما مدرسة القضاء ، وإما الاستقالة وهو غير آسف

قال سعد في بعض أحاديثه لنا عما جرى في تلك الجلسة بينه وبين الخديو : أن الأقاويل اختلفت في المناقشة التي دارت بيني وبين الخديو في ذلك اليوم . فقال أناس إنني ضربت على المنضدة بيدي وقلت في وجه الخديو : دعني أذافع عن مشروعى ! وان الخديوى أجبني حينذاك ساخراً : يظهر أن الباشا لم ينس بعد صناعته القديمة ... يعنى المحاماة ، وقال أناس غير ذلك مما يجرى مجراه ، والصحيح أنى لم أضرب على المنضدة بيدي ولم يعرض الخديو بسابق عملي في المحاماة . وإنما شاهدت من سموه في تلك الجلسة ميلا ظاهراً إلى رفض المشروع بعد ما شجعتنى على المضى فيه ، ورأيته يأبى على المناقشة والشرح أمام زملائى الوزراء

قال رحمه الله بفكاهته المعهودة : وكنت قد انتقلت من القضاء إلى الوزارة « بعبلى » . فدأبت على الشرح والاستدلال وقلت : اننى أفهم أن المناقشة حرة ، وأود أن أعرف المانع من تنفيذ المشروع . ولا أدرى أن هذا الكلام يغضب الخديو ويثقل وقعه على سمعه . فاحمر وجهه كلون طربوشه ، وسمع أصحابنا الوزراء منى هذه اللهجة فأيقنوا أنى لا أقدم عليها إلا وأنا مؤيد بقوة خفية ، ووهموا أن لورد كرومر يريد إنشاء المدرسة على الرغم من جميع العقبات ، فأجازوا المشروع بالاجماع وبقي الخديو وحده معارضا فيه ! والحقيقة أن لورد كرومر لم يفتحنى فى المسألة إلا بعد أن سمع بما دار بينى وبين الخديو من المستشار المالى ، وقد كان يحضر جلسات مجلس الوزراء .

وهكذا نشأت المدرسة التي قامت فى طريقها كل هذه العراقيل ، مدرسة لا ضرر فيها على أحد من الأزهريين الراغبين فى ولاية القضاء أو الاشتغال

بالمحاماة لأنها تختار منهم طلابها وخر يجيها ، وكل ما فيها أنها تعين على الإصلاح حين لم يكن في الأزهر سبيل إلى الإصلاح ، وأنها تجمع بين علوم الدين واللغة والعلوم العصرية ، ولا تخل بالماثورات الصالحة ، فينتفع بها القضاء الشرعي وتنتفع بها الثقافة الشرقية

ولقد نظر سعد إلى موظفي الديوان كما نظر إلى المدارس والتعليم ، فأوسع للمصريين صدور الوظائف في التفتيش والادارة ، واختار منهم وكلاء للمدارس الثانوية تمهيداً لترقيتهم إلى وظائف النظارة وما فوقها . بعد أن كانت محرمة عليهم موقوفة على الإنجليز دون غيرهم الا فيما ندر ، وأعانهم على الظهور والعمل في مختلف النواحي كلها وجد موضعاً لأعانة

ونعتقد أن الفائدة التي أفادها التربية الوطنية بالقصدوة الشخصية كانت لا تقل عن فائدته بأعماله وخططه ومشروعاته ، لأنه قد أشع حوله نوراً من الصراحة والاستقامة ، كان له أثر ناجع في جلاء النفوس التي ران عليها النفاق وسوء الطوية ، وفتح أبوابه للموظفين والطلاب يتقبلهم جميعاً ويستمع إليهم جميعاً ولا يتوانى عن إنصاف ذي حق ولو كان غريمه من أكبر الرؤساء ، وقد تلطف السير الدون غورست مرة فأحب أن ينهيه من طرف خفي إلى وجوب المداراة في الانصاف لئلا يجترى الصغار على الكبار فقال له سعد : « انه مامن موظف يظلم آخر إلا وهو رئيسه وأكبر منه . فمتى نجهر بانصاف المظلوم إذن ؟ ولماذا نسهل الظلم على الظالم ليتهدى فيه ولا نسهل الانصاف على المظلوم ليجتري على طلبه وحفظ حقه ؟ »

جاءته يوماً شكوى صارخة من ظلم فادح أصاب موظفاً صغيراً في الوزارة ، فراعته ماقرأ فيها واستدعى صاحبها فقال له : « انك أزججتني بشكواك . وقبل أن أشرع في تحقيقها أحب أن أفهمك اني سأنصفك من كائن من كان إذا تبين لي صدقك . ولكنني غير معفيك من الجزاء الصارم إذا تبين لي غير ذلك . فهل أنت على استعداد ؟ قال الرجل نعم . أنا راض

بحكم وزير اليوم قاضى الأمس .. فلما أسفر التحقيق عن صدق الرجل انصفه لساعته ، وقال له وهو يبلغه أمره بقبول شكواه وإنصافه : « احمد الله ! إنى ما كنت لأدعك تزعجنى ذلك الأزعاج بمثل تلك الشكوى الصارخة ثم تنجو من العقوبة لو كنت على باطل »

وكان يحب النظام والمحافظة عليه ولكنه يجب أن يحسب حساباً للعواطف الانسانية النديلة ولا يفرضه نظاماً آلياً على آلات لا تفكر ولا تشعر . فلما خرج الطلاب من المدارس العليا والثانوية فى صبيحة اليوم الذى شيعت فيه جنازة مصطفى باشا كامل ومشوا فيها باعلام مدارسهم فى طليعة المشيعين غضب دنلوب غضباً شديداً واقترح إلغاء الامتحانات تلك السنة وفصل بعض الطلاب الكبار مع حرمانهم من جميع الامتحانات المقبلة . فوقف له سعد وقفة لا يتزحزح عنها ، وقال : « إنها غاشية حزن أمت بالامة بأسرها ، فلا يعقل أن ينأى عنها شبان مصريون لمجرد كونهم طلاباً فى مدارس أميرية »

وإذا ذكرنا أن سعداً كان أول وزير مصرى تحدث إلى الصحف ، وأول وزير مصرى خرج من ديوانه للطواف فى الأقاليم ، وأول وزير أبطل التحية العسكرية التى كان يقابل بها الوزراء على أبواب الدواوين . وأول وزير مصرى قرر إقفال المدارس للاحتفال برأس السنة الهجرية ، علمنا أنه قد أفاد التربية الوطنية حقاً بالقدوة الشخصية كما أفادها بالخطط والأعمال . فان لكل عمل خطير بداية صغيرة ، وان لبعض المراسم أثراً فى تبديل العادات الشعبية والايحاء إلى الضمائر لا يقل عن أثر الدساتير المكتوبة والحقوق المكسوبة ، ولا شك أن اتصال سعد بالرأى العام كان أول اعتراف بسلطة الأمة وحق الرأى العام فى الرقابة على الحكومة ، وأن خطوته الأولى التى خطاها فى اثبات وجود الوزير واخلاء الوظائف الكبيرة لآبناء البلاد كانت بداية استقلال الموظف المصرى فى جميع الوزارات

وزير الحقانية

في أواخر سنة ١٩٠٨ استقالت الوزارة الفهمية خلفتها الوزارة البطرسية...
وفي أوائل سنة ١٩١٠ قتل بطرس غالى باشا فانفق الخديو والسير الدون
غورست على دعوة محمد سعيد باشا وزير الداخلية لرئاسة الوزارة الجديدة ،
ولم يُدع لها سعد مع أنه أقدم عهداً بالمنصب الوزارى من محمد سعيد ، لأنه
لم يكن من أصحاب الحظوة عند الأمير ولا عند العميد ، وإنما كانا يَحتملان
بقاءه في الحكم احتمالاً ، لأنه أهون الأضرار

وكانت وزارة الحقانية من نصيب سعد في الوزارة الجديدة ، وكان
اختياره لها في ظاهر الأمر من قبيل الترقية والترضية ، لأنها إحدى الوزارات
الثلاث التي جرى العرف على اعتبارها وزارات الدرجة الأولى : وهي وزارة
الداخلية ووزارة المالية ووزارة الحقانية ، ولما كانت وزارة الداخلية ورئاسة
الوزارة عملاً واحداً كما جرى العرف الغالب في مصر ولا يزال جارياً إلى
الآن — فالوزارة التالية لها التي تصلح لرجل نشأ في المحاماة والقضاء هي
وزارة الحقانية

هذا في الظاهر . أما في حقيقة الأمر فقد كان الغرض من اسناد الحقانية
إلى سعد تقييده وابقائه صدماته ، لأن الحقانية هي وزارة التشريع والقضاء ،
والتشريع كما لا يخفى من عمل مجلس الوزراء كله لا من عمل وزير
الحقانية وحده ، والقضاء عمل تتولاه المحاكم ولا دخل فيه للوزير إلا
الرقابة من بعيد . فوجود سعد في هذا المنصب هو أسلم الحلول في تلك الحالة :
أسلم من رأسته للوزارة ، وأسلم من خروجه ، وأسلم من بقاءه في وزارة
المعارف العمومية

وفي وسعنا بعد ما قدمناه من تاريخ سعد أن نعرف ماذا هو صانع في

وزارته الجديدة ، بل في وسعنا أن نعرف ماذا هو صانع في كل مجال إذا نحن عرفنا ذلك المجال وعرفنا أعماله وحدوده ، فليست هذه الشخصية من الشخصيات الغامضة التي يكتر فيها التخمين والاستكشاف ، أو تكثر فيها الاغوار والسراديب ، ولكنها شخصية يصح أن توصف « بالحساية » لأنها لا تدور الا على أمور معلومة المقادير مرسومة الغايات ... فأينما كانت فهناك كرامة واصلاح وإنصاف مظلومين ، ولا يبقى عليك الا أن تعرف الأعمال التي تتناولها هذه المقاصد الثلاثة لتعرف ما يعمل فيها

كرامة له وكرامة لغيره ، وذلك أول شرط من شروط الكرامة النبيلة أو الكرامة التي تقوم في أساسها على قوة صحيحة . فان النفس الكريمة حقاً ليؤذيها أن ترى الذل والصغار في غيرها لأنهما وضر تنفر منه الطبيعة القوية . أما أوائك المتكارمون الذين يقيسون عزتهم بالقدرة على إذلال غيرهم فأولئك لا يعافون منظر الذل ومن ثم لا يشعرون بحقيقة العزة ، وإنما يعيشون في عالم من ظواهر مصطنعة زائفة تروج في أرخص الأسواق

علمنا مما تقدم أن سعداً كان يأبى على وزارة الحقانية وهو قاض أن تحاسب القضاة على أخطائهم بالمنشورات العلنية، وأنها عدلت بعض العدول عن هذه العادة إلى كتمان أسماء القضاة في المنشورات العلنية والأكتفاء بتوجيه النقد إلى القاضى المقصود في رسالة خاصة ، فلما تولى وزارة الحقانية كان العمل فيها جارياً على تنبيه القضاة إلى أخطائهم بكتاب يطلع عليه من يرسلونه من الوزارة ومن يتلقونه من الموظفين في المحاكم . وكان شفيح الوزارة في هذا المسلك أن أخطاء القضاة إنما تظهر على يدي لجنة المراقبة بعد اطلاعها على تقرير المفتش الذى تناط به مراجعة الأحكام والتعقيب عليها ، ولجنة المراقبة مؤلفة من المستشارين الملكيين ووكيل الوزارة والنائب العام ومفتشى الديوان القضائيين ، وكلهم من جهابذة القانون وأصحاب الرأسة على مئات الموظفين . فاذا صدر منهم تنبيه إلى

بعض القضاة فذلك أمر لا غرابة فيه ولا مخالفة لنظام الأعمال في الدواوين
فلما عرض على سعد أول تنبيه من هذا القبيل أنكره وشعر بما
فيه من الغضاضة على القاضي الذي سيرسل إليه ، وقال فيما رواه أمين سره
الأستاذ فؤاد كمال بك : « أنه يرى كفتى الميزان في هذا التصرف غير
متعادلتين ، فهو من الجهة الواحدة يرى أن الطرف الملموم هو قاض مثقل
بأعباء العمل مكدود الذهن مشغول الوقت ، يمضى حكمه في قضية من بين
مئات القضايا التي يحكم فيها . ويرى من الجهة الأخرى الطرف اللائم هو أولاً
مفتش الحقانية وثانياً أعضاء لجنة المراقبة ، وكلهم من أساطين القانون وجهابذة
الفقه يتناولون هذا الحكم الذي أصدره القاضي في زحمة العمل فيجعلونه
محل البحث الدقيق في فسحة من الوقت وصفاء البال وتمكن من الرجوع
الى مختلف المراجع والمطولات . فاذا فرض جدلاً أن القاضي كان حقيقة
قد أساء التصرف أو أخطأ وجه الصواب ، فان له من الظروف المحيطة به
شفيعة للعدرة ، وان لم يكن بد من لومه فلا يجوز بحال ما أن يوجه اليه اللوم
في خطاب رسمي يمر على رؤوسه ويشهر أمره في المحكمة ، فيأحق بهيبة القاضي
من الأذى مالا تحمد عقباه . هذا على فرض أن القاضي كان في الواقع مخطئاً
ولكن قد يتفق -- وهو أمر سهل الاحتمال -- أن تكون المسألة مجرد خلاف
في وجهة النظر بين القاضي واللجنة ، كما قد يتفق أن يكون القاضي متأثراً في
حكمه باعتبارات داخلية لم يبرأ ولم يستطع تفصيلها في حكمه ، ولكنه إذا أبانها
جعلت الحق في جانبه . فكيف يصح اذن لومه قبل أن يسمع دفاعه ؟ »

قال الأستاذ كمال : « لهذه الاعتبارات كلها رفض سعد باشا أن يتبع
ما كان يتبعه أسلافه وقال : أما أن أمضى خطاباً كهذا فلا ، ولكني أدرس
المسألة فاذا اقتنعت برأى اللجنة فاني مع ذلك لا أسارع الى لوم القاضي ولا
أعرضه للأهانة على مشهد من رؤوسه ، ولكني بصفتي شيخ القضاة أستدعيه الى
مكتبي وأسمع دفاعه ، فاذا أقنعت بصحة رأيه أعطيته الحق ، وإلا وجهت

اليه من اللوم الشفاهي ما يكون أبلغ وقعا الف مرة من كل لوم كتابي مع
اتقاء محذوره ، وجرى الباشا فعلا على هذه الطريقة . وقد اتفق ان ظهر له
الحق في جانب القاضى فانصفه « (١)

ومن هذا المثل تبدو تلك الكرامة الحقيقية التي قلنا أنها لا توجد إلا في
خلائق الرجل الكريم الحق ، فانه يعار عليها في غيره كما يغار عليها في نفسه ،
ويسوءه أن يتعرض الآخرون لغضاضة مهينة كما يسوءه أن يتعرض هو لتلك
الغضاضة ، ويعاف الذل حيث كان ولو لم يمسه في كبريائه ، وذلك هو
الفرق بين الكرامة المحموده والغطرسة الذميمة ، فان الغطرسة الذميمة هي
التي تستريح الى اذلال الآخرين ولا تغار على كرامة إنسان ، وهي التي
لا تميز بين الكبرياء بحق والكبرياء باطل ، ولا تلوم الناس لأنهم اعتدوا
عليها مبطلين بل تلومهم لأنهم عرفوا لأنفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى
صواب ، ولهذا يستخذى المتعطرس حين تصدمه القوة في سواه ، ولا يزداد
الكريم إلا انتصاراً لكرامته حين يمسه من يتناول عليه ، لأنه يقرن أنانيته
بالحق ولا ينقاد للانانية العمياء

واهتم سعد بكرامة المحامين كما اهتم بكرامة القضاة ، فأسس لهم نقابة
تحميهم وتصون حقوقهم ، وتجمعهم إلى هيئة واحدة ينشط بها الدفاع عن
سمعتهم وشرف صناعتهم ، ويشترك أناس منها في محامتهم ومحاسبتهم ، بعد
أن كان أمرهم موكولا في جميع ذلك إلى غيرهم ، وكانوا لا يملكون لأنفسهم
نصفه من قاض أو رئيس يعتدى عليهم ، وفارق الوزارة وهذه النقابة على
وشك التمام

إلا أن غيرته على القضاء أو المحاماة فضيلة لا تحتاج منه إلى غير خلائقه
الشريفة وفطرته المستقيمة ، ولا تكلفه خصومة لأحد من الأقوياء
غير الجهد الذي لا بد منه لاقناع معارضيه في رأيه . فلو اكتفى بها لكان فضله

ففيها فضل النية الصالحة والخلق الشريف والجهد المأمون العواقب ، وهو على ذلك فضل ليس بقليل

لكنه لم يكتف بانصاف القضاة وانصاف المحاماة ، بل شغل نفسه بانصاف آخر يدخل في أعمال وزارة الحقانية ولا يقدم عليه كل وزير ، لأنه انصاف يصد من الأقوياء من أصحاب الجاه والثراء ، وهو انصاف القصر والمحجور عليهم من طغيان القيمين والأوصياء

أخذ نفسه بانصاف كل مظلوم مهضوم الحق من هؤلاء القصر والمحجور عليهم الذين تعرض حساباتهم على المجالس الحسبية ، فلم يتراجع ولم يقف عند حد الحذر والمجاملة حينما عرضته قضية من قضاياها المصادمة مرهوبة جمعت عليه كل قوة في البلاد المصرية ، لأنها مصادمة المال ومصادمة اللورد كتشنر ومصادمة الأمير عباس الثاني ، وهما قابضان على زمام كل قوة فعلية أو شرعية في الحكومة .

وموجز القضية أن أميرة مصرية تزوجت من روسي مسيحي فصدر الأمر الخديوي بحو اسمها من الأسرة وإحالة ملكها إلى قيم يديره ويقدم حسابها إلى وزارة الحقانية . وكان هذا القيم من رجال الخديو بطبيعة الحال وصديقا للورد كتشنر يصاحبه في رحلاته وزياراته ويعينه على بعض شأنه . ويقال ان كتشنر كان يحسبه من عيونته على الخديو وان الخديو كان يحسبه من عيونته على كتشنر ، فبهذا وذاك يحظى بالرضى من الجانبين

فلما راجع سعد حسابها لاحظ عليه خلا مستفيضاً وأشار بعزله من القوام . فلجأ الرجل إلى كتشنر يشكو اليه ، وعز على كتشنر أن تجترى الوزارة على صديق من خاصة عشرائه ، وأن يقال انه عجز عن حماية الرجل الذي يرى أبدأ معه في غدواته وروحاته . فطلب إلى سعد أن يبرز الوثائق من أوراق « الدائرة » مع بقاء القيم مسيطراً عليها يحميه كتشنر من جانب

ولا يخذله الخديو من الجانب الآخر . وإنما كان كتشتر في الحقيقة يتمحل
الأسباب للخلاص من سعد باشا ويحسب أنه قادر على المجازفة باقصائه عن
الحكومة ، لأنه رجل عسكري تعود الطاعة والزلفى ولم يتعود من الوزراء
المصريين ولا من المرؤسين الانجليز أن يقابلوه بارادة كارادته وكرامة
لا تنحى أمام هيئته . فاتخذ من مسألة القيم المطعون فيه سببا لاجراج سعد
واعناته ، وكتب إلى حكومته بلندن يطالعها على مانواه وينتظر اقرارها
لرأيه . وفيما هو ينتظر الرد وقعت بينه وبين سعد فى دار الوكالة مشادة
عنيفة فخرج سعد مغضبا وكتب استقالته لأنه لم يستطع التوفيق بين ضميره
والسلطة الفعلية ، وكان من اليسير عليه أن يتحامى هذه المصادمة لو كان
فى استطاعته الأغضاء عن باطل ، وهو مفتوح العينين

قالت دائرة المعارف البريطانية وهى تشير إلى هذه القضية : « لم تكن
أدلة زغلول كافية ولكنها ، كما وقر فى الاذهان ... صحيحة فى أساسها »
ومن الواضح أن هذه القضية الكبيرة ليست على كل حال بالقضية الفريدة
التي نصر فيها قاصراً مظلوماً على وصى مقصر أو مجحف ، ولكنها هى القضية
الفريدة التي انتهت بتلك النهاية . وهى بعدد واحدة من قضايا كثيرة صمد فيها
للظالمين كأنهم يظلمونه فى ماله ، وغار فيها على الضعفاء كأنه يغار على نفسه
وأهله . وانك لتعجب ما هذا الشغل الشاغل بحماية الضعيف ولو ساقته
حمايته إلى أخطر المتاعب والخصومات . أهى وراثه ؟ أهى قوة ؟ أهى رحمة ؟
هى ولا شك وراثه . لأننا لم نعرف من أسلاف سعد الا من كان
يغامر بحياته وماله لرعاية ضعيف أو فقير مغلوب

وهى ولا شك قوة . لأن الرجل الذى ينهض لكفاح الغاصبين لا يفعل
ذلك الا وفى أطوائه شعور بالقوة وانف من تسليم الخائف الجبان
وهى ولا شك رحمة . لأن الرجل قد يكون قويا ثم يجرب قوته فى

شيء غير نصره الضعفاء ورد الحقوق ، وربما جربها في ظلم أولئك الضعفاء
واغتصاب تلك الحقوق

إن المناصب لتجور على المناقب الانسانية في كثير من الوزراء ، وأن
أيامها لتحسب أحيانا من أفقر الأيام في تواريخ العظماء ، فمن فضيلة سعد في
المناصب أنه خرج بها عن تلك السنة فجعلها من أعمار أيامه وأجمل صفحاته ،
ولا نحسب أنه كان يقضى تلك الفترة من تاريخه في خير مما قضاه في سنواته
الست بين الوزارتين .

ملاحظات على سعد في وزارتي المعارف والحقانية

لكل عامل في الحياة السياسية صفحة من الحسنات و صفحة من السيئات
وليس الوزير الصالح هو الذي تخلو حياته السياسية من السيئات فهذا
غير موجود ولن يوجد ، ولكنه هو الوزير الذي تربى حسناته على سيئاته
وترجح فضائله على عيوبه . فاذا ثبت مع هذا أنه مختار في صوابه مضطر في
خطئه ، وان له عذراً سائغاً فيما أخطأ وما أساء فليس هو من الوزراء
الصالحين وحسب ، بل هو من أصلح الوزراء الذين يرجون في عالم السياسة
وقد كانت أخطاء سعد المحسوبة عليه من هذا القبيل ، ولا سيما الخطأ
الذي نسبوه اليه في صدور قانون المطبوعات

لم يبرأ سعد من أخطائه هذه ولا حاول أن يسترها ، بل اعترف بها
اعتراف الرجولة الجريئة والصراحة الواثقة غير مضطر ولا مسوق إلى
الاعتراف . فقال في إحدى خطبه بالجمعية التشريعية : « اعترف اني —
وأنا وزير — قد عملت بحسن نية و إخلاص عملاً لو عرض على اليوم
لكنت أول المعارضين فيه . فقد عرض على قانون المطبوعات فعارضت
فيه أولاً ثم لم ألبث ان وافقت عليه واشتركت في تطبيقه لظروف بررتها
في ذلك الوقت أمام نفسي ، وها أنا اليوم نادى على ما فعلت بالأمس »

وقال أيضاً : « كنت قاضياً وكنت وزيراً ، وها أنا اليوم عضو بينكم
في الجمعية التشريعية وأحس في نفسي بأن شعوري كان يختلف باختلاف تلك
المراكز جميعها ، وانى ربما كنت أرى الرأي في حالة ثم أرى غيره في حالة
أخرى . ومع ذلك كنت حسن النية في جميع الحالات ، فلاتهولنكم أشخاص

الوزراء ولا الفضل الذي تعرفونه فيهم ، فقد تتغلب عليهم مرا كزهم فيعملون بحسن نية ما يظنون أن فيه فائدة للأمة وليس هو كذلك «
وعلينا نحن الذين نترجم لسعد أن نعرف له حقه أو نعرف ما له وما عليه من أخطائه ، ففي مسألة قانون المطبوعات يحسن بنا أن نذكر « أولا » أنه كان وزيراً للبعارف ولم يكن وزيراً للحقانية عند صدور القانون ، فلم تكن له يد في تحضيره وابتعائه ، وإنما كان الأمر محصوراً في بادئ الأمر بين الحكومة الانجليزية والحديو ورئيس الوزارة ، ثم اتصل بحسين رشدي باشا وزير الحقانية ومحمد سعيد باشا وزير الداخلية ومنهما اتصل بسعد باشا لأول مرة ويحسن بنا أن نذكر « ثانياً » أن سعد باشا رفض الموافقة على القانون عند ما علم بنية إصداره . وقال ان الانجليز يعلنون أنهم تركوا لأمير البلاد الأمر في سياسة حكومته بعد عزل كرومر ، فاذا افتتحنا هذا العهد بتقييد الحرية قالوا إننا لا نطبق الحكومة الحرة ولا نصلح لها . . . ولا مسوغ - بعد - لهذا الاهتمام بالمشاغبين فهم فئة قليلة ليس يسمع لها صوت «

وأن نذكر « ثالثاً » أن سعداً لم يعدل عن الرفض الا بشرط واحد لم يتحول عنه : وهو تعديل القانون وتلطيف بعض قيوده وأحكامه ، وقد تم هذا التعديل بعد معارضة من الأمير ومن الانجليز

وأن نذكر « رابعاً » أن الصحف كانت تكتب بعد صدور القانون بحرية أوسع جداً من الحرية التي كانت تتمناها في بعض العهود الدستورية الحديثة ، وهي العهود التي تولاهما خصوم سعد أو قابلوها بالتأييد والتأمين

وأن نذكر « خامساً » أن سعداً في تبريره لعمله لم يكن يعول على الأسباب التي يقبلها الوزير في المنصب ولا يقبلها الرجل المستقل البعيد من غوايات المناصب ومحظوراتها . . . فنحن من ألد أعداء الرقابة الادارية على الصحف ولا نعرف لأحد حقاً في مراقبتها غير القضاء النزيه . ولكننا نعلم أن أناساً

كثيرين تتبعوا الأسباب التي أوجبت صدور قانون المطبوعات في تلك الفترة
فعلوا أن تبريرها أمام الضمير أمر غير عسير على طلاب الحرية خارج
المناصب . فضلاً عن الوزير الذي يريد لنفسه الحرية في عمل الخير كما يريد
الكاتب حرية الانتقاد

سألت سعداً في مسألة قانون المطبوعات لأستوضح ما قاله بالجمعية
التشريعية لا لأنني أرى لهذه المسألة خطراً يطول التفكير فيه . فقال لي :
« انى من وجهة المبدأ أرى أن تقييد الكتابة غير جائز . أما الكتابة التي
كانت حاصلة فعلا في تلك الأيام فغير الجائز في نظري وفي نظر غيرى هو تركها
تدهور في الهاوية التي كانت تندفع إليها »

وكل من رجع إلى الكتابة التي كانت « حاصلة » في تلك الأيام جزم
بأن سعداً كان على حق في حكمه عليها من وجهة نظره ومن وجهة أنظار كثيرة
ولا نبعد بعيداً في نقل الأمثلة العديدة ، بل نقصر القول على موقف تلك
الصحافة من الأمثلة التي نحن بصددتها في تاريخ سعد نفسه ، لأن الحكم عليها
أيسر من شرح المسائل البعيدة التي لا يستحضرها القارىء ولا تدخل فيما رويناه
لما انشئت مدرسة القضاء الشرعى كان الشيخ عبد العزيز جاويش
مفتشاً بوزارة المعارف العمومية وكان يطمع في نظارتها . فاخلف سعد
رجاءه وأسندها إلى زميل له في التفتيش هو عاطف بركات بك . فحق الشيخ
جاويش وأسرهما في نفسه ، إلى أن فوتح في تحرير صحيفة اللواء بعد موت
مصطفى كامل فخرج وهو لا يفكر في شيء غير التشهير بسعد والجملة عليه

ولم ينتظر طويلاً حتى بدأ هذه الحملة المريبة التي لا تستند إلى شيء من
الحقيقة ولا شيء من المروءة . ففي الوقت الذي كان سعد فيه يناضل دنلوب
وأعوانه ونفوذ الاحتلال من ورائه لتحطيم القيود التي يقيد بها أيدي الوزراء
المصريين كان الشيخ جاويش ينسى أدب الصحفي الشريف وما يقتضيه من
تأييد هذه التجربة التي يتوقف عليها مصير الاستقلال ، ولا يبالي أن يفترى

الأكاذيب وهو عالم بافتراءها، ويزعم أن وزير المعارف آله في يد الانجليز
يسخرونه التسخير الأعمى بلا معارضة منه ولا سؤال ! وبلغ من سخفه في
تلفيق المزاعم أنه زعم أن دنلوب كان يكتب الخطب لسعد باللغة الانجليزية
وأنه هو — الشيخ جاويش ! — كان يندب مع غيره لترجمتها إلى العربية..
ثم يلقبها سعد باسمه وهو صاغر مغمض العينين... كأن هذه الترجمة لا تعيبه
كما يعاب الالقاء ! وكأنما خطيب الشرق الذي لم يشهد خصومه بمقدرة فائقة كما
شهدوا له بمقدرة الفصاحة ومضاء الحججة وقوة العارضة كان في حاجة إلى
خطبة يكتبها له مستشار لم يكن يحسن الكلام

ولما كان عاطف بركات ابناً لأخت سعد زغلول حاول الشيخ جاويش
أن يصرف هذا الاختيار إلى غرض واحد وهو إثارة القراية على الكفاءة .
وهو يعلم أن كفاءة عاطف قد نوهت به كثيراً قبل وزارة خاله ، ولو كان
سعد من أصحاب ذلك العدل الرخيص المزيف لظلم عاطفاً مخافة على سمعته
من أن يقال إنه ظالم... ولكن عدل الرجل كان أصح وأكبر من أن يتقى
التهمة الكاذبة بالجناية على كفاءة عاملة . فاختر عاطفاً وأنصف باختياره
إنصافاً مضاعفاً . لأن مدرسة القضاء الشرعي قد صارت على يديه في طليعة
المدارس العليا إدارة وتعليماً وعناية بالثقافة والأخلاق ، وكانت قدرة عاطف
على إحياء الملكات وغرس الاستقلال في الضمائر قدرة مشهودة لا يجادل
فيها معاند . ولو أن سعداً أسند نظارة المدرسة إلى الشيخ جاويش لفشلت
كما فشلت جميع أعماله في التعليم والسياسة ، ولاستحق سعد الثناء من لسانه
وقلبه ، ولكنه كان يستحق الملام من جميع المنصفين

ولا يفوتنا أن نلاحظ أن طريق سعد وجاويش في الوطنية طريقان
لا تلتقيان ولا تتجاوران . فسعد يعمل لاستقلال مصر بأيدي المصريين
لتكون مصر للمصريين ، أما جاويش فتونسي مشمول بالحماية الفرنسية لم

يزل يستمسك بها إلى يوم محاكمته في قضية «الكاملين» .. وهو من دعاة
الخلافة العثمانية لا يريد لمصر إلا منزلة الولاية التابعة من السيد المتبوع ،
وقد كان من آماله في الحرب العظمى أن يتقلد فيها مشيخة الاسلام
بعد فتحها على أيدي الجنود التركية . فشقى بدعوته هذه ذلك الرجل
النيل الكريم محمد فريد رئيس الحزب الوطني . فانه كان معه في الاستانة
وكان يدعو إلى استقلال مصر ويتخذ له شعاراً « مصر للمصريين » . . .
فكان لا يلقى من جاويز إلا المكيدة والسعاية والتآمر عليه مع ضباط
« تركيا الفتاة » الذين يستكثرون على مصر أن يعترفوا لها بالاستقلال ،
وينوون إدخالها في حوزة الدولة العثمانية ، بولاية الصدر الأعظم سعيد حلیم
ولعلنا نتمم سيرته المجلدة بما انتهت إليه في أعقاب الحرب العظمى ، فقد
وصل إلى مصر خلسة بوسيلة مربية . وكان وصوله إليها في إبان الحركة
الانتخابية للحملة على سعد وأصحابه من جديد ، ثم اتجهت إليه شبهة في حادث
الأعتداء على سعد لم تقم عليها الأدلة القاطعة فأخلى سبيله ، ثم شملته الرعاية
فانتظم في خدمة الحكومة ، وقضى بقية أيامه موظفاً بوزارة المعارف كسائر
الموظفين ، لا يمتاز بقدره ولا بفضيلة استقلال . . . والمستور بعد ذلك من
أحواله أكثر من المشهور

خرج هذا الرجل من وظيفته بوزارة المعارف لينتقم لمطامعه ويقود
حملة الصحافة على وتيرة واحدة من التشهير والتلفيق ، فاذا استطاع سعد أن
يرر أمام ضميره تقييد كتابة كهذه الكتابة فهو لا يتعسف كثيراً ولا يحتاج
إلى غواية المنصب ليهتدى إلى ذلك التبرير

* * *

وليس من أخطاء سعد التي يهول بها خصومه بعد مسألة قانون المطبوعات
إلا مسألة واحدة يذكرونها بين مساوئه الكبار وهي عندنا من أجمل ما أثره

في الوزارة ، إن لم تكن أجملها كلها في حسن الأيثار وبراعة الحيلة . ونعني بها موقفه من مسألة قناة السويس ، وهذا تلخيص ذلك الموقف كما يعرفه ناقدوه ومحبذوه :

طلبت شركة قناة السويس الى الحكومة المصرية أن تمد لها أجل الامتياز أربعين سنة بعد مدته التي تنتهي في « ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ » على أن تقسم الأرباح مناصفة بين الحكومة والشركة ، وأن تدفع الشركة إلى الحكومة أربعة مليونات من الجنيهات على أربعة أقساط بتبديء من سنة ١٩١٠ وتنتهي في سنة ١٩١٣ وتتجاوز الحكومة من أجل ذلك عن خمسة عشر في المائة من أرباحها ابتداء من الأجل الجديد .

فهذه الصفقة كانت خاسرة في رأى فريق كبير من الأمة ورايحة في رأى فريق آخر ، ولا زال أناس يعتقد برأيهم يعتقدون أن رفضها كان من الخطأ والتعجل ، لأنه من المحتمل أن تطلق الحرية لجميع السفن في عبور القناة بغير رسم ولا ضريبة ، بعد أمد غير بعيد .

فلما عُرِض هذا الطلب على الوزارة البطرسية احتاجت إلى من يدافع عنه أمام « الجمعية العمومية » فلم تجد بين أعضائها من هو أقدر من سعد على هذه المهمة ، فلم يقبل الدفاع عنه إلا على شرط تتعهد به الحكومة ، وهو تحويل الجمعية العمومية الرأى القاطع في هذه المسألة تجيزها إن شاءت وترفضها إن شاءت دون أن تخالفها الحكومة في قرارها ، فقبلت الوزارة شرطه ونظرت الجمعية العمومية في المسألة فقررت رفض الطلب ، ونفذ القرار ، ولم تجدد الشركة طلبها بعد ذلك .

فاذا جاز لبعض الناقدين أن يحسبوا هذا الموقف من الأخطاء على فرض الجزم بخسارة الصفقة فهو في اعتقادنا ضرب من القدام قلمها ترتقى اليه همم الفدائيين ، لأن الفدائي يخسر الراحة والمصلحة ولا يخسر العطف وحسن الأحذوثة ، فأما

أن يعرض نفسه للنفور والتشهير لبيوء غيره بالعطف وحسن الأحذوثة -
فذلك فداء لا يطيقه إلا الأفاذ من عظام الرجال

ولهذا الشرط الذى اشترط سعد فضيلة أخرى فى ميدان الحركة
الدستورية ، اذ كان تخويل الجمعية العمومية رأياً قاطعاً فى هذه المسألة الخطيرة
أول خطوة ثابتة فى طريق الدستور الصحيح والرقابة القوية القومية ، فكان
من المتعذر بعد ذلك أن تنازع الأمة فى استحقاق الدستور .

فاذا كان موقف سعد فى مسألة القناة خطأ فهو خطأ لم تقع خسارته
على أحد غيره ، وأما المكسب كله فيها فقد كان من حظ الأمة وحظ
الجمعية العمومية .

الحركة الدستورية

بدأت الحركة الدستورية في مصر على عهد الخديو اسماعيل وكان اسماعيل يشجعها ويحرض عليها ، لأنه كان في ضيق شديد من الرقابة الأوربية على خزانة الدولة بعد ما تورط فيه من الديون الكثيرة . فكان يرجو أن يستعيد لنفسه بعض السيطرة على الحكومة من طريق المجلس النيابي والوزارة الدستورية ، ثقة منه بأن المصريين يبغضون الرقابة الأجنبية ويساعدونه على تخليص البلاد من أوهاقها

وتجددت الحركة الدستورية بعد الاحتلال البريطاني في أيام الخديو عباس الثاني ، وكان للخديو ضلع في هذه الحركة أيضا . لأنه كان يشكو من رقابة اللورد كرومر وطغيان نفوذه في جميع أنحاء الحكومة . بحيث لم يترك له من الأمر الا الشكل الرسمي والعنوان الظاهر . فرحب بالحركة الدستورية وحض عليها لأنها تنقص من نفوذ كرومر ولا تنقص من نفوذه شيئا يحرص على بقاءه . ولعله كان يرجو كما رجا اسماعيل من قبله أن تفك عنه بعض القيود وتهيء له أسباب المداخلة بين قوة الاحتلال وقوة الأمة

وكان بعض أعوان الخديو عباس ظاهرين في هذه الحركة ، وقد أيقن الانجليز أن الخديو كان يوعز الى مصطفى كامل باشا صاحب اللواء والشيخ على يوسف صاحب المؤيد بانتقاد الاحتلال وكبار رجاله وشن الغارة على اللورد كرومر وأساليب حكمه . وسمع الانجليز كذلك أنه أعان مصطفى كاملا بالمال لاصدار الصحف الأفرنجية ونشر الدعاية في البلدان الأروبية ، فخيل إليهم من الحركة الأولى والحركة الأخيرة أن المطالبة بالدستور في مصر ليست إلا مناروة خديوية ينساق اليها الشعب بغير شعور منه بالحاجة إلى النظام النيابي والرقابة على الحكومة ، وأنهم اذا وافقوا عباسا على بعض

ميوله ورغباته قضاوا على هذه الحركة وأمنوا انتشارها وامتدادها ولم يسمعوا
للأمة المصرية مطلباً بعد القضاء على البواعث التي تدفع بها إلى المطالبة

هذه الموافقة هي التي سموها يومئذ بسياسة الوفاق ، وهي التي لجأوا إليها
بعد اقالة اللورد كرومر عسى أن تضعف الدعوة الوطنية ، أو تقسم الأمة
والأمير إلى معسكرين متنازعين بدلاً من معسكر واحد متفق في الوسيلة والغاية .
فقوام سياسة الوفاق إذن هو توحيد قوى الحكومة وتشثيت قوى الأمة

فارق اللورد كرومر دار الوكالة البريطانية في شهر مايو سنة ١٩٠٧ وخلفه
السير دون غورست الذي شغل في مصر منصب المستشار الداخلي والمستشار
المالي بعد أن اشتغل بوظائف الحكومة المصرية منذ سنة ١٨٩٠

وكانت «فكرة» غورست عن دعوة مصر الوطنية هي فكرة الموظفين
الإنجليز المحليين . ومنهم فريق يغلون في محاربة الدعوات الوطنية جميعاً لأنهم
يعتبرون المطالبة بالاستقلال والمطالبة بالدستور إفتياتاً على سلطانهم وعلى
مصالحهم فضلاً عن سلطان الدولة البريطانية ومصالحها وينظرون إلى مطالب
المصريين من وراء هذه الميول والأغراض فلا يرونها إلا مشوهة منحرفة ،
ويعتقدون أن الشرق لا يستحق من أساليب الحكم إلا تلك الأساليب التي
إصطالحوا على تسميتها بالأساليب الشرقية ، ويعنون بها المراوغة والتلفيق ...
فجاء السير دو غورست بهذه العقيدة وهو ينوي أن يستخدم «الأساليب
الشرقية» في تهدئة الخديو وتهدئة الأمة في وقت واحد .

على أن الحقيقة أن مطالبة المصريين أو فريق منهم بالدستور ليست بالمناورة
الخفية ولا بالدعوة المصطنعة ، لأن المطالبين به قد طلبوه وهو معارض لأهواء
الخديوين كما طلبوه وهو موافق لأهوائهم . فلم يكن الخديو توفيق موعزاً بطلبه
ولا راضياً عن دعائه ، ولكن الحركة الدستورية في أيامه كانت على أشد
ما عرفت به في تاريخها كله . ولم يكن الخديو عباس موعزاً بطلبه ولا راضياً عن
دعائه بعد عزل اللورد كرومر وإعلان سياسته الوفاق . ولكن الحركة

الدستورية اشتدت ولم تخمد بعد إعلان هذه السياسة ، وبلغت العرائض المقدمة إلى الخديو بطلب الدستور أضعاف أضعاف ما تقدم منها في عهد السياسة الكرومرية

ولم يكن سكون الحركة الدستورية في السنوات الأولى بعد الاحتلال دليلاً على أنها مزيفة أو قريبة الزوال . لأنها لم تسكن إلا من أثر الصدمة الأولى التي خيبت الآمال وبلبلت الأفكار ونفتت فيها نوافث الشك والحيرة . عقب الثورة العرابية . ثم استمرت على سكونها لأن المصريين قد انصرفوا إلى مطالبة الإنجليز بالجلاء في أوائل أيام الاحتلال ، فلم يروا ضرورة للتعجيل بطلب الدستور مع انتظار الجلاء في أمد قريب ... ومن أجل هذا تضاعفت الحركة الدستورية بعد سنة ١٩٠٤ التي حدث فيها الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا على التراضي والتعاون في المسألتين المصرية والمراكشية ، فقد وضحت عزيمة الإنجليز على البقاء الدائم وضوحاً مسجلاً بالوثائق الرسمية ، وكان هذا الاتفاق الذي قصدوا به إطفاء جذوة الحمية الوطنية وتخيب رجاء المصريين في مساعدة الدول الأوروبية باعثاً قوياً من بواعث النشاط واليقظة في عقيدة المصريين ، وبداية لاجتماع الآراء العامة على رأي واحد ، وتسديد الخطى إلى غاية واحدة قلنا أن السير الدون غورست جاء بعد كرومر لتهدئة الحركة الوطنية وتهدئة الخديو في وقت واحد ... فأما صنعه لتهدئة الحركة الدستورية فذلك إنه فكر في إصلاح المجالس المحلية ومجالس المديرية التي كانت مهملة إلى ذلك الحين . فوسع من حقوقها وأباحها بعض الرقابة على المديرين ، فلم تقنع الأمة بهذا القسط اليسير من المشاركة في الحكم . لأنها إنما طلبت الدستور في الحقيقة لتكبح به الاحتلال لا لتكبح به مديري الأقاليم واتفق فيما حول ذلك من الوقت أن طراً حادثان خارجيان كان لهما أثر عظيم في أذكاء الحمية الوطنية والدعوة الدستورية : أولهما - وقد بدأ قبل مجيء غورست - هو حرب اليابان وانتصارها وهي دولة شرقية مجهولة على دولة غربية

كبيرة ، فتجددت بذلك آمال النهضة العامة في قلوب الأمم الشرقية كافة
والحادث الثاني هو فوز الشعوب العثمانية بالدستور في يوليو من سنة ١٩٠٨ ،
أى بعد وصول السير الدون غورست إلى مصر بأشهر قليلة ، فقد أنال هذا
الدستور جميع الأمم العربية الأخرى التى كانت تابعة للدولة العثمانية حقوق
الانتخاب والانابة عنها فى مجلس المبعوثين ، وبقيت مصر وهى فى طليعة هذه
الأمم محرومة هذه الحقوق لغير سبب وجيه فى نظرها ؛ فزادها ذلك يقيناً
بصواب رأيها وعسف الاحتلال البريطانى المعارض لها فى طلبها

أماماصنعه غورست لارضاء الخديو عباس الثانى فإنه بدأ باطلاق يده رويداً
رويداً فى أعماله الخاصة ثم فى أعمال الحكومة ، فاستقالت وزارة مصطفى فهمى
باشا (١٩٠٩) البغيضة الى عباس وقامت بعدها الوزارة البطرسية ، وسمح
الانجليز له بترشيح بعض أنصاره للوزارة وهم محمد سعيد بك وأحمد
حشمت باشا وحسين رشدى باشا ، فكانت أول وزارة استطاع أن يدخل
فها مثل هذا العدد من الأنصار

ثم قتل بطرس باشا فى فبراير سنة ١٩١٠ فجر مقتله إلى جدال وشقاق بين
القبط والمسلمين . شغل بهما المصريون فيما بينهم برهة عن المطالبة بالدستور ،
ولم تسكره دار الوكالة البريطانية هذا الشقاق المحزن لأنه يجرى مع ما قصدته
بسياسة الوفاق من تشتيت قوى الأمة وتوحيد قوى الحكومة . وكانما كانت
تنتظره من ترشيح بطرس باشا لرأسه الوزارة ، فلما فاتها اغضاب المسلمين
بتعيينه كما كانت تؤمل لم يسؤها ان يتفاقم الخلاف المحذور بعد الاعتداء عليه ،
ولا سيما وقد لغطت أبواق الاحتلال على أثر قضية دنشواى بتهمة التعصب
الدينى وسوغت بها قسوة الأحكام فى تلك القضية . ثم شرعت فى استغلال
التهمة لا دعاء حماية المسيحيين من أجانب ومصرين

ولم تمض فترة وجيزة على السير الدون غورست في دار الوكالة حتى ظهرت الحيرة على مشوراته التي كان يدونها في تقاريره السنوية، فجعل يوصي بالرأى وينقضه ويهم بالعمل ولا يجد في انجازه، وعنده على كل حال أن الحركة الدستورية انهي إلا نوبة عارضة في الطبقات العالية تعالج بالانتظار والمصابرة إلى أن تزول، أما في الطبقات الجائعة فلا حاجة إلى علاجها بأكثر من الرقابة الساهرة وتقييد الخطابة والكتابة

ثم مرض السير الدون غورست ومات ولم تكده تنقضى عليه في دار الوكالة ثلاث سنوات

فاخافته حكومته « في سبتمبر سنة ١٩١١ » باللورد كتشنر صاحب الأزمة القديمة التي وقعت بينه وبين الخديو عباس واشتهرت باسم أزمة الحدود . فكان مجرد تعيينه مؤذنا بتغيير جديد في السياسة واعتراف من جانب الساسة الانجليز بخطتهم في فهم الحركة الوطنية أو بخطتهم في عزوها كلها إلى مقاصد الخديو السابق وتحريضاته ، فبعد ان كان الغرض من تعيين السير الدون غورست ان يسترضى الخديو بالنزول له عن بعض النفوذ واطلاق يده هونا ما في أعماله وأعمال الحكومة أصبح الغرض الظاهر من تعيين اللورد كتشنر ان يعاد الخديو إلى حيزه المحدود ، وأن تجس المشكلة الوطنية من غير هذه الناحية

رأى اللورد كتشنر أن الحركة الدستورية حركة جديدة صادقة لا مفر من الاكتراث لها وملاقاتها بما يرضيها أو يخفف من حدتها . فليست هي في الطبقات المسؤولة نوبة عارضة لاحاجة في علاجها إلى أكثر من الصبر عليها وليست هي في الطبقات الفقيرة صيحة جوفاء خلواً من كل معنى ، فالقلق بين صغار الفلاحين موجود لا شك فيه ، وغاية ما في الأمر أنه قد يرد إلى أسباب الأزمة الزراعية وقد يسهل تسكينه كثيراً أو قليلاً بتلطيف وقع

الآزمة عليهم وتأمينهم على أقواتهم ، ومن هنا نشأ قانون « خمسة الافدنة »
محرما الحجز على هذا المقدار من الأرض أو مادونه في سداد الديوان .
وفكر اللورد كتشنر في إرضاء طلاب الدستور بإنشاء هيئة نياية جديدة
غير مجلس الشورى والجمعية العمومية . فصدر القانون النظامى بإنشاء الجمعية
التشريعية فى أول يوليو سنة ١٩١٣ مشتملا على حقوق أوسع من حقوق
المجلسين السابقين ، وان كانت فى جملتها أقرب إلى القشور منها إلى اللباب

UNIVERSITY OF CALIFORNIA LIBRARY
UNIVERSITY OF CALIFORNIA LIBRARY
UNIVERSITY OF CALIFORNIA LIBRARY

الوزير المصري

في المعاش !

في البلاد الدستورية يخرج الوزير من ديوان الحكم ويعود اليه مرات في مدى حياته السياسية . وقد يخرج منه ويعود اليه أكثر من مرة واحدة في السنة الواحدة ، تبعاً لاختلاف الآراء العامة واختلاف مواقف الأحزاب بين الصداقة والخصومة والتألب والتفرق ، في المناوشات البرلمانية . وقد يكون تفوذه وهو معارض أكبر من نفوذه وهو في ديوانه ، مقيد بقيود الوظيفة ، مطالب برعاية المراسم الوزارية . فاذا اعتزل المنصب فترة من الزمن لم يزل مرجواً مخشياً محسوباً له حسابه ، ولم ييأس منه أصدقاؤه أو يستخف أعداؤه بشأنه . لأنه يظل حيث كان قادراً على عمل متأهباً لعودة قريبة إلى الحكم ، مرجحاً لهذا الجانب أو لذاك في مواقف الأمة ومواقف النواب .

أما الوزير في مصر قبل خمس وعشرين سنة فقد كان بين حالتين ليس بينها حالة وسطى . فهو إما وزير أو لا شيء . . . فاذا خرج من الحكم فلا رجاء فيه ولا ضرر منه . ولا أمل في عودته إلى الحكومة أو مشاركته في الحياة السياسية ، لأنه كان يرتقى الوزارة بعد أن يتقلب في وظائف الحكومة من أصغرها إلى أكبرها ويستغرق في خلال ذلك ما يستغرق من وقت لا يقل عن أربعين أو ثلاثين سنة . فمن معاون إلى مأمور إلى وكيل مديرية إلى مدير في الدرجة الثالثة فالثانية فالأولى . إلى وكيل وزارة أو وزير يبلغ من العمر الخامسة والخمسين أو الستين ؛ لا يطلب منه عمل ولا يعتمد عليه في سياسة عامة ، ولا سيما بعد أن أصبحت الوزارة رسماً معطلاً في أيام الاحتلال ، وانتقل العمل والسياسة كلها إلى أيدي المستشارين البريطان ، ومن ورأيهم دار الوكالة البريطانية

يقضى الوزير ما يشاء له الحظ في منصبه ثم يخرج منه الى داره وهو شيخ قد جاوز الستين وخطا إلى السبعين . فإذا يصنع في الأيام المعدودات الباقيات له من الحياة فإنه لو كان شابا لما استطاع أن يعمل شيئا لأنه لم يخلق ليكون من أصحاب الأعمال . فإذا كان في تلك الشيخوخة الفانية فهو من باب أولى لا يقوى على عمل ولا يفكر فيه ، ولا يبقى منه ما يرجوه راج أو يخافه خائف . ان هو الا خارج من سجل الأحياء في الحقيقة لامن سجل الحياة الوزارية وحسب ، فهما لفظان مترادفان

ومن عادة النفس الانسانية أن تتخذ من الضرورة فضيلة كما يقولون . فالرجل الذى يعز عليه الخوض في الحياة العامة يعتبر الخوض في هذه الحياة مهانة لا تجمل بقدره ، ويعتبر العزوف عنها واجبا مفروضاً عليه . والوزير المصرى المحال إلى المعاش أقرب الناس إلى الايمان بهذا الوهم والتعزى بهذه الخديعة ، لانه بلغ من المناصب والألقاب أرفعها فكل عمل بعد ذلك هو حط من قدره وابتذال لمقامه . ويزداد عزوفه عن العمل وجوبا في تلك الأيام التى غلبت فيها أبهة المنصب ولم تنتشر فيها الآداب الشعبية أو الديمقراطية . فلا جرم تصبح البطالة أدبا من آداب الوزراء المعزولين ، ويعود الاحتفاظ بالوقار على هذا النحو وهو هو العزاء الوحيد لمن قضى عليه منهم بالدخول في عالم الفناء !

من هذا نستطيع أن نعلم أن المجازفة بالاستقالة أمر ليس بالهين فى عرف الوزراء المصريين قبل خمس وعشرين سنة ، ونستطيع أن نعلم مقدار الضربة التى ظن خصوم سعد أنهم أنزلوها به والنقمة التى صبها عليه ، وهو كهل متين الأسر لم يبلغ من الشيخوخة ما يبلغه الوزراء الذين يروضون أنفسهم على أدب العزلة أو أدب البطالة الفانية

نعم إنهم تعودوا من الرجل أن يضع قواعده لنفسه ولا يجرى على قاعدة يقاد اليها برغمه . لكن ماذا عساه أن يصنع وهو مستهدف للعداء من

جانب الاحتلال ومن جانب الأمير؟ أيلجأ إلى الرأي العام ويستأنف ماضيه القديم من الحياة السياسية!

نعم ذلك كان أمراً محتملاً قبل خمس سنوات، أو قبل أن تقع الجفوة ثم العداوة اللدود بين سعد والصحفيين الذين كانوا يسيطرون على الرأي العام في تلك الأيام. أما الآن وقد مضت على الصحافة الرائجة سنوات وهي لا تكتب عن سعد إلا ما يمثله للناس آلة من آلات الانجليز وعدوا من أعداء الحرية. فماذا بقي له عند الرأي العام؟ وماذا بقي له من الرجاء إذا هو استأنف الحياة السياسية؟

لم يبق إلا الفشل المحقق والتسليم بالقضاء والانزواء في « النرفانا » الوقور التي لا ترهب للنازليين بها صولة ولا تخاف لهم رجعة إلى عالم الدنيا.. وعلى هذا أروع خصومه إلى بعض أتباعهم ليحملوا عليه في الصحف ويلغظوا في المجالس ويفتروا الأكاذيب عن أسباب استقالته، غير عابئين بحقيقة ولا واقفين عند محذور، ومم يحذرون والرجل الذي يهاجمونه بعيد من القوة الحكومية، بعيد من رضى الأقوياء في الحكومة!

هنا صدموا بأول صدمة لم يتعودوها من ساكني « النرفانا » المستباحي الذمار! وأيقنوا أنهم أمام معزول لا يشبه المعزولين. فان الرجل الذي ساقوه إلى لحده السياسي كما زعموا، قد خرج عليهم بكلمة وجيزة لا لجانحة فيها. كلمة الواثق بقدرته على كبح خصومه حين يريد وكما يريد: إنكم ياهؤلاء تنسون الحقيقة كأنكم لا تعرفونها. فان كنتم تجهلونها وتسركم معرفتها فما أنا ذا على استعداد!! أتسكتون إذن؟ أم تقولون الحقيقة؟ أم نسوقكم إلى حيث تقال! وما هو إلا أن أذاعت الصحف هذا النذير حتى سكت السليط وتراجع المقدم، واشتد الايعاز في طلب السكوت كما اشتد الايعاز قبل ذلك في طلب الكلام

ثم شاع في أندية القاهرة أن سعداً يتحدث إلى صحبه بالعودة إلى المحاماة فوقعت هذه الاشاعة موقع الاستغراب عند كثيرين . أيمكن هذا ؟ وزير سابق ينزل من مقامه الرفيع إلى زحام المحاماة ليكسب هذه القضية ويخسر تلك ، ويتلقى أمراً من هذا القاضى وملاحظة من ذاك ؟ غريب هذا لأنه بدعة لم تعرف قط في الحياة المصرية إلى ذلك الحين ، ولكن العارفين بسعد لم يستغربوه لأنه عمل معقول لا تنهض عليه حجة . وكل أمر معقول فليس من طبيعة الرجل أن يدين فيه لحجر أو لا كراه . ولو لم يكن فيه إلا تحديه للحجر والا كراه لكفى بذلك مغرياً له بفعله وحافزاً له إلى الاقدام عليه . فليس بالبعيد إذن أن يضاف إلى مكاتب المحامين بانحاء القاهرة مكتب جديد للمحامى سعد زغلول . . . ومع أن المحاماة عمل لاسلطان له على سياسة الدولة فقد ظل خصومه الأقوياء يترقبون ويتوجسون ، لأن المحامى سعد زغلول قد يخطر له أن يشترك في قضية من القضايا السياسية التي تكشف عن بعض أسرار الحكومة في ساحة القضاء ، أو يشترك في قضية من قضايا الأموال المهضومة التي تحوم فيها الشبهات على بعض الكبراء . وهذا وذلك مما لا يتقبله خصوم سعد بارتياح

والواقع أن سعداً قد تحدث إلى بعض خاصته بالعودة إلى المحاماة ، فوافقه أناس وخالفه آخرون ، واتفق اعتراله للوزارة على مقربة من فصل الصيف الذى تقف فيه الأعمال وتتعطل فيه الجلسات ، فارجأ البت في استئناف المحاماة إلى ما بعد الاجازات الصيفية . ثم تجاوزت الأندية العليا بحديث القانون النظامى الجديد وقرب صدوره ، وانعقاد الهيئة النيابية التي يرجى بها ارضاء المصريين وإعطاؤهم قسطاً من الحكومة الدستورية ، فلاحت له فرصة لا تضيع ، وعلم لأول وهلة ما ينبغى له أن يصنع ، وأجمع النية على ترشيح نفسه للهيئة الجديدة كائناً ما كان نصيبها القانونى من الرقابة الدستورية ، لأنه لا يجمل ما استطاع عمله بالنقد الصحيح والمحاسبة الدقيقة ، ولو لم يكن من حقه

القول الفاصل في أمر من الأمور .

وعلى ما في اشتغاله بالمحاماة من الغرابة يظهر أن ترشيح نفسه للنيابة في هيئة كهيئة الجمعية التشريعية كان أغرب في رأى خصومه وأبعد عندهم من الحسبان والتخمين ، فلم ينتظروا منه - فيما نظن - أن يفكر في انتهاج هذا الطريق ، أو لم ينتظروا على الأقل أن ينجح في الانتخاب أو يجمع حوله أنصاراً كثيرين من أعضاء الجمعية ان نجح فيه . ويدعوننا إلى ترجيح هذا الظن انهم لم يفكروا في تقديم الوكيل المعين للجمعية على الوكيل المنتخب بشيء من الحقوق والمزايا ، كأنهم لم يحلوا بوصول سعد الى منزلة الوكالة في الجمعية حتى يحتاطوا له هذا الاحتياط ، ولذلك فوجئوا بمسألة الوكيلين مفاجأة لم تقع منهم على استعداد . لأنها قد أخلفت عندهم على ما يظهر كل تقدير

وعندنا أن القائمين على الحكومة المصرية في ذلك العهد لم يخطئوا التقدير من وجهة شعورهم الذى يشعرونه وطبيعتهم التى جبلوا عليها . وهى طبيعة لم تخلق لزعامه شعبية ولم تتعود أن تستطلع مكان من القوة التى يلبسها من نفوس الشعب كل زعيم مفطور على قيادة الجماهير . فهم مصيبون من ناحية التقدير « القانونى » إذا اعتقدوا أن هيئة كالجمعية التشريعية لن تتسع لهمة سعد ونشاطه فى الحياة السياسية ، وأنه لا ينال بها شيئاً يستحق عناءه وهى على ما هى عليه من ضعف النفوذ وضيق الحدود . ولو كان واحد منهم فى مكانه لما خطر له أنه يصنع كثيراً ولا قليلاً بترشيح نفسه لهذه الهيئة الصورية . فهو مصيب إذا استخف بها وبما يصنعه فيها ، ومصيب إذا أخرجها من حسابها ولم يعول عليها قط فى تحقيق آرائه ومناجزة أعدائه . ولكنه يخطئ إذا استخف بما يصنعه رجل من طبيعة سعد زغلول ، فى هيئة تمثل الشعب والى جانبها الرأى العام ، ولو لم يملك فيها غير حق الانتقاد .

فاللورد كتشتر أو الخديو عباس لا يستطيعان العمل بغير وزارة ، والوزارة لا تملك الاستقلال بالرأى فى هذه الحالة لأنها لم يؤت بها

لمخالفة الذين أوجدوها في الحكومة بل أتى لها للطاعة ومجاراة الرغبات الصريحة أو المفهومة . ولكنها مع هذا لا تريد أن تقول للناس إنني آلة مسخرة تعمل ما يميل عليها ولا تدري كيف تدافع عن أعمالها ، فإذا لم يكن في وسع الانتقاد المعقول المنظم أن يسقطها ففي وسعه أن يكشف عن دخيلتها وعن تناقض ظاهرها وباطنها ، وأن يضعها كرها أو طوعا في موضوع مخجل يحرمها كل هيبة ويشل فيها كل حركة . والمعول في وضع الوزارة هذا الموضوع العسير إنما هو على اليد التي تدير دفة المعارضة وتتصدى لأقامة الحججة من هنا وتفنيدها من هناك ، فإن يدا تملك هذه القدرة لتملك زمام الموقف كله ولا يعز عليها إحراج الحكومة احراجاً لا تنفعها فيه القوة المطلقة التي تسندها

وقد قال الشيخ المنفلوطي فيما أذ كر لسعد يوماً من أيام جهاده في الجمعية التشريعية : « ما الذي تستفيده يا مولاي من إجهاد نفسك في شئون قلما تنال فيها الأغلبية في الجمعية ؟ فأجابه جواب الرجل الذي يعرف أين هو من عمله ويعرف السلاح الذي يشحذه في نضاله : « سواء لدى نجحت أم لم أنجح فاني لا أخطب في الجمعية التشريعية وحدها بل في الأمة جميعها ، ولا أخطب الحاضر وحده بل أخطب المستقبل أيضاً »

فهو لم يدخل الجمعية التشريعية ليغلب فيها الوزارة بعدد الأصوات ومناورات الكثرة والقلّة ، ولكن الوزارة برمتها لم يكن لها من النفوذ في سياسة البلد بمقدار ما كان لسعد النائب في الجمعية التشريعية ، بغير كثرة عدديه ، وبغير حق كان إلا حق الانتقاد والمناقشة

قال اللورد جورج لويد في الجزء الأول من كتابه « مصر منذ كرومر » عند الكلام على كتشنر والخديو :

« لو أن كتشنر عاد من إنجلترا في خريف سنة ١٩١٤ مفوضاً في إنذار الخديو أو خلعه عند الضرورة لبقى عليه أن يمارس الجمعية التشريعية التي خلقها هو بيديه . فقد كان زغلول في تلك الجمعية ومن ورائه صف أتباعه المتين -

قوة لامناص من حسابان حسابها ، لأنهم كانوا يملكون أن يشلوا عمل
الوزارة إن لم يجعلوه مستحيلا ، وكان المرجح جداً أن يتيهأ المسرح بعد فترة
غير طويلة لمعركة بين زغلول وكتشنر تكون المسبر الدقيق للمقدرة
السياسية في كلا الرجلين ، ولم يكن من المحتمل أن يقع الوفاق بين رجلين من
هذا الطراز »

ذلك رأى اللورد لويد فيما طواه الغيب ، وكان في وسعه أن يقول إن
المعركة بدأت فعلا ، وأنها لم تكن لتنتهى إلا بتعجيل الدستور الصحيح
وانتصار سعد في نضاله ، لأن الغاء الهيئات النيابية الغاء تاما مشكلة قد يلجأ
اليها اللورد كتشنر إذا اضطر اليها ، ولكنه لا يحسب نفسه منتصراً في هذه
الحال ، ولا يزيد على أن يحول النضال إلى ميدان آخر ، لن ينهزم فيه سعد
زغلول .

في ميدان الانتخاب

صدر القانون النظامي الذي انشئت بموجبه الجمعية التشريعية في أول يوليو سنة ١٩١٣ وجاء في مقدمته ما يأتي :

« لما كانت رغبتنا هي منح بلادنا نظام حكومة يكون موافقا للأفكار النيرة وكافلا لحسن الإدارة ولصيانة الحرية الشخصية وضامنا لاتساع نطاق التقدم وال عمران وملائما لهذه البلاد بنوع خاص

« ولما كانت هذه الغاية لا يتسنى نيلها الا بتعاقد جميع الطبقات تعاظدا مبنيا على الولاء ، وبامتزاج جميع المرافق امتزاجا يؤدي الى ترقية نظام الحكومة بطريقة تجمع بين السكينة والتروى بحيث لا يكون هذا النظام عبارة عن مجرد تقليد ومحاكاة للأساليب الغربية ، بل يكون داعياً الى تمهيد السبيل لرفاهة الأمة المصرية واسعادها

« ولما كانت بغيتنا حينئذ هي تعديل القانون النظامي تعديلا يكون من ورائه تحسين الأسلوب التشريعي ، وذلك باستبدال القوانين النظامية الحالية بقوانين ترمى إلى ضم مجلس شورى القوانين مع الجمعية العمومية في هيئة واحدة وإلى تقرير طريقة للانتخاب تكون أوسع نطاقا وأكثر انطباقا على الحكمة والى ازدياد عدد الممثلين الذين يعهد اليهم بالمشاركة في أعمال السلطة التشريعية والى تخويل الهيئة الجديدة الاختصاصات الممنوحة الآن لكل من مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وإلى ترتيب طريقة يجرى عليها العمل في الاستشارة وفي اقتراح وضع القوانين لكي تزداد استفادة الحكومة عن ذى قبل من آراء هذه الهيئة الجديدة ومقترحاتها فيما يتعلق بإدارة الشؤون الداخلية... فقد أمرنا بما هوآت الخالخ »

وتألفت هذه الهيئة كما جاء في المادة الثانية من قانونها النظامي : « من

أعضاء قانونيين وأعضاء منتخبيين وأعضاء معينين . والنظار أعضاء قانونيون ، وعدد الأعضاء المنتخبين ستة وستون عضواً ينتخب أحدهم وكيلاً بمعرفة الجمعية ويكون انتخاب الأعضاء بالكيفية وبالشروط المقررة في قانون الانتخاب . وعدد الأعضاء المعينين سبعة عشر عضواً أحدهم رئيس والثاني وكيل والخمسة عشر الآخرون يعينون على نحو يكفل النيابة عن الاقليات والمصالح التي لم تنل نصيباً من الانتخاب »

وكانت الشروط المالية غالبية على جميع الشروط الأخرى في ترشيح الأعضاء . فكان مشروطاً في العضو بعد السن التي لا تقل عن خمس وثلاثين سنة أن يكون « قد دفع منذ سنتين مال أطيان سنوي قدره خمسون جنيهاً أو عوائد مبان قدرها عشرون جنيهاً في السنة أو خمسة وثلاثون جنيهاً مال أطيان وعوائد مبان معاً وينقص المال السنوي إلى خمسيه بالنسبة لمن كان حائزاً لشهادة من جهات القطر » وينتخب هؤلاء الأعضاء مندوبون خمسونيون يشترط فيهم ان لا يقل عمرهم عن الثلاثين

فوظيفة الجمعية لما تقدم محصورة في الاستشارة ، والنواب محصورون في نطاق ضيق من أصحاب الثروة والوجاهة ، والناخبون محدودون بالسن وبقيود الانتخاب من درجتين

وكانت في مصر ثلاثة أحزاب سياسية عند انشاء الجمعية التشريعية : الحزب الوطني وهو يطلب الاستقلال في ظل السيادة العثمانية ليستعين بحقوقها الشرعية على محاربة الاحتلال الغاصب ، ومعظم أعضائه من الطلبة والشبان وخريجي المدارس العليا ، وقليل منهم من وجهاء الأقاليم المقربين إلى الحاشية الخديوية

وحزب الأمة ويطلب الاستقلال التام ويبغض السيادة التركية ، ومعظم أعضائه مغضوب عليهم من الخديو عباس الثاني ورجاله ، فكانوا من أجل ذلك على صلة بدار الوكالة البريطانية

وحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية ، واسمه يدل على غرضه ، وهو مداراة الاحتلال والاكتفاء بطلب التدرج على مبادئ الحكم النيابي ، وإنما كان يدارى الاحتلال لأنه حزب القصر المعروف بانتمائه الى المراجع الخديوية ، فلا يجب أن يجهر بمناوأة الانجليز ويعطيهم حجة مكشوفة تمكنهم من مقابلة العداء بالعداء.

وكانت هذه الاحزاب سياسية ولكنها لم تكن برلمانية مستعدة للترشيح في ميدان الانتخاب ، لأن الاحزاب البرلمانية التي لها فروع ولجان ودعاة ومرشحون لا توجد إلا بعد وجود البرلمان وطول العهد بالمنافسات النيابية ، وإنما كانت أحزاب مصر في تلك الفترة بمثابة اندية سياسية يجتمع فيها بعض الأصدقاء والزملاء المتعارفين ، ولا تتعدى حدود القاهرة والعواصم الكبرى

ومن أسباب عجز الأحزاب عن خوض معركة الانتخاب أنها كانت قد ضعفت واضمحلت لأسباب عارضة أصابت كلا منها على حدة ، فالحزب الوطني تفرق بعد موت مصطفى كامل وسجن محمد فريد وهجرته من البلاد ، وحزب الأمة لم يقو على الثبات بعد رحيل كرومر وتتابع الضربات عليه في أيام سياسة الوفاق ، وحزب الاصلاح على المبادئ الدستورية لم يكن شيئاً مذكوراً من البداية ، ولم يبق له أثر بعد وفاة رئيسه الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد .

ومن أصعب الأشياء على أحزاب سياسية كاحزاب مصر في تلك الفترة أن تجمع لها مرشحين في كل دائرة تتوافر فيهم الشروط المطلوبة من أعضاء الجمعية التشريعية .

لهذا لم يتقدم أحد ببرنامج سياسي على أساس المنافسات الحزبية في تلك الانتخابات

ولم يكن سعد عضواً في حزب من تلك الأحزاب ، ولكن أنصاره
المعجبين به من المثقفين في كل حزب غير قليلين .

فنزل في ميدان الانتخاب مستقلاً عن جميع الأحزاب ، وجعل برنامجاً
موافقاً لما يطلب من الجمعية التي يرشح نفسه للنيابة فيها ، وخلصته كما أفضى
به إلى بعض سائله :

« إذا شاء أهل وطني أن ينتخبوني نائباً عنهم فاني أعاهدكم على أن
أقف نفسي على خدمتهم وقضاء مصالحهم والسعي في تحقيق أمانهم وإزالة
شكاواهم وأذكر على سبيل الاستشهاد الأمور التالية :

(١) قرأت في الجرائد مقالات وفصولاً متعددة في انتقاد قوانين المحاكم
المصرية من جنائية ومدنية وغيرها ، وما فيها من وجوه النقص وما يشكو
المتقاضون منه من فداحة الرسوم القضائية وزيادة التطويل في سير القضايا
وما شاكل ذلك ، فاذا شاء أبناء وطني أن ينتخبوني نائباً عنهم فأنا أعدهم بأن
أجد في خدمتهم بالبحث عن كل العلل والأسباب التي يشكون منها وجمع
الشواهد وإيراد الأدلة والحجج التي أتوسل بها إلى إقناع زملائي في المجلس
حتى يؤيدوني فيما أقترحه على الحكومة من التعديل والتغيير لخير الأمة وإلى
إقناع الحكومة بصحة اقتراحنا واستمالتها إلى قبوله والعمل به حبا بخير الأمة
وزوال شكوى الأهالي .

(٢) إنني اختبرت أحوال المدارس والدرس والتدريس زماناً طويلاً
وعرفت حاجات الأمة الكثيرة إلى المعارف فاذا انتخبت عضواً في الجمعية
التشريعية فاني أعاهد الأمة على افراغ الجهد في توسيع نطاق التعليم حتى يعم
جميع طبقات الأمة وحتى يتيسر لأبناء الفقراء أن يبنعوا كإبناء الأغنياء .

(٣) إنني لأزال مقيماً على رأيي المعلوم في إعطاء الصحافة الحرية اللازمة لزيادة
نجاحها وارتقاءها في خدمة الأمة . فاذا شاء أبناء وطني أن ينتخبوني فأنا أعاهدكم
أنى أدرس هذه المسألة درسا دقيقاً وأجمع الأدلة والحجج التي تقنع زملائي

وتقنع الحكومة بوضع قانون تصان به حرية الصحافة من جهة ويصان به النظام العام من ضرر شططها من جهة أخرى

(٤) أقرأ في الجرائد عبارات الشكوى الدائمة من سكان العاصمة ولا سيما سكان الشوارع الوطنية ، تارة من قلة النور و تارة من قلة الكنس والرش و تارة من قلة التنظيم والرصف فاذا انتخبت في الجمعية التشريعية فاني لا أدخر وسعا في عمل ما أستطيع عمله ضمن الحدود القانونية لحمل الحكومة على إزالة شكوى الأهالي من هذا القبيل .

(٥) إذا انتخبت في الجمعية التشريعية فاني أجعل حاجات معظم الأهالي نصب عيني وخصوصاً حاجات المزارعين فأسعى في تسهيل وسائط الزراعة والرى ومد السكك الحديدية والزراعية في البلاد وأدرس أسعار القطن درساً دقيقاً وأبذل جهدي في اتخاذ الوسائط التي تحمي بها مصالح المزارع ولا يذهب ربحه من قطنه طعماً للتاجر وغيره من الذين يشترون قطنه بالثمن الرخيص ويبيعونه إياه محوكاً ومنسوجاً بالثمن الغالي .

وهذه بعض الأمور التي أسعى فيها لخدمة بلادى وقضاء مصلحة أهل وطنى وأعد أنى لا أدخر في القيام بواجب الخدمة واستخدام الوسائل التي يبيحها لى قاتون الجمعية التشريعية لاقتناع الحكومة بعمل ما أرى عمله واجبا لخير الأمة «

*
*

هذه هى خلاصة الوعود التي تقدم بها سعد إلى ناخبيه ولم يتجاوزها إلى غيرها من وعود لا يملك إنجازها نائب في هيئة كالجمعية التشريعية .
ولأول مرة في تاريخ الانتخابات بمصر سمعت الخطب الانتخابية وتقرّب المرشحون إلى الناخبين ببيان الخطط التي ينوون اتباعها ، وجرى الانتخاب على النظام الحديث بعد أن كان لا يجرى إلا على المساومات والشفاعات ، والتوسل بجاه الحاكم تارة وبجاه العصبية تارات .

وانه ليسكنى في الغالب أن يشترك الرجل « غير العادى » فى الشؤون
العادية لتخرج الأمور عن مجراها الذى ألفه الناس منها ، وتستقيم على مجرى
جديد لم يألوه ولم يكونوا يبالغيه إلا فى السنين الطوال . وكذلك كان
اشترك سعد فى الانتخابات كافياً لاقتناع طائفة صالحة من نخبة المثقفين
بدخولها والصبر على عيوبها مما كان يزهدهم فيها . فتقدم فى ميدان المنافسة العلماء
وكبار الكتاب والمحامين ، وقلها كان يطرقة فى عهد مجلس الشورى والجمعية
العمومية أحد غير أتباع الحكومة من جملاء العمدة والوجهاء

وقدرشح سعد نفسه فى دائرتين من دوائر العاصمة لا عن دائرة واحدة :
أى عن نصف المدينة ، فنجح فى الدائرتين نجاحاً فاق كل تقدير .

ونعتقد نحن أن الغرابة كان لها شأن كبير فى هذا النجاح ، لأن نزول
وزير سابق كسعد زغلول فى ميدان الانتخاب على غير المعهود كان مفاجأة
غيرت كل حساب ، وكأما كان ماضيه فى الحركة الوطنية وفى المحاماة والقضاء
والوزارة مدخراً لهذا اليوم ، فاستعاد قوته كلها من أثر هذه المفاجأة وهزم كل
مأعدوه له من الموانع والعراقيل : هزم دعاية التشهير به خمس سنوات ، وهزم
المقاومة الخفية التى تألبت فيها مساعى اللورد كتشنر ومساعى الأمير ومساعى
الوزارة القائمة ، وهزم المال وغواية الرشوة والرجاء ، وبلغ من حماسة
ال جماهير لا تتخاب سعد ان الرجل الفقير من المندوبين كان ينتخبه وهو لا يعرفه
ويرفض الجنيهاً التى يعرضها عليه المنافسون المعروفون لديه ثمناً
لصوته ، فى تلك السنوات العصيبة التى أقفرت فيها الأسواق ونضبت المكاسب
ولم يسمع سعد برجل من هؤلاء المندوبين إلا بادر بالسؤال عنه وذهب
إليه فى رهط من أصحابه البارزين ليعرب له عن شكره ويثنى على أمانته
وشممه ، ويحبيه بين أبناء الحى الذين يجتمعون حول هؤلاء الزوار ، ويتحدثون
بهذه الزيارة للكبار والصغار ، فكان مسلكه فى الحملة الانتخابية مسلك
الزعيم الديمقراطى من جميع الوجوه

وظهرت نتيجة الانتخابات فظهرت من اللحظة الأولى قوة الحكومة وقوة المعارضة : كان للوزارة كثرة ظاهرة في الجمعية لأن الوزراء من أعضائها فضلا عن الأعضاء المعينين والأعضاء الذين لا يصطبغون بصبغة سياسية ولا يعرفون لهم واجبا غير مناصرة القوة حيث تكون . ومع هذا جرى الانتخاب للوكالة في الجلسة الأولى فانتخب سعدا خمسة وستون من الأعضاء ، وشذ خمسة عشر عضواً تفرقت أصواتهم بين خمسة من المرشحين فزعيم المعارضة هنا له مكان في معسكر الحكومة نفسه لا تؤمن عقباة !

ولم تكن الجمعية مقسومة في مناصرة الحكومة أو معارضتها على حسب الآراء الحزبية المعروفة في المجالس النيابية ، وإنما كانت قسمين اثنين : أحدهما قسم أولئك النواب الذين يشايعون القوة حيث كانت وهم من الطراز القديم طراز الشروط المالية والمزايا المحلية ، والقسم الثاني - وهم القلة - من المتعلمين الذين دخلوا الجمعية بفكرة سياسية ، وفيهم أعضاء من الحزب الوطني وحزب الأمة وحزب الإصلاح ، وقد وضع منذ اللحظة الأولى أنهم جميعا حزب سعد في داخل الجمعية ، كما وضع من الجهة الأخرى أنه قد تبوأ مركز الزعامة القومية من يوم قيام تلك الهيئة النيابية . لأنه كان زعيما « للفكرة السياسية » حيث وجدت ، أو كان زعيما لكل من ناب عن الأمة وله رأى سياسى مستقل بأبدائه . . . فهذه المثابة نستطيع أن نصف الرجل الذى لا يؤيده أكثر من ثلث النواب بأنه كان مع هذا زعيما للأمة بأسرها ، لأنه كان ولا شك خليقا أن ينال تأييد الكثرة الغالبة لو لوحظت الفكرة السياسية في شروط الانتخاب ، ونستطيع أن نقول إن مستقبل الحركة الوطنية قد تقرر في ميدان الانتخاب ذلك العام ، على قلة ما توقعه الناس من خطره في تلك الأيام

الجمعية التشريعية

في خمسة أشهر

انعقدت الجمعية التشريعية من الثاني والعشرين في يناير سنة ١٩١٤ إلى السابع عشر في يونيو من السنة بعينها - أي زهاء خمسة أشهر وقد نظرت خلالها في أعمال شتى انصرفت أول الأمر - ضرورة - إلى تنظيم لجانها ومناقشاتها ، والتفاهم على قواعد المعاملة بين بعض الاعضاء وبعض من جهة ، وبين الاعضاء والحكومة من جهة أخرى ثم نظرت في قوانين مختلفة عن شركات التعاون الزراعية وردد المستنقعات وقانون خمسة الافدنة وإصلاح الامتحانات وتعديل بعض الأحكام القانونية وإنشاء مدرسة عالية للحاسبة والتجارية وغير ذلك من الأعمال العادية ، وكان لسعد وحزبه رأى نافع في جميع هذه الأعمال ، أخذت الحكومة ببعضه ، ورفضت ما رفضته وهي عاجزة عن تعليل رفضه

وتحقق من جميع المناقشات أن الرأى الراجح في جميع المسائل كان رأى الطائفة المتعلمة لا رأى النواب الذين انتخبوا لمزاياهم المحلية وكفاءتهم المالية . حتى في مسائل الزرع والتجارة ومصالح الثروة التي يظن أنهم أبناء بجدتها وأصحاب القول فيها ، والتي يتعلل بها واضعو الدساتير الضيقة للاكثر من القيود والشروط واقامة السدود المعتسفة في وجوه المتعلمين والأذكياء . وكل ما تحقق من فائدة هؤلاء الاعضاء أنهم كانوا مفيدين للوزارة في تأييدها بالحق وبالباطل كلما احتاجت الى تأييد ، حتى حين تحتاج إلى هذا التأييد في زيادة حقوقها ونقص حقوقهم وحقوق الجمعية ! فأما في مسائل الإصلاح التي تعنيهم خاصة فقلما سمعت لهم فيها آراء مفيدة أو مقترحات

سديدة ، وإنما كانوا يتركونها للتعلمين ينقضون فيها ويرمون وينتظرون
هم ما يكون من رأى الحكومة فيتبعونه مغمضين
لهذا انحصر زمام المناقشات كلها فى يد سعد لأنه زعيم الطائفة المتعلمة ،
وهو فى الوقت نفسه مبجل مرعى المكانة بين الآخرين
ولسنا نقصد هنا أن نستقصى آراء سعد فى جميع المناقشات والمساجلات
التي دارت بينه وبين الأعضاء أو بينه وبين الحكومة فلا ضرورة
لهذا فيما نحن بصدده ، وإنما نجتزئ بالمهم من مواقفه ومناقشاته من الوجهة
السياسية أو البرلمانية ، وأهمها فيما نعتقد اصراره على عرض ميزانية الأوقاف
على الجمعية ، ومطالبته بحماية الشركات التعاونية من استبداد الحكومة ،
وتجريحه القاتل لقانون الخمسة الأقدنة الذى كان اللورد كاتشنر يعترضه
ويحسبه من حسناته على الفلاح وجهوده الموفقة فى الإصلاح ، وأهم هذه
المواقف جميعاً من الوجهة البرلمانية موقفه فى مسألة الوكيلين ، لأنه
الموقف الذى حفظ للجمعية حقها فى وجه الحكومة ، وهى تملك الكثرة الغالبة
بغير نزاع .

استطاع فى مسألة ميزانية الأوقاف أن يحصل من رئيس الوزارة
« حسين شدى باشا » على وعد صريح « بأن يكون السير فى نظرها مطابقاً
للسير فى بحث ميزانية الحكومة » وهى رقابة طارئة كان الخديو عباس الثانى
يأبأها كل الآباء ، لا اعتقاده انه صاحب الحق المطلق فيما يرجع إلى الأوقاف
الأهلية والخيرية على السواء

أما شركات التعاون فكان سعد باشا يقترح أن يحال النظر فى حلها إلى
القضاء ولا يكتفى فيه برأى مجلس الوزراء . وحجته فى ذلك أن التحقيق
« الإدارى » خلو من الضمان اللازم لحماية هذه الشركات التي ترتبط بها
الاموال والمصالح العامة ، وأن تهديد الشركة بالحل لا يشجع أصحاب
الاموال على معاملتها بل يدعوهم إلى الحذر منها والشك فى دوامها . فلم ينبجح

فيما أقترح لأنه لم يظفر بتأييد الكثرة من نواب « الفلاحين » . . . و انتهت المناقشة باضافة قيد إلى الأمور السياسية التي تجيز حل الشركة ، فاشتراط فيها أن تكون أمورا سياسية « من شأنها الاخلال بالأمن العام »

أما قانون « خمسة الأفدنة » العزيز على اللورد كتشنر فقد جرحه سعد تجريحا قاتلا جعله من أبغض القوانين إلى الفلاحين الذين يسترضيهم به اللورد كتشنر ويظنه خدمة قيمة لصغارهم وحماية واقية لأرزاقهم . فقد أظهر سعد أن هذا القانون قد أضر بالفلاح الصغير بعد أن سلبه ثقة المقرضين . وإن المصلحة كل المصلحة فيه للمصارف الأجنبية دون الفلاحين المصريين سواء منهم الصغار والكبار . فالقانون يحرم الحجز على من يملك خمسة أفدنة أو مادونها ولكنه لا يحرم الحجز على الثروة الارضية كلها إذا كانت فوق هذا المقدار . فنتيجة ذلك أن المصارف الأجنبية ضمنت ديونها كلها لأنها إنما تقرض كبار الفلاحين ولا تقرض الصغار الفقراء . أما هؤلاء الصغار الفقراء فالأغلب فيهم أنهم يستدينون من المصريين ولا يستدينون من أفراد الأجانب أو المصارف الأجنبية ، فإذا استوفى الدائن الأجنبي حقه فهو يحجز على كل ما يملكه الفلاح الكبير بغير استثناء ولا يترك له خمسة أفدنة ولا مادون ذلك ، وإذا استوفى الدائن المصري حقه حال القانون دون استنجاهه بتمامه ، وأصبح الدائن في حذر من أقراض من لا يمكن نصاب السداد . فليس في القانون نفع للغنى الذي يؤدي كل ملهم عليه ، ولا للفقير الذي عجز من جرائه عن الاستدانة لتصرف شئونه

أما موقف سعد في مسألة الوكيلين فقد كان أول مواقفه وأهمها من الوجة البرلمانية في الجمعية التشريعية ، لأنه الموقف الذي وزن قوة الحكومة بقوة المعارضة ، وحذر الحكومة من التهاون بالمعارضة ، وإن كانت لاتضمن في الجمعية إلا ثلث الاعضاء أو ما يزيد على الثلث بقليل

فالظاهر كما أسلفنا أن الذين وضعوا القانون النظامي لم ينتظروا من رجل

كسعد ان يرشح نفسه للنيابة في مجلس ضئيل كالجمعية التشريعية ، ولم ينتظروا
— من ثم — أن يجيئهم فيها وكيلا منتخباً بمثل ذلك التفوق الذي يقارب
الاجماع . فلما وقع ما لم ينتظروا اشفقوا أن يجلس مجلس الرئاسة عند
غياب الرئيس المعين من الحكومة ولو جلسات قليلة . فاعزت الوزارة إلى
أحد أنصارها أن يقترح - أثناء المناقشة في اللائحة الداخلية - البحث فيمن يتولى
الرئاسة من الوكيلين إذا حضرا معاً عند غيبة الرئيس ، فأضيف ذلك الاقتراح
إلى جدول الأعمال فجأة على غير الطريقة المتبعة في كتابة الجدول ، وقام
رئيس الوزراء فقال : إن الحكومة تصرح بان الرئاسة تكون حينئذ للوكيل
المعين ، وتعتبر ذلك التصريح تفسيراً للقانون

فاعترض سعد على إثبات الاقتراح بتلك الصيغة ، وسجبه صاحبه بعد
أن صرحت الحكومة بما أراده من اقتراحه

وانتظر سعد حتى تم سحب الاقتراح ثم عقب على ذلك بقوله : « الآن
وقد سحب الاقتراح أريد أن أعرف ما هي صفة كلام صاحب العطفوة
رئيس مجلس النظار ، أهو اقتراح أم ماذا ؟ وبعد أن أعرف هذه الصفة
أحفظ لنفسي الحق في الكلام »

فنفى رئيس النظار أولاً عليه بالاقتراح قبل تقديمه ، ثم قال : « أما من
جهة الوكيلين فكلامنا تصريح برأي الحكومة ، إذ من الضروري وجود
مادة في اللائحة الداخلية تبين من يكون له الرئاسة في غياب الرئيس . وبصرف
النظر عن الأشخاص فالمسألة مسألة تفسير للقانون ، وروح القانون تدل
على أن الرئاسة لوكيل الحكومة كما كان يحصل من ثلاثين سنة إلى الآن
في مجلس الشورى . ولائحة مجلس شورى القوانين صريحة في ذلك . فان لم
تجبوا وضع مادة في اللائحة بهذا الخصوص فليكن في علم الجمعية أن الحكومة
متمسكة بذلك . وستنفذه قانوناً »

فكان هذا البيان أو هذا الانذار في الحقيقة صدمة صريحة للجمعية

لاموجب لها ، ولم يكن على الحكومة ضير من تحاشيها ، واكتنفا تدل على « شعور الاعتزاز » الذي كانت تجرى عليه الحكومة في مواجهة النواب ، وربما كان من المفيد في الدلالة على ذلك الشعور أن نذكر هنا أن عضواً من الأعضاء ناقش بعض الوزراء ، فعد الوزير اجترأه على مناقشته « وقاحة » وصاح بذلك في هيئة الجمعية ... وهو لا يحسب انه يخالف العرف أو يخرج عن حدوده ! لأن النيابة كانت من ضعف الشأن بالمنزلة التي تسول للوزير ذلك الترفع الشاخص وتلك اللهجة النابية

فلما أدلى رئيس النظار ببيانه السابق قال سعد : « لقد سألت صاحب العطوفة رئيس النظار عن الصفة التي قدم بها كلامه : أ بصفة اقتراح أم بصفة أخرى ؟ ففهمنا الآن أنه ليس باقتراح لأن عطوفته قال ان كلامه تصريح من الحكومة . ونحن لا نعهد أن الحكومة تلزمنا بتصريح منها ، وإنما يلزمنا القانون لا تصريحاتها . وإنما تكون لتصريحات الحكومة قيمة عندنا إذا تنازلت بها عن حق من حقوقها كما حصل بشأن المادة السادسة عشرة من القانون النظامي ، ولكنها لا تملك أن تسلب بتصريحاتها حقاً من حقوق الجمعية قضى به القانون ، وإذا أرادت شيئاً من ذلك فيجب أن تتبع الطرق القانونية بشأنه فتعدل في القانون كما تشاء ، وليسمح لي صاحب العطوفة أن أقول عن هذا التصريح انه لا قيمة له هنا ، وان عطوفته يتناقض في كلامه ، فقد قال انه يفسر القانون ثم عاد وطلب أن نضع نصاً في اللائحة الداخلية . مع أن اللائحة ليس موضوعها تفسير القانون النظامي بل هي لتنظيم الأحكام التي وردت فيه مطلقاً . أما تفسير القانون النظامي فلا يرجع للحكومة وحدها بل لمحكمة منظمة بمقتضى القانون

» ويقول عطوفة الرئيس : إن كنتم لا تضعون هذا النص فالحكومة تنفذه . فبأي كيفية ياترى تجرى ؟ أ بالقوة ؟ لقد أنكرها عطوفة الرئيس وقال لا نريد أن نلتجىء إلى القوة . إذن إلى أي شيء تريد أن تلتجىء يا عطوفة

الرئيس ! نحن لا نسلم لك هذا الحق أبداً وإنما محكمة أعلى منا ومنكم تفصل في شأننا إن قام بيننا نزاع في تفسير القانون

على أن المسألة ليست مسألة تفسير . فقد ترك هذا الحق للهيئات النيابية فمجلس الشورى قال ان الرأسة للوكيل المعين ، والجمعية العمومية قالت ان هذا الحق لأقدم الوكيلين ولم تعترض الحكومة على ذلك مع أنها كانت جزءاً متمماً للجمعية العمومية ، بل اشتركت في المداولات وقبلت أن يكون الوكيل المنتخب رئيساً للجلسة إذا كان أقدم الوكيلين . ولكنها تأتي لنا اليوم بتفسير جديد فيجب على الجمعية أن تقول اني أتهم اختياري ولا أثق به مطلقاً بل أثق بمن تعينه الحكومة ، وهذا ما تريد الحكومة منكم »

ثم قال : « وأرى أنه لا محل مطلقاً لأن ننظر في هذه المسألة الآن لأنها كما بينت لكم ليس لها فائدة عملية ، أما فيما يختص بسؤال الشيخ الدمرداش عن يرأس الجلسة في غياب الرئيس فأقول اني اقبل - شخصياً - ان يرأسها سعادة عدلى يكن باشا . وهذا من شخصى لشخص عدلى باشا لا بصفة حق من حقوق الحكومة . بل هو علامة على الاتفاق بينى وبين زميلى وراحة لحضرة الشيخ الدمرداش ولضمير الحكومة »

انتهت المناقشة على هذا الحل في موضوع الوكيلين بجلسة ذلك اليوم « ٢٤ فبراير سنة ١٩١٤ » . وقال ناظر الحقانية : « يظهر ان الافكار الآن غير متجهة الى النظر في هذه المسئلة إلى ان تأتي مناسبة للبحث فيها عند غياب الرئيس ، حيث يضطر في هذه الحالة الى تفسير المادة ، ومادام الأمر كذلك فلا داعى للكلام في هذا الموضوع الآن »

ثم تقرر العمل باللائحة الداخلية من ذلك اليوم ولكن الحكومة كانت على ما ظهر بعد ذلك مدفوعة إلى تقرير نص يقضى بإبعاد سعد من كرسى الرئاسة ، وكان اللورد كيتشنر هو الموعز بذلك من غير شك ، لأن العضو صاحب الاقتراح الأول - وهو ابراهيم راجى بك

كان من ضباط الجيش المحليين إلى المعاش الذين اشتهروا بالتشيع للانجليز والورد كتشنر خاصة ، لأنه ترقى في عهد قيادته للجيش المصرى ، وهو الذى قال فى الجمعية معتزاً بقوة الاحتلال : « إذا كانت الحكومة من حديد فالاحتلال من فولاذ ! » وكان تعيينه فى الجمعية بوصاية من الوكالة البريطانية ،

وكذلك كان الشيخ الدمرداش زميله فى المناقشة مشهوراً بالزعة الانجليزية ، والتردد على الوكالة البريطانية حتى كان يحسب نفسه رجلاً من رجالها ، ويتقدم معهم لاستقبال المدعويين اليها !

ويؤكد لنا ان الايعاز انما صدر من جانب اللورد كتشنر ان الوزارة قنعت فى الجلسة بما انتهت إليه المناقشة كما رآها القراء ، بل قنعت به فى اللجنة التى تألفت لوضع اللائحة الداخلية قبل عرضها ، ولكنها عادت الى المسألة بعد الجلسة بثلاثة أسابيع ، فدفعت بعض أنصارها الى تقديم اقتراح موقع عليه من كثرة الجمعية ، يرمون به إلى تسجيل النصر المطلوب

لجأت الوزارة الى توقيع الاقتراح من كثرة الجمعية لتبطل فيه كل مناقشة فيما وهمت ، وكأنها كانت مضطرة أشد الاضطرار الى اثبات سيطرتها على الجمعية ، أو نفي تهمة العجز عنها ! وكأنها تشعر بأن بقاءها معلق على ما يكون من نتيجة الصراع بينها وبين المعارضة فى مسألة الوكيلين ، ولا شك أنها عرفت اهتمام اللورد كتشنر بنتيجة هذا الصراع لأنه لم يكن يخفيه فى أحاديثه مع الذين كانوا يلقونه فى تلك الفترة ، حتى بلغ من ذلك انه قال لعدلى يكن باشا : إننا لانراك تتقدم لمعونة الوزارة فى الحملات التى يشنها سعد باشا عليها فقال له عدلى باشا : « إننى لم أعود ان أكون تبعاً للوزارة . »

وكيفما كان الأمر فقد تصرفت الوزارة فى المسألة تصرف من يريد النجاح فى امتحان خطير ولو بنقل الأجوبة كما يقولون بلغة المدارس ! فعولت على أن تقهر المعارضة فى مسألة الوكيلين قهراً يصح أن يسمى مادياً أو آلياً لأنه لا يدع مجالاً للمناقشة والاقناع بالرأى من الجانبين ، فنقدم بالاقتراح

ثمانية وثلاثون . وهم عدد كاف لتأييده ، واغتنموا أول فرصة لاثارة الضوضاء على المعارضين ، ثم أسرعوا الى اقفال باب المناقشة ، ثم الاقتراع على الاستعجال في نظر الاقتراح ، وسلكوا من بداية الأمر مسلك من يمضى الى غاية مرسومة ، فلا يكلف نفسه بياناً ولا يصغى الى بيان

أحس سعد بالمناورة من اللحظة الاولى ، فتوسل بالوسائل القانونية للاعتراض على شكل الاقتراح ، وقال أولاً إن ادراجه في الجدول على الصفة التي هو بها غير مقبول شكلاً « لأنه مذكور به اقتراح من ٣٨ عضواً من غير ذكر الاسماء » فهذا ليس باقتراح .

فما شرع في كلامه حتى بدأت المقاطعة المنظمة ...

وصاح صائح من الأعضاء : إن الاسماء موجودة ، وقال منصور يوسف باشا — وهو من أعضاء الاسكندرية المعروفين بالاتصال الوثيق بمحمد سعيد باشا رئيس الوزارة الى ذلك الحين : « أنا وسعادة خالد لطفي باشا حضرنا و قدمنا الاقتراح لسعادة الرئيس »

فطلب سعد حفظ النظام وقال : « ليست المسألة بالضوضاء تؤخذ ولكن بالقانون ، وحكم القانون هو النافذ لا حكم الضوضاء »

« أقول ان ادراج الاقتراح في جدول الأعمال باطل شكلاً لأنه أدرج بغير ذكر اسماء مقدميه . فنحن لا نعرف الى الآن قانوناً من هم أولئك الأعضاء الذين قدموه ، والقانون يقضى والمبادئ تقضى كذلك بأن الاقتراح يدرج في الجدول بأسماء مقدميه . فان سلمنا جدلاً بأن الاقتراح ليس مرفوضاً شكلاً ، وانه مقبول ، فلا نسلم مطلقاً بتقديم هذا الاقتراح على مشروع اعادة النظر الذي بدأت المناقشة فيه ، ولو سلمنا جدلاً - أيضاً - أن يقدم الاقتراح في جدول الأعمال فلا نسلم مطلقاً بأن يكون نظره مستعجلاً »

ثم ناشد الأعضاء قائلاً : « لماذا يخشى إخواننا التأخير إن كانوا على حق

فما قدموا؟ الحق حق اليوم وغداً وبعد غد ، وهم إن كانوا ثابتين في أنفسهم
غير متزلزلة قلوبهم لا يخشون شيئاً فلماذا يطلبون الاستعجال في نظر هذا
الموضوع ويظهرون بمظهر لا يرضى كل محب لهم وكل محب لبلاده؟»

ثم تجدد اللغظ وتكلم بعض الأعضاء ، وطلب الحكوميون اقفال باب
المناقشة ، وقال سعد « إن سعادة الرئيس له الحق — إذا رأى أن المناقشة
وقيت — أن يعرض ذلك على الهيئة ، ولثلاثة من الأعضاء أن يعارضوا
في استيفاء المناقشة ، وأنا أحدهم »

غير أن المناقشة أقلت بعد أن تكلم بعض الأعضاء كلاماً لا يعنى في
الموضوع . ثم معرض على الهيئة أخذ الرأى في الاستعجال ، وكان لابد من
الموافقة عليه بهذا الأسلوب ، وبهذا تفتح في الجمعية سنة مشعومة تبطل الغرض
من اجتماعها وتغرى الحكومة باهمال وجودها ، والاكتفاء بتدبير أمثال
هذه المناورات كلها رغبت في أمر تصر على تنفيذه

وهذا سلاح لامناص للمعارضة من كسره أو تنبيه الحكومة إلى خطر
استخدامه ، أو تنبيهها على الأقل إلى إمكان مقاومته وأنه لا يصلح للنزلة في
كل حال ولا يمنع المعارضة أن تفلح وتكف من غربه في بعض الأحوال ،
وإلا أصبحت الحكومة هي الجمعية ، وأصبحت الجمعية هي الحكومة ، بلا
اكترات لما يقال

وسرعان ما ألقى سعد نظرة على الأعضاء الحاضرين فرأى أن عددهم
لا يكفي لالتئام الجمعية قانوناً إذا انسحب المعارضون ، فلم يتردد في اغتنام هذه
الفرصة لحماية الجمعية من خطر التمدد في تلك المناورات ، ولأكره الحكومة
على التزام سبيل المناقشة والاقناع في تأييد المقترحات والمطالب ، بدلا من
أن تعول على الكثرة التي لا فضل لها فيها ، وتستنم إلى ذلك الأسلوب المادى
أو الآلى . وتسترسل فيه ولا ريب إذا جربت نجاحه بغير كلفة ولا حرج

فانسحب سعد وانسحب معه المعارضون وعدتهم ثمانية وعشرون ،
وفوجئت الوزارة بهذه الحركة لأنها كانت تظن الخطة التي اعتمدت عليها
حين لجأت إلى تعبئة الكثرة على تلك الصورة خطة لا تقاوم . فلم تدر
ما تصنع ، وحاولت أن تتم العدد بالتوسل إلى هذا والتشبث بذلك فلم يجد
ذلك نفعاً . وبطل إنعقاد الهيئة في ذلك اليوم فأرجئت إلى الغد ... وكان هذا
الأرجاء أشبه بنهاية الدورة بين متصارعين دخل أحدهما إلى الحلقة بكل
ما عنده من عدد الصراع وحيله ، ولكنه أدرك في اللحظة الأخيرة أنه نسي
حيلة واحدة يعتصم بها خصمه فتمحو كل ما عنده من عدة وحيلة ، وأنه عول
فوق ما ينبغي على أساليب القوة البدنية . وفاته أن في المصارعة أسلوباً
لا تجدى فيه القوة مع رشاقة الحركة !

أحسن المعارضون من الوجهة النظامية ومن الوجهة القومية بانسحابهم
في ذلك اليوم .

لأن الجمعية لم يكن لها متسع من السلطات غير حرية المناقشة وإعلان الحجج ،
فاذا حيل بينها وبين ذلك بتعبئة الكثرة في الاقتراح ، ثم تعبئتها في المقاطعة
ثم تعبئتها في اقفال باب المناقشة ، ثم تعبئتها في جمع الأصوات ، فقد أصبح نظام
الهيئة لغواً لا يتكفل بشيء غير الاذعان الأعمى لإرادة الحكومة وما يمكن
وراء الحكومة من سيطرة الاحتلال ، وأصبح قانون الهيئة خلواً من معنى
القانون ، لأنه قوة مادية لا تقول سبياً ولا تصغى إلى سبب مقول .

وأحسن المعارضون من الوجهة القومية لأن المعارضة كانت هي المنفذ
الوحيد الذي نفذت منه إرادة الأمة إلى هذه الهيئة النيابية ، بعد أن تخطت
إليها السدود الكثيرة من شروط الترشيح والانتخاب . فكل ما يثبت
وجود المعارضة ويصون حقها هو في الواقع اثبات لوجود الأمة وصيانة
لحقها جهد ما تستطيع .

ثم عاد المعارضون في الجلسة التالية لأنهم قصدوا القاء ذلك الدرس ولم يقصدوا تعطيل الجمعية أو منع القرار الذي تقدم به الاقتراح ، وقال سعد في مستهل الجلسة بعد أن تكلم بعض الأعضاء : « أردنا أن نوضع في الاقتراح جميع المسائل التي دارت المناقشة فيها فحصل إباء ذلك علينا فرأينا أن هذه طريقة غير قانونية وانسحبنا ، ولنا الحق في ذلك .

« نحن نحترم الأغلبية وقراراتها ولا نقول في ذلك شيئاً . بل هذا هو أساس الهيئات النيابية ، ونحن لا قوة لنا إلا بالحق وباحترام القانون

« ولكن كل أمر يخل بحرية آرائنا وكل أمر يكون مخالفاً للقانون في كيفية أخذ الآراء لا نقبله مهما كان مصدره عالياً ومهما كان الأمر فيه .

« نحن انسحبنا لمخالفة القانون . أما الآن فانا نخضع للقانون في أخذ الآراء على حسب الترتيب الطبيعي الذي طلبناه . وهو الذي أشار إليه سعادة الرئيس ، ولذلك لا محل اليوم للمناقشة في شيء انتهت المناقشة فيه بالأمس »

وعلى هذا سارت الجمعية في أعمالها على نظام مقبول وحدود مرعية بين الطرفين ، بقية الأيام المقدورة لها في عالم البقاء .

ولم يعسر على سعد — مع هذا الانقسام الحاسم بين الحكوميين والمعارضين — أن يجمع الكثرة حوله في مسائل شتى تناولتها الجمعية بالبحث واشتد عليها الخلاف بين الأعضاء ، لأنه كان يعارض بالحجة ويوافق بالحجة ، فلا يحجم عن تأييد الحكومة في مواد القوانين التي تعرضها إذا بدا له وجه الحق في تأييدها ، ولو جاء الاعتراض عليها من أقرب أنصاره ، ولا يحجم عن نقد الرأي ولو كان أصحابه من أعضاء المعارضة ، فتعود النواب أن يتخذوا من قوله في مواطن الخلاف قسطاساً للسداد والتنزه عن الهوى ، وآل إليه الفصل في المواقف المعضلة الملتبسة ، فاجتمع له من الوجهة الرسمية نفوذ أدنى لا يقل عن نفوذه من الوجهة القومية .

ومن الطرائف المستماحة أن نورد هنا ما كانوا يتحدثون به في الجمعية يومئذ عن زعامة سعد وما كان سعد يرد به على تلك الأحاديث قبل خمس سنوات من ولايته الزعامة القومية باجماع النواب والأمة . فقد قال بعض الأعضاء المشايخين للوزارة أثناء البحث في شركات التعاون : « إنما يريد واحد منا أن يتولى زعامة مجموع . . . » واستطرد إلى كلام ينم على غرضه . فكان جواب سعد عليه : « يا حضرة العضو المحترم . انها فكرة يسهل على اللسان - مع الأسف ترديدها - وقد تطوف ببعض الأذهان ، ولكنني أقرر لك أنها فكرة غير صحيحة وإني بعيد كل البعد عنها ، وما أنا موجود معك ومع غيرك في هذه الجمعية منذ زمن طويل ، فقل لي متى رجوتك مرة أن تنضم إلي رأبي ، ومتى حاولت التأثير عليك لأجعلك تحت زعامتي ؟ إنك إن شئت أن تعرف حقيقتي فاعلم أنني رجل قد وضعت تحت تصرف أمتي عقلي واختياري وبياني ، فان استفادت الأمة من عملي فذاك ما يجعلني سعيداً . وإلا فهو واجب قد أخذته على نفسي فأنا أقوم به لأريح ضميري . أما الذي يسرني ويشرفني فهو أن أكون خادماً لكم لا زعيماً »

وكان هذا الأسلوب أسلوبه في الرد على من يسيئون إليه أو يغضون منه أو يعارضونه في رأيه ، لا يتجاوز الرد الذي يقوله العالم في مباحثة علمية بمعزل عن البواعث الشخصية ، ولا يزيد على الجواب المفيد في أناة تكبح جماح العادي وتكسر حدة الغاضب وتثني عزيمة المسيء ، وتعود بالمناقشة إلى الجدل الذي لا فضول فيه

قال مرة في جلسة حمى فيها وطيس الجدل حول مسألة الوكيلين : « لست شتاً . بل أقر وأعترف أمامكم بأنني عاجز أمام كل شتيمة . ليس لي مطلقاً قوة في هذا الميدان تدفعني لأن أنازل فيه أضعف إنسان »

قال هذا لأنه كان يخاطب الأعضاء الثمانية والثلاثين أصحاب الاقتراح الذي أشرنا إليه فجاءت في خطبته كلمة الشهوة إذ يقول : « خافوا على سمعة

الجمعية أكثر من الشهوة التي تدفعكم إلى هذه المسألة . . . فلم يفهم أحد الأعضاء معنى الكلمة وظنها تشير إلى معنى لا يليق بالشيخ الشيب . فوقف وهو يمسك بشعره ويقول في حدة وغضب : « نحن أناس شابت رؤوسنا ! » فأجابه سعد بما تقدم على سبيل الاعتذار بعد أن قال : « زملائي . إنني لم أرد أن أخرج خواطركم ، وكلمة شهوة إذا كانت لم تعجبكم فمرادى بها رغبتكم ، والشهوة هي الرغبة الشديدة ، فلا تحتدوا لأن المسائل لا تحل بالحدة بل بالتعقل والحكمة . أمامكم زمن طويل جداً للحدة والشدة ان رأيتم من صالحكم ومن الصالح العام استعمالها . ولكني أرجو أن لا تقولوا كلماتي بغير المراد منها »

فهو يريد من الجمعية أن تدخر « الحدة والشدة » لغرض آخر في زمن طويل جداً ينتظرها ولا تضيعها في مناقشات ومحاوراتها . . . وما أشبه هذا بالنبوءات التي تلمح الغيب من وراء حجاب !

وكان يتكلم في أثناء عرض قانون التعاون ، فقاطعه رئيس الوزراء ، فجلس وهو يقول : « إذا كنتم تستمرون هكذا على مقاطعتي فاني لا أتكلم ، وها أنا أجلس حتى يستتب النظام » وكان يقول دائماً ان المقاطعة متعبة للمتكلم والسامع . فلما جلس وثب الشيخ عبد الرحيم الدمرداش — وهو مشهور بخفته ودعابته — يصيح : « أريد أن أسأل سؤالاً » . . . فقال سعد : « أنا لم أنته من كلامي . وقد جلست حتى انتهى من مقاطعة صاحب العطوفة رئيس الوزراء ، فهل تريد حضرتك أن تزيد عليها مقاطعة أخرى ؟ »

فأجابه الشيخ بدعابته المعهودة : « إذا جلست سعادتك تقول لا تتكلموا وإذا وقفت تقول لا تتكلموا . فلا ندرى متى تتكلم ؟ »

فقال سعد : لا لزوم لمثل هذا يا أستاذ! وعاد الأستاذ يقول : أنا ما كنت أقصد المقاطعة ، ومع كل ما أحد « متعبنا » غير سعادتك ؟ »

فاقتصر سعد في جوابه على قوله : « إن كنت حقيقة تعتقد ما تقول فهذا

خيال قائم في ذهنك يا أستاذ . لأني آخر من يتعبكم ، بل أنا موجه كل عنايتي
ومجهوداتي إلى سبيل جلب الراحة اليكم . . . ثم عاد إلى الموضوع
وبهذا الأسلوب من الجد « العلي » كان يرد على ملاحظات أصدقائه
كما يرد على من يقاطعونه من مخالفيه .

أثنى على عبد العزيز فهمي « بك » مرة فوقف عبد العزيز بك يقول :
« لي الحق أن أطلب منع سعادة سعد باشا عن هذا الكلام لأنه يمس الشخصيات »
فلم يزد سعد باشا على أن قال وهو ماض في كلامه : « المنع يكون عند
الطعن الشخصي لا عند المدح . وليس الأمر توزيع مزايا بل يجب علينا أن
نكلف بالعمل من هو أكثر أهلية له ، ويجب أن نعطي لمن نكلفه بهذا العمل
حق التصرف . . . »

وقد التزم سعد هذا الأسلوب الذي سميناه بأسلوب « الجد العلي » في
جميع مناقشاته بالجمعية التشريعية فلم يخرج عنه قط ولم يسترسل مرة مع فكاوته
التي جبل عليها وتعودناها منه في كثير من أحاديثه وخطبه ومساجلاته بعد
قيامه بالزعامة القومية ، وإنك لتبحث عبثاً عن تلك الفكاكات التي لا تنقطع في
مناسباتها فلا تعثر بواحدة منها ، وإن كان قد مر به من المواقف كما رأينا ما يغريه
بها ويدعوه إليها . . . لم ؟ إن الفكاكة لم تفارقه بطبيعة الحال في أيام الجمعية
التشريعية ، وليست الطبايع الأصيلة والتي تتغير بين آونة وأخرى . فاذا كان
قد آثر أن يلتزم « الجد العلي » في مناقشات الجمعية ولم يؤثر ذلك في
خطب الزعامة ومساجلاتها فتلك بداهة من بداهات الزعامة التي تستلهم
المواقف ما ينبغي لها من أسلوب في كل معرض وفي كل لحظة . . . ففي الجمعية
كان سعد « يوطد » للمعارضة هيبة مرعية وهي قلة لا تملك نفوذ الحكومة
ولا نفوذ القوة الفعلية ، فليس ألزم لها من الجد وليس أخطر عليها من
انطلاق الفكاكة ورفع الكلفة ومقابلة المثل بالمثل بين أناس مستعدين للاجتراء
على المعارضة والاستخفاف بها . أما الزعيم الذي تؤيده الأمة بأسرها فلا حاجة به

إلى شيء من ذلك ولا خطر عليه من إرسال النفس على السجية ، بل لعله يبلغ بسلاح الفكاهة ما لم يبلغه « بالجسد العلي » الذي كان أحكم الأساليب وألزمها في أيام الجمعية الأولى

بهذه الدراية الفطرية وهذه اليقظة الفكرية ، وهذه البداهة الحاضرة استقامت للمعارضة الصغيرة قوتها الكبيرة ، وأصبحت عاملا من عوامل السياسة المصرية كأنها كثرة غالبية في برلمان معترف له بحق الرقابة. فاستطاعت في مدى شهرين من افتتاح الجمعية التشريعية أن تعجل بسقوط الوزارة السعيدية . إذ استقال محمد سعيد باشا ولم يشأ ككتشنر أن يحميه لأنه في نظره « كان أداة تفرقة في داخل الوزارة لعكوفه على الدسائس الملتوية ، وكان قليل الكياسة في مسلكه مع الجمعية ... » كما قال اللورد جورج لويد في كتابه عن مصر في عهد كرومر

وبلغ من عناية ككتشنر بارتضاء سعد ومبالاته باتقاء حملاته أنه أشار على الخديو باستدعاء مصطفى فهمي باشا لتأليف الوزارة على الرغم من شيخوخته واعتلال صحته ، لأنه هو سعد باشا . وفي قيامه على رأس الوزارة إخراج لسعد باشا أو إسكات له سواء دخل الوزارة أو بقي في الجمعية التشريعية . ويقال إن الوزارة عرضت على سعد في أيامها فرفضها ، كما يقال إن اسمه جرى أمام الخديو في أثناء المفاوضة على ترشيح الوزراء فقال : « لا . دعوه في الجمعية فهو هناك قوة لا تعوض »

ولما اعتذر مصطفى فهمي باشا من تأليف الوزارة لأنه لم يقبل من رشحهم اللورد ككتشنر من أصدقائه لسوء ظنه بنزاهتهم وعزوف نفسه عن مزاملتهم ، لوحظت صداقة الجمعية التشريعية أو صداقة سعد في اختيار الرئيس الجديد . فتألفت الوزارة برئاسة حسين رشدي باشا صديق المعارضين ، وكان أول ما جهر به من سياسته أنه قال بعد أن أقسم اليمين : « إن خير ما نفتتح به أعمالنا

أيها السادة أن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم لخدمة الوطن العزيز !
وإننا لعاقدو النية على العمل معكم على خطة الصراحة والتفاهم والوثام ، في
أداء تلك المهمة التي ندبتنا إليها ثقة مولانا الخديو المعظم «
أى على خطة غير خطة الوزارة المستقبيلة !

انفضت جلسات الجمعية في السابع عشر من يونيو سنة ١٩٢٤ على أن تعود
إلى الانعقاد في أول نوفمبر بحسب القانون النظامي . ولكنها لم تنعقد في ذلك
الموعد ولا في موعد بعده ، لنشوب الحرب العظمى أثناء الصيف ، وظلت
تؤجل من تاريخ الى تاريخ حتى صدر الأمر بتأجيل انعقادها إلى أجل غير
مسمى ، ثم حل محلها الدستور الجديد فلم يكتب لها من العمر أكثر من تلك
الأشهر الخمسة .

وجملة ما يقال من الرأي فيها أنها حققت ما ينتظر منها في حدودها ، وإن
الفترة الوجيزة التي قضتها تصلح للمقارنة بينها وبين فترات مثلها في سجلات المجالس
النيابية المعروفة . فانها خلال خمسة أشهر لا أكثر نظرت في تأسيس نظامها
وإدارة جلساتها ، ونظرت في الميزانية العامة ، ونظرت في القوانين المختلفة التي
عرضتها عليها الحكومة وبسطت فيها من النقد والتعقيب ما هو جدير بالاصغاء
أو جدير بالإجابة ، وليس هذا بقليل على تلك الفترة الوجيزة ، إذا صرفنا
النظر صرفاً باتاً عن المسكاة التي أثبتتها لنفسها في عالم السياسة المصرية ، بمحض
قوتها لا بقوة النصوص ولا بقوة التقاليد

أما اللورد كتشنر منشيء الجمعية فقد كان رأيه فيها هو الرأي اللائق
بها المسوغ لوجودها . لأن المستبد الذي ينشيء مجلساً نيابياً ثم يرضى عنه كل
الرضى يشهد لذلك المجلس أسوأ الشهادة ، ويدل على أن وجوده وعدمه في
الرقابة على الحكومة سواء . ورأى اللورد كتشنر في الجمعية لم يعد أن يكون
مثلاً صادقاً لآراء جميع المستبدين ولا سيما العسكريين . فان من خصائص

المستبدين العسكريين أن يحاسبوا الناس بما لا يحاسبون به أنفسهم ، وأن يعيبوا الشيء الواحد في أعمال غيرهم ولا يعيبنه في أعمالهم . فاذا كان للورد كتشنر هوى نفس في مسألة الوكيلين فمن الجائز له أن يعطل أعمال الجمعية وأن يعيدها إلى موضوع تركته وطوته واستغنت عن الاطالة فيه ؛ ولاضير أن يحرك اللورد كتشنر وزارة محمد سعيد باشا وكثرة النواب لتحقيق هواه وارضاء نزواته . هذا كله جائز لا غبار عليه ... أما إذا خطب النواب في مسألة الوكيلين أو في غيرها فعندئذ تكون الخطب والمجادلات ثرثرة محامين وتكون الجمعية حقيقة بالتهديد والالغاء ؛ ويشعر اللورد كتشنر بخيبة الرجاء ونكران الجميل .

على أن اللورد كتشنر قد عدل قبل سفره عن التفكير في حل الجمعية أو الغاء قانونها كما كان يتوعد ويجهر بوعيده لمن لقيهم في أيام الخلاف على وكالة سعد باشا ، لأنه سافر إلى لندن وهو مشغول بما هو أهم وأخطر ؛ وهو التفكير في خلع الخديو عباس الثاني ؛ ولعله من أجل هذا كان حريصا على محاسنة الجمعية ومحاسنة سعد في أيامه الأخيرة ، لكي لا يقدم على انتزاع حقوق الامارة ، وحقوق الشعب في وقت واحد .

قبيل الحرب العظمى

سافر كتشنر في تلك السنة على عزيمة السعى الحثيث عند حكومته لاقتناعها بخلع الخديو . وعلّة هذه النقمة هي في الحقيقة بقايا تلك الحفيظة القديمة التي تركت الرجلين عدوين لا يتصافيان بعد أزمة الحدود . أما العلة الأخيرة ، أو العلة التي كان يتذرع بها لاقتناع حكومته فهي سكة حديد مريوط وما كان يشاع يومئذ من المفاوضات بين الخديو وإحدى الشركات الإيطالية لشراؤها ومدّها إلى الحدود الغربية .

وقد سمع الخديو من مصادر شتى أن صنيعته ورئيس وزرائه محمد سعيد باشا يمشی بالوشاية بينه وبين كتشنر في هذه المسألة . فحنق عليه أشد الحنق ، وتناسى في سبيل إحراجه ما كان بينه وبين سعد من جفوة أو فتور . وأرسل إليه من يسفر بينهما في المصالحة ، ويبلغه ثناءه على موقفه من الوزارة السعيدية في الجمعية التشريعية ، وعادت العلاقات بينهما إلى شيء من الاتصال .

وكأنما شعر الخديو بما اعتزمه كتشنر في سفرته تلك السنة فاستحسن أن يجعل رحلته الصيفية إلى الاستانة لا إلى أوروبا ، لأنه قدر أن تسعى الحكومة البريطانية عند « الباب العالي » في مسألة خلعه إذا اقتنعت برأى مندوبها ، فأحب أن يكون على مقربة من الباب العالي ليستطلع الخبر ويحسن العلاقة بينه وبين رجال الحكومة التركية ، ويبدل ما في وسعه لاجباط سعى الانجليز ، وهو لا يجمل أنهم لاقون من الصدر الأعظم سعيد حليم أذنا صاغية في تلك الآونة ، لأنه كان يطمع في الخديوية .

وأحب قبل سفره من مصر أن يقيم الدليل على ولاء الشعب له والتفاف السراة ورؤساء العشائر حوله ، فطاف الأقاليم البحرية وزار حواضرها وقراها ، واغتبط بما رآه من مظاهرات الشعب والموظفين ومن تسابق

الوجهاء والسواد إلى استقباله وإقامة الزينات في طريقه ، وكان عظيم الرغبة في نفي كل ما قيل عن الجفاء بينه وبين وكيل الجمعية التشريعية والبارزين من أعضائها ، فأرسل إلى سعد أنه يود لو يراه في بلدته ابيانه ، ثم لم ينس بعد وصوله إلى الاستانة أن يغتتم الفرصة الأولى للكتابة اليه بما يحدد الصلة ويكشف عن بعض النيات المقبلة ، فكتب اليه من برقية يعزیه بها في حمیه المرحوم مصطفى فهمی باشا أنه يرجو له طول البقاء : « ليخدم أميره وبلاده زمناً آخر طويلاً »

ونشبت الحرب العظمى وسعد في « فيشي » ينتجع المياه المعدنية التي تعود أن يقصد إليها في معظم الأعوام ، فركب منها سيارة سريعة إلى مارسيليا لآزدحام السكك الحديدية بالجنود والمسافرين ، وأدرك بشق النفس مكاناً له ولاسرتة في الباخرة لوتس التي كانت تهم بالاقلاع إلى الاسكندرية . فوصل إليها قبل إعلان الأحكام العسكرية بنحو شهرين

لم يسهل على السلطات الانجليزية عند اعلان أحكامها العسكرية أن تبت فيما تعامل به سعدا أثناء الحرب العظمى : أعتبره صديقاً ! إنه ليس بصديق وبينه وبين عميد الاحتلال وصاحب الكلمة النافذة في وزارة الحرية البريطانية إذ ذاك ما بينهما من صراع عنيف .

أم تعتبره عدواً تسمح مقتضيات الحرب باعتقاله والحجر على مقامه وانتقاله ؟ ذلك أدنى إلى هوى الانجليز في دار الوكالة البريطانية ، وإلى هوى كتشنر في وزارة الحرية . ولكن هل من المصلحة السياسية أن يسجل الانجليز على أنفسهم أن الاجراء الذي اتخذوه في مصر يضطرهم إلى اعتقال رجل كسعد زغلول ؟ أو إلى اعتقال وكيل الهيئة النيابية وخلع الأمير في وقت واحد ؟ وهل من المصلحة السياسية أن يقطعوا بعداوة رجل مثله ولا يدعوا له إلا خطة واحدة باآزائهم وهي خطة العداة الصريح ؟ وهل من المصلحة أن يغضبوا السلطان الجديد وهم يعلمون أنه لايجد المعونة

بين المصريين إن لم يجدها في الكبراء الذين كان بينهم وبين الخديو محاذرة
أو جفاء؟

وبعد قليل من التردد آثرت السلطات الانجليزية أن تفتح بينها وبينه
باب المسالمة والحيدة ، وأن تراقبه على البعد لتقيد عليه حركاته وسكناته
وتتظر ما يكون ، فلا هو بصديق ولا عدو . ولكنه رجل يحسن انتظار
صداقته ، ولا يحسن دفعه إلى العدا

في تلك السنة سافر من مصر الرجال الثلاثة الذين تقوم عليهم دعائم
السياسة المصرية ، وكل منهم يفكر في المستقبل القريب كما يريد لمقاصده
ويرسمه لنفسه : سافر كتشنر عميد الاحتلال وهو يفكر في خلع أمير البلاد
ليستأثر وحده بالحكم في أرض الفراغة ، وسافر أمير البلاد وهو يفكر في
توطيد عرشه واتقاء جبايل عدوه ، وسافر سعد زغلول الوكيل المنتخب وهو
يفكر فيما يعمل بعد عودته إلى الجمعية التشريعية ، ولو ارتفع حجاب الغيب
خطوة واحدة لعلم كل منهم أن القدر سيغنيه عن التفكير فيما كان يفكر فيه ،
فلا كتشنر عاد إلى مصر ، ولا الأمير عاد إلى عرشه ، ولا الجمعية التشريعية
عادت إلى الانعقاد .

صدق المعرى : وتقدرون فتضحك الأقدار !

الحرب العظمى

* نشبت الحرب العظمى في الرابع عشر من شهر يوليو ، ولم تدخلها بريطانيا العظمى إلا بعد ثلاثة أسابيع في الرابع من أغسطس ، وظلت تتردد في اعلان نياتها بمصر إلى أن أعلنت الأحكام العرفية بها في ثاني نوفمبر ، ثم أعلنت قطع علاقاتها بالدولة العثمانية ، وأرسلت دار الوكالة البريطانية إلى حسين رشدي باشا القائم مقام الخديو تبلغه « إن السلطة فيما يتعلق بالوسائل الحربية اللازمة للدفاع عن القطر المصري وبالتدابير التي يستدعيها هذا الدفاع أصبحت منحصرة في يد القائد العام وان حضرات النظار لا يزال كل واحد منهم حافظاً للسلطة التي له في الأمور الملكية الخاصة بنظارته »

وظل الوزراء بمعزل عما تنويه الدولة البريطانية وعما تعمله بعد إعلان الأحكام العرفية ، وانما خوطبوا في مسألة الحماية لما كان في نية الانجليز من خلع الخديو عباس بعد اعلانها واقامة عمه حسين كامل سلطاناً في مكانه . ولا يستطاع اتمام ذلك والتمهيد له بغير اطلاع الوزارة

وفي الثامن عشر من ديسمبر أعلنت الحماية البريطانية ، ثم أعلن في غده قيام السلطان حسين كامل على العرش ، وخاطبته وزارة الخارجية البريطانية — على يد مستر شيتهايم — ببلاغ قالت فيه : —

« لما كان قد سبق لحكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته في بلاد مصر ، أنها أخذت على عاتقها وعهدتها مسؤولية الدفاع عن القطر المصري في الحرب الحاضرة ، فقد أصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التي ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التي كانت تدعيها الحكومة العثمانية . فحكومة جلالته الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصري جميع الحقوق التي استعملتها في البلاد مدة سني الاصلاح الثلاثين الماضية »

ثم قالت بلسان مستر شيتهم : « و إنني مكلف بأن أؤكد لسموكم صراحة عند عرضي على سموكم قبول عبء هذا المنصب أن بريطانيا العظمى أخذت على عاتقها وحدها كل المسؤولية في دفع أي تعد على الأراضي التي تحت حكم سموكم مهما كان مصدره . . . و بزوال السيادة العثمانية تزول أيضاً القيود التي كانت موضوعة بمقتضى فرمانات العثمانية لعدد جيش سموكم وللحق الذي لسموكم في الانعام بالرتب والنياشين . أما فيما يختص بالعلاقات الخارجية فترى حكومة جلالته أن المسؤولية الحديثة التي أخذتها بريطانيا العظمى على نفسها تستدعي أن تكون المخبرات منذ الآن بين حكومة سموكم وبين وكلاء الدول الأجنبية بواسطة وكيل جلالته في مصر . وقد سبق لحكومة جلالته أنها صرحت مراراً بأن المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الأجنبية المقيدة بها حكومة سموكم لم تعد ملائمة لتقدم البلاد . ولكن من رأى حكومة جلالته أن يؤجل النظر في تعديل هذه المعاهدات الى ما بعد انتهاء الحرب . وفيما يختص بادارة البلاد الداخلية على أن أذكر سموكم أن حكومة جلالته طبقاً لتقاليد السياسة البريطانية قد دأبت على الجد بالاتحاد مع حكومة البلاد وبواسطتها في ضمان الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره وانماء مصادر ثروة البلاد الطبيعية والتدرج في اشتراك المحكومين في الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الأمة من الرقي السياسي . وفي عزم حكومة جلالته المحافظة على هذه التقاليد بل انها موقنة بأن تحديد مركز بريطانيا في هذه البلاد تحديداً صريحاً يؤدي إلى سرعة التقدم في سبيل الحكم الذاتي »

وتلقى السلطان حسين في اليوم الذي ارتقى فيه العرش برقية من ملك إنجلترا يقول فيها بعد التهنئة : « إنني على يقين أنه بمعاونة وزارتك وبحمية بريطانيا العظمى يتسنى لكم التغلب على كل المؤثرات التي يراد بها العبث باستقلال مصر ورفاهية أهلها وحریتهم وسعادتهم »

وقد وجه السلطان الى رئيس الوزراء بياناً أوجز فيه ما كان . ثم قال :
« أما الهيئات النيابية في القطر فسيكون من أقصى أمانينا أن نزيد اشتراك
المحكومين في حكومة البلاد زيادة متوالية » وكلفه بعد ذلك تأليف الوزارة
وعرض أسماء الوزراء للتصديق

وينبغي أن نفهم وعد الحكومة البريطانية بالدفاع على مصر على جلسته
لنعلم حقيقة أثره في نفوس المصريين ، فنقول ان الحكومة البريطانية لم
تبادر ببلاغ المصريين هذا الوعد لانهم قوم يستثقلون أعباء الدفاع عن
بلادهم ويفرحون بالقاء هذا الواجب على غيرهم ، ولكنها بادرت ببلاغهم
إياه لانها دخلت في حرب مع خليفة المسلمين لمصلحتها السياسية ، فليس لها
أن توجب على المصريين معاوتها في حربها ، ونسيان شعورهم الديني لأجل
مصلحتها ، ولهذا يكون لا عفاء المصريين من الحرب معنى لا غضاضة فيه على
فضيلة الشجاعة ، ولا يفهم منه اغتباطهم ببشارة الحماية البريطانية

وقد قوبل السلطان حسين في بداية قيامه على العرش بالنفور الشديد
من جانب المصريين ، لأنهم حسبوه صنيعه من صنائع الانجليز ، وآلة من
آلاتهم في إعلان حمايتهم على البلاد ، ولكنه لم يلبث أن كسب محبتهم
وإعجابهم بما بدا من أريحيته ونبله ونخوته في المحافظة على حقه وغيرته على
مصالح قومه ، وانفته أن يدعن للقائمين بالأمر من القادة والمنسويين
الانجليز جهد مافي وسعه . وقد وقع الاعتداء على حياته مرتين فعفا عن
المعتدى في المرة الثانية واستبدل حكم السجن بحكم الاعدام ، لانه لم ير من
داع للشدة بعد استقرار ملكه وجلاء الغاشية الأول عن مسلكه . فكانت
هذه الأريحية وما شابهها من سماحته وطيب طويته مما حببه إلى الناس وشملهم
بالحزن عليه يوم وفاته

وخلف السلطان حسين أخوه السلطان أحمد فؤاد في التاسع من اكتوبر

سنة ١٩١٧ بتبلغ قالت فيه الحكومة البريطانية : « لما كان نظام الوارثة على عرش السلطنة المصرية لم يوضع للآن وكنتم عظمتكم بعد طبقة البنين الوراث الشرعى المتعين تبعاً لوراثه العرش فان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوء هذا العرش السامى »

وإذا قوبل بين السلطان الجديد وأخيه فى الخصال العامة فأوجز ما يقال فى المقابلة بينهما إن الصفات النفسية أرجح فى حسين والصفات العقلية أرجح فى فؤاد ، ومن دلائل بعد نظره ورجاحة عقله أنه اقترح عند أول قيامه على العرش إدخال سعد فى الوزارة على سبيل الحيلة من موقفه المجهول فى المستقبل . لأنه عرف سعدا فى أيام اشتغالهما معا بالجامعة المصرية ، وعرف أن رجلا كهذا لا بدله من شأن مدخر فى قضية بلاده ، فأحب أن يكون معه لأعليه ، وأن يكون قبوله الوزارة قبولاً منه للتبعية المشتركة فى السياسة الحاضرة والمنتظرة . ففكره الانجليز العمل بذلك الاقتراح ولم يفتح سعد فى الموضوع

لم تمض أشهر قليلة بعد إعلان الحماية حتى كانت السلطات الانجليزية قد نقضت كل ما عاهدت عليه الأمة المصرية ، فأطلقت أيديها فى دواوين الحكومة جميعاً إلا ما هى فى غنى عنه ولا قدرة لها على إدارته لقلّة الموظفين الانجليز فى تلك الفترة ، وأمعنّت من جهة فى التضييق على أعداء الاحتلال واسترسلت من جهة أخرى فى الثقة بمن يوالونه ويخدمونه . وهم قوم لا خلاق لهم ولا ترجى منهم عفة ولا كرامة ، فأساءوا السيرة وانبسطت أيديهم بالانتقام ممن يجرأون على الشكاية ، ثم احتاجت إلى العمال فجمعت منهم نحو مليون ومائتى ألف من الفتيان الأشداء فرقتهم فى ميادين القتال وأهملتهم أسوأ إهمال ، فكانوا يتساقطون كالذباب وتنقطع أخبارهم عن أهلهم فلا يسمع عنهم خبر بمرض أو وفاة ، واحتاجت إلى الزاد والعلف

والماشية والدواب فأخذت منها ماشاءت أن تأخذ بلا أكثرا حاجة الفلاح
الفقير الذي يعتمد عليها في الزرع والمؤنة ، ولبت الرؤساء الانجليز يدفعون
الموظفين الى جمع العمال والارزاق ثم يكافئونهم بالترقية والحظوة على
ما جمعوا منهم ومنها ، وكانوا يرسلون اليهم المفتشين الانجليز يستحثونهم في
الاقليم ويتهمون منهم المقصرين والمتباطئين بسوء النية وقلة الاخلاص
للحكومة القائمة ، ومن كان من أهل البلاد موسراً أو مشهوراً بالثراء فرضوا
عليه « اعانة » قسرية للصليب الأحمر أو يظل عرضة للكيد وتعطيل المرافق
عند الحكومة ، وأيسر ما يخشاه في ذلك الحين أن يعتقل زمنا طويلا بلا
محاسبة ولا سؤال

واستعان الانجليز بالجيش المصرى في جزيرة العرب كما استباحوا أموال
الخزانة العامة ، فأخذوا من الوزارة ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه باسم
الهدية ! وجعلوا ينفقون الملايين على حرب الترك ومدالسكة الحديد في صحراء
سينا ، وغير ذلك من التحضيرات الحربية التي تكفلوا بها عند إعلان
الأحكام العسكرية ، وقيدوا أسعار القطن فلم ينتفع الفلاح بخمس ثمنه الذي
كان يرجوه لولا القيود الجبرية ، وهذا عدا اصابات الأفراد التي كانت
تتكاثر على السراة والسوقة من جنود المستعمرات ، وهم على شيء كثير من
الغلظة والشكاسة والتمرد . حتى شق على رئيس الشرطة الانجليزى في
القاهرة أن يكبحهم في بعض جمعاتهم بغير إطلاق النار

وعلى الرغم من تكتم الأخبار وشدة الرقابة على الصحف والرسائل
تخللت مصر إشاعات مستفيضة عن إعلان استقلالها والاعتراف بسيادتها في
الاستانة . وترددت أنباء الحملة التركية على قناة السويس فذاع من أقصى
الشمال إلى أقصى الصعيد أن الخديو السابق قادم وفي صحبته رهط من المصريين
على رأس جيش يطرد الانجليز ويعلن الاستقلال . أما الذي علمه الجمهور
بعد ذلك فهو أن شرذمة من الجيش التركي هممت أن تجتاز قناة السويس

واحدت بمدفعية هندية كانت عليه وأوشكت أن تفلح في محاولتها لولا ضابط
مصرى صغير تصدى لها بفرقة من الجيش المصرى فأحبط هجمتها ، ثم
ضوعفت الحراسة والمعازل على القناة

ولقد كان شعور المصريين في أثناء الحرب العظمى هو الشعور الطبيعى
الذى لا غرابة فيه : استاءوا بطبيعة الحال من العسف الذى لحق بهم فى
استقلالهم وفى أنفسهم وفى أبنائهم وأموالهم وأرزاقهم ، ولم يشعروا بعزاء
البذل فى سبيل الاستقلال والحرية لأنهم لم يجدوا بين أيديهم غرضاً محققاً
لهذه الضحايا والخسائر غير المصاحبة البريطانية والمطامع الاستعمارية . ولقد
كان فى مقدور مصر أن تؤدى قسطها فى الحرب العظمى دون أن تحقق
أو تشعر بالضميم والمهانة . وذلك أن تعترف بريطانيا العظمى باستقلالها بعد
الغاء السيادة العثمانية عليها وتعقد معها محالفة دفاعية هجومية ترضاهما الأمة
والحكومة التى تنوب عنها ، فيرجع العمل فى هذه الحالة إلى حكومة مستقلة
تباشر التجنيد والتموين على الأساليب النظامية والقوانين المشروعة . فيقبلها
المصريون كما تقبل الأمم الحرة اعباء الدفاع عن حوزتها فى غير إكراه ولا
مذلة . ولكن الدولة البريطانية لم تفعل ذلك . بل فجعت المصريين فى استقلالهم
وحریتهم ونزعت منهم كل نصيب تطمع فيه ولم تدع لهم الاكل نصيب منبوذ
لا تريده ولا تقدر على أخذه . ثم رجحت منهم أن يحمدا لها ما صنعت كأن
أحدآ من الناس يحمدا هذا الصنيع غير المصريين ، أو كان أحدآ من الناس
ينتظر عليه الحمد إلا أن يكون جاهلاً بالطبائع الانسانية أو ذا أثره تحجب
عنه الحقائق وهى نهار

أما من كان من المصريين يرجو خيراً من الغزوة التركية فانما كان
يرجوه لأنه سمع باعتراف الدولة العثمانية باستقلال البلاد ، ولأن فتح مصر
لم يكن على تقديره ليفضى إلى ضياع استقلالها ولولم تصح اشاعة الاعتراف
به فى الاستانة ، لان الألمان لا يقدررون على غضب مصر من الترك والترك

لا يقدرّون على قهرها بالقوة الدائمة . وقد كان قطع طريق الهند غرضاً كافياً لفتح مصر وتسليمها إلى أهلها ، والاستفادة منهم في أثناء الحرب بما يقدمونه من الجند والميرة والمال

وإلا فن المضحك أن يتوهم أحد أن المصريين ودوا يومئذ لو يخرج الانجليز ليحل الألمان في محلهم ويسيطروا وحدهم أو مع الترك على حكومة بلادهم . فتلك سخافة لا يعقلها عاقل ولا يقول بها قائل يزن كلامه . ولعل الفكاهة هنا تغني في بيان شعور المصريين من هذه الناحية ما لا يغنيه الدليل والبرهان الذي لا حاجة إليه . . . لقد كان الشاعر الظريف حافظ إبراهيم يقول متظاهراً بالفزع : « الألمان يحتلون مصر ؟ من ذا الذي يرضى بهذا الاحتلال ؟ إن هؤلاء الناس ليعرفون العربية ويقلقلون القاف كما يقلقلها الأزهرى . فان جاءوا الينا فمن أدرانا أنهم لا يملأون البلد بالمؤذنين والمأذونين والقضاة الشرعيين ؟ إن الانجليز لا ينظرون إلى غير وظائف الإدارة . أما الألمان فان لم يطمعوا في مشيخة الأزهر وافتاء الديار المصرية فهم قانعون رحماء ! »
وقس على ذلك شعور سائر المصريين جادين أو متفككين

ومن المصادفات ما يخلق الاشاعات المتواترة التي تشبه الحقيقة وتسرى سراها ولكنها لا تقوى على احتمال سؤال واحد لو يتكلف سامعها مؤنة السؤال . . . فكثيراً ما سمعنا أن سعد زغلول كان ممن يتوقعون دخول الألمان القاهرة وانه لهذا بدأ في تعلم اللغة الألمانية واختار لإدارة بيته وصيفة ألمانية . . . فأما إنه تعلم الألمانية واختار الوصيفة فذلك صحيح ، وأما غير الصحيح فهو أنه فعل ذلك توقعاً لدخول الألمان القاهرة بعد انتصارهم في الحرب العظمى ! فانه قد شرع في تعلم تلك اللغة « بكارلسباد » قبل الحرب بأربع سنوات ، ليسهل عليه التفاهم مع أهل البلاد في الأحاديث العامة حين يزور المصايف الألمانية في أجازته ، وكانت الأنسة المهذبة « فريدا » تشرف

على إدارة منزله منذ سنة ١٩١١ أى قبل الحرب بثلاث سنوات ، ولا تزال
إلى اليوم فى صحبة السيدة الجليلة صفية زغول

لا . لم يمكن شعور المصريين أثناء الحرب العظمى الا الشعور الطبيعى
الذى تشعر به كل أمة فى موضعهم : استاءوا من الحماية البريطانية وانتظروا
زوالها ولا غرابة فى هذا الاستياء ولا فى هذا الانتظار ، ولكنهم لم يستاءوا
منها ليرحبوا بسيادة أخرى يضر بها عليهم الترك أو يضر بها عليهم الألمان .
وانما انتظروا مصير الحرب ليعرفوا مصيرهم ومصير حقوقهم ومن يطالبونه
بتلك الحقوق . فاذا انتصرت انجلترا طالبوها بالاستقلال ، واذا لم تنتصر
فليس بمعقول أن يقبلوا من الدول الأخرى ما لم يقبلوه من الدولة
البريطانية .

تأليف الوفد المصري

ليست الحقيقة وحدها هي التي يخدمها أصدقاؤها وأعداؤها على السواء .
فالعظمة أيضا كالحقيقة في هذه المزية . إذا سحت لانسان أصبح كالحقائق
الخالدة التي لا تزيد المناقشة والمجادلة إلا ثبوتاً وتوكيداً ، أو أصبح كالمعالم
الطبيعية التي لا تقبل الانكار ولا تزال شاخصة للعيان . فلا يفلح المنكرون
في طمسها واخفائها ولو جهدوا لها كل جهد وأعدوا لها كل عدة . وقصارى
ما يفلحون فيه أن يماروا في نوع العظمة أو في أغراضها وبواعثها ، فيضعوها
في صف غير صفها ويعزوا اليها نيات غير نياتها ، ويقولوا عن صاحبها أنه
يبغى المنفعة لنفسه إذا كان يبغى المنفعة لقومه ، وإنه يصدر عن بواعث الأثرة
إذا كان يصدر عن بواعث العدل والنبيل والعزة . اما أن يجعلوه صغيراً وهو
عظيم أو يجنبوا قدرته بحجاب المراوغة والمرأ فذلك مستحيل
أولك أن تقول إن العظمة « الحقيقية » هي التي تنتفع بجهود الأصدقاء
والأعداء . لأنها حقيقة عظيمة ففيها من الحقيقة هذه القدرة على الثبوت
والوضوح .

وما من شيء هو أحرى أن يبين لنا أن الاستعمار مرض ويبل من تضليله
المستعمرين عن النظر الى بعض الحقائق واغرائهم بتحريفها وتشويهها ، حتى
لا يستطيعوا وصف عظيم من عظماء الأمم المغلوبة بوصفه المستقيم ، ولا يذكروا
خلقاً من أخلاق تلك الأمم إلا ليسوغوا به الغضب والاستغلال . فاذا قرأت
تعليقهم لأعمال عظماء الشرق وبواعث نهضاتهم خيل اليك أن كل شيء في
الدنيا مفهوم معقول إلا كراهة الاستعباد ومعارضة الاستعمار ، وان كل
سبب لحركاتهم ووثباتهم هو السبب الصحيح إلا انهم عظماء يعملون كما ينبغي
أن يعمل العظماء ... وماذا يصنع العظيم إذا خلق في أمة مغلوبة إلا أن

يحارب غالبها ويستنفر أبناءها لطلب الحرية ؟ ! ذلك هو الشيء الوحيد
المفهوم المعقول ... ولكنه مع ذلك هو الشيء الوحيد غير المفهوم وغير
المعقول عند المستعمرين . فلم نعرف قط أنهم شهدوا لزعيم من زعماء
النهضات الوطنية بفضيلة مشكورة أو بغرض نبيل يجمع حوله القلوب
ويحوطه بالاعجاب والثقة بين أبناء أمتة فضلا عن أبناء الأمم الغربية . وإنما
يعمدون أول ما يعمدون إلى تشويه الأغراض وعكس الحقائق والبحث عن
الريب والشبهات ليثبتوا بها مالا سبيل إلى ثبوته : وهو أن الاستعمار غير
كريه لذاته ، وأن الزعماء الذين يستنفرون أقوامهم لمحاربتة لا يفعلون
ذلك إلا لعدة مريية . ولهم في ذلك أعوان بين ضعفاء المغلوبين يجارونهم
زلفا إليهم أو حسدا للعظيم من بني جنسهم ، فيعيدون ماسمعوا غير متورعين
ولا ضانين بكرامة يفتقدونها ، أو نهضة يعوقونها . لانهم في الأغلب الأعم
مسلوبو الكرامة سرآ وعلانية بين الأمم التي يعيشون فيها وينتسبون إليها ،
ولعلمهم ينقمون منها أنها تعزف عنهم ولا تثق بهم كما تثق بأولئك العظماء

ومن حق سعد أن يتزود نصيبه من هذه القسمة المحتومة كما تزودها غيره ،
فليس مما يشرف الزعيم الوطني أن يسلم من تهم المستعمرين ، لأنه لا يكون
قد بلغ من مناوأة الاستعمار ما يستحق مشقة الاتهام !

فما هو إلا أن رفع الصوت بقضية قومه بعد الحرب العظمى حتى انطلقت
الصحف الاستعمارية بالتهمة المعهودة والشكوك المرصودة ... ماذا يريد
سعد زغلول ؟ أيريد الأناصاف لقومه ؟ كلا . فلا حاجة بقومه إلى إناصاف !!
ولكنه رجل مورتور حائق على الاحتلال والدولة المحتملة . ولولا ذلك لما
خطر له أن ينكر الحماية البريطانية ، لأن الحماية البريطانية شيء لا ينكره إلا
الموتورون الحانقون !! ...

وتجاوز الأمر كتابة الصحف إلى كتابة التاريخ . فقالت دائرة المعارف

البريطانية مامعناه إن سعداً أصبح عدواً ظاهر العداوة للاحتلال بعد نزاعه مع اللورد كتشنر في قضية القوامة المشهورة ، وقال السير فالنتين شيرويل في كتاب تاريخ المؤرخين إن اللورد كتشنر نفر هذا الوطنى المعتدل ليستميل اليه الخديو عباس ! . . .

وليس هذا صحيحاً كما يعلم العارفون بتلك القضية . لأن النزاع كان مع كتشنر نفسه قبل أن يكون مع الخديو عباس . وقد تعرض له سعد وهو يعلم أنه ينازع كتشنر ويستهدف لعواقب نزاعه في سبيل النزاهة والواجب . وليس بصحيح أن كتشنر كان يستميل الخديو ويتراضاه . بل الصحيح أنه كان يغاضبه ويتحداه ، ولهذا السبب وحده كان خليقاً أن يعارض الخديو ويؤيد سعداً في هذه القضية ، لولا أنه هو نفسه كان صاحب الهوى فيها ، وكان المؤيد للقيم ارضاء لهواه

على أن هذه الأقاويل لو كانت صحيحة كلها على الوجه الذى قصده السير فالنتين شيرويل ودائرة المعارف البريطانية لما كانت معناها إلا أن سعداً رجل عظيم قدير ، وأنه ليس بالمستورز الذى يقبل الوزارة إلا كما يشاء فان المستورز الذى لا عظمة عنده ولكنه يعظم بالمنصب ويعقد الرجاء كله عليه — لا ينازع اللورد كتشنر ولا يسمو إلى منزلة المنتقم منه ومن دولته وهى فى ساعة الظفر والخيلاء . . . لأن المستورزين من هذا الطراز لا يجهلون أن القول ماقاله كتشنر فى الديار المصرية ، وانه صاحب الحول والطول فى الحكومة وفى خارج الحكومة : يؤيده جيش الاحتلال ويؤيده من وراء ذلك سلطان الدولة البريطانية التى تثق به وتنصره فى صوابه وخطئه ولا تؤد له إلا المهابة والمسكاة . فهو يقضى بما يريد ويرفع من الوزراء والوزارات من يريد : من رفعه فهو سعيد بهذه الخطوة ومن وضعه فهو عاثر الجد خائب الرجاء ، لا حيلة له إلا أن ينزوى فى عقر داره ويترقب الساعة التى يستغفر فيها لذنبه ويلتمس الرضى والرحمة من السيد المستبد الغاضب عليه . ولن

يخطر له ببال أن يزوج بنفسه في خصومة مع أمثال كتشنر أو من هو دونهم في السطوة والهيبة من أقطاب الاحتلال . فاذا ساقته الحوادث سوقا إلى تلك الخصومة فلن يخطر له ببال أن يقابل الاساءة بالاساءة ويرفع السلاح في وجه السلاح . وان خطر له ذلك في حق كتشنر فلن يخطر له ببال أن يصادم الدولة البريطانية حتى يكرها على الاعتراف بوجوده والتكفير عن الاساءة اليه فأما أن يكون للرجل مندوحة واسعة عن خصومة كتشنر فيصير على منازعته واغضابه ، ثم يبرز له بروز الند للند غير حافل باسترضائه واتقاء عدائه ، ثم يبرز لدولته وهي في أوج العزة والنصر ليقول لها : « ها أنذا في ميدان الصراع أيتها الدولة المستخفة بما أستطيع » . . . ثم يصمد في هذا الميدان غير مأخوذ بالوعد والوعيد ولا مترجع حيث يتاح له الرجوع مع السلامة والقبوع — فإذا تسمى ذلك ان لم تسمه العظمة التي لا تقل عن عظمة الزعيم المجاهد في طلب الحرية ؟ . . وبماذا تصف ذلك الا بالقدرة التي ترى لها في الحياة شأناً غير شأن المنصب والوزارة ، وقيمة غير التي يمنحها كتشنر أو تمنحها الدولة البريطانية ، وبأساً هو بأسها المستمد منها وليس باليأس المستعار من سيد مرهوب ، أو من جاء الحكومة ؟

فالكتاب الانجليز الذين يفسرون وثبة سعد على ذلك النحو من التفسير يثبتون له غاية مافي وسعهم من شهادة العظمة والزهد في الوظيفة المهيبة ، ويثبتون له ، من ثم ، غاية مافي وسع المادح والمعجب من الاعتراف بعلو الهمة ونبل المقصد وشرف الغاية . إذ العيب كل العيب في الوظيفة التي ينزل المرء لها ويستخذي في طلبها والحرص عليهما ، ولا عيب في الوظيفة التي تحفظ الكرامة ويقوم فيها الانسان بالواجب كما يجب . بل هي فرض محتوم يلام على اجتنابه ، ويشرف هو كما تشرف أمته بأدائه

انما الحقيقة بعد كل هذه الأقاويل هي أن العمل الذي تصدى له سعد زغلول بعد إعلان الهدنة كان لا بد أن يعمل ، وانه لم يكن في مصر من يعمله غير سعد زغلول

ولم يكن هناك وقت لعمله غير الوقت الذي اختارته الحوادث وهياتها المقدمات .
بحيث يحق لنا أن نقول ان هذه التتمة في حياة سعد كانت هي التتمة الفنية التي
يتخيلها المتخيل كما كانت هي التتمة التاريخية التي قررتها الحوادث وشهدتها
الانظار . فلو أن تاريخ سعد قصة مخترعة وليس بواقعة مشهودة لما استطاع
مؤلفها أن يختم فصولها غير ذلك الختام ، إذ ليس في وسع العقل أن يتخيل
رجلا مثله يمر به موقف الهدنة بعد الحرب العظمى وهو ساكت لا يفكر
في عمل . وليس في وسع العقل أن يتخيل له تصرفا في عمله وجهاده غير
التصرف الذي هداه اليه طبعه ومنطق تفكيره ، واذا كانت زعامته الوطنية
تتمة منسوقة مع ماضيه من قبل الثورة العراقية فأعماله بعد الزعامة تتمة
منسوقة مع ذلك الماضى المنطقي المتفق الأوائل والأواخر . تعرفه من قبل كما
تعرف من أساس البناء المرسوم كيف تكمل فيه الذروة وتعلو فيه الجدران

لبث سعد في أيام الحرب العظمى يترقب ساعة العمل غير غافل ولا متعجل ،
وكان من المفهوم عند الانجليز قبل غيرهم أنه لم يعترف بالحماية ولم يسكت
الا في انتظار الفرصة التي يفيد فيها الكلام . ولو فهم الانجليز شيئا غير ذلك
لما سوفوا بعقد الجمعية التشريعية موعدا بعد موعدا حتى اتفقوا على تأجيلها
إلى موعد غير معلوم ، بل لأسرعوا بعقدها ليسمعوا منها الاعتراف الذي
يعدون الظفر به من نواب مصر المنتخبين غاية ما يطمعون فيه من اقرار
وتسجيل .

ولم يخف عليهم أن سعداً كان يستطيع أن يتكلم كما تكلم رئيس الجمعية
التشريعية في المقابلات الرسمية ، فاذا آثر السكوت فانما يؤثره لأن له رأيا
لا يقال ، ولا فائدة من أن يقال في تلك الأحوال

وظلت مقادير الحرب تتراوح بين المتحاربين زهاء ثلاث سنوات ،
تشيل كفة النصر يوما وتهبط يوما في كل ميدان ، ولا يلوح من طوابع
الحوادث في خلال ذلك ما يؤذن بانتهاء القتال وابتداء الهدنة والفصل في مصير

الشعوب . حتى شهرت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ثم شهرتها على النمسا ثم تتابع وفود الجند منها فوجا بعد فوج إلى الميادين الأوربية عند أواخر سنة ١٩١٧ . ثم أذاع الرئيس ويلسون شروطه الأربعة عشر في أوائل السنة التالية ومنها انصاف الضعفاء وإيلائهم حق تقرير المصير . ثم انهزمت تركيا في الميادين المتاخمة لمصر وعولت على التسليم وتم التسليم في أواخر أكتوبر سنة ١٩١٨ . فأيقن العارفون في تلك الأيام باقتراب النهاية ، وانكشف العمل الذي تفرضه الحوادث على زعماء مصر أو أخذ يتكشف ويتجلى من أواسط العام . بعد أن كانوا لا يعرفون إلا أن هناك واجباً وطنياً ينبغي أن ينهضوا به وإن هناك فرصة آتية لا بد أن يغتنموها .

وكان من جلاء هذا الواجب أن خطر لأناس متفرقين في وقت واحد أو أوقات متقاربة . فلم يبق لمصر محصص من المطالبة بحقوقها ولم يبق للحلفاء محيص من تحقيق ما بشروا به من وعود الحرية والعدل والديمقراطية ، فالآن ينبغي أن تنجز بريطانيا العظمى وعودها وتلغى حمايتها وتسأل الأمة المصرية عن مصيرها ولا تساوم عليها مساومة السلعة التي تباع وتشترى . فتلك معاملة للشعوب الضعيفة طالما كانت بريطانيا العظمى تنعاهها على الجرمان وتقول انها حاربتهم من أجلها وحفزت العالم كله للقضاء عليها وتبديلها . فهل على المصريين إذن إلا أن يطالبوها بالانجاز وينتظروا منها الوفاء ؟ وإذا عمدت إلى المطال أو إلى الرفض والجحود فهل هناك حجة أو هن من حجتها وأظهر من حجة المصريين عليها ؟ وإذا حالت بين المصريين وبين اشهاد العالم على قضيتهم الواضحة فهل هناك دليل على سوء النية أصدق من هذا الدليل ؟ وهل يتاح لها بعد ذلك أن تصور نفسها للناس في صورة القاضى العادل الأمين ، وتمثل خصومها في صورة الجاني المستحق للعقاب !

هذا هو الواجب القومي الذي فرضته نهاية الحرب على الأمة المصرية ، وهو واجب لا بد له من هيئة تتولاه بالنيابة عن الأمة . فمن عسى أن تكون تلك الهيئة ؟

لقد كانت الجمعية التشريعية قائمة يومئذ لم تلغ ولم تسقط صفة النيابة عن
أعضائها ، فاتجهت النية إلى اختيار الهيئة التي تتولى الكلام باسم الأمة من
بين أعضاء الجمعية التشريعية ، أو اختيار هيئة يزيها هؤلاء الأعضاء ويخولونها
صفة الوكالة العامة ، وفي هذا فكر سعد وأصحابه إلى ما قبل الهدنة بأيام قليلة .
وغنى عن القول أن فكرة طبيعية كهذه الفكرة في قضية عامة كالقضية
القومية لا يمكن أن تخطر لمصرى واحد أو مصريين قلائل ، ففي سبتمبر دعا
سعد أصحابه محمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد « بك » وعبد العزيز فهمى « بك »
إلى مسجد وصيف للتحدث فيما ينبغي عمله عندما تسنح الفرصة للبحث في
المسألة المصرية بعد اعلان الهدنة . فأجاب الدعوة محمد محمود باشا وأحمد لطفي
السيد بك ، واعتذر عبد العزيز بك لمرضه .

ثم كاشفوا بنيتهم بعض أصحابهم من أعضاء الجمعية التشريعية وغيرهم .
ثم ذهب سعد إلى الاسكندرية في الثاني عشر من اكتوبر مدعواً إلى الوليمة
التي أقامها رشدي باشا للاحتفال بعيد الجلوس . فقابل هناك الأمير عمر
طوسن وسمع منه أنه يفكر في قيام طائفة من المصريين للمطالبة بحقوق مصر
في مؤتمر الصلح فقال سعد كما كتب في مذكراته انها « فكرة جميلة
قامت في بعض الرؤوس من قبل » . وأفضى إلى الأمير بموافقته وارتياحه ،
وتدبر معه فيما يحتاج اليه تنفيذ هذه الفكرة من المال الكثير

وعاد سعد إلى القاهرة فلاقى عدلى يكن باشا وتكلم معه في تلك المسألة
ورأى بتوسيط قنصل أمريكا في تسهيل السفر للهندويين المصريين ، وفتح
رشدي باشا في ذلك ، فلم يجد عنده استعداداً لتأييد المسعى

وفي الثاني والعشرين من شهر اكتوبر ذهب سعد إلى الاسكندرية مرة
أخرى مع كثير من الكبراء والوجهاء لحضور حفلة الشاي العمومية التي
دعاهم إليها السير ريجنالد ونجت معتمد الدولة البريطانية ، فلاقى هناك « عدلى

ومدحت ورشدي ومحمد سعيد والأمير عمر وغيرهم قال سعد في
مذكراته : « وشملت من عدلى رائحة أن المشروع الذي عرضه علينا
ورشدي لم يكن من بنات أفكار الاثنين . وأنه لا بد أن يكون مشتملا على
سر تكشفه الأيام »

ويغلب على ظننا أن السر الذي أشار اليه سعد هو رأى السلطان
« أحمد فؤاد » في هذه المسألة . فان السلطان حسين كان قد أمر رشدي
باشا بكتابة مذكرة إلى الحكومة البريطانية يطلب فيها حل القضية المصرية
على وجه كفيل بالاستقرار والرضى من الأمة . ثم مرض السلطان حسين
وأدركته الوفاة قبل تبليغ هذه المذكرة . فالذى يغلب على الظن أن السلطان
فؤادا قد أرجأها إلى الوقت المناسب ، واختار تحريكها قبل الهدنة ، فأوعز
إلى عدلى ورشدي باتباع الخطة التي تلائم الحوادث الأخيرة ، وفهم سعد
ما فهم من الايحاء على سبيل الترجيح

وفي يوم عقد الهدنة حضر الأمير عمر إلى مصر وزار سعدا في بيته
وأبدى رغبته في عقد اجتماع « للمذاكرة في حالة مصر وما يجب أن يقدم لها
من الخدمة الآن » فواقفة سعد واتفق مع سموه على صيغة الدعوة وأسماء
المدعويين ومكان الاجتماع بقصر الأمير في شببرا . وسافر الأمير على أن
يعود قبل الاجتماع بيومين . وسعد في كل ذلك يميل إلى تقديمه في هذا
العمل ، لما له من المنزلة الرفيعة وما يحتاج اليه العمل من المال الكثير
إلا أن المعارضة في رئاسة الأمير للوفد المطلوب كانت تقوى وتشتد في
جهات كثيرة ، ومنها القصر الملكي والوزارة ، ومنها أصحاب سعد جميعاً
بغير استثناء

فقد كان السلطان فؤاد غير مستريح إلى ظهور الأمير على رأس هذه الحركة
ودخول أعضاء البيت المالك في مآزق سياسية تقضى مصلحتهم ومصلحة
الملك أن يظلوا بمعزل عنها

وكان رشدي باشا يتوجس من نفوذ محمد سعيد باشا صديق الأمير الحميم ويشفق من عواقب تديره ، ولا يحب أن يمهله حتى يقبض بيديه على زمام الموقف ويتحول به إلى حيث تهديه الحيلة والأساليب الملتوية التي اشتهر بها . وكان أصحاب سعد يريدونها كما قالوا (حركة شعب لا إمارة وحركة استقلال لا خلافة) ويعتقدون أن الأمير وصديقه محمد سعيد يبغيان المحافظة على السيادة العثمانية إلى أن ينزل عنها الترك للبصريين في معاهدات الصلح ، وهو أمل مشكوك فيه .

لهذا أمرت الوزارة بالغاء الاجتماع الذي يدعو إليه . ولما حضر الأمير إلى مصر مستفسرا أبلغه أمين يحيى باشا أن عظمة السلطان يرى له أن يتعد عن هذه الحركة ، وأن يبرح القاهرة إلى الإسكندرية في يومه . وقبل أن يتلقى هذا الأمر كان قد اجتمع بمحمد سعيد باشا واسماعيل صدقي باشا وبعض أعضاء الحزب الوطني وبحثوا في تأليف الوفد مستقلين للسفر إلى أوروبا . فاستحسنوا بعد طول المشاورة أن يشرخوا سعدا ومن معه في هذه الهيئة ، وخاطب الأمير سعدا ليلقاه بفندق شبرد ، فاستأذن سعد أصحابه ليذهب إليه . وخشى هؤلاء الأصحاب إذا خوطب سعد في رأسه الأمير للهيئة أن يقبلها كما علموا من رأيه السابق . فناشدوه بلسان محمد محمود باشا أن لا يقبل رأسه بغير رأيهم ، لأنهم يختارونه هو للرأسه ولا يقبلون رأسه سواه .

ثم علم الأمير بأمر السلطان فؤاد فاطاعه وسافر إلى الإسكندرية ، وسرى نبأ الخلاف بين الوفدين إلى جمهرة الشعب ، فأسفوا وتدمروا وبدت بوادر غضبهم في مطاردة الدعاة والرسل الذين كانوا يروجون لتوكيل الوفد الجديد فأثر الأمير لهذه الأسباب جميعا أن يعدل عن سعيه ، وأثر سعد وأصحابه أن يرأبوا الصدع بانتخاب بعض أنصار الأمير ، فاندجت الهيئتان هيئة واحدة وانحسم في الخلاف .

في أثناء هذا الخلاف بين الوفد واشياع الأمير عمر طوسون بدرت الكلمة التي اطلقت على بيت سعد اسمه الذي ينبغي له بعد تأليف الوفد واجتماع نواب الأمة فيه : بدرت من لسان خصم لا من لسان صديق ، وفي معرض المحاجة لا في معرض التودد والتعظيم . فقد كانت المناقشات بين سعد وبعض الشبان تتوالى كل يوم عن أغراض الوفد وبرنامجه واختيار أعضائه ، فاحتد واحد منهم وتمادى في مخاشنة الحاضرين . فقال سعد : (عجباً ! أتكدرني وتكدر صحبي في بيتي ؟) فقال الفتى : (ليس هو بيتك يا باشا . ولكنه بيت الأمة !) فشاعت الكلمة وأطلق الاسم على البيت من ذلك الحين .

وقد وضع الوفد بعد تمام تكوينه قانوناً للسير عليه جاء في المادة الأولى منه : (تألف وفد باسم الوفد المصري من حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك واسماعيل صدقى باشا وسينوت حنا بك وحمد الباسل باشا ، وجورج خياط بك ومحمود أبو النصر بك ومصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفى بك) .

وجاء في مادته الثانية أن (مهمة هذا الوفد هي السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلاً في استقلال مصر استقلالاً تاماً)
وفي المادة الثالثة أن (الوفد يستمد قوته من رغبة أهالى مصر التي يعبرون عنها رأساً أو بواسطة مندوبيهم بالهيئات النيابية) .

وفي المادة الخامسة (لا يسوع للوفد أن يتصرف في المهمة التي انتدب لها . فليس للوفد ولا لأحد من أعضائه أن يخرج في طلباته عن حدود الوكالة التي يستمد منها قوته : وهي استقلال مصر استقلالاً تاماً وما يتبع ذلك من التفاصيل) . وفي المادة الأخيرة : « يعين الوفد لجنة تسمى باللجنة المركزية لجمع التبرعات ومراسلة الوفد بما يهم من شئونه »

وفيما بين ذلك مواد أخرى في تفصيل نظامه وتقسيم أعماله بين ذوى الاختصاص فيه من رئيس أو كاتب سر أو أمين صندوق
و مما تقدم على وجه الاجمال يتبين لنا كيف نشأت فكرة الوفد الأولى وكيف انتقلت في أطوارها المختلفة الى تمام تكوينه . ولا نحب أن نطيل البحث فيمن سبق ومن لحق من المفكرين . فان الفكرة كانت تخطر لكل عامل في السياسة المصرية ، وكان من المستحيل أن لا تخطر في أوانها . وإنما الأمر الجدير بالملاحظة عندنا أن أحداً لم يفكر في تأليف وفد الا فكر معه في سعد زغلول ، سواء السلطان أو الأمير طوسن أو الوزراء أو أعضاء الجمعية التشريعية أو المتطرفون أو المعتدلون ، ومن السهل أن يفكر الانسان في تأليف وفد . ولكن ليس من السهل أن يكون معقد الأمل ومناط العمل باجماع المفكرين .

بدء العمل

كان الوفد المصرى يترب من يوم إلى يوم إعلان الهدنة لبدأ عمله
بإبلاغ الدولة البريطانية بمطالب الأمة المصرية . فلما أعلنت الهدنة يوم الاثنين
(الحادى عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨) بادر سعد وأصحابه إلى طلب
المقابلة من السير ريجنالد ونجت معتمد الدولة البريطانية أو نائب الملك كما
كانوا يسمونه فى عهد الحماية . فضرب لهم موعدا للمقابلة قبيل الظهر من يوم
الأربعاء التالى . فذهب إليه سعد وصاحبا على شعراوى باشا وعبد العزيز
فهى بك ، ووقع الاختيار على هؤلاء الثلاثة لأنهم كانوا أول من اشترك فى
الوفد من أعضاء الجمعية التشريعية ، وفيهم الكفاية لتمثيل الوفد رئيسه وعضوين
يمثلان الأعيان وذوى الأعمال الفكرية

تلقاهم السير ريجنالد بعد التحية والتهنئة بعقد الهدنة بقوله :

« ان الصلح اقترب موعده والعالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته
زمناً طويلاً ، وأن مصر سينالها خير كثير وان الله مع الصابرين . . . » إلى
آخر ما قال .

فرد عليه سعد قائلاً : « إن الحرب كانت تحريق انطفأ ولم يبق الا تنظيف
آثاره . وإنى أظن أنه لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد
والمطبوعات . والناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كى ينفسوا
عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذى تولاها أكثر من أربع سنين »
فوعد السير ريجنالد بالكتابة إلى حكومته فى هذه المسألة بعد الاتفاق مع
القائد العام ، وقال : « ويجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا
أنه متى فرغت انكثرا من مؤتمر الصلح فانها تلتفت لمصر وما يلزمها ولكن لا
يكون الأمر إلا خيراً » فقال سعد : « ان الهدنة قد عقدت والمصريون لهم

حق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ، ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا
ما هو الخير الذي تريده انكثرا لهم »

قال السير ريجنالد : « يجب أن لاتعجلوا وأن تكونوا متبصرين في
سلوككم . فان المصريين في الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة »
فاستفسره سعد معنى كلامه قائلاً : « إن هذه العبارة مبهمة المعنى ولا
أفهم المراد منها »

ففهم السير ريجنالد أن سعداً قد استاء لانه اعتقد أن الكلام موجه اليه
وأراد أن يقول إنه لايعنى المصريين مثله وإنما يعنى الرأى العام . . .
فاستدرك قائلاً : « أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد
النظر » فأجابه سعد : « لا أستطيع الموافقة على ذلك . لأننى إن وافقت
أنكرت صفتى . فانى منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام
القاهرة ، وكان انتخابى بمحض إرادة الرأى العام مع معارضة الحكومة
واللورد كيتشنر فى انتخابى . وكذلك كان الأمر مع زميلى على شعراوى
باشا وعبد العزيز فهمى بك »

وبعد مناقشة وجيزة قال شعراوى باشا : « اننا نريد أن نكون أصدقاء
للانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للسيد » . . . فصاح السير ريجنالد دهشاً :
« إذن أتم تطلبون الاستقلال ؟ » . فأجابه سعد . « نعم . ونحن أهل له ،
وماذا ينقصنا ليكون لنا استقلال كباقي الأمم المستقلة ؟ » ثم قال بعد مناقشة
طويلة فى كفاءة مصر للاستقلال : « متى ساعدتنا انجلترا على استقلالنا التام
فاننا نعطيها ضمانة معقولة عن عدم تمكين أى دولة من استقلالنا والمساس
بمصلحة انكثرا . فنعطيها ضمانة فى طريقها إلى الهند ، وهى قناة السويس ،
بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء . بل نحالفها على غيرها
ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من الجنود » ثم قال شعراوى
باشا : « يبقى أمر آخر وهو حقوق أرباب الديون الأجانب فيمكن بقاء المستشار

الانجليزى بحيث تكون سلطته هى سلطة صندوق الدين العمومى » ثم قال سعد : « نحن نعتزف الآن أن انجلترا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية، وأنا نعتزف لها بالأعمال الجليلة التى باشرتف فى مصر . فنطلب باسم هذه المبادئ أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر ، وإننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك بصفتك مشخفاً لهذه الدولة العظيمة . وعند الاقتضاء نسافر للتكلم فى شأنها مع ولاة الأمور فى انجلترا . ولا نلتجىء هنا لسواك ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الانكليزية . ونطلب منك بصفتك عارفاً لمصر مطلعاً على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب

فترىث السير ريجنالد ونجت ثم قال : « قد سمعت أقوالكم . وإنى أعتبر محادثتنا محادثة غير رسمية بل بصفة حبية ، فانى لا أعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد »

وانتهى الحديث على هذا فى تلك المقابلة ، وقد علم منه سعد وصاحباه رأى الحكومة البريطانية فى المسألة المصرية على الرغم من قول السير ريجنالد أنه لا يعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد . فهذه الحكومة لا تفكر فى المسألة المصرية قبل عقد الصلح وفراغها من جميع المشكلات المتخلفة من الحرب العظمى ، وهى إذا فكرت فيها بعد ذلك فليس فى نيتها أن تلغى الحماية وتعتزف بالاستقلال . لأن السير ريجنالد دهش حين فوجىء بكلمة الاستقلال كأنه يسمع التجديف ! فعلى مصر إذن أن تنتظر إلى غير أجل مسمى ، وليس لها بعد طول الانتظار أن تطمح إلى استقلال . فذلك عند الحكومة البريطانية خارج من كل حساب

واننا لنذكر مقدار الدهش الذى دهشه المعتمد البريطانى من ذكر الاستقلال إذا علمنا حقيقة المركز الذى هياه المحتلون لمصر وتفاهمت عليه الجالية البريطانية قبل انتهاء الحرب بأكثر من عام . فقد صدر الأمر فى شهر مارس سنة ١٩١٧ بتأليف لجنة تنظر فى إصلاح القضاء بعد الغاء الامتيازات

الأجنبية ، فتقدم إليها عشرة من المحامين الانجليز وطلبوا اعتبار اللغة الانجليزية لغة رسمية للمحاكم ، توضع بها القوانين وترجم منها الى اللغة العربية أو الفرنسية إذا دعي الأمر الى ذلك ، واستلزموا أن يسن القانون الأهلى على سنة الأصول الانجليزية والقانون الجنائى بصفة خاصة ، وأن يجلس قاضى انجليزى الى جانب القاضى المصرى للنظر فى المسائل الأهلية

أما قانون مصر النظامى الذى أعده المحتلون لتطبيقه بعد الحرب العظمى فقد وضعه السير ويليام برونيات وقضى فيه بإنشاء مجلسين أحدهما يسمى مجلس الأعيان ويتألف من الوزراء والمستشارين الانجليز وبعض الموظفين الانجليز ممن يساؤونهم فى الرتبة ، ومن خمسة عشر أجنبيا ينتخبهم الأجانب ، وثلاثين مصرىاً يجرى انتخابهم على قواعد محدودة كثيرة القيود والشروط ولا تجتمع منهم كثرة فى المجلس على كل حال . ويسمى المجلس الآخر مجلس النواب وليس له رأى قاطع فى عظيم ولا ضئيل من مصالح البلاد ، ويجوز أن تتخطاه الحكومة بارسال القوانين مباشرة الى مجلس الأعيان . ثم لا تعتمد القوانين التى تصدر من هذا المجلس أو من ذلك إلا بعد اقرارها فى وزارة الخارجية البريطانية

ويكفى أن يلم القارىء بخلاصة هذا القانون ليحزم بأنه قانون لا يوضع إلا للأصقاع الهمجية التى لا يحفل لأهلها بوجود ولا برأى فى تشريع أو سياسة . والغرض الأكبر منه انما هو استدراج الأجانب الى الرضى بالغاء امتيازاتهم ريثما تنحصر السلطة كلها فى يد العميد البريطانى ، ولا تكون مصر فى خلال ذلك إلا مستعمرة بريطانية من مستعمرات المجهل السحيقة التى لا حضارة لها ولا رجاء فى نوع من الاستقلال

وإذا كان ذكر الاستقلال قد أدهش العميد البريطانى فهذا القانون النظامى قد أدهش جميع من علموا به من المصريين فكان من الشرور التى

أعقبت الخير العظيم ، لأنه جمع المصريين كلهم حول راية الاستقلال ، وعصف بكل فارق بين التطرف في الوطنية والاعتدال

ومن الطبيعي بعد أن قال العميد البريطاني لسعد وزميليه أنه لا يعرف شيئاً عن أفكار حكومته أن يتذرع النواب المصريون بذلك الى طلب السفر إلى العاصمة الانجليزية ، لاستطلاع أفكار تلك الحكومة والافصاح لها وللرأى العام في بلادها عن أفكار الأمة المصرية . فكتب سعد وأصحابه الى رآسة الجيش الانجليزي يطلبون جواز السفر في وقت قريب ، وجددوا الطلب بعد أسبوع فجاءهم الرد في الثامن والعشرين من نوفمبر بارجاء الاذن لهم الى أن تزول « الصعوبات التي تمنع سفرهم في الوقت الحاضر » فكتب سعد الى السير ريجنالد ونجت في اليوم نفسه يبدى له أنه : « من الضروري أن يكون الوفد بلندن قبل الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر ، ويختم خطابه بقوله : « إنا معتمدون كثيراً على تقاليد بريطانيا العظمى التي مازالت تقدم للعالم كثيراً من الأمثلة على تمسكها بمبادئ الحرية الشخصية اعتماداً يجعل لنا ثقة في أن طلب التصريح لنا بالسفر سيفصل فيه عاجلاً » لم يجبه السير ريجنالد بنفسه ولا باسم موظف كبير من رؤسياه في دار الحماية ، ولكنه أجابه باسم نائب كاتبه الخاص في خطاب يتحدث به عن رأى حكومته . فقال :

« كلفت من قبل نخامة المعتمد السامى البريطانى باحاطتكم علماً بوصول خطابكم المؤرخ في ٢٩ نوفمبر الماضى وبأخباركم بأن نخامته قد رأى بعد استشارة حكومة جلالة الملك أنه لا يستطيع التوسط لدى السلطة العسكرية في هذا الموضوع . وأضيف إلى ذلك أنكم إذا كنتم تريدون تقديم اقتراحات بخصوص كيفية الحكم في مصر مما لا يخرج عن الخطة التي رسمتها حكومة جلالة الملك وأعلنتها من قبل ، فالأفضل أن مثل هذه الاقتراحات تقدم كتابة الى نخامته ، وبهذه المناسبة ألفت نظركم الى خطاب السير ميلن

شيتهم الذي أرسله بناء على أمر حكومة جلالة الملك إلى المرحوم السلطان حسين عند توليته عرش مصر »

فكان جواب سعد على هذا الخطاب الذي تشف عبارته واختيار كاتبه عن الاستخفاف وقلة الاكتراث « إنه ليس في وسعي ولا في وسع أى عضو من أعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لا تكون مطابقة لارادة الأمة المصرية المعبر عنها في التوكيلات التي أعطيت لنا ، وإني أعرض على أنظاركم أن هذه التوكيلات قد أقبل على التوقيع عليها بشغف كثير من كبراء الأمة ومن بينهم أعضاء الجمعية التشريعية والهيئات الأخرى النيابية ، وكان من المنتظر أن يصل هذا الاقبال إلى الاجماع لولا تدخل الادارة في منع تداولها ومصادرتها »

أما تقديم الاقتراحات إلى المندوب البريطانى فلم يسع الوفد قبوله لأنه لا يجدى شيئاً مع الشرط المتقدم ولا يجدى شيئاً إذا ألغى ذلك الشرط وأيسح الكلام في مسألة الاستقلال . وقد أبان سعد حجة الوفد في طلب السفر إلى انجلترا فقال : « ان سفرنا إلى انجلترا لا نريد منه إلا أن نكون على اتصال برجال السياسة الممثلين للأمة الانجليزية ، وللأشخاص الذين يتولون توجيه الرأى العام الانجليزى الذين لا شك في تأثيرهم على القرارات الحكومية ، وسنغنى على الخصوص بان نجعل وجهتنا ذلك الرأى العام . ونحن واثقون بان نجاح قضيتنا يتوقف جزء كبير منه على العدالة والحرية وحماية حقوق الضعفاء التي امتاز بها الرأى العام الانجليزى . وتلاحظون سعادتكم أنه في هذه الظروف يكون من المستحيل علينا أن نصل إلى غايتنا بواسطة مخبرات بسيطة تعمل في مصر وحسب ، فان القضية التي ندافع عنها يجب أن تعرض بادية ذى بدء على الرأى العام الانجليزى الذي لا شك في انه — للاستنارة فيها — في حاجة إلى الحصول على تفصيلات لا يمكن أن يبديها الا الممثلون الطبيعيون الموكلون من الأمة المصرية ذاتها »

وفي هذا الكلام بيان صريح للغرض من السفر إلى البلاد الانجليزية ،
فليس هو استجداء الحكومة هناك ولكنه الاقتناع والتأثير بالأساليب التي
تدعن لها الحكومة ورجالها الرسميون .

مر بالقارىء في خطاب سعداشارة إلى توكيلات الأمة ومصادرة الادارة
للتوقيع عليها في الاقاليم . فهذه التوكيلات هي الوسيلة التي لجأ اليها الوفد
بعد تأليفه لتعزيز نيابته عن الأمة في طلب الاستقلال ، بالاضافة إلى الصفة
المكتسبة من أعضاء الجمعية التشريعية الداخلين فيه

فقد كان في الوفد كما كان بين مؤيديه رجال نابهون من غير أعضاء الجمعية
التشريعية ، وكان من الميسور للانجليز ان يقدحوا في وكالة الجمعية عن قضية
الاستقلال وما اليها من المطالب القومية ، لانها انتخبت قبل فرض الحماية ولم
يكن ملحوظاً في انتخابها أن تتصدى لأمثال هذه المطالب . فمن سداد الرأي
أن يضيف الوفد دليلاً آخر على نيابته الصحيحة غير تأييد أعضائها . وإذا
تسنى له أن يحصل على توكيلات المصريين مباشرة في قضية الاستقلال بنصها
فلا محل إذن للاكتفاء بالوكالة المستمدة من انتخاب قديم ، في قضية ليست
بقضية الاستقلال

اسرع الوفد بطبع هذه التوكيلات غير منتظر تمام تأليفه ، فامضاها
كل من عرضت عليه من ذوى الرأي والمكانة ، ولم يرفض امضاءها إلا
أفراد معدودون لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة . وراحت الألوف منها
تتفرق في الأقاليم وتعود منها كل يوم بعشرات الألوف من التوقيعات ،
ثم فطن المستشار الداخلى مستر هينز لها بعد انتشارها فأصدر أمره
إلى الموظفين بمنعها ومصادرتها . فمنعوها ما استطاعوا واقتحموا بيوت
الوجهاء ومكاتب المحامين يبحثون عنها في كل مكان ، وينتزعونها من حاملها
عنوة حيثما وجدوها ، ويتعللون لذلك بأنها منشورات مخلة بالأمن والنظام

أراد الوفد أن يعرض ما فاتته من تلك التوكيلات باثبات منعها ومصادرتها .
لان إثبات ذلك يقوم مقام التوكيل ويزيد عليه أن يثبت تصرف الانجليز
في حق « تقرير المصير » وهم لا يفرغون من النداء به في كل مجال . فكتب
سعد إلى رئيس الوزارة المصرية محتج على هذا الحيف ويسجل هذه الوقائع ،
وقال في احتجاجه : « لا يخفى على دولتكم أنه على أثر فوز مبادئ الحرية
والعدل التي جاهدت بريطانيا العظمى وشركاؤها لتحقيقها ألفت مع جماعة من
ثقة الأمة ونوابها وأصحاب الرأي فيها وفدا لينوب عنها في التعبير عن
رأيها في مستقبلها تطبيقاً لتلك المبادئ الأساسية (التوكيل)
لذلك شرعنا في جمع هذا الرأي بصيغة توكيل خاص فوق ما للكثير منا
من النيابة العامة ، فأقبل الناس على امضاء هذا التوكيل اقبالا عظيما مع السكينة
والهدوء ، وهذا أقل مظهر نعرفه من مظاهر الاعراب عن رأى الأمة في
مصيرها ، لكنه قد اتصل بنا أن وزارة الداخلية قد أمرت بالكف عن
امضاء هذه التوكيلات ، ونظراً إلى أن هذا التصرف يمنع ظهور الرأي العام في
مصر على حقيقته ، فيتعطل بذلك أجل مقصد من مقاصد بريطانيا العظمى
وشركائها وتحرم الأمة المصرية من الانتفاع بهذا المقصد الجليل — التمس
من دولتكم باسم الحرية والعدل أن تأمروا بترك الناس وحريرتهم يتمون عملهم
المشروع ، وإذا كانت هناك ضرورة قصوى ألجأت الحكومة إلى هذا المنع
فاني أكون سعيداً لو كتبتم إلى بذلك حتى نكون على بصيرة من أمرنا ونساعد
الحكومة بما في وسعنا على الكف عن امضاء تلك التوكيلات ... »

وقبل أن يتلقى الوفد رداً من الوزارة ، عاد فكتب اليها في اليوم التالي
— ٢٥ نوفمبر — يخبرها « ان رجال الحكومة لم يقتصروا على منع التوقيع
على التوكيلات بل تجاوزوه إلى مصادرة ماتم التوقيع عليه » وشفع ذلك بما
يثبت هذه المصادرة .

وظاهر من صيغة الكتاب الأول أن الاحتجاج متفق عليه بين الوفد

والوزارة لاعطاء وزير الداخلية فرصة يثبت فيها المنع ويبرىء الحكومة الوطنية من تبعاته ، فجاء الرد من الوزير يقول فيه : « إجابة على كتابيكم المؤرخين ٢٣ و ٢٤ الجاري أشرف باحاطتكم علماً أنه إن كانت صدرت أوامر من جناب مستشار الداخلية لمنع امضاء التوكيلات المشار اليها في كتابيكم المذكورين فانما كان ذلك لأن القطر لا يزال تحت الأحكام العرفية ، ولأن مثل هذه التوكيلات قد اعتبرت بما يدعو إلى الاخلال بالنظام العام ... »

وفي هذا الرد اثبات للتوكيلات ، واثبات للمنع ولصدور الأمر به من السلطة الانجليزية ، واثبات للحجر على كل وسيلة من وسائل الاعراب عن الرأى فى تلك الآونة ، لأن امضاء عريضة مطبوعة هو أقل مظهر معروف من مظاهر الاعراب عن رأى الأمة فى مصيرها ، كما جاء فى خطاب سعد إلى الوزارة .

فحول الوفد جهوده إلى الوسائل التى بقيت له بعد هذا الحجر المطبق على الأمة من كل ناحية ، وهى اشهار الاحتجاج فى مصر كلها سنحت فرصة القول والخطابة فى مجتمع من المجتمعات ، ومخاطبة الدول الأجنبية من طريق وكلائها أو من طريق الرسائل البرقية والبريدية الى رؤسائها وكبرائها ، وهى على ذلك ليست بالوسائل الميسورة إلا على قدر محدود فى المناسبات المتباعدة ، لاشتداد الرقابة على الصحف وعلى المراسلات والمجتمعات ، والحجر على الصحافة أن تنشر خبراً عن الوفد وحرركاته حتى الخبر بتأليفه أو الاشارة إلى اسمه وغرضه .

ففى أوائل ديسمبر أرسل الوفد احتجاجاً إلى رئيس الوزارة البريطانية ونداء إلى وكلاء الدول فى القاهرة يبلغهم فيه ما كان من عسف السلطة العسكرية ويحتج « لدى حضرات نواب الدول الصديقة التى يهملها أمر مصر على الخطة

التي صار اتخاذها معنا ، وعلى كل قرار بشأن مستقبل مصر بدون أخذ رأى
الامة المصرية فيه .

وفي الرابع عشر من ديسمبر وصل الرئيس ويلسون إلى باريس فأرسل
اليه سعد احتجاجاً على منع مصر من إسماع صوتها والافضاء بمطالبها في مؤتمر
الصلح يقول فيه : —

« نعم ان السلطات البريطانية طلبت الينا أن نبدي اقترحات حكومية
عن ادارة مصر بشرط أن لا تخرج عن دائرة الحماية التي رتبها ، وانها بذلك
تطلب منا المحال . لأن مصر لم تقبل مطلقاً هذه الحماية التي ليست الاعمال
من الأعمال الحربية ، والتي مع كونها مناقضة لآمالنا في الاستقلال فهي
مناقضة أيضاً للحقوق التي كسبناها من تركيا من زمان بعيد . فان هذه الحرب
أبعد ما تكون من أن تضيق دائرة تلك الحقوق . بل على ضد ذلك توسع
فيها إلى حد الاستقلال تطبيقاً للبادئ الجديدة التي تقضى باحترام الجنسيات »
وأرسل اليه برقية ثانية عند وصوله إلى لندن في أواخر ديسمبر ، ثم
أرسل اليه برقية أخرى يذكر فيها البرقيتين السابقتين . . . فلم يتلق جواباً
على واحدة منها !

وفي العاشر من يناير أذاع نداء إلى الأوربيين يقفهم فيه على حقيقة
الحركة السلمية التي أخذ الانجليز يشوهونها ويصبغونها بصبغة العداوة الجنسية
فقال في بيان مقاصد تلك الحركة : « نبغى أن نستقل بشؤون بلادنا في شكل
حكومة دستورية حتى نصلح من حالنا الاجتماعية ما يفسده عادة حكم الأجنبي
عمداً ومن غير عمد ، وحتى نبلغ ما يؤهلنا اليه استعدادنا من درجات الكمال ،
نبغى أن نظل كاسبين ثقة الأجانب نسهل لهم وسائل ما يزاو لونه من الأعمال
التجارية والصناعية في بلادنا ونرعى ما لهم فيها من الامتيازات خير رعاية .
نبغى أن نبقى كما كنا في الماضي عارفين رسوخ قدمهم في المدنية الحديثة
مستعدين لأن نستقدم كبار الفنيين منهم بمن عسانا نحتاج اليهم للمساعدة في

الأعمال العامة . ولكن لا على أن يكون مناط الاختيار للاعتبارات الجنسية فقط كما هو حاصل الآن . بل الكفاءة حيثما وجدت بصرف النظر عن كل اعتبار آخر »

وختم النداء بقوله : « فباسم الوفد المصرى أعلن إلى كل أجنبي في مصر من ذوى المصالح أن هذا الوفد يقرن بسعيه للاستقلال احترام المصريين لحقوق الأجنبي كل الاحترام . كما أنى انتهز هذه الفرصة لاشهد كل رجل حر على المعاملات المنافية للحرية التى عومل بها الوفد المكلف باسماع مؤتمر الصلح صوت مصر وعرض مطالب أهلها ، ولأعلن أن كل حكم فى مستقبل المصريين من غير أن تسمع أقوالهم مناقض لقواعد الحق والعدل التى جعلت أساساً لأحكام مؤتمر السلام »

وفى اليوم التالى أرسل إلى كليمنصو رئيس مؤتمر السلام رسالة برقية يقول فيها : « مهما يكن من الاتفاق المزعوم حصوله على المسألة المصرية فان الحكم فى مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا مناقض لما اتفق عليه جميع الحلفاء » ثم يقول « . . . باسم الانسانية التى تأبى أن تنكره الامم على أن تنتقل من يد الى يد أخرى كما تنتقل ملكية السلع تناديك من وراء البحر ان لا تتخذ سكوتنا الا كراهى الذى هو النتيجة الطبيعية لخبسنا فى حدود بلادنا دليلاً على رضانا بسيادة الغير علينا وأن لا تسمح بالحكم فى مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا »

واتفق فى هذه الأثناء مرور الوفد السورى بمصر ذاهباً إلى فرنسا لتمثيل بعض اليالاد السورية فى المؤتمر فكتب سعد إلى السير ريجنالد ونجت يحدد احتجاجه لهذه المناسبة ، وكتب الى المستر لويد جورج فى هذا المعنى قائلاً : « لاتزال الحال كما كانت حتى ان الأمة المصرية بأسرها من أكبر وزير إلى أصغر فلاح محبوسون داخل بلادهم لايسمح لأحد بالخروج من هذا الحصار

الشديد» ثم أعقب ذلك بقوله : « انتفعتم في هذه الحرب برجالها وأموالها — أي مصر — وصرحتم في مواطن شتى بأن ذلك كان من أكبر العوامل في احراز النصر في الشرق ، فبينما مصر المساعدة تنتظر أن تعامل بما يتفق مع حالها إذا هي تراكم غداة الهدنة قد قلبتم لها ظهر المجن ، وحبستم أهلها بين حدودها على الذل والهوان . بل هبوا هذه الأمة لا متمدنة ولا مساعدة فهلا عاملتموها بما اتفقتم عليه مع الدكتور ولسن ؟ ... مسموح — على المبادئ القديمة — لرجل السياسة أن يكون استعمارياً . غير أنه لا يسلم أحد الى اليوم أن حب الاستعمار أجاز لدولة حصر أمة ليس بينها وبينها حرب ، وإذا كان حب الاستعمار لا يبيح للمستعمرين والمحافظين مثل هذا التصرف فكيف بالأحرار »

ولم يزل الوفد يوالى احتجاجه عند رجال الدول كلما وصل وفد من وفودها الى المؤتمر ، ويكتب حيناً الى رئيس مجلس النواب في إنجلترا وحيناً الى ذوى الشأن هنا وهناك ، ولا يعلم مصير هذه الرسائل ولم يخف على الوفد نصيب الأمم الضعيفة عند الساسة والوزراء الممثلين لحكوماتهم في مؤتمر الصلح . ولكنه اعتقد أن هذه النداءات كائنا ما كان مصيرها لها فضل محقق على الأقل وهو نفي الشبهة التي يسجلها على مصر السكوت في تلك الآونة ، وعساها لا تذهب عبثاً بين الدول المتنافسات على حل المشكلات وتوزيع المطامع . فان الانجليز لن يقدرروا على التحكم في مشكلات الدول الأخرى باسم العدل والحرية وعندهم هذه المشكلة المصرية قائمة يصل إلى أسماع الوزارة والساسة خبر عنها ما بين آونة وأخرى . فلا بد لهم عاجلاً أو آجلاً أن يصغوا لها ويبالوا بها ، وقد يكون ذلك أسهل عليهم من مساومة الدول عليها وإعادة المساومة كلما تجدد خلاف بينهم وبين الدول أو بينهم وبين الأمة المصرية

ثم عمد الوفد إلى الاجتماعات كلها تهيأ له سبيلها ، ففي الثالث عشر من شهر يناير أقام حمد الباسل باشا « حفلة شاي » في بيته حضرها من استطاع حضورها من أعضاء الوفد والوجوه والفضلاء . فألقى فيها سـعد خطابه الأول في أول اجتماع وطني أقيم بعد الحرب العظمى ، وبدأه بشكر صاحب البيت والحاضرين ثم استطرد إلى انكار الاحتلال وانكار الحماية التي « هي أيضاً أمر باطل بطلاناً أصلياً أمام القانون الدولي ، ومخالف مخالفة صريحة للمبادئ الجديدة التي خرجت بها الإنسانية من هذه الحرب الهائلة . فنحن أمام القانون الإنساني أحرار من كل حكم أجنبي ، فلا ينقصنا إلا أن نعترف مؤتمر السلام بهذا الاستقلال . »

ثم قال عن هذه المبادئ الجديدة : « من الناس من يرون هذا المذهب السياسي الجديد أجمل من أن يتبع في هذه الحياة الدنيا : حياة المزاحمة على البقاء والمغالبة على المنافع نعم مذهب جميل ، ولكن تطبيقه ممكن متى جد الدكتورولسن في تطبيقه بحزمه المعروف ، وأنه لجاد . بل ارتقى إلى أن أقول إن تطبيقه سهل متى صححت نيات أكثرية الدول التي أقرته بالاجماع . ذلك لأن هذا المذهب غير مخالف لما ألف الإنسان من الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الأخلاقية ، ثم هو متفق مع الأفق الذي وصلت إليه الإنسانية في تطورها الجديد . ألا ترون أن مبادئ الديمقراطية التي أوجدت هذا المذهب تنتشر على جميع صورها الممكنة في أرجاء البلاد المتقدمة بقوة هائلة وبسرعة لم يعهد لها نظير في تاريخ المبادئ الإنسانية »

ثم قال : « إن إيماننا بقواعد الحق والعدل هو عدتنا . وكفى بها عدة ، وإن اجماع أمتنا على الاستقلال حجة قائمة ، ولا ينقصنا إلا أن يسمع مؤتمر السلام صوت الأمة ، ولكن سيصله ولو من بعيد : يصله فينصت إليه على رغم ما يقال من أن مؤتمر السلام الذي يعقد اليوم أشبه ما يكون بما سبقه من المؤتمرات »

« هذا هو النحو الذي ننحوه في قضيتنا وأما خطة مصر المستقلة فهي :
أولاً — تريد مصر أن تكون حكومتها دستورية ، وان تراعى في
تفاصيل النظام حالة البلد الخصوصية من جهة ما للأجانب فيها من المصالح ،
وان تقوم بعمل إصلاحات اقتصادية وادارية واجتماعية تستعين على تحقيقها
بذوى العلم من أهل البلاد الغربية . كما كانت تلك عاداتها فيما مضى
ثانياً — تعلن مصر أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة ،
وإذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو الى تحويل اليق بمقتضيات الأحوال
فانها تعرض ما يعن لها من وجوه التعديل التي من شأنها المساعدة على تقدم
البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها ، وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة
الصدر غاية في الاخلاص والمجاملة

ثالثاً — تتعهد مصر بالبحث في وضع طريقة للرقابة المالية لا تقل في
أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعاً قبل اتفاق سنة
١٩٠٤ ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومي »

رابعاً — تكون مصر مستعدة لقبول كل ماتراه الدول من الاحتياطات
مفيداً للحفاظة على حياد قناة السويس

خامساً — تعتبر مصر نفسها حائزة لأكبر شرف لو وضع استقلالها تحت
ضمان جمعية الأمم ، وأن تشترك - بهذه المثابة - بقدر ما لديها من الوسائل
في تحقيق مبادئ العدل والحق على النمط الحديث

وأن من الفضيلة أن نقرر بأن كل مانقوله عن مصر ينسحب على
السودان لأن مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة ، بل هو كما قال المستشار
المالى في تقريره سنة ١٩١٤ ألزم لمصر من الاسكندرية .

ثم اقترح في ختام الخطبة إرسال نداء من الأمة إلى الرئيس ولسن تعرض
فيه « قضية مصر التي يتسلط عليها الأجنبي تسلطاً يآباه أهلها أجمعون » فوافق
الحاضرون بالاجماع

ثم دعا سعد مئات من وجوه البلاد الى اجتماع يشهدونه في داره أصيل
اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير ، فعلمت القيادة العسكرية بهذه الدعوة
ومنعتها ، وأبلغ سعد أمر هذا المنع إلى رئيس الحكومة البريطانية وجدد
الاحتجاج إلى رئيس المؤتمر وبعض رؤساء الوفود الدولية فيه

وبينما كانت القيادة العسكرية تمنع كل اجتماع وطنى يتصل بها خبره كان
مستر بر سيفال القاضى الانجليزى يوالى محاضراته فى نادى « جماعة الاقتصاد
والاحصاء والتشريع » ليهد الأذهان لابدال القوانين الانجليزية بالقوانين
المصرية وتخليد الحماية على مصر بأحكام الدستور والشريعة ، ويشهر بالجمعية
التشريعية وقلة صلاحها للتشريع أو لبحث القوانين ... وكان السابع من شهر
فبراير موعد محاضراته الثانية ، فأراد سعد أن يستعير من دعاية الحماية دعاية
للاستقلال ! واغتم فرصة اجتماع السامعين من أعضاء تلك الجماعة ومدعوها —
وهم نخبة من علية المصريين والأجانب — فذهب إلى نادىها وابتدرا المنبر بعد
فراغ المستر بر سيفال من محاضراته قائلا : « إن أمتنا المصرية ليست من قبيل
الأقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة . وأيما بلد كبلدنا له حياة
عريقة فى القوانين والشرائع فمن الخطر أن يعتمد إلى تغيير كلى فى شرعه
دون أن تدعو الضرورة لذلك أو تهدى إليه التجربة والاختبار » .

ثم قال : « وقد أشار حضرة المحاضر إلى أنه تحول على الجمعية التشريعية
مشروع يتضمن تعديلا فى نصوص القانون الخاصة بالضربات والجروح ولم
تفعل فيه شيئا . نعم ان هذا المشروع تحول على لجنة الحقانية التى أنا رئيسها
فأرت أنه يلزمها للاقتناع بضرورة التعديلات المعروفة ببيانات واحصاءات
طلبت من وزارة الحقانية تقديمها إليها وكررت هذا الطلب عدة مرات حتى
اتهى دور انعقاد الجمعية ولم ترد هذه البيانات

« رأيت من واجبي أن أبدى لحضراتكم ما قدمت من الملاحظات .
ولكن هناك أمر آخر هو أهم ما يجب التنبيه إليه . فقد تكلم حضرة المحاضر

عن الباب الثاني من الكتاب الثاني في المشروع وفي هذا الباب ما يتعلق بحالة سياسية لا وجود لها الآن .

إلى ان قال : « أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية . فهي حماية باطلة لا وجود لها قانوناً . بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » .

ولقد فوجيء الحاضرون بهذه الخطبة التي جاءتهم في غير مكانها وفي غير أوانها لأنهم حضروا ليستمعوا إلى خطبة في تسجيل الحماية لا إلى خطبة في انكار الحماية واطلاقها ! فخرج بعض الموظفين الانجليز إلى النور يريد أن يطفئه لفض الاجتماع ، ومنعه آخرون لأنه عمل لا يليق في جمع كذلك الجمع ، وغادر أفراد مكان الاجتماع وبقي الآكثرون متشوفين لما عسى أن يكون بعد هذه الصيحة الجريئة .

ترى ماذا يصنعون بالرجل الذي قام بين أساطين الاحتلال لينكر نظام الحكم في وجهه ممثليه ؟ ماذا يصنعون به والبلاد لاتزال في قبضة القيادة العسكرية ؟ والقيادة العسكرية تملؤها خيلاء النصر والثقة العمياء بتوطيد آثاره ؟ أيعتقلونه ؟؟ أيتروكونه ؟ أمست الدوائر العليا وهذا التساؤل حديثها ، وتسائرت الروايات في أنحاء القطر باخبار الخطبة ، فكان الناس يتناسخون ما يصل اليهم منها ، ويضمونه الى ماتلقفوه من الخطب والنداءات قبلها . ويزدادون حرصاً على اقتنائه كلما ازداد الحرص على منعه . وقد كانوا يستهلون هذه الصيحات في وجه الحماية على قدر ما كان يهولهم من طغيان القوة العسكرية وسهولة النفي والحجر والاعتقال والتعرض للبتاعب والأخطار لأيسر شبهة

إلى هنا أصبح بادياً لرجال دار الحماية ورجال القيادة العليا أن الحالة مع الوفد قد وصلت الى درجة من الحرج تنذر بالتعب والمضايقة وتضطرهم إلى علاج أنجع من علاج الحصر والاعضاء ، وان الاضطدام بينهم وبين الوفد آت لا ريب فيه ، وان سعداً لا ينوى أن يقصر جهده على الرسائل البرقية التي لا يجاب عليها ، والاجتماعات العامة التي يصدر الأمر بمنعها ، ولكنه ينوى أن يتابع خطاه وأن يقتحم الأبواب كلها أغلق في وجهه باب ، وأن يهجم حيث ينتظرون وحيث لا ينتظرون اذا كان لا بد من الهجوم ، فلا مناص لهم من تركه يمضى الى حيث يعلمون انه ماض لا محالة ، أو من معاجلته بأسلوب في الردع والمحاصرة غير الأسلوب الذي قنعوا به الى تلك اللحظة .

ولو كان هذا كل ما هنالك من الحرج لكان كافياً لمعاودة النظر في أساليب الردع والمحاصرة . ولكنه قد وصل من جانب آخر إلى حده الأقصى في دواوين الحكومة ، فاستقالت الوزارة الرشدية وأصرت على الاستقالة ، وتعذر اقناع أحد من الساسة والمستوزرين بقبول الوزارة قبل السماح لنواب المصريين بالسفر الى مؤتمر السلام ، وتعطلت الأعمال الرسمية في العاصمة والجهات ، واعتبرت القيادة العسكرية أن الوفد المصرى هو المسئول عن الأزمة من البداية إلى النهاية

ونعود قليلاً إلى ما بعد الهدنة لتتعب أطوار هذه الأزمة الوزارية ونستعرض أسبابها التي دفعت حسين رشدى باشا الى الاستقالة ، ثم الاصرار عليها ، ثم الى بقاء هذه الاستقالة معلقة بين الرضى والقبول ، وبقاء البلاد بغير رئيس وزارة أكثر من أربعة أشهر . إلى أن عاد حسين رشدى باشا نفسه إلى رئاسة الوزارة فى التاسع من شهر ابريل

فبعد زيارة سعد وصاحبيه لدار الحماية ظن رشدى باشا أن الحكومة البريطانية لا ترضى عليه بالسفر كما ضنت به على الوفد المصرى ، ولا تأبى منه المحادثة فى تنظيم الحماية كما أبت من سعد المحادثة فى الاستقلال ، فرفع ملتسمه

إلى صاحب العظمة السلطان مستأذناً في السفر مقترحاً أن يعهد عظمته إليه
والى زميله عدلى باشا بهذه المهمة ، منيباً عنه اسماعيل سرى باشا فى الرأسة
وعبدالخالق ثروت باشا فى الداخلىة ، وأحمد زيور باشا عن عدلى باشا فى
وزارة المعارف .

ولكنه حين أبلغ طلبه هذا الى الحكومة البريطانية جاءه الرد بما فحواه
انها غير مستعدة للقائه . لا اشتغال الوزراء بمؤتمر الصلح وغيابهم عن العاصمة
وانه لا ينتظر أن تفرغ الحكومة للبحث فى شؤون مصر الداخلىة إلا بعد وقت
« متأخر جداً » !

فلم يسعه أمام هذه الصدمة إلا أن يستقيل ، ورفع استقالته هو وزميله
عدلى باشا فى الثالث من ديسمبر . فلم يقبل عظمة السلطان الاستقالة ، ووجد
السير ريجنال ونجت سعيه فى طلب الاذن من حكومته بسفر الوزيرين فأصرت
على رفضها ، ثم توالى رفض الاذن للوفد المصرى بالسفر إلى لندن أو مؤتمر
الصلح بعد أن شايعته الوزارة فى طلب سفره ، فعاد رشدى باشا فى الثالث
والعشرين من ديسمبر إلى تأييد استقالته الأولى ، وقال فى خطابه الثانى إلى
عظمة السلطان « . . . طلبت وفود مؤلفة من بعض أنظمتنا النيابية السفر إلى
لندرة للدفاع عن قضية مصر . وقد أشرت بأن يؤذن لها بالسفر فلم تهمل
مشورتي فقط بل رفض سماع آرائى فيما يحتمل أن يكون عليه نظام الحماية .
وهكذا ستكون مصر البلد الوحيد الذى لم يسمع صوته فى الوقت الذى يسوى
فى مصيره نهائياً »

لم يقبل عظمة السلطان هذه الاستقالة الثانية أيضاً ، ولبث الوزراء فى
دواوينهم ما عدا الوزيرين المستقيلين . ثم أكد رشدى باشا استقالته مرة
ثالثة فى الثلاثين من ديسمبر ، فجاء الاذن عندئذ بسفر الوزيرين مع الاصرار
على رفض سفر الوفد أو بعض رجاله . فحار رشدى باشا فيما يصنع : إن سافر
إلى لندن لتنظيم الحماية والوفد باق فى مصر يطلب الاستقلال ولا يقنع بما

دونه فليس لمسهاه عند الحكومة البريطانية مصير غير الفشل المحتوم ، وإن غير طلبه الأول وارتقى إلى طلب الاستقلال بعد تصريحاته الحديثة والقديمة بحمد الحماية والقنوع بتنظيمها فليس له أمل في النجاح ، قتشبت بسفر الوفد معه ، واتخذ من رفض سفره ذريعة إلى التنحي والاعتزال . فتنحى ومعه جميع الوزراء ، ونشرت الوقائع المصرية في أول مارس الارادة السلطانية التي صدرت بقبول الاستقالة .

ماذا بقي بعد قبول الوزارة إلا أن تتألف وزارة جديدة ؟ وإذا تألفت وزارة جديدة الا يكون مجرد قيامها دليلا على انها تأتي سفر الوفد ولا تأتي أن تطوى قضية الاستقلال ؟ لا بد إذن من احباط الوزارة المنظورة أو من قارعة تنوب عن سفر الوفد في اظهار شعور الأمة . ذلك كان رأى سعد الذى استقر عليه واضطلع به واسرع بالمضى فيه .

فبدأ بأبلاغ معتمدى الدول واحتجاجه على الحالة كلها والقاء التبعة على الانجليز المسؤولين عن أسبابها ، وطلب الاذن بلقاء صاحب العظمة السلطان فى الثالث من شهر مارس . . . وقد كتب هو وزملاؤه عرضة إلى عظمتهم لخصوا فيها موقف الوزارة الرشدية ثم قالوا :

« ولقد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين — لاعتبارات عائلية — أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذى خلا بانتقال أخيك المغفور له السلطان حسين إلى رحمة الله . ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش فى زمن الحماية الوقتية الباطلة ؛ رعاية لتلك الظروف العائلية ، ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم . غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرنا احترامهما لارادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب الخير لبلادكم والاعتداد بمشيئة شعبكم ، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا إلى أن الأمة فى هذا الظرف العصيب إنما تطلب منكم — يا أرشداً أبناء محررها الكبير محمد على — أن تكونوا

العون الأول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك ، فان همتكم أرفع من أن تحدها الظروف . كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يخلفه فى مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟

« عفواً يامولانا . قد تكون مداخلتنا فى هذا الأمر ، وفى غير هذا الظرف ، غير لاثقة . ولكن الأمر قد جل الآن على أن يراعى فيه أى اعتبار غير منفعة الوطن الذى أتت خادمه الأمين

» ان لمولانا أكبر مقام فى البلاد . فعليه أكبر مسئولية عنها ، وفيه أكبر رجاء لها ، واننا لا نكذبه النصيحة اذا تضرعت اليه أن يتعرف رأى أمته قبل أن يتخذ قراراً نهائياً فى أمر الأزمات الحالية . فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحد من رعاياه من ألقى البلاد إلى أقصاها إلا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبها مسئولية لم يتحرر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة

» لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التى هى أشد ماتكون رجاء فى استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعمار ، والتى تطلب اليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف فى صفها فتنال بذلك غرضها ، وانه على ذلك قدير

« واننا نتشرف بأن نرفع عبارات الاخلاص إلى مقام عظمتكم الكريم »

بهذا الرجاء الصارخ توجه سعد وأصحابه إلى ولى الأمر ليحول دون تأليف وزارة جديدة بعد استقالة الوزارة الرشدية ، وقيل انه رفع الى السلطان يعلم رشدي باشا وموافقته ، بل قيل إن رشدي باشا هو أول من أدلى بالرأى فى وجوب كتابته ، ولا خلاف على كلتا الحالتين فى أن سعدا هو المضطلع بالتبعية الأولى فى كتابته وتقديمه

ان الذين يكتبون ذلك الخطاب لم يكتبوه إلا وهم واثقون كل الثقة
انهم غير متروكين الا ريثما تتم التمهيدات العاجلة لاعتقالهم أو محاکمتهم في
وقت قريب . لان القيادة العسكرية لا تريد أن يجيب عظمة السلطان هذا
الطلب . فلا مندوحة لها إذن عن اعتقال الطالبين أو اعتقال ذوى النفوذ منهم
وكفهم عن مواصلة العمل لاجباط قيام الوزارات ، وهذه هي « القارعة »
التي كان يتمناها سعد لا بلاغ صوت مصر إلى إسماع العالم كله . مادام الانجليز
قد يبتوا أمرهم على خنق هذا الصوت وراء السدود والاعلاق

ولقد هالت هذه الخطوة الجريئة رجال دار الحماية كما انتظر سعد
وأصحابه ، فأبرق السير لمن شديتهم إلى حكومته يشرح لها الحالة ويقترح نفي
سعد الى جزيرة مالطة ، فجاءه الرد السريع بالقبول

وقد كان الانجليز يفضلون أن يعتقلوا سعدا أو يحاكموه بحجة أخرى
غير حجة التمرد على الأحكام العسكرية واجباط تأليف الوزارة . فطلبوا من
صاحب العظمة السلطان أن يصرح بعصيان سعد وأصحابه وخروجهم على
واجب الولاة لعرشه ، ثم تجرى المحاكمة بعد هذا التصريح بهذه الحجة
فيقال في انحاء العالم إن الانجليز يحاكمون أناسا خارجين على عرش بلادهم ، ولا
يقال انهم يحاكمونهم لأنهم ينشدون حقوقهم ويستأذنون في السفر إلى حيث
تسافر وفود العالم أجمع ! وحاولوا الحصول على هذا التصريح يومين فلم
يفلحوا . لان السلطان نظر في العواقب فرفض ما طلبوا ، فعمد الانجليز
إلى الوسيلة الأخرى التي تذرعوها بها إلى اعتقال سعد ونفيه ، وهي انذاره
وهم يعلمون أنه لن يخضع للانذار ! فان خضع وكف عن الحركة والعمل
فذاك عندهم خير من تنفيذ ما أوعدوه

لا أجزم بصحة الراوية التي رويت لي عن طلب التصريح المشار اليه من
السلطان ورفضه محاكمة الوفد أو اعتقاله بحجة العصيان والخروج على عرشه
فاننى لم أسمع هذه الرواية قط من سعد أو من أحد في حياته ، وإنما سمعتها بعد

موته من بعض أصدقائنا الكبار الذين لا أعهد فيهم الجزاف في القول ،
فرجحتها لمصدرها الوثيق ولا اعتقادي أنها تشبه المعروف من أخلاق الانجليز
ومن أخلاق السلطان فؤاد في وقت واحد . فمن عادة الانجليز أن يحاكموا
طلاب الحرية باسم الخروج على أولياء البلاد الشرعيين لا باسم الخروج على
مطامع السياسة الانجليزية ، فلا عجب أن يفكروا في اتهام سعد وأصحابه
بعضيان السلطان والخروج على عرش البلاد ، بدلا من اعتقالهم في تلك
الأيام لانهم يجهرون بحقوق الأمة المصرية التي يقول الانجليز إنهم يرعونها
كما يرعون حقوق الأمم العزلاء .

أما السلطان فؤاد فمن أخص صفاته التي اشتهر بها بعد النظر وحسن
الموازنة بين الأمور . فلا جرم يرفض اقتراح القيادة البريطانية لان الرفض
مأمون العواقب موافق لما تقدم من سياسة السلطان فؤاد أما قبول
الاقتراح فلا أمان فيه

فغاية ما في رفض الاقتراح أنه يغضب القيادة البريطانية ، وماذا تصنع
القيادة البريطانية إذا غضبت في ذلك الموقف المشتبك الدقيق ؟ أتخلع سلطانا
وتسقط وزارة وتعتقل نواب شعب وتقهّر شعباً كاملاً لانهم جميعا متفقون
على المطالبة بحق تقرير المصير ؟

ذلك بعيد . . . ورفض الاقتراح إذن هو الرأي الذي تشير به الحكمة وحسن
الموازنة بين عواقب الأمور ، وأقل ما في تلك العواقب أن لا يحفظ
في سجلات العرش انه أعلن عصيان أناس لانهم يطلبون للبلد الاستقلال
على أن السياسة التي سبقت من السلطان فؤاد قبل رفض الاقتراح
المعروض عليه هي سياسة تشجيع الوفد على السفر لا سياسة الوقوف في
طريقه ، لان العرش هو صاحب النصيب الا وفي فيما يسعى اليه الوفد من
طلب الاستقلال ، أيا كان ميل السلطان الشخصي إلى سعد وأصحابه . وقد ظن
سعد أن رشدي وعدلي لم يكونا مبتكرين لما عرضاه عليه من التفكير في

فتح باب القضية المصرية عند اعلان الهدنة وعرض المسائل القومية على مؤتمر الصلح ، وكأنه يشير تليحاً إلى سر هذه الفكرة ويحسبها من إيجاء السلطان فؤاد . . . ثم جاءت استقالة رشدى باشا مر حجة لهذا الحسبان لأنها أعلنت أن التماسه السفر هو وعدلى باشا إنما كان باتفاق مع السلطان ، ثم جاء رفض السلطان الاستقالة مرتين زيادة فى الترجيح والدلالة ، وأكثر من ذلك فى الدلالة على الاتفاق بينه وبين رشدى باشا انه عكف على قصر البستان طوال المدة التى قضتها الوزارة الرشدية وهى مستقيلة ، فلم يحضر قط خلال هذه المدة الى قصر عابدين

نعم ان السلطان فؤادا قبل استقالة رشدى باشا أخيراً واستعد على ما يظهر لتأليف وزارة جديدة ، ولكنه قبلها بعد ورود الاذن من الحكومة البريطانية إلى رشدى باشا وعدلى باشا بالسفر الى العاصمة الانجليزية ، ومن السهل على السلطان أن يظهر امام القيادة البريطانية بتأييد وزارته الرسمية فيما طلبت من التحدث فى حدود نظام الحكومة . ولكن ليس من السهل عليه أن يظهر أمامها بالاعاز إلى هيئة « غير رسمية » بمحاربة تلك القيادة ، أو يظهر التضامن معها فيما تعده الدولة البريطانية خروجاً على النظام

لهذا جميعه رجحنا صحة الرواية التى رويت لنا عن رفض تصريح العصيان ، وكيفما كانت الحقيقة فى تلك الرواية فالثابت أن الانجليز قد اضطروا الى مواجهة الوفد بحجة غير تلك الحجة ، وهى أفضل لديهم لو وجدوا السبيل اليها

ففى اليوم السادس من شهر مارس استدعى القائد العام الجنرال واطسون سعداً وتسعة من أصحابه إلى مركز القيادة العامة بفندق سفواى ، وفى الساعة الثالثة بعد الظهر خرج لهم من مكتبه ، وفى يده ورقة مكتوبة قرأ عليهم منها انذاراً باللغة الانجليزية يحذرهم فيه من وضع مسألة الحماية موضع المناقشة و « إقامة العقبات فى سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعى فى منع

تشكيل وزارة جديدة » ويهددهم — إن أقدموا على مخالفة ذلك — « بالمعاملة
الشديدة بموجب الأحكام العرفية » ... ثم تليت عليهم ترجمة هذا الانذار
بالفرنسية ، وأسرع القائد فقال : لا مناقشة ! وعاد من حيث أتى .

اجراء شكلى أو صيغة تنفيذية لا أكثر ولا أقل . فهما يكن من غرور
العسكريين بقدرتهم على الارهاب والتخويف فلا نحسبهم كانوا يعتقدون جدا
ان المسألة كلها تتوقف على انذار صارم ثم يختم الوفد اعماله ويفض جلساته
ويحجم عن معارضة الحماية وطلب الاستقلال .

فالوفد الذى كتب ذلك الخطاب وصدم به القيادة العسكرية تلك الصدمة
لم يكتبه ليخشى التهديد ويرتعد فرقا من تقطيب القائد العام وصرامته فى القاء
النذير وقطع المناقشة ... ولكنه كتبه وهو يتحدى التهديد ويخرج للقائه
قبل أن يأتى اليه ...

وليس من المعقول ولا من المنتظر أن يقنع الوفد بشىء بعد تلك الخطوة
الجرئة غير اجابة مطلبه البديهي العادل وهو السفر إلى حيث يشاء ، فاما
الانذار على تلك الصورة فليس من الجد فى شىء ، وانما هودور من أدوار
التمثيل أو صيغة تنفيذية لا يراد بها إلا شكلها المحفوظ كما أسلفنا

فى اللحظة التى فرغ فيها القائد العام من تهديده ، طلب سعد نسخة من
الانذار للرد عليه . ولم تنقض إلا ساعات قلائل — وهى المدة الكافية
لكتابته الرد وترجمته — حتى كان جوابه على الانذار عند رئيس الوزارة
البريطانية ، يبلغه فيه ان الوفد يطلب الاستقلال التام ويرى الحماية غير
مشروعة ، ولا يتأخر عن أداء واجبه مهما كلفه ذلك ، ويلقى التبعة فى بقاء
البلاد بلا وزارة « على الذين وضعوا من هم أهل للوزارة فى مركز حرج
أمام ضمائرهم وأمام مواطنيهم »

ولبت يترقب ما تهده به القيادة العليا ... وما يتمناه !

القارعة

لا بد لنا من قارعة !

تلك هي الكلمة التي كان يرددها سعد في الأسبوعين الأخيرين قبل نفيه ، لأنه كان يرى بحق أن السكوت يتبعه سكوت وان الحركة تتبعها حركة ، ولم يكن جازما بان الثورة آتية بعد القارعة التي كان يتصدى لها ويستبطن وقوعها ، لأن المعسكرات والقلاع والمطارات في مصر كانت تعج بالجيوش وتزدحم بالمدافع والدبابات والطائرات . والمصريون مجردون من كل سلاح حتى الهراوات والمدى وبنادق الصيد . والخطب ممنوعة والصحف مراقبة والذهاب والاياب بمرصد من الجواسيس والعيون . فاذا تعذرت الثورة على المصريين فغير عجيب أن تتعذر ، وغير لازم أن تثور أمة في هذه القيود ، وهي لا ترجو بالثورة العزلاء أن تغلب الغالبين المزودين بكل سلاح

لم يكن جازما بأن الثورة آتية ، ولكنه كان جازما بأنها اذا أتت فلن يكون مجيئها الا بقارعة تشعل نيران الغضب في الأمة الوادعة المتحفزة . وفي وسعه هو أن يتصدى للقارعة المرجوة المرهوبة فليتصد إذن لها ، وليعمل ما في وسعه . وعلى المقادير بقية التدبير

وعندنا أن سعداً لو كان جازما بالثورة جزماً لا تردد فيه لكانت بطولته دون هذه البطولة ونصيبه من الاقدام دون هذا النصيب ، لأنه يقدم ولا يخشى أن يطول الخطر الذي يقدم عليه ، ويجازف ويعلم أن غضب الثورة يحميه . فأما أن يقدم وهو لا يبالي أن يستهدف للنكال دون أن يتبعه أحد أو يقفو ضربته ضارب فتلك هي البطولة العليا ، لأنها بطولة الواجب ، وهي أعلى وأقوم من بطولة الحساب والتقدير .

ومضى يوم ولم تأت القارعة فاستبطأها ، وكان من عادته أن يخرج من مكتبه ليشتمشى في الطرقة لحظة ثم يعود إليه ، ففي مساء اليوم التالى لارساله البرقية إلى رئيس الوزارة البرقية لقي عضوا من أعضاء الوفد في تلك الطرقة فقال له : إن الجماعة لم يأتوا بعد . أترأهم لا يأتون ؟ ثم قال : هذا ليس بنافع . انهم أما أن يدعونا نساfer أو يقبضوا علينا ، وإلا فهم يتركوننا نموت في مواضعنا .

بيد أن هذا القلق لم يطل أكثر من يوم آخر . لأن « الجماعة » المنتظرين أتوا في مساء اليوم التالى أى في اليوم الثامن من شهر أغسطس . فجاء إلى بيت الأمة — عند الساعة الخامسة — ضابط بريطانى برتبة صاغ ومعه ضابط آخر برتبة الملازم ومترجم مصرى ، ووقف على جانبي الباب الخارجى جنديان بريطانيان يحمل كل منهما بندقية في طرفها حربة ، وكان طالب من طلاب المدارس العليا قد دخل إلى بيت الأمة قبيل مجيئهم مهرولا فأبلغ الأستاذ فؤاد القصبجى (١) الذى كان يعمل يومئذ في قلم السكتاب والمترجمين الملحق بالوفد المصرى أنه رأى ضابطا بريطانيا يستوقف محمد محمود باشا في طريقه إلى بيت الأمة ويركبه سيارة من سيارات الجيش الانجليزى . فخرج الأستاذ فؤاد ليخبر سعد بما أبلغه الطالب ، واذابه أمام الضابط البريطانى على باب الحجرة ، فارتد هذا وبادره قائلا بالانجليزية : « انى أريد مقابلة سعد زغول باشا فأين هو ! » فأجابه الأستاذ فؤاد بالفرنسية : « تفضل فانتظر في حجرة الاستقبال ريثما أخبر الباشا » وأشار إلى حجرة الاستقبال . فلم يفهم الضابط قوله وظن أن الباشا في الحجرة التى أشار إليها ، وعاد يقول : هل سعد باشا هنا في الحجرة ؟ فقال الأستاذ فؤاد : لا . وإنما أنا ذاهب لا بلاغه . فنظر إليه الضابط نظرة فاحصة وقال له : بل أنا أريد أن أراه بغير وساطتك ، فاعتذر الأستاذ وهتف به في شىء من الاستغراب : أن العرف هنا لا يبيح الزائر أن يقدم نفسه بنفسه ! أما ... قال الضابط متهكما : « في هذه الزيارة لا بأس من المقابلة والتقديم في

(١) اعتمدنا على رواية الأستاذ فؤاد في تفصيلات ما حدث بيت الأمة في حضوره .

وقت واحد! » والتفت إلى الأستاذ فؤاد فرآه واضعا يده اليمنى في جيبه
نخيل إليه أنه يخرج منه سلاحا فناداه في لهجة عسكرية : « ارفع يديك » .
وأسرع الضابط الثاني إلى مسدسه يستعد لتجريد

وكان سعد في مكتبه قد شعر بما يجري على حجرة الاستقبال فخرج إلى
باب المكتب ، ولمحه الأستاذ فؤاد والضابط هناك في وقت واحد . فقال
الأستاذ للضابط : هاهو سعد باشا . فتركه الضابط واتجه إلى الباشا وهو يحييه
التحية العسكرية .

نظر الباشا إلى الضابط مليا ثم دعاه إلى المكتب ، فرفع قبعته ودخل معه ،
ثم خرجا والباشا يتقدمه في ثباته المعهود إلى درج السلم حيث وقف وقال له
بالفرنسية : « لست أذهب معك على قدمي . سأرسل في احضار مركبة »
فلم يفهم الضابط قصد الباشا وردد قوله : « لدى أمر بالقبض على سعادتك »
قال الباشا وهو يتسم : « فهمت ذلك جيدا . ولكنني أريد احضار مركبة »
ففهم الضابط عند ذلك بشيء من العناء ، وأشار إلى حيث تقف السيارة
العسكرية بالانتظار . وكانت آخر كلمة قالها سعد قبل مغادرته بيت الأمة
« تشجعوا » ... قالها بالفرنسية وكررها مرات

ولما هم بالنزول التفت الضابط إلى الواقفين الذين تجمعوا في هذه الفترة
وسأل أين اسماعيل صدقي باشا؟ وكان صدقي باشا مع الواقفين فقال : أنا
هو؟ فقال الضابط : تفضل بالمجيء معي ! فاجابه « حسنا . ولكن تسمح
لي بالرجوع لحظة إلى المكتب » فوضع الضابط يده على كتفه وقال :
« لا . اني أخشى أن تذهب ! » قال صدقي باشا : لو كنت أريدها لهرب لما
أظهرت لك نفسي » ثم أفلت من يده ومضى إلى المكتب . فانتظره الضابط
إلى أن عاد ... ثم سأل : أين منزل حمد الباسل باشا؟ فلم يجبه أحد ، وبعد
هنية أشار أحد الواقفين إلى المنزل ودل الضابط عليه .

ولم يذكر لي الأستاذ فؤاد قصبجي فيم كانت عودة صدقي باشا إلى المكتب

تلك اللحظة ، ولكنى علمت بعد ذلك أنه عاد اليه ليقصى بعض الأوراق الهامة مخافة أن تأخذها القيادة العسكرية أثناء التفتيش

ولما هم الضابط بالانصراف تقدم اليه عبد العزيز فهمي بك والاضطراب باد عليه وقال بالفرنسية : « إذا أردتم مرة أخرى استدعاء أحد منا فيكفي أن تكتبوا اليه وهو يحضر اليكم » . . . واضطر إلى أن يكرر عبارته مرة أو مرتين لأن الضابط لم يفهما لأول مرة . فلما فهمها قال له « أشرك » ومضى

وبعد نحو ساعة حضر الى بيت الأمة حمد الباسل باشا ، وكان قد علم بما حدث فغاطب مركز القيادة العليا بندق سفواى سائلا : الى أين تريدونني أن آتيكم ؟ « فأحالوه إلى ثكنة قصر النيل ليسألها . . . وطلبت منه هذه الحضور على الأثر . فودع أصحابه وذهب الى الثكنة

وقد أدخل سعد وأصحابه في الثكنة كل واحد منهم الى حجرة منفردة حتى المساء . ثم سمح لهم بالاجتماع ساعة العشاء وقضوا الليلة في الثكنة يتساءلون عن مصيرهم ، وفي الصباح أبلغهم ضابط كبير أنهم قد سمح لهم باستحضار ثياب من منازلهم تكفيهم لمدة شهر ، وبخادم لكل منهم ، إذا شاء

وفي اليوم الثالث سئلوا : هل أتم على استعداد للمسير ؟ فأجابوا . على أتم استعداد . ونزلوا مع الحراس إلى فناء الثكنة فركبوا سيارتين تتبعهما سيارة بضاعة ، تحمل الأتباع والحقائب

وخرجت السيارات مسرعة إلى محطة العاصمة . فلما نزلوا منها أحاط بهم عشرون ضابطا انجليزيا ومعهم محمود صدقي باشا محافظ العاصمة ، وساروا بهم إلى الرصيف الذي يقف عليه قطار بور سعيد ، وأدخلوهم جميعا إلى ديوان واحد في القطار ، ومعهم واحد من الضباط

لم يكن سعد وأصحابه يعلمون الوجهة التي يتجهون إليها ، فكانوا عند

خروجهم من ثكنة قصر النيل يحسبون أنهم منقولون إلى معسكر المعادي ...
فلما اتجهت السيارة يسارا وبلغوا قطار بور سعيد ظنوا أنهم منقولون إلى
رفح أو إلى السويس ، ثم وصلوا إلى بور سعيد ووجدوا هناك ضابطا
بريطانيا بالانتظار . فأركبهم معه سيارة إلى الميناء ، وأصعدهم إلى نقالة بريطانية
تقل الفين من الجنود الانجليز في طريقهم إلى بلادهم ، وأخذ البحارة
في تدريبهم على وسائل النجاة عند الخطر ، لان السفن كانت تصطدم بالألغام
كثيراً في بحر الروم

علموا انهم منقولون إلى جزيرة مالطة حيث كانت القيادة العسكرية تأسر
المعتقلين من المصريين والترك والالمان ، ولكنهم لم يعلموا ذلك من ضباط
النقالة الا بعد الخروج من الميناء . فقبل لهم في عرض البحر إنهم ذاهبون إلى
تلك الجزيرة ، ووصلوا إليها بعد ثلاثة أيام .

تساءل الكثيرون : على أي قاعدة جرت الحكومة الانجليزية باختيارها
أصحاب سعد الثلاثة في هذا الاعتقال ؟ وتعليل ذلك على ما نرى ان القيادة
العسكرية لاحظت التقاليد الرسمية في اختيار كبراء الوفد الذين يعتقلون مع
رئيسه . فاسماعيل صدقي باشا وزير سابق ، ومحمد محمود باشا مدير سابق ،
وحماد الباسل باشا من غير الموظفين هو رئيس قبيلة بدوية كبيرة يعرفه
الانجليز من أيام الحرب الطرابلسية ، وجميعهم يحملون لقب الباشوية ،
فاختيارهم هو الاختيار الوحيد الصحيح من وجهة التقاليد الرسمية .

الثوره

سرى نبأ الاعتقال بطيئاً متناقضاً في اليوم الأول ، لأن القيادة العسكرية حضرت على الصحف نشره والتلميح اليه ، فعلم به أعضاء الوفد وأصدقاؤه وموظفوه في يومه ، وعلم به طلبة المدارس العليا في اليوم التالي لأنهم يجتمعون في أمكنة متقاربة وينتمى بعضهم إلى أعضاء الوفد وأصدقائه بصلة القرابة أو المعرفة ، وتسامعت به أحياء القاهرة شيئاً فشيئاً ، وانتقل منها إلى الأقاليم بمثل ذلك البطء والتناقض ، فلم يسر الى القطر كله إلا بعد يومين أو ثلاثة .

أضرب طلاب المدارس العليا في صباح اليوم العاشر من شهر مارس عن تلقى الدروس ، وخرجوا من مدارسهم في مظاهرة كبيرة طافت بدور المعتمدين السياسيين للاحتجاج على اعتقال الزعماء وعلى كبت شعور الأمة وحرمانها الحق في ابداء مشيئتها ، وهى تسمع كل يوم دعوة الأمم كافة إلى بيان حقها وتقرير مصيرها

وأضرب عمال الترام بعد الظهر ، ثم أضرب الحوذية في اليوم الحادى عشر ، وأصبحت الدكاكين مغلقة في معظم أنحاء المدينة إلا الدكاكين الأوربية ، وتجددت المظاهرات من طلاب المدارس وطلاب الأزهر وطوائف شتى من الجمهور ، فقابلها الجنود البريطانيون باطلاق المدافع الرشاشة غير مفرقين بين كبير وصغير ، ولا بين مشترك أو غير مشترك في المظاهرة

وكانت نقابة المحامين قد اعلنت الاضراب فانقطع المحامون عن المحاكم إلا من كان يوفدهم المجلس اليها لطلب تأجيل القضايا ، واستثارت القسوة في قمع المظاهرات غضب الناس وحنقهم فكثرت المظاهرات بدلا من أن تقل واضطربت وقدتها بدلا من أن تخمد . وطاش صواب الحراس العسكريين

من جراء هذه المفاجأة فأصبحوا لا يميزون بين جمع وجمع ولا يطبقون النظر إلى حشد من الناس ، ففي يوم الجمعة الرابع عشر من شهر مارس أطلقت السيارات المدرعة نيرانها على حشد كبير بجوار المسجد الحسيني فقتلت منهم بضعة عشر وجرحت خلقا كثيرين ، ولم يكونوا في مظاهرة ولا قصدوا إلى التظاهر ، ولكنهم كانوا خارجين من المسجد بعد أداء الصلاة ، وضابط الفرقة يجهل كل شيء إلا أنهم قوم متجمعون ، وعنده أمر صريح باطلاق النار على كل قوم متجمعين !

وتعددت المظاهرات في مدن القطر فقوبلت بمثل ما قوبلت به في القاهرة ، وشاع خبر القتل واطلاق الرصاص في أنحاء الأقاليم ، فانفجر كمين السخط الذي طال كظمه في الصدور ، وانفجرت الثورة في كل مكان

من الخطأ أن يقال إن المظاهرات كانت هي سبب الثورة الوحيد ، أو ان الثورة ما كانت لتنفجر في القطر لولا مظاهرات العاصمة ، فانما كانت المظاهرات كالشرر الأول يتطاير من فوهة بركان يغلي وهو يهيم بالانفجار ، فمن شهدت تلك الثورة الجارفة التي اندفعت في حينها اندفاعا يدل على عمق مكامنها وتأجيج وقودها أيقن أنها قوة لا تحبس طويلا ، وانها هي سبب المظاهرات وليست نتيجة المظاهرات

فقد صبر الناس زمنا على مظالم الحرب ومضانكها ، ثم انتظروا الفرج بعد الهدنة فاذا بهم يعالجون مرارة الخيبة ويوجسون من مخاوف المستقبل فوق ما أوجسوا من مخاوف السنوات الماضية ، وزاد في نكابتهم أنهم يعانون هذا الكظم كله في الوقت الذي تملو فيه دعوة الانصاف وتتجاوب فيه الاصداء بالظفر والرجاء ، وأنهم يطالبون أمرا يسيرا هو حق الشكوى والاحتجاج فيجابون بالتهديد والاقصاء عن البلاد ، ثم يستنكرون هذا العنت الغاشم فيعاقبون باطلاق الرصاص ، ولا يراد منهم إلا أن يخنقوا وهم صامتون فلما شاع خبر اطلاق الرصاص على المتظاهرين ، وشاعت أخبار الموتى

والمعتقلين من الطلاب والشبان العزل المسالمين ، طغى الغضب بعد أن طم
وظهر بعد أن عم ، وكان ظهوره على نمط واحد في جميع البلاد بغير تدبير
ولا سبق اتفاق ، فبدأ انقطاع السكك الحديدية ما بين طنطا وتلا في اليوم
الثالث عشر من الشهر ، ثم انقطعت في جهات كثيرة دفعة واحدة ، وتناول
التحطيم والتخريب أسلاك التلغراف وال تلفون وقضبان السكة الحديد حيثما
وصلت اليها أيدي الثائرين

ولم يخل هذا التحطيم من غرض تعمدته الثائرون بتدبير مقصود ، وهو
تعويق القطارات المسلحة والفرق الجواله عن الطواف بالمدن والقرى لجمع
السلاح وتفتيش المنازل وايداء الناس في أثناء ذلك التفتيش ، فقد أمعنت
السلطة العسكرية في جمع السلاح من بداية الحرب حتى جمعت المدى الكبيرة
والعصى الغليظة وكل ما يصلح للتسلح به في عراق أو مشاجرة ، ثم لمحت بوادر
الثورة بعد اعتقال الزعماء فعادت إلى حملة أخرى من حملات التفتيش ،
وأوجس الناس من عواقب هذه الحملة شرا ، فخطر لبعضهم أن يعوقوها
بقطع المواصلات .

إلا أن الباعث الأكبر إلى التحطيم والتخريب كان اندفاعا جامحا بغير
قصد مرسوم : اندفاع الساخط يحار فيما يصنع وهو ساخط . . . كأنما هو في
هذه الفورة الجارحة صريع مكهوم محبوس في بيت مغلق يريد أن تسمعه الدنيا
ولو بتدمير أثائه واحراق داره . فجاءت عوارض الثورة متفقة في كل مكان
لأن هذه العوارض هي كل ما يستطيع في تلك الحالة . ولو كان باعث التحطيم
العدوان على الملك والنفوس ولم يكن مجرد الاحتجاج وابلاغ الصوت إلى العالم
لاتجه الثائرون إلى نهب خزائن الحكومة وأموال الأغنياء والمصارف ، وهو
ما لم يحدث قط في بلد من البلدان

وظل الانجليز مضللين في فهم شعور هذه الأمة يفسرون أعمالها
بأسباب المصالح ولا ينظرون إلى بواعثها النفسية ، كأنما البواعث النفسية عامل

لا يحسب له حساب في حركات الجماهير . فظنوا أن أعمال التائرين لا تتفق هذا الاتفاق إلا بتدبير مصطنع ودسياسة أجنبية . وربما طاب لرؤسائهم أن يفهموا ذلك لأنهم أبلغوا حكومتهم في لندن أن الأمة هادئة فاترة ، وأنها ضعيفة لا يخاف منها انتفاض

وان أناسا كثيرين — ومنهم بعض المصريين — ليعجبون إذا عرفوا الآن أن هذه الثورة المفاجئة لم يقع فيها تنظيم ولم تكن فيها رأسه مدبرة على الاطلاق . وأن مظاهرة الطلبة الأولى وقعت على غير علم سابق من الوفد بل على خلاف النصيحة التي سمعها الطلبة من بعض أعضائه الذين بقوا في القاهرة بعد اعتقال سعد وأصحابه الثلاثة

لكنها هي الحقيقة التي تؤكدتها بعد استقراءها من مصادر عديدة . فان الطلبة أصبحوا مضربين في مدارسهم يوم المظاهرة وهم مختلفون في الخروج أو البقاء ، ثم خطر لفريق منهم أن الخروج ربما خالف مشيئة الوفد وأفسد عليه رأيا يفكر فيه أو خطة يتوخاها ، فبعثوا إلى « بيت الأمة » أفراداً منهم يستفسرون ويعودون اليهم بما يقر عليه رأى الأعضاء ، وهناك التقوا بالاستاذ « عبد العزيز فهمى بك » فأفضوا اليه بقصدهم وأبلغوه هياج الطلبة وتحفزهم للخروج والتظاهر في أحياء العاصمة ، فثار بهم الاستاذ . واتهرهم اتهاراً شديداً وهو يقول لهم مامعناه : « ان المسألة ليست لعب أطفال . دعونا نعمل في هدوء ولا تزيدوا نار الغضب اشتعالا عند القوم »

فتركوه وهموا بالانصراف متذمرين مغتمين ، واذا بالاستاذين محمود أبى النصر وعبد اللطيف المكباتى يلحقان بهم ليخفقا عنهم أثر الكدر الذى خامرهم من تأنيب عبد العزيز بك ، فتلطفوا فى التسرية عنهم والنصح لهم بالتزام السكون واجتناب المظاهرات ، وانصرف رسل الطلبة على أن يبلغوا زملائهم ما سمعوه وهم مترددون بين الاغضاء عنه أو الاصغاء اليه ، ولكن زملاءهم كانوا قد استبطأوهم وتهايجوا بما سمعوا من كلام خطبائهم

واستشارة دعائهم فخرجوا قبل أن يعود اليهم رسالهم بنتيجة سؤالهم ، وتمت
المظاهرة الأولى على هذا المنوال .

أما حوادث الأقاليم فقد تمت بغير ايجاء ولا تدبير ، إذ لم يكن للوفد في
ذلك الحين لجان يجوز أن يقال إنها اتفقت على تنفيذ خطة مرسومة في جميع
الأقاليم ، ولم يكن خبر السكة التي قطعت بين طنطا وتلا قد شاع في القطر
حتى يقال إنه جاء في طبيعة الحوادث بمثابة الايجاء والقدرة على عمد أو على
غير عمد ، وإنما نجمت الثورة من بديهة الأمة كلها لأنها كانت كلها على اتفاق
في الغضب المكظوم والتأفف الذي بلغ مداه

ولقد اخطأت السلطة العسكرية في كل تدبير فكانت تستفز الناس بكل
عمل تقصد به الى البطش والارهاب ، وتدفعهم الى نقيض ما تريد من الخوف
والطاعة ، وتثير النفوس الى التحدى والمعاندة بدلا من الاذعان والسكينة :
بالغت في قمع المظاهرات فزادت المظاهرات ، وأندرت كل من يقطع
المواصلات « بالاعدام رمياً بالرصاص بمقتضى الأحكام العرفية » فكان
جواب هذا الانذار اضراب عمال السكة الحديدية في اليوم التالي وخروجهم
من مصانعهم متظاهرين ، ثم اندفع الناس في قطع القضبان وأسلاك التلغراف
والتليفون غير مكترئين للعاقبة ، فانعزلت القاهرة والمدن الكبرى من جميع
الجوانب ، واضطرت السلطة الى استخدام الجنود الانجليز في تسيير القطر
ونظيم المواصلات ، وبعد أن كانت تتوعد القرى التي تنقطع السكة على
مقربة منها بالغرامة عادت الى نشر انذار تقول فيه إن كل حادث جديد من
حوادث التدمير « يعاقب عليه باحراق القرية التي هي أقرب من سواها من
مكان التدمير » . . . واستدعى القائد العام بعض الوزراء والسروات في اليوم
العشرين وحذرهم من دفع السلطة الى « تدمير العمارات وتخريب القصور »
وطلب اليهم أن يبذلوا جهودهم في النصيح للشعب بالهدوء والاقلاع عن
« المشاغبات »

كل ذلك والثورة تتفاقم ، والجمهير تقدم وتقدم ، ومنهم من أغاروا في بعض البلدان على مراكز الشرطة فانزعوا ما فيها من السلاح ، فاستخدمت السلطة الطائرات والبواخر النيلية لا يصلح الممدد الى الجهات المعزولة ، وحدثت في اثناء ذلك مناوشات قتل فيها خلق كثير

على أن الثورة لم تكن فورة غضب بغير معنى كما أراد أعداؤها والناقمون منها أن يتخيلوها. فلو كانت كذلك لما ظهر فيها ما قد ظهر من نفحات النخوة القومية والأريحية الانسانية التي ترتفع اليها الشعوب كما يرتفع اليها الأفراد في ساعات السمو والاشراق والفداء . فان هذه النفحات لا تظهر في سورات الغضب الحيواني حين ينطلق على غير هدى وفي غير مطلب ، ولكنها تظهر حين تكون الثورة إعراباً عن شعور مكتوم ونزعة مشبوبة الى السكالم . وقد كانت الثورة المصرية كذلك فغلب فيها الروح القومي على كل عصبية وكل علاقة وكل فارق : مشى فيها علماء الأزهر يحملون بساط الرحمة في تشييع جنازات الشهداء ، ويرفعون الأعلام وعليها شارة الهلال والصليب ، وقام القسوس في المساجد يخطبون المسلمين ويؤدون ما يؤدى لها من الشعائر الدينية ، وخرج العقائل والأوانس من الخدور يسابقن الرجال والشبان الى المهالك والأخطار ويستهدفن للجنود مسلحين متأهبين كأنهم في ميدان قتال . وغلبت فرائض الحمية الوطنية على كل فريضة وكل تقليد ، فكان الضباط يسرون الى جانب القضاة والمحامين وطلاب المدرسة الحربية يسرون الى جانب الطلاب في كل مدرسة ، وكانوا جميعاً ينادون باسم مصر ولا يذكرون إلا أنهم مصريون

وتجملت بساله التضحية على مثال رائع نبيل كأنبل ما سطرت تواريخ الجهاد والفداء في وثبات الأمم . فمات أناس يحملون العلم أنفاً من الفرار أمام نيران المدافع وهم عزل من السلاح ، ويرى اخوانهم مصر عهم فيبادرون الى رفع العلم ليستقبلوا مصر عا كهم طائعين متنافسين ، في لحظة يطيقون فيها رؤية الجثث المطروحة لقي ولا يطيقون رؤية العلم ملقى على التراب

وقد أحاطت بالمصريين في تلك الأيام موغرات كثيرة من فتك وارهاب
وخشونة واستفزاز ، في بعضها ما يشفع للناس لو طغت بهم مرارة النقمة
وجمحت بهم لواجع الضغينة . لكنهم مع هذا لم يقترفوا سقطة واحدة تشين
صاحبها في غضبه أو رضاه ، ولم ينسوا أدب المروءة في أشد أوقات الهياج
والاضطراب . فلم يعتد أحد قط على طفل أو على شيخ عاجز أو على امرأة ،
وشهد اللورد النبي للثورة المصرية بهذا الأدب في الكتاب الأبيض حيث
قال بعد ثلاث سنوات : « كانت سيدة انجليزية مستقلة مركبة مفتوحة فهاجمها
الرعاع وقذفوها بالحجارة يوم الجمعة في حي بولاق ، وقد نجت من الأذى
البلوغ بأن اتخذت من مظلتها مخبأً فزقت الأحجار المظلة ، وهذه أول مرة
اعتدى فيها على امرأة في كل السنوات الثلاث الماضية » . . . ولو ثبتت هذه
الحادثة كل الثبوت لما كانت شيئاً يذكر لأنها لن تكون الا النادرة التي تؤكد
القاعدة ولا تنفيها ، ولكن التحقيق لم يثبت بوجه من الوجوه أن السيدة
كانت مقصودة بالاعتداء والاساءة . . . والا فما الذي كان يحمي سيدة
منفردة لا تحمل معها الا مظلة من عدوان العشرات والمئات الذين يقصدونها
بالايداء ؟ ان انفراد هذا الحادث في جميع سنوات الثورة لتحقيق وحده
بالجزم بنفيه لا بمجرد التشكيك فيه ، وقد سبقته الحوادث الكثيرة المشهورة
في أعنف أيام الهياج فكان الثائرون يتورعون فيها جميعاً عن المساس
بالسيدات والأطفال ، ومنها حادثة « بهيج » المشهورة على الحدود الغربية التي
شهدت فيها صحف الاستعمار بترفع الثوار المصريين عن هذه السقطات
المرذولة ، وليست صحف الاستعمار بالتى تبرى أمة نائرة على المستعمرين ،
وفي وسعها أن تافق عليها التهم وتزور عليها العيوب
لقد حدث أن أفراداً من الأرمين أطلقوا الرصاص على المتظاهرين من
نوافذ المنازل فلم يكن جزاء الثائرين لهم إلا بمقدار ما يقتضيه دفع العدوان
ومنع تكراره ، وحدث أن الغوغاء في أثناء المظاهرات قذفوا زجاج الدكاكين
بالحجارة فحسب بعض الأجانب أنهم مقصودون بالسخط والعداوة

والحقيقة أن القاء الحجارة على تلك الدكاكين لم يكن عن شعور العصبية أو العداوة للأمم الأجنبية ، وإنما كان استنكارا لفتحها في أيام الاضراب ، واحساسا من الغوغاء بأن أصحابها يجبهون شعور الأمة ويستخفون بمطالبها ويرفعون عن مجاملتها . فأصابوا دكاكين المصريين التي اتفق فتحها في تلك الآونة كما أصابوا دكاكين الأجانب . ورجحت كفة الأجانب في الخسارة لأن متاجرهم أكثر عددا في الأحياء الأفرنجية التي تطوف فيها المظاهرات . ومع هذا لم ينس الطلبة أن يعتذروا إلى «الضيوف» من عمل الغوغاء في بيان نشره في الصحف العربية والأفرنجية ، وعلقوه على وجهات الدكاكين ووعدوا باتقاء تكراره في المستقبل .

ولم يجد المستعمرون في الواقع حادثا يستغلونه في التشهير والتشويه غير حادث ديروط أو دير مواس الذي قتل فيه ثلاثة من الضباط وخمسة من صف الضباط الإنجليز ، وهو حادث على جسامته لا يذكر إلى جانب الفظائع التي نزلت بالمصريين في أثناء حملات التأييد والتفتيش ، ومنها فظائع العزيزية والبدرشين والشبانات التي ترك تفصيلها إلى غير هذا المقام . وسنضرب عنها صفحا في هذا الكتاب . ولا نذكر من فظائع قمع الثورة إلا مثلا صغيرا يغني بالدلالة عن الشرح والاسباب ، وهذه خلاصته بعد التجاوز والتلطيف .

في أول سبتمبر سنة ١٩٣٤ نقلت إلينا الأنباء البرقية من لندن أن جنديا إنجليزيا سيق إلى المحكمة لاتهامه بقتل عشيقته ، فكان من المحاسن التي تشفع بها إلى المحكمة واعتقد أنه يستحق بها العفو والرحمة أن قال بغير سؤال ولا مناسبة أنه كان صولا بالجيش البريطاني بمصر سنة الثورة فقتل ثلاثة من المصريين ، وأنه بعد بضعة أسابيع كاد صديق له أن يقتل فقتل هو مصريا آخر ، ثم عمل في شركة للسيارات رئيسا للمهندسين وعمل في خدمة أمير مصري أربع سنوات . وقد لخص القاضي الدعوى فقال : « إنه مهما يكن ما فعل تافنى — اسم الرجل — فإن رؤسائه يومئذ لم يعدوا ما فعله جريمة »

فهذا جندي من قامعى الثورة يفاخر بما جنى بعد الثورة بخمس عشرة سنة !
وبعد أن أكل خبزه من خير أمير مصرى أربع سنوات ! وهو واحد من
عشرات الألوف لا يسألون عن قتلوا ولا يحتاجون إذا سئلوا إلى عذر
أكثر من ادعاء الخطر والدفاع عن الحياة ، وكل من لديه ذرة من التصور
وذرة من الانصاف ليعلم بعد ذلك أن الفظائع التى نزلت بالمصريين فى ثورتهم
أكبر وأهول بما لا يقاس من فظيعة الاعتداء على فئة من الضباط والجنود
كلهم مسلحون ، ولا يعلم أحدكم قتلوا قبل أن يتكاثروا عليهم الجمهور الأعزل
من السلاح .

وندع فظائع الثورة جانبا ونسأل : لم كل هذا ؟ أكانت هذه الزوبعة الدامية
ضرورة لا محيد عنها ؟ أكانت حادثا لا يمكن اتقاؤه ؟ كلا ! لم تكن ضرورة
ولامصلحة . وكان ميسورا أن تجتنب اجتنابا وأن يحقن كل ما سال فيها من
دماء ويصان كل ما خرب فيها من عمار وضاع فيها من أموال لولا الأخطاء
المتلاحقة التى ارتطمت فيها السياسة الاستعمارية ، لقللة اكترائها للعواقب ،
والقاء اعتمادها كله على العدد الحربية وأنها تضمن لها قمع الأمم الضعاف
إذا ضاقت الصدور عن الاحتمال

فهى أخطأت فى البداية باعلان الحماية واغتصاب أرزاق المصريين
وأدوات معيشتهم فى ابان الحرب العظمى . وكان فى مقدورها أن تتفادى
من كل ذلك بأن ترد إلى المصريين استقلالهم وتكل اليهم أن يدبروا بانفسهم
مايعنيهم من أمرالمعاونة فى الحرب بما يطيقون . فان لم يوافقها ذلك فماذا كان
يمنعها أن تعلن الاستقلال وترجىء النظر فى تفصيل قواعده إلى ما بعد
الفراغ من القتال ؟

ثم أخطأت فى حرمان زعماء المصريين ابداء مطالبهم والبحث فى مستقبلهم ،
مع أنهم لم يقصروا فى المجاملة ولم يبدروا منهم فى مخاطبة رجالها هنا أو فى
انجلترا أثر من التحدى والاعنات .

ثم وقعت الأزمة الوزارية التي لا بد من وقوعها فالقت على الزعماء تبعتها وألقى الزعماء التبعة عليها . ولم يكن رد الزعماء من قبيل التراشق بالتهم والمجاوبة على الادعاء بمثله ، ولكنه كان هو الحقيقة بعينها في نظر المنصفين الواقفين على الحيدة لافي نظر الوفد المصرى وحده ... فالمسئول عن الأزمة الوزارية وعن صعوبة تأليف الوزارة المصرية هو السياسة الاستعمارية أو هو كما قال الوفد « أولئك الذين وضعوا من هم أهل للوزارة في مركز حرج أمام ضمائرهم وأمام مواطنهم » .

وإلا فماذا يقول الوزير المصرى لأبناء وطنه إذا فرضنا أنه أراد فعلا أن يخدم السياسة الاستعمارية ولا يحفل بمصير وطنه ؟ أيقول لهم انى خائن لأبالي بغير الوصول إلى المنصب ؟ أم يقول لهم انى أتولى المنصب لأحول بينكم وبين المطالبة بالاستقلال أو السفر إلى حيث تشتركون في تقرير مصيركم ؟ وهل يستطيع أن يقول لهم ذلك في الوقت الذى ينادى فيه ساسة الانجليز أنهم لا يمتنعون أمة متقدمة أو متخلفة أن تشترك في تقرير مصيرها ؟

فاحجام الساسة المصريين عن قبول الوزارة حتم لاحيلة لأحديه ، اذ ليس يوجد فى مصر ولا فى غير مصر مرشح للوزارة يشتري المنصب بهذه الخيانة الصريحة ولو كان مدخول الضمير . لأنها خيانة سمجة مبتذلة لا تستر فيها ولا مغالطة ولا عذر لمن يشاء أن ينتحل الأعذار ، مادامت الأمة تطلب حقها والوزارة التي أذعنت للحماية قد تحركت للبحث فيها والعالم كله ينادى بحقوق الشعوب وتقرير المصير . ففي هذا العمل لو أقدم عليه المرشح للوزارة قضاء على حياته السياسية إن لم يكن فيه قضاء على الحياة .

لكن القيادة العسكرية شامت مع هذا أن تلقى التبعة على الوفد في هذا الموقف الذى لاحيلة فيه للوفد ولا لأحد من المصريين . فأخطأت خطأها العاشم واعتقلت رؤساءه جزاء على السيئة التي أساءتها هي ولم يسيئوها . ثم أخطأت بعد هذه السلسلة من الاخطاء فى بطشها الدموى بمن غضبوا لذلك العسف المبين

عزلاً من السلاح ، ومن نادوا بما كان ينادى به أقطاب الحلفاء في مؤتمر السلام ، ولعلها لو فسحت لهم جو بلادهم ينادون فيه بما يشامون لما خرجت الثورة من طور الدعاية إلى طور التخريب والتحطيم .

وأكبر أخطاء السياسة الاستعمارية جميعاً ، بل هو الخطأ الذي يطوى فيه جميع الأخطاء — انها أساءت تقدير الموقف وأسأت تقدير العواقب وأسأت تقدير الشعور الذي كان يسور ويثور في نفوس المصريين قاطبة على تفاوت الطبقات والمشارب ، فليس في وسع انسان سياسى أو غير سياسى أن يجهل هذه الأمور كلها كما جهلها نائب المندوب البريطانى — السير ميلن شيتهم — قبل الثورة بأقل ثلاثة اسابيع ... فانه كتب إلى حكومته في الرابع والعشرين من فبراير يقول : « ان الوزيرين رشدى وعدلى فقدوا الشهرة الموقوتة التي عادت عليهما من الاستقالة ، وأن زغلولاً لا يثق به أحد ، وأن هناك قلقاً يسيراً بين أفراد الطبقة العليا الذين يطمعون في تعظيم مكاتهم ببلوغ مرتبة من مراتب الحكومة الذاتية ، ولكن « الحالة لا تختلف في لبابها من الحالة التي طرأت في سنة ١٩١٤ عند ما رفض الأمير حسين وكبار الوزراء طويلاً أن يقبلوا الحماية مالم تكن مشفوعة ببعض المنح التي لم نكن على استعداد لاعطائها ، وان الحركة الحاضرة على كل حال ليست بالتضارع حركة مصطفى كامل أو بالتى يصح أن تؤثر في قرارات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل الدستورية والوضع الذي توضع فيه الحماية : »

ولما بدت طلائع الثورة لم يجد هذا السياسى النادر ما يدارى به غفلته وعجزه عن سبر غور الحركة الوطنية إلا أن يعزوها إلى أسباب أجنبية غير وطنية فأبرق في التاسع من مارس يقول « ان الحركة معادية لبريطانيا معادية للعرش معادية للاجانب ، وفيها نزعات بلشفية تتجه إلى تخريب الأسلاك والمواصلات ، وهى منظمة مدبرة ولا بد أن تكون مأجورة »

وأذاعت الحكومة البريطانية مذكرتها عن الثورة بعد ذلك بشهر فجاه

فيها « ان هناك شواهد تثبت أن الخطة مدبرة منظمة باحكام » ومما يستحق الملاحظة أن الخطة التي نفذت تشابه البرنامج الذي رسمه الألمان والترك للغارة على مصر في خريف سنة ١٩١٤ وهو البرنامج الذي أفضى به إلى السلطات المصرية الجاسوس الألماني مورس المقبوض عليه في الاسكندرية وإذا حسبنا كل حساب للحالة العقلية أو لدواعي التذمر الناشئة بين الفلاحين المشار إليها آنفا فكل هذا لا يكفي لتعليل هذا الانفجار الخطير المنظم الذي تلوح فيه أصبح تركيا الفتاة كما قد تلوح فيه أصبح الألمان .

إي والله ثورة تشمل أربعة عشر مليوناً يدبرها الترك والألمان في الخارج أو في الداخل ولا تعثر فيها السلطات الانجليزية بدليل واحد على هذا التدبير غير التنجيم والتخمين ! وان الانسان لا يدري أيضحك أم يحزن من هذا التفكير العجيب الذي يعلل ثورة مصرية تنفجر في شهر مارس بأنهادسياسة أجنبية دبرتها حكومات منهارة مضى على هزيمة رؤسائها وتفرقهم في البلاد وانقطاع الصلة بينهم وبين أتباعهم عدة شهور وادعى من هذا إلى الحيرة بين الحزن والسخر أن تكون الثورة من صنع الطبقات العليا ومن صنع البلشفية في وقت واحد !!

ولا نظن أن الغفلة وحدها هي سر هذه التعليقات المضحكة المبكية التي تعلق بها السياسة الاستعمارية في تلك الفترة ، ولكنها رأيت وكلامها قد وقعوا في الجهل الذي لارجعة فيه فاستغلت جهلهم أحسن استغلال في استطاعتها ، لأنها وجدت لها فائدة من تشويه الحركة المصرية بنسبتها إلى جواسيس الترك والألمان ، ووجدت أنها قد تحول بهذا التشويه بين الدعاة المصريين ومسامع الحلفاء والأمة الانجليزية . فزجت بين الغفلة والذكاء هذا المزيج الجدير بأساليب الاستعمار !

ولقد ظل القوم يتخبطون في فهم الحركة وسبر أغوارها حتى بعد عمومها

وانتشارها ، وطفقت الحوادث تتلقاهم مرة بعد مرة بتكذيب ظنونهم وتقديراتهم
فلا تنجاب الغشاوة عن أبصارهم ، ومن ذلك اعتقادهم بعد شوب الثورة في
البلاد أنها ضرب من الشغب الذي يفرقون فيه بين طائفة من الأمة وطائفة
أخرى كما كانوا يصنعون في العهد السابق تارة بين الباشوات ولابسي الجلايب
الزرقاء ، وتارة بين الشيوخ والشبان ، وتارة بين طلاب الوظائف وأصحاب
المصالح الحقيقية ، وتارة بين المسلمين والمسيحيين . . . فألقى اللورد كرزون
بعد انفجار الثورة بنحو اسبوعين بياناً يثنى فيه على الموظفين المصريين لأنهم
ثابروا على أعمالهم في إبان الهياج الذي غمر البلاد ، ويقول فيه انهم صفوة
المتعلمين من المصريين « فمسلكتهم هذا يدل على أن عقلاء الأمة لم يشتركوا
في الحركة الأخيرة . . » فكان جواب هذا الشاء المزرى أن أجمع الموظفون
في الدواوين كلها على الاضراب ثلاثة أيام اعلناً للتأزر بينهم وبين طبقات
الأمة في المطالب الوطنية ، وكتبوا عرائضهم بهذا المعنى الى صاحب العظمة
السلطان ، وأبلغوها الحكومة الانجليزية

لم تنقطع هذه الأخطاء ولا جرائرها في أيام الثورة الباقية ولا بعد
انتهائها ، ولم يقع منها الضرر على أحد غير المظلومين فيها . ومن ذا الذي
يحاسب الأقوياء حين يخطئون في حق الضعفاء ؟ ولماذا يشتبه الانسان القوة
ان لم تسول له الخطأ في كل حين ؟ !

وهكذا يليق الخطأ ويليق التماذي فيه بالأقوياء لأنهم في غنى عن حسابان
العواقب والمبالاة بالجرائر ! ويستأثر الضعفاء بسوء العاقبة وان جاهدوا في
اجتناب الاخطاء ، لأنهم ضعفاء !

من القاهرة الى مالطة

الى باريس

جلس سعد وأصحابه الثلاثة في طريقهم إلى المنفى يتساءلون ، وأول سؤال طبيعي يخطر لهم وهم مفارقون البلاد هو السؤال عما عسى أن يجري فيها بعد اقصائهم عنها : هل تسمع بالخبر ؟ وهل تملك أسباب الثورة ؟ وهل تقوى القيادة العسكرية على كظم النفوس طويلا بعد هذه الضربة ؟ فأما سعد فكان رأيه أن الثورة عمل شاق على بلد أعزل مرهق بالاعباء مشحون بالجند والسلاح والأرصاد . ولكنها اذا كانت واقعة فشعور الناس بالاختناق والتماهم المنفس للجهر بالآلام المكبوتة كاف لانفجارها والاستيئاس فيها وقريب من هذا رأى اسماعيل صدقي الى نزعة من شكوك الرجل الحديث أما حمد الباسل ومحمد محمود فقد كان رأيهما الرأى الطبيعي لزعيم قبيلة بدوية وصاحب عصية فى الصعيد . فأخر شىء يطيب لزعيم القبيلة أن يفكر فيه أن قبيلته لا تثور لأجله ولا تأخذ بثأره ، وكذلك صاحب العصية فى الصعيد ، فاتفقا على ترجيح الثورة وان لم يتفقا على النتيجة

ويظهر أنهم — سواء منهم من رجح الثورة العاجلة ومن لم يجزم بوقوعها العاجل — قد وطنوا النفس على البقاء زمنا ليس بالقصير فى جزيرة مالطة ، ولم يخطر لهم أن الافراج عنهم قريب . فبحث سعد عن منزل يستأجره وفكر فى استدعاء السيدة الجليلة قرينته الى الجزيرة ، لحاجته الى العناية الصحية التى لا يجدها هناك فى غير المنزل برعاية الزوجة الرؤوم ، ولم يفكر صحبه الآخرون فى ذلك لأنهم شبان أصحاء بالقياس اليه

وصلوا الى مالطة بعد أن قضوا في النقالة ثلاثة أيام . وقد كان سعد متعباً من مشقة الانتقال والدوار . وكان بين الشاطئ ومعتقل « بلفورستا » الذى اختاره حاكم الجزيرة لهم مسيرة نصف ساعة على القدم ، فبحثوا عن مركبات فى جوار الميناء فلم يجدوا إلا مركبة صغيرة يجرها حصان واحد . ركبها سعد وسار رفاقه وراه على الأقدام ، ووصلوا الى المعتقل فوجدوا أن السلطة العسكرية قد أعدت لكل منهم حجرة للنوم وأخرى للاستقبال ، وثالثة للمائدة ومكانا للحمام

وأراد سعد أن يكون أول عمل له فى منفاه استئنافا لعمله فى القاهرة ، وتحدياً للنفي والارهاب ، واستمراراً فى المطالبة بالاستقلال وإنكار الحماية . فلم يكفد يستريح من عناء سفره حتى كتب الرسالة البرقية الآتية إلى رئيس الوزارة الانجليزية يكرر فيها المطالب التى جاء من أجلها الى هذه الجزيرة :
« إن شرف الممالك يقدر بمقدار احترام ساستها ورجالها للمعاهدات السياسية التى يبرمونها والتصريحات الرسمية التى يفوه بها رجال تلك الحكومة الرسميون . ولما كانت إنجلترا فى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ قد ضمنت استقلال مصر . كما أقسمت الملكة فكتوريا والبرلمان بالتاج والشرف عام ١٨٨٢ أن الاحتلال لن يكون إلا وقتياً وأعلن غلادستون عام ١٨٨٧ أن أوان الجلاء عن مصر قد آن . ولما كنتم جنابكم الرئيس الممثل لحكومة جلالة ملك بريطانيا والمدافع عن كرامة بلاده وشرف الأمة الانجليزية الحرة فانى أطالب جناب الرئيس المبجل برفع الحماية التى أعلنتها حكومتكم على بلادنا قسراً لمقتضيات الحرب وجلاء الجنود البريطانية عن وادى النيل ، احتراماً للمعاهدات والتصريحات التى ذكرناها وصيانة لشرف أمة أنت على رأس حكومتها ، وليأذن جناب الرئيس بأن أذكر إن سياسة العنف والارهاب التى اتبعت معنا لا تزيدنا نحن المصريين كافة إلا تمسكاً بمطالبنا ، وثباتاً فى

موقفنا ، وإنه خير لانكثرا أن تكون لمصر صديقة ، وهناك نستطيع أن
نقطع على أنفسنا عهداً بان نصون مصالحكم ونروج تجارتكم في بلادنا »

ولا شك أن آخر ما انتظرته الحكومة البريطانية - وهي تنفي زعيم مصر
الى جزيرة مالطة عقاباً له على طلب استقلالها - أن لا تفيد من ذلك إلا أن تصبح
الجزيرة ميداناً آخر من ميادين المطالبة بذلك الاستقلال !

نزلوا في المعتقل معزولين عن بقية الأسرى على خلاف السنة التي كانت
متبعة فيه قبل وصولهم ، ولم يؤذن لهم بالخروج للرياضة في الخلاء إلا
مرتين كل أسبوع بعد التوقيع على حلف كتابي يقسمون فيه بالشرف أن
لا يهربوا ولا يساعدوا أحدا على الهرب ولا يعطوا أحدا نقودا ولا يعملوا
شيئافيه ايداء لجنود جلاله الملك . . . وبعد كل هذا لم تكن السلطة الانجليزية
تسلمهم من ما لهم إلا بمقدار ما يلزمهم أول فأول لضرورة المعيشة ، وكانوا
قد برحوا مصر وليس معهم من النقد إلا قليل ، فأرسلوا - بواسطة
السلطة - يطلبون مالا من ذويهم في مصر ، فجاءهم خمسمائة جنيه لكل من
سعد وحمد ومحمد محمود ، ومائة جنيه لاسماعيل صدقي ، فأودعتها السلطة مصرف
الجزيرة وأباحت لهم أن يشتروا ما يشاءون بتحويلات يقبضها البائع من
المصرف ، ورخصت لهم في استخدام طاه ألماني وابقاء التورالكهربائي الى
ما قبل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعاون على
تعلم اللغات التي يحسنها بعضهم ولا يحسنها الآخرون

ولم يسمعوا شيئاً عن مصر ولا عن ثورتها إلا حين زارهم اللورد مشوين
حاكم الجزيرة وهو يقول لهم عرضاً : « أشعلتم النار في مصر وجئتم الى هنا ١١ » .
فعلوا أن في مصر احداثاً خطيرة ، وأدر كوا أنها الثورة حين استطاع طاهمهم
الألماني أن يدس اليهم بعض القصاصات من صحيفة التيمس ، عرفوا منها قبساً من

مظاهرات الطلبة وثورة البدو في الفيوم ، ولكنهم لم يسمعوا بما يدلمهم على مداها وتفصيلات وقائعها

وبعد شهر في مالطة جاءهم النبأ بالافراج عنهم والسماح لزملائهم في القاهرة بالسفر إلى حيث يشاءون ، وانهم مأذون لهم في السفر على الباخرة « كاليدونيا » التي تقل أولئك الزملاء ، وستصل إلى الجزيرة صباح يوم الثلاثاء الموافق لنصف ابريل

فكان لذلك النبأ في نفوسهم وقع عظيم ، لأنه بشرهم بالحرية التي طالما تمنوها للسعى في قضية بلادهم ، وأثبت لهم أنهم يسعون في قضية تستحق عناها ولا تخيب رجاء الساعين فيها .

فتفاءلوا بالافراج عنهم خيراً ، وفرحوا بما أولاهم من الثقة وتأكيد العزيمة أضعاف فرحهم بالطلاق من الاعتقال ، وباتوا على شوق إلى صباح يوم الثلاثاء لينعموا بلقاء أولئك الزملاء الذين فارقوهم ولا يعلم منهم أحد متى يكون اللقاء وليسمعوا منهم تفصيل الحوادث التي لمحوا بصيصا منها في شذرات الصحف الانجليزية ، وهي لا تصل اليهم إلا بعد لأي في خلصة من الرقباء

ثم أذنت السلطة لهم بزيارة الأسرى من أبناء وطنهم و من الترك والألمان ، فلبوا دعوة المصريين المعتقلين بالمعسكرات الأخرى ، فاستقبلهم الأسرى الأجانب معجبين ، واستقبلهم الأسرى المصريون نخورين ، وكان بعض القادة الترك يقولون لأصدقائهم المصريين : « اعتبرونا منكم فقد أحببنا بلادكم وأحببنا زعماءكم » ورحب بهم الأمير هو هنزلون ابن عم غليوم ، ورفع لهم بعض الألمان راية بيضاء مكتوباً عليها بالمداد الأحمر تاريخ « ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ » وهو تاريخ جلاء الجنود الانجليز عن مصر عند ما طمعوا في احتلالها للمرة الأولى ، وكان الأسرى الألمان قد أقاموا معرضاً فنياً لمصنوعاتهم التي استطاعوا أن يصنعوها بما لديهم من الأدوات القليلة ترجية لأوقات الفراغ ، فقدم أحدهم إلى سعد تمثالا عسكرياً بالعدة

الحرية الكاملة للامبراطور غليوم ، مصنوعا من الورق المقصود الذي تغلف به
صناديق التبغ الصغيرة ، فياه سعد وقال له : « إنه لتمثال عظيم يمثل عظيما »
ثم قال : « ولكننا لا نملك عدة الحرب ، وانما نحن أمة سلام »

وقد رست الباخرة « كاليدونيا » في ميناء مالطة ضحى يوم الثلاثاء ،
وعليها أعضاء الوفد القادمون من القاهرة وهم حسب ترتيب الحروف
الهجائية : أحمد لطفي السيد بك ، وجورج خياط بك ، والدكتور حافظ
عفيفي ، وحزين واصف باشا ، وسينوت حنا بك ، وعبد العزيز فهمي بك ،
وعبد اللطيف المكباتي أفندي ، وعلى شعراوى باشا ، ومحمد على بك ، ومحمود
أبو النصر بك ، ومصطفى النحاس بك ، ومعهم مكتب الوفد وفيه كتابه
ومتجموه ، ومنهم الأستاذ ويصا واصف الذى انتخب عضوا فى الوفد بعد
وصولهم إلى باريس .

ولما رست الباخرة على الميناء انتظر الأعضاء فيها قدوم اخوانهم المعتقلين
فطال الانتظار ، واستحسن بعضهم النزول إلى الجزيرة للقائهم فوجدوا الخدم قد
سبقوا سعدا وأصحابه إلى الشاطئ بالحقائب ومؤونة السفر ، وماهى إلا هنيئة
حتى أقبل سعد وأصحابه الثلاثة يمشى معهم ضابط انجليزى وضابط من أهل
الجزيرة لم يفارقاهم إلا عند صعودهم إلى السفينة ، فكان للقاء الزعيم وأصحابه
مشهد رائع لا ينساه من رآه ، وامتزجت فى لقاءهم معانى شتى من الشوق
والايناس ، وشعور الظفر والثقة والامل فى النجاح .

أما كيف تحولت السلطة البريطانية فى مصر من الحجر الشديد إلى السماح
للوفد بالسفر حيث شاء فخلاصة القول فيه أنه تحول ضرورى قضت به الثورة
فلم يسع السلطة إلا أن تنقاد لحكمة فى النهاية ، لأنها عاجزت عن تسيير الأمور
بأيديها ، وعجزت عن تأليف وزارة وطنية تقبل الحكم والوفد محبوس عن
السفر ، فلم تجد بداً من اطلاق سبيل الوفد عسى أن تفرج شيئاً من حرج

الموقف وتمحو شيئاً من الحفيظة التي أفعمت قلوب المصريين وزادتها الفظائع في ابان الثورة ألما على ألم .

وقد أدركت القيادة العسكرية من اللحظة الأولى أنها أخطأت في التقدير وانتهت باعتقال الزعماء إلى عكس ما تريد ، لأن اعتقالهم لم يردع السيل المتجمع وراء السدود وإنما جاءه بمدد جارف أطلقه ودفع به شوطاً وراء شوطه ، ورسم للمصريين طريق المقاومة ، فمن شاء منهم أن يرجع فلا حيلة له في الرجوع ، ومن خطر له أن يتردد فليس أمامه موضع للتردد . وإن أول من هدد دعا الى الثبات والمثابرة لهم أول من أصيب باعتقال الزعماء وأول من هدد بهذا الاعتقال ، وأول من ظن بهم أنهم يتقهقرون ويوجلون : قرينة سعد وخلفاؤه المتروكون في القاهرة !

فالسيدة الجليلة قرينته لم تضيع لحظة واحدة في الحزن والجزع الذي لا يفيد... عادت من زيارة إحدى شقيقاتها حيث كانت ساعة الاعتقال فما هو إلا أن علمت بما حدث في غيابها حتى كان أول ما خطر لها أن أرسلت إلى شعراوي باشا تبلغه أن مكتب سعد مفتوح له ولزملائه في غياب سعد كما كان في حضوره وترجوه وزملائه أن يقبلوا دعوتها إلى العشاء في ذلك المساء ، وأن يعقدوا جلستهم الأولى في مكان انعقادها المألوف ، لكي لا يطرأ على سير الدعوة أقل تغيير بعد ذلك الحادث الذي أريد به القضاء عليها . فقرر الأعضاء أن يلبوا رجاها وأن يشكروها عليه ، واعتذروا من حضور العشاء لاشتغالهم بأعداد الاحتجاج الذي يقابلون به اعتقال الزعيم ، واتخاذ الخطة التي تلائم الموقف الجديد .

ولم يكن شعور الأعضاء بعد الاعتقال شعور فزع وارتداع كما قدرت السلطة البريطانية ، بل كان شعور استياء لا اعتبارهم دون من اعتقلتهم السلطة في الخطر والأثر ، وشعور رغبة في افهام السلطة البريطانية خطأها وتحديها واستفزازها باتيان العمل نفسه الذي من أجله اعتقلت سعداً وأصحابه . فكتب

شعراوى باشا احتجاجاً الى رئيس الحكومة البريطانية على اعتقالهم وأبلغه فيه ان الوفد مثابر على خطتهم ، ووجه مع زملائه فى اليوم التالى خطاباً الى صاحب العظمة السلطان يلقى فيه تبعة اعراض الكبراء عن تأليف الوزارة على السلطة العسكرية : « فانما هو النتيجة الطبيعية للخطة التى اتخذت فى مسألة سفر الوفد ، فان كل مصرى ذى كرامة لا يمكنه — حقيقة — أن يقبل الوزارة فى هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده . » وختم الخطاب بقوله : « اليكم يا صاحب العظمة — وأتم تتبوءون أكبر مقام فى مصر ، وعليكم أكبر مسئولية فيها — نرفع باسم الأمة أمر هذا التصرف القاسى ، فان شعبكم الآن يحق له أن يعتبر هذه الطريقة بادرة تخيفه على مستقبله ، كما يحق له أن يكرر الضراعة لسدتكم العلية أن تقفوا فى صفه مدافعين عن قضيته العادلة »

أما الحكومة البريطانية فقد أحببت أن تئس المصريين من كل أمل فى اللين والهوادة ، فعينت الماريشال اللنبى مندوباً سامياً بعد نشوب الثورة بنحو أسبوع ، بدلا من السير ريجنالد ونجت الذى كان من رأيه السماح بسفر الوزيرين المصريين ، وقد تعمدت بتعيينه غرضاً آخر هو ارهاب المصريين باسم القائد المنتصر فى أقرب الميادين اليهم وهو ميدان فلسطين . واذاعت فى الوقائع المصرية انه « منح السلطة العلية فى جميع الأمور المدنية والعسكرية وفى اتخاذ ما يراه من الاجراءات صالحاً لاعادة النظام واحترام القوانين ... مع تثبيت حماية جلالة الملك فى مصر على أساس متين »

وقد بدأ الماريشال اللنبى عمله بعد قدومه الى القاهرة باستدعاء الكبراء والسراة قائلاً لهم انه جاء الى مصر لينهى الاضطرابات ويتحرى أسباب الشكاية ، ويزيل منها ما يقضى العدل بازالته ، وطلب اليهم أن ينصحوا للناس بالهدوء والسكينة .

فكررت هذه النصائح التى يوعز بها الانجليز فى غير جدوى ، ولم يزل

متعذراً على « المستوزرين » أن يجترئوا على قبول الوزارة ، ولم يزل تسيير
الادارة الحكومية في البلاد من أصعب الأمور .

ولجأ المارشال النبي إلى أعضاء الوفد المصرى ، فاستدعاهم اليه في
السادس والعشرين من مارس وطلب اليهم أن يبسطوا أسباب الشكاية في
تقرير يكتبونه ، فقدموا له التقرير بعد أربعة أيام وفيه تلخيص للمظلمة السياسية
من بداية اعلان الحماية . وقالوا في ختامه : « غير أن السلطة العسكرية مع
ذلك قد استدعتنا مرة أخرى في يوم ١٦ الجارى وأعلنت الينا اننا مسئولون
عن هذا الاضطراب ، واننا مسئولون عن ازالته ، ولكنها سمحت لنا هذه
الدفعة أن نتناقش أمر المسئولية ، فأجبناها بأن هذا الاضطراب ليس نتيجة
متوقعة لعملنا ولا يسوغه برنامجنا بحال من الأحوال . بل نحن نأسف له .
وأما تسكين هذا الاضطراب فليس في يدنا وسيلة فاعلة فيه ، ونصحنا بأن
أنجع الوسائل في تهدئة الخواطر بالطرق السلمية ، انما هو تأليف وزارة
تعطى من الترضيات ما يرضى الشعب ، حتى تستطيع أن تقوم باعباء الظرف
الحاضر » .

هذا رأى أعضاء الوفد الباقين بمصر في الثورة ، وهذا رأيهم في تفریح
الأزمة ، وهو رأى اتفقوا عليه مع كبار مصر الرسميين ومنهم علماء الأزهر
وبطريق القبط الارثوذكس وبعض الوزراء والنواب والسروات . وكتب
به هؤلاء جميعا خطابا إلى القائد العام في الرابع والعشرين من شهر مارس ،
أى قبل استدعاء أعضاء الوفد إلى اللورد النبي بيومين ، وكان تقديرهم أن
الوزارة التي تؤلف تعمل لتهدئة الحال ، دون أن يشترطوا سلفا لهذه التهدئة
أفراجا عن معتقلين أو سماحا لأحد بالسفر

ثم قال أعضاء الوفد : « وفي اليوم التالى وهو يوم ١٧ مارس قابلنا
الوزراء الثلاثة رشدى باشا وعدلى باشا وثروت باشا وأقنعناهم بأن يظهروا
استعدادهم للمفاوضة في تأليف وزارة تستطيع أن تقضى على هذه الحركة

الخيفة التي تخشى عواقبها المجهولة ، فظهروا هذا الاستعداد لرجال دار
الحماية ولكن الأمر لم يتم ، والاضطراب يأخذ نسباً واشكالا ليس الحكم
على نتائجها في نفوس الناس بالشئ الميسور »

وبعد أيام حان موعد صدور الميزانية وليس في البلاد وزارة ولا نواب
يناقشونها ، فلم ير المارشال النبي مخرجا من هذه الورطة إلا أن يعتمد الميزانية
باسم السلطة العسكرية ، فأصدر بلاغا بذلك في أول ابريل ، ولكنه حل
مشكلة وأثار مشاكل . فان هذا التحدى ألهب في النفوس جذوة الغضب وشحن
فيها عزيمة المناجزة ، فعاد التجار إلى اغلاق حوانيتهم وأضرب بعض
الموظفين ممن لم يكونوا مضرين ، وتمرد طلاب المدرسة الحربية ومدرسة
الشرطة فخرجوا متظاهرين أمام قصر السلطان ودور السفارات ، وكانوا
قبل ذلك يحتجزون عن المظاهرات ، واشتدت ثورة الأزهر وكثرت
اجتماعاته حتى لجأت السلطة العسكرية إلى مخاطبة شيخ الأزهر في اغلاقه
دفعه واحدة أو الاكتفاء باغلاقه في غير أوقات الصلاة فأبى ، واعتذر بأن
الله ينهى المسلم عن اقفال مساجد الله

وفي السادس من الشهر وزع على الناس منشور من عظمة السلطان يقول
فيه : « انى أنشر بين قومي هذه الكلمات التي كانت تحتلج بصدري في الوقت
الذي أخذت تتوارد إلى فيه ملتزمات الأمانى القوية نحو مستقبل البلاد .
وانى بالطبع لا أعنى بالبلاد إلا بلادنا المباركة : لا أعنى بالبلاد إلا وطننا
العزیز : هذا الوطن الذى اقتضت حكمة الله أن يكون جدى الأكبر محمد على
الكبير أكرم الله مشواه صاحب عرشه » وفي ختامه طالب عظمة السلطان
« أبناء المصريين بماله من حق الابوة عليهم أن يتناصحوا بعدم الاستمرار
على المظاهرات التي كانت عواقبها غير محمودة في بعض الجهات »
وبعد أن جربت السلطة العسكرية كل وسيلة وفشلت في كل تجر به لم يسعها

إلا أن تجرب الوسيلة الوحيدة الباقية التي اقترحها المصريون من اللحظة الأولى ، وهي اطلاق الحرية للوفد المصرى ليسافر حيث شاء ، فإن الحجر عليه هو سبب استقالة الوزارة وهو سبب الأحجام عن تأليف وزارة أخرى ، وهو سبب غليان النفوس وانفجارها ونشوب الثورة وانتشارها ، فأذاع المارشال اللبى فى أسايىع من الشهر بلاغا يعلن فيه أنه بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان « لم يبق حجر على السفروان جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد يكون لهم مطلق الحرية » وان « كلا من سعد زغلول باشا واسماعيل صدقى باشا وحمد الباسل وباشا محمد محمود باشا يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر »

فسرت نشوة الظفر والرجاء فى نفوس الأمة قاطبة ، وقامت مظاهرات الابتهاج فى مكان مظاهرات الغضب والهياج ، واستولى على الناس شعور مقدس غسل حوبة النفوس فنى المجرم اجرامه والموصوم وصمته ، وشوهدت جموع النسوة الشقيات المتبدلات على مركبات النقل يحمين وطنهن ولا ينظر اليهن ناظر بعين المهانة أو الريبة أو المجون الذى تثيره أمثال هذه الجموع فى غير تلك المظاهرات . وامتنعت حوادث السرقة على سهولتها فى ذلك اللجب اللاجب ، نفلت محاضر الأقسام من حوادث الطرارين واللصوص التى لم تكن تمتنع ساعة فى أيام الشح والضيق ووفرة المال فى جانب وندرته فى جانب آخر ، ومشى أعظم الناس وأصغرهم على السواء فى مظاهرات واحدة لا يتوقر عنها العالم الهرم ولا ينسى فيها الصغير دواعى الوقار ، ولم ينغص هذه المظاهرات إلا اعتداء بعض الأرمين عليها وشكاسة بعض الضباط والجنود البريطانيين الذين أطلقوا الرصاص على المتظاهرين المتهللين فى غير عداء ولا تنكر ، فقتلوا منهم أربعة وجرحوا كثيرين ، ولعل هذه الحادثة وحدها كافية لبيان مبلغ ما وصلت اليه فوضى القمع والارهاب ، فان هؤلاء الضباط والجنود تطوعوا لفعلتهم دون أن يدعوهم رؤسائهم اليها ، بل لقد

كانت القيادة العليا تستبشر بمظاهرات الفرحة التي أعقبت الافراج عن الزعماء لأنها قد تطفئ سورة الحنق والعداء وتهدئ جو السياسة للوفاق والمسالمية ، وتتيح للوزراء المصريين أن يقبلوا مناصب الحكومة ، ولكن الفوضى أخرجت أولئك الضباط عن طورهم فأفسدوا هذه الدلائل وعكسوا الأمر على القيادة العليا حتى كادت أن تفشل في تأليف الوزارة التي كان يجري الكلام في تأليفها حينذاك ، مما اضطر المارشال اللني إلى الاعتراف بخطأ الجنود ونشر بيان يقول فيه : « لقد تغيرت الحالة فجأة وأطلقت الحكومة البريطانية الزعماء المعتقلين في مالطة ، وأذنت للمصريين أن يرسلوا مندوبيهم إلى انكلترا ليعرضوا شكواهم . وقد سر المصريون لذلك بالبداية وسمح لهم أن يقيموا الاحتفالات كما يسمح لأبناء انكلترا بالاحتفال بأى نصر سياسى ، ومن سوء الحظ أن الجنود لا يفهمون هذا على ما يظهر ولذلك حدث مرة أو مرتين أن نفرا من الجنود قاموا بمظاهرات ضد المصريين الذين كانوا قد أقاموا احتفالا غير موجه ضد سلطتنا بته . وقد أدى عمل هؤلاء الجنود إلى اضطرابات خطيرة وإلى خسارة فى الأتفس من الجانبين . على أن المأمول الآن أن يلوذ الجنود بالهدوء ويلزموا السكينة ، ويتركوا القانون والنظام للقائد العام . وبما يجب أن يفهم أن كل عمل مستقل يقوم به الجنود يضاعف صعوبة مركزنا عشر مرات »

بقى سفر الوفد فعلا بعد السماح بالسفر قولا
والظاهر أن السلطات الانجليزية سمحت بسفره من جهة لتعرقله من جهة
أخرى ... لأنها تعللت بقلّة البواخر وزعمت أن الأماكن فيها محجوزة سلفا
وأن الأماكن المطلوبة لا تيسر قبل ثلاثة أشهر . . . ! وعلم الوفد أن الانتظار الى
ذلك الموعد مضيع لفرصة الحضور أمام مؤتمر الصلح أو الوصول الى باريس
فى ابان انعقاده ، فالتمس الاذن بالسفر على « يخت » صاحب العظمة السلطان
المسمى بالخرّوسة ، واتصل نبأ هذا الخبر بالانجليز فخشوا أن يجاب بعد قيام

الوزارة الرشدية التي يعلمون من سياستها الأولى أنها تشايح الوفد في طلب السفر الى أوربا ، ورأوا أن وصول الوفد المصرى الى أوربا على اليخت السلطاني يخوله « مظهرآ رسمياً » يتقونه ولا يحبون دلالتة الواضحة عند أمم العالم . فدبروا أمر الأماكن المطلوبة على عجل ، وسرعان ما استطاعوا أن يحجزوا الأماكن كلها في الباخرة « كاليدونيا » ومعها ستة أماكن أخرى لمن يشاء السفر من خصوم الوفد الى باريس !

✕ برح أعضاء الوفد العاصمة في الساعة الثامنة من صباح يوم « ١١ ابريل » فكان توديعهم الرائع بمثابة توكيل جديد من الأمة قاطبة ، فازدحمت الطرقات والميادين بعشرات الألوف من جميع الطوائف والطبقات ، ووزعت محافظة العاصمة أكثر من ألف تذكرة لعبة القوم ورؤساء الدين والسروات الذين رغبوا في توديع الوفد على المحطة ، فلم تكف هذه التذاكر لتلبية جميع الرغبات ، وبلغ عدد المودعين أضعاف العدد المقدور ، وأوشك الناس ما بين العاصمة وبور سعيد أن ينتظموا موكبا واحدا للحفاوة بالوفد وتأييده و اظهار الابتهاج بسفره ، وما كانوا يعلمون بالسفر في يومها لصعوبة المواصلات وانقطاع أسلاك البرق في بعض الجهات ، ولكنهم كانوا يرون القطار المزين بالرايات والأزهار وعليه التحيات التي كتبها المودعون في محطة العاصمة فيعلمون الخبر ويتسامعون به في لحظات معدودات ، ويهرولون الى لقائه داعين هاتفين . ولما وصل القطار الى بور سعيد خرجت المدينة تستقبله وترحب به وتصحبه الى الباخرة التي بات فيها ليلته ، وأضاءت بور سعيد كلها في المساء وحفت بالباخرة عشرات الزوارق المضاءة الصادحة بالموسيقى والهتافات الوطنية طول الليل ، وانتالت الرسائل البرقية من المدينة ومن أنحاء كثيرة في القطر تشييع الأعضاء بالرجاء والتأييد

✕ وفي اليوم الذي أقلعت فيه الباخرة — وهو اليوم التالي — تألفت في القاهرة لجنة مركزية كبرى تنوب عن الوفد في غيابه وتتولى انشاء اللجان التي تنوب عنه في الأقاليم .

تأليف الوفد الأول

الذين دخلوا الوفد غير من ذكرنا كثيرون ، والذين خرجوا منه كثيرون ، وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نتبع أسماء أعضائه جميعاً في دخولهم وخروجهم إلا بمقدار ما يتصل ذلك بسياق الترجمة التي ندونها أو سياق الحوادث العامة التي نحن بصدددها . ونقتصر في هذا الباب على القاء نظرة بجملة في تكوين الوفد كما تألف في أوائل وجوده ، ليتسنى لنا أن نفهم نصيب سعد من الاختيار في تكوينه . وأن نعلم من أين نشأت العواقب المحزنة التي سيق إليها الوفد من جراء الحوادث أو من جراء ضعف الأعضاء لا يحتاج الانسان إلى انعام النظر طويلاً في بنية الوفد الأول ليعلم أن تأليفه لم يخل من ضرورة بل ضرورات شتى لوحظت في اختيار الأعضاء وتقرير البرنامج السياسي واتخاذ الخطة المثلى في تلك الأحوال التي كانت مقعمة بالموانع والعراقيل ومخاوف التردد والقنوط

ومن البديهي أن سعدا لم يكن في موقف الرجل الذي ينتقى أعضاء الوفد كما يحب ويتمنى . فيأخذ من يشاء ويدع من يشاء ، ويستجمع شروط المثل الأعلى لما ينبغي أن تكون عليه الوفود الوطنية ، وهو في غفلة عن الرقباة والمعارضين .

ولكنه كان يعمل لانه لا بد أن يعمل ، ثم كانت تعترضه إلى جانب ذلك رغبات شركائه في العمل ، وأحوال الحرب ، وأطوار الحوادث الداخلية والخارجية التي لا حيلة له في منعها ولا قدرة له ولا لأحد من الناس على اجتنابها .

فأول ما يلاحظ على تأليف الوفد المصري كما كان في بداية نشأته ان العدد الاكبر من أعضائه لم يكونوا من رجال العراك المفطورين على القيادة

القومية في الأزمات ، الذين يفظنون بالالهام لبواعث حركات الامم ويوحون اليها من روح الاعجاب والثقة ما يذكي الحمية ويستجيش العزيمة ، ومن كان منهم قد وقف على طرف من آراء جوستاف لوبون فكانت ما وقف عليها ليوم الجماهير ويعطيها درجات علمية في الفهم والتفكير ، لا ليستعين بأخلاقها وطبائعها على العمل والجهاد كما يستعين الملاح القادر على خوض البحار بما يعلم من مهاب الرياح ودوافع المد والجزر وطوارى الأمواج والاعوار ، فيبينما كان سعد الناشء في مهد الثورة العراقية يتلهف على قارعة تبتعث كوامن الأمة الوادعة كان بعض رفاقه الباقين بعد نفيه يهابون قلق الشعب ويحفلون من كل خليجة تختلج بها طوائفه الفتية ، وبلغ من جهل هؤلاء بأسرار القيادة القومية أن عبد العزيز فهمى «بك» زجر الطلاب زجراً عنيفاً حين أفضوا اليه بما يضطرم في نفوسهم من سخط وما يهمون به من احتجاج ، وأن أصحابه الآخرين شاركوه في هذا الشعور وان لم يشاركوه في الزجر والهياج ، وكل ما كانوا يتوقون اليه خلوة لا يكدرها ضجيج المتظاهرين ولا سورة الناقلين . كأنما المسألة كلها مسألة مذكرة قانونية تكتب وتبوت وتوضع فيها النصوص والبنود وراء الأبواب المغلقة في معزل عن الأصوات والاصداء ، ولو جرت الحركة الوطنية على هدى أمثال هؤلاء لكان حظهم هم النقي واللحاق بالمنفيين الآخرين ، ولكانت مصر الآن مستعمرة بريطانية لا فرق بينها وبين المستعمرات الهمجية في أعماق القارة السوداء

وقدر أينا قصارى ما طلبه الوفد بعد سفر سعد إلى مالطة يوم دعاه القائد العام ثم اللورد النبي لشرح مطالبه وبيان علاجه لتسكين الحركة «الخفيفة» كما وصفوها . فقصارى ما حسبوا أنهم مستفيدوه من تلك الحركة التي برزت فيها مصر بأقصى ما في وسعها من مقاومة - ان تتألف وزارة يمنحها الانجليز بعض «الترضيات» . . . ! وأن يسعى الوزراء إلى دار الحماية ليعرضوا عليها استعدادهم لتأليف الوزارة على هذا الاساس

ولسنا نقول إن سعدا كان دائما في جانب التشدد وان الأعضاء كانوا دائما في جانب التسهل على هذا المنوال ، ولكننا نريد أن نقول إنهم حينما انفردوا لم يكونوا يشعرون بالقوة التي يشعرون بها وسعد في وسطهم وزمام المناقشة في يديه لاني أيديهم ، فانهم ليستمدون من وجوده بينهم قوة تسرى فيهم حتى حين يكونون هم المتشددون ويكون هو في جانب الهوادة واللين . لان الثقة قرينة القوة حيث كانت ، وهم لا يثقون بعضهم ببعض كما كانوا يثقون بسعد شاعرين أو غير شاعرين

ويلاحظ على تأليف الوفد أيضا أن الكثيرين من أعضائه كانوا من أصحاب مزاج الدعة الذين لا يتجشمون المشقة ولا يفهمون العناد والمثابرة في تذليل الصعوبة ، وأصحاب هذا المزاج يحسبون الدعة والوجهة حقا لهم على الأمة ينتظرونه ويحاسبونها عليه ان أخلت بشروطه ، وعندهم في قرارة نفوسهم أن الأمة تعمل كل شيء وتتكفل بكل شيء ، فاذا عملت ونهضت باعباء الكفالة فهي أمه مستحقة لما تطلب وما تنال ، وإذا لم تعمل فما ذنبهم هم وفيم يحشمون أنفسهم العناء من أجل أمة لا تتكفل لهم بالدعة والوجهة ؟ .. انهم اذن في حل من ابتغاء الدعة والوجهة من طريق غير هذه الطريق ، ولن يدرك أصحاب هذا المزاج أبدا ان انتظار ما تصنعه الأمة لا يصح أن يكون واجبا على الأفراد الاغمار فضلا عن الزعماء البارزين ، لان المرجع هنا إلى مزاجهم لا إلى رأيهم وتفكيرهم ، وكيف يكون المزاج مزاج راحة ووجهة وتكون العقيدة بعد ذلك عقيدة كفاح ومجازفة في محنة الفداء والحرمان ؟

وربما لحق بهذه الملاحظات أن معظم أعضاء الوفد كانوا لا يدركون معنى «المبدأ» الذي تنجح به الثورات وتقوم عليه الدعايات ، ولا يصدقون

في دخيلة أذهانهم أنه عدة حقيقية في وجه القوة الغالبة والمصلحة الشخصية ،
فهذا في رأيهم كلام جميل توصى به مكارم الاخلاق ، ولكنه لا يليق بالشيوخ
المحنكين والرجال العاملين

وقد يسمعون بأناس من قادة الثورات وزعماء الدعوات صبروا على
الشدائد سنوات بعد سنوات لأنهم يريدون شيئاً لا يعدلون عنه إلى سواه ،
فغاية ما يفهمونه من شأن هؤلاء أنهم أناس نظريون أو مثاليون يصلحون
لضرب الأمثال في الكتب ولا يصلحون لتدبير الأعمال في الحياة ، ويعسر
عليهم جدا أن يفهموا أن « المبدأ » عند أولئك القادة والدعاة إنما كان
« عنوانا » أو تلخيصا للأعمال المنتظرة ولم يكن خيالا في الفضاء أو أملا
مثاليا من أحلام البطالة ، رسموه وقدروه وعولوا في تقديره على الممكنات
التي تتحقق بعد مغالبة الصعوبات ، إذ ليست الممكنات التي تتحقق بغير
صعوبات في حاجة إلى مبدأ أو ميثاق ، لأنها تأتي وحدها ولا يتجاوز عمل
الانسان فيها أن يتربها مع الأيام .

وقد كانت أكبر آفات هذا الفريق من أعضاء الوفد أنهم كانوا إذا
شعروا بالنقائص التي تعتور الثورة المصرية حسبوا أنها نقائص موقوفة
عليها وحدها وقد دخلت منها الثورات الأخرى التي يقرءون عنها . ولم يخطر لهم أن
الثورات على البعد جميلة خلافة لا تبدو فيها إلا آيات البطولة ومفاخر الأقدام
والإيثار ، ولكنها على القرب مشحونة بالحماقات والشهوات على شبه واحد
بين جميع الأمم في هذه السمات ، وما جاءتهم هذه الآفة إلا من قلة درس
التاريخ النفسى للجماعات والأبطال ، ومن قلة الخيال الذي يترجم المقروءات
ويصورها للذهن كوقائع العيان ، أو الخيال الذي يقرب ما بين عالم التصور وعالم
الشهادة لأنه يعرف كيف تكون الصور المكتوبة حين تقع في البيئة الانسانية
ويعرف كيف تكتب الوقائع حين تتجرد من التفاصيل وتنطوي في حيز
الاختصار والاجمال . وهنا يبدو لنا كيف أن ملكة « الخيال » ملكة عملية

لاغنى عنها لأصحاب المجهودات الواقعية ، لأن صاحبها أقدر الناس على تصور
الممكن فيما مضى والممكن فيما سيأتى مع الأيام ، فلا يخذعه الواقع المحسوس
فينسى الشبه بينه وبين التاريخ الموصوف ، ولا يخذعه التاريخ الموصوف
فيحسب أنه مخالف للواقع المحسوس

ومع هذه العيوب فى معظم أعضاء الوفد لم يكن بد من اختيارهم أو اختيار
من يمثلهم فى هذه الصفات

لأن سعداً كان مقيداً بالصبغة الرسمية فى تمثيل الأمة ، فكان لا يسهل
عليه الاستغناء عن شركاء من « الجمعية التشريعية » أو من الذين تؤيدهم هذه
الجمعية ، وضاعف هذه الضرورة أن الحالة فى بدايتها كانت تستلزم العلاقة
الحسنة بين الوفد والوزارة المصرية . حتى يتأتى لهذه أن تعترف بالوفد أمام
الانجليز وتتكلم عنه باللغة الحكومية التى يتكلم بها الرجال الرسميون
وقد نشأت فكرة الوفد فى إبان الحرب العظمى يوم كانت الرقابة الصارمة
مفروضة على المقابلات والمشاورات السياسية ، فلم يكن من الميسور أن يتسع
أفق الاختيار والمشاورة بين المرشحين لتمثيل الأمة فى جميع أنحاء البلاد
ونحن نعلم الآن موضع هذه الصعوبة حين نعلم أن كثيراً من الأعضاء
كانوا يسكنون فى شارع سعد أو فى الحى الذى يسكن فيه ، فليس بين منزله
ومنازل حمد الباسل باشا وحسين واصف باشا ومحمود أبو النصر بك وعلى
شعراوى باشا ومحمد محمود باشا وبعض الأعضاء الآخرين غير دقائق معدودات
ولهذه العجلة فى تأليف الوفد صدرت التوكيلات الأولى وليس عليها من
أسماء أعضائه غير سبعة أسماء ، ولم يتفق أن يكون بينها أحد من الممثلين للطائفة
القبطية كما هو المقرر بين أعضائه ، فلاحظ ذلك وجهاء القبط وفضلاؤهم فى نادى
رئيس ، وأوفدوا الأستاذ ويصا واصف ومعه عضوان من أعضاء النادى لمناقشة
سعد فى هذا الموضوع . وظنوا أن الوفد لم يفكر فى ضم أحد ممن يمثلون الطائفة
القبطية اليه . وظن سعد حين فاتحوه فى الأمر أنهم يرشحون الأستاذ ويصا لهذه

الوكالة فرحب باختياره وأثنى عليه ، ولكن الأستاذ ويصا تنحى معتذرا
واقترح أن تكون الوكالة لرجل مثل واصف غالى باشا سليل البيت المكين في
الطائفة القبطية ، فقبله سعد على الرحب والسعة

ولم تكن هذه أول مرة خطر له فيها تمثيل الطائفة في الوفد المصرى الممثل
لجميع الأمة ، ولكنه وزملاءه كانوا حريصين أول الأمر على اختيار
الأعضاء من الجمعية التشريعية ، وكان جميع أعضائها القبط من المعينين لامن
المنتخبين ، والمعينون لم تعينهم الحكومة بطبيعة الحال إلا لأنهم من أنصار
الاحتلال أو أنصار الوزارة السعيدية التى تم فى عهدا تعيين الأعضاء .
فأما أنصار الاحتلال فلا يصلحون لتمثيل الأمة فى هذه المهمة ، وأما أنصار
الوزارة السعيدية فكانوا يميلون الى الوفد الآخر الذى كان يسعى محمد سعيد فى
تأليفه كما تقدم . وسرعان ما علم سعد أن سينوت حنا بك يقبل الانضمام اليه
حتى دعاه الى وفده ، وتوسعوا بعد ذلك فى التمثيل غير متقيدين بالجمعية التشريعية
أو بغيرها من الهيئات النيابية ، ونحسب أن واصف غالى باشا لو كان يومئذ
فى مصر ولم يكن فى باريس لانتحلت هذه المشكلة من البداية

ومن المسائل التى لم يكن فى الطاقة أن يتجاهلها مؤلف الوفد مسألة
التبرعات المالية ، فهى ضرورة لا بد منها لهذا العمل الكبير فى مصر وأوربا
وسائر الأقطار التى قد تدعو الحاجة الى زيارتها ونشر الدعوة بين شعوبها ،
فاصحاب الثروة — كائناً ما كان نصيبهم من الرأى — عنصر لامناص من
تمثيله فى الهيئة التى يتبرعون لها بالهبات الجسام

ولعل اختيار أناس من « المعتدلين » كان ضرورة أخرى لا محيد عنها ،
لأن اشتراكهم فى الوفد دليل على إجماع الأمة واتفاق كلمتها على المطلب
والخطة ، وقد ينزع اشتراكهم فيه دعوى الانجليز الذين تعودوا أن يفرقوا
بين معتدلين من الأمة ومتطرفين ، كلما واجههم المصريون بطلب الاستقلال
وفى هذا الاشتراك اتقاء للشر الذى ينبج عن ترك هؤلاء المعتدلين وراء

الصفوف بين الأمة والانجليز ، منفصلين عن الحركة أو خارجين عليها . وقد طالما زعم الانجليز انهم يستنكرون الآمال المصرية لأنهم لا يذعنون لمطلب يجيئهم من طريق اللدد والعناد . فاذا جاءتهم مطالب مصر من هيئة لم يستأثر بها المتطرفون ، فقد يميلون الى اجابتها وذلك خير ، وقد يعرضون عنها كما أعرضوا من قبل وذلك خير أيضا . لأنهم يطلعون الأمة على نياتهم ويدلونها على أنهم يرفضون الاصغاء اليها لأنهم ينكرون حقوق جميع المصريين لا لأنهم ينكرون وسيلة حزب من الأحزاب

ومن العوامل التي كان لها شأن في تأليف الوفد الرغبة القوية في التوفيق بين الوفد الذي تالف برآسة سعد في القاهرة والوفد الذي تالف برآسة الأمير عمر طوسن في الاسكندرية ، فان سفر وفدين إلى أوربا لتمثيل الأمة المصرية كان خطرا على القضية المصرية ، يجب اتقاؤه بكل ما استطاع . لأنه يتم على انقسام في صفوف الأمة ، ويفتح باب الدسائس وانكار حق الفريقين على السواء

ولم يشأ أصحاب الرأي في تأليف الوفد أن يجعلوه مقصورا على « المعتدلين » أو من يسميهم الانجليز بالمعتدلين ، فكان اختيار مصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفي ومحمد علي بك وعبد اللطيف أفندي المكباتي مقصودا به تمثيل الحزب الوطني وعنصر الشبان العاملين في القضية الوطنية ، لأن هؤلاء الأعضاء كانوا من رجال ذلك الحزب أو من المعروفين بالميل اليه .

على أن الذين لاموا سعدا يومئذ على اختيار العنصر المعتدل في الوفد لا يستطيعون أن يلوموه على ذلك اليوم ، فلو أنه ملك الاختيار وحده وكانت له السيطرة القاهرة على الحوادث والناس فلم يدخل في الوفد إلا المتطرفين لما ضمن بذلك شدتهم في الحق وثباتهم على الطلب ، لأن المتطرفين كما نراهم الآن قبلوا كل ما قبله المعتدلون من المطالب المنقوصة ،

وسابقوهم في اغتنام الفرصة والاعتزاز بفتنة الوظائف ، وأسف بعضهم إلى استحقاق المكافأة من شر الوزارات وأعنفها في ارهاق الأمة المصرية والجور على حقوقها الدستورية ، حتى ذلك الفتى الذي كان يتوقد بالحماسة في خطاب سعد ولا يرضيه إلا أن يكون الأعضاء كلهم من الحزب الوطني قد عاد فقبل الوظيفة من وزارة قاطعتها جميع البلاد . وانفض المتطرفون بعد ذلك من حول سعد كما انفض المعتدلون ، فلم يبق معه منهم إلا مصطفى النحاس الذي خلفه على رأسه الوفد بعد وفاته ، وهو لم يكن مع هذا عضوا في الحزب الوطني وإنما كان من أنصار مبادئه ومطالبه العامة ، والاسينوت حنا بك وهو لم يدخل الوفد ممثلا للحزب الوطني بل ممثلا لوفد الأمير عمر طوسن وللطائفة القبطية كما تقدم ، فكانت عصمة الوفد الكبرى رأسه سعد عليه وتأيد الأمة له وثقاته ، وتلك ذخيرة استمد منها زاد الأنصار والأعوان كلما احتاج اليهم فلم تبخل عليه بالمدد ، ولا نخال أحدا يعرف ذخيرة أنفع منها للشعوب في جهاد الحرية .

فتقلب الأفراد مع النزوات والمنافع والأهواء النفسية آفة لا يسلم منها حزب سياسي ولا دعوة انسانية ، وزعامة قوية وعقيدة قومية هما العصمة الكبرى من شر هذه الآفة ، فاذا اجتمعتا كانت كل منهما للأخرى حافزة ومشجعة لها ورقية عليها ، فتبث الزعامة من روحها في الأمة وثبت الأمة من روحها في الزعامة ، وفيهما الكفاية

موقف الوزارة الرشدية

كانت للوزارة الرشدية علاقة وثيقة برئيس الوفد وأعضائه . فمن اللازم الآن أن نجمل الكلام عن حالتها وحقيقة موقفها كما أجملناه عن حالة الوفد أثناء تأليفه الى اطلاق سبيله وسفره

فما لاشك فيه أن الوزارة الرشدية نفعت الوفد نفعاً كبيراً بطلب سفره الى أوروبا واصرارها على الطلب عند رفضه ، ولكن هذا النفع — مهما يبلغ من أثره في بداية الحركة — لم يكن من شأنه أن يرفع من طريق الوفد تلك العقبات الجسام التي أقامتها أمامه وأمام الشعب المصري بما سلف من مسلكها في أوائل الحرب العظمى . فان هذا المسلك الذي خلا من الاقدام والخنكة قد أقنع الانجليز بسهولة الاغضاء عن مطالب المصريين العادلة ولا سيما مطلب الاستقلال والغاء الحماية ، وأقنعهم بسهولة سوق المصريين الى الحرب في غير مجاملة ولا مكافأة . وهو مسلك ضعيف هزيل أفرط في الضعف والهزال حتى عابه بعض الانجليز كما عابه جميع المصريين : فقال الكولنل الجود في كتابه الموجز عن التاريخ المصري : « لقد كانت لحظة محيرة لرشدي باشا رئيس الوزارة . فقد كان الخديو في الآستانة وكان زملاؤه متفرقين وليس أمامه ملجأ للاستشارة ، ومصصلحة مصر تقضى بالحيدة ومصصلحة بريطانيا تقضى بالاشتراك في الحرب . فانضوى رشدي باشا أمام تهديد المندوب البريطانى الى الثانية لا الى الأولى . ولو أن وزيراً أقوى من رشدي باشا في مكانه لعمد الى المساومة . ولكنه لم يشترط شيئاً وحاقت العاقبة بمصر من جراء هذا الازمالة ، وليس في وسع رشدي أن يقول كلمة تخفف من وقع تسليمه » .

قبل رشدي وأصحابه الحماية وقطع العلاقات بالدول الوسطى دون وعد

ولا شرط ولا مساومة ، ولم يكتفوا بهذا حتى يقال انهم أذعنوا للحماية مكرهين في انتظار التغيير أو الالغاء عند سئوح الفرصة . بل تجاوزوه الى التطوع بالأحاديث والتصريحات التي هملوا فيها للحماية واعتبروها أمنية من الأمانى طال اشتياقهم الى تحقيقها . فقال رئيسهم رشدى باشا فى حديث له مع مراسل الديلى كزونىكل عقب اعلان الحماية :

«... مادامت قناة السويس حلقة اتصال بين أجزاء الامبراطورية البريطانية ، وطريقاً لازماً لانجلترا ، فمن الطبيعى أن نتعقد بين بريطانيا العظمى ومصر صلات الود المتينة ، وزد على ذلك اننا أمة ضعيفة نحتاج إلى صديق قوى يصون بلادنا من كل اعتداء ويكون على جانب من الحرية والارتقاء ليتيسر لنا أن نسير بارشاده فى معارج الحرية إلى ذلك المقام الذى يليق بنا فى مصاف الدول . وهذه الشروط متوافرة فى انجلترا ، فان لديها من القوة ما يمكنها من الدفاع عن قطرنا ، ولها من معاملة البلاد التى تماثل القطر المصرى تقاليد عطف وحرية !»

الى أن قال : «... على أن مصر لا تنتظر الآن أن تقطع مسافات واسعة فى وقت قصير بل تؤمل السير خطوة خطوة ..»

وتحدث فى الثامن من شهر يناير سنة ١٩١٥ إلى مراسل التيمس فقال : « لقد حقق هذا التغيير ما أمّلته طويلاً . إذ كان من رأى دائماً أن مصر كبيرة الشأن بالنظر إلى موقعها الجغرافى ، وانها تثير المطامع عند الدول الأخرى وهى ضعيفة لا يتأتى لها الدفاع عن نفسها ، فلكى تحافظ على وجودها ينبغى أن تكون تحت سيطرة دولة عظيمة وهى تصبو إلى بلوغ استقلالها الداخلى ، والأمة الوحيدة التى يتوافر فيها الشرطان اللذان هى بريطانيا العظمى ، لأنها قادرة على حماية مصر ، وتقاليدها الحرة خير ضامن لتحقيق آمالنا . أما استقلال مصر الداخلى الذى لا أظن بلوغه ممكناً الآن فأرى انه قد يتسنى البدء فيه بتحويل المصريين رأياً نافذاً فى المسائل المصرية البحتة التى لا علاقة

لها بمصالح الأجانب : مثل الأوقاف والمحاكم الشرعية والمجالس الحسينية . الخ
واستمر على هذه النعمة الهزيلة حتى بعد انتهاء الحرب العظمى وتحفز
البلاد للطالبة بالاستقلال ، فخصر الغرض من سفره إلى إنجلترا في تنظيم
الحماية وذكرك في كتاب استقالته حين قال : « وفي ذلك الوقت طلبت
وفود مؤلفة من بعض هيئاتنا النيابية السفر إلى لندن للدفاع عن قضية مصر .
وقد أشرت بأن يؤذن لها بالسفر ، فلم تهمل مشورتى فقط بل رُفض سماع
آرائى فيما يحتمل أن يكون عليه نظام الحماية .. »

وبما لاخلاف فيه أن مسلكا كهذا لم يكن من شأنه أن يقنع الانجليز
بالاكثر لمطالب الاستقلال والخلاص من « نعمة الحماية المشتهة » ...
وإنما كان أثره الطبيعي أن يجنح بهم إلى اهمال المطالب الوطنية واتهام أنصار
الاستقلال بالغلو والشطط والاجترار الذى لا يستحق من الدولة المسيطرة
على البلاد أن تقابله بغير الاعراض والقمع الحاسم . فالوزارة الرشدية
والموظفون الانجليز الجاهلون بحقيقة الحركة الوطنية مشتركون على السواء
في تشجيع السياسة البريطانية على موقف الاستخفاف الذى وقفته بازاء الشعب
كله . ثم تشبثت به بعد نشوب الثورة بسنوات ، ولا تزال البلاد إلى هذه
الساعة تعاني ماتعانى من جرائره وبقاياها .

لقد أدخلت أحاديث رشدى باشا فى روع الانجليز أنهم خلقاء أن يرفضوا
الاستقلال ويرفضوا الغناء الحماية ، وهم على ثقة من وجود مصريين يرضون
بمادون ذلك ويحسبونه غنما مقبولا ، ويجدون فيه تسوية لمسلكتهم السابق
وتكفيراً عن أخطائهم الأولى وتحقيقاً للرأى والمصلحة فى وقت واحد ،
إذ يكونون هم ولاية الحكم وأصحاب الوزارة عند تنفيذ السياسة القائمة على
دوام الحماية .

نعم قد نزلت الوزارة الرشدية عن ولاية الحكم حين رفض الانجليز
سفرها وسفر الوفد ، ولكن هل كان لها بد من ذلك بعد ما لحقها من الاهانة

وخيبة الأمل بمنع سفرها وإغفال شأنها مع ما أسلفت من خدمة وأظهرت من قنوع باليسير ؟ وهل كان صدورها عن الحكم إلا كصدوف المستوزرين الآخرين عنه في تلك الحالة ؟ فلو أنها قبلت الحكم وبقيت في المناصب لما كانت نهايتها إلا كنهاية الوزارات التي قامت على الرغم من اجماع الأمة فلم يقبل منها الانجليز ولا المصريون أن تبحث في القضية المصرية ، حتى اضطرت إلى انتحال وصف الوزارات « الادارية » لتبرىء نفسها من شبهة الاشتغال بالقضية السياسية في تلك « الظروف »

ونحن نعتقد أن حسين رشدي باشا كان رجلا نزيهاً حسن المقصد فيما قال وعمل ، وكذلك كان زميله عدلى يكن باشا الذى كان موضع سره ومرجع رأيه . ولكن الآفة قد خامرتهما من حيث يشعران ولا يشعران ، لأنها آفة الضعف وقلة المراس على الجهاد فى دعوات الشعوب... فهما من طينة لا تمتزج بالروح الشعبية ، ولا الروح الشعبية تمتزج بها ، ولعلمنا ينظران بعين الخوف والتوجس إلى وثبات الأمم واعتلاج صدورهما بالقلق ودوافع الحياة . لأنها تلوح لهما كالمارد الجامح لا يملك ان إحضاره ، وإذا حضر لا يملك ان توجيهه ولا صرفه

فليس الرجلان زعيمين قوميين ، ولكنهما من رجال الديوان وعشاق الانتظام فى الأعمال على الطريقة « الديوانية » التى تجمعهما مع الانجليز الحاكمين بجامعة النظام « وتوطيد الأمن العام »... وربما نظرا فى دخيلة نفسيهما فلم يشعرا هنالك بالغضاضة الأليمة من بقاء المصريين محكومين لدولة أجنبية ، لأنهما قد نبتا فى بيئة الحكم ولم يفتتا فى بيئة الشعب المحكوم ، ولا يشعران كذلك بغضبة الالهانة المثيرة للنفوس إذا قيل إن المصريين لا يصلحون للحكومة المستقلة ، فانهما قد يعزيان عن هذه التهمة بأنهما من سلالة جنس غير الجنس المصرى الصميم ، وهى السلالة التركية القديمة .

فليس لهما من طبيعة الثورة ولا من طينة الكفاح والجهاد ولا من غضبة

المرء لطائفته ولجنسه ما يضرم الشوق إلى الاستقلال ويهون المشقة عليهما في نشدانه ، وانهما لمخلصان في الهوادة والتسليم ولكن لا عذر لهما من ذلك إلا أنهما عاجزان عن الاخلاص في الغضب والمثابرة واليقين . . . وليس من يضعف وهو مخلص كمن يقوى وهو مخلص في زعامة الشعوب

ومن ثم كان مسلكهما في الدعوة الوطنية إلى جانب سعد زغلول المكافح بطبعه المصري في صميمه ، كمسلك المحامى الذى يؤدى أمانة الصنعة إلى جانب صاحب القضية الذى يشعر بالاهانة في ذات نفسه ويشعر بالخسارة في ماله وحياته .

انا لانحِب أن نبخس ما صنعته الوزارة في خدمة الوفد وتذليل عقباته ولكننا نقرر الحقيقة حين نقول ان الوفد كان وشيكا أن يفتح طريقه إلى أوروبا بغير هذه الخدمة ، فان الأمة قد ثارت لاعتقال سعد لا لاستقالة الوزارة الرشدية ، وكانت ثورتها هي مفتاح الطريق إلى أوروبا بعد إيصاد الانجليز إياه اغتراراً بمسلك الوزارة الرشدية وترحيبها بالحماية ، واستمرارها على طلب المفاوضة في تنظيم تلك الحماية ، ولولا اغترار الانجليز بهذا المسلك المعيب لما كانت هناك صعوبة كبيرة في الاذن للوفد بالسفر إلى حيث أراد ولا يفوتنا في هذا الصدد أن ننظر إلى الباعث الأكبر الذى حدا بالوزارة إلى السير في وجهة الحركة الوطنية وتذليل ماذلت من العقبات في طريق تلك الحركة . فقد كان رشدى باشا وعدلى باشا ينظران أبدأ إلى ما يعمله سعد وما ينوى أن يعمله وما هو قادر على عمله ، وكانا يحسبان حساباً لليوم الذى يتولى فيه قيادة الأمة والوثوب بها إلى مقاومة الحماية ، ولهذا رحبا بما اقترحه السلطان فؤاد من اشراكه في الوزارة قبل انتهاء الحرب العظمى بأكثر من سنة ، عسى أن يشترك معهما في التبعة ويمضى معهما على خطة واحدة ! ولهذا رفضا السفر إلى إنجلترا حتى يسافر سعد فيقبل ما يقبلان أو يعجز عما يعجزان عنه ، ولهذا عادا بعد ذلك يقولان في حديثهما مع اللورد

هلتر أن إلغاء الحماية شرط لا بد منه للدخول في المفاوضات وهما اللذان قبلا
الحماية على أنها بركة ونعمة موموقة ، وما تغير من الأمر في هذه الأثناء إلا
أنهما يحسبان حساب سعد وما يقبله أو يرفضه في المفاوضات المصرية الانجليزية
بل لهذا أيضا رفض عدلى بعد سنتين مقترحات اللورد كرزون وعرض
عليه في الوقت نفسه أن ينفذها من جانب الانجليز بغير موافقة من جانب
الوزارة كأنه يرضى تنفيذ تلك المقترحات ولكنه لا يجسر على توقيع
اتفاق دون الذى يرضى سعد بتوقيعه .

وليس بنا أن نعرض لهذه الصفحة من تاريخ الثورة لولا أننا نتابع طريق
المطالب الوطنية في تقلباتها إلى غاياتها . ولا يسعنا أن نتابع هذه الطريق
على هدى من خطوات السالكين فيها ما لم نقف على دخائل أعمالهم والمقاصد
التي تحيك في نفوسهم ، وعلى أسبابهم في مخالفة سعد ، وأسباب سعد في
مخالفتهم ، فهي صفحة لا بد منها لدراسة صفحات ، وليس من مصلحة التاريخ
ولا من مصلحة الأمة المصرية أن تطوى لمصلحة أفراد

برنامج الوفد والامتيازات

تلك خلاصة الظروف والموانع التي قيدت ارادة سعد في اختياره لأعضاء الوفد وموقفه من الوزارة . وما كانت حرিতে في هذه الظروف بأكبر من حرিতে في اختيار السياسة التي رسمتها لنا بياناته وخطبه الأولى . فما يستوقف النظر في تلك البيانات والخطب أنه لم يجهر فيها بما يفيد الرغبة في إلغاء الامتيازات الأجنبية ، وهي سد يحول دون الاستقلال كما يحول دونه الاحتلال . فلماذا اختار هذه الخطة ولم يعول على طلب الغائها منذ اللحظة الأولى ؟

إذا أردنا أن نعرف السبب فلنسأل : هل كان في وسعه أن يختار الخطة الأخرى وهي المطالبة العاجلة بالإنهاء ؟ وإذا اختارها فماذا يستفيد لبلاده ؟ وماذا يصيب القضية التي نهض بأمانة الدفاع عنها بين الأمم الأوربية في إبان انعقاد المؤتمر ؟

إنه لن يصل إلى إلغاء الامتيازات وإلغاء الحماية في وقت واحد . ولن يستفيد شيئاً للقضية المصرية من الأوربيين ولا من الانجليز ، وكل ما هنالك أنه كان يجعل الأوربيين والانجليز صفاً واحداً في مقاومة الأمة المصرية ، وكان يمهّد يديه دليلاً للانجليز يحاولون أن يثبتوا به مازعموه من أن القضية المصرية إن هي إلا نزعة تعصب ولجاجة في كراهة الحضارة الأوربية وإنه لخير لسعد ولو فده أن يلبثوا في مصر من أن يواجهوا الدول الأوربية بهذه العقيدة ، وهم شاخصون اليها ليعتمدوا على إقناعها وحسن عطفها في الخصومة بين مصر والدولة البريطانية .

ومن الأمور المحتملة أن يستنكر الأوربيون فرض الحماية البريطانية على

مصر إذا وثقوا من ضمان امتيازاتهم فيها . ولكن من المستحيل أن يستنكروا الحماية ويستنكروا امتيازاتهم في وقت واحد بغير ضمان . وقد كان المؤتمر يوم ذلك يفرض على الأوربيين المهزومين نوعا من الامتيازات أو نوعا من القيود والشروط . فمن غير المعقول أن ينزل المنتصرون عن امتيازاتهم بيننا طائعين ، ومن غير المعقول ولا المفيد ان نرغمهم على النزول عنها . كما نأمل عليهم وعلى الدولة البريطانية شروط المنتصرين

لقد كان أمل الانجليز من عهد كرومر وكتشنر إلى عهد المفاوضات مع ملنر وكيرزون أن يلغوا الامتيازات ويحصلوا من الدول على اعتراف لهم بحماية المصالح الأوربية بيننا ، فكل ما توقعه باثارة المسألة في أيام الصلح أن نهيء لهم أمرا من أمرين : أما ابقاء الامتيازات وهم أصحاب الفضل في ابقائها أمام الدول الأوربية ونحن المتهمون بالعداء والمعارضة . وأما الغاء الامتيازات واحلال بريطانيا العظمى محل الدول في حماية الأجانب أجمعين . . . وإذا أفلحت السياسة الانجليزية في هذا المسعى فذلك تسجيل للحماية على الرغم منا ، وليست هذه هي الغاية التي من أجلها تألف الوفد ، وسافر إلى باريس

أما إذا نجحت الدعوة إلى الغاء الحماية البريطانية فان تعديل الامتيازات أو الغاءها بالمساومة والحزم ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية ، فقد استطاعت تركيا وفارس والصين أن تعدل امتيازات الدول فيها أو تلغيها وهي ليست بالأمم القوية في العدد الحرية ، ولو كانت قوية لما استطاعت أن تعتمد على قوتها في حرب الدول الكبرى والصغرى مجتمعات ، فاذا عاجلنا نحن مسألة الامتيازات بمثل الوسائل التي عاجلتها بها ، بلغنا ما نريد مع الزمن ولم نفتح للاستعمار البريطاني باب الدسيسة بيننا وبين أصحاب الامتيازات

هذا أهم ما يلاحظ على المطالب الوطنية كما جاءت في برنامج الوفد المصرى
أما خطة السير في المطالبة وهي مواجهة العميد البريطانى فرجال الدولة
البريطانية فالرأى العام في البلاد الانجليزية وفي بلاد العالم أجمع . فقد الفينا
أناساً من الخصوم الحزبيين يعيبنونها ولكننا لانرى رجلاً منصفاً يوافقهم أو
ينصح برأى أحق منها بالاتباع . فمن الطبيعى أن تطلب إلغاء الحماية أول الأمر
من فرض الحماية وان تسبر استعداد الدولة البريطانية قبل أن تقيم الحججة عليها ،
فان كان استعداداً حسناً على أضعف احتمال فقد اختصرت الطريق ، وإن
كان سيئاً فلا خسارة عليك ، بل أنت تمنعها بعد ذلك أن تزعم انها أحبت أن
تجيبك وترضيك لولا أنك أغفلتها وأهنتها بالتشهير بها والقصد إلى غيرها
وهذه هي الخطة التي توخاها الوفد المصرى وأحسن فيها : أبلغ العميد
البريطانى أن الأمة تطلب إلغاء الحماية ، ولما علم ان الحكومة البريطانية
لا تنظر بعد في طلب الاستقلال أبى أن يخاطبها في مطلب دونه ، واعتمز
أن يكون كلامه هذا إلى الرأى العام « حيثما وجد اليه سيلاً » وقد كان
أقرب السبل اليه أن يبدأ دعايته إلى جانب مؤتمر الصلح قبل ارفضاضه ،
وإلى شعوب العالم الحرة من حيثما اتصل بها نداؤه ، وهذه خطة لاغبار
عليها ولا يشير الخصوم الحزبيون بأصلح منها

الوفد في أوربا

عند ما طلع الرئيس ويلسون على العالم ببشارة السلام ومبادئ الحرية والانصاف صدقه كثيرون ورحب به كثيرون ، لانهم استبعدوا ان يخرج بنو الانسان من تلك الأهوال والمآثم بغير عبرة ، وأن يقدموا على تكرار المأساة الجهنمية وهم لا يزالون يكتبون بناها ويتلوون من آلامها...

ولم يهزأ بدعوة ويلسون من أساسها الا طائفة من ثلاث طوائف : وهم المستعمرون الرجعيون ، لأن الدعوة لاتوافق سياستهم ولاتحقق لهم مطامع القهر والاستغلال

واليائسون من أخلاق بني الانسان ، لانهم يهزأون بجميع المبادئ ولايحسبون الانسان صادقا في شيء غير المصالح القرية والشهوات الحيوانية والاشتراكيون لانهم يرون أن العوامل الاقتصادية هي علة الدعوات الاجتماعية والمذاهب الاخلاقية ، فلا فائدة من احاديث المروءة والرحمة وتقرير المصير مادام نظام رأس المال هو النظام القائم في المعاملات ، وهو الحافز الى الغارات والحروب والمنافسة بين المستغلين والمستعمرين

ولم يكن سعد مستعمرا رجعيا ولا يائسا من بني الانسان ولا اشتراكيا ولا قارئا متبعا لأراء الاشتراكيين ، ولكنه كان رجلا مطبوعا على نجدة الضعيف واغاثة المظلوم فلا غرابة عنده في هذه العاطفة ، وكان قانونيا يقدر القوانين والشرائع فلا غرابة لديه في التوسل بالتشريع وحقوق المعاهدات لفض المشاكل واصلاح الآفات

لذلك رحب بالدعوة الولسنية ولم يستبعد تحقيقها كما قال في خطابه بمنزل حمد الباسل باشا : « من الناس من يرون هذا المذهب السياسي الجديد أجمل

من أن يتبع في هذه الحياة الدنيا : حياة المزاحمة على البقاء والمغالبة على المنافع... نعم مذهب جميل ، ولكن تطبيقه ممكن متى جد الدكتور ويلسون في تطبيقه بحزمه المعروف . وأنه لجاد . بل ارتقى الى أن أقول إن تطبيقه سهل متى صححت نيات أكثرية الدول التي اقرته بالاجماع . ذلك لأن هذا المذهب غير مخالف لما ألف الانسان في الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الاخلاقية ، ثم هو متفق مع الافق الذي وصلت اليه الانسانية في تطورها الجديد ... »

وعلى هذه العقيدة كان يرجو الخير الكثير من الدعوة الولسنية ، وأقل ما يحق له أن يرجوه أن لا تنقلب هذه الدعوة في إبان الصلح عونا للاقوياء على الضعفاء وعقبة في وجه المطالبين بالحقوق ، فكان أول ما فكر فيه ساعة وصول الباخرة « كلدونيا » الى مارسيليا أن أرسل الى الرئيس ويلسون يطلب منه الاذن في مقابلة خاصة للوفد المصرى المطالب بحقوق الامة المصرية . فلم يجئه الرد المنتظر من رسول السلام وإنما جاءه رد لم يكن يخطر على بال متفائل ولا متشائم . فان الولايات المتحدة اعترفت بالحماية البريطانية على مصر فى اليوم التاسع عشر من شهر ابريل ... أى بعد وصول الوفد المصرى الى مارسيليا بيوم واحد !

يحار الانسان ولا يدري كيف استطاعت السياسة البريطانية أن تحمل ذلك الرسول المبشر بحقوق الضعفاء على نقض مبادئه رأسا على عقب ، واستباحة الفصل فى قضية لم تعرض عليه من جوانبها المختلفة ؛ ولكن ساسة الانجليز على ما نظن قد ادخلوا فى روعه أن المصريين أساءوا فهم دعوته وتشجعوا بها على الثورة وتهديد الحضارة والمصالح الاجنبية ، وأن كلمة منه تحقن الدماء وتعيد الأمن الى قراره وتصون ارواح الاوربيين ومرافق العمران ، وأن ترك مصر عرضة للتنازع عليها بين الدول قد يجر العالم الى حرب كالحروب التي كان يتقيها ويدبر باجتناها ، فبقاؤها فى ظل الحماية أصون للسلام وأنى للحروب ، وربما وعدوه أن ينصفوا المصريين متى ثابوا الى السكينة واستعدوا للاصغاء الى صوت الحكمة والنظام .

وقد اهتمت الحكومة البريطانية بنشر اعتراف الرئيس ويلسون في مصر من دار الوكالة الاميركية ، فاذا عت دار المنسـدوب البريطاني بلاغا جاءها من همسون جارى وكيل الولايات المتحدة يقول فيه : « أتشرف بأن أقول إن حكومتى أمرتني أن أبلغكم أن رئيس الجمهورية يعترف بالحماية البريطانية على القطر المصرى وهى الحماية التى بسطتها حكومة جلالة الملك فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ . هذا وأن الرئيس باعترافه هذا يحفظ بالضرورة لنفسه حق البحث فيما بعد فى تفاصيل هذا الاعتراف ، مع مسئله تعديل حقوق الولايات المتحدة التعديل الذى يقتضيه هذا الأمر . وقد كلفت بهذا الصدد أن أقول أن رئيس الجمهورية والشعب الامريكى يعطفان كل العطف على أمانى الشعب المصرى المشروعة للحصول على قسط آخر من الحكم الذاتى . ولكنهما ينظران بعين الأسف إلى كل مسعى لتحقيق هذه الامانى بالتجاء الى العنف »

وأن صيغة هذا التبليغ لتشف عن الغرض منه وعن المسعى الذى سعته الحكومة البريطانية عند الرئيس ويلسون لاقتناعه بوجوبه . . . فباسم الامن وكراهه العنف ، وبعد الوعد بمنح المصريين قسطاً اخر من الاستقلال الداخلى ، ظفرت الحكومة البريطانية بذلك الاعتراف وبادرت الى اذاعته فى مصر وأربا وتعمدت أن تصدم به الوفد ساعة وصوله الى أوربا ليفت الخبر فى عضده ويزعزع عنده من ثقة وأمل ، ويريه خيبة المسعى فى معارضة القوة البريطانية حيث ذهب فكان تديرها فى الافراج عن الوفد ولقائه بتلك الصدمة كتدير السجن الذى يطلق أسيره ويرصد له على أبواب السجن من يدهمه ويغتاله ، ليحقق به الكيد فى ساعة الفرح والاستبشار

لم تبالغ السياسة البريطانية كثيراً فى وقع الصدمة المفاجئة على الوفد ساعة نزوله بالأرض الفرنسية واقترابه من محكمة العدل والحرية . فقد بدا لسعد أول وهلة أن العمل فى أوربا لا يجدى ، وإن تركيز العمل فى مصر

أجدى وألزم . ولم يكن هذا ضعفا ولا نكوصا عن الكفاح لأن مقاومة
الانجليز في مصر تحت الأحكام العسكرية بعد الاعتراف بالحماية البريطانية
أخطر وأعضل من مقاومتهم في أوروبا على العاملين الجادين في المقاومة ... ولكنه
كان رأيا رآه فيما هو أصلح للقضية المصرية على حسب ما تبين في خطواته
الأولى بالبلاد الأوربية

وقد لمس وقع الصدمة في نفوس فريق من زملائه فاذا هو أفدح وأقدح .
فمنهم من كان قد دخل الوفد على تردد وريب في سلامة العاقبة ، ومنهم من
كان يؤثر اللجوء الى الحكومة الانجليزية ويؤمن في قرارة نفسه باستحالة
الغلبة عليها ، وقصارى ما طمعوا فيه من هوادتها أن تخشى بعض المعارضة أو
بعض المنافسة من الدول الأخرى في مؤتمر الصلح فتغلق هذا الباب باستجابة
بعض المطالب المصرية . فاذا بمؤتمر الصلح في قبضة يديها وعلى رأسه أكبر
الدعاة إلى الحرية وأكبر القائلين بمشاوررة الأمم المغصوبة في تقرير
مصيرها فمن البين إذن في رأيهم أن « مهمة الوفد » انتهت ولم يبق
له ما يرجوه من المؤتمر ولا من الحكومات المشتركة فيه . وقد صرحوا برأيهم
هذا وهموا بالعودة وأشاروا بها على زملائهم الآخرين

وقد أرادت الحكومة البريطانية أن تتبع هذه الضربة بضربة أخرى
تعجل بعمل التفكك والانحلال في صفوف الوفد والأمة المصرية : فنشرت
التيمس « اشاعة » ترجع فيها ارسال لجنة مستقلة الى القطر المصرى للبحث
عن أسباب الهياج واقتراح الاصلاحات الدستورية التي يتسع بها نطاق
الحكومة الدانية ، وتوقعت أن يصيب الخبر الوفد في سمعته وعزيمته أن
لم يصبه في تكوينه ووحدة رأيه : فاذا عاد بعض رجاله الى مصر وبقي بعضهم
في أوروبا فقد وقع الخلاف وهو بدء الانحلال ، وإذا عاد الوفد جميعه فقد
ملكته هي ورجعت به الى قبضة يديها وعرضته لسخرية أبناء وطنه ، واذا بقي
الوفد كله في أوروبا فعندها فسحة من الوقت لارسال اللجنة الى مصر وسؤال

المصريين عن مطالبهم وشكاياتهم بمعزل عن وفدهم الذي يدعى الوكالة عنهم
... فتلغى وكالته وتلقى درسها الصادع على الوكيل ومن أوكلوه . وأى درس
تشهيه السياسة الاستعمارية وتلقيه على الدعاة الوطنيين انجع وأوجع من أن
تضرب الوفد المصرى وتعاقبه هذه العقوبة القاصمة بيد الامة المصرية ؟

ومهما يكن من حساب الحكومة البريطانية فالشئ الذى لم تحسب حسابه
كما ينبغى هو أثر السخرية فى الطبيعة المصرية . فان المصرى ليتقى السخرية
اشد من اتقائه الضرر والخسارة ، وقد يستسلم للفجاعة ولكنه لا يستسلم
للغفلة ، ولهذا كانت ضربتها للوفد المصرى باعتراف ويلسون ضربة قوية
بارعة ولكنها كانت خليقة أن تفشل بعد الصدمة الأولى لأنها سخرية تعرضه
لسخرية أخرى . ولو أنها ابطأت برهة ولم يكن فيها معنى السكين المدبر والهزء
المرتب فى لحظة الانتصار والتفائل لكان رجاء الحكومة البريطانية فى
نجاحها أصدق وأسرع . ولكنها كانت بمثابة الاستدراج الى كمين مضحك أو
« مقلب » مهين . . . فجمعت لها الطبيعة المصرية كل ما عندها من الكراهة
للسخرية ومقاومة الشهامة المضحكة ، وهما فى الطبيعة المصرية قوة تعصم بها فى
أحرج الأوقات

ولم يلبث سعد وأصحابه بعد الخاطر الأول أن أعادوا النظر فى الأمر كله
فوجدوا إن العمل فى مصر قد يكون أولى وأصوب ولكن العودة الى مصر
بعد كل هذه القيامة التى اقامتها الامة لتمكين الوفد من السفر هى خيبة اليمه
لاتؤمن عقباها ، وقد تئس الامة من رجائها وتشككها فى دعائها ، وتعمل
بالتفرقة بين صفوفها

ووجدوا كذلك ان البقاء فى أوروبا لا يمنع تركيز العمل فى مصر
والاعتماد عليه فى الدعاية الاوربية . وقد تنفع الدعاية الاوربية فى تنبيه
عزيمة الامة كلما احتاجت الى تنبيه .

ومن بداية الأمر لم يكن رجاء سعد كله معقوداً على الحكومات والوسائل

الحكومية : اذا جاء الرجاء من هذا الباب فذاك خير واقرب سيلا ، وإن لم يجرى .
فالشعوب من وراء الحكومات والطريق الى الشعوب مفتوح لمن يحسن
ولوجه ويقوى على صعابه ، وهو القائل ان الشعب فوق الحكومة ، وهو الذى
أبى أن يسلم المطالب المصرية الى المندوب البريطانى والوزراء البريطانيين
احتفاظا بالجانب الأهم منها « لاستنارة » رأى العام البريطانى الذى يخضع
له المندوب والوزراء . وهو الذى عرف ان النائب فى « الجمعية التشريعية »
التي لاحقوق لها ولا نفوذ لأحكامها يملك من سلاح الحجة والبيان ما يكافح به
الوزارة ويكافح به جبار قصر الدبارة . فماذا حدث الآن ؟ هل حبط الرجاء فى
مؤتمر الصلح وفى ويلسون وفى لويد جورج ؟ حسن . إن وراء هذه الأسماع
أسماعا ووراء هذا المرجع مراجع : هناك الشعوب الأوربية ، وهناك شعب
ويلسون وشعب لويد جورج . . . ومن يدري ؟ فلعل شعب ويلسون قائل
غير ما قال وسامع غير ما سمع ، وبالغ فى احراج السياسة البريطانية مالم
يلغيه رئيسه المخدوع بتلك السياسة

يقول نيتشة : « كل مالم يقتلنى يزيدنى قوة » وهذه قولة تصدق على
كل رجل كبير الهمة مطبوع على الكفاح . فضربة الاعتراف بالحماية كانت
ضربة نافذة ولكنها لم تكن مميتة ، ومن ثم كانت ضربة حافزة للعناد مشيرة
للنخوة نافعة فى توطيد النفس على بعد الشقة

قال جورج لويد فى كتابه عن مصر منذ كرومر : « لم تنفع الصدمة إلا فى
اقناع زغلول اقناعاً جليلاً بأن العراق خليق أن يجرى إلى مداه فى الحومة
المصرية . فوجه همه على الفور الى تلك الحومة ، وطفق يدير المعركة من
مقامه بياريس ويبعث إلى أتباعه بمشجعات موهة (!؟) ولكنها أخاذة باهرة
بما تحدثهم عن الأنصار الذين يستميلهم للقضية الوطنية ، والنجاح الذى
يصيبه رجاله »

وقد أدار سعد المعركة في باريس على أتم وجه يستطيعه وفد من الوفود الشعبية، فان الوفد المصري على اعتباره غريباً عن الأجناس الأوربية قد استطاع غاية ما استطاع من نشر الدعاية الى جانب مؤتمر الصلح . فكتب إلى المؤتمر يطلب استدعاه لسماع أقواله لأن « الغاء السيادة التركية يقتضى حتماً تغييراً في حالة مصر السياسية التي قررتها معاهدة سنة ١٨٤٠ ولا يصح إجراء هذا التغيير في غيبة المصريين » . واتصل الوفد بكل من تيسرت لهم مقابله من رجال المؤتمر وأعضاء وفوده وكبار موظفيه ، وأقام المآدب للسانة والكتاب والصحفيين الأوربيين والأمريكيين ، ليشرح لهم الحوادث التي كانت تهملها الصحف ويريهم صور المظاهرات التي اشترك فيها السيدات ورجال الجيش وظهرت فيها الأعلام وعليها الصليب إلى جانب الهلال ، ويذكر لهم ما استفادوا الخلفاء من أموال مصر ورجالها مما كانوا يحملونه ولا يعرفون خبراً عنه وأقنع الوفد بعض مشاهير الكتاب بكتابة رأيهم في قضية مصر وحقوق أبنائها ، ومنهم فكتور مرجريت وأناطول فرانس ، فأصدر الأول رسالة في موضوع القضية المصرية وقدمها الثاني بكلمات وجيزة على سبيل التزكية واجتهد الوفد في اجتناب كل عمل يتيح للمستعمرين البريطانيين أن يتهموه كما فعلوا من قبل بمشايعة دول الوسط أو النزوع الى المذاهب الفوضوية والاشتراكية . فلم يتصل بالمغفور له محمد بك فريد حين تلقى خطابه من سويسرة ، لما كان معروفاً من مقام فريد بك في ألمانيا وتركيا أثناء الحرب وبعدها . ولكنه اتصل بجميع المصريين المقيمين بفرنسا ، ولاسيما أعضاء الجمعية المصرية في باريس ، وكان لفريق من هؤلاء أثر نافع في بث الدعاية وتعريف الفرنسيين من جميع المذاهب بالوفد ومطالبه وصعوباته .

ولانسهب في تفصيل المقابلات والخطب والولائم واحدة واحدة ، لأن التفصيل لايزيد القارى شيئاً على ما هو مفهوم بالاجمال ، وحسبنا أن نقول إن الوفد لم يدع في باريس ولا في مراكز الدعاية السياسية أحداً يؤبه

له إلا أبلغه مظلمة مصر ، وأوجز له الحالة التي مرت بالقارىء في صفحات هذا الكتاب .

وكان المصريون في لندن ، ومعظمهم من الطلاب ، يعاونون الوفد كما عاونوه زملاؤهم في العاصمة الفرنسية . فطبعوا الألوف من الرسائل وقابلوا النواب واستعانوا بالكتاب حتى ضاقت بهم الحكومة الانجليزية ذرعا فدمر الشرطة مكان اجتماعهم وصادروا الأوراق التي فيه وظنوا أنهم قضوا عليها ، وكانوا سيقضون عليها فعلا ، لولا أن الطلاب أخذوا بالحيلة فأعادوا طبع الأوراق بما كان مدخرا عندهم من المحفوظات في مكان أمين

وقد تجاهل الساسة الانجليز في باريس شأن الوفد المصرى ماوسعهم أن يتجاهلوه . ولكنهم لم يحسنوا كتمان حنقهم في بعض الأمور التي تقضى بها اللياقة ، فلم يأت منهم من يرد الزيارة لسعد باشا حين ترك بطاقته للمستر لويد جورج كما ردها بعض وزراء الدول الأخرى ، وتجاوزوا ذلك إلى عمل فيه من الصديانية ما ليس يابق بكبار الرجال . فقد روى أحد أعضاء الوفد المصرى أنهم أرسلوا مرة « مذكرة إلى الوفد البريطانى في مؤتمر السلام فردت اليهم ممزقة داخل غلاف وعليها عبارة قصيرة معناها : مثل هذه الأقوال لا تستحق الرد ... » (١)

وعلى الرغم من اعتراف الدول بالحماية فقد بدأت الحكومة البريطانية تشعر بالقلق بعد أن اتجهت أنظار الوفد إلى نشر الدعاية في الولايات المتحدة وظهرت دلائل الاهتمام بالقضية المصرية بين ذوى النفوذ من الشيوخ الامريكيين ورجال الصحافة . . . حدث هذا دون أن يكون للرئيس ويلسون فضل فيه ، بل ربما كانت صدمته للوفد في باريس من أسباب اتجاه الوفد الى الأمة الامريكية رأسا ليشير في هيئاتها الرسمية بهذه الوسيلة بعض العناية التي فاتته من رئيس الجمهورية ومعاونيه في المؤتمر . فان أقصى ما صادفه

(١) البلاغ ٩ مارس سنة ١٩٣٤ في بيان للاستاذ محمد على علوبة باشا

الوفد من النجاح عند رئيس الجمهورية الامريكية أنه تلقى منه رداً على خطاب كتبه سعديطلب فيه المقابلة مرة أخرى ، فاذا هو يعتذر في رده لضيق الوقت ويرجو أن يتسع وقته في المستقبل للمقابلة المطلوبة !! وكان الوفد قد فهم أن استشارة « الرأي العام » في الولايات المتحدة لبحث القضية المصرية أمر مستطاع بعد ما أحسه من أثر الاخبار التي بعث بها المراسلون إلى صحف أمريكا ، وزاده أملاً في المزيد من الاهتمام أنه كان قد استخدم بعض الايرلنديات والامريكيين في أعماله الكتابية ، فالتقى هؤلاء بالساسة الامريكيين الذين حضروا إلى باريس للدفاع عن استقلال ايرلندة وعرفوا منهم الرغبة في تشديد النكير على الاستعمار البريطاني بذكر المسألة المصرية إلى جانب المسألة الارلندية ، ومن هؤلاء الساسة مستر « والش » رئيس الوفد ومستر « ريان » ومستر « دن » مساعداه

وقد جرى الوفد المصري من قبل على سنة ارسال البيانات والاحتجاجات إلى المجالس النيابية مع ارسالها إلى الوزراء وممثلي الحكومات ، فوجدت بياناته واجتماعاته في مجلس الشيوخ الامريكى صدى أقوى وأصرح مما وجدته في المجالس النيابية الأوربية

ففي جلسة الحادى والعشرين من شهر يونية اقترح الشيخ « ماسون » الاعتراف بالجمهورية الارلندية فتصدى زميله مستر بوراه لفتح باب المسألة المصرية . وقال إن مصر تستحق الاستقلال كما تستحقه الأمم الشرقية والأوربية التي اعترف مؤتمر السلام باستقلالها ، فجددت هذه الحملة رجاء الوفد في تحريك قضيته من جانب الأمة الامريكية وشيوخها ، وأرسل يشكر المستر بوراه و يبلغه « إن المصريين ليعتمدون اعتماداً تاماً على مساعدة الشعب الامريكى محب الحرية في تحقيق الآمال القوية لشعب حكم عليه بالاستعباد من غير أن يسمع دفاعه »

وعاد المجلس إلى ذكر مصر بعد أيام فقام المستر « والش » واتهم الوفد

الامريكي في مؤتمر السلام بخيانة المبدأ الذي غامر الامر ليكون بدخول الحرب من أجله ، وقال ان الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى إذا أرادت أن تدلا على حسن النية فيجب عليهما أن تترك جزائر الفلبين لأهل الفلبين وأرلندة للارلنديين ، وهنأقام مستر « مكس كورك » وقال إن مصر أيضا يجب أن تكون لأبنائها ، وأيده مستر بوراه سائلا : لماذا يعترف مؤتمر الصلح ببولونيا ورومانيا ويغض عن أرلندة ولا يصغى إلى كوريا ومصر كما أصغى لغيرها ؟ فقال مستر شرمان « إن معاهدة الصلح إنما كتبت لخدمة المطامع البريطانية » كانت هذه الأقوال من أشد ما قيل وقعا في نفوس المستعمرين وفي نفوس المصريين على السواء ، فأما المستعمرون فقد أوجسوا من عواقبها في الولايات المتحدة وفي مصر نفسها ، وأما المصريون فقد شعروا بفضل الدعاية واستبشروا بما وراء ذلك من صدى الحملة في الدوائر السياسية الأمريكية والبريطانية ، وتبين الوفد أن الدعاية في تلك البلاد تستحق منه أن يضاعف العناية بها ويتابع اشهارها وترويجها ولا يتركها للصادقة والمناسبات العارضة ، فانهى بواسطة مستر « والش » إلى توكيل مستر جوزيف فولك في نشر الدعاية هناك ، وكان الاختيار موفقا لأن الرجل ممن سبقت لهم الوكالة في القضايا السياسية الكبرى وسبقت لهم ولاية المناصب وعلاج المشكلات ، فهو ذو منزلة مرعية بين النواب والرؤساء ، وله علاقة منتظمة برجال الدولة وأصحاب الكلمة المسموعة

وأوشكت الدعاية الخارجية لمصر أن تنحصر خلال تلك الفترة في الولايات المتحدة ، فعن لسعد أن يسافر اليها مع بعض الأعضاء . ثم استقر الرأي على ايفاد محمد محمود باشا في هذه المهمة لمعرفة الانجازية ، وتردد الوفد هنيهة بين هذه الفكرة وفكرة أخرى كانت ترمى إلى سفر اثنين من الاعضاء إلى البلاد الانجازية يدافعان عن مطالب المصريين ويبسطان ما أصابهم من المظالم إما بالخطب أو بالنشرات إذا احجمت الصحافة عن

اذاعة ما يكتبان ، ويفعلان ذلك باسميهما لا باسم الوفد أو باسم رئيسه ،
ويعولان على الدعاية الشعبية دون الرجوع إلى الهيئات الرسمية التي اعرضت
عن الوفد وتجاهلت شأنه ، وكان الوفد يحرص على اجتناب الهيئات الرسمية
في إنجلترا حتى تجيء المفاتيح من جانبها بعد أن قام هو بما يجب عليه من
ايدانها بقصده ، ويقال إن رجال الحكومة الانجليزية وسطوا أناساً من
سراة الأجانب المقيمين في مصر لتيسير مقابلة بين سعد ومستر بلفور الوزير
الفيلسوف الانجليزي المعروف ، فلم تتم هذه المقابلة لرغبة الوفد عنها ما لم تكن
الدعوة صريحة من جانب القوم ، وتغلبت فكرة السفر إلى الولايات المتحدة
على هذه الفكرة .

ولم يستطع محمد محمود باشا أن يصل إلى أمريكا إلا في منتصف اكتوبر
بعد مشقة في الحصول على جواز السفر لم تذلل الا بمساعدة مستر فولك
وبعض الأصدقاء الأوربيين

وقد كان مستر فولك في هذه الاثناء يوالى الكتابة إلى الصحف ويبسط
وجهة النظر المصرية بين يدي مجلس الشيوخ ولجانته المنوط بها بحث هذه
الأمور . وأهم ما أثمرته جهوده تصريح صرحته فيه لجنة الشؤون الخارجية
« ان مصر تعد من الوجة السياسية غير خاضعة لانجلترا ولا لتركيا وانما
يجب أن تكون مستقلة وزمامها بيدها » وخطاب ضاف ألقاه مستر بوراه
عن مركز مصر السياسي والأطوار التي مر بها قبل الاحتلال وبعده
والفظائع التي أصابت أهلها في أثناء الحرب وبعد الهدنة ، على ما سلف من
معوتهم للانجليز خاصة والحلفاء عامة .

فاهتمت المراجع البريطانية باخفاء ذلك جميعه عن المصريين وتهوين
خطره عندهم ولا سيما تصريح لجنة الشؤون الخارجية ، فان خبره لم يصل إلى
مصر الا من رسالة برقية أرسلها سعد من باريس إلى لجنة الوفد المركزية

في التاسع والعشرين من أغسطس ، فكان له فيها ضجيج لم يفرح المصريين بمقدار ما أغضب الانجليز ، وقد سعت المراجع الانجليزية سعيها حتى حملت الوكالة الأمريكية بالقاهرة على إذاعة تكذيب مبهم تقول فيه إن الخبر خطأ ولا تعقبه بتصحيح من جانبها ١١

هذا في مصر ، أما في الولايات المتحدة نفسها فقد أزعج السفارة البريطانية فيها ما أبصرته من أثر الدعاية المصرية واتساع نطاقه واشتماله على الكثيرين من المستمعين والأشباع ، فاضطر مستر رونالد لندسي القائم بأعمال السفارة في واشنطن — وقد كان بمصر أثناء الحرب العظمى — إلى مقابلة تلك الدعاية بكثير من المساعي الخفية والعلنية ، ومنها رد مفصل على سؤال مدير كتبه إلى إحدى الصحف يفيض فيه من معونة المصريين ويقول منه : « إن الحكومة البريطانية قد عنيت بأن تتحاشى القضاء على السيادة المصرية ، وأن الجنود المصريين يعملون في ظل العلم المصري لا الانجليزي ، ولا ترفع الراية البريطانية إلا على دور السلاطة العسكرية البريطانية وفيما عدا هذا ترفع الراية المصرية الخاصة . ولو أني أردت أن أجيبك على سؤالك جوابا لا يخرج عن مدلول الألفاظ المحدودة لقلت إنه لم ينضو جندي مصري تحت الألوية البريطانية ، ولكنه يكون بيانا ناقصاً ولا مراء ، إذ أنه في فبراير سنة ١٩١٥ عند هجوم الجيش التركي على مصر اشتركت فرقة من المدفعية المصرية مع القوات البريطانية في الدفاع عن خط قناة السويس وكان هجوم العدو قبل هذه الفرقة التي أدارت مدافعها بمهارة وكفاءة فساعدت على رد العدو ، وفي اعتقادي أن الخسائر كانت اثنين من القتلى وستة من الجرحى . ولم تشترك في العمل خلال الحرب أية قوة مصرية أخرى مسلحة ، ولكن في الأدوار الأخيرة من الحرب قامت ثلاث فرق مصرية أو أربع بحراسة خطوط المواصلات في سيناء بينما كان الجنرال اللنبي يغزو سورية ، وحدث كذلك أن فصيلة مصرية كانت يبلاد الجباز في رمت من الأوقات ، ولكن هذه

القوات جميعها لم تتعرض لنيران القتال . وفضلا عن ذلك قد ضم عدد كبير من المصريين إلى فرقة العمال والنقل الملحقه بالقوات البريطانية ، وكانوا يستخدمون لمدة قصيرة بين ثلاثة أشهر وستة ، وقد قاموا لقوات الجنرال اللبني بالأعمال اليدوية التي لا تستدعي خبرة فنية ، وبهذه الصفة كان ما أدوه من الخدمات عظيم القيمة لأنهم أتاحوا لعدد من الجنود الانجليزية أن يكونوا في خط القتال ولولا ذلك لاستخدموا في ساقه الجيش ، ولست أستطيع أن أذكر عدد هؤلاء الرجال الذين ألحقوا بفرقة العمال ولكنهم بلغوا في بعض الأوقات من ثمانين إلى تسعين ألفاً ، وكان بعضهم يستهدفون للناوهم يحفرون الخنادق وينقلون المؤن والذخائر بمقربة من خط القتال فأصابهم بعض الخسائر . وليس في وسعي أن أقول كم تبلغ هذه الخسائر على وجه التحقيق ولكنني أعتقد أنها تبلغ في الجملة ألفاً وخمسمائة بين قتيل وجريح في خلال سنوات الحرب الأربع «

وعلى الرغم من محاولة السبك والدقة في ظاهر هذا البيان يرى القارىء أنه قابل لمخالفة الواقع في عدة مواضع ، لأن وصول العدد في الفوج الواحد من العمال إلى تسعين ألفاً لا يمنع أنهم يبلغون المليون ويتجاوزونه في جميع الأفواج ، ولأن إحصاء القتلى والجرحى بألف وخمسمائة على وجه غير « وجه التحقيق » قد يفتح الباب لبلوغهم أضعاف ذلك على وجه التحقيق

إلا أن مستر فولك لم يتوان في الرد على هذا البيان بعد مراجعة الوفد في باريس ، فكتب إلى وزير الخارجية بواشنطن خطابا يلفت فيه النظر إلى العبارة التي وردت في سياق كلام المستر رونالد لندي عن تحاشي المساس بالسيادة المصرية لكي لا يشق على الحكومة الأمريكية الاعتراف باستقلال مصر عند بحث معاهدة الصلح في مجلس الأمة ، وكتب إلى رئيس لجنة الشؤون الخارجية خطابا آخر ضمنه رد رئيس الوفد على بيان السفارة الانجليزية وفيه « أن مليوناً ومائتي ألف مصري جندوا لفرقة العمال وأن الجيش المصرى نفسه

قاتل على قناة السويس وفي شبه جزيرة سيناء وفي الحجاز وحارب على ابن دينار في السودان ، وأن خسائر عظيمة نزلت بفرقة العمال وعلى الأخص من فتك الأمراض »

واستند مستر فولك الى عبارة « السيادة المصرية » فطلب تأكيد الاخلاص في المقصود منها بتصريح رسمي من الحكومة البريطانية تعلن فيه موعد الجلاء وتفوض الى عصبة الأمم — بعد تأليفها — تقرير مركز مصر ، وتتخلى عن كل معارضة في تمثيل الدولة المصرية عند الدول الأجنبية ، وعن كل معارضة في سفر وكلاء الأمة المصرية إلى الولايات المتحدة

ولم تزل المسألة المصرية تتردد على ألسنة الأعضاء في مجلس الشيوخ تارة من حزب الحكومة وتارة من حزب المعارضة حتى التفت اليها كثيرون ممن كانوا لا يسمعون بها ، ووجدت الصحف مسوغاً لنشر الأخبار عنها وقبول المناقشة فيها ، وأيقنت الحكومة البريطانية أن اطراد الدعاية على هذا المنوال كاف لا قلاقها وتوقع المتاعب التي قد تضر بمصالحها كما تمس سمعتها ، وان لم تعقبها نتيجة حاسمة في موقف الحكومة الأمريكية

أما الدعاية في باريس فقد كانت تنقطع حيناً وتتصل حيناً ، ويثابر الوفد في أكثر الأحيان على خطة الدعاية الشعبية . لأنه علم أن النجاح فيها أقرب من النجاح في مخاطبة الحكومات والوزراء ، وطفق على الجملة يرسل المجالس النيابية وأقطاب الساسة وكبار الأدباء ويكتب إلى الصحف ويلقى من ذوى الكلمة المسموعة من يتيسر له لقاءه ، ويجدد الاحتجاج والبيان كلما تجددت لذلك مناسبة من توقيع اتفاق أو عرض معاهدة أو وصول وفد أو غير ذلك ، فخرى ذكر الحماية البريطانية على مصر في أكثر من مجلس من المجالس الأوربية على نحو لا يبلغ في القوة والافاضة ما جرى في الولايات المتحدة ، ولكنه مع ضعفه واقتضابه أفاق الحكومة البريطانية وزاد مخاوفها

من التماذى فيه إلى أن يدرك المصريون شأن الدعاية ونفاذ سلاحها تمام الإدراك . ولعل أكبر ما حدث من دعاية الوفد فى خلال هذه الفترة ولتمته فى ثانى أغسطس فى فندق كلاردج بباريس ، وهى الوليمة التى خطب فيها وزير سابق للبحرية الفرنسية وحضرها الكاتب المشهور فكتور مارجريت ، وتليت فيها كلمة من أناتول فرانس ، وأجاب الدعوة إليها عدا هؤلاء بعض الشيوخ والنواب والصحفيين من أمم كثيرة

هذه الحركة التى كانت تؤذن بالاستفاضة والاتقان على تعاقب الأيام قد أفهمت السياسة الانجليز أن « التجاهل » سياسة لا تفيد إلى زمن بعيد ، وانه لا بد من « شىء » تعمله فى هذه الحالة غير الاستخفاف الظاهر وطول البال ، ولكنها لم تقصد إلى ارضاء المصريين بمقدار ما قصدت إلى الخلاص من الوفد وتفريق شمله بين الآراء المتضاربة والمذاهب المتعارضة ، فعجلت بايفاد لجنة التحقيق برآسة اللورد ملنر إلى القطر المصرى لسؤال المصريين عن مطالبهم وتقرير نظام الحكم الذى يحكمون به فى ظل الحماية ، ودعاها إلى التعجيل بارسالها غير ما تقدم سبيان آخران : « أحدهما » ان رؤساء الوفد فى القاهرة أعلنوا العزم على مقاطعتها إذا هى حضرت فى تلك الظروف ، لأن اللجنة تريد المفاوضات على أساس الحماية وتستفتى البلاد وهى فى قبضة الأحكام العرفية ، وتدعى لحكومتها الحق فى نظر الشكايات المصرية كانها صاحبة السيادة على البلاد .

وقد شعر محمد سعيد باشا — رئيس الوزارة يومئذ — باجماع الأمة على مقاطعة اللجنة فنصح للورد اللنبى بارجاء ارسالها انتظاراً للفراغ من عقد معاهدة الصلح مع الحكومة التركية ووضوح مركز مصر السياسى من حيث علاقتها بالدولة البريطانية ، فلم يشأ اللورد اللنبى أن يصغى إلى هذه النصيحة مخافة أن يتهم بالضعف والتراجع أمام صيحة المقاطعة العامة من اللجان الوفدية والسبب الآخر الذى دعا إلى تعجيل الحكومة البريطانية بايفاد اللجنة

في تلك الآونة أنها علمت بيوادر التفكك التي أصابت بعض أعضاء الوفد في باريس ، وقد عاد فعلا بعض هؤلاء الأعضاء الى الاسكندرية في الثاني عشر من شهر أغسطس وهم اسماعيل صدقي باشا وحسين واصف باشا ومحمود أبو النصر بك ، واذاغت لجنة الوفد في السادس والعشرين منه أن على شعراوى باشا قادم لأعمال خاصة باذن من رئيس الوفد وزملائه ، وعاد قبل ذلك آخرون لأسباب من هذا القبيل . فحسبت الحكومة البريطانية أن الفرصة سانحة للفصل بين الوفد والأمة أو لتمزيق شمل الوفد وتشجيع المترددين من أعضائه على تركه ، ورجح عندها هذا الحسبان أنها علمت بما شاع عن آراء الأعضاء العائدين وأنهم يتشككون في نجاح مسعى الوفد لاشفاقهم من مهاجمة الحكومة البريطانية بالدعاية الأجنبية وايتارهم أن تكون الدعاية في إنجلترا وعلى رضى من رجالها الرسميين ، فطمعت في توسيع مسافة الخلف ، وبث الغواية من طريق اللجنة الملائرية ، وما عسى أن تشير به من تحويل النظم والمناصب ، وتقريب الآمال والرغائب .

من سفر الوفد الى لجنة ملنر

استدعت الحكومة البريطانية السير ريجنالد ونجت توطئة لاقالته من منصبه في دار الحماية وهو الرجل الذي أحسن لها النصيحة في قبول سفر الوزيرين المصريين إلى العاصمة البريطانية وعادت هي إلى رأيه بعد فوات الاوان .
واستبدلت به المارشال النبي فاتح القدس لأنها حسبت أنها تروع المصريين بهيبته العسكرية ، وهو خطأ غريب في تقدير الحالة وجود على أساليب التخويف الدارجة بغير معنى . لأن مظاهر الهيبة العسكرية والسطوة الحربية كانت كثيرة على مسمع ومبصر من المصريين أثناء الحرب العظمى ، لا يرون في بلادهم من الحكم الانجليزي الا المدافع والدبابات والجنود تغدو وتروح في الحواضر والقرى بعشرات الألوف ، فاذا كانوا قد ثاروا وهم على هذه الحالة وجاءت ثورتهم على اعقاب انتصار الدولة البريطانية في الحرب العظمى فما كانت الثورة اذن لأنهم كانوا في حاجة إلى مذكر بالهيبة العسكرية والسطوة الحربية ، وما كان اسم المارشال النبي عندهم إلا كاسم كل قائد في الميادين البعيدة أو القرية ، بل هم كانوا يسمعون بغيره من قادة الميادين البعيدة سنوات قبل أن يسمعوا به في غزوة فلسطين

جاء المارشال النبي إلى مصر وهو يقدر أن الرهبة من اسمه فوق كل كلام وتفكير ، وأنه لا خوف أذن من اتهامه بالضعف إذا هو تواضع إلى سماع الشكايات ومخاطبة الشعب بلسان رجاله ، فخطب المصريين باسم الشيوخ ورجال الدين كما خاطبهم باسم الوزراء والكبراء ، وصدرت النصيحة المطلوبة من هؤلاء وهؤلاء يحضونهم على السكينة والاستقرار وانتظار ما يقضى به ولاة الأمور ، فلم يكن لها من أثر كبير ولا صغير ، لأن الشعب لم يفهم من نصائحهم الا أنهم مضطرون أو أنهم متهمون في اخلاصهم إن لم يكونوا مضطرين .

وقد وقفنا بالقارىء من حوادث الثورة المصرية وأحوال الحكومة في مصر على استقالة الوزارة الرشدية لرفض الحكومة البريطانية سفر الوفد إلى أوربا

فلما سافر الوفد عادت الوزارة الرشدية في التاسع من ابريل ، ولكنها لم تلبث قليلا حتى استقالت لأنها شعرت بالخرج من مطالب الضباط والموظفين وهي معبرة عن مطالب المصريين أجمعين . فطلب الضباط الوطنيون أن تسند الحراسة اليهم ، لأن اسناد الحراسة في الميادين العامة إلى أناس لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون عاداتها كثيراً ما جر الى ازهاق الأرواح بغير موجب حتى من وجهة النظر البريطانية . كما حدث حين أطلق الرصاص على المصلين الخارجين من المسجد أو على المتظاهرين ابتهاجاً بالافراج عن الزعماء .

وألف الموظفون لجنة من اثنين وثلاثين عضواً لمخاطبة الوزارة في المطالب السياسية التي لا يتعرض لها الضباط ، وهي التصريح بصفة الوفد الرسمية وأن قبول الوزارة الحكم لا يفيد الاعتراف بالحماية ، والافراج عن المعتقلين مع أبطال الأحكام العرفية

وجاءت الوفود تترى إلى ديوان الوزارة تعزز هذه المطالب وتلح في قبولها . وعم الاضراب الموظفين وأصحاب الأعمال الحرة انتظاراً لتحقيقها . فاستقالت الوزارة ولما ينقض عليها اسبوعان ، لتعذر التوفيق بين مطالب الشعب والموظفين واردة السلطة العسكرية

وقد انذر القائد العام الموظفين بالفصل إن لم يعودوا إلى دواوينهم وتوعدهم بالمحاكمة العسكرية إن حرضوا على الاضراب ، فغاد منهم فريق وقبضت السلطة العسكرية على زعمائهم الذين لم يعودوا في الموعد المحدود وفي الحادى والعشرين من إبريل ألف محمد سعيد باشا الوزارة وصرح لمدونى الصحف يوم تأليفها « أنها وزارة إدارية » لا تبت في شئ له مساس بمرکز مصر السياسى . . . وليست لها صبغة سياسية لأن المسألة المصرية لم يبت

فيها بعد في مؤتمر الصلح ، وأنها ستجتهد في استدعاء الجمعية التشريعية والغاء الأحكام الاستثنائية ، ومنها قانون المطبوعات ولقد كان محمد سعيد باشا رئيس هذه الوزارة رجلاً داهياً يجب بما استطاع من دهائه أن يجمع بين قضاء أغراضه واستبقاء سمعة سياسية يلبس لها لبوسها في كل مجال وعند كل فرصة . وكانت العلاقة بينه وبين سعيد باشا علاقة فتور وجفاء منذ كانا في الوزارة معاً ثم وقع بينهما ما وقع من الخلاف الشديد في الجمعية التشريعية ، ولهذا حاول سعيد كما تقدم أن يجمع وفداً ثانياً إلى جانب الوفد السعدي لينازعه قيادة الأمة والدفاع عن القضية ، معتمداً في بداية الأمر على الأمير عمر طوسون وأفراد من بقايا الحزب الوطني . ثم أحس نفور الأمة من هذا المسعى وصدود الأمير عمر عن متابعته فترجع وظل يرقب الأحوال إلى أن عرضت عليه الوزارة . فقبلها ، واخترع صيغة الوزارة الإدارية وحيلة تأجيل الوزارات السياسية إلى ما بعد عقد الصلح وإبرام معاهداته مع الدول المحاربة ومع الدولة التركية على الخصوص لأنه رأى في ذلك مخلصاً من جميع الجوانب

فهو — بهذه الحيلة — يريح نفسه من المطالب السياسية ولا يصادم الأمة في أمل من آمالها ، ثم هو يستبقي دعوة الحزب الوطني إلى وقت الحاجة لأنه الحزب الذي يعتمد على حقوق السيادة التركية في دعوته الوطنية ، ثم هو يدافع لجنة التحقيق البريطانية بهذه الحججة إلى أقصى أمد ميسور ، حتى إذا جاءت بعد اعتراف الدولة التركية بالحماية البريطانية كما كان منظوراً بين جميع العارفين استطاع أن يسوس الأمر بغير مشقة مع أمة أشرفت على اليأس ونفضت يديها من جميع الدول ، ووفد بدا فشله للأمة . . . وحزب وطني لم يبق له ما يتعلل به من السيادة التركية ولكن بقي له من المنافسة للوفد ما يحفز له حربه ويطمعه في الغلبة عليه ، وقد ظهرت للأمة هزيمته وإخفاقه

وأقبل سعيد — بمثل هذا الدهاء — على علاج المشكلات التي خلفتها

الحماية والثورة لوزارته ، فاجتهد في إقناع الانجليز بتحويل قضايا الوطنيين من المحاكم العسكرية إلى المحاكم الأهلية ، فاقنعوا لأنهم يضمنون من صداقته لهم وإخلاصه في النصح أنه على الأقل عدو الوفد المصرى ورئيسه

وتشفع في تخفيف بعض الأحكام الصارمة فقبلت شفاعته ، ورفع شيئاً من الضغط عن الصحافة والخطابة ، واستمال اليه الموظفين باغداق العلاوات عليهم وزيادة مرتباتهم حتى بلغت مثلها

غير أن الناس كانوا يستريبون بنياته وينظرون إلى هذه الأعمال كأنها مخدرات ترمى إلى تهدئة النفوس واضعاف الحركة الوطنية ، فأوغرت من صدور الناس عليه أكثر مما جذبهم اليه ، ونقم الغلاة منه قبول الوزارة وتهيئة الخواطر للرضى بالحالة القائمة . فثار بعضهم عليه ورماه أحدهم بقنبلة لم تصبه ، وبلغ من كياسة الرجل أنه ذهب الى المحكمة يؤدي شهادته فطلب الرحمة بالمعتدى عليه لأنه انما اجترح فعلته بدافع من عقيدة خاطئة غلبته على صوابه

واستمرت العلاقات بينه وبين المارشال اللبني على وفاق الى أن اختلفا في مسألة لجنة ملنر ذلك الاختلاف النموذجي لكل اختلاف بين تفكير العسكرى وتفكير الوزير المحنك من المدرسة التركية . فاللورد اللبني يرى ان امتعاض المصريين من قدوم اللجنة الى بلادهم سبب كاف لتعجيل قدومها !! وان اقناع المصريين بأن عواطفهم ومطالبهم لا حساب لها ولا اكتراث بها هو المقدمة الصالحة لمجيء اللجنة التي كانت مهمتها الأولى ارضاء تلك العواطف والبحث عن تلك المطالب ! فاكره الناس على قبول الأوامر هو المهم في السياسة العسكرية سواء نجحت اللجنة أو لم تنجح ، وعلى اللجنة وعلى المصريين بعد ذلك العفاء ورئيس الوزارة يرى كما علمنا مما سلف أن لا تحضر اللجنة قبل الفراغ من حل القضية المصرية بين الدولة العثمانية صاحبة السيادة والدولة البريطانية . . . وهو له رأى قيمته من الدهاء والحصافة ولكن لا قيمة له الى جانب الأوامر

العسكرية ! وقد اختلف القائد والوزير فلا يحص اذن من أن

يستقيل الوزير

استقال سعيد باشا وخلفه يوسف وهبه باشا في الحادى والعشرين من نوفمبر
فجرى على « السنة الادارية » التى استنها سلفه ، والتزم الحيدة مع اللجنة
المقبلة فلم يتخذ له موقفا معها أو عليها . ولكنه لم يستطع أن يمنع بعض
الرؤساء الانجليز من تكوين حزب مصطنع من المنبوذين وطلاب المنافع
الذين لاخلاق لهم ، أسماء الحزب المستقل الحر وأعدده للقاء اللجنة ومداراة
المقاطعة الاجماعية التى ستلقاها . ولم يفلح فى هذه المحاولة على الرغم مما بذل
فيها من المصروفات السرية والغوايات المختلفة

أما اللجنة التى تفاقم حولها هذا الخلاف فقد وصلت فى السابع من ديسمبر
وهى محوطة بسوء الطالع من كل مطلع . وكانت ممثلة لجميع الاحزاب الانجليزية
ومؤلفة من رجال قديرين مشهود لهم بمعرفة الشؤون المصرية والمسائل
السياسية عامة ، وهم اللورد ملنز وزير المستعمرات ، والسير رنل رود سفير
انجلترا السابق فى روما ، والقائد السير جون مكسويل الذى كان بمصر فى أوائل
الحرب العظمى ، والسير اوين توماس الخبير بمسائل الرى ، والمستر سبندر
الكاتب الصحفى المعروف ، والسير سسل هرست الحجة فى القانون الدولى ،
ومعظمهم ممن عرفوا مصر بالخبرة والاطلاع

لكنهم حضروا والفشل يسبقهم ، والصدور موعرة بما توالى على الناس
من دواعى الكراهية والنفور ، ووظيفة رئيسهم توحى إلى الناس أنه سيجعل
مصر إحدى المستعمرات البريطانية

وقبل أن ينقضى على اللجنة أسبوعان أو نحو أسبوعين سرى فى مصر
نبأ القرار الذى اعتمده نواب الولايات المتحدة وهو رفض المعاهدة التى
وقعها الرئيس ويلسون . فبدلا من أن تجيء اللجنة وتركيا معترفة بالمعاهدات
كما كان يريد محمد سعيد ، جاءت الولايات المتحدة — وهى قبلة أنظار العالم

في ذلك العهد — تنقضها وتفتح الرجاء لأبطالها وتحقيق آمال الشعوب
المخدولة فيها .

وما استقرت اللجنة أياما حتى أحست أنها في حصار محكم من المقاطعة
الاجماعية لا يتخلله منفذ الى لقاء أحد يجديها لقاءه ؛ ورأى اللورد ملنر
من روح الوطنية المصرية غير ما كان يعهده في أيامه السالفة بمصر كما قال
لبعض أصحابه . فلجأ الى الملاينة والمصانعة ، وحاول أن يفسر غرض
اللجنة تفسيراً يحافظ به على الحدود التي رسمتها الحكومة البريطانية ويحتنب
في ظاهره الكلمات المثيرة التي تنفر المصريين واخصها ذكر الحماية ، فنشر
على الناس في التاسع والعشرين من ديسمبر بيانا قال فيه :

« أدهش اللجنة البريطانية الاعتقاد الشائع بأن الغرض من مجيئها هو
حرمان مصر من الحقوق التي كانت لها الى الآن ، ولا أساس على الاطلاق
لهذا الاعتقاد فان اللجنة أوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان
البريطاني لأجل التوفيق بين أمانى الأمة المصرية والمصالح الخاصة لبريطانيا
العظمى في مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة التي لجميع الأجانب
القاطنين في البلاد . ونحن على يقين من أنه يمكن الوصول الى هذا الغرض
مع توافر حسن النية بين الجانبين ، واللجنة ترغب رغبة صادقة في أن تكون
العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر قائمة على اتفاق ودي يزيل أسباب
الاحتكاك ويمكن الأمة المصرية من صرف كل جهوداتها الى ترقية شؤون
البلاد في ظل أنظمة دستورية « Self Governing Institutionns » وتنفيذاً
لهذه المهمة تريد اللجنة أن تقف على كل الآراء ، سواء صدرت من هيئات
نيابية أو أشخاص يهتمون اهتماماً صادقا بخير بلادهم ، ويمكن ابداء كل رأى
بحرية وصراحة ، ولا رغبة للجنة في تقييد حدود المناقشة كما أنه لا يخشى أى
فرد أن تعتبر مقابله للجنة تنازلاً منه عن معتقداته . فإنه لا يعد متنازلاً عن
معتقداته بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هي متنازلة بسماعها . وبغير الصراحة

التامة في المناقشة يصعب وضع حد لسوء التفاهم والوصول الى الاتفاق «
ويلاحظ القارىء أن اللجنة ترجمت العبارة الانجليزية Self Governing
بالأنظمة الدستورية وهي ترجمة غير دقيقة ، صححناها في صحيفة الأهرام يومئذ
بترجمتها الحرفية وهي أنظمة « حكم ذاتي »
ولوحظ هذا الاختلاف في الترجمة فكان له شأن في اختلاف
الرأى بين خطة سعد وخطة عدلى وأصحابه بمصر حيال اللجنة . فقد قال عدلى
في خطاب له الى سعد مكتوب في التاسع والعشرين من يناير : « رأينا قبل
عمل أى شىء أن نعجل بالكتابة لتوضيح نقطة هامة كان لها بحق أثر كبير في
قراركم الذى اتخذتموه . وهذه النقطة هي ما فهمتموه من أن بلاغ اللجنة ضيق
الغاية من المناقشة فجعلها (وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى) مما
جعلكم تعتقدون أنه مع هذا التحديد لا تنتقل المسألة المصرية من مركزها
فلا ترتفع به الحماية بل تتأكد . والواقع انه حصلت بيننا وبين اللورد ملنر
مناقشة فى هذا الموضوع وأكد لنا أن النص الانكليزى ليس معناه الحكم
الذاتى الذى يعبر عنه : Self Government بل معناه الحكومة الدستورية
وان الغرض من ذكر هذه العبارة فى البلاغ بيان ان الحكومة الانكليزية
لا يصح أن ترتبط بمعاهدة حكومة لا تكون ذات نظام دستورى ، وكذلك
كانت الترجمة العربية الرسمية وفق هذا التفسير ، ولولا هذا لكانت أحداثنا
مبنية على غير أساس ، ولما جاز لنا أن نقلها اليكم ونستنتج منها ما استنتجناه «
والقرار الذى اتخذته سعد وأشار اليه عدلى فى الخطاب المتقدم هو
قراره الذى نشره فى بلاغ بعث به الى مصر عقب نشر اللجنة بيانها وقال
فيه مانصه : —

« يحاول الأقوياء بجميع الوسائل أن يأخذوا منكم رضاه بحمايتهم ليزدادوا
قوة ويزيدوكم ضعفاً ، فلا تتخذوا إذا وعدوكم ولا تخافوا إذا هددوكم ،
واثبتوا على التمسك بحقكم فى الاستقلال التام فهو أمضى سلاح فى أيديكم

وأقوى حجة لكم ، فإن لم تفعلوا — وليس في قوة إيمانكم الوطني ما يجعل احتمالاً لذلك — خذاتم نصراءكم وأهنتم شهداءكم وحقرتم ماضيكم وأنكرتكم حاضرکم ومددتم للرق أعناقكم وحنيتم للذل ظهوركم وأنزلتم بأمتهكم ذلاً لا يرفع منه عز ، وان تفعلوا — كما هو أكبر ظني في عظيم إخلاصكم وميتين اتحادكم وقوة وطنيتكم — فقد استبقيتم لأنفسكم قوة الحق وأعدتكم لنصرتكم قوة العدل . فلا تذلوا وإن قهرتم ، ولا تخشوا وإن ظلمتم ، ولا بد من يوم يعلو فيه حكمكم على باطل غيركم ، وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصومكم ، وتحقق باذن الاله القدير آمالي وآمالكم في الاستقلال التام »

وصل هذا البلاغ الى مصر ونشر في صحفها عند منتصف يناير ، وكانت لجنة الوفد المركزية قد أعلنت بلاغاً في معناه عقيب صدور البيان المتقدم من لجنة ملنر ، وتعاقب على أثره صدور البلاغات في هذا المعنى من ذوى الشأن والرأى وفي مقدمتهم الأمراء والعلماء ، وأيقنت اللجنة — لجنة ملنر — أن لارجاء في الاتصال بينها وبين الأمة المصرية على قاعدة البيان الجديد ، لأن هذا البيان لم يغير من الأمر شيئاً ، ولأن الأمة لا ترى لها مصلحة في تجاهل وفدها النائب عنها في قضيتها كما ترى السياسة الانجليزية المصلحة في هذا التجاهل أو هذا التفريق بين الأمة ودعاتها ، فلم يعد للجنة مناص من السفر أو من القناعة بما عندها من وسيلة لاستطلاع الآراء هنا وهناك وزيارة بعض أعضائها لبعض أصحابهم الذين كانوا يعرفونهم من سراة المصريين في القاهرة أو الريف ، وشاع بين أبناء الريف أن أعضاء اللجنة الملنرية يطوفون البلاد خفية فأصبحوا يسترييون بكل سؤال يلقيه عليهم أجنبي غير معروف ، ورويت في ذلك أحاديث شتى تدخل في باب الملح والطرائف ولكنها تدل في الوقت نفسه على الجحد في كراهة الحماية وحب الاستقلال والوفاء لزعيم

الوفد والحذر من حيل الاستعمار . فكان الفلاح الساذج اذا سأله أجنبي لا يعرفه : أين الطريق ؟ بدر الى ذهنه انه عضو من أعضاء اللجنة يتخفى لاختلاس الآراء والأجوبة بغير علم الوفد فأجابه على الفور : عليك بسعد في باريس يخبرك أين الطريق ؟ واذا سأله : هل لك أولاد ؟ أو سأله : كم أجرك في اليوم ؟ لم يزد على أن يحمله إلى سعد في باريس فهو أعلم بالجواب ! ولا يبعد أن يكون أعضاء اللجنة الذين اختلفوا الى الأقاليم قد صادفوا شيئاً من هذه الأجوبة وعرفوا من دلالتها السياسية ماهو أدل وأجلى مما كانوا يقصدونه بالتحقيق والسؤال

ولا ينبغي أن ننسى أن أناساً من الداعين الى مقاطعة اللجنة قد تشعبت بواعثهم ونياتهم فلم يكونوا جميعاً على نية الأمة في تأييد الوفد ورعاية حق نيابته أو صون كرامته عن مهانة التجاهل الذي قصده الحكومة البريطانية ، فكان ممن اتخذوا المقاطعة اناس اتخذوها اجباطاً لكل مفاوضة يجريها الوفد في الحاضر والمستقبل ، ومنهم خصوم له كانوا يرضون باليسير في حل القضية المصرية ولا يطمعون في استقلال تام ولا ناقص ، ولكنهم يصطنعون الغلو ويؤثرون التصعيب وتوسيع المسافة بين طرفي الاتفاق لاعتقادهم ان كل شرط يوضع للمفاوضة المقبلة انما هو عقبة في طريق الوفد دون غيره من الرجال الرسميين ، فان هؤلاء الرجال الرسميين لا يلقون اعتمادهم كله على الثقة القومية والمبادئ السياسية ، بل يلقون أكثر اعتمادهم على قوة الحكومة ، ومن ورائها قوة الاحتلال .

أما الوزراء الذين كانوا معروفين يومئذ باسم أصدقاء الوفد — وهم رشدي وعدلي وثروت — فقد أخذوا بالحيلة فلم يغضبوا الوفد ولم يغضبوا اللجنة ، وكتبوا في السابع من يناير خطاباً إلى سعد يقترحون فيه عليه أن يعود هو وأصحابه إلى القاهرة لمفاوضة اللورد ملتر بعد الوعود التي أفضى بها اليهم

ولا تخرج عن معنى البيان المتقدم ، فلما أجاب الوفد بامتناع ذلك لأن بيان ملنر يحصر الغرض من المفاوضة في الحكم الذاتي أجابوه بما أسلفناه من تفسير كلمة « الحكم الذاتي » كما جاءت في الصيغة الانجليزية وقالوا إن اللورد ملنر لا يرى مانعا من دخول الوفد المفاوضة على أساس الاستقلال التام ، وان كان هو لا يستطيع الجهر بهذا الأساس ولا يزال يرجو بعد تمام المفاوضة أن يحسن « للرأى العام الانجليزى » قبول ما ليس يقبله الآن

وقد بسط سعد تفصيل رأيه في بيان رد به على التقرير الذى جاءه من لجنة الوفد المركزية مع على ماهر بك ، وفيه يقول « بتاريخ الحادى والعشرين من يناير :

« . . . إننا لم نجد فى بلاغ ملنر شيئا يخالف التصريحات السابقة عليه إلا خلوه من لفظ الحماية وحسن اسلوبه . أما فى الجوهر فقد وجدناه متفقاً معها تمام الاتفاق إذ هو مثلها يعتبر مصر تابعة لانكلترا ، ولجنة ملنر لجنة تحقيق : موقف المصريين معها موقف المجيب من المستجوب ، وغاية ابجائها الوصول إلى وضع نظام حكومى فى دائرة الحكم الذاتى . ونحن لا نعترف بشيء من ذلك ، فلا تبعية لانكلترا علينا ولا نعرف لهذه اللجنة سلطة التحقيق فى بلادنا ، والغاية التى نسعى اليها هى التمتع بجميع حقنا فى الاستقلال التام . نعم ان هذا البلاغ وسع مجال المناقشة ولكنه ضيق الغاية منها فجعلها وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى ، وبذلك هدم بيد ما بناه باليد الأخرى ، وزاد ان اشترط عدم ترتيب الالتزام على هذا التوسيع فحفظ بهذا الاشتراط لنفسه حرية العمل وهو تحديد الغاية الذى لا ينقل المسئلة من مركزها ، فلا ترتفع به حماية بل تتأكد ، ولا يتم به استقلال بل يقل ، ولا يفيد إلا شيئا واحداً وهو تسهيل مأمورية التحقيق على اللجنة . وما كان للمصريين أن يعرفوا لها هذه الصفة ولا أن يسهلوا لها هذه المأمورية . وأكبر ما تعطيه أو تشير باعطائه أقل من حقهم بكثير . زد على ذلك أنها جاءتهم رغم أنوفهم

و ضد اجماعهم بأن استعملت كل وسائل الشدة معهم تمهيداً لوصولها وشكلت
وزارة لم يرض الرأي العام بها .

« ان عودة الوفد أو بعض أعضائه على أثر هذا البلاغ لم يخطر ببالنا
للاعتبارات السالف ذكرها ، ولأن الانكليز لا يتأخرون ان يتخذوا منها
حجة على فوز سياستهم ويبنون عليها كثيراً من الأقوال التي ينشرونها لتضليل
الرأي العام في أوروبا عموماً وانكلترا خصوصاً . ربما كان يسهل علينا أن
تعرض لمثل هذا الخطر ونعجل لهم ذلك الفوز لو أنهم وعدونا بشيء في
مقابلته وعداً صريحاً يصح الاعتماد عليه . ولكنهم لم يفعلوا ، وليس لنا أن
توهم أنهم سيفعلونه بعد عودتنا على غير وعد سابق . لو أنهم مع توسيع
مجال المناقشة أطلقوا الغاية منها لصح لنا أن نتعشم أن نقنعهم بالبرهان
الصادق والحجة الدامغة بصحة مطالبنا ، ولكنهم حددوها بمادون مانطلب
حتى في ذلك البلاغ الذي نشره بقصد استرضائنا . فكان مثلهم في ذلك مثل
بعض القوانين الألمانية القديمة التي كانت تقضى بسماع الشهود بعد الحكم في
الدعوى ، ولهذا رأينا أن العودة ارتكانا على البلاغ المذكور لا تكون إلا
عبثاً مقروناً بالخفة والمخاطرة . ويصح للانكليز وغيرهم أن يقولوا إنه كفي
أن يغير شكل التصريح وأن يؤتى ببعض العبارات الطلية في أن تغير الأمة
المصرية بتمامها خطتها نحو اللجنة فتخرج من مقاطعتها إلى المفاوضة معها .
كلا ! إننا لم نبلغ إلى هذا الحد من البساطة والسذاجة : ان المسألة أكبر بكثير
من أن يكون لاختلاف الصور والاشكال تأثير فيها . إننا نقبل العودة
للمفاوضة على شرط أن تكون بين متعادلين في حقوق المناقشة و طرفين كل
منهما يمثل أمة ، وأن يكون الغرض منها الوصول إلى عقد معاهدة تضمن
لمصر استقلالها التام ولا ينجلترا مصالحها التي لا تتعارض مع هذا
الاستقلال التام ، وأن تعترف الدول بهذه المعاهدة وتسجل في عصبة
الامم . فاذا صرح الانجليز بذلك رسمياً هنالك لا تتأخر عن العودة

لمباشرة المفاوضات متى ألغيت الأحكام العرفية وضمنت لنا العودة لمباشرة أعمالنا عند ما نريد . أما المفاوضات في أوروبا فنحن مستعدون لها مع لجنة ملنر أو غيرها ما دامت المناقشة لا يترتب على الدخول فيها التزام بشيء ما . وما دام أن العبرة بما يتم عليه الاتفاق في حدود التفويض لنا ، فإذا كان الانكليز يرغبون حقيقة في ودنا وفي بناء علاقتهم على الاتفاق معنا فلا شيء أسهل عليهم من اتباع إحدى هاتين الطريقتين للوصول الى الغاية . وهم لا بد أن يفهموا أن الأمة المصرية وصلت من اليقظة والانتباه ومعرفة حقوقها إلى درجة لا تترك معها إلى الأقوال ولا تعتمد فيها الا على الأعمال ولا ترضى عن استقلالها التام بدليلا . نعم إن في قوتهم ارغامها على النظام الذي يريدون وضعه فيها ، وقد لا يبعد عليهم أن يحملوا كل الدول على الاعتراف بحمايتهم علينا . ولكن حقنا لا يضيع بهذا الارغام ولا بهذا الاعتراف . بل يبقى ثابتا حيا وبقى مستمرين على المطالبة به والسعى للحصول عليه ، واذا لم يكن في الحكومات الأجنبية الآن من يمد يد المساعدة اليها في شعوبها كثير من الأحرار يعطفون علينا وينتصرون لقضيتنا بأقلامهم وخطبهم ، وما يدرينا أن يظهر غدا المساعد لنا ؟ وللزمان تقلبات تجعل الحليف عدواً والعدو حليفا . ولا يصح أن نسقط من حسابنا اتساع ملك بريطانيا وتباعد أطرافه واضطراب الأحوال في ممتلكاتها وجوارها وانتشار المبادئ الديمقراطية في العالم عموما وفيها خصوصا ، وتهديد حزب العمال لحكوماتها بالاستيلاء عليها وقربه من هذه الغاية يوما فيوما كما تؤيده الانتخابات الجزئية والاعتصابات التي كثر تواليها في هذه الأيام . كل هذا يجعلنا أن لانغامر بحقنا وأن نبقي متشددين في التمسك به ومقاطعين للجنة التي حضرت رغم أنوفنا لملنا على الرضاء بانقاصه حتى تعود خائبة . فتعلم الانجليزية ويعلم الامة العالم معها أن مصر متحدة تمام الاتحاد على الوصول الى استقلالها التام ، وان إرادتها على ما تكره مخالف لشرف الوعود التي بذلتها انكلترا ومناقض للعهود التي

سجلتها وغير منطبق على المبادئ التي قبلتها ومكدر على الدوام لسلبها ومقلق
لراحتها ، وان خير سياسة تتبعها هي أن تبر بعودها وتتخذ من مصر حليفة
صادقة لها لا تابعة نافرة منها تترقب الفرص دائماً للخروج عليها وتفضل
الموت على الاستسلام لها ... »

هذا بيان مفصل برأى سعد في احتمالات الحالة من جميع أطرافها ،
ومنه نعلم لماذا كان على خلاف رأى الوزراء — الأصدقاء — في العودة إلى
القاهرة لمفاوضة ملنر ، ونعلم أنه لم يكن يرفض المفاوضات إذا جرت في أوروبا
لأنها لا تكون هناك بمثابة تحقيق تجريه الدولة المتبوعة في بلاد رعاياها ،
فضلا عما فيها من اعتراف اللجنة بوكالة الوفد عن الشعب المصرى ، وهى
لا تجهل نصوص ذلك التوكيل ولا مطالب الشعب المحدودة فيه .

وبديه أن الوزراء — الأصدقاء — لم يكونوا لينتظروا لهم « دوراً »
يقومون به قبل تمام المفاوضات بين الوفد ولجنة ملنر وانتهائها إلى صيغة محدودة
يتفق عليها الطرفان أو يظهر منها على الأقل مبلغ استعداد الانجليز لاجابة
المطالب الوطنية ، فأما قبل ذلك فليس في وسع الوزراء أن يفاوضوا اللجنة
في تفصيلات الاتفاق بمعزل عن اجماع الأمة وموقف الوفد بباريس ولجنته
المركزية بالقاهرة في وقت واحد ، ولو أنهم أقدموا على هذه المفاوضات
العقيمة لخسروا الجانبين معا وفشلوا في تقرير الاتفاق المطلوب لا محالة ،
ورجعوا وحدهم بتبعة الفشل امام الأمة وامام الانجليز ، فهم لم يخطئوا
في تقديرهم أن المفاوضات بين الوفد ولجنة ملنر لا بد أن تسبق كل « دور »
يقومون به في هذه المرحلة ، ومن ثم اجتهدوا في اقناع سعد بالحضور إلى
مصر أو ايفاد من ينوب عنه لمفاوضة اللجنة ، وكانوا متعجلين ولا شك فيما
اقترحوه ، لأنه اقترح أقل ما فيه أن يدل اللجنة الملنرية على تهافت المصريين
وتراميمهم على هذه الفرصة المدخولة تراعى المناضل الذى استنفد موارد
الآخيرة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغرى اللجنة

بالتوسع في اجابة المطالب المصرية أو يرجح عندها أن تتوقع رفضا لما تعرضه أياً كان الحل المعروض ، فلها تراث سعد ولم يقنعه تفسير العبارة الانجليزية ذلك التفسير الذى أسرع الوزراء إلى قبوله دار الكلام فى ايفاد رسول من قبل اللجنة الى باريس لتمهيد المقابلة بينها وبين الوفد بعد عودتها من القاهرة .

وقد دارت مناقشة بين عدلى وسعد فى تفسير العبارة الانجليزية وما احتوته من الاشارة المزعومة الى الأنظمة الدستورية فأعرب سعد عن شكوكه فى خطاب الحادى عشر من فبراير الى عدلى باشا إذ يقول : « ... نعم ان ترجمتم عبارة « Self Governing Institution » بالحكومة الدستورية هى الأصح ولكن صحة هذه الترجمة فى نفسها لا تحمل على تعديل قرارنا لأن هناك أسبابا أخرى غيرها ، ولان ايرادها فى المكان الذى وردت فيه من البلاغ مع عدم اقتضاء المقام لها بعد التصريح فيه بأن مأمورية اللجنة هى التى صورتها الحكومة ووافق عليها البرلمان يوقع فى الذهن بأن المقصود بها هو المعنى الذى فهمناه . والقول بأن القصد منها انما هو ألا يكون الاتفاق الا مع حكومة دستورية لا يتفق فى ظاهره مع كون هذه العبارة وردت على أنها نتيجة للتعاقد لا وسيلة له ، ومع ذلك فاذا كان القصد منها هو كما يؤكده جنابه من أن الحكومة الانكليزية لا يصح أن ترتبط بمعاهدة الا مع حكومة ذات نظام دستورى — لزم قبل كل شىء وضع هذا النظام لتشكيل حكومة دستورية تكون أهلا للتعاقد على تحديد العلاقات بين مصر وانكلترا »

ومن هذا الخطاب نفهم أن سعدا لم يأخذ بالتفسير كما جاء فى حديث ملنر مع الوزراء ، ولكنه أراد أن يستفيد من مجازاة ملنر والوزراء على تفسيرهم بأن يمهده به لانشاء الحياة النيابية وقيام الحكومة الدستورية ، ويجس النبض لاستطلاع ما هنالك من النيات والخطط المرسومة ، فان جاء الدستور فذاك ، وإن لم يجيء لسبب من الأسباب فظهور ذلك السبب خير من كتمانها والمواربة فيه

قال سعد في خطابه المتقدم بعد ما أسلفناه : « ولا أخفى عليكم أن فكرة هذا النظام خطرت أول الأمر ببالنا على أنها الوسيلة القانونية لحل المسألة . لذلك نحن نوافق كل الموافقة عليها بل نجدها ، والطريقة المثلى للوصول إلى هذه الغاية في رأينا هي أن يبدأ بتأليف وزارة من غير أعضاء الوفد موثوق بها ، ويكون البروجرام الذي تعلنه هذه الوزارة هو وضع ذلك النظام ثم المفاوضة مع الحكومة الانكليزية بغرض الوصول إلى وضع اتفاق يضمن استقلال مصر التام ومصالح انكلترا الخصوصية . ثم عرض ما تنتهي المفاوضة اليه على الهيئة النيابية التي تتألف بموجب ذلك النظام للتصديق . ومتى تم تشكيل الوزارة على هذا النحو وأعلنت بروجرامها على هذه الصيغة أو بما في معناها لا نتردد نحن وزملائنا في العودة إلى مصر لمساعدتكم على القيام بمهمتكم لدى الأمة والسعى في أن تنتخب أعضاء لهذه الهيئة . إذا تم لكم أن تفعلوا ذلك خدمتم بلادكم أجل خدمة ، وخدمتم لكم في التاريخ أحسن الذكرى »

وزاد الموضوع تفصيلا بخطاب في اليوم التالي (١٢ فبراير) قال فيه : « إن الطريقة التي عرضناها فيما كتبناه لكم هي في اعتبارنا أمثل طريقة لحل العقدة الحاضرة ، لأنه من الطبيعي أن تجرى مفاوضة مع هيئة رسمية موثوق بها خصوصا من الأمة . وأن يصدق على ما تنتهي المفاوضة اليه من النواب الذين تختارهم لهذه الغاية ، وهي تقرب في ظننا من التي يظهر أن اللورد ملنر يدلي بها في محادثاته معكم وفيما أكد لكم من المقصود بعبارة :

Sef Governing Institution التي أوردتها في بلاغه . إن لم تكن هي بذاتها . ولهذا يغلب على ظننا أنه يهش لها ويعمل على تنفيذها ولا يصعب عليه أن يتضمن بروجرامكم عبارة الاستقلال التي أوضحناها فيما كتبناه لكم لأنها لا تربط غيركم . وهي فوق ذلك ضرورية جداً حتى لا تقابلكم الأمة بالنفور الذي تلاقي به كل وزارة لا يكون السعى إلى هذه الغاية أول قصدها

وأكبرهما ، نعم ان فيها مشقة عظيمة لكم ومسئولية كبرى عليكم ولكنها ليست فوق هممكم . وأنتم أهل لتحمل كل هذه المسؤولية في خدمة بلادكم ، والوفد مستعد لأن يعمل مافي وسعه لتسهيلها عليكم ، ولهذا يرى أن يكون أعضاؤه خارجين عن هيئتم حتى لا يساء الظن في نزاهتهم وتبقى الثقة فيهم يستعينون بها في تأييدكم وتمهيد الطريق أمامكم . وبعد أن تتألف الهيئة الجديدة تحت رآستكم ، وتعلن بروجرامها لا يترددون في العودة ليكونوا قريبين منكم يعملون على تنوير الأفهام وصيانة الرأى العام من خطرات الأوهام ، التي لا يقصد ذوو الأغراض الفاسدة من بثافيه وتسليطها عليه الا ترويجا لمقاصدهم الفاسدة وتحصيلا لمصالحهم الباطلة ، ولا يهمننا فيمن تختارونهم لمعاوتكم الا أن يكونوا محلا لثقتكم وأهلا لأن يتضامنوا معكم في تحمل تلك المسؤولية الكبرى »

وقد أجاب عدلى بخطاب في الخامس والعشرين من فبراير قال فيه : « نعم اننا على رأيكم من أن وجود هيئة وزارة تعمل على تحقيق الأمانى القومية وتثق بها الأمة في ذلك من أهم الأمور . وربما كانت الوسيلة القانونية الوحيدة للحصول على الغاية التي نرشدها . ولكننا نرى أيضا أنه لا يصح أن تستأثر هذه الهيئة بالمفاوضة وحدها وبوضع النظام الدستورى للبلاد ، بل يجب أن يكون هذا بالاشتراك مع الوفد ، وطريقة العمل في ذلك أن تعلن الوزارة حين تشكيلها أن برنامجها هو السعى للوصول الى اتفاق يوفق بين استقلال مصر والمصالح الانكليزية والاجنبية ووضع مشروع نظام دستورى للبلاد ثم تعهد المفاوضة لهيئة تضم بعضا من أعضاء الوزارة ، وبعضاً من أعضاء الوفد » .

بعد هذه الرسائل المتبادلة بين سعد وعدلى انجلت سياسة سعد وسياسة الوزراء « الأصدقاء » مع لجنة ملنر . . . بل انجلت سياسة كل من الفريقين مع

الفريق الآخر . وأصبح في وسع الناظر الى ما وراء الظواهر أن يلبس النيات
التي توحى الى كل فريق بسياسته ومقترحاته

فسعد يريد حلاً للقضية المصرية لا مغالطة فيه ، ويريد أن يترك للوزراء
« الأصدقاء » ما هو للوزراء ، ويبقى للزعامة ما هو للزعامة . فليس عنده ما يمنع
أن تفاوض الوزارة الصديقة الانجليز متى ضمن سلامة المفاوضات وعرض
النتيجة على الأمة . وهو لا يريد أن تسيطر الحكومة على الرأي العام أو تعرض
الوفد للانقسام . لأنها اذا أدت عملها مستقلة به بقي للوفد عمل آخر عند
عرض النتيجة على الهيئة النيابية الممثلة للأمة ، ولا بأس في أن يقوم به يومئذ
متفقاً مع الوزارة ، لأن المرجع في جميع ذلك الى ميدان الانتخاب الذي
يجوز لأعضاء الوزارة كما يجوز لأعضاء الوفد أن ينزلوا اليه

أما سياسة عدلى فهي قبول الوزارة مع التزام الخطة التي جرى عليها هو
وزملاؤه من بداية الحركة الوطنية ، وهي خطة الانتفاع بنفوذ سعد
والاحتراس منه في وقت واحد . أو هي اشراك الوفد في التبعة حذراً من
رقابته وتعقيبها إذا استقل الوزراء بالمفاوضة والاتفاق على القضية العامة !
وهذه سياسة هي أدنى إلى العداوة منها الى الصداقة وخلص النية . فهم
لا يريدون أن يدعوا سعداً حراً في عمل واحد ، ولا يعينهم إلا أن يشركوه معهم
في التبعة ويسوقوه حيث انساقوا ويقطعوا عليه سبيل التعقيب والملاحظة
ويقدموه أمامهم خطوة خطوة ليحموا ظهورهم ويحفظوا لأنفسهم طريق
الرجعة . وكلما استطاعوا أن يهونوا عليه قبول ما قبلوه أسرعوا إلى محاولة
اقناعه لأنهم لا يخسرون شيئاً وإنما هو الخاسر عند الجمهور ان قبل !! بل
لعلمهم يكسبون أن يقنعوا الناس كما أقنعوا أنفسهم بأنهم كانوا على صواب في
قبول الحماية ، وأن الأمة لن تنال بالثورة أو بغير الثورة وبالزعامة أو بغير
الزعامة - أكثر مما قبلوه

فحسنوا لسعد أن يعود إلى مصر ويرضى بمغالطة نفسه ومغالطة الأمة في

الألفاظ التي لا تسمح بالمغالطة . ثم حسنوا له أن يشترك بفريق من أعضاء الوفد في هيئة المفاوضات ليدخلوه في التبعة وهم قابضون على زمام الحكومة ، ومن قبل ذلك رحبوا في أيام الحرب العظمى بدخوله معهم في الوزارة ليعترف بالحماية كما اعترفوا بها ، ونظروا في ذلك الى أنفسهم غير ناظرين الى البلد الذي كان يجوز أن يهيب بسعد أو يهيب سعد به الى بلوغ مالم يبلغوا من استقلال وحرية ، وأبوا بعد الهدنة أن يسافروا إلا إذا سافر هو يوم جاءهم الاذن بالسفر الى العاصمة البريطانية ، وكل ما صنعوه بعد ذلك في مفاوضات ملنر وكرزون مطرد مع هذه النية ومنبعث من هذه النية ، وهي أن يقاسموا سعدا في كل ما يدركه وأن يشركوه معهم في كل ما وقعوا فيه ، وأن لا يتركوه حراً في فرصة من الفرص ليطلب فوق ما طلبوه وينال فوق ما عسى أن ينالوه وهي خطة حافظ الوزراء « الأصدقاء » عليها أدق محافظة ، ولن يتأتى لهم أن يتبعوها على نمط واحد بغير تفاهم وبملائة ، ولن يقع التفاهم عليها مع الصداقة وخلص النية ، وسواء حسنت نتائجها أو ساءت فهذا الذي قصدوه بما بذلوا من مساعده أو نصيحة ، وعلى حسب هذا القصد يكال لهم العذر أو الملام

وقفت مسألة الوزارة التي دار الكلام عليها في الرسائل السابقة لأن اللورد ملنر لم يستحسنها عند ما فاتحه عدلى فيها ، وتعلل بقوله « إن الفكرة لا بأس بها . ولكنى لا أرى من المصلحة تغيير الوزارة الآن ، لأنه إذا شكلت وزارة مهمتها المفاوضات فربما اعترض هذه صعوبات يكون من نتائجها سقوط الوزارة . على أن أعضاءها — وهم الذين سيكون عليهم المعول في إدارة البلاد — يجب أن لا يكونوا عرضة للتخلي عن خدمة البلاد بمجرد اشكال يمكن أن يحل فيما بعد »

فقال عدلى : « لم يبق إذن سوى حل واحد وهو أن تتفاوضوا مع الوفد »

وحوالى هذا الوقت ختمت لجنة ملنر أعمالها في مصر وأصدرت في السادس من شهر مارس بياناً رسمياً قالت فيه إنها أنجزت بحوثها وأجلت عملها الباقي إلى أن تجتمع بلندن بعد عيد الفصح لتحضير تقريرها ، وذهب رئيسها في رحلة إلى فلسطين مكث فيها نحو أسبوعين ثم عاد إلى الاسكندرية في السادس والعشرين ، وقفل منها إلى بلاده

أما الحالة في الفترة التي قضتها اللجنة بمصر فخلاصتها أنها أسفرت عن فشل السياسة البريطانية في التفرقة بين الوفد والأمة ، وعن نجاح الحركة الوطنية في زعزعة الحماية التي كان الضعفاء يحسبونها قضاء مبرما لا يدفعه دافع ، ولاح من كلام الصحف المشهورة بنزعتها الاستعمارية عقب رجوع لجنة ملنر من مصر أن الحكومة البريطانية لم تجد بدا من التفكير في إلغاء الحماية ، فصرح بعضها — ومنها الديلي ميل — بما يفيد تلك النية

ولقد ملست الأمة المصرية قوة اجماعها يديها في أيام اللجنة الملنرية ، وشعرت باستقلالها حقيقة ماثلة في ضميرها وان جحدته المظاهر الرسمية ، فصمدت على التفاؤل والاطمئنان إلى المستقبل غير حافلة بما بدا من ضعف الأعضاء الوفديين الذين تراجعوا على أثر ما اصطدموا به من اعتراف الدول جميعا بالحماية ، وأعان المصريين على تحدى هذا الاجماع أنهم رأوا مؤتمرا كالمؤتمر الأمريكى يرفض معاهدة فرساييل ، فشعروا بان اجماع الدول على توقيعها ليس بالسد المنيع الذى يستعصى اختراقه ويحق عليهم اليأس من تداعيه يوماً بعد يوم كلما تبدلت أطوار الشعوب وعلاقات الحكومات وظل النفور مستحكماً بين الحكام العسكريين والأمة المصرية في ابان زيارة اللجنة الملنرية . وكانما كان يهيم هؤلاء الحكام العسكريين أن يوقعوا في اخلاص المصريين ان حضور اللجنة إلى هذا البلد لا يعنى أن الدولة البريطانية تبالى بشعورهم وتكثرت لرفضهم أو قبولهم . فدأبوا على الغطرسة والعناد

وعز عليهم أن يغيروا ما عودوا للناس من سطوة وارهاب . ولولا قليل من الحرية في نشر بعض الآراء لظلت الحالة كما كانت عليه قبل حضور اللجنة بلا اختلاف

وزاد الجو اكفهراراً لججاج حكومة السودان في مشروعات الري والزراعة وهي المشروعات التي ترمى الى بناء خزان على النيل الأزرق وخزان آخر على النيل الأبيض واستدراج الحكومة المصرية الى القيام بتكاليف هذه المشروعات ، ليستفيد منها أصحاب الأموال في إنجلترا ، ويستعينوا بها على اصلاح الأرضين الواسعة وزرع القطن الذي يزاحم قطن مصر ولا ينتفع به أهل السودان . فبلغ الحنق من هذه المشروعات أقصاه ، وساء تأويل كل ما يقال وكل ما يراد في هذا الباب ، وتعرضت حياة وزيرين مصريين من رجال الهندسة والري — وهما حسين سرى باشا ومحمد شفيق باشا — للخطر من جراء البحث فيها ، إذ ألقى بعض الشبان على كل منهما قبلة في طريقه ، واتفقت الحادثنان معا في أثناء زيارة اللجنة الملنرية ، فدلنا على اكفهرار الجو أثناء زيارتها أيما اكفهرار

المفاوضة في لندن

بعداً أخذ ورد قبل عدلى باشا أن يقدم موعد سفره الى باريس إجابة
لطلب سعد في العشرين من شهر مارس

ولم تكن هذه الدعوة ابتغاء الوساطة في لقاء بين الوفد واللجنة كما
أشاع بعضهم في تلك الأيام . فقد كان ملز في الشرق حتى ذلك اليوم ، وكان
محتملا أن يمر بباريس عند عودته خلال ذلك الأسبوع ، قبل ذهاب عدلى
الى باريس على أى تقدير

وانما دعاه سعد لأنه أراد أن يعرف بالمحادثة ما لا يعرف بالمراسلة ،
وأن يطلع على الحقيقة قبل أن يبت بالرأى الحاسم في مسألة اللجنة ، عن
يقين لا تشوبه الظنون

وهنا بدرت من عدلى بادرة جديدة من البوادر التى لا تنى تدل على نيات
الوزراء « الأصدقاء » فيما يتخذون من علاقة بسعد خاصة وبالوفد عامة ،
فلما أبرق سعد الى عدلى يرجوه « تقديم موعد حضوره الى باريس بقدر
المستطاع » كان هم عدلى الأول أن يتمسك على سعد وعلى الوفد بوثيقة مفصلة
قبل أن يجيب هذه الدعوة . . فابرق اليه يقول انه « قبل تعيين ميعاد السفر
يكون سعيدا لو تسلم خطابا تفصيليا منكم » . . . وليس هذا مسلك تعاون
خالص ولكنه مسلك تقييد بالأسانيد المكتوبة . . . قد يكون فيه مصلحة
لعدلى ولكن لا مصلحة فيه للقضية المصرية ولا للساعى المنتظرة في
المستقبل . فان القضية المصرية لا تستفيد من وثيقة يبسط فيها الوفد أغراضه
المفصلة قبل الاطلاع على فحوى الحالة كلها من محادثة عدلى والموازنة بين
المعلومات الأخرى

لقد كان عدلى ينتظر من الوفد خطابا « مفصلا » يكشف فيه نياته نحو

اللجنة ونحو مستقبل المفاوضة ان كانت هناك مفاوضة . فأى مصلحة وطنية في كشف هذه النيات ؟ ولماذا هذا الحرص على تقييد الوفد بخطة مفصلة قبل تعيين موعد السفر ؟ ليس في ذلك الا أنه دليل على بواطن السرائر وعلى الفرق بين مسلك المعاونة الخالصة ومسلك التمسك بالوثائق والقيود كما يتمسك الخصوم

وغنى عن القول أن سعداً لم يجب هذا الطلب الغريب ، ولكنه كرر الرجاء على عدلى بالاسراع في السفر « لتبادل الآراء »

فبرح الاسكندرية في السادس عشر من أبريل ، ووصل الى باريس في الثانى والعشرين منه ، وفي هذا دليل على أن الغرض الأول من دعوته لم يكن هو السعى في تدبير مقابلة أو تدبير مصادقة للقاء بين الوفد وأعضاء اللجنة المنلرية أثناء اجتيازهم بالعاصمة الفرنسية ، وإنما كان الغرض الأكبر منه استيفاء المعلومات التى ينبى عليها رسم الخطة التالية بعد تجربة اللجنة فى البلاد المصرية

أما اللورد ملنر فقد عاد من مصر وهو يعتقد أن مفاوضة الوفد أمر لا محيص منه قبل تقرير النظام الذى يوصى الحكومة البريطانية باتباعه ، لأنه اذا فرض نظامه فرضاً على الأمة المصرية قابلته لاحتالة بالنفور والمقاومة وضاعت المنح التى لعله يوصى بها هدرا فى تيار هذه المقاومة ، فلا هو احتفظ بها للمساومة والأخذ والعطاء ولا هو أرضى الأمة المصرية ، ولا هو جرى على سنة تقرير المصير التى يهيم الدولة البريطانية أن تجرى عليها بعد شيوعها على الألسنة فى أثناء مؤتمر الصلح ، والتحدث بمبادئ الرئيس ويلسون ، وقيام عصبة الأمم الجديدة بما لها من حق الاشراف على الوصاية والانتداب وما اليهما من العلاقات بين الدول القويه والأمم التى لا تملك استقلالها وسيادتها . وخير للحكومة البريطانية أن تعامل مصر على أساس التعاهد والاتفاق من أن تحسبها غنيمه مملوكة تدخل فى حساب المقايضات والمنافسات بين الدول الاستعمارية . فان معاملة مصر على هذا الأساس تخرج بها من حساب

المقايضات والمنافسات وتحفظ لبريطانيا العظمى سمعة الديمقراطية وحسن
العلاقة بينها وبين الشعوب العزلاء المطالبة بحقوق الحرية

ورأى اللورد ملنر أنه لو أهمل الوفد المصرى كل الإهمال ومضى في
وضع تقريره بغير اكتراث به ولا رجوع إليه لاوجب على الوفد خطة المقاومة
وعلى الأمة أن تجاربه في هذه الخطة ، وقطع الرجاء في أعضائه « المعتدلين »
والمتطرفين على السواء فلا ينشط منهم أحد - بعد إهمالهم أجمعين - لترويج
المقترحات المعروضة على الأمة وجلب الأنصار إليها ، ولو وافقت تلك
المقترحات

ثم ما العمل في الوزارة التي تبرم المعاهدة وتستغنى فيها الأمة ؟ أيولفها
الانجليز من المنبوذين الذين لا مطمع لهم في أنصار كثيرين أو قليلين ؟ ان
فعلوا ذلك فرفض المعاهدة محقق بغير جدوى ، وقد يجر ذلك إلى مجافاة
« الوزراء الأصدقاء » أيضا وإجاءهم مختارين أو غير مختارين إلى مسaire
الوفد والاجماع ، والوقوف من المقترحات موقف المعارضة أو الاعراض .
أما إن كان الانجليز يولفون الوزارة من عدلى ورشدى وأصحابهما
فهل يرجو اللورد ملنر منهما أن يقبلا تأليفها بمعزل عن الوفد كله دون أن
يطمعا في تأييده أو تأييد فريق من أعضائه ؟ انهما لا يقدمان على ذلك كما
يعلم اللورد ملنر ، وخير ما يرجوه منهما أن ينتظرا حتى تكون هناك
مفاوضات مع الوفد ويكون هناك أمل في استمالة بعض الأعضاء الموافقين
على المقترحات ، فهما يقدمان حينئذ على تأليف الوزارة بتأييد من أولئك
الأعضاء .

فكل عمل كان يعمل ملنر قبل مفاوضة الوفد عبث

عبث أن يلقي إلى الأمة بمقترحات يقاطعها الوفد بالاجماع وهو معذور

لديها ولدى جميع المنصفين

وعبث أن يسلم المقترحات إلى وزارة منبوذة تجنى عليها من البداية
وعبث أن يطمع في قيام وزارة عدلية تناصب الوفد العداً ولا تعتمد
من أعضائه على أحد

فمفاوضة الوفد هي الطريق الوحيد الذي لا طريق غيره ، وعلى هذه
العزيمة عاد ملنر من القاهرة بغير جدال . فلا اعتداد بما قيل يومئذ عن وساطة
الوسطاء وكياسة الاكياس الذين جذبوا اللورد ملنر الى مفاوضة الوفد على
غير قصد منه ولا ارتياح ، ولا يزالون ينقدون سعداً من الورطات كلما احتاج
الأمر الى وساطة او كياسة !

غير أن اللورد ملنر يعلم أن سعداً يرفض المفاوضة مع لجنة يقال انها
لجنة تحقيق تبحث عن شكايات المصريين وتنظر في تنظيم الحماية ، ولكنه
يفاوضها على اعتباره وكيلا عن الأمة يطلب لها الاستقلال التام ويسعى
في الغاء الحماية . فلا بد من تمهيد يصحح الأمور وينفي عن المفاوضة صبغة
الاعتراف بالحماية والخروج عن حدود التوكيل ، ولهذا أوعزت الحكومة
البريطانية إلى أحد النواب أن يلقي سؤالاً في نحو منتصف شهر مايو يقول
فيه : « هل صحيح أن لجنة اللورد ملنر قد ذهبت الى مصر لتثبيت الحماية
البريطانية عليها ومن أجل ذلك كان معقولاً أن يجفل المصريون منها ؟ »
فأجابه مستر بونارلو قائلاً : « كلاً لم يكن هناك شيء من ذلك ، ولكن اللجنة
قصدت الى مصر لتشير بأحسن النظم الصالحة لحكم البلاد »

وفي تلك الجلسة بعينها التي مستر كنورثي سؤالاً في هذا الموضوع فقال
مستر بونارلو جواباً عليه : « لو كان الممثلون المصريون على استعداد للمناقشة
في الضمانات المعقولة الكافية لصيانة المصالح البريطانية فيما يتعلق بقناة
السويس والمصالح التجارية والمالية مقابلة لوعده بريطانيا العظمى باحترام
استقلال مصر لكانوا اغتتموا فرصة بلاغ اللورد ملنر الذي نص على اطلاق
حدود المناقشة »

وقد سأل المستر كنورثي بعد ذلك : « هل من الممكن مع هذا أن يفتح باب المناقشة من جديد حتى يتيسر الوقوف على رأى هؤلاء السادة المصريين فى الاتفاق الذى سيعقد بين البلدين ؟ »

فقال مستر بونارلو : « اننى على يقين من أن كل مناقشة يكون من ورائها نتيجة مرضية تقبل بلا ابطاء . ولكن يجب أن تقدر الحكومة فائدة هذه المناقشة والنتائج التى تنتظر من ورائها »

وقابل سعد هذه التصريحات بما يناسبها فقال لمراسل صحيفة الجورنال حين سأله فى هذا الصدد : « لا أنكر قيمة هذه التصريحات ولا انكر أن فيها ما يقرب المسافة بين وجهة النظر الانجليزية ووجهة النظر المصرية على شريطة أن يصاحبها ما يجعلنا نترقب لها نتائج فعلية ، ومن الصعب مع هذا أن يعرف الآن ما تراه مصر فى هذه التصريحات . اذ يجب أن لا يعزب عن الذهن ان انجلترا عدلت أخيراً بمحض ارادتها وبغير استشارتنا نظام وراثه العرش بمصر ، وليس هذا بخير السبل للتقريب بين البلادين بأواصر الثقة والمودة وانما تكسب مودة المصريين وثقتهم بالاعتراف باستقلالهم والكف عن التعرض لخاصة شئونهم »

ثم قال سعد : « إنه لا يوافق مستر بونارلو على قوله إن المصريين ضيعوا فرصة المناقشة مع لورد ملتر » وأضاف الى ذلك انهم لم يتلقوا دعوة من لورد ملتر للمفاوضة باعتبارهم ممثلين للأمة المصرية ، ثم سأله المراسل : هل هو على استعداد للمفاوضة على أساس اعطاء الضمانات المعقولة لمصالح انجلترا فى قناة السويس ومصالحها التجارية والمالية إذا هى وفيت بعهودها ؟ فقال : « اننا مستعدون لاعطاء كل الضمانات المعقولة للتوفيق بين مصالح انجلترا واستقلال مصر ، ولا نرفض الدخول فى المفاوضات اللازمة باعتبارنا وكلاء الأمة المصرية إذا كان من وراء ذلك الوصول الى هذه النتيجة »

وعقب ذلك بايام وصل الى باريس مستر سسل هيرست أحد زملاء

ملنر لدعوة الوفد الى الاجتماع باللجنة في لندن للمناقشة في قواعد الاتفاق بين مصر وبريطانيا العظمى ، ففضل الوفد — كما جاء في رسالة سعد الى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة — أن ينوب عنه محمد محمود باشا وعبد العزيز فهمى بك وعلى ماهر بك في السفر الى لندن لاستطلاع الحالة والتحقق من استعداد بريطانيا العظمى نحو استقلال مصر قبل الانتقال بهيئته الكاملة الى العاصمة الانجليزية . وقد لقي هؤلاء الأعضاء اللورد ملنر فذكر لهم أن إنجلترا تعترف باستقلال مصر التام إذا هي ضمننت مصالحها الخاصة وانتهت من المفاوضات الى هذه النتيجة ، فكتبوا الى سعد بما سمعوه وشفعوا ذلك باستحسان حضور الوفد كله الى لندن للبدء في المفاوضات ، فلبى الدعوة وأبرق إلى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة يعلن للأمة اعتزام السفر في الخامس من شهر يونية عسى أن يصلوا بالمفاوضات إلى حل مرضى « مستمدين القوة من اتحاد الأمة وحكمة أبنائها ، والحجة من وضوح الحق والمعونة من الله ناصر الضعفاء »

ولسنا نعرف مبلغ ما كان يرجوه سعد للقضية المصرية من وراء هذه المفاوضات ، ولكنه لم يكن مستطيعاً أن يرفضها دون أن يعرض الوفد للانشقاق والتنازع ويهيء للمعرضين أسباب اتهامه بتضييع الفرص وسوء السياسة ، والخوف من مواجهة الحقيقة التي اضطلع بها دون أن يعتمد على وسيلة أخرى مضمونة الفلاح والجدوى . وهولو رفض المفاوضات مكتفياً بنشر الدعوة بين الشعوب الأوربية لم يعد هنالك من يلتقى عليه اللوم ويبرىء بريطانيا العظمى من التهمة ، لأنها مهدت له سبيل التفاهم والمناقشة الحرة فأعرض هو عنها وأشفق على نفسه وعلى أمته من مناقشتها ومساجلتها ! وفي وسعه أن يعود إلى نشر الدعوة متى احتاج إليها يوم ينجلي سوء النية من جانب السياسة البريطانية ، وينجلي عذر المصريين في رفض مفاوضاتها بعد الاستجابة إليها . ولكن ليس في وسعه أن يقنع الناس جميعاً بفشل المفاوضات قبل الدخول فيها ، ولا أن يمنع الفتنة أن تدب ديبها بين أعضاء الوفد ، ومنهم من ود لو

رجع سعد الى القاهرة وقبل نصيحة « الوزراء الأصدقاء » حين زينوا له
مفاوضة اللجنة المنترية قبل رجوعها الى بلادها ، فاذا رفض مفاوضتها في
هذه المرة وأغلق باب المفاوضة اغلاقاً لا رجعة فيه فماذا ينتظرون وعلام
يصبرون ؟

ومن العجز أن يتهم الانسان نفسه ويتهم قومه بالخوف من المناقشة
لاظهار حقهم واثبات مطالبهم . فاذا كان مقدوراً لوفد أن يختلف لامناص
تخير للأمة المصرية أن يختلف بعد المفاوضة من أن يختلف قبلها ، لأن
الخلاف يومئذ يكون على أمور مذكورة مسطورة تظهر من ورائها النيات
والدعاوى ويسهل الدفاع عنها وبيان وجه القوة والضعف في جانبيها ، ولكن
الخلاف قبل المفاوضة انما تقوم به حجة من يقبلونها وتسقط به حجة من
يرفضونها ، ويتاح لمن يشاء أن يتهم الراضين بالعبث والتعنت واهمال
الوسائل المعروضة ، لأسباب مبهمه أو لغير سبب على الاطلاق

وقد وازن سعد بين جميع الدواعي والموانع فاستقر رأيه على اجابة الدعوة
واعترزم السفر ووصل الى لندن في مساء الخامس من شهر يونية ومعه زملاؤه
فاستقبلهم المصريون هناك أحسن استقبال . وتمت المقابلة الأولى بينهم
وبين لجنة ملنر في اليوم السابع فقام بالتعريف بين الفريقين عدلى باشا الذى
كان قد سبق أعضاء الوفد الى العاصمة الانجليزية . وبدأت المفاوضة فى اليوم
التاسع ، فبسط اللورد ملنر غرض الحكومة البريطانية منها وهو عقد اتفاق
ودى بين الامتين الانجليزية والمصرية تعترف فيه باستقلال مصر وتطمئن
به الى الضمانات الضرورية لمصالحها ومصالح الأجانب واستقرار النظام
والسكينة ، ومن هذه الضمانات إقامة حامية عسكرية فى أما كن يقررها الخبراء
وابداء الرأى فى التشريع الذى يمس الأجانب الى أن ينزلوا لبريطانيا العظمى
عن امتيازاتهم التى تعوق استقلال البلاد ، وتوطيد حكومة ملكية دستورية
ينص عليها فى المعاهدة

ثم دارت المناقشة بجلسة أخرى في مسألة المستشارين الانجليز وغيرها من المسائل التي تلحق بها ، وكان وكلاء الوفد في جلسات المناقشة رئيسه ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك ، ووكيلا اللجنة الملنرية رئيسها ومستر رنل رود ، ويحضر عدلى باشا الاجتماعات برضى من الطرفين

ولانطيل في سرد التفصيلات ، فالخلاصة أن البحث انتهى منتصف شهر يوليو الى تدوين كلا الطرفين مذكراته بما فهمه كلاهما من نتائج المناقشات السابقة . فاشتملت مذكرة اللجنة الملنرية على ما يأتى :

« استبدال الحالة الحاضرة بمعاهدة تحالف دائم بين بريطانيا العظمى ومصر يشترط فيها :

« أولاً » تتعهد بريطانيا العظمى بضمان سلامة مصر واستقلالها باعتبارها دولة ملكية ذات أنظمة دستورية

« ثانياً » تتعهد مصر من جهتها بان لا تعقد معاهدة سياسية مامع دولة أخرى بغير موافقة بريطانيا العظمى

« ثالثاً » نظراً للتبعية التي أخذتها بريطانيا العظمى على عاتقها في المادة السابقة ونظراً لما لبريطانيا العظمى من المصلحة الخاصة في حماية المواصلات فى أملاكها بالشرق والشرق الأقصى تمنح مصر بريطانيا حق ابقاء قوة عسكرية على الارض المصرية واستخدام الموانئ والمطارات المصرية لضمان الدفاع عن مصر وحماية مواصلات بريطانيا العظمى مع تلك الاملاك . أما الموضع أو الموضع التي تعسكر فيها الجنود فتعين فى المعاهدة

« رابعاً » توافق مصر على تعيين مستشار مالى بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك تعهد اليه جميع السلطات التي لأعضاء صندوق الدين الآن لحماية حملة الاسناد المصرية ، ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لكل أمر آخر ترغب فى استشارته فيه .

« خامساً » تتعهد بريطانيا بمساعدة مصر في تحرير نفسها من القيود التي تقيد حريتها في التشريع والادارة بسبب الامتيازات والضمانات التي يتمتع بها الأجانب في مصر . وأن تساعد في إقامة نظام يكون من شأنه تطبيق القانون المصرى على المصريين والأجانب على حد سواء

« سادساً » نظراً لتخلي الدول الأجنبية عن الامتيازات الخاصة التي يتمتع بها رعاياها حتى الآن ، ولضرورة تأمين تلك الدول على أن حقوق الأجانب المشروعة ستحترم مع هذا ، تمنح مصر بريطانيا العظمى حق التدخل بواسطة معتمدها في مصر لتوقف تنفيذ أى قانون يخالف حقوق الأجانب المشروعة أو يخالف المتبع في البلاد المتقدمة . وإذا ادعت الحكومة المصرية في حالة من الحالات أن حق التدخل هذا استخدم استخداماً لا ينطبق على العقل فيصح عرض الأمر على عصبة الأمم .

« سابعاً » يبقى نظام المحاكم المختلطة أو أى نظام آخر مساو له يحل محله ويوسع بحيث يتناول القضايا الجنائية وجميع القضايا الأخرى التي تمس الأجانب في مصر .

« ثامناً » توافق مصر على تعيين موظف بريطاني في وزارة الحقانية بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك ، يكون له مركز وسلطة تكفي لتمكينه من ضمان تنفيذ القانون تنفيذاً عادلاً فيما له مساس بالأجانب .

« تاسعاً » ترضى حكومة جلالة الملك بأن تأخذ على عاتقها تمثيل مصر في أية دولة لا يعين فيها معتمد مصر ، ولكن مصر لاتعهد بتمثيلها على هذا النحو إلى أية دولة غير بريطانيا العظمى .

« عاشراً » تعترف الحكومة المصرية بأن لمركز المعتمد البريطاني في مصر صفة خاصة ؛ وأنه باعتباره يمثل دولة حليفة تكون له الأولوية على جميع المعتمدين الآخرين

« حادى عشر » يسوى مركز من عدا المذكور فى المواد السابقة من الموظفين البريطانيين والأجانب باتفاق خاص يعقد بين الحكومتين البريطانية والمصرية يعد جزءاً من الاتفاق الذى يعقد بينهما »

* * *

وظاهر من هذا المشروع أنه لم يخرج بمصر عن الحماية الصريحة فى أضيق حدودها ، وأن اللجنة لم تتقرب به خطوة واحدة الى موقف المصريين ولم تزد على أن جمعت فيه ماتريده بريطانيا العظمى بخذافيره إلى أقصى مداه ، وليس فيه شيء يصح أن يقال إنه كان موضع تفاهم واتفاق بين المندوبين الانجليز والمندوبين المصريين ، لأنه دون المطالب من جانب واحد ولم يتزحزح فيها قيد أنملة إلى جانب المطالب الأخرى

أما مذكرة الوفد التى أرسلها بعد وصول هذه المذكرة اليه بيوم واحد فقد لاحظ فيها الرغبة الصحيحة فى الاتفاق ولم ينس حدود وكالته التى يجب عليه التزامها . وقد صدرها سعد بكتاب قال فيه :

« إني أبادر فأعرض على فخامتكم طى هذا مشروع اتفاق يحوى النقط التى جرت المناقشة بشأنها فى أحاديثنا ، وهى النقط التى يلوح لى أنكم تقبلونها »

« ونحن نعتقد أن هذا المشروع — بالصفة التى هو عليها — من شأنه أن يرضى الطرفين . فعلى هذه القواعد يمكننا أن نضع دعائم صداقة متينة ، وتعاون عماده الاخلاص بين الشعبين الانجليزى والمصرى . ومن المتفق عليه بيننا أن النقط التى لم تبحث بعد تكون موضوع اتفاق يعقد فيما بعد » ثم قال : « ولى الثقة التامة بأن أعمالنا التى توليتم رآستها بتلك الكياسة يمكن أن تنتهى قريباً بحيث يتيسر لى السفر إلى شاتل وفيشى قبل فصل الخريف للاستشفاء الذى لا بد منه لصحتى على ما يظهر »

وأُتبع ذلك بالذاكرة وهذه ترجمتها :

« أولاً » تعترف بريطانيا العظمى باستقلال مصر . وتنتهي الحماية التي أعلنتها بريطانيا العظمى على مصر والاحتلال العسكري البريطاني . وبهذا تسترد مصر كامل سيادتها الداخلية والخارجية وتؤلف دولة ملكية ذات نظام دستوري .

« ثانياً » تسحب بريطانيا العظمى جنودها من الأرض المصرية في مدة . . . ابتداء من وقت نفاذ المعاهدة الحالية .

« ثالثاً » تتعهد الحكومة المصرية بأنها عند استخدام حقها في الاستغناء عن خدمات الموظفين الانجليز تعامل هؤلاء الموظفين المعاملة الممتازة التالية :
فما عدا الاقالة لبلوغ نهاية سن الخدمة أو عدم القدرة على العمل أو الأحكام التأديبية أو انتهاء مدة التعاقد والاستخدام — يمنح الموظف الذي يقال من الخدمة تعويضاً إضافياً مقداره مرتب شهر عن كل سنة من سني خدمته . وتتناول هذه المعاملة الممتازة الموظفين الذين يتركون خدمة الحكومة المصرية من تلقاء أنفسهم في بحرسنة من نفاذ هذه المعاهدة .

« رابعاً » لتخفيف وطأة نظام الامتيازات الى حين إلغائها تقبل مصر أن تستخدم بريطانيا باسم الدول حقوق الامتيازات التي لهذه الدول الآن ويكون ذلك بالصفة الآتية :

« أ » تكون الاضافات والتعديلات في النظام القضائي المختلط معلقة على موافقة بريطانيا العظمى

« ب » جميع القوانين الأخرى التي لا يمكن أن تسرى الآن على الأجانب المتمتعين بالامتيازات إلا بعد موافقة الدول أو مداولة الجمعية التشريعية للحكومة المختلطة أو جمعيتها العمومية تصير نافذة عليهم بموجب قرار يسن لذلك . إلا إذا عارضت الحكومة البريطانية في ذلك ، وتبلغ هذه المعارضة

لوزير الخارجية المصرية في مدة . . . من نشر القرار في الجريدة الرسمية .
ولا تكون المعارضة إلا فيما يحتويه القانون من أمور لا مثيل لها في أي
تشريع من تشريعات الدول المتمتعة بالامتيازات ، أو إذا كان القانون خاصاً
بضرائب وكان في هذه الضرائب اجحاف بالأجانب دون الوطنيين

وفي حالة اختلاف الحكومتين على أحقية هذه المعارضة . يكون لمصر
أن تعرض المسئلة على عصبة الأمم للبت فيها

« خامساً » في حالة إلغاء محاكم القنصليات واحالة النظر في الجرائم والجنح
التي يرتكبها الأجانب إلى المحاكم المختلطة توافق مصر على تعيين أحد رجال
القضاء البريطانيين في مركز النائب العام لدى المحاكم المختلطة

« سادساً » تقر الحكومة البريطانية بأنها على استعداد لأن تنظر مع
الحكومة المصرية بعد خمس عشرة سنة في مسألة أبطال تقييد سيادة الحكومة
المصرية الداخلية الناشئ من الامتيازات التشريعية والقضائية التي للأجانب
وتحفظ مصر لنفسها الحق عند الاقتضاء في عرض هذه المسئلة على عصبة
الأمم بعد مضي المدة المتقدمة »

« سابعاً » في حالة إلغاء لجنة الدين العمومي تعيين مصر موظفاً سامياً
تقترحه بريطانيا العظمى وتكون له الاختصاصات الحالية التي للجنة الدين .
ويكون الموظف السامي المذكور تحت تصرف الحكومة المصرية لكل
الاستشارات أو المهمات التي ترى تكليفه بها في المسائل المالية

« ثامناً » للحكومة البريطانية — إذا رأت ضرورة — أن تنشئ على
نفقتها نقطة عسكرية على الضفة الاسيوية لقناة السويس للاشتراك في دفع
أي اعتداء أجنبي يحتمل حدوثه على القناة . وتعين حدود هذه النقطة فيما بعد
بواسطة لجنة من خبراء حرييين يعين كل فريق نصفهم . ومن المتفق عليه أن
اقامة هذه النقطة لا يخول بريطانيا أي حق للتدخل في شؤون مصر ولا يمكن
أن يمس بأية حالة من الحالات حقوق السيادة التي لمصر على المنطقة المذكورة

التي تبقى خاضعة لسلطة مصر محكومة بقوانينها ، كما أن اقامة النقطة لا يقيد السلطات التي اعترف بها لمصر بموجب اتفاق الاستانة المعقود في سنة ١٨٨٨ خاصاً ببحرية قناة السويس . وبعد مضي عشر سنوات من تاريخ سريان المعاهدة الحالية يفحص الطرفان المتعاقدان مسألة ما إذا كان بقاء تلك النقطة لم يصبح غير ضروري ، وما إذا كان يصح أن يترك لمصر وحدها تولى حماية القناة ، وفي حالة الخلاف تعرض المسئلة على عصبة الأمم

« تاسعاً » في حالة ما إذا لم تجد مصر التي لها الحق المطلق في تعيين سفراء لها — ضرورة لتعيين ممثل سياسي مصرى في أى بلد من البلدان تعهد بالمصالح المصرية في هذا البلد إلى ممثل بريطانيا العظمى الذي يتبع تعليمات وزير الخارجية المصرية

« عاشراً » يعقد الطرفان المتعاقدان بالعقد الحالى مخالفة دفاعية للغايات التالية : —

« ١ » تتعهد بريطانيا العظمى بالمساعدة على الدفاع عن الأرض المصرية ضد كل اعتداء تقوم به دولة أجنبية

« ب » في حالة وقوع اعتداء من دولة أوربية على الامبراطورية البريطانية تتعهد مصر — ولو لم تكن سلامة أرضها مهددة مباشرة — بان تقدم لبريطانيا العظمى في أرضها تسهيلات المواصلات والنقل لحاجاتها الحربية ، ويحدد اتفاق خاص طرق هذه المساعدة

« حادى عشر » تتعهد مصر أيضاً بأن لا تعقد أية معاهدة تحالف مع دولة أخرى دون اتفاق سابق مع بريطانيا العظمى

« ثانى عشر » هذه المخالفة معقودة لمدة ثلاثين عاماً يمكن الطرفين المتعاقدين بعد انتهائها النظر في أمر تجديدها

« ثالث عشر » تكون مسألة السودان موضوع اتفاق خاص

« رابع عشر » جميع النصوص المخالفة لل مواد الحالية والواردة في جميع المعاهدات الأخرى خاصة بمصر تعتبر ملغاة وكانها لم تكن

« خامس عشر » تودع المعاهدة الحالية في مكتب عصبة الأمم لتسجيلها بها . وتقر الحكومة البريطانية من الآن بأنها توافق فيما يختص بها على دخول مصر عصبة الأمم دولة حرة مستقلة

« سادس عشر » تصير المعاهدة الحالية سارية المفعول بمجرد تبادل عقود ابرامها بين الطرفين المتعاقدين . ويكون ابرامها فيما يختص بمصر على اقرارها بواسطة جمعية قومية تعقد للاقتراع على الدستور المصرى الجديد »

* * *

هذا هو مشروع الوفد كما لخصه في مذكرته ، وظاهر منه كما أسلفنا أنه مشروع أناس يحدون في طلب الوفاق ما استطاعوا ولا يلعبون بالألفاظ في التقريب بين حقوق الاستقلال ومصالح بريطانيا العظمى التي لا تفرضها على مصر وعلى العالم إلا بحكم القوة . وقد احتفظوا من معالم السيادة الوطنية بالقسط الضرورى الذى لا ترضى أمة تطلب الاستقلال بأقل منه ، فمن يطالبهم بالتبرع من عندهم بقبول قسط أقل من هذا فهو كأنما يطالب الأمة المصرية بالثورة والتضحية لغير نتيجة إلا أن تصحح مركز بريطانيا العظمى في مصر وتزودها بقوة النصوص المشروعة والموافقة الودية فوق ما لها من قوة السلاح والسطوة ! وهو أمر لا يعقل أن يكون موضع اتفاق ومفاوضة بين طرفين وفيه الرجح كل الر . من جانب والخسارة كل الخسارة من الجانب الآخر . . . وإنما المعقول المفهوم أن يكون ما قبله الوفد أقل ما يسعه قبوله مادام المرجع فيه إلى الاختيار والاتفاق ، فاذا تجاوز هذا الحد فهو يعطى بريطانيا العظمى كل مزايا الاتفاق الحر ويؤء — والأمة المصرية معه — بكل مساوىء الاكراه ، ومع هذا استغربوا في إنجلترا « جرأته » كما سموها

وقالوا إن سعداً يحسب أنه هزم الدولة البريطانية ويملي عليها شروطه أملاء
الظافر في ميدان القتال !

* * *

توقفت المفاوضات . وقيل إنها تنقطع أو انقطعت لأن الوفد رفض
مذكرة اللجنة كما رفضت اللجنة مذكرة الوفد . ثم توسط عدلى يكن باشا في
الأمر . فاضطر سعد إلى أرجاء السفر ريثما تتم هذه الوساطة ، وبقي في لندن
حتى تسلم مذكرة اللجنة الثانية في الخامس من شهر أغسطس فانفتح بها باب جديد
للمناقشة وجرى التعديل مرة أخرى في بعض العبارات ، وتعذر الاتفاق على
جميع المسائل فاستمر البحث فيها إلى منتصف أغسطس ، وهنا اختلفت آراء
الأعضاء بين القبول والرفض ومعظمهم إلى القبول . واقترح بعضهم عرض
المشروع الأخير على الأمة لتبدي ملاحظتها عليه ثم يعاد بحثه بين الوفد
واللجنة بعد الوقوف على جملة الآراء ومواضع الملاحظة والاستدراك .

ويغلب أن يكون هذا الاقتراح ميزياً في منشئه ، أوحاه إلى اللجنة ما كانت
تسمعه من سعد وزملائه من الاعتذار بوكالة الأمة وتعذر الخروج عن حدود
هذه الوكالة ، لأن الأمة ترفض كل ما يخرج على تلك الحدود لا محالة ولوقبله
الأعضاء . فكان أعضاء اللجنة يقولون انما الوكالة برناجكم أتم وفي أيديكم أن
ترجعوا إليه بالتعديل والتحويل ان اقتنعتم بصواب ما تعرضونه على الأمة
التي أوكلتكم ، وكان من الطبيعي أن يخطر للجنة اقتراح الرجوع إلى الأمة
تخلصاً في هذا الاعتذار ، وسعياً وراء الخلاف ان لم يكن سعياً وراء الاقتناع

فتردد سعد في العمل بالاقتراح مخافة الانقسام والشتات . ولكنه رأى
بوادر الانقسام والشتات تبدو في داخل الوفد فآثر أن يتداركها وأن
يرجى ظهورها ما استطاع ، وهو يرجو أن يستعين بجلاء رأى الأمة على معالجة
تلك البوادر أملاً في رأب الصدع وتوحيد الصفوف . فنقرر إيفاد أربعة من

الاعضاء إلى القاهرة وهم محمد محمود واحمد لطفي السيد وعبد اللطيف المكباتي وعلى ماهر ينضم إليهم في القاهرة مصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفي لعرض الموضوع على طوائف الامة واستطلاع رأيهم فيه وتقييم ملاحظاتهم عليه ، والرجوع بها الى الوفد في النهاية لاستئناف البحث فيها جميعاً مع اللجنة الملترية ، وان كان رئيسها قد أعلن أن المشروع تضمن أقصى ماتوصى به اللجنة وتطمع في اقراره من لدن الحكومة البريطانية ، وأنها تشك في اقرارها لبعض ما فيه

وعلى هذا سافر سعد من لندن في السادس عشر من شهر أغسطس وتبعه الاعضاء في اليوم التالي وتبعهم عدلى في اليوم الذى بعده ، وهذه صيغة المذكرة التى تم الاتفاق على استطلاع رأى الامة فيها : ج

قواعد الاتفاق

(١) لأجل أن يبنى استقلال مصر على أساس متين دائم يلزم تحديد العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر تحديداً دقيقاً ، ويجب تعديل ما تتمتع به الدول ذوات الامتيازات في مصر من المزايا وجعلها أقل ضرراً بمصالح البلاد

(٢) ولا يمكن تحقيق هذين الغرضين بغير مفاوضات جديدة تحصل للغرض الأول بين ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية وآخرين من الحكومة المصرية . ومفاوضات تحصل للغرض الثانى بين الحكومات البريطانية وحكومات الدول ذوات الامتياز . وجميع هذه المفاوضات ترمى الى الوصول الى اتفاقات بنيت على القواعد الآتية :

(٣) أولاً: تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى تعترف بريطانيا العظمى بموجبها باستقلال مصر كدولة ملكية دستورية ذات هيئات نيابية وتمنح مصر بريطانيا العظمى الحقوق التى تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ،

ولتمكينها من تقديم الضمانات التي يجب أن تعطى للدول الأجنبية لتحقيق
تخلي تلك الدول عن الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات

ثانياً : تبرم بموجب هذه المعاهدة نفسها محالفة بين بريطانيا العظمى ومصر
تتعهد بمقتضاها بريطانيا العظمى أن تعضد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها.
وتتعهد مصر أنها في حالة الحرب ، حتى ولو لم يكن هناك مساس بسلامة
أرضها ، تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التي في وسعها لبريطانيا
العظمى ومن ضمنها استعمال ما لها من الموانئ وميادين الطيران ووسائل
المواصلات للأغراض الحربية

(٤) تشمل هذه المعاهدة أحكام للأغراض الآتية :

أولاً : تتمتع مصر بحق التمثيل في البلاد الأجنبية ، وعند عدم وجود
ممثل مصرى معتمد من حكومته تعهد الحكومة المصرية بمصالحها إلى الممثل
البريطانى ، وتعهد مصر بأن لا تتخذ في البلاد الأجنبية خطة لا تتفق مع
المخالفة أو توجد صعوبات لبريطانيا العظمى ، وتعهد كذلك بأن لا تعقد مع
دولة أجنبية أى اتفاق ضار بالمصالح البريطانية

ثانياً : تمنح مصر بريطانيا العظمى حق ابقاء قوة عسكرية في الأرض
المصرية لحماية مواصلات الامبراطورية . وتعين المعاهدة المكان الذى تعسكر
فيه هذه القوة ، وتسوى ما يستتبعه من المسائل التي تحتاج الى التسوية ،
ولا يعتبر وجود هذه القوة بأى وجه من الوجوه احتلالاً عسكرياً للبلاد ،
كما أنه لا يمس حقوق حكومة مصر

ثالثاً : تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشاراً يعهد اليه في
الوقت عينه بالاختصاصات التي لصندوق الدين ، ويكون تحت تصرف
الحكومة المصرية لا استشارته في جميع المسائل الأخرى التي قد ترغب في
استشارته فيها

رابعاً : تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفاً في وزارة

الحقانية يتمتع بحق الدخول على الوزير ويجب احاطته علماً على الدوام بجميع المسائل المتعلقة بإدارة القضاء فيما له مساس بالأجانب ، ويكون أيضاً تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في أى أمر مرتبط بحفظ الأمن العام خامساً : نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها إلى الآن الحكومات الأجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات إلى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التدخل بواسطة ممثليها في مصر لتمنع أن يطبق على الأجانب أى قانون مصرى يستدعى الآن موافقة الدول الأجنبية . وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها ألا تستعمل هذا الحق إلا حيث يكون مفعول القانون جائراً على الأجانب .

صيغة أخرى لهذه الفقرة

« نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها الآن الحكومات الأجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات إلى الحكومة البريطانية ، تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التدخل بواسطة ممثليها في مصر لتمنع أن ينفذ على الأجانب أى قانون مصرى يستدعى الآن موافقة الدول الأجنبية . وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها أن لا تستعمل هذا الحق إلا في حالة القوانين التي تتضمن تمييزاً جائراً في مادة فرض الضرائب أو لا توافق مبادئ التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتيازات

سادساً : نظراً للعلاقات الخاصة التي تنشأ عن المحالفة بين بريطانيا العظمى ومصر يمنح الممثل البريطاني مركزاً استثنائياً في مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين

سابعاً : الضباط والموظفون الإداريون ، من بريطانيين وغيرهم من الأجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبل العمل بالمعاهدة يجوز انتهاء خدمتهم بناء على رغبتهم أو رغبة الحكومة المصرية في أى وقت خلال

سنتين بعد العمل بالمعاهدة ، وتحدد المعاهدة المعاش أو التعويض الذي يمنح للموظفين الذين يتركون الخدمة بموجب هذا النص زيادة على ما هو مخول لهم بمقتضى القانون الحالى . وفى حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى أحكام التوظيف الحالية بغير مساس

(٥) تعرض هذه المعاهدة على جمعية تأسيس . ولكن لا يعمل بها الا بعد انفاذ الاتفاقات مع الدول الأجنبية على ابطال محاكمها القنصلية وانفاذ الأوامر العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة

(٦) يعهد الى جمعية التأسيس فى وضع قانون نظامى جديد تسير حكومة مصر فى المستقبل بمقتضى أحكامه ، ويتضمن هذا النظام أحكاماً تقضى بجعل الوزراء مسئولين أمام الهيئة التشريعية ، وتقضى أيضاً باطلاق الحرية الدينية لجميع الأشخاص وبالحماية الواجبة لحقوق الأجانب

(٧) تحصل التعديلات اللازم ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين بريطانيا العظمى والدول المختلفة ذوات الامتيازات ، وتقضى هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الأجنبية لكي يتيسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها وسريان التشريع الذى تسنه الهيئة التشريعية المصرية دونه التشريع الذى يفرض الضرائب على جميع الأجانب فى مصر

(٨) تنص هذه الاتفاقات على أن تنتقل الى الحكومة البريطانية الحقوق التى كانت تستعملها الحكومات الأجنبية المختلفة ، بمقتضى نظام الامتيازات .

وتشمل أيضاً أحكاماً تقضى بما يأتى : —

أولاً : لايسوغ العمل على التمييز الجائر على رعايا أى دولة وافقت على ابطال محاكمها القنصلية ، ويتمتع هؤلاء الرعايا فى مصر بنفس المعاملة التى يتمتع بها الرعايا البريطانيون

ثانياً : يؤسس قانون الجنسية المصرية على قاعدة النسب فيتمتع الأولاد الذين يولدون في مصر لأجنبي بجنسية أبيهم ولا يحق اعتبارهم مصريين

ثالثاً : تخول مصر موظفي قنصليات الدول الأجنبية نفس النظام الذي يتمتع به القناصل الأجانب في إنجلترا

رابعاً : المعاهدات أو الاتفاقات الحالية التي اشتركت مصر في التعاقد عليها في مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغراف تبقى نافذة المفعول . أما في المسائل التي يناهاها مساس من جراء إبطال المحاكم القنصلية فتعمل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية صاحبة الشأن . مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفارين ، وكذلك المعاهدات التي لها صفة سياسية سواء كانت معقودة بين أطراف عدة أو بين طرفين . مثال ذلك اتفاقات التحكيم والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب ، وذلك كله ريثما تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفاً فيها

خامساً : تضمن حرية إبقاء المدارس وتعليم لغة الدولة الأجنبية صاحبة الشأن على شرط أن تخضع هذه المدارس من جميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الأوربية بمصر

سادساً : تضمن أيضاً حرية إبقاء أو إنشاء معاهد دينية وخيرية كالمستشفيات الخ وتنص المعاهدة أيضاً على التغييرات اللازمة في صندوق الدين وعلى إبعاد العنصر الدولي عن مجلس الصحة في الاسكندرية

(٩) التشريع الذي تستلزمه الاتفاقات السالفة الذكر بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية يعمل به بمقتضى مراسيم تصدرها الحكومة المصرية وفي الوقت عينه يصدر مرسوم يقضى باعتبار جميع الاجراءات التشريعية والادارية والقضائية التي اتخذت بمقتضى الأحكام العرفية صحيحة

(١٠) تقضى المراسيم العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة بتحويل هذه

المحاكم كل الاختصاص الذي كان مخولاً إلى الآن للمحاكم القنصلية الأجنبية
ويترك اختصاص المحاكم الأهلية غير ممسوس

(١١) بعد العمل بالمعاهدة المشار إليها في البند الثالث تبلغ بريطانيا
العظمى نصها إلى الدول الأوروبية الأجنبية ، وتعضد الطلب الذي تقدمه
مصر للدخول في جمعية الأمم

مسألة السودان

أما مسألة السودان فلم تطرح تحت البحث ولكن الوفد قد حصل على
تأكيدات تضمن الطمانينة على مياه النيل لرى الأرض المصرية المزروعة
الآن والقابلة للزراعة في المستقبل .

* * *

وقد بين الأعضاء المندوبون مهمتهم في هذه المرحلة بكلمة ذيلوا بها
المذكرة وقالوا فيها :

« أما مهمة أعضاء الوفد المندوبين في بيانها أنه لما وصلت المفاوضات بين
الوفد ولجنة ملر إلى أن قدمت اللجنة هذه القواعد على أنها نهائية في الاساسات
التي بنيت عليها - رأى الوفد أخذاً بالأحوط واستمساكاً برأى الوكالة على
اطلاقه - أن لا يثبت في الموضوع برفضه أو قبوله . بل رأى أن الحكمة تدعو
إلى عرض الأمر على البلاد . فاذا قالت البلاد أن هذه القواعد صالحة أساساً
للمعاهدة دخلت المسئلة في دورها النهائي ووضعت معاهدة على القواعد
المذكورة وعرضت على الجمعية الوطنية التي هي صاحبة الرأى الأعلى في الأمر
ولها دون غيرها الكلمة الأخيرة في الموضوع . فبعد أن تدرس تفاصيل
المعاهدة وصيغتها تقرر قبولها أو رفضها »

* * *

وقد رأى سعد أن يجمل رأيه في المشروع للأساتذة مصطفى النحاس
وويصا واصف وحافظ عفيفي لأنهم لم يحضروا البحوث فيه بالعاصمة الانجليزية

كما حضرها زملاؤهم القادمون من أوروبا . فكتب اليهم في الثاني والعشرين
من أغسطس ما يأتي :

« أهديكم أطيب تحياتي . وبعد فانكم تجدون طي هذا بلاغا لنواب الأمة
وأرباب الرأي فيها تعلمون مضمونه من تلاوته ، وأظنكم تستشفون منه اني
لست من رأى المشروع الذى ستعرضونه على الأمة أتم والقادمون اليكم من
اخوانكم ، وهذا موافق للحقيقة لأنه - وأريد أن يكون الأمر بيني وبينكم -
مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به وباطنه الحماية وتقريرها . ففيه من
خصائص الحماية ومميزاتها الشيء الكثير كالقوة العسكرية والتدخل فى التشريع
للأجانب وفى القضاء المختص بهم والتدخل فى المالية وفى الحقانية بواسطة
موظفين انكليز . وجعل المعتمد الانكليزى ذا مقام خاص وله التقدم على
غيره من وكلاء الدول الأخرى ، وتقييد حرية مصر فى عقد المعاهدات وفى
اختيار وكلائها السياسيين وفى التجاء هؤلاء لممثلى انكلترا وتولى انكلترا دون
مصر عقد المعاهدات المتعلقة بالغاء الامتيازات مع الدول الأخرى . فضلا
عن ذلك فان ما اشترط من تعليق تنفيذه على قبول الدول لالغاء المحاكم
القنصلية وصدور الدكرينات باعادة تنظيم المحاكم المختلطة يجعل الفوائد
التي تعود منه على المصريين وهمية . إذ قد ينقضى الدهر ولا تقبل الدول
ذلك الالغاء ولا تصدر الدكرينات بذلك التنظيم . ولكن . إخوانى لا يرون فيه
رأى ، ولم أرد أن أظهر الخلاف بيني وبينهم حرصا على الوحدة التي هي
قوتنا ، ولكي لا يشمت الأعداء بنا . ولو أن اخوانى أصغوا إلى قولى أو لو لم
أكن أخشى على هذه الوحدة من الانقسام لفارقت لندرة فى يوم ٢٢ يونيه
الماضى وهو اليوم الذى وردنا فيه خطاب من اللورد ملتر عن مشروع سابق
وضعت له لجنته ورفضناه لكونه كان يرمى إلى ما يخالف مبدأنا وتوكيلنا ، وكان
رفضنا له بالاجماع . ومن الغريب أن المشروع الثانى جاء أبلغ فى باب الحماية
لاشتماله على كثير من مميزاتها . ومع ذلك رأى الاخوان صلاحية عرضه

على نواب الأمة ، ولا أريد أن أشكو منهم اليكم لأنهم إنما رأوا ذلك
لأسباب قامت عندهم وأقنعتهم بصحة آرائهم . أهمها تغير ظروف الحال
وعدم وجود السند والنصير لنا في الخارج وانفراد الدولة الانكليزية
بالعزة والسلطان وعدم قوة الأمة على متابعة المعارضة والمقاومة ؛ واني
اعترف بأهمية هذه الأسباب ولكنها لا يمكن أن تقلب حقيقة المشروع من
حماية إلى استقلال ولا أن تجعلنا نرضى بما نهضنا لمقاومته وقمنا للبطالة بيطلانه
وما ضحت الأمة في سبيل النفور والقضاء عليه بدماء الكثير من أبنائها وحرية
العدد العديد من شيوخها وفتيانها ، ولا يحملنا نحن دعاة الاستقلال وحملة
ألويته والصائحين به في كل صقع وناد على أن نتحول إلى تأييد ما هو بعيد
عنه في الواقع وان كان قريبا منه في الظاهر ، أما إذا قبله غيرنا وكان الانجليز
معهم فذلك شيء آخر لا تقع تبعته علينا ، ولهذا رأيت أن أكتب لكم بفكري
حتى تكونوا في مستوى واحد مع إخوانكم الذين ستشتركون معهم في عرض
المشروع ، وأن يكون مركزكم إذا استحسنتم من الذين تستشيرونهم مركز
الشارح للحقائق العارض للوقائع من غير تأويل ولا تفسير . لكي لا يجد
خصومكم سبيلا للطعن عليكم ولا حسادكم حجة يقيمونها ضدكم ، وسوف
تطلعون على جميع المكاتبات التي دارت بيننا وبين لجنة ملنر وعلى المشروعات
الثلاثة التي ورد في البلاغ ذكرها . وتقفون من الاخوان على جميع المعلومات
التي يهكم الوقوف عليها في هذا الشأن . واني على ثقة تامة بأنكم ستكفونون في
عرض هذا المشروع مثال الدقة والنزاهة والبعد عن مزلق القدم ، واني
مستعد لأن أرسل اليكم كل ما تشاءون من الأوراق ، ولأن أجييبكم عن كل
ما تشاءون الوقوف عليه من المسائل . والله يكون في عونكم ويقمكم شر
خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وبديه أن هذا الخطاب لم يعلن للأمة ولا لأحد غير الأعضاء الذين

خو طبوا به وأصدقائهم المقربين . ولكن الرئيس مهد لتقديم المذكرة إلى الأمة ببيان منه وصف به المشروع الوصف الذي ينبغي في هذا المقام . فقال فيه : « . . . وانتهت المناقشة بوضع ثلاثة مشروعات : أولها من لجنة ملنر رفضناه بتاتاً ، والثاني منا ورفضته هذه اللجنة كذلك ، والثالث منها وهو الأخير قد صرح رئيسها لنا عند البحث فيه أنه غير قابل للمناقشة في الأساسات التي بنى عليها وأنه يلزم أما أخذه كله أو رده كله . لأنه تضمن في اعتباره أقصى ما يمكن انكثرا الاتفاق مع مصر عليه ، بل زاد أن هناك شكاً في جواز التساهل في بعض ما اشتمل عليه ، ولكننا وجدناه مع ذلك معلقاً بتنفيذ على غير إرادتنا وغير واف بمطالبنا . فلم يسعنا قبوله لخروجه عن حدود توكيلنا وأظهرنا للجنة ملنر عدم رضائنا به . غير أنه — نظراً لاشتماله على مزايا لا يستهان بها ، ولتغير الظروف التي حصل التوكيل فيها ، وعدم العلم بما يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المسافة التي بينه وبين أمانها — رأى إخواننا معنا خروجاً من كل عهدة وحرصاً على كل فائدة واستبقاء لكل فرصة الا يبت فيه رسمياً بما يقتضيه توكيلهم قبل عرضه عليكم أتم نواب الأمة المسئولين وأصحاب الرأي فيها »

ثم قال : « فاذا رفضتم أعلن الوفد رسمياً رفضه ، وإذا قبلتم دخلت المسألة في دورها النهائي ووضعت معاهدة على القواعد التي تضمنها وعرضت على الهيئة النيابية للتصديق عليها ووضع نظام دستوري للبلاد »

* * *

وهذه الخطة التي سلكها سعد في التوفيق بينه وبين أعضاء الوفد هي غاية ما كان في وسعه من الموافقة والمجاراة ، فلم يكن مستطيعاً أن يعلن استحسان المشروع وهو لا يستحسنه ولا يرى في ضميره أنه يحقق لألغاء الحماية واقامة الاستقلال ، ولم يكن مستطيعاً أن يقدم المشروع بغير بيان ، ولا أن يقول

في البيان غير ما قال من وصف صادق لجميع نواحيه في جانبي المزايا والنقصان ،
مع اطلاق الرأي لمن يشاء فيما يشاء

ووصل الأعضاء المندوبون الى الاسكندرية في اليوم السابع من سبتمبر
بعد نشر البيان بيومين ، فاحتفى بهم الشعب في الاسكندرية والقاهرة وعلى
طول الطريق بينهما ، وبدأ الاستفتاء بعد يومين . فعرض المشروع على المحامين
وأعضاء الجمعية التشريعية ورجال الدين ورجال القضاء وأعضاء مجالس الأقاليم
والمجالس المحلية ، وأجمعت الطوائف في جملتها — ما عدا أنصار « الوزراء
الأصدقاء » — على وجوب التعديل والتنقيح في بعض قواعده وتضمينه
النص الصريح على إلغاء الحماية وحذف ما جاء فيه عن امتياز المندوب البريطاني
« بمرکز استثنائي » غير مركز المندوبين الآخرين ، وطلب الأكثرون
تعيين حدوده المهمة ومواعيده المرسلة ، وإخلاءه من كل لبس واشتباه في
مسألة السيادة القومية ، وذكروا السودان ووجوب الاحتفاظ بحقه وحق
مصر فيه ، وذهب كثيرون إلى رفضه بتاتا وفي مقدمتهم فريق من الأمراء
نشروا على الملأ بلاغا قالوا فيه « إننا لا نبرر عقد أي اتفاق ينافي أو
ينقص استقلال مصر مع سودانها استقلالاً تاماً حقيقياً بلا قيد ولا شرط »
ثم فوضوا الأمر إلى الأمة صاحبة الرأي الأعلى

وبعد عشرين يوماً مضت في عرض المشروع والتعقيب عليه في الصحف
والمجالس اكتفى الأعضاء المندوبون بما اطلعوا عليه من الآراء وكتبوا بياناً
شكروا فيه الأمة على ما قابلتهم به من الحفاوة ونوهوا بالاستنارة التي « خلقت
فرصة جديدة ظهر فيها رشد الشعب وحسن تقديره لجميع الظروف السياسية
التي تحيط الآن بالفصل في مصيره »

وفي هذه العبارة ما لا يخفى من دلالة على نتيجة الاستفتاء عند المندوبين
وهي نتيجة يعتبرونها تمهيداً للقنوع والقبول لا تمهيداً للرفض أو التعديل

في مصر أثناء المفاوضات

استقالت وزارة محمد سعيد باشا الادارية

وقد رأينا أن الرأي العام في مصر كان ينفر من قيام الوزارات المصرية في ظل الحماية والأحكام العسكرية، ويأبى التعاون على تثبيت هذا النوع من الحكومة ويعتبره تسهلاً للسيطرة الأجنبية وتمكينها من المضي في طريقها وقلة الاكتراث بمعارضة الأمة، ولهذا شدد النكير على الوزارة الرشدية حتى استقالت وبرم بالوزارة السعيدية حين جاءت تنتحل الأعذار لقبولها الحكم في هذه الحالة، ولم يشفع لها ما وعدت به من اجتناب المساس بالقضية الوطنية وما سعت إليه من تحويل بعض القضايا المنظورة أمام المحاكم الانجليزية إلى المحاكم الوطنية

فلما اضطر محمد سعيد إلى الاستقالة كان المنظور أن المرشحين لمنصب الرئاسة يرفضونه في هذه الحالة التي استعصى معها بقاء وزارة كالوزارة السعيدية، ولكن عضواً من أعضائها — وهو يوسف وهبة باشا — رضى تأليف الوزارة دون أن يعلن رأياً في سبب قبولها، وكان الرجل من الطراز العتيق لا يؤمن بشيء يسمى الديمقراطية ولا يحسب تدخل الناس في قيام الحكومات وسقوطها إلا فضولاً غير حميد، وبدعة من بدع الزمن الحديث الذي يأتي بكل غريب معيب، وبخاصة إذا كانت هذه الغرائب بما يقف في طريق الانسان إلى الرئاسة والألقاب، ومن قال أن سعد باشا يستطيع أن يأبى الوزارة ويستطيع أن يفرض على الآخرين إياها حين يدعون إليها؟ أليس هؤلاء الآخرون « باشوات » قد استحقوا الوزارة والرئاسة كما يستحقها سائر الباشوات الموقرين؟ فلماذا تتغير الدنيا إذن ليصبح هناك باشوات أعلى من باشوات بحكم الجمهور الذي لا شأن له في هذه الأمور؟ فما هو إلا أن استقال سعيد باشا حتى خلفه يوسف وهبة باشا دون أن يتقدم

إلى الجمهور بايضاح أو اعتذار ، وأمعن في تجاهل الأمة حتى أوصد بابها في وجوه الكبراء الذين ذهبوا اليه يسألونه عما ينويه ويبتغون شيئاً من الطمأنينة والتفسير ، وزاد على ذلك فترك للسلطة العسكرية أن تعتقل من تشاء من ذوى رأى وتقصى من تشاء منهم إلى قرى الريف ، وتحظر عليهم الاشتغال بالسياسة وتستعيد إليها ذلك القسط القليل من الحق الذى نزلت عنه للحاكم المصرية فى عهد الوزارة السعيدية ، فأصبحت الوزارة المصرية فى أيامه لغوا لا وجود لها بمعزل عن السلطة العسكرية ، ولو من قبيل المداراة والتمويه

وأكبر الظن أن الانجليز توقعوا من اختيار يوسف وهبة باشا — وهو مسيحي قبطى — أن يجر ذلك إلى إفساد المودة بين القبط والمسلمين وأثارة الملاحاة والجدل بين الفريقين ، أثارة تفتح الثغرة بينهما للدسيسة وتسويغ الدعاوى التى يدعيها الاستعمار للدخول بين أبناء البلد الواحد واحباط المطالب القومية التى يتفقون عليها ، فوقع فى إلهام الأمة أن تقابل هذه المكيدة بما يبطلها وأجابت عليها باختيار رئيس لجنة الوفد المركزية ونقيب المحامين من أبناء الطائفة القبطية ، ولما اعتدى أحد الشبان من طلاب مدرسة الطب على رئيس الوزارة بالقاء القبلة عليه فى طريقه إلى الديوان كان من مصادفات الأقدار أن هذا الطالب لم يكن مسلماً بل كان مسيحياً قبطياً لا يؤل عمله بالتعصب الدينى أو الخصومة بين عنصرى الأمة ، كما كان وشيكا أن يقال لو جرت المصادفة بغير ذلك

وقد خاب أمل الانجليز فى هذه الوزارة فصبروا عليها إلى ما بعد سفر اللجنة المنزلية ، وبالغوا فى اهمالها ثم تركوها تستقيل ولما تجاوز فى الحكم ستة شهور ، واختارت لاستقالتها السبب الوحيد الذى يليق بمثلها وهو طلب الراحة !

وقامت بعدها وزارة محمد توفيق نسيماً باشا والانجليز يعلمون إنه كان ثانى

الاثنين اللذين سخطا على حركة التوكيلات للوفد المصري وامتنعا من توقيعها دون غيرهما بين رجال القضاء الأعلى في القطر كله . وقد كان هو أيضاً عضواً في الوزارة السعيدية وعضواً في الوزارة الوهية ثم قبل تأليف الوزارة لأنه لا يأخذ نفسه بيدعة البرامج الوزارية التي تعوق الانسان عن ولاية المناصب . . . وكان كسلفه في النظر إلى الديمقراطية وفي إثارة الصمت والعزلة « الفاخرة » كما يقولون في لغة السياسة الانجليزية . ولكنه أقدر واعلم بشأن الجمهور في سياسة الوزارات . وقد أصابه من الاعتداء ما أصاب سلفه فاشتدت حفيظته على الدعوة الوطنية ، لأنه يحسب أنه لولاها لما نجحت حوادث الاعتداء على الوزراء

وفي عهد هذه الوزارة جرت محاكمة طائفة من الشبان الذين اتهموا بحوادث القتل السياسي ومعهم عبد الرحمن فهمي بك كاتب السر في لجنة الوفد المركزية بالقاهرة . ومن عجيب أمر هذه القضية أنها كانت تماشى أطوار المفاوضات بين الوفد ولجنة ملتر كما أنها صلة مقصودة بينها وبين تلك المفاوضات . ففي أوائل مايو قبضت السلطة العسكرية على أولئك الشبان وحضرت على الصحف نشر الخبر أياماً ، فلبثوا معتقلين زهاء شهر ونصف شهر بغير محاكمة . ثم صدر الأمر بالافراج عنهم في أواسط شهر يونيو بعد اضرامهم عن الطعام ثلاثة أيام طلباً للتعجيل بالمحاكمة أو الافراج ثم قبض عليهم مرة أخرى في أوائل يوليو ومعهم عبد الرحمن بك في هذه المرة ، واستمرت محاكمتهم إلى أكتوبر وكل يوم تبرز للعيان تلفيقات بعض الشهود ووجود أسمائهم في سجل الخدمة السرية . ثم لبث المتهمون بعد انتهاء المحاكمة ينتظرون الحكم إلى أواخر فبراير ، وهو الوقت الذي استحكم فيه الشقاق بين أعضاء الوفد وقر فيه القرار على السياسة الجديدة في أمر المفاوضات الرسمية

أما مسلك السلطة العسكرية خلال هذه المدة فهو مسلك القهر والعنت

الذي التزمته من اللحظة الأولى ، والأمر الجدير بالملاحظة لدلالته البعيدة المدى أن الانجليز المحليين الذين كانوا بمصر يومئذ لم يعملوا عملاً واحداً للتقريب بين الأمتين ، وهم مطالبون قبل غيرهم باتباع سياسة التقريب والتماس الوسائل إليها لو كانوا يحبونها ويرغبون فيها . ولكنهم لا يحبونها ولا يرغبون فيها بل يكرهونها ويرغبون في احباطها ، ويصعب على الباحث أن يتخيل عملاً واحداً كانوا يقدرون عليه لاحباط سياسة التقريب بين الأمتين فلم يعملوه وسبب ذلك ظاهر لا يحتاج الى بحث طويل . فان حرية مصر لا تضير أحداً كما كانت تضير أصحاب النفوذ من أولئك الانجليز المحليين ، وقصارى أملهم أن يدوم لهم ذلك النفوذ الذي لا ينعم أكبر الانجليز في بلادهم بمثله ، إذ هم في أمان من الرقابة الدستورية من جانب الأمة الانجليزية والأمة المصرية على السواء ، وهم يعملون في بلاد لا تربطهم بها غيرة وطنية ولا محبة متبادلة تقاوم أغراء المصلحة الشخصية . مع أن الوزراء والزعماء من أبناء قومهم الذين هم أكبر منهم شأنًا وأرفع منهم قدرًا يعملون لمصلحة وطنهم فلا يتركون بغير رقابة نياية أو رقابة شعبية في صميم بلادهم . فشعور أولئك الانجليز المحليين كلما رأوا المصريين يطالبون بحقوقهم ويتطلعون الى حكم أنفسهم إنما هو شعور الغضب والغيط والخوف على المصلحة والنفوذ ، وكل ما في وسعهم أن يعملوه لابقاء نفوذهم في صعود وابقاء نفوذ الأمة في هبوط فالمعهود فيهم أنهم يعملونه بغير تردد ولا هوادة . ولا سيما وهم مرجع الرأي في عرف حكومتهم لأنهم رجال المكان " The men on The spot " كما يقال عنهم . . . ففي أيديهم محاربة كل سياسى مصرى لا يحبونه واحباط كل سياسة مصرية لا يريدونها . وقد أطاعوا هذا الشعور لأنه شعور لا يمنعهم أن يتبادوا فيه مانع من ارادتهم ولا من ارادة رؤسائهم ، فجعلوا دينهم أن يجرحوا الأمة في عزتها ويخلقوا الأسباب للتشفي منها كلما خالجتها أريحية ظفر أو عزة أو رجاء في بلوغ الحرية ، وتذرعوا بالقمع والنكايه تارة

وبتحضير القضايا التي يقحمون فيها اسم سعد وأصحابه تارة أخرى لأجباط
كل سعى يلوح فيه الأصغاء الى المطالب الوطنية أو اجابة شىء منها ، وكان
هذا موقفهم الطبيعي الذي صمدوا عليه في أثناء المفاوضات وابتدأوه
باستعجال قدوم اللجنة الملنزية ، لا لشيء إلا أن إرجاءها يعد نجاحاً للمصريين
الذين أعلنوا النية على مقاطعتها

بعد عودة الاعضاء

عاد أعضاء الوفد المندوبون لاستفتاء الأمة الى باريس سابع اكتوبر وهم معولون على « انهاء الحالة » بكل ماوسعهم من حيلة . فشكروا ماظهر من « رشد الشعب و من تقديره لجميع الظروف السياسية التي تحيط بالفصل في مصيره » ووصفوا تعليقات المعلقين على المشروع « بالرغبات » تسهيلا لاغفالها أو تأجيل النظر فيها . وأصبح الخلاف الجديد بين سعد وأصحاب هذا الرأي هل هذه التعليقات رغبات يستوى تقديمها وتأجيلها أو هي تحفظات يجب النظر فيها قبل اجراء المفاوضات الرسمية وأولها التحفظ الخاص بالغاء الحماية وحذف الاشارة اليها في المعاهدات الدولية

ولكن لا يقال إن سعداً يتعنت في هذا الخلاف لم يشترط الغاء الحماية توأ قبل اجراء المفاوضات ، بل اكتفى بالوعد بالغاؤها في المعاهدة التي تسفر عنها المفاوضات بعد اجرائها . ولم يكن في وسعه أن يقبل مادون ذلك إلا إذا قبل أن تذهب الثورة المصرية كلها وتذهب ويالات الحرب من قبلها في سبيل الفاظ وعناوين لم تقدم ولم تؤخر في حقيقة الحماية ، ولم تنل منها الأمة حتى الغاء اسم الحماية في الشكل والصيغة

وأرسل اللورد ملنر الى الوفد بعد عودة أعضائه من القاهرة رسولا يدعوهم الى لندن للنظر في نتيجة الاستفتاء . فسافر عدلى وتبعه سعد في الحادى والعشرين من شهر اكتوبر ومعه ثلاثة من زملائه ، ثم لحق بهم بقية الأعضاء بعد بضعة أيام

وقد تبين من المقابلات الأولى مع اللورد ملنر أنه يأبى البحث في التحفظات والرغبات ويتشبث بقبول المشروع كله أو رفضه كله ، ويعارض

معارضة شديدة في تضمين المعاهدة نصاً يقرر الغاء الحماية . ثم رضى باثبات هذا النص في المعاهدة ولكنه تشبث بابقاء الحالة على ما هي عليه في العلاقات الدولية . أى انه رضى بأن تكون الحماية ملغاة في نظر مصر وحدها قائمة في نظر الدول الأخرى ! فحقت الريية وبطل الشك وامتنعت المغالطة في حقيقة المشروع ، وثبت أن الحماية باقية لم تتبدل وان المسألة كلها الفاظ في الفاظ ، وان الأمة لا تكسب بهذا المشروع إلا تصحيح مركز الانجليز في وادى النيل وانقاذ الاحتلال من حرج كان يعانیه ، وفي وسعها أن تنبذ المشروع كل النبذ دون أن تعد خاسرة ، أو تكون خسارتها في الرفض أكبر من خسارتها في القبول .

واختلف الأعضاء فكانت القلة في جانب سعد والكثرة في جانب عدلى ... وتعلل الآكثرون بفتور الثورة وانصراف النفوس عن القضية واستبعدوا أن تنال مصر أكثر مما نالته فجنحوا إلى التساهل والتسليم ، وخالفهم سعد وصحبه الأقلون مستكبرين أن يقنعوا من الثورة بهذا النصيب وهي فرصة لا تعود في كل جيل . فتمسكوا بالغاء الحماية فعلا ورسمًا وهم يعتقدون أن لا خسارة على مصر بهذا التمسك ولو ضعفت فيها المقاومة وفتقر فيها الاستعداد للشابرة . وأقل ما هنالك أن لا تسجل التفريط المحقق على نفسها وأن لا تترك إلى قعود الخيبة بعد انبعاث الرجاء ، ولا تزال متربصة لاستئناف الجهاد كلما قدرت عليه .

والفرق بين الفريقين انما هو الفرق بين فئة يقودها زعيم مطبوع على قيادة الشعوب ، وفئة يقودها موظف لا شأن له بحياة الجماعات ، ولعله لا يكره أن تثبت الأيام صدق نظره وحسن تقديره يوم أن قبل الحماية ولم يعول على ثورة الجماعات ... فهذه ثورة مصر قد مضت في طريقها وجاءت بغاية ما عندها ولم تنته إلى خير مما انتهى إليه بلا ثورة ولا زعامة ، ولا اعتماد على شيء غير الهوادة والمرونة .

وإذا لاحظنا أن أعضاء الوفد تحولوا من الرفض بالاجتماع في شهر يونيو الى التردد أو القبول في شهر أغسطس والمشروع واحد والحالة واحدة لم يصعب علينا أن نفهم ماذا كان من أثر الوساطة التي قام بها عدلي في خلال هذه الفترة وأوجبت عند الانجليز أن يكون هو المعتمد في اجراء المفاوضات المقبلة وربما كان أخرج المواقف في هذه الفترة المرهقة هو موقف اللورد ملنر صاحب المشروع الحريص على انجازه المشفق من الهزيمة بين معارضيه من الانجليز ومعارضيه من المصريين . فقد كان بعض زملائه في الوزارة - وعلى رأسهم اللورد كرزون - يستكثرون المشروع على المصريين ويزعمون انهم قادرون على اقناعهم بما دون ذلك مع الحزم والمطاولة والتدوين . وكان ملنر نفسه قد وصل الى أقصى ما يريد وأقصى ما يستطيع ، فليس في وسعه إن يطلب من الوزارة البريطانية مزيداً فوق ما طلب ولا في وسعه أن طلب المزيد أن يطمع في الإجابة . . . ولكن الفشل مع هذا مرير ثقيل ولا سيما في اخريات الحياة وأخريات السيرة الوزارية . فألقى الرجل كل اعتماده على اعتدال عدلي وأصحابه ، ونجاحهم في اقناع زملائهم واقناع الأمة بعد ذلك بتأجيل الرغبات والتحفظات الى المفاوضات الرسمية ، وهي كفيلة بفضل « الاعتدال » ان تفض المشكلة على الوجه الذي يرضاه

وسرعان ما ظهر أن عدلي وملنر يعتبران أنهما صف واحد في مراس العناد الذي يبدو من سعد زغلول ، وأن التفاهم بينهما على ذلك ينطلق مع فلتات اللسان بغير احتراس ولا مداراة في بعض الاحيان ، فبينما كان سعد معهما في احدى الجلسات الأخيرة اذا بملنر يلتفت الى عدلي ويقول له بالانجليزية . « الا يكف هذا الرجل عن عناده ؟ » أو قال ماهو أقسى من ذلك في العبارة . . فرد عليه عدلي بالانجليزية أيضا قائلاً : « لا فائدة ! » ونسيا أنها بمحضر من رجل ثالث وأن هذا الرجل الثالث هو موضوع الكلام ، وموضوع « التفاهم » قبل الكلام !

ومهما يكن من معنى هذا التفاهم فان « الدور » الذي قام به عدلى في هذه المرحلة هو الدور الذي كان لازما للسياسة البريطانية بغير مراعاة . فقد كان يعوزها رجل تتغلب به على نفوذ سعد زغلول أو على عناده وقوة مراسه وتستعين به على فض الكثير أو القليل من انصاره . وليقل القائلون ماشاءوا في نيات عدلى وأعماله فليس في مقدورهم أن يزعموا أنه كان يعمل وهو مغمض العينين مسوق الى الغاية التي ساقه اليها الموقف بغير قصده واعتماده . ولا أنه كان يجهل الغاية التي عمل لها من البداية ، وتأهب لها من يوم أن طالب سعداً بخطاب مفصل يتمسك به عليه ، قبل أن يقطع تذكرة السفر الى باريس . ولا نظن سعداً كان يجهل ما في طوايا هذا (الدور) من الاحتمالات والمحاولات أو كان يسترسل مع حسن الظن على الرغم من جميع الظنون والشبهات ، ولكنه على ما نرجح كان يأمل أن تتألف الوزارة العدلية لاجراء المفاوضات الرسمية مع بقاء الوفد محتفظاً بوحده للانتخابات ، منتظراً اليوم الذي يدخل فيه الجمعية الوطنية للنظر في نتيجة المفاوضات ، وكان هذا خيراً من شق الوفد على نفسه وخيراً من محاولة عدلى وأصحابه الخلط بين أعمال الوزارة وأعمال الزعامة والسيطرة على الرأي العام .

وما عثم الفريقان — الفريق المصرى والفريق الانجليزى — ان فهما معا بعد قليل من المحاولة أن الاطالة في البحث لا تفضى الى كبير طائل . فاتفقا على المقابلة الأخيرة بين الوفد واللجنة ، وحانت هذه المقابلة في تاسع نوفمبر فذهب الوفد بجملته الى مكان الاجتماع ، وحضر اللورد ملنر وهو بادى الاضطراب فحيا الحاضرين وتناول ورقة تلا منها ما يأتى وهو لا يملك صوته :
« تراهى من المرغوب فيه عقد هذا الاجتماع قبل سفر النواب المصريين بقصد ايضاح الحالة وترك الباب مفتوحاً للعمل بالاشتراك بينهم وبين اللجنة في المستقبل »

الى أن قال : « إن اللجنة مجمعة رأيا على أنه لا فائدة من زيادة المناقشة

في مسائل تفصيلية في الدور الحاضر « واستطرد قائلاً : « أما ما يتعلق ببلادنا نحن فاننا نرجو ان تقرير اللجنة الذي نحن مهتمون باتمامه في أقرب ما استطاع سيكون من وراء تقديمه الوصول الى هذه الغاية ، ولكن من المهم أيضاً ان يحدث مثل هذا الأثر في مصر بفضل مساعيتكم . وانا نعترف بما قمتم به من العمل في هذا السبيل ونحمدكم عليه . ولكن من البديهي انه مازالت هناك معارضة يلزم التغلب عليها . إذ يوجد بين المصريين عدد عظيم لم يشربوا روح الاتفاق يكرهون — لسبب ما — حسن التفاهم بين إنجلترا ومصر . هؤلاء يتشككون في نيات بلادنا أو يظهرون أنفسهم بمظهر المتشككين ، ولا يقدرون ما يخامر بريطانيا العظمى من العواطف الكريمة التي تجعلها على استعداد حسن لقبول مطالب الشعب المصري . فأتم بمقدار ما تستطيعون من تبديد هذه الظنون السيئة ، ومن ازالة سوء التفاهم ومن تقوية الشعور الحسن — تكونون قد قطعتم في سبيل التسوية التي يشغف بها كلانا ، شوطاً لا يقطع بوسيلة أخرى »

فرد عليه سعد بكلمة مرتجلة قال فيها: « انه راغب — كربة اللجنة — في إيجاد حالة موافقة للتسوية . ولكن مساعيه في هذا السبيل تضعف جداً إذا لم يستطع أن يعد المصريين شيئاً من جهة التحفظات التي طلبوها . وخاصة اذا هو عجز عن التصريح لهم بأن بريطانيا العظمى ألغت الحماية الغاءاً نهائياً . ثم طلب نسخة من الخطبة التي القاها اللورد ملنر ليرد عليها كتابة ، فرد عليها بما لا يخرج في فحواه عما تقدم وأضاف اليها كلمة عن القوانين الاستثنائية التي لم تزل نافذة في البلاد فقال : « إن هناك من جهة أخرى تلك القوانين الاستثنائية التي تطبق في مصر منذ سنين عدة . وكذلك المحاكم العسكرية وغيرها من الوسائل والأعمال التي لا تتماشى مع روح الاتفاق ولا مع الرغبة الصادقة التي أظهرتموها في القاء مقاليد حكم البلاد إلى أبنائها . . . »

وأرسل سعد في تلك الأيام خطاباً إلى أحد أخصائه (١) مؤرخاً في
سابع نوفمبر يقول فيه : « . . . انا نعاني اليوم صعوبات كثيرة في عرض أمانى
الأمة التى اعتبرناها تحفظات رغم ما وصفت به عندكم ، ويراد عدم فتح
باب المناقشة فيها واحالتها على المفاوضات الرسمية توهماً بأن الأمة تقبل
المشروع بدونها وأن الحكومة التى ستتولى أمر هذه المفاوضات تتمكن من
اقناعها بوسائل التأثير المعروفة بقبول المشروع ، ولكنى مصمم كل التصميم
على عدم النزول عن التحفظات المهمة لأن المشروع بدونها لا يكون إلاحمياً
في ثوب الاستقلال أو استقلالاً فى معنى الحماية . . . »

وغادر الوفد لندن إلى باريس فى عاشر نوفمبر فأرسل منها نداء إلى الأمة
قال فيه . . . « جاءت نتيجة الاستنارة برأيكم فى مشروع الاتفاق مثبتة أن
الاستقلال ليس فى نظركم كلمة تردد فى الفضاء بغير معنى . بل أتم تريدون
استقلالاً حقيقياً خليقاً بكم وبمستقبلكم الذى سيرسل غداً أشعته الوضاءة
على مصر الحرة . وهذا الاستقلال سنحصل عليه باتحادنا وبروح التضحية
والإيمان بانفسنا ، وبعدالة قضيتنا المقدسة إيماناً هادئاً صادقاً »

وظاهر أن أعضاء الوفد المخالفين وافقوا سعداً فى موقفه من اللجنة
الملترية مكرهين وسكتوا عن خطته هذه لأنهم أيقنوا بانتهاء المناقشة فى هذا
الدور واقتراب المفاوضات الرسمية التى ستجرى على أيدى الوزارة العدلية ،
فتركوا سعداً يمشى فى خطته لئلا يكشفوا تساهلهم وقلة ثباتهم فيضيعوا
رجاءهم فى ضم الأمة اليهم وينهبوها إلى الحذر منهم . ومن يدري ؟ فلعل
اللورد ملنر كان يتوهم — وهو يفتح الباب لمناقشة أخرى بين الوفد ولجنته —
أن الأعضاء المخالفين قادرون على انتزاع القيادة من سعد أو اخضاعه هو
لمشيئتهم ، وقد يلوح أن الأعضاء أنفسهم كانوا ينوون هذه النية ويحاولون

(١) طاهر افندى اللوزى والخطاب منقول من رسالة « اذكروا سعداً » للاستاذ عبدالقادر حمزه صاحب

صحيفة البلاغ مع الخطابات التالية .

هذه المحاولة . فكثرت الخلافات بينهم وبين سعد بعد عودتهم إلى باريس وتعذر الاتفاق على الصغائر التي كانت لا تستحق الخلاف لولا تشعب الرأي في المسألة الكبرى ، وطفقوا يحاسبونه على رسائله وبياناته ويتشددون في احراجه ومراجعة أعماله . وهو يصف ذلك ويذكر عزم المخالفين على مغادرة باريس والعودة إلى القاهرة في خطابين أحدهما قبل سفر الأعضاء مؤرخ في الثامن عشر من يناير سنة ١٩٢١ والثاني في آخر يناير من تلك السنة ، وفي الخطاب الأول يقول : « . . . يسوؤني أن أخبرك بان الخلاف اشتد في الوفد اشتداداً تعذر تلافيه مع ما بذلت من جهد وما وسعت من صدر وما ضيعت من حق وضحيت من شعور . ونقطة الخلاف الأخيرة تنحصر في أن المخالفين يريدون تأييد عدلي في خطته وأريد القضاء عليها لأنها مضرّة كل الضرر بالبلاد ولا يترتب على اتباعها إلا تأييد الحماية وضياع الاستقلال . وقد عزم المخالفون على العودة بعد أن أعياهم الجهد في حملي على اعلان الثقة بعدلي ، وذلك لكي يقوموا هم بهذا التأييد علناً ان مكنتهم أحوال الأمة منه أو سراً إذالم تساعد هذه الاحوال . أما أنا فثابت في موقفى مصر على البقاء فيه ولو تخلى عنى جميع قومى ، لأنه خير لى أن يتخلوا عنى من أن أخونهم بالجرى على خطة أراها مضرّة كل الضرر بهم ، وعلى الله اتكالى ومنه أستمد معوتى »

والخطاب الآخر أصرح من هذا وأكثر تفصيلاً وفيه يقول :
« . . . اعتر المخالفون بعدد هم ، وأعجبتهم كثرتهم ، فشمخت أنوفهم ، واستطالوا على وحدتنا فقسموها ، وعلى حقنا فضموه ، فنقضوا فى اجتماع خاص بهم ما كان قرره الوفد فى اجتماع عام باشترا كههم : رفضوا مبلغاً اذنا بصرفه ، وصرقوا مبالغ لم نأذن بها ، وأبوا أن يسلموا أمانة الصندوق لمن عيناه من غيرهم ، وقدروا للصرف مدة غيابهم مبلغاً لم يأخذوا فى تقديره رأينا مكنتهم بتقديرهم . كانهم من أمرائنا وكاننا من أتباعهم : قرروا عودتهم

بدون علمنا ، وأخبروا اللجنة المركزية من عندهم ، وأعلنوا بذلك للبلاد انقسامنا وخلافهم . ظنوا الأمة هوى الضعف بروحها ، ولوى اليأس بعزمها ، واستعدت للاستسلام ، فسارعوا اليها لالكي يقوموا ضعفها بل ليستميلوها إلى الثقة بمن شكت في اخلاصه ليحسن تسليمها ، وإلى الشك فيمن وثقت بهم ليمتنعوا عن عونها . متوهمين أنها ستحشد الحشود للقائهم وترفع البنود للاحتفاء بهم ، فلم يكن من الكثير إلا أن أمسكوا عن مقابلتهم ، ومن غيرهم إلا أن واجهوهم بما يكرهون وطالبوهم أن يعلنوا في الخلاف رأيهم فلم يسعهم إلا أن نشروه . معترفين بما أنكروه ومنكرين ما أعلنوه . ولا أدري أن كانت نفوس القوم طابت بما أعلنوه أو رضيت بما نشروا مع سكوتي عن موافقتهم . ولكن يظهر أنها لم ترض به تمام الرضاء لأن بعضهم طلب مني أن أنشر بلاغا أنفي فيه ذلك الخلاف وأؤكد تمام الاتفاق وعدم انقطاعه فلم استحسن طلبهم لأن فيه تغريراً بالأمة ومناقضة للحقيقة التي عمل المخالفون انفسهم على اعلانها وأيدوها بقولهم وفعلهم حتى تغنت بها الجرائد الانجليزية وتغنت بهم وباعتدالهم . ولأن هذا الخلاف لا يرجع لأسباب شخصية حتى يهون احتمالته ويرجى زواله ولا يضر خفاؤه ولكن يرجع الى الاختلاف في الغاية والشعور . فهم ملوا العمل وقطعوا الأمل ، وقليل ما أعطينا كثير في نظرهم . وقريب ما نرجو بعيد في اعتبارهم والمشروع عندهم يهدى مصر استقلالاً وبيوتها أشرف مركز بين الأمم ، ونرى فيه حماية ولا ييوى من المراكز الا أتعسها ، ولا يفيد الا ضياع الاستقلال . فكيف يمكن التوفيق بين هذين الرأيين وهاتين الغايتين ؟ ولو كان أمره منحصر بيننا ولم يشعر به خصمنا لتسامحنا ما أمكننا . لكنه علم به على وجه يرفع كل طمأنينة ويضعف كل ثقة ، ومتى انعدمت الثقة بين جماعة تعذر انتظام العمل بين العاملين . فقد كتب اللورد مانز خطاباً لبعض أصدقائه ويبدأ نسخة منه جاء فيه مانصه : إن أصحاب زغلول باشا بمن يطلبون نفس

مطالبه قد بذلوا آخر ما في وسعهم لا قناعه بالقبول فلم يقتنع .. فمن أين علم لورد ملتر هذا المسعى ؟ انه لم يكن منى بالطبيعة . ولا شك عندي في أن علم اللورد ملتر بهذا الخلاف على هذا الوجه كان له تأثير كبير جدا فيها أبداه من التشدد معنا خصوصا فيما يتعلق بقبول التحفظات

« تعلمون أن عدلى باشا قبل المشروع وسعى بواسطة أصدقائه في الوفد وخارجه في ترويجه وحمل الأمة على قبوله . ومع ذلك اراد أصحابه في الوفد أخيرا أن أعلن للأمة ثقتي به واعتمادى عليه في المفاوضات الرسمية ليحصل على قبول التحفظات فرفضت رفضا باتا . اذ كيف يمكن لى أن أثق هذه الثقة بعد كل ما عندي من المعلومات ، وأن أعول على رجل في تعديل مشروع هو يراه مقبولا بدون هذه التحفظات مهما كان عنده من سلامة النية وحسن القصد ؟ .. ومن عجب أن هؤلاء الذين يريدون أن يسلموا لمثل هذا الرجل أمور البلاد يديرها برأيه وبمساعدة من تعرفون لا يسمحون لى أن أرسل تلغرافا أو كتابا يحمل شكرا على عمل من الأعمال بدون اطلاعهم ، ويعدون انفرادى بمثل هذا العمل جارح لهم وماسا بكرامتهم . حتى كان منهم أن أرسلوا لى خطابا يحتجون به على هذا الانفراد في عبارات جافة لا يوجهها متبوع لتابع ... أتظن أن جماعة ضعفت الثقة بينهم الى هذا الحد يمكنهم أن يشتركو في عمل ويمكن أن يقدر لهذا العمل نجاح ؟ كلا ! انهم لم يتظاهروا بموافقتنا الا اتقاء سخط الأمة وتلطيفا لغضبها ، وإلا فانهم سيعملون في السر على بث أفكارهم وترويجه مقاصدهم والدعوة الى تأييد سيدهم الذى رأوا فيه المعين على الوصول الى غايتهم التى ينشدونها كما تعلمون . ولقد رأيناهم يقابلون بوجههشة بسامة كل خبر يدل على ضعف النهضة الوطنية وفتور الهمم وانحلال القوى ويعبسون للاخبار التى تدل على قوة روحها وكال يقينها في حسن الاستقبال . إن نفوسا هذه حالها يضر وجودها في الافراد فما بالك في القواد ؟

« أنى كثيرا ما ضغطت شعورى الشخصى ، وتسامحت في حقوقى الذاتية .

بل لم أحسب حساباً لهذه الحقوق . ولكنى لا أملك أن أتساهل في حق عام
عاهدت الأمة على الاحتفاظ به ، فلا أستطيع أن أفرط فيه لعدو ولالولى
ولكنى أسكت اذا لم يضر السكوت به أما اذا رأيت منه خطراً فواجبى يدفعنى
الى الجهر بالحق . والله ولى العاقبة

« لا بد أن تكونوا علمتم بأن اسم مكباتى بك كان من بين العائدين ولكنى
لم يعد . أنه من صفهم وعلى رأيهم ، ولم يكن مسافراً معهم . بل فى عزمه
للحاق بهم وانما كتبوا اسمه مع اسمائهم تفخيماً لشأنهم ولكى يعتزوا باضافة
لون آخر الى لونهم ؛ حتى لا يقال إن حزب الأمة عاد الى بدايته وانتهى الى
غايته . ان الله لا يصاح عمل المفسدين »

وقد تسربت أنباء الخلاف إلى مجالس القاهرة ، وأخذ أنصار عدلى —
أو أنصار الوزارة المقبلة — يروجون لفكرتهم فى حذر وتكتم تمهيداً
لقيام الوزارة ومقابلة الأمة إياها بالتأييد والتفاؤل ، وعلم الخاصة والعامة
أن الوفد لم يكن على رأى واحد فى مسألة التحفظات ولا على خطة واحدة فى
موضوع المفاوضات الرسمية ، وازدادوا وعلماً بذلك من رسالة برقية أرسلها سعد
قبل وصول الأعضاء العائدين إلى القاهرة ونشرت فى صحيفة الأخبار ذكر فيها
ما صرح به للجنة الملترية من أنه « لا يمكنه ولا يمكن أى انسان للأمة ثقة به
أن يدخل المفاوضات على أساس هذا المشروع قبل تعديله بالتحفظات » ثم
قال : « غير أن فكرة نبتت الآن فى بعض النفوس ترمى إلى أن الوفد مع
تمسكه بهذه الخطة فى خاصة نفسه لا يمنع الغير من الدخول فى المفاوضة على
خلاف هذا الشرط ، بل يلزمه أن يؤيده ويعلن ثقته به متى كان من أصدقائه .
وهى فكرة أقل ما فيها أنها غير مفهومة ولا يترتب على العمل بها الا افساد
خطة الوفد نفسه . لأن تعديل المشروع بالتحفظات قبل الدخول فى المفاوضات
إما أن يكون فى اشتراطه مصلحة أولاً . فان كان فيه مصلحة فلا يصح تأييد

من يخالفه . وان لم يكن فيه مصلحة فلا معنى لاشتراطه ، كما لا معنى لأن
يؤيد الوفد عملاً منع نفسه منه سوى أن يسعى لتأييد خطة منافية لخطة وأن
يتحمل مسؤوليته أمام الأمة عن عمل لا دخل له فيه ، ولا هو متفق مع
مبادئه . لهذا أظهرت لجميع أبناء وطني أني لا أوافق على هذه الفكرة أصلاً
وأحذرهم منها ومن تصديق أي قول لم يصدر مني بقبولها ، أو تعديل الخطة
التي كررت بيانها للأمة ، وهي أني لا أدخل في أي مفاوضة على أساس مشروع
ملزم قبل تعديله بالتحفظات ، ولا أؤيد من يدخل فيها بدون هذه الشروط
مهما كانت علاقته بشخصي ومهما كانت ثقتي به »

جاء هذا البيان قرينة جديدة على وجود الخلاف وإيماء موجزا إلى
موضوعه ودواعيه فلما عاد من عاد من أعضاء الوفد عقيب هذا البيان —
وهم محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي بك
ولطفي السيد بك — خامرت الناس الظنون فيما يقصدون ووقر في الأذهان
أنهم هم أصحاب الفكرة التي نبتت في بعض النفوس . . . وسارع اليهم من
يسألهم عن الحقيقة فكاشفوا بعض السائلين وكتبوا الأمر عن الآخرين ،
وأحسوا بعد قليل من مقامهم في مصر أن التيار أقوى من المصادمة والمجازفة
فلجأوا الى التقية ورضوا أن يكتبوا إلى سعد مع بقية أعضاء الوفد المقيمين
في القاهرة رسالة برقية يعربون فيها عن الثقة به « وتأيدته في خطته الوطنية
الحكيمة »

واستمرت مساعي التوفيق على هذا النحو ولكن على غير جدوى - لأن
النفور قد استحکم حتى أو شك أن يمنع الألفة النفسية ولو اتفقت الآراء
والأغراض . فكيف بها وهي على أبعد خلاف ؟
وساعدت الحوادث سعداً فزاد مخالفوه أحجاماً وحذراً من الظهور
وازدادوا بغضاً ونقمة مع شعورهم بتعاظم نفوذهم وخوفهم من الهجوم عليه .

فقد استقال ملنر وقام في مكانه مستر شرشل المعروف بالغلو في مطامع الاستعمار ، ولم تمض عليه أيام في وزارة المستعمرات حتى خطب في مادبة لتوديع حاكم الهند فأدخل مصر « في دائرة الامبراطورية المرنة » ... وأثار بذلك ثائرة المصريين فرأى « المعتدلون » أنهم مطالبون قبل الآخرين بانكار هذه السياسة التي يظن في مصر أن الحكومة الانجليزية تعتمد عليهم في تنفيذها وترويض الشعب المصري لقبولها . إذلم يكن معقولا أنها تعتمد على « المتطرفين » الذين لم يقبلوا ملنر وهو أهون من شرشل كل على حال . فكتب حسين رشدي وعدلى يكن وبضعة من رؤساء الدين والوزراء احتجاجا على كلام شرشل أعلنوا فيه أنهم « يرون من الواجب أن يؤكدوا أن الحل الصحيح للمسئلة المصرية لا يكون إلا باتفاق ترضاه الأمة المصرية ، أساسه مخالفة لاتدع محلا للشك في استقلال مصر »

وقد لاح من استقالة ملنر وحدها أنها دليل على استعظام الانجليز ما « منحه » المصريين من شروط في مشروعه المرفوض من الجانبين . فاذا كانت الوزارة البريطانية لا ترضى بمشروع ملنر فكيف ترضى بما هو فوقه ؟ وإذا كانت هذه تصريحات خليفته فكيف يرجى منه انصاف أو سماحة في التفاهم على مواضع النزاع ؟ وماذا بقى للمعتدلين المصريين غير الجبوت ؟ وماذا بقى للأمة غير الحذر من عواقب هذا الاعتدال ؟ وزاد الطين بلة أن اللورد ملنر كان قد تحدث في رابع فبراير حديثا جهر فيه باعتماده على المعتدلين وقال انه « لا يظن أن قوى الفئة المتطرفة تنغلب على نفوذ المعتدلين الذين هم الكثرة بين العناصر المعدودة في مصر ، وهو مقتنع بأن المعتدلين يدركون ما للعلاقات الجديدة المقترحة بين بريطانيا العظمى ومصر من القيمة والشأن من وجهة الوطنية المصرية »

وليس من طبيعة المعتدلين - بحكم كونهم معتدلين - أن يقتحموا مثل هذه العقبات أو يستهينوا بمثل هذه العوارض . فوجب تدليل الصعاب في طريقهم

قبل أن يجترئوا على خطوة أخرى في سبيل المفاوضات الرسمية ، وقد أراد اللورد اللبني أن يذلل الصعاب أمامهم ويقدم لهم المعونة اللازمة بتصريح يعد فيه باسم حكومته أنها تستبدل علاقة أخرى بعلاقة الحماية . فأبلغ « صاحب العظمة » السلطان قرار حكومته الذي جاء فيه أنها « تستنتج أن نظام الحماية لا يكون علاقة مرضية تبقى فيها مصر تجاه بريطانيا العظمى . ومع أن حكومة جلالتهم لم تصل بعد إلى قرارات نهائية فيما يختص باقتراحات اللورد ملنرفانها ترغب في الشروع في تبادل الآراء في هذه الاقتراحات مع وفد يعينه عظمة السلطان للوصول — إذا أمكن — إلى ابدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الخصوصية التي لبريطانيا العظمى وتمسكها من تقديم الضمانات الكافية للدول الأجنبية و تطابق الأمانى المشروعة لمصر والشعب المصرى »

وهذا قرار قد خلا من كل وعد قاطع ترتبط به الحكومة البريطانية ، وقيد الوعد المبهم الذى فيه بالامكان و بانتظار التوفيق بين العلاقة الجديدة - التى لا يعرف أحدهما - وبين مصالح بريطانيا العظمى ومصالح الدول الأجنبية كما تراها السياسة البريطانية ، ولكنه مع هذا قد سهل مهمة الوزارة المنتظرة وقابله الوفد فى باريس بالتزام الحيدة ومراقبة الأحوال ريثما يتم التمهيد الضرورى للمفاوضات الرسمية ، وأرسل سعد فى طلب الأعضاء المقيمين بمصر لموافاته فى باريس ، فاجتمعوا واتفقوا على السفر بعد أسبوع

وانهم لفي انتظار الحوادث اذا بالوزارة النسبىة التى كانت يومئذ فى الحكم تستقيل واذا بعدلى باشا يدعى إلى تأليف الوزارة . فعدل الأعضاء عن السفر ونمت إلى سعد أبناء من القاهرة عدلت به هو أيضا عن البقاء فى باريس ، فاعتزم الاياب الى مصر على عجل ، وقال لمندوب شركة روتر إنه يعود للمباحثة فى التعاون مع الوزارة فى المفاوضات الرسمية على أثر التصريحات البريطانية والمصرية الحديثة ، وانه عازم على الوصول بالبرنامج الوطنى الى نتيجة مقرونة بالنجاح . وكذلك التحفظات التى طلبها المصريون فى مشروع الاتفاق بين الوفد واللجنة الملترية »

الوزارة العدلية

Middleman role

في ظاهر الأمر كانت الوزارة العدلية هي الوزارة المرقوبة دون غيرها لاجراء المفاوضات الرسمية أو حل القضية المصرية . ولكن السياسة في مصر لا تستقر على شيء محقق إلى زمن طويل . ففي الوقت الذي كان فيه المطلعون على الشؤون الوزارية يترقبون وزارة عدلى بعد استقالة الوزارة النسيمية كانت البواطن وشيكة أن تكذب الظواهر بين آونة وأخرى ، وكان الانجليز كعادتهم يتركون الباب مفتوحاً لتجربة أخرى من تجاربهم الكثيرة التي لا يسمونها ، وكانوا يترددون في اختيار عدلى دون غيره . وبخاصة لأن الأعضاء الوفديين لم يجهروا بانشقاقهم على سعد كما كان الأمل في مساعيه .

قال اللورد جورج لويد في أوائل الجزء الثاني من كتابه مصر منذ عهد كرومر : « أصبح عدلى باشا في هذه الآونة وهو محور كل تركيبة ملائمة ، وألقى عليه البريطانيون رجاءهم على وجه الخصوص ، فقد كان الزعيم المعتدل الوحيد الذي كان على صلة حميمة برؤساء الزغوليين وكان له النفوذ الأعم بين الطوائف المختلفة من غير الزغوليين . وهناك رئيس الوزارة لا بد أن يعطى منزلته وتصان له كرامته ، وهناك محمد سعيد باشا وأصدقائه الأقوياء من أمراء البيت المالك ، وهناك رشدى باشا وثروت باشا ومظلوم باشا الذين لا ينبغى اغفالهم والتهاون بأمرهم ، وهناك بعد ذلك كله جماعة المستقبل النيابية التي لا بد من ضمان موافقتها على نحو من الأنحاء . أما زغول فالشائع أنه لا يقبل الخدمة وأن زملاءه لن يغادروه كائنا ما كان الاشتراك بينهم وبين عدلى باشا في الفكرة وقد تنحى مظلوم باشا الذى أرادته السلطان رئيساً لوفد المفاوضات فوجب من ثم ان ترسم خطة جديدة . وكانت النتيجة قيام الوزارة العدلية »

ثم قال : « أن عدلى باشا لم يكن يقبل العمل برأسة توفيق نسيم باشا
رئيس الوزارة يومذاك ، ولم يكن السلطان يرضى أن يتبوأ عدلى مكانة
كبرى . ومن مشيريه فى ذلك محمد سعيد باشا الذى كان مفهوما أنه يعارض
سياسة المعاهدة برمتها ولا ينى يدس الدسائس لاجباطها . ولم يسع المندوب
السامى فى نهاية الأمر إلا ان يتدخل لوقف هذه الدسائس العقيمة ، فقامت
الوزارة العدلية والسلطان لا يودها ولكنها على كل حال خير ما يتسنى
الوصول اليه لهذه الغاية »

وهكذا قامت الوزارة العدلية والجمهور لا يعلم شيئاً عن دخائل
الأحوال التى أحاطت بقيامها من ناحية الوفد أو من ناحية الانجليز أو من
ناحية السلطان . فاستقبلتها الأمة بشيء من الترحيب لم تستقبل به وزارة
قبلها بعد الحرب العظمى ، وكان معظم المحتفلين بها أنصار الحكومات
وطلاب المصالح عندها ممن كانوا يتحاشون تأييد الوزارات المكروهة مخافة
سوء السمعة . فلما وجدوا وزارة لا حرج من تأييدها تهافتوا عليها وشجعهم
ما رأوه من حفاوة أصدقائها الوفديين ووقوف زملائهم الآخرين
منها موقفاً لا عداً فيه ولا مهاجمة ، وتوالت عليها وفود المهنيين ورسائل
التهنئة من مجالس المديرىات والمجالس المحلية وسائر الهيئات التمثيلية . أما
الجمهور فكان معظم ترحيبه بها فى الحقيقة ترحيباً بزوال الوزارة النسيمية
التي اشتد بغضه إياها لما أصابه فى عهدها من جور السلطة العسكرية ومغاشم
الأحكام الاستثنائية ، وكان قريب عهد بصدور الأحكام الصارمة فى قضية
عبد الرحمن فهمى بك وأصحابه وهو كاتم السر فى لجنة الوفد المركزية ، والجمهور
يعتقد أن توفيق نسيم باشا كان ينطوى له على ضغن خاص لأسباب سياسية
وغير سياسية ، وبما كان يذكره الجمهور لنسيم باشا أنه كان أحد رجلين اثنين
فى محكمة استئناف رفضا التوقيع على توكيلات الوفد الأولى ، وأضاف إلى

رفضه أنه حمد الله على برئه من حمى الوطنية ! فلما انتهت وزارته شعر
الجمهور بالفرج وتفاءل بقرب انتهاء القضايا والمصادرات والتهم السياسية
ومظالم السعاية والجاوسية . وتهايت الفرصة من جهات شتى للوزارة
العدلية فنشأت في جورائق وطمعت في مساعفة الآمال

وعدى يكن رجل مشهور النزاهة موفور الكرامة يقصد الخير ويؤمن
فما ارتضى لمصر من مصير بأن ليس في الامكان خير مما كان . ولكنه
إذا أصبحت المسألة مسألة جماهير وطبقة حاكمة فهو ولا ريب في جانب
الطبقة الحاكمة بسليقته وموروثاته ونشأته الهادئة ونفوره من الحركات
الشعبية ولا سيما إذا كانت من شعب لا يمتزج به امتزاج الدم والسلالة .
ولعل فاصل الطبقة أوسع من فاصل الجنس والسلالة في هذه المسألة . فلو
كان عدلى باشا في البلاد التركية — لا في مصر — لما اطمأنت نفسه إلى
حركات الجماهير هناك ولا نسى الفارق بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة
ولو امتلأت جوانحه بالنخوة الوطنية والنعرة الجنسية ، وهو عدا ذلك قليل
الطموح قليل الجلد على الكفاح ، فلا جرم يقنع بأيسر الأمور ولا يشعر
مع ذلك بأن ما قنع به شيء يسير بالقياس إلى جماهير المصريين

وفي وسعنا أن نعرف من خطابه إلى السلطان القصد الذي يرمى إليه
بتأليف الوزارة بعد الخلاف بين أصحابه وأصحاب سعد من الأعضاء
الوفديين . فهو يقول في ذلك الخطاب بتاريخ السابع عشر من شهر مارس
أن الوزارة « ستجعل نصب عينيها في المهمة السياسية التي ستقوم بها لتحديد
العلاقات الجديدة بين بريطانيا العظمى وبين مصر الوصول إلى اتفاق لا يجعل
محلا للشك في استقلال مصر . وستجرى في هذه المهمة متشعبة بما تتوق إليه
البلاد ومسترشدة بما رسمته إرادة الأمة وستدعو الوفد المصرى الذى يرأسه
سعد زغلول باشا إلى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا الغرض . وما يوجب
الارتياح أن تصريح الحكومة البريطانية بأن المفاوضات ستجرى على أساس

الغاء الحماية من شأنه أن يسهل مهمة الوزارة من هذه الوجهة . فان ذلك التصريح الذي يدل على حسن استعداد بريطانيا العظمى مما يدعو إلى الأمل بأن المفاوضات التي ستحصل بهذه الروح ستفضي إلى اتفاق محقق للأمان الوطنية ، ويكون فاتحة عصر جديد بين البلدين شعاره المودة وتبادل الثقة . وسيكون للأمة على لسان الممثلين لها في الجمعية الوطنية القول الفصل في هذا الاتفاق « وبما أن هذه الجمعية ستكون أيضاً بمثابة جمعية تأسيسية فان الوزارة ستأخذ على عاتقها تحضير مشروع دستور موافق للمبادئ الحديثة للأنظمة الدستورية . وستحاط الانتخابات لهذه الجمعية بكل الضمانات التي تكفل تمام حريتها وتنظم بكيفية تحقق تمثيل رأى الأمة تمثيلاً صحيحاً »

« وفي هذا المقام تعرب الوزارة عن اعتقادها بأن الظروف الحاضرة تبرر الاسراع في الرجوع إلى النظام العادى وبأنها ستتمكن — بفضل نفوذ عظمتكم — من رفع الأحكام العسكرية والغاء الرقابة في القريب العاجل . وإنا نعتمد على حكمة الأمة في تسهيل هذا العمل الذي يحقق نجاحه أعز أمانى الوزارة »

هذا هو البرنامج السياسى الذى أثبته عدلى باشا فى خطابه إلى السلطان . وفى وسعنا كما قلنا أن نعرف وسيلته إلى تحقيق هذا البرنامج مع الاستعانة بالوفد لأنها لا تحتمل أكثر من وجه واحد : يدعو الوفد إلى الاشتراك فى المفاوضات ، وتصل الدعوة إلى الوفد والكثرة فيه من أنصار الوزارة العدلية وطلاب « إنهاء الحالة » بكل حيلة ، ويجرى البحث بين أعضاء الوفد فى اختيار من يمثلهم فى المفاوضات الرسمية فيقع الاختيار على اثنين أو ثلاثة من أنصار الوزارة وموافقها فى الخطة والغاية ، وهم قلة فى الوفد وزارى الذى يتولى المفاوضات الرسمية لا يقدمون ولا يؤخرون ، ولكنهم لو كانوا كثرة لما عاقوا الوزارة عن خطتها وغايتها لأنهم جميعاً على تفاهم فى السياسة منذ تمت المفاوضات الملترية . ويسافر الوفد وزارى لامضاء المعاهدة .

كائنة ما كانت والتبعة فيها من نصيب زغلول والحل فيها من شأن عدلى وهو
المستفيد من اشتراك الوفد — الذى يرأسه سعد زغلول باشا — فى التبعة
والمفاوضة والامضاء

يجرى هذا وسعد فى باريس ، والجو فى مصر خال للوزارة تهيؤه لقبول
ماتأتى به من العاصمة الانجليزية ، والاقبال على الانتخابات والترشيحات
يتيح لها كسب الأعوان والأتباع والمرشحين والناخبين ، ويساعدها على
نجاح هذا التدبير كله أنها تعمل ولا منازع لها فى الظاهر ولا محاربة بينها وبين
الوفد تبيح له أن يأخذ لنفسه العدة وأن يتقى هذه الغارة الخفية ، فلا يشعر
سعد إلا وهو والأمة معه فى قبضة الوزارة العدلية تملى عليه ماتشاء ، فيستوى
منه الاذعان والاباء

إن سكن سعد إلى هذا التدبير فذاك ، وإن تبرم به فالكثرة من أنصاره
يخذلونه ، وجاه هؤلاء الأنصار فى البلاد وجاه الوزارة يتعاونان على إخضاعه
وفض الأشياع والمعجبين من حوله . ويكمل الأمر كله يوم يعود الوفد الرسمى
بالغاء الحماية فى يد وبالمعاهدة فى اليد الأخرى ، ولا معارض هناك ولا من
يخجل بالمعارضة بين سواد المصريين ونخبة الساسة المتألمين .

وتكاد تبدو هذه النية من خلال ذلك الخطاب الذى وعدت فيه الوزارة
بدعوة الوفد إلى المعاونة . ففيه تقول الوزارة عن الانتخابات الدستورية :
« وستحاط الانتخابات لهذه الجمعية بكل الضمانات التى تسكفل تمام حريتها
وتنظم بكيفية تحقق تمثيل الأمة تمثيلاً صحيحاً .. فما الحاجة إلى وعد الوزارة
باجتتاب الضغط فى الانتخابات إذا كانت تضم فى نيتها بقاء الصداقة بينها
وبين الوفد وجمهرة الأمة ؟

ماحاجة الوزارة إلى ذلك الوعد إذا كانت ستزل إلى ميدان الانتخابات
وهى لا تحسب حساباً لمعارضة تخشاهها وتوقع أن تجيئها فى الجمعية التأسيسية

بكثرة تناوئها؟ إنما هذا كلام من بيت النية على نزول الميدان لحسابه ، وتوقع

المعارضة القوية من غيره ، وإنما تنطق البديهة هنا من وراء اللسان

ترامت الأنباء تترى إلى سعد في باريس ، وسمع من قبلها بأسماء الوزراء

وفيه من بينهم وبينه جفاء شديد ولا أمان لهم في علاج القضايا الوطنية ،

ولم يكن عدلى قد أطلعته على الأسماء ولو من قبيل المجاملة والابلاغ . فعلم

سعد أن الحالة تستدعى المراقبة عن كثب ، وأزمع المبادرة بالعود إلى البلاد .

العودة

ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله الى شاطئ الاسكندرية ،
وثبت في عالم العيان لمن كان في شك من الأمر إن هذا الرجل أقوى قوة
في سياسة مصر القومية ، وان كل اتفاق بين مصر وانجلترا يتم على الرغم من
هذا الرجل أو مع اغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل

لقد كان اليوم الرابع من ابريل - يوم وصوله الى الاسكندرية - يوم
الجيل بأسره في العالم بأسره ، ولك أن تقول وأنت آمن من الغلو ان استقبال
سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أخف استقبال لرجل من
الرجال في أوائل القرن العشرين . فقد انتظمت مصر موكبا واحداً
للحفاوة به من شاطئ البحر ، بل من مدخل الميناء ، الى عاصمة الديار المصرية .
وارتفعت الزينات وأقواس النصر من سلم الباخرة الى حجرته في فندق
« كلاردج » الذي نزل فيه ، وكان الناظر لا يرى في كل مكان إلا صورة
سعد ولا يسمع إلا الهتاف باسمه وأناشيد المترنمين بذكره . وانقضى
أسبوع قبل وصوله والوفود تتزاحم على الاسكندرية من أقصى القطر
الى أقصاه ، حتى تعذر المبيت في الفنادق ولجأ الناس الى البيوت يسألون
أصحابها أن يؤوهم الى مكان يسكنون اليه ريثما يحين اليوم الموعود . ولم
تبق شرفة في الطريق إلا غالى المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات
حتى نيفت أجرة الشرفة على أجرة البيت ، وضاعت الطرقات عن مسير
المركبات وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز الى مجاز ، ولما
استقل القطار من الاسكندرية الى القاهرة تلاحقت الجموع على طول
الطريق تأبى إلا أن تستوقفه مرات في غير مواضع الوقوف ، ومنهم
من كانوا يترامون على القضبان في بعض القرى الصغيرة ليغتصموا لحظة

من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها الزعيم على المستقبلين . وخرج كل
مستطيع الخروج في مدينة القاهرة الى الطريق ما بين باب الحديد إلى بيت
الامة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء .
فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفراداً وذكروا أنفسهم قوماً واحداً
لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء ، وبلغ من نسيان
النفس وغلبة الوجدان على الارادة أن أناسا كانوا يتسلقون الأشجار والأسوار
أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لا يدرون أنهم معتصمون بتلك الأيدي من
خطر الوقوع ولا خطر في الحقيقة من الوقوع ، حيث لا أرض في طول
الطريق الا وقد غشاها ألوف الواقفين .

وتمشت السيارة الهويناء وهي تكاد تزحف من بطء المشية بين الصفوف ،
وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يحيي المحيين
بكلتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه . وتلك طبيعة فيه إذا جاشت نفسه
بالشعور واهتزت أريحته بهزة الجمهور

ولا نطيل في سرد أسماء المستقبلين ووصف معالم الاستقبال فانما أردنا
الأثر الطبيعي المفاجيء الذي كان لاستقبال سعد في ضمير الأمة بما له دلالة
قومية . ولم نرد المراسم والأشكال التي قد تتكرر في كل يوم بغير دلالة . ويكفي
أن نقول إن مصر لم تمثل تمثلاً في موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع
إليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصرى واحد
قادر على حضوره أو المشاركة فيه ، وانقضى يوم الوصول الى الاسكندرية
ويوم الوصول الى القاهرة ولم يحدث في المدينتين الحافلتين بألوف الألوف
من أهلها والوافدين اليهما ولا في طول الطريق بينهما حادث واحد مما يسجله
الموكلون بالأمن في سائر الأيام . كأنما غاب الأفراد في غمار « أمة واحدة »
فلم يبق بينهم ما يكون بين الأفراد من نزاع واعتداء .

وعند الساسة المترفعين والحكام الذين يتخذون باحتقار الجماهير ماذا

يكون ذلك كله الا « زفة » كبيرة تتفرق في ساعات كما تجمعت في ساعات ثم لا أثر بعد ذلك لتفرق ولا اجتماع؟ لكن الخطأ في هذا التقدير إنما هو خطأ السياسة المترفين والحكام المتحذلقين . فليس كل اجتماع للجماهير زفة تستحق التأقف والتحقير ، وان اجتماع ذينك اليومين لعلى وجه التخصيص لم يكن فيه ما يترفع عنه السائس الحقيق بشرف السياسة ولا الحكيم الحقيق بمعنى الحكمة . فلم يخرج الشعب لفرجة ولا كان ذلك الرجل المائل أمام عينيه موضوع تلك الفرجة ، ولكنها قوة أحسها الشعب فانبعث بها إلى حيث تتلاقى أفواجه وتزخر أمواجه ، وذلك الرجل هو عنوان تلك القوة أو لسان تلك القوة أو مناط الأمل المرجو من تلك القوة ، وإذا وجدت الشعوب نفوسها واهتدت الى سريرتها فانما تجدها وتهتدى اليها في لحظة من لحظات النشوة الوطنية كتلك اللحظة التي استثارها فيها حب الزعيم والشوق إلى مرآه . فزعامة سعد حقيقة لا طلاء ، وتأيد الشعب لتلك الزعامة حقيقة لا طلاء . وأين يكون الزيف أو البهرج في ذلك الشعور المتجاوب الذي التقت فيه قوة الشعب وقوة الزعيم ؟ ومتى يكون اجتماع الجماهير معدناً قوياً لا بهرج فيه إن لم يكن ذاك الاجتماع الذي أنشأته الطبيعة من قراراتها وأخلته من كل اصطناع يعيها؟ للشعوب لا شك ساعة اشراق تنكشف لها فيها أغوارها وما طراً عليها من جديد أطوارها ، كاشراق الصوفي في يقظة الروح وإشراق الطفل في يقظة الشباب ، وذلك الاجتماع ولا شك كان من خير يقظات الاشراق في الشعوب

ومن حفاوة الجماهير ما هو عادة تخرج إلى حد البلادة . ولكن الذين شهدوا تلك الحفاوة ما شعروا قط أنهم يشهدون شيئاً مرسوماً بتدبير أو بارادة الجماهير ، وإنما شعروا أنهم بين يدي مفاجاة لدية كل من فيها مدفوع إلى مجال لم يألّفه قبل ذاك ، ولم يكن حديث الجماهير صباح يوم الاستقبال تعالوا نرى كيت وكيت وهلهوا نسمع كيت وكيت مما هو محفوظ وموعد

في حفاوات العرف والعادة والتدبير ، وإنما كانوا يرتجلون كل شيء ويستقبلون
في كل شيء مصادفة الارتجال : ارتجال شعورهم ، وارتجال مسيرهم ، وارتجال
وقوفهم وعبورهم ، وارتجال زهوهم وسرورهم ، وارتجال ما هتفوا وما سمعوا
وما أبصروا وما انتظروا ، لأنهم لم يحضروا يوماً كذلك اليوم ولم يعلموا إلا
أنه سيكون يوماً معدوداً في الأيام لأنه غريب بين هذه الأيام ، وهذا سر
التكوف له والتشوف إليه

ومن المحقق أن تسعين في كل مائة ممن حضروا ذلك الاستقبال لم يروا
سعداً قبل ذلك رأى العين ولم يتعودوا أن يجالسوه في المنازل أو في الحفول ولم
يعرفوا ملامحه إلا من الصور الشمسية ومعظمها قديم ، لأنه لم يخاطب الجموع يوم
كان في الوزارة ولم يخاطبهم يوم كان في الجمعية التشريعية ، ولم يكذب يشرع في
مخاطبتهم بعد الهدنة حتى حيل بينه وبينهم بالاعتقال العاجل ، وقد مضت
ثمانى سنوات على رؤية من رأوه في إبان الانتخاب للجمعية التشريعية وهم غير
كثيرين . فالذين أقبلوا للحفاوة به يوم عودته إليهم أقبلوا كالذين يتشوفون إلى
ذات من ذوات الغيب تتجلى لهم فجأة في عالم الشهادة . وقد لبثوا يأملون في
الحرية ويمزجون أملهم بحب سعد زغلول ، ويتوقون إلى النجاح ويمزجون
توقانهم بحب سعد زغلول ، ويغضبون لحرمانهم ويمزجون غضبهم بحب سعد
زغلول ، ويفرحون بالنصر ويمزجون فرحهم بحب سعد زغلول ، ويمزجون
على شهدائهم ويمزجون حزنهم بحب سعد زغلول ، وها هو ذا سعد زغلول
حاضر بينهم لمن يراه ويسمعه فهم إذن يبصرون كل ما خامر نفوسهم من
خوارج الحياة القومية ماثلاً للعيان ، أو هم إذن يستعيدون ما أحسوه جميعاً
ويعبرونه صورة حية كصورة المعاني التي لا تزال في حاجة إلى عنوان شاخص ، وإذا
العنوان الشاخص بطل من الأبطال ملء النفس والبصر ، لارمز صامت ولا تمثال
وليس الشعب على خطأ فيما أولى سعداً من حفاوة واعجاب بميزان
الفكر والتقدير ودع عنك ميزان الوجدان والشعور ، فإنه قد أوفى بشرط

الزعامة وأدى أمانة القيادة . وأين هي الأمة المغلوبة التي لا تشرفها زعامة
كزعامة سعد في سياسته أو في مناقبه أو في أعماله ؟ وماذا تأمل الأمة المغلوبة
من قائدها أكثر من أن ينال لها اعتراف الخصم بوجودها واعترافه بحقها ؟
وهذه الحماية التي كان المعتدلون يحسبونها قضاء مبرما لا كلام فيه ولا رجاء في
الغائه أو الوعد بالغائه ألم تصدق فيها عزيمة سعد وتكذب فيها روية « الاعتدال »
ومرونة المعتدلين ؟ فإذا كان هنالك استقلال لم يتحقق بعدهذا الوعد فالرجاء
فيه معقود بعزيمة سعد والخوف عليه محذور من أولئك المعتدلين

وبينما كان الشعب يستقبل زعيمه ذلك الاستقبال كان للمقابلات الرسمية
دورها الذي لا بد أن يجرى في مجراه . فقد كان أول من استقبل سعداً في
ميناء الاسكندرية صاحبه القديم محمد سعيد الذي ذهب يحدد المودة له لأن
مزاحمته الحاضرة لعدلى ورشدى وثروت أشد من جفائه السالف للزميل القديم ،
وكان أول سؤال القاه عليه : ماذا أنت صانع بزيارة السلطان ؟ فذكر له سعد
دسائس المغرضين الذين نقلوا إلى القصر السلطاني أنه يطمع في رئاسة
الجمهورية ويتحدث بما زعموه في هذا الصدد من حديث مكذوب . ثم قال إنه
سيذهب لزيارة القصر وتقييد اسمه في سجل التشريفات ، ولكنه يرجو أن
يسبق ذلك دليل من السلطان على الرضى والاعراض عن دسائس المغرضين ،
وان زيارته لتقديم واجب الولاء لا تقابل بالعزوف والاهمال . فأسرع
سعيد باشا إلى التليفون يخاطب ديوان التشريفات ويرجو أن يذهب من لدنه
من يلقي سعداً عند وصوله إلى محطة العاصمة ، ولم ينكشف للناس مما
حدث بعد ذلك الا أن سعداً لم يذهب إلى ديوان التشريفات

أما دار الحماية فلم يزرها كما جرى العرف بين الوزراء والساسة المصريين
في ذلك الحين ، لأنه لم يشأ أن يعترف بالحماية وهو نادى لالغاء الحماية ، وأما
الوزراء فقد قابلهم عدلى يكن باشا ورشدى باشا على المحطة مقابلة
الأصدقاء ، ولكنها كانت كصاخة الانداد قبل بداية الصراع

الخلاف على المفاوضة

استهل سعد جهوده في مصر بيلاغ شكر فيه الأمة على ثقتها وحفاوتها وأقسم فيه أن لا يدخر شيئاً من وسعه لتحقيق هذه الثقة الغالية وأن لا يتحول لحظة واحدة عن الغرض الذي وضعه نصب عينه . ثم قال : « إننا لم نعد إلا لنقوى بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ونشد ازرننا باتحادهم المتين ، ونتمتع بمرآهم بعد طول هذه الغيبة ، وتناً كد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية الذي دعنتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادئ التي وضعتها الأمة وعاهدناها على احترامها ، ومع الخطة التي رسمتها وتعهدنا بمتابعتها ، ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة ، وعاملة على تحقيق غايتها السياسية »

وهو كلام فيه مافيه من وعد وحذر وتأهب للحوادث .

ولم يلبث أياماً في القاهرة حتى ثبت له أن الوزارة تريد أن تستعين به ولا تريد أن تعينه ، وان غاية ما عندها من الرغبة في معاوئته أن تنال منه كل ما لديه من التأييد وتلقى عليه كل ما اضطلع به من التبعة ، دون أن تكون له في المفاوضة الرسمية مشاركة راجحة .

وفي ابان الولايم التي كانت تقيمها طوائف الأمة طائفة بعد طائفة تايدا له واعلاناً للثقة برأيه وعمله كان البحث يجري بينه وبين الوزارة بغير انقطاع في شروط المفاوضة وتأليف الوفد الرسمي الذي يتولاها . ولما ان كثر اللغط في هذه الشروط وتضاربت فيها أقاويل الوزراء والسعديين صرح سعد في حديث له مع أحد الصحفيين بأن الوزارة والوفد لم يتفقا بعد على شرط العمل المشترك بينهما ، وفصل هذه الشروط التي ينبغى النص عليها في المرسوم السلطاني وهي :
أولاً — الوصول إلى إلغاء الحماية الغاء تاماً صريحاً أي الغاء الحماية

التي وضعت على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ والتي وردت في معاهدة
فرساي ومعاهدات الصلح الأخرى التالية لها .

ثانياً — الاعتراف باستقلال مصر استقلالاً دولياً عاماً سواء كان في
الداخل أم في الخارج مع مراعاة ارادة الأمة التي أبدتها بالتحفظات المدخلة
على مشروع اللورد ملنز عندما عرض عليها قبل الدخول في المفاوضات .
ثالثاً — الغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحفية قبل الدخول في
المفاوضات .

رابعاً — أن تكون « غالبية » المفوضين الرسميين للوفد وأن تكون
رأسه المفاوضات من الوفد .

ثم أضاف إلى ذلك : أما أن الوزارة قبلت هذه الشروط ما عدا
الشروط الأخير منها فهو قول في غير محله .

وكان قد شاع على لسان الوزاريين أن الوزارة تأبى السماح بالشرط
الأخير لأن التقاليد المصطلح عليها في المفاوضات الدولية تقضى بأن يتولى رئيس
الحكومة رأسه المفاوضات . وهو قول تناقضه الحقيقة كما هو معلوم . . .
فقال سعد في بيان وجهة نظره في هذه المسألة : « ان الوفد يرى أهمية كبرى
لرأسه المفوضين . لأن الوفد هو المسئول أمام الأمة عن المفاوضات ونتيجتها
ويجب حتماً أن تكون بيده ادارتها حتى يتصرف فيها بابداء كل ما يراه صالحاً
ويوصلها ويقطعها على حسب الأحوال ، ولا يمكن أن يتمكن من ذلك إذا كانت
الرأسه بيد غيره . أما القول بأن هذا ليس منطبقاً على التقاليد المرعية فأى
تقاليد يريدون ؟ أن لكل بلد تقاليده الخاصة به ، ولم يقع لمصر حادث
كالحادث الذي نحن بصددده حتى يكون لنا فيه تقاليد سابقة يرجع إليها
ويقال بالتمسك بها »

إلى أن قال : « ان حادثتنا نادرة في بابها ، ولصاحب السلطان أن يجري
فيها طبقاً لما تقتضيه المصلحة . وما دامت سلطة المفوضين تمنح من السلطان

والأمة فما هو المانع الذي يمنع عظمة السلطان من أن يعهد بهذه الرأسة لمن
كملت ثقة الأمة به ؟ فإذا منحتها عظمة السلطان للوفد فمن ذا الذي يتضرر من
ذلك وينتقده ؟ أم الانجليز وليس لهم في ذلك شأن كما صرحوا ؟ أم هي
الأمة المصرية وهي تود بل تحتم أن تكون الرأسة في الوفد لنائبها ومحل
ثقتها ؟ فمن يكون له بعد ذلك الحق في الشكوى ؟ »

وقال : « انى لم أسع ولن أسعى فى أن أكون مفاوضاً ولكن الحكومة
رأت ضرورة اشتراك الوفد فى المفاوضات فرأى أنه لا يمكنه قبول الاشتراك
بدون تلك الشروط »

وختم حديثه قائلاً : « أما مسلك الوفد بازاء الوزارة إذا انفردت بتولى
المفاوضات - أى إذا فاوضت الوزارة على غير شريطة الوفد وبعبارة أخرى
بغير مرسوم سلطانى تتعين فيه مهمتها تعييناً دقيقاً كما بينت ذلك فيما تقدم - فان
الوفد لا يؤيدها . بل لا يمكنه تأييدها أيضاً إذا عين للمفاوضة من لا يكون
حائزاً لثقة الأمة حيازة تامة »

أما الوزارة فقد قالت عن الغاء الأحكام العرفية والرقابة الصحفية إنها
صرحت فى برنامجها « أن ذلك من أعز أمنياتها . وهى قد مضت فى تحقيق هذه
الأمنية ومهدت السبيل للرجوع إلى القوانين العامة فيما يتعلق بحفظ النظام .
وقالت عن رأسة المفاوضات : « إن التقاليد السياسية فى جميع البلاد
لا تسمح بحال من الأحوال أن يدخل رئيس حكومة فى مفاوضة سياسية ولا
يكون رئيس الهيئة الرسمية التى تتولاها من قبل بلاده »

وكلام الوزارة فى هذا الصدد قد يصح إذا كان واجباً محتوماً أن يشترك
رئيس الحكومة فى وفد المفاوضات ؛ ولكن الوزارة كان فيها نائب رئيس هو
حسين رشدى باشا وكان من الجائز أن يشترك هو فى الوفد دون رئيسها .
وكان من الجائز أيضاً أن ينوب سعد عن الحكومة المصرية فى هذه المهمة .
إلا إذا كانت الحكومة تراه صالحاً للتأييد واحتمال التبعة ولا تراه صالحاً
للاعتداع عليه فى المفاوضات 1

وكيفما كان الأمر ففي رأى المنصفين أن سعداً لم يعد حقه في رفض
معرضته عليه الوزارة ، لأنها كانت تريد وفداً رسمياً تكون لها رأسته
وكثرة أعضائه ولا يكون فيه من الوفد المصرى إلا قلة معروفة من شيعتها
الذين يمالئونها ويقصدون قصدها . وماذا يملك سعد من رأى بهذه المشاركة ؟
وماذا يضيره أو يضير الأمة إذا هو رفضها ؟ وأي تبعة أعظم من تبعته
في قبول هذه المفاوضات ؟ وأي حق أقل من حقه في توجيهها والإشراف
عليها ؟

قد يقال إنه كان عليه أن يقبل المفاوضات ثم يعتزل الوفد الرسمى إذا رضى
بمعاهدة لا يرتضيها . ولكن ماذا يفيد القضية من ذلك إلا تأجيل الخلاف
شهرًا أو شهرين بعد بذل التأييد للوزارة في غير حيطه ولا دراية ؟ وإذا بقى
سعد مؤيداً للوزارة إلى أن تعرض المعاهدة على الهيئة النيابية المنظورة أفلا
نرجع إذن إلى الرفض والخلاف وكل ما جناه سعد من الانتظار أن يضعف
قدرته على الرفض والخلاف ؟

الحقيقة أن الانجليز لم ينصروا عدلى يكن ولم يحتسبوا قيام وزارته إلا لأنهم
يرجون أن يقبل منهم ما ليس يقبله سعد زغلول . وليس من واجب سعد
أن يذلل الطريق لهذا المقصد المريب .

أما ان كان الانجليز يسمحون لعدلى بما لا يسمحون به لسعد فهم لا يفعلون
ذلك إلا ليلقوا على الأمة المصرية درسا تتعظ بعقابه ، وهو أنها اعتمدت
على رجل من رجالها في مناوأة الانجليز ولن يفوز رجل يناوىء الانجليز من
أجل حقوق المصريين ..

ومتى ذكرنا أن سعداً لم يشاكس الانجليز في المطالبة ولم يقصر في
مجاملتهم عند عرض المطالب المصرية بعد يوم الهدنة وأثناء المفاوضات الملترية
فقد علمنا أن الذنب الذى يحسبه الانجليز على الزعماء الوطنيين هو طلب الحق
بأية وسيلة ، وأن الدرس الذى يملونه عليهم هو وجوب التسليم والمجاراة

والتماس الحظوة والزلفى ، وهو درس لا يجمل أن يعمل به سعد ولا يجمل أن يعمل به المصريون .

وندع الوجهة العامة وننظر إلى الوجهة الشخصية الخاصة ، فنرى ثمة غضاضة لا تعد لها على النفس غضاضة وإن كانت من نفوس الأنبياء والقديسين فلو أن سعداً خضع لمساموه وتنحى يوم نحوه لصدق عليه قول الترك : « إن « الفلاح » لا يصلح إلا للخدمة والتسخير ، وإنما للسادة « الترك » بعد ذلك شرف الظفر واجتناء الثمار وهم قاعدون وادعون . فلعدلى ورشدى أن يخرجا الحماية ولهما أيضا أن يجنبا ثمار الاستقلال حين يتصدى لغرسها فلاح من الفلاحين إن الفطرة الانسانية كلها لتثور في وجه هذه المهانة التي لا يدين لها طالب حرية ، وهو عندما يثور عليها لا يكون نائراً لكرامته بمقدار ما يكون نائراً لكرامة وطنه وكرامة العدل بين بنى الانسان .

ومع هذا هل كان سعد زغلول ينازع عدلى يكن في الوزارة ؟ الانجليز أنفسهم يقولون إنه لم يكن يطلب الوزارة أو لم يكن « يقبل الخدمة » إنما كان يطلب رئاسة المفاوضات لأنه كان يطلب ضمان التبعة التي تصدى لها واضطلع بامانة الوكالة من أجلها . ولا نكران لهذا الحق ولا ملام عليه .

ولم ينحصر الخلاف على الرئاسة وحدها بل تعداها الى الاحكام العرفية والرقابة الصحفية ، فان هذه الاحكام قد بقيت في مصر ولا معنى لبقائها الا اكره المعارضين على قبول مالا يقبلونه أو اكرههم على السكوت وإضعافهم عن المقاومة ، وفيما حدث قبل المفاوضات العدلية وفي أثنائها وبعد اخفاقها دليل على المقصود ببقاء هذه الاحكام

وأدهى من ذلك أن الوزارة لم تكن خالصة النية فيما وعدت من سعيها في الغاء الرقابة الصحفية . فاللورد جورج لويد يقول في الجزء الثاني من كتابه بعد ايمانه الى مفاتحة عدلى للمندوب البريطاني بصدر الاحكام العرفية : « أليس ثمة شيء يتيسر عمله لموافقة بعض مطالب زغلول عن الاحكام العرفية ؟ كلا

لسوء الحظ . فان قانون التضمينات ضرورى ولايجدى قانون كهذا ما لم تنته
المفاوضات ويتقرر الدستور الجديد . ألايستطاع الغاء الرقابة على الصحافة ؟
نعم يستطاع اذا كان عدلى يستغنى عنه وهو لا يستغنى !

فبقاء الرقابة على الصحافة المصرية كان اذن بموافقة من الوزارة العدلية ،
وسلوك هذه الوزارة والوزارة الثروتية من بعدها فى اغلاق الصحف والحجر
عليها كان سلوك الراغب فى دوام هذا السلاح المفرط فى شحذه واستخدامه ،
وسيرى القارىء أن الوزارة قد استفادت على الأقل من بقاء الأحكام العسكرية
وامعانها فى التنكيل والتشهير ، ونقول على الأقل لأن كثيرا من الناس -
والحوادث تؤيدهم - يقولون إن بعض الوزراء قد هياؤا لتلك الأحكام
حجة البقاء بما جرى من مذابح الأسكندرية التى حدثت قبل سفر الوفد
الرسمى الى العاصمة الانجليزية

القطيعة بين سعد والوزارة

against - co-operation
with the gov.

وقع الخلاف المتوقع . وتمت القطيعة بين سعد والوزارة على أثر مقابلة عاصفة بين رشدي وسعد اشتد فيها رشدي كدأبه في الغضب وجابه سعداً مجابهة غليظة ثم تركه وهو يقول : « هذا آخر ما عندنا . فاصنع ما أنت صانع ! »

وذهب سعد ليخطب في حفل أقيم لتكريمه في ضاحية شبرا فجهر بحقيقة هذا الموقف بينه وبين الوزارة ونادى هناك بكلمته المشهورة : إن المفاوضات على يد وفد تعينه الوزارة وحدها في بلد خاضع للحماية والأحكام العرفية معناها أن « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » . وقال في هذا المعنى : إذا طلبنا الرأسة فانما نطلبها ليكون الرئيس حراً مرتكزاً على قوة لاتهاب شيئاً في المطالبة بحقوقها وهي قوة الأمة . لا أن يكون مرتكزاً على قوة مستمدة من الحكومة الانكليزية لأن ذلك يجعل المفاوضات بين الأصل وفرعه ... أي بين الحكومة الانكليزية والحكومة الانكليزية أيضاً . وليست هذه أول مرة ذكرت فيها هذا المعنى الذي تشرفت بعرضه الآن لكم ولكني رفعت الصوت به في وزارة المستعمرات الانكليزية . فقلت للجنة ملنر في جلسة ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ : من ذا الذي يعين المفاوضين المصريين ؟ فأجاب : الحكومة المصرية ! فقلت إذن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس «

وقد اختلف أعضاء الوفد المصري على مسألة الرأسة ، فمنهم من أيد سعداً ومنهم من استقال ومنهم من أعلن الثقة بالوزارة العدلية . فأعلن سعد أنه سيمضي ومن معه في طريقه . وعيب عليه ذلك لأنه - كما قيل يومئذ - مخالف للروح الدستوري الذي يقضى بتغليب رأى الأكثرية ، ولكن دستور الوفد

الواقع هو نصوص الوكالة التي لا يجوز الخروج عليها ، والروح الدستوري
— بعد — لا يمنع القلة في لجنة من اللجان أو هيئة من الهيئات أن تعمل
وحدها على حسب رأيها إذا انفصلت عن الكثرة أو انفصلت الكثرة عنها ،
ولو كان الوفد مجلساً نيابياً وأجمع على رأى من الآراء لجازحله لاستفتاء الأمة
والايتان بمجلس نيابى فى مكانه ، وفتوى الأمة يومئذ هى تغليب رأى سعد
وتجديد الوكالة له على مبادئ التوكيل التى لم يخرج عنها ، وكانت هذه الفتوى
أظهر من أن تحتاج إلى اظهار ، أو كانت على الأقل تسمح له بالعمل وحده
والاعتماد فى العمل على من يشايعه ويطمئن اليه

وقد تطوع كثيرون للوساطة بين الوزارة وسعد من جهة وبين سعد
وأعضاء الوفد المنشقين من جهة أخرى فلم تسفر الوساطة عن فائدة ، وكان
معظم هذه الوساطات فى دخيلتها من قبيل النكايه والزام الحجة ، يقوم بها
اناس يبدوون الرغبة فى الصلح والوثام ويبتغون كراهة هذا الفريق أو ذاك
ومثال ذلك اقتراح الصلح الذى اقترحه بعض رجال الدين ومشايخ الطرق
الصوفية ، وخواه أن ينتظر سعد وعدلى حتى يصدر المرسوم السلطانى بتعيين
رئيس المفاوضين فمن صدر باسمه المرسوم فهو الرئيس ولا اعتراض عليه ..
وهذا كلام يراد به الاحراج والزام الحجة ولا يراد به فض الاشكال وعلاج
الخلافا ، وأصحابه لا يجهلون كيف كان تعيين عدلى باشا رئيسا للوزارة بغير
ارادة السلطان ، وكيف يكون تعيينه رئيسا لوفد المفاوضة على هذا المنوال
وقد كان عدلى باشا بين أن يستقيل أو يعجل باجراء المفاوضة ليخرج
من هذا المأزق على حالة من الحالات

فأما الأمل فى نتيجة المفاوضة فضعيف ، لأن الانجليز لا يجهلون أن
معاهدة يمضيها عدلى قلما تظفر من الأمة بالامضاء ، ولأن كيرزون الذى
كان سيتولى المفاوضة من الجانب الانجليزى معروف باستعظام مشروع ملتر
على المصريين والسعى الحثيث لا تتقاصه والحد من أطرافه ، ولأن الانجليز

أنفسهم كانوا يستعملون الوزارة المصرية في تلك الآونة ويفضلون ارجاء
الأمر كله الى فرصة أخرى . ولكن الوزارة رأت أن الخروج من المأزق بغير
اجراء المفاوضات أمر عسير . فهي اذا استقالت فتلك هزيمة واعتراف لزغول
بالغلبة ، ولكنها اذا استقالت بعد الفشل في المفاوضات فقد تجمع في ذلك بين
الخروج من المأزق وادحاض ماترمى به من التساهل والضعف والتفريط ،
لأنها رفضت المعاهدة التي رفضها زغول . وربما كان الانجليز يطلبون تسوية
مر كزهم بالصورة الشرعية ولا يشترطون في المعاهدة أكثر من أن توقعها
حكومة لها مظاهر التأييد القومي كائنا ما كان حظها من تأييد الأمة في الحقيقة ،
ففي هذه الحالة تستطيع الوزارة أن تسخر أعوانها من حكام الأقاليم
في جمع التوقيعات ممن يريدون ولا يريدون ، ويستطيع أنصارها من أعضاء
الوفد المنشقين ووجهاء الريف والحضر الذين ينضون في الغالب الى كل
وزارة قائمة أن يجمعوا توقيعات الأشياع والخدم والأتباع ، فيقال إن وكالة
الوزارة نسخت وكالة سعد ومشايخه ، ويعتمد الانجليز على ذلك وعلى الانتخابات
النيابية التي تجرى بامثال هذه الوسائل ، فيعقدون المعاهدة المنشودة ويعود
عدلى ووفده الرسمي من العاصمة الانجليزية وهم لا يخافون حرجا من المعارضين
ولقد بدأت التوقيعات المصطنعة فعلا قبل انتهاء المفاوضات ، فكانت وصمة
من أشنع الوصمات في تاريخ الادارة الحكومية ، لأنها رفعت شأن المزورين
المجرمين المستخفين بالقوانين والحقوق من الموظفين وحكام الأقاليم وانزلت
العقاب بالامناء المجدين الذين انفوا من تزوير الأوراق والعدوان على الأبرياء
وساءت العبرة بعد ذلك فاصبحت النذالة نعمة على الموظف الفاجر أو على
صاحب الخاق الوضيع من غير الموظفين ، وأصبحت الأمانة نكبة على الموظف
الصادق الأمين أو صاحب الخاق المتين . وراجت سوق الضمائر والمنافع
وشاعت المصروفات السرية بين الكتاب والدعاة ، فابتليت مصر بلية لا يعوضها
منها استقلال ولا دستور ، إلا بعد جهد جهيد

وانفجرت المظاهرات فقمعتها الوزارة باقسي ما في طاقتها من القسوة والصرامة . وسالت الدماء في طنطا بعد صلاة الجمعة فقتل ثلاثة وجرح كثيرون ، وأخذت الضراوة ضابطاً مصرياً من صنائع الانجليز فجعل يعدو بجواده في طرقات القاهرة ويلحق المتظاهرين وغير المتظاهرين في البيوت ، ويطلق رصاصه على الكبير والصغير والجالس في القهوة والمطل من نافذة المنزل ، ويقود المقبوض عليهم مربوطين الى أذنان الخيل ، ويأمر رجاله بأن يطعنوا بالحرا ب كل من صادفوه من « التلاميذ » وهم راكضون على غير هدى في أحياء العاصمة ، كأنما هي نقمة مجنون أو ثورة وحش مسعور ، وقد اصطنعه بعض رؤساء الانجليز واعتدوا جرائمه التي تظاهروا بالسخط عليها والتأفف منها فضيلة له تضمن له دوام الرزق وتحميه من العدل والعقاب ، وظل مكفول المعيشة في كنفهم حتى فصلته الحكومة الدستورية بعد سنوات ، فأخذوه بعد ذلك الى السودان في وظيفة من الوظائف العالية لثلاثين رجلاً مثله على ذلك الصنيع ! وأخبت ما جرى في تلك الفترة المشؤومة مذابح الاسكندرية التي قتل فيها ثلاثون مصرياً وجرح مائة وثلاثون ، وقتل من الأجانب أربعة عشر وجرح ستة وتسعون

وحدثت هذه المذابح عقب زيارات ومقابلات حامت حولها الشبهات وأومات اليها الصحف في ذلك الحين . ولا نحب أن نقول فيها كل ما قيل يومئذ على ألسنة المطلعين وغير المطلعين ، ولكننا نلاحظ أن مظاهرات المصريين واجتماعاتهم لم تلوث قط بسفك الدم ما لم يتعرض لها المدسوسون من الشرطة الظاهرين أو المستورين ، وإن أحداً من شرار الأجانب الذين عاثوا في هذه المظاهرات لم يحكم عليه في المحاكم العسكرية الانجليزية التي حكمت على عشرات من المصريين بالموت والسجن وهي باسم السلطات العسكرية تستطيع أن تدين الأجانب كما تدين الوطنيين ، وإن أحداً من المسؤولين عن الأمن لم ينزل به العقاب بعد هذه الحوادث كأن اتخذ الخيطة لمنعها كان من المستحيل أو كأنها لا تدخل في أعمالهم التي يستحقون عليها المكافأة والعقاب ،

وان الحكوميين في مصر وانجلترا معاً لم يقصروا في الاستفادة من هذه المذايح
جهد ماوسعهم من فائدة . فاعتذروا بها لتأجيل الغاء الأحكام العسكرية !
واعتذروا بها لبقاء الاحتلال الانجليزي وحماية المصالح الأجنبية ! واعتذروا
بها لبقاء الامتيازات والمحاكم المختلطة الى أن تخلفها محاكم أخرى غير المحاكم
المصرية ، وليس من المصادفات أن لا تحصل هذه المذايح إلا في الوقت الذي يستفيد
منها فيه من يطعمون في حقوق البلاد ... كما حدثت مذبح الاسكندرية المشهورة
قبل الاحتلال وكوفي « رجال الأمن » في عهدنا أجل المكافآت !

بين هذه الزوابع التي لا تفاؤل فيها ألف عدلى باشا وفده الرسمي للسفر
الى العاصمة الانجليزية من حسين رشدي باشا نائب الرئيس في مجلس الوزراء
واسماعيل صدقي باشا وزير المالية ، ومحمد شفيق باشا وزير الأشغال ، وأحمد
طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهلية ، ويوسف سليمان باشا الوزير
السابق . يعاونهم مستشارون فنيون وكتاب يعينهم مجلس الوزراء . أما الوفد
المصرى فلم يشترك أحد منه في هذا الوفد وقال عدلى باشا في خطابه الى عظمة
السلطان : « ... الواقع أن امتناع الوفد عن الاشتراك مع الوزارة يرجع
عند عدد كبير من أعضائه — لا إلى اختلاف معها — بل الى التزام خطة سبق
لهم أن رسموها لأنفسهم وليس فيها ما ينافي الثقة بعمل الوزارة مادامت هي
ترعى الى تحقيق ارادة الأمة »

وسافر الوفد الرسمي تحميه الحراب البريطانية ، لاستخلاص الحقوق
المصرية من البريطان ولم يفت المتهمين من المصريين أن يشيعوه في
سفره بهذه السخرية وهم مطبوعون على التهم ، ولكنه تهمك تمازجه مرارة
أليمة ومقت شديد .

ولقد كانت الوزارة ترجو أن تفض الأمة من حول سعد فاذا هي كل
يوم تفقد الأنصار من حيث يكسب هو الأنصار ، واذا بانصاره كل يوم
يزدادون حباً له وإيماناً بحقه ، وإذا بانصارها كل يوم يتخاذلون من ورأها
وبحارون في الدفاع عنها واقناع الناس بصوابها

فشل المفاوضات الرسمية

انصرفت هموم الوزارة كلها بعد سفر الوفد الرسمي الى غرض واحد هو تزييف الثقة بالوزارة ونزع الثقة قهراً من سعد زغلول . وتكفل بهذا الأمر عبدالحق ثروت باشا وزير الداخلية الذي تركز اليه الوزارة في أمثال هذه الأعمال ، وهو رجل شعاره « إن كل مفعول جائز » مع التستر بالحجج والظواهر : حذر ولكنه اذا اعتمد على قوة تسنده ذهب في الصلف الى أقصى حدوده ، وما كر ولكنه صاحب مكر أقرب الى الكيد منه الى اصالة الرأي وسعة الحيلة . وقد تمادى في تزييف الثقة حتى خرج بها من الجدالى الهزل ومن النفع الى الانتقام . سأل نائب من العمال الانجليز وزير الخارجية البريطانية قائلاً : —

« هل يعلم وزير الخارجية أن مليونين وربع مليون من سكان القطر المصرى وثلاثة آلاف ومائة وستة وخمسين من أعضاء الهيئات العامة التي يبلغ عددها ثلاثة آلاف واربعمائة وستين قد وقعوا عرائض التأييد لسعد زغلول باشا؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل تصر الحكومة على مفاوضة الوفد الذي يرؤسه عدلى باشا؟ »

فاجابه وكيل الوزارة بأنه لم يتلق معلومات من هذا القبيل ، وانه يعلم أن عضواً من أعضاء الجمعية التشريعية قد نشر في الصحف المصرية انه على حين أن سكان القطر المصرى لا يزيدون على أربعة عشر مليوناً فان عدد الذين قيل انهم وقعوا التأييد لهذا الفريق أو ذاك قد بلغ سبعة عشر مليوناً من الذكور! »

وقد يكون هذا البيان فكاهة مقصودة ولكنه فكاهة لا تبعد كثيراً من

الواقع . فقد كان إرسال الوفود وكتابة العرائض مقياس الكفاءة التي يتطلع
بها الموظف الى الترقى وزيادة المرتب ، وكان بعض الموظفين يسابقون
بعضهم في الاكثار من أسماء المؤيدين ، فيكتبون أسماء الأطفال أو الموتي أو
الأسماء الملققة التي ليس لأصحابها وجود ، واستمر هذا أشهراً بلا كلل ولا
انقطاع . فليس بعجيب أن يربى عدد المؤيدين المزعومين على عدد المصريين
أجمعين ...

ومن هؤلاء المؤيدين من كان يؤيد الوزارة باختياره ورأيه : بعضهم
عن اعتقاد في صواب الوزارة ونفع الخطة التي سارت عليها ، وبعضهم عن
رغبة في جاه الوزارة ومنافعها وطمع في النيابة حين يأتي دور الانتخاب على
الأسلوب الذي تجتمع به أسماء المؤيدين المزعومين ! ومتى كان هذا هو أسلوب
الانتخاب — كما هو ظاهر — فالنجاح فيه بغير ارضاء الوزارة مطلب عسير
وكان هؤلاء وهؤلاء بين مخلص وطالب منفعة ينتمون إلى طبقة واحدة
هي الطبقة التي تشملها العلاقات الحكومية بين وظيفة أو شفاعة أو نيابة أو
صدقة شخصية أو آصرة من أواصر القرابة ، وهم أناس لهم خطرهم في
الشئون الحكومية وما يتصل بها من المرافق اليومية . ولكنهم جميعاً قلباً
يقدمون أو يؤخرون في توجيه أمة أو خلق زعامة أو اقتحام خطة قومية ،
وهم أضعف ما يكونون عن ذلك في إبان الفورات الاجتماعية التي تعمل فيها
هيبة الزعيم القدير أضعاف ما تعمل المصالح المحدودة بين طائفة معدودة ،
وهي لا تصمد للتيار الزاخر ولا ترغب في الصمود على نضال

وقد غالى ثروت باشا بجمع العرائض والتوقيعات لأنه ظن أن الحكومة
البريطانية تريد « حجة » تسوغ بها اتفاقها كيفما كان الاتفاق ولا تحسب
حساباً لما وراء ذلك من التقلبات ، وانخدع في هذا الظن بما كان يراه من
تشجيع الانجليز المحليين واملائهم له في خطله العقيم . وفاته أن يضع نفسه في
موضع الحكومة البريطانية ليرى أنها تخشى أن تعطى « الوفد الرسمي » قليلاً

فتعطى زغولوا الحجة التي يتعاضم بها نفوذها ، وتخشى أن تعطى « الوفد الرسمى » كثيراً فيصبح ما أعطته هو الحد الأدنى الذي يقبله المصريون ، ثم تعود المطالبة على أيدي المتطرفين فلا يقنعون إلا بالزيادة ، ولا يقبلون ذلك الحد الأدنى ولو كانوا قابلين

ولكنه اندفع واندفع ولم يترفق أو يتورع ، وانحى على قوة المعارضة في مصر قبل أن يأخذ شيئاً من الانجليز ، وأطمع هؤلاء في ضرب المصريين بعضهم ببعض ، وأفسد الوظائف والاخلاق في غير مصلحة مضمونة ولا عاقبة مأمونة ، وهو لو كان وزيراً انجليزياً لما استطاع أن يصنع أكثر مما صنع في مصلحة السياسة الانجليزية ، فليس هذا الدور الذي تطوع له بالدور الذي يؤديه الوزراء المصريون . وليست الخسارة في تركه على مصر بل هي خسارة على خصومها بغير مرأه

ومن الطبيعي أن يقابل سعد هذه الخطة بما ينقضها ويهتم باظهار الحالة في مصر على حقيقتها ، لكي لا يدع لأحد عذرا من جهل هذه الحقيقة أو الاعتراض بما يشاع عنها في انجلترا وفي البلاد الأوروبية ، وليفسد كل مؤامرة سياسية تؤدي الى حل القضية المصرية بالتزييف والتضليل

ومن وسائله إلى ذلك نشر الدعاية في انجلترا والسعى في استقدام لجنة من نواب حزب العمال والأحرار الانجليز لزيارة مصر ووصف ما يشهدون بين أهلها من حقيقة شعورهم ودخيلة الدعاوى التي تدعيها عليهم صحف الاستعمار أو أصحاب المآرب من أجانب ومصريين . وقد حضرت هذه اللجنة إلى مصر فكان مجرد حضورها وطوافها ببعض الأقاليم كافياً لاستطلاع الحالة من أول وهلة . فان عقيدة المصريين في زعامه سعد كانت أظهر من أن تحتاج في إظهارها إلى انتظار طويل

ومن وسائله في اظهار حالة مصر على حقيقتها أنه قام برحلة نيلية من القاهرة إلى أسوان ، فاستباحث فيها الادارة الانجليزية المصرية كل ما عندها من أساليب الأباحية السياسية في محاربة الخصوم . فكان مدير الامن العام

والمفتش الانجليزي يطوفان الاقاليم لتحريض كل من يأنسون فيه معارضة
لسعد على المقاومة والاستعداد للهاجمة . وفي أسيوط أعدت « الادارة »
مئات من الخفراء لابسين الملابس الأهلية مزودين بسلاح الحكومة ، وارضدت
في دار على مقربة من مرسى السفينة أناساً من أتباع السراة المذشقين عن الوفد
المصرى يتبعونهم للخدمة والعصية لا للرأى السياسى والعقيدة . ومن هؤلاء
الخفراء المنتسكين واحد قتل فى أثناء الملحمة التى اشتبك فيها جمهور
الأسيوطين وهذه الشراذم المسلحة ، ثم تقدم قاتله إلى المحقق معترفاً على نفسه
بالقتل طالباً سماع الشهود من الفريقين فأبى المحقق أن يثبت كلامه وجاهد فى
طى « المحضر » و « حفظ » الأوراق

ويدنا كانت جماهير القرى تلقى بأنفسها فى غمار النيل وتستهدف للضرب
والقتل والغرق لتسبح إلى الباخرة وتسمع سعداً هتافها ودعاءها كان المديرون
والموظفون فى كل مكان يحولون بين سعد والنزول إلى البر مخافة من الجماهير
ومحافظة على حياته من الأعداء السياسيين !

ولم لا ؟ ؟ ؟ ! فلعل عدواً من هؤلاء الأعداء كان مستعداً فى غمار المجتمعين
بأسيوط لاطلاق الرصاص على سعد والنجاة بحياته بين الخفراء المشغولين
بالمحافظة على النظام والجماهير المشغولة بالدفاع عن نفسها ! أو المذهولة من
هول الحادث الشنيع . وكان هذا أيسر شئ يخطر على البال بين ذلك الخليط
المأنج من المستقبلين لولا أن فرقة الجيش المصرى التى كانت معسكرة على
الشاطىء حولت مرسى السفينة إلى اتجاه المعسكر فتعذر على المتجمهرين
الاقتراب ؛ ولولا أن الألوف التى كانت فى استقبال السفينة كانت أكثر
عدداً وأرهب حماسة من أن يطمع المجرم فى الافلات من بينها ناجياً بحياته ،
ولولا أن الباعث الذى كان عسياً أن يبعث ذلك المجرم المنتظر على اقتراف
جريمته ضعيف لا يعدو الطمع فى ارضاء سيد أو رئيس ، وقد يكون فى
قرارة ضميره من السعديين

ولم ير سعد وسيلة لتسجيل هذه الحوادث أبلغ من رفع الأمر إلى صاحب العظمة السلطان الذي تجب الشكاية اليه في هذه الحالة دون الوزارة ودار الحماية . فكتب إلى عظمته عريضة يقول فيها وصفا لما حدث في أسيوط : « لهذا عمدت أخيراً إلى أخطر الوسائل وأشرها سلباً للطمأنينة وضرراً بالنظام . ذلك أنها أباحت لبعض المنتمين للوزارة أن يستأجر بعض الأشرار ويأويهم بأسلحتهم وعصيهم في أسيوط لاجداث الشغب عند قدومنا . وفعلاً أحدثوه بأن هدموا الزينات التي كانت منصوبة ، وضربوا المحتفلين وأغرقوا بعضهم . وأسألوا دم الآخرين ، وتأكدنا أن الإشارة التي أعطيت لارتكاب هذا الشغب كانت من أحد المكلفين بحفظ النظام ، وعوض القبض على المشاغبين السفاكين أمر مراقب الامن العام بمنع من النزول إلى المدينة ، وكتب الى بذلك . ولم أرد معارضته منعاً للفتنة وضناً بأيام ملككم أن تخضب بالدماء فبارحنا أسيوط إلى جرجا . غير أننا علمنا في أثناء الطريق من مصادر موثوق بها أن مدير جرجا أخبر مراقب الامن العام بأنه سيحدث في سوهاج عند قدومنا إليها أشد مما حدث في أسيوط ، وأنه أمر مأموري المراکز أن يرسلوا المتشردين والمشبهين مع الأسلحة إلى سوهاج كما أنه جمع فيها أغلب عساكر بلاد المديرية وأكثر خفرائها في زى الأهالي وكلف كل عمدة أن يستحضر من ناحيته عدداً من الأنفار بنبايتهم ، وتنقل في المراکز أمس وعقد عدة اجتماعات حث الناس فيها على أن يعارضوا بالقوة زيارتي لمدينة سوهاج »

وليس ما جاء في هذه العريضة إلا تلخيصاً بجملا هو دون ما حدث في تلك الرحلة بكثير . فان المؤامرة تلاحقت على هذا النمط من القاهرة إلى اسوان حتى عاد سعد في أواخر اكتوبر ، وكل ذلك والمفاوضات تجري لحل القضية الوطنية برأى الأمة المصرية !

هذا في مصر . أما في أوروبا وانجلترا فقد ظهر نفور المصريين من الوفد

الرسمي كما ظهر في البلاد المصرية . فمذ سافر الوفد الرسمي من الاسكندرية في أول يوليو إلى أن نزل بالعاصمة الانجليزية في الحادي عشر منه وهو لا يمر بمدينة في الطريق إلا قابله الطلبة المصريون فيها هاتفين لسعد صائحين في وجه الوفد بصيحات العدا والاشتكار . ولم يبق له من أمل في باطن الأمر عند الانجليز إلا أن يتشفع اليهم بما لقيه في سبيل معاهدتهم من سخط المصريين وارتياهم في نيته ونيات رجاله ، وهي شفاعاة لا تنفق عند اللورد كرزون وأمثاله إلا إذا عرفوا أن الوزارة تساعدهم على نجاحهم وليست هي المحتاجة في كل شيء إلى مساعدتهم على نجاحها . وهذا ما لم يعرفه كرزون وزملاؤه من غلاة المستعمرين . فتجههم للوفد وأساء معاملته واسترسل في الغطرسة والصلف حتى قال له رشدي باشا مرة وهو نائراً الأعصاب محتدم الغيظ : « ان جوك يخنقني » ... ورائت الخيبة على الرجل وهو الذي قبل الحماية البريطانية ورحب بها وحسب أن الانجليز يدخرون له هذا الصنيع وينصرونه على خصومه في معترك الخصومة ، ففلج ولزم الفراش أسابيع .

وكان عدلى يستنجد بأنصاره في القاهرة ليثبت للانجليز مكاتته بين ذوى الرأي وتأييدهم إياه في مفاوضاته ، فوافقه معظم أعضاء الجمعية التشريعية وهم نحو الأربعين . وكتبوا إلى سعد يصفون سياسته بعد عودته من أوروبا « بأنها سلسلة أغلاط سياسية » ويعربون عن ثقتهم بالوفد الرسمي واعتقادهم المصلحة في تأييده . وسأل مندوب روتر سعداً في ذلك فقال : « ان هؤلاء لا يعدون أعضاء بالجمعية التشريعية الآن لانتهاء مدة انتخابهم ، ولو عملت انتخابات جديدة لما انتخب واحد منهم »

وما هو إلا قليل حتى ازداد عدلى شعوراً بالمأزق الحرج الذي دفعته الحوادث اليه : كرزون ينقص من مشروع ملنر والأمة المصرية لا تقنع بهذا المشروع على أحسن أوضاعه ، ويوشك أن لا تقنع بالتحفظات التي أضيفت اليها لما اضرم نفوسها من الغيظ والألم بعد سفك الدماء وطول

التحدى والازدراء، وخنق الحرية واللجاجة في انكار وكلائها واتخاذ الوكلاء عنها على الرغم منها، فاندفعت إلى حالة من العناد تقابل فيه التحدى بمثله وتعز فيها مصالحتها بالكثير الحق فضلا عن القليل الباطل. فماذا يصنع عدلى بين هذين النقيضين؟ أطال التأجيل والتسويق على غير طائل، ثم قطع المفاوضات فى التاسع عشر من نوفمبر بعد لقاء وجيز مع اللورد كرزون وهو يتساءل: لماذا لا تعطى الحكومة البريطانية ماتريد اعطائه بغير معاهدة أو اقرار من المصريين؟؟ وهنا ظهر مرة أخرى أن عدلى باشا يقنع بما دون المطلب الذى يطلبه سعد زغلول، ولعله يرى المصلحة فى هذا القنوع. ولكنه يرفض ما يرفضه لأنه يحسب حساباً للعارضة من قبل سعد، ويترسم خطاه وهو يصادقه أو يعاديه.

ثم عاد عدلى الى القاهرة فاستقبله على المحطة مندوب من قبل صاحب العظمة السلطان، وجمع من أنصاره الموظفين وغير الموظفين. أما سواد الشعب فقد احتجب فى المنازل اضراباً عن المشاركة فى هذا الاستقبال أو هذا الاحتفال.

وعرف من اللحظة الأولى أن عدلى باشا ينوى الاستقالة عقب وصوله فاخذ الناس يتساءلون عما ينويه الانجليز بعد اخفاق هذه التجربة الجديدة. ولكن الجو السياسى كله كان يوحى الى الخاطر أن السياسة المقبلة ستكون سياسة تهديد واعتساف وتكشير عن الأنياب. وقبل أن يطول التساؤل عن المستقبل بادرت الحكومة البريطانية الى ابراز « تجربتها المقبلة » فى خطاب وجهته الى صاحب العظمة السلطان على يدى نائب الملك — اللورد اللبى — قالت فيه بعد استهلال وجيز: « أنها — أى الحكومة البريطانية — تعتبر اقتراحاتها هذه سخية فى جوهرها واسعة النطاق فى نتائجها، وأنها لا يمكنها أن تبقى محلاً لأى أمل فى إعادة النظر فى المبدأ الذى بنيت عليه تلك الاقتراحات »

ثم خلصت من ذلك الى الوقيعة بين عظمة السلطان ومن سمتهم المتطرفين في الحركة الوطنية فقالت : « هناك علامات على أنه لا يبعد على المتطرفين في الحركة الوطنية أن يزجوا بمصر ثانية في الهوة التي لم يطل العهد على انقاذها منها » وهي تعنى الحركة العراقية التي سبقت الاشارة اليها في هذا التبليغ وقالت عن السياسة التي تتبعها في الحاضر أنها « لا يمكنها تنفيذ اقتراحاتها بدون رضا الأمة المصرية واشتراكها . ولكن حكومة جلالته تحافظ على الرغبة التي كانت لديها على الدوام وهي العمل على انماء مواهب المصريين بزيادة عدد الموظفين منهم في كل نوع ولا سيما في الفروع الادارية العالية التي كثر فيها عدد الموظفين الأوربيين . وحكومة جلالته مستعدة لأن تواصل بمشاوره حكومة عظمتكم - المفاوضات مع الدول الاجنبية لأجل الغاء الامتيازات لكي يكون موقف الدول جلياً عندما يحين وقت اصدار التشريع المصرى الذى سيحل محل تلك الامتيازات . وكذلك ترجو حكومة جلالته أن السلطة التي يباشرها الآن القائد العام تحت القانون العسكرى تباشرها الحكومة المصرية وحدها بمقتضى القوانين المدنية المصرية . وهي تسر برفع الأحكام العسكرية حالما يصدر قانون التضمنات ويعمل به في كل المحاكم المدنية والجنائية في مصر »

ثم خلصت من ذلك الى التهديد الصريح فقالت : « اذا كان الشعب المصرى يستسلم الى امانية الوطنية مهما كانت هذه الأمانى صحيحة ومشروعة في ذاتها دون أن يكثرث اكثر اثماً كافياً للحقائق التي تستحكم في الحياة الدولية - فان تقدمه في سبيل تحقيق مطمحه الاسمى لا يصيبه التأخر فقط بل يتعرض للخطر تعرضاً تاماً . اذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شأن ما على الامم من الواجبات وتعظيم مالها من الحقوق . وأن الزعماء المتطرفين الذين يدعون الى هذا لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون رقيها . وهم بما كان لهم من الأثر في مجرى الحوادث قد تحدوا مرة بعد مرة الدول الاجنبية في مصالحها

وأثاروا مخاوفها ، وكذلك عملوا في الأسابيع الأخيرة على التأثير في مسير المفاوضات بندايات مهيبة استثاروا بها جهل العامة وشهواتهم . وأن حكومة جلالة الملك لا تعتبر أنها تخدم مصالح مصر بتساهلها ازاء تهيج من هذا القبيل ولن يمكن مصر أن تسير في سبيل الرقي إلا متى أظهر قادتها المسئولون من الحزم والعزيمة ما يكفل قمع هذا التهيج . لأن العالم يتالم الآن من جهات عديدة من الاندفاع في نوع من الوطنية المتعصبة المضطربة ، وحكومة جلالة الملك تقاوم هذا النوع من الوطنية بكل شدة سواء في مصر أو في غيرها ، وأن أولئك الذين يستسلمون لتلك النزعات انما يعملون على جعل القيود الأجنبية التي يطلبون الخلاص منها أشد لزوماً وبذلك يطيلون أجلها « وإذ الامر كذلك فان حكومة جلالة الملك - مراعاة لمصلحة مصر ومصحتها الخاصة أيضا - ستستمر بلا تردد على مواصلة غرضها كمرشدة لمصر وأمينة على مصالحها »

وهذا كلام يبدو لقائله معقولا جداً ويخيل اليه أن فيه من المنطق ما يكفي لاقناع المصريين بالسيادة الأجنبية . ولكنه ليس بأقرب إلى العقل والمنطق من نصيحة القاصر بالبقاء في كنف الطفولة لأنها أسعد من الرجولة وأهون اعباء من تكاليف الرشد وتجارب الأيام ، وكفى أن تكون كذلك لتكون خلواً من المنطق والعقل كأخلى ما يكون الكلام !

ومن الزعماء المتطرفون المقصودون في هذا التبليغ ؟ ... انهم معروفون لا يخفى أمرهم على أحد من الكاتبين ولا المخاطبين . فها هم غير زعيم واحد هو سعد زغلول . وقد سمع هذا الزعيم ما قصدوه به من التهديد فكان جوابه وهو يقرأه : « أيهدوننا بنصب المشائق ؟ ليكن ... نحن مستعدون ! » ... ونشر نداء ناشد فيه الأمة وهو يتكلم بلسانها : —

« نفرع الى اتحادنا فتقويه ، والى صفوفنا فنجمعها ، والى قوانا فنوجهها جميعا الى دفع ذلك الخطر العظيم . نزرع الشهوات الدنيئة من نفوسنا ونستل

الأحقاد الممقوتة من صدورنا ، وتتجرد عن الهوى وتكون الكلمة السواء
بيننا ألا يطيب العيش لنا حتى ينطلق الوطن السجين ويتمتع باستقلاله التام
ولا نعتبر خصماً لنا إلا الذين أرادوا امتلاكنا ، ونحصر همنا في دفع بلائهم
وإحباط أعمالهم «

وختم النداء بهذه الكلمة التي حفظها كثيرون عن ظهر قلب : « إنكم
أنبل الوارثين لأقدم مدنية في العالم ، وقد حلقتم أن تعيشوا أحراراً أو تموتوا
كراماً . فلا تدعوا التاريخ يقول يوماً فيكم : أقسموا ولم يبروا بالقسم .
فلتلق إذا بقلوب كلها اطمئنان ، ونفوس ملؤها استبشار بالاستقلال التام
أو الموت الزؤام «

النفي

أكثر ما كان يوغر المندوبين البريطان على سعد انما كان يرجع إلى أسباب
« شخصية » لا علاقة لها بالسياسة العامة

وأكثر هذه الأسباب الشخصية انما يرجع الى استعلاء هؤلاء المندوبين
على أبناء البلاد الشرقية التي « يحكمونها » حكم الملوك المتفردين بالطغيان ،
ولا يطيقون أن يروا فيها رجلا يقابلهم مقابلة الند الند ، ويعاملهم معاملة
المثيل للمثيل .

تعودوا أن ينظروا الى الكبراء من طبقة الوزراء نظرتهم الى أناس من
طلاب « الوظائف » يزلفون اليهم ويتبعون الرضى منهم ومن أصحاب الحظوة
عندهم ، ويتمنون أن يظفروا على أبواب صاحب الأمر والنهي في قصر الدوارة
بكلمة أو إشارة تدل على ارتياح وتبشر برجاء . وتعودوا أن تتجه الانظار
الى قبلتهم دون كل قبلة ، وأن يوصدوا على الطامحين كل مجاز للأمل غير هذا
المجاز . فاذا بدا لهم فوق الغمار رجل « شرقي » من هذه الطبقة له رأس فوق
تلك الرؤوس وطموح فوق تلك الطموح ومجاز غير ذلك المجاز فهو شذوذ
في أنماط النظام المألوف يصددهم في كبرياتهم صدمة العدوان ولا عدوان
هناك أو صدمة الاهانة ولا اهانة الا فيما توهموه

واذا علموا بالمراس أن شذوذ ذلك الرجل حق وليس بدعوى وقوة وليس
بمظهر ، وشيء يحسونه في أعماق ضمائرهم وبجامع شعورهم فوق احساسهم
به في مجال السياسة ومعاملات الوظيفة فهو اذن عبء لا يطاق وعقبه
لا يستريحون أو يجلوها عن الطريق . لأن الهوادة في أمرها انما هي نزول
عن الكبرياء مع فرد واحد يتبعه النزول عن الكبرياء مع أفراد آخرين
وقد يتغاضى المندوب البريطاني عن عظيم وطني من طراز غاندى في

الهند لأن عظمة القداسة الروحية شيء لا يدعيه الحكام والمندوبون ، ولكنه لا يتغاضى عن عظمة تصدمه في دعواه وتنافسه في ميدانه ، وتصاله مصاولة الأنداد والنظراء . وقد يشعر هو في قرارة نفسه انهم أكبر من الأنداد والنظراء وأكثر ما كان ينقمه المندوبون البريطان على سعد إنما هو هذا « الشذوذ » عما ألفوه بين طبقة الوزراء والكبراء ، فاللورد كيتشنر كان يمتعض من طريقة سعد في مخاطبته ويستكثر منه أن يضع رجلا على رجل وهو جالس في حضرته ؛ واللورد اللنبى كان لا يفهم كيف يرجع سعد من أوروبا دون أن يزوره في دار الحماية ؛ وقد أرسل إليه من ينبهه إلى هذه « الهفوة » من طرف خفي وهو يذكره بتخلفه عن زيارة القصر السلطاني بعد رجوعه . . . فقال سعد لرسوله : « لك أن تبلغ اللورد إذا شئت انى أعلم واجباتى نحو القصر . وانى ان فاتنى شيء منها لا أحب أن أتعلمه من دار الحماية ؛ » فكانت هذه « الهفوة » بعد « هفوة » الاحجام عن الزيارة فوق ما تتسع له صدور الغفران !

ان اللورد اللنبى قد تمحل الأسباب لنفى سعد بعد فشل المفاوضات الرسمية وعودة عدلى إلى القاهرة . ولكنه في الحقيقة كان ينوى هذا النفى قبل سفر الوفد الرسمى وقبل البدء فى المفاوضات . ويلوح ذلك جلياً من البرقية التى أرسلها إلى اللورد كرزون فى ثامن ابريل يقول فيها : « انى أعتقد أن زغلول الآن فى حالة من الزهو والترفع لا يبعد عليه معها أن يهجم بضربة كضربة عرابى باشا »

وهذه مقدمة لا شك فيما وراها ولا خفاء بالنية التى دفعت إليها . وقد ظلت كامنة فى ذهن اللورد اللنبى إلى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر حين ألقى القبض على سعد وأصحابه وكتب إلى اللورد كرزون يقترح عليه إبعاده هو وشركاؤه ويقول : « ان سيلان أوفق مكان لأنها مقرونة فى الأذهان باعتقال عرابى . فمن شأن اسمها أن يحدث تأثيراً عظيماً »

ولقد تعلل اللورد اللنبي لضرورة النفي بما يعانیه من مشقة في تأليف وزارة بعد الوزارة العدلية . ولكنه لولقي السهولة بدل المشقة في هذا المسعى لتعلل بتذليل العقبات واخلاء الجو للوزارة المأمولة أو التجربة الجديدة . إذ كان المقصود هو إنجاز « النفي » على كل حال وارضاء الكبرياء التي تنبغي لحاكم وادي النيل من شاطئ بحر الروم إلى أقاصي السودان .

وكان على اللورد اللنبي أن ينتحل المناسبة الموقوتة التي يتذرع بها إلى النفي المقصود . وليس أصلح لذلك من أمر يعلم أنه لا يطاع ثم القاء القبض على أثر الامتناع . فكتب هذا الأمر في الثاني والعشرين من ديسمبر بلسان مستشار الداخلية . وهذه ترجمته الرسمية :

إلى صاحب المعالي سعد زغلول باشا بالقاهرة

أتشرف بأن أبلغكم أني تلقيت من الفيكد مارشال القائد العام تعليمات بأن أبلغ معاليكم الأمر التالي وهو :

« يحظر على سعد زغلول باشا بموجب الحكم العرفي أن يخاطب في الناس أو أن يشهد اجتماعاً عمومياً أو أن يستقبل الوفود أو أن يكتب إلى الصحف أو يقوم بعمل من الأعمال السياسية . وعليه أن يغادر القاهرة بلا ابطاء ويقيم في منزله في الريف تحت مراقبة المدير (١)

وأتشرف بأن أكون خادماً معاليكم المطيع

وكانما كان اللورد اللنبي يملئ جواب هذا الخطاب حين كتبه بهذه

(١) قال اللورد اللنبي في برقيته المؤرخة (٢٥ ديسمبر) إلى المركيز كرزون

(هذا بيان الامتنة الموجود بها التهمة الاشخاص الذين أمرتهم بالكف عن الاعمال السياسية

(ستة منهم الان في السويس ينتظرون الابحار من السويس على باخرة نقل في ٢٨ ديسمبر

وثلاثة هم « صادق حنين وأمين عز العرب وجعفر غزرى اطاعوا أمرى وهم تحت مراقبة البوليس »

أما الستة الاولون فهم سعد وأصحابه فتح الله بركات باشا وعاطف بركات « بك » ومصطفى الثحاس

(بك) وسينوت حنا بك والاستاذ مكرم عبيد

الصيغة إلى سعد زغلول ، فما هي إلا ساعات حتى عاد إليه الرد في
الصيغة الآتية :

جناب الجنرال كلتين مستشار وزارة الداخلية :

أتشرف باخباركم اني استلمت خطابكم بتاريخ اليوم الذي تبلغونني فيه
امر جناب الفيلىد مارشال اللبني بمنعني من الاشتغال بالسياسة والزامى بالسفر
إلى عزبتي بلا تأخير للقيام بها تحت مراقبة المدير . وهو أمر ظالم أحتج عليه
بكل قوتي إذ ليس هناك ما يبرره

وبما اني موكل من قبل الأمة للسعى في استقلالها فليس لغيرها سلطة
تخليني من القيام بهذا الواجب المقدس

لهذا سابقى في مركزى مخلصاً لواجبي . وللقوة أن تفعل بنا ما تشاء أفراداً
وجماعات ، فانا جميعاً مستعدون للقاء ما تأتي به بجنان ثابت وضمير هادى . علمياً
بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة انما يساعد البلاد على تحقيق
أمانها في الاستقلال التام »

سعد زغلول

رئيس الوفد المصرى

قال الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب صحيفة « البلاغ » وكان حاضراً
المجلس الذى كتب فيه رد سعد على هذا الانذار :

(ولم يحدث بعد هذا غير أننى استوقفت الرئيس عند قوله : « وهو أمر
ظالم أحتج عليه بكل قوتي إذ ليس هناك ما يبرره » وسألت : ألا يحسن
الاستغناء عن كلمة ظالم اكتفاء بالكلمات التى تليها ؟ فنظر الرئيس وقال بشمم :
كلا . وأيده كل الحاضرين فى إجابته)

وما كان سعد ليشك هنيهة فيما سيحدث بعد هذا الاحتجاج ، لأنه كان

يتحدث إلى زوجه الكريمة بأن النفي بعد هذا أقرب قريب ، وكان جوابه لكل من سألوه من أقربائه أنه يعتقد أن الانذار إنما هو المقدمة التي يتبعها النفي لا محالة في يوم أو يومين

والنفي شيء هين عند قتي في مستقبل العمر قد يطمع في العودة إلى وطنه بعد جلاء الغاشية وهدوء القلاقل وفراغ الحكومة البريطانية مما تسعى إليه ، ولكنه هو الموت بعينه يواجهه الشيخ وهو عامد عالم بما يلقاه ، بل هو الموت والعذاب للشيخ الذي تثقله سقام كالتى كانت تثقل سعدا في تلك الأيام ، ومنها الربو ومرض السكر وتصلب الشرايين . فاذا هو نسي نفسه وشيخوخته وسقامه ومصيره في تلك اللحظة فذلك هو المثل الأعلى في عرفان الواجب والكرامة ، وتقدير ما ينبغى أن يكون دون المبالاة بالعواقب التي تناله في صحته وحياته ، ما دامت هذه العواقب مأمونة على مصير البلاد

سويغات قليلة وطار الخبر في أحياء القاهرة كل مطار . فهاجت المدينة بجموع من هنا وهناك كانت تتلاقى على غير اتفاق سابق ولا غرض معلوم ، وكانت تتجه بوحى البدهاهة إلى « بيت الأمة » فقطاردها الشرطة وتتعبها باطلاق الرصاص على غير هدى وفي غير حساب . وقد سقط جريحان على مقربة من البيت فحملهما الناس إلى فناءه وخرجت السيدة الجليلة قرينة سعد تضمم الجروح وتبادر الى الاسعاف ، ثم تكاثر الجرحى في شارع سعد زغلول وسعد في مكتبه يسمع طلقات الرصاص ويسأل عن المصابين ويأسف لما يسمعه ويراه : مصريون يمعنون في قتل مصريين لتحقيق ماآرب الانجليز ؛ قال سعد لمن حوله : « أرأيتم إلى أى شيء أدت الخطة التي اتبعتها الوزارة في الأشهر الماضية ؟ لقد كنا حتى اليوم وجها لوجه مع أعدائنا الانجليز . فكان هؤلاء هم الذين يصادموننا ونصادمهم . أما اليوم فالانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين .

حقاً أن هذا فوز للسياسة الانجليزية لا يسأل عنه الا الذين مهدوا له
السييل» (١)

وأمسّت المدينة في تلك الليلة وهي في ظلام دامس لتحطيم المصاييح
واغلاق المساهر والملاهي في أكثر الأحياء . ورابط مئات من الشبان في
شارع سعد زغلول وفي الشوارع التي حوله من وراء المتاريس يترقبون أن
يدفعوا عن سعد بأرواحهم وأبدانهم ما عسى أن يناله في تلك الليلة من أيدي
الانجليز . وقد خيل إليهم في تلك الرجة العصية الجاححة أنهم قادرون على
الوقوف في وجه المدافع والدبابات . وهم عزل من كل سلاح خطير

وقضى سعد سهرته إلى منتصف الليل يتحدث إلى زائريه ويؤكد لهم
ايمانه بغلبة الحق على الباطل واستعداده للقاء كل ما تضره له القوة من إرهاب
أو انتقام ، وكان يتبسط في أحاديثه كعادته في بعض الأحيان حين تحقق به
الخطوب ، كأنما الفكاهة في نفسه الكبيرة فيض القوة التي يتدرع بها لكل
خطب يغشاه . فمن رآه ثمة قد ينسى أنه في موقف وداع مجهول اللقاء ، وأنه
لا يدري متى يرى هذا الزعيم في جلسته تلك مرة أخرى ، وقد لا تمضي
ساعات حتى يكون في غير ذلك المكان ، ولا تمضي أيام حتى يكون في بلد
غير البلد وقارة غير القارة ، ويحال بين ديار مصر والرجل الذي آثرته على
كل إنسان

ثم صعد سعد إلى حجرته لينام عند منتصف الليل . فلم يلبث أن تهيأ
للنوم حتى قيل له إن فناء الدار قدامتلاً بالشبان يريدون المبيت هناك إلى الصباح
في حراسة الرئيس . فنزل إليهم يرجوهم أن ينصرفوا إلى بيوتهم وأن يدعوه
في حراسة المقادير . فلم ينصرفوا ولم يهتموا بالانصراف . فأقسم لبيتهم معهم
حيث هم قائمون تحت سماء الشتاء المكفهرة إن لم يستمعوا لقوله . فانصرفوا
مكرهين

(١) من رسالة اذكروا سعدا ، للأستاذ عبد القادر حمزة

وأصبح الصباح في اليوم التالي غائماً مطيراً قارس الهواء من تلك الأيام التي توحى إلى النفس الوجوم والانقباض ولولم يكن ثمة داع للوجوم والانقباض، وتندر بالشر ولولم يكن ثمة نذير معروف

واستيقظت السيدة الجليلة قرينة سعد قبيل الساعة السابعة فايقظته وسألته هل يريد أن ينهض من فراشه؟ فقال إنه يفضل الاستراحة هنيهة ولا موجب للاستعجال. ولم تكن الساعة الثامنة حتى جاءتها الخادمة تنبئها أن ضابطين انجليزيين يقفان عند باب الحرم وأن الجند يحيطون بالبيت من كل جانب فأسرعت إلى سعد وهي تقول في لهجة التهكم التي تعودت أن تسمعها من زوجها العظيم في أمثال هذه الساعات:

« ان الذين تنتظرهم قد جاؤك » وذهبت إلى غرفتها ترتدى ثيابها وتتهيأ لمصاحبتة إلى حيث ينوون أن يأخذوه كما اتفقاً منذ تلقى الانذار وأرسل جوابه عليه. فوجدت عند أعلى السلم وعند أسفله جنديين شاهرين سلاحهما يحميان الطريق، ونزلت إلى الحديقة فوجدت فيها بضعة عشر جندياً يهزلون ويضحكون. ثم تقدم إليها انجليزى في الملابس المدنية يسألها بالفرنسية: أين سعد باشا؟ فقالت أنه يلبس وسينزل. وسأكون أنا في صحبته حيث سار: فقال: لا أدري هل تسمح القيادة العليا بذلك أو لا تسمح. فطلبت إليه أن يسأل رؤسائه. وذهب ضابط يرافقه إلى التليفون ثم عاد يقول: ليس في وسعنا أن نجيبك إلى طلبك: وعاد يسأل وهو يتأفف: لقد أبطأ سعد باشا. فلماذا لم ينزل إلى الآن؟

ولم ينتظر غير لحظة واندفع إلى السلم ومعه ضابط آخر إلى حجرة الرئيس ففتحها عليه وأرادا أن يأخذه قبل أن يفرغ من لبس ثيابه، فأبى في غضب واشمئزاز. وكان عند الضابطين من الأدب ما يكفي لاحترام هذا الشعور المعقول. فتمهلاً قليلاً حتى فرغ من ثيابه ونزل إلى الحديقة، فأحاط الجند به وبالسيدة التي سارت إلى جانبه لتركب معه السيارة العسكرية حيث كانت واقفة

على الباب . فلما بلغتـه أنبأها الضابط أنه لا يستطيع السماح لها بالركوب ،
فاصرت في سورة الحزن والغضب على أن تترك ، وهم بعض الجند أن يمنعها
بالقوة ، فالتفت اليها سعد وهو يقول : يا صافية ! أرجوك ! أرجوك !
« ماتهدلنيش » . . . فقالت : لا عاش من « يهدلك » ياسعد . وثابت الى
عزيمتها المعهودة في لمحة عين ، ووقفت حيث هي لا يبدو عليها جزع ولا بكاء .
بل التفتت إلى الباكين من حولها تزجرهم وتوصيهم بالجلد والسكون

وهنا ندع للأستاذ عبد القادر حمزة وصف ماشاهده في ذلك الصباح ،
فقد رآه بعينه ووصفه وصفاً دقيقاً في رسالته التي كتبها قبل سفر الرئيس من
البلاد بعنوان اذكروا سعداً وصحبه المعتقلين :

« سرت فلم أمش غير خطوات أوصلتني إلى ميدان الأزهار ، ثم ثار
الجو وانهمل المطر كإفواه القرب ودوى الرعد ولمع البرق فالتجأت إلى قهوة
هناك أحتمى فيها ، وإذا انقطع المطر عاودت المسير فما هو إلا أن انخرطت
في شارع الفلأكي حتى لاح لي عن بعد شبح أصفر يسد الطريق عند بيت
الامة ، فرصدته بنظري أتبينه كلما دنوت منه فبان لي صليب كبير على جانبه ،
ثم وضع جميعه فاذا هو اتومبيل بجانبها ضابط بريطاني

« هنا تكشف لي الأمر كله ، ولم يبق عندي ريب في حقيقة ما هو واقع ...
نعم لم يبق ريب في أن ما كان منتظراً منذ الأمس يقع في هذه الساعة ، وإن
انجلترا ذات القوة التي لا تدانيها قوة في العالم ، أرسلت جنودها لا ليحاربوا
سعداً في معركة ولكن ليأخذوه في « جنح » الصباح من بيته بعد أن انهزمت
أمامه في معركة الحق وأعيته الحيلة في مغالبتة

« واصلت المسير فوصلت إلى الاوتومبيل في شارع الداخلية فرأيت
خلفها اثنتين مثلها ، والضابط يروح ويغدو ، والجنود من حوله يترقبون
رافعين البنادق . وفي كل اتومبيل سائقها جالس ويده على المفتاح . كأنهم
جميعاً لا ينتظرون غير أن تقع الغنيمة في أيديهم ليأخذوها ويطيروا

« وكان هناك جماعة قليلون من عامة الشعب فهموا أن أباهم سعداً سيؤخذ فوقفوا . ولولا أنهم رجال وانهم يرون خصمهم أمامهم ويكرهون أن يشمت فيهم لأرسلوا الدموع . ولم تكن بي حاجة لأن أجرب دخول بيت الأمة ، لأن الجنود كانوا يضربون نطاقاً حوله ونطاقاً على بابه ونطاقاً في حديقته ، وفي أيديهم البنادق كأنهم يتأهبون لمعركة حامية

« وما مضت دقيقتان أو ثلاث حتى ضج فجأة كل الذين حولي فنظرت فاذا سعد مقبل وأمامه ضابطان ومن خلفه حاجبه وخادم . وهم جميعاً يمشون في نطاق من الجنود . رأيت يمشى بعد أن نزع من أهله وبيته وأحيط بالجنود والسلاح وفتح أمامه باب التضحية على مصراعيه مجهول الأول مجهول الآخر فأقسم ما رأيت فيه وفي مشيته إلا بطلاً على الرأس مطمئن النظرات . ولوددت أن رآه معي في تلك الساعة كل أبناء مصر . إذن لرأوا سعداً أسداً هو أثبت ما يكون حين تنازله الحادثات

« كان يمشى هادئاً منبسط الجبين ليس في خطوه إسراع ولا ثقاقل . ولا في نظراته ولا في حركات جسمه أثر واحد يدل على قلق أو اضطراب . ويده اليسرى في جيب معطفه ويده اليمنى تحرك عصاه حركة عادية منتظمة كأنه لا يرى لكل ما هو واقع ولا لكل الذين هم محتاطون به وجوداً أكثر من العدم .

« وما رأيت تلفت يميناً أو شمالاً ، ولا وقفت عينه عند واحد من الذين يرافقونه مسلحين ، ولكنه لما رانا نحن واقفين مد نظره إلينا وسرحه فينا وحينئذ لم يملك بعضنا أنفسهم وسمعت في الحال قائلاً يقول والبكاء يغالبه : « إلى أين ياسعد ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟ » ثم غلبه البكاء فاتحج وابتحب السكل معه .

« إنتحبوا وضحجوا لأن تصبرهم كان قد بلغ الغاية وزيادة . ولقد كانوا إلى ما قبل هذه اللحظة حانقين يابون أن يرى الخصم فيهم ضعفاً ولكنهم لما

شاهدوا بأعينهم سعدهم يؤخذ هذا الأخذ إلى حيث لا يعلم ولا يعلمون تهدم
عزمهم كله ولم يبق فيهم جلد

« وما كان انتحاب هؤلاء المنتحبين بأبلغ من عمل صبية رأوا بأعينهم
مارأوا ومع ذلك صمموا على أن يخاطروا بأنفسهم فجروا خلف سعد عشرين
أو ثلاثين كأنهم يهجمون صفاً متسانداً في معركة منظمة . فلما رأهم الجنود
حولوا وجوههم إليهم وصوبوا البنادق نحوهم يهددونهم بالموت إن هم تقدموا
ومازال الجنود كذلك وهم يمشون بظهورهم ، حتى وصلوا إلى الاتومبيلات
وركبوا .

« ركب سعد وركب الضابطان وركب الجنود كلهم . ثم تحركت
الاتومبيلات ، فلا والله ما رأيت في حياتي ساعة كنتك هلعت فيها القلوب
وارتجفت الأقدام ، واشتد البكاء وعلت الأصوات تنادى وتقطعها الزفرات
« سعد . ياسعد . . . إلى أين ياسعد ؟ » وامتدت الأيدي نحو الاتومبيلات
كأنها تستعطفها وتسألها أن تقف ، ولكن الاتومبيلات كأنها البرق الخاطف
وتركت الناس في مكانهم يصيحون ويبكون »

ذلك وصف الأستاذ عبد القادر لما رآه . وندع لسعد أن يقص لنا رحلة
المنفى كما وصفها في خطبه ورسائله من حيث تركناها هنا إلى حيث استقر به
المقام في جزائر سيشل . ولا ضير أن نسبق الحوادث بعض السبق إلى ما بعد
المرحلة التي انتهينا إليها من تاريخ الزعيم

قال في خطبة ألقاها في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٣
بعد عودته من جبل طارق :

« . . . في مثل هذا اليوم من عامين سطت القوة الغاشمة في عنفها على
الحق في مأمنه . أحاطت منزلي من كل جوانبه بعساكر مدججين بالسلاح ،

وأدخات جانباً منهم فيه فملأوا قاعاته وطبقاته وأقاموا منهم أربطة على أبوابه
ومنافذه ، وصعد بعضهم إلى مخدعي فازعجوني من نومى ، وأرادوا أن يقبضوا
على قبل أن ألبس ثيابى فلم أمكنهم حتى لبستها . ثم أنزلونى وهم يحيطون بى
وحرمنى من خلفى تريد مزاملتى فمنعوها ، وأركبونى فى عربة من عربات
الأسعاف تتقدمها سيارات أخرى يملأها جماعة من الضباط والعساكر
وبأيديهم البنادق مصوبة من خلفنا لاطلاقها على كل من يتبع خطواتنا :
فعلوا ذلك بغير حكم أعلنوه ولا قرار تلوه ولا كتابة أطلعونى عليها ولا تعيين
للجهة التى وجهونى إليها . وساروا بنا الى السويس فى طريق غير ممد بلا ماء
ولا زاد إلا قليلا من الخبز تكرم علينا بعض الضباط بقطعة منه على شىء
من الجبن فتبلغت بها ، وما زال السير يجد بنا فى هذا الطريق العاثر يحطنا تارة
ويرفعنا تارة أخرى من الساعة التاسعة صباحا إلى الساعة الخامسة بعد الظهر
حيث أدخلونى إلى معسكر الهنود ، وتلقانى بعض الضباط وأنزلنى فى خيمة
تعصف الرياح من خروقتها بعد أن قدموا الى شيئاً من الطعام ، فأكلت ونمت
بملاسى إذ لم يسمحوا لى بأخذ شىء معى . ولكنى بحمد الله لم أشعر بتعب
مع أنى كنت أتعب من سير ساعة واحدة بالسيارة فى الطريق المعبد . فقد
أمدنى الله بقوته وجعلنى أتحمل كل هذه المشقات من غير أن أشعر بشدتها .
وفى الليلة التالية اتصل بى صحبى الذين قبضوا عليهم من بعدى فأنست بلقائهم
وسرنى ما رأيتهم عليه من رباطة الجأش ومقابلة هذه الشدة بالثغور الباسمة
والنفوس المطمئنة ، ومكثنا فى هذا المعسكر إلى ٢٩ ديسمبر حيث أمرنا فى
آخر العشاء بالاستعداد للسفر فى ظرف نصف ساعة . فدهشنا لهذه المفاجأة
وانصرف كل منا يحزم متاعه . ثم أركبونا فى سيارة مغلقة الى المرفأ وكانت
السفينة المعدة لركوبنا خارج الميناء فأنزلونا الى زورق فيه بعض الوطنيين
الذين بكوا للقائنا فى تلك الساعة بكاء مرآ فكنا نظمن خواطرهم بالإشارة
تارة وبالكلمات تارة أخرى

« وصل بنا الزورق الى السفينة واذا بها مملوءة بالجنود الهندية ، ونزل كل منا في الحجرة المعدة له ، وعلينا حينئذ بأن وجهتنا عدن التي وصلناها في مساء يوم الأربعاء ٤ يناير . ثم بعد أن أقمنا بها إلى ٢٨ فبراير نقلونا إلى سيشل ثم نقلوني إلى جبل طارق حيث أقمت من ٣ سبتمبر إلى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٣ ثم أفرج عني في ذلك التاريخ . . . »

هذا ماجاء في الخطبة عن طريق سعد إلى المنفى . ويتممه ما كتبه فتح الله باشا عن سفرهم من عدن إلى سيشل كما جاء في مذكراته وهو كما يأتي :

* * *

« الأربعاء أول مارس سنة ١٩٢٢ »

« تأخرنا في تناول طعام الافطار على خلاف العادة ، وبينما نحن نتناوله في الساعة ٩ صباحاً إذ حضر الكبتن استل ومعه المايجور رايلي المساعد الأول للمقيم في عدن فسلم وجلس بجانب الرئيس ، وتكلم بالانجليزية داعياً إياه لتناول الافطار ، فشكره ، وقال إنه أفطر قبل أن يحضر ، فقال الرئيس بالانجليزية أيضاً :

— إننا متأخرون في الافطار اليوم على خلاف العادة ، فان عادتنا أن نتناوله في منتصف الساعة التاسعة

« فدهش الرجل لكلام الرئيس بالانجليزية وقال :

— إني لما جئت في المرة الأولى كنت لا تستطيع الكلام بالانجليزية فأجابه الرئيس ضاحكاً :

— إن الفضل في ذلك السجن . . .

قال المايجور عقب ذلك :

— جئت لأتفق معك على ترتيب السفر

« فسأل الرئيس : « ومتى يكون السفر ؟ » فقال : « اليوم . . »

« وهنا تكلم بالفرنسية ، واستمر قائلاً :
— إن بارجة حربية منتظرة في الميناء لأخذك إلى سيشل ، وأما رفاقك ،
فيلحقون بك في السفينة القادمة ..
» فسأله الرئيس :

— ولماذا الفصل بيننا ؟ الأولى أن نكون معاً !!
— يظهر أن السبب عدم توافر المحال للجميع في السفينة القادمة ، وإنه
لذلك عمل الترتيب لتسافر اليوم على البارجة الحربية ، ومعك خادمك ..
» فقلت : — أنسافر معه على البارجة الحربية ؟
» فقال : — إنها صغيرة ، وليس فيها محال ...
» فقلنا : — أن توافر المحال لايهمنا ، فلنسافر معاً ويكفي أن يكون
بها المحل الخاص بالرئيس . وأما نحن فنسافر معه على أية حال ، وأنا مستعدون
جميعاً لأن ننام على ظهر الباخرة أو في أي مكان آخر ..
» فقال الماجور رايلي : — إن الأمر صدر لنا صباح اليوم بهذا
الترتيب من مصر ، ولست إلا منفذاً ..

» فقال الرئيس : — نعلم أنك منفذ وأن الأمر صدر من السلطة
المختصة وأنا موضوع هذا الأمر . ولذلك فاني أبدى لك ملاحظتي لتبلغها
إلى السلطة التي أمرت ، فانا كنا أبلغنا أن السفر في ١١ مارس . ولذلك لم نأخذ
إستعداداتنا ، فالأمر بالسفر اليوم مفاجأة ، والسفر على بارجة حربية من شأنه
أن يتعبنى خصوصاً وإنني لا أرى موجباً للتفريق بيني وبين أصحابي ..

» فقال : — إنني سأبلغ طلبكم ، ولكنني أخشى ألا يكون من السفر

مقرر ..

فقال الرئيس بشجاعة تفوق الوصف :

— إن لم يكن بد من السفر فاني مستعد له من الآن ، سواء أكان إلى
سيشل أم إلى أسوأ منها ، ومتى يكون القيام ؟

قال : — سيكون الرفاص جاهزاً هنا في منتصف الساعة ١١ . وأما
البارجة فتسافر بعد الظهر

» قال الرئيس : — حسن

» أما نحن فقد بلغ التأثير منا مبلغه وقلنا « إن الرئيس كبير السن ضعيف
الصحة وبعيد عن حرمه ، ونحن جميعاً نخدمه ، وهو في حاجة لعنايتنا ، ولا
نفهم معنى لهذه المعاملة إلا إذا كان المراد تعذيبه تعذيباً أليماً »

» ومع اعتراضاتنا الشديدة المتكررة ، فإن الرجل لم يخرج عن الجواب
بوعده أن يبلغ عن رغبتنا جميعاً . ثم نهض الرئيس إلى غرفته ليرتدي ملابسه
بينما عبد الله يرتب العفش ويحزمه . وانصرف الماجور رايلي والكبتن استل
إلى الدور الأسفل ، وبقينا نحن في غليان ، ثم أجمعنا أمرنا نحن الخمسة على
أن نطلب ثانياً من الميجر رايلي بكل تحديد وإيضاح أن نسافر اليوم مع
الرئيس في البارجة . ولا عبارة بتوافر محال لنا فيها أو عدم توافرها ، بل
نقضى السفر على ظهر السفينة أو في الصالون أو في أية حجرة . . وفي الحال
استدعينا الماجور وأخبرناه بما قر عليه رأينا ، وأن ذلك مراعاة لصحة
الرئيس وخشية عليه من هذا السفر وحده ، فقد يقع عليه تأثير في صحته وهو
بعيد عنا وعن حرمه لدرجة لا تحمد عقباها ، ولا يمكننا أن نفهم ان الحكومة
الانجليزية ، وهي خصمه السياسي ، تقصد هذا السوء به ، وأعدنا له أن هذه
المعاملة لا تخرج عن كونها من نوع التعذيب ، فقال إنه سيبلغ ما طلبنا إلى
جهة الاختصاص ، ثم سأل :

وماذا يكون الحال إذا سمح بأن يرافقه البعض كواحد أو اثنين أو ثلاثة ؟
» فقلنا :

إذا صح السماح للبعض ، فلا معنى لعدم السماح للآخرين . ومع ذلك

فهذه رغبتنا ، فان لم يجب إلا بعضها ، نخير من عدم اجابتها كلها ، وليس لنا إلا الرضوخ للقوة

« وأفهمناه أننا على استعداد لمرافقة الرئيس في نفس الساعة المحددة له وهي عشرة ونصف صباحاً . فقال انه سيبلغ الأمر ، ويخبرنا بالنتيجة ، وانصرف

« وما أسرع ما وجدنا الرئيس بيننا مرتديا ملابسه ومستعدا للرحيل ، وهو ثابت الجأش قوى الجنان . . وحدثنا بثباته المدهش في هذه الظروف العصيبة فقال إنه مسافر إلى سيشل هادىء البال ، وأنه يظن أننا سنسافر إلى مصر فنقرىء عائلته واخواننا المصريين جميعا السلام ونوصيهم بالثبات ، وأنه معتقد بأنه سيلحق بنا قريبا ان شاء الله ، وأخذ هو يسلي حزننا ذلك الذى كان المفهوم أن يكون هو في حاجة لأن نسليه نحن ، ولكن هو الرجل العظيم وكفى . .

« انسحبنا بعيدا واتفقنا أن نحرر خطاب احتجاج على هذه المعاملة ، وهذا التعذيب . ونضمنه معنى ما قلناه شفهيأ للهاجور رايل ، ونسلمه للضابط قبل قيام الرئيس ، وفعلا أخذ مكرم في تحريره باللغة الانجليزية ، وبينما يحرره أحطنا الرئيس علماً بقصدنا ، فعارض فيه معارضة شديدة مسببا معارضته على أن هذا الاحتجاج ليس من حقنا ولا فائدة فيه وربما جلب علينا ضرراً . أما كونه ليس من حقنا فلأننا منفيون جميعا ولم نكن معه لخدمته ولا للعناية بصحته وأما كونه لا فائدة فيه فلأنه لا يترتب عليه تغيير القوم القرار الذى اتخذوه بازائه . وأما كونه ربما يجلب علينا ضرراً . فلأنه يعتقد عودتنا الى مصر ، فربما يعيق الاحتجاج عودتنا . ولم يقبل سماع صيغة الاحتجاج وشدد في منعنا عن هذا الاحتجاج الكتابي تشديداً بلغ حد الغضب وأفهمنا أن في احتجاجنا الشفهي الكفاية

« ولكننا خالفناه ولم نتبع مشورته ، لأننا اعتقدنا أن أساس معارضته

الاشفاق علينا ، ثم اقررنا الاحتجاج وأمضيناه وحفظناه لتسليمه للضابط
الذي يحضر لاخذ الرئيس ونصه :

« عدن في أول مارس سنة ١٩٢٢ »

« الى سعادة المقيم بعدن »

« سيدى . نحن أصحاب حضرة صاحب المعالي سعد زغلول باشا وكيل
الشعب المصرى وأنصاره الأمانة : نرجو أن تتكرموا بأن تبلغوا السلطات
المختصة أشد احتجاجنا على التصرف الأخير الذى أجرى ضد معاليه ، فاننا
نعتبر أن نقله بدوتنا وبغير امهال وبلا مراعاة لشيخوخته وضعف صحته
إنما هو - فضلا عن قسوته - عمل من أعمال التعذيب فى القرون الوسطى ،
ويظهر أن فهم النفى على هذه الصورة مقصور على حالتنا وحدها ، إذ لا يمكننا
أن نعقل لماذا نمنع من السفر معه فى سفينة واحدة كما طلبنا ذلك المرة بعد المرة .

« وعلى أى حال فليكن معلوماً علماً نهائياً أنه مهما اتخذ من الإجراءات
القاسية التى لا مبرر لها ، فان ذلك لا يضعف من ايمانه ولا من ايماننا بعدالة
قضيتنا - قضية مصر المستقلة . وتفضلوا بقبول فائق احتراماتنا

« سينوت حنا . مصطفى النحاس . مكرم عبيد . عاطف بركات . فتح الله

بركات »

« ثم بقينا منتظرين حضور الضابط ، وأخذ الرئيس يلاطفنا ويهون
علينا بما أسأل عبراتنا وأدى أفئدتنا ، فقد ظهر بمظهره الحقيقى : مظهر
العظمة والجلال ، مظهر الشجاعة القوية الهادئة التى يعرفها عنه اخوانه فى
ساعات الخطر ، كنا باكين وهو مطمئن ، جزعين وهو ثابت ، محتجين
وهو قانع . وما أروع تلك الكلمات الحكيمة التى أظهرت لنا قلب سعد فى
أجل مظاهره .

« حقاً أن الشجاع الحقيقى هو الذى يحذر الخطر قبل وقوعه . فاذا

ما وقع لا يخشاه بل يمتحمه مرفوع الرأس ثابت الجنان قوى الايمان وهكذا
كان سعد .

فقد اعتقد كما اعتقدنا — أنه قد اختص بالنفي إلى سيشل ، وأنه
سيحرم من مرافقتنا التي كانت أكبر سلوى له . وان بقاءه وحيداً في سيشل
سيؤلمه في أقدس مشاعره وأقربها إلى قلبه ، فان زوجته أن بقيت بعيداً عنه
وهي عالمة بوحدته ووحشته كان في ذلك جزع لقلبها ، وان أتت إليه وراففته
في مصيبتة كان في ذلك جرح لقلبه ، كل ذلك كان يحول بخاطره وبخاطرنا ،
ولكنه كعادته ضحى براحته الشخصية فكان يوصينا ويكرر علينا الوصية أن
نهتم بتطمين زوجته وتعزيتها حتى لا تأتي إليه وتتحمل آلام المنفى في تلك
البلاد القصية الموحشة ، ثم انتقل إلى حالنا وطيب خاطرنا قائلاً إن غيابه قد
لا يطول ، وأن مصر ستنتفع على أي حال من مجهوداتنا نحن في أثناء غيابه ،
وان وصيته الوحيدة لنا أن نقول لمصر : « اثبتى واثبتى ، ولا تكلى من
الثبات ... » وأن ايمانه في استقلال مصر لم يتزعزع ، بل على العكس من
ذلك ، فقد زاده ذلك التصرف الأخير ايماناً بأن مصر ستحصل على
استقلالها ان لم يكن عاجلاً فآجلاً ، ثم أخذ في تطمين كل منا على حدة باسماء
ضاحكا شفوفاً رموفاً ، فكنا نرد عليه بأصوات متهدجة ، فاذا تحتم البكاء
تركناه لننفرد بأحزاننا وينفرد الحزن بنا

« وليس في امكاننا أن نذكر أو نصف ذلك الموقف الذي ودع الرئيس
أنصاره ، والقائد جنوده ، والولد أولاده من منفاه إلى منفى أشقى وأبعد ،
فالوصف يقصر عن تصوير ما كنا فيه ، وما كان في نفوسنا ، ولم نجد حيلة
إلا البكاء للتفريج عن وطنيتنا المجروحة ، وصدقتنا التي انتهكوا حرمتها . أما
سعد ، فكان فصيحاً نثراً ونظماً ، لفظاً وقلباً — بارك الله فيه وفي حياته
وقوة جنانه وإيمانه

« وقبل حلول الميعاد أحضرنا إليه نقوداً دفعاً للحاجة في أثناء نفيه (مبلغ

ماتى جنيه) . وفي الساعة العاشرة والنصف حضر الضابط استل ومعه الشيالون
فقلوا الصناديق ، ونزلنا مع الرئيس بعد الاستئذان والتصريح لنا إلى مرسى
الرفاص البخارى بعد أن سلمنا الاحتجاج إلى الضابط استل ، وكان الرئيس
في الطريق لا ينفك عن تعزيتنا وتسليتنا وتوصيتنا بمصر وأهلها ، وقال :
— لا تأسوا ولا تهنوا :

فقد يجمع الله الشئتين بعد ما يظنان كل الظن ألا تلاقيا
« ثم اقتربنا إلى الرفاص وجاءت ساعة الوداع المشئومة ، فاستودعنا الله
مقبلين يده باكين ، وكان هو يقبل كلا منا في خده مكرراً كلمات الوداع
والتشجيع . واستقل الرفاص ، وكانت آخر كلماته :

« لتحي مصر ! »

« فرددنا صدى ذلك النداء المقدس . . ودعونا له ولها بالحياة قائلين :

« ليحي سعد ! لتحي مصر ! لتحي التضحية »

وكان وداعاً حاراً ممزوجاً بدموعنا الحارة

« ثم سار المركب يقبل الرئيس ومعه خادمه (عبده) الذى ودعناه وداع
الزميل ، وصاحفناه مصافحة الصديق ، وكان يلوح لنا بمنديله ونحن نفعل كذلك
إلى أن غاب عن أنظارنا ولم يغب عن قلوبنا ، ورجعنا كاسفين حزاني دون
أن ينبس أحد منا بئنت شفة . وبقينا فى هم وجزع طول اليوم نذكر الرئيس
فى كل مجال طالبين له السعادة والحياة ، وفى حياته حياة مصر وأبنائها ، فليحي
سعد ، ولتحي مصر ... »

« وفى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر جاءنا الضابط « النابتشى » وأخبرنا
أن الكبتن استل قد كلمه بالتلفون ليخبرنا أن الرئيس قد وصل إلى المركب
بخير ، ولقى فيه ضابطين كانا قابلاه فى السويس ، وان الماجور رايل قد بلغ
رغباتنا إلى مصر بالتلغراف

« وعند الساعة السادسة حضر استل مظهر الأسف ، وطمأننا على صحة الرئيس وأبلغنا سلامه ، وإنه لم يكن مهتماً بأمر نفسه كاهتمامه بمصيرنا ، وسأله عنا ، فأكد له أننا سنالحق به في سيشل ، ثم قال إن طلبنا بمرافقته قد أرسل بالتلغراف المستعجل بعد أن فتحت له خطوط التلغراف ، وإن البارجة لن تبارح عدن حتى يصل الرد ، وزاد على ذلك أنه إن بقيت البارجة للصباح فسيستأذن لنا في مقابلة الرئيس ، ويفيدنا تليفونيا حول الساعة السادسة صباحاً ، ثم قال : إنه دفع إلى الرئيس مبلغ ٩٥ جنياً كانت قد وردت من مصر لدفع أثمان بعض المشتريات . ولما سألناه عما إذا كان الرئيس سيسافر حقيقة إلى سيشل ، وعن سبب فصله عنا بتأكيده سفره إلى سيشل ، وإنه شخصياً يرى أن سبب فصله عمل سياسي ، فسرنا هذا التأكيده الذي من شأنه أن يجمعنا به في منفاه فلا نعود قبله إلى مصر ، ثم انتظرنا إلى ظهر اليوم التالي ولم يصلنا أى خبر من استل فاعتقدنا أن البارجة سافرت ، فانه قال إن ميعاد سفرها في الساعة الرابعة بعد نصف الليل ، وإن طلبنا لم يجب

« بذات قضت الأيام ما بين أهلها فآونة قرب وآونة بعد »

انتهى ما كتبه فتح الله باشا في مذكراته

وقد وصف سعد منفاه بجزيرة سيشل في خطاب كتبه من جبل طارق في الخامس من سبتمبر إلى الدكتور حامد محمود بالعاصمة الانجليزية . وهو من الوثائق التاريخية التي نثبها هنا لأنها تغني ما لا تغنيه وثيقة أخرى في وصف تلك الجزائر ووصف عودته منها إلى جبل طارق . قال بعد دياجة وجيزة :

« هي جزيرة ملتوية صاعدة نازلة ، ومساكنها ضيقة خالية من الترتيب والنظام وأسباب الراحة ومفروشاتها غير وثيرة خصوصاً الأسرة ولوازمها ، ما كولاتها محدودة فالغنم لا وجود لها والبقر نادر ، ولكن الفراخ كثيرة ،

وأكثر منها السمك . ولكن أغلب أنواعه غير جيد . أما الفواكه فقليلة ،
وأقل منها الخضروات التي مع قليها لا طعم لها في الغالب
« ليس بسيشلز سوق للبا كولات وإنما تباع مفرقة على يد أفراد يطوفون
بها من حين لآخر ، وأغلب ما يحتاج إليه الانسان من الأقمشة والأغطية غير
موجود وإنما يجلب اليها من الخسارح بحسب الطلب تقريبا ، ولا وجود
لأكثر الصناعات بها فلا تجد فيها مثلا دكانا للنظارات ولللساعات ولا حدادا
ولا خياطا . وليس بجزائر سيشلز كلها الا طيب واحد حامل لشهادة قانونية
وأصله جراح ولكنه يتعاطى الطب الباطني ايضا يساعده اثنان لاشهادة
عندهما فيما يتعلق . وليس بهما أطباء للعيون أصلا وكل من ابتلى بمرض فيها
لزمه أن يرحل عنها للاستشفاء خارجا منها أن كان غنيا ، والا فأمره الى الله
كما أنه ليس بها اختصاصي في طب الأسنان بل فيها موظف في البوستة أضيف
اليه أخيرا وظيفة قاضي صالح يتعاطى معالجة الأسنان لاعتن علم بل « بالعافية »
« احتاج الأستاذ مكرم لحشو سنة من أسنانه فشاها له بالاسمنت ولم تلبث
قليلًا حتى سقط حشوها ، وانكسرت سنة في طقم أسنان عاطف بك فضع
له أخرى ولكنها سقطت بعد قليل ، وحاول أن يصنع لهذا البيك طقم أسنان
آخر فتعذر الأمر عليه وتركته مرتبكا فيه

« فتح الله باشا بركات مصاب بمرض في اللثة يشتد به أحيانا حتى يمنع
عن الأكل وكل من بحثه من الأطباء قبل سيشل رأى خلع أسنانه لخطر بقائها
ولكنه لم يمكنه بعد تلك الأمثلة أن يعرض نفسه على ذلك المتطرب ليخلعها
له ويبدلها بغيرها وتركته وهو في أشد أحوال الألم

« لا بد أن تكون علمت بما أصاب الأستاذ مكرم في عدن من حمى
الملاريا . . . هذه الحمى اضعفته كثيرا وولدت عنده ضعفا في القلب والامعاء .
فكثيرا ماتت نوبة اسهال وخفقان ودوخة ويعالجه رئيس الأطباء ،
ولكني تركته بدون أن تظهر نتيجة لهذه المعالجة

« بعيون مصطفي بك النحاس حجب يحتاج للمس ولا من يعرف في سيشل
طريقة المس فاكتفى بأن يمسه له الطبيب الجراح

« بسينوت بك حنا ضعف في الامعاء والمعدة فالشبهة عنده ضعيفة في أغلب
الأحيان ويعتريه كثيرا الاسهال والامساك ويعالجه ذلك الطبيب بدون
فائدة طاهرة لغاية سفرى

« ليس بسيشلز صيدلى قانونى ولكن الطبيب الأول هو الذى يباشر
في الأغلب تحضير الأدوية ، وبعض ما هو ضرورى منها كالاسبرين لا يوجد
إلا نادراً

« لما اشتد الحال بنا من الجوع ورداءته وعدم توفر اللوازم الطبية والأطباء
واعتلت صحتى خصوصاً كبر الامر على اخوانى فكتبوا من غير اشتراكى خطابا
شرحوا فيه سوء حالتنا وطلبوا نقلنا الى جهة أخرى تتوفر فيها اللوازم الصحية
ولا تكون حياتنا معرضة فيها للخطر كما طلبوا أن يبلغ طلبهم بالتلغراف الى
جهة الاختصاص . وكان ذلك فى ٩ يونيو . فكتب الحاكم اليهم جوابا بأنه
سيبلغ ذلك الى مصر ولندن

« وكتبوا اليك تلغرافا بهذا المضمون ولكن الحاكم لم يسمح بارساله
اذ المراسلات فى سيشلز لم تكن حرة بل تحت المراقبة . فالجوابات والتلغرافات
التي تصدر منا يجب تسليمها لشخص معين وهو يتصرف فيها تحت اشراف
الحاكم بما يراه من حرج أو تعديل أو إرسال ، والتي ترد الينا لا تسلم إلا
بهذه الطريقة . ولهذا كانت التلغرافات التي تصل باسمنا لا تسلم الينا الا بعد
زمان من يوم أو يومين فصاعدا ، ولا أذكر أن تلغرافات سلم الينا يوم وصوله
إلا مرة أو مرتين بالأكثر . وكثير من الجوابات التي تصدر منا لم تكن تصل
إلى جهاتها وأكثر العوائق كانت فيما يختص بالمراسلات التي تشتمل على الكلام
فى الجو والصحة والنقود . وقد بلغ من أمرهم أن كتب الحاكم الينا نهبانا
عن الطعن فى الجو ويشير إلى أنه يرسل من أخبار الصحة ما يراه موافقاً

« تطبيقاً لهذا رفض أن يرسل تلغرافاً أعدناه جواباً لسؤالهم عن صحتنا
ورغب أن نعدل فيه بعض النقط فلم نقبل لمخالفة التعديل المطلوب للحقيقة
ثم حررنا صورة أخرى وأرسلناها إليه وقيل لنا بعد ذلك إن إحدى الصورتين
أرسلت ولكن لا ندرى إلى الآله ما هي هذه الصورة

« تخصص لكل واحد من إخواني في الشهر « ثلاثين » جنيهاً تقريباً ولى
خمسون . فلاحظت قلة ذلك بالنسبة لما يناسب حالتنا فأكدوا لي المرة بعد
المرة أنهم يصرفون لي من مالي كل مبلغ طلبته زيادة عن هذا المخصص .
ولكني لما احتجت إلى مبلغ « مائتين » جنيهاً أبوا أن يصرفوا منه إلا خمسين
متعللين بأن مصر لم ترسل لهم نقوداً . وبعد شهرين سمحوا أن يصرفوا لي
مبلغ مائة جنيهاً

« وصلت سيشلان في ٩ مارس وما وجدت مسكناً معداً لاقامتنا فأنزلوني
بجزيرة تدعى جزيرة لونج بعيدة عن العاصمة ، وأخبروني بأن المسكن الذي
أعد لي به بعض تصليحات تنتهي بعد قليل ، فطلبت أن أراه وأرى المفروشات
التي أعدت لي فلم يسمحوا لي إلا بعد بضعة أيام . أخيراً سمحوا لي بزيارته
فوجدته يبعد عن المدينة خمسة أميال تقريباً ولا يمكن أن ينتهي تصليحه قبل
شهر من الزمان إذا بذلت عناية كبرى ، وهو مع ذلك ضيق وغرفة صغيرة
ولا يسع اثنين يسكنان فيه إلا بكل ضيق . فلاحظت ذلك لمن تعين لمصاحبتى
وأخبرته بعدم إمكان السكن فيه خصوصاً لشدة حاجتنا إلى الأطباء الذين
يسكنون بالبعد عنه بعدة أميال وليس هناك عربات ولا أوتوموبيلات ،
وأضفت إلى ذلك أنه إذا كانت الحكومة ارتبطت لمالك هذا المنزل بشيء
فإننا مستعدون لتعويضه . ورجبت من ذلك الشخص أن يعرض هذه
الملحوظات على الحاكم فعرضها عليه فطلب مقابلي وانتهى الحال بالعدول
عن هذا المنزل وسكنانا في منزلين آخرين بالمدينة . ولكنهم لم يسمحوا
لي برؤية المفروشات إلا في يوم ١٨ مارس فرأيت كلها قديماً وأغلبها بال

وكثير منها لا نفع فيه . فاخبرونا بأن هذا كل ما أمكن الحصول عليه في
سيشل كما أخبرونا بأن الحكومة خصصت مبلغاً للتأثيث ولكنهم لم يعرفونا
إلى الآن بمقدار هذا المبلغ . ومن عهد العدول عن المنزل الأول لم يذكروا
لنا عنه شيئاً لا فيما يختص بإيجاره ولا بمدة إيجاره ولا مقدار أجرته ولا غير
ذلك مما يتعلق به . بل تناسوه الى ما قبل حضوري بقليل حيث طلبوا منا أجرته
مدة خمسة أشهر وخصموها فعلاً من مرتباتنا يوم سفرى

« وبالجملة كانت المعاملة في سيشلز غير مناسبة ، ومع اضافتها لحالة الجو
لا يستغرب أن يترتب عليها ضعف الصحة

« ولقد كنا ننتظر من المساعى الجليلة التى بذلت في مصر وفي لندن بقصد
تغيير هذه الحالة نقلنا جميعاً إلى جهة أوفق بالصحة ، ولكن خاب انتظارنا
بالنسبة لبقية إخوانى ، إذ ورد على في يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٢ خطاب
من الحاكم العام بسيشلز يخبرنى فيه بأنه تقرر نقلى لجهة أخرى على سفينة
حرية تصل غداً فيلزمنى الاستعداد للسفر الذى ستكون مدته حوالى ثلاثة
أسابيع وأن يكون معى خادمى . وأن هذا النقل نظراً لصحتى . فطلب إخوانى
أن يصحبونى كلهم أو بعضهم نظراً لمرضى واحتياجى لعنايتهم فلم يجب طلبهم
إلا بالرفض وتصرح فقط للطباخ بالسفر معى وأبوا أن يعرفونى بالجهة التى
تقرر نقلى إليها زاعمين أنهم غير عاملين بها

« قبل يوم ١٧ أغسطس المذكور بثلاثة أو أربعة أيام تقرر وضع جميع
المراسلات الخاصة بسيشلز تحت المراقبة ، وذاعت الاشاعة بأن ذلك بسببنا
ولكننا لم نكن نصدق ذلك حتى تأكدناه من بعض الأفواه الرسمية ، واستنتجنا
منه أن الغرض من هذه المراقبة منع وصول خبر نقلنا إلى مصر ، وأن النقل
هو إلى جهة بعد قنال السويس . ولم ينقلونا للسفينة الحربية إلا ليلا الساعة
٩ من مساء يوم ١٨ أغسطس ، ولم يؤذن لأحد من إخوانى بمصاحبتى إليها .
وكانت أمتعتى سبق إرسالها ولم يسلموها للسفينة إلا بعد تفتيشها ، كما فتشوا

خادمي الذي كان معنا تفتيشاً دقيقاً . ولما وصلت إلى السفينة استقبلني
كومندانها على السلم استقبالا حسناً وسألني عما إذا كان معي خطابات فأجبت
بالنفي طبعاً . وقدم الى ضابطاً يصحبني الى القمرة التي أعدت لي فوصلها ووجدتها
لا بأس بها وإن لم تكن من أحسن قمرات السفينة

« وهناك فتشني هذا الضابط وسلمني ورقة بها تعليمات تتضمن اني لا أجلس
إلا في قمرتي أو في المحل الخاص الذي عين على ظهر السفينة الأعلى لجلوسى
به وأن ألزم القمرة عند مسيس الحاجة ، وألا آكل إلا في أحد هذين المكانين
وأن آخذ الحمام ما بين الساعة السادسة والسادسة والنصف ، وأن صف ضابط
تعين لخدمتي وأمر بعدم مفارقتي وألا أرسله بعيداً عني ، كما تعين واحد يلاحظ
الأكل ، وألا اتصل بأى واحد من السفينة غير من تعين لملاحظتي ، وألا
أستعمل أداة للكتابة إلا باذن الكومندان وأن أسلمه كل شيء أكتبه وأن
أبلغ إليه طلباتي بواسطة الضابط المعين ، وأنه يمكن تعديل هذه التعليمات بعد
مضى القسم الأول من السفر

« تسلمت إلى هذه التعليمات مكتوبة وطلب مني امضاؤها فكتبت بالعربية
عليها اني علمت مضمونها وأمضيت ما كتبت . أما هذه التعليمات فقد تنفذت
بكل دقة . وما كان الحارس الذي كان يتغير في كل حصه من الزمن يفارقتي
لحظة حتى عند قضاء الحاجة ويمضى الليل كله ساهراً يباب القمرة

« بعد يومين من سفرنا سألت القمندان عن جهة قصدنا قال أخبرك بها
بعد مفارقة عدن . فارقناها وسألته فقال بعد مفارقة مصر ، وكان يتلطف
معي في كثير من الأحيان ويخبرني أنه يبذل كل جهده في راحتي . أما الحكيم
ورتبته كما قيل لي في السفينة مساوية لرتبة القمندان ، فكان يزورني صبيحة
كل يوم ويحتهد في ارضائي ، وحلل البول مرتين عقب القيام من سيشل مرة
ومرة قبل الوصول إلى هنا . وقبل الوصول إلى السويس بيوم خفضت
السفينة من سيرها فنقص من ١٤ عقدة في الساعة إلى احدى عشرة . وكان

الكل في السفينة رديئاً وكله من المحفوظ ولا وجود للخضارات فيها فتكلمت في هذا الشأن مع القمندان فارسى بالتلغراف اللاسلكى الى السويس لمقابلتنا باللازم منها . ولما صرنا من هذه المدينة على بعد ساعة قابلتنا مدمرة حربية حاملة لجانب عظيم من هذه الأشياء ، ثم سارت السفينة فوصلت الى القنال في الساعة ٥ ونصف تقريباً مساء . وقبيل الوصول أمرت بملازمة القمرة بعد أن قفلت نوافذها زجاجاً وحديداً ، ووضع الحرس على اتباعى ومنعوا من الحركة في السفينة . ومرت هذه في القنال بسرعة بلغت في كثير من الأماكن عشرين عقدة في الساعة حتى لم تستغرق في اجتيازه إلا ثمانى ساعات تقريباً . ولم تقف الباخرة لا على السويس ولا على بورسعيد

» بعد اجتيازه في الساعة الحادية عشر ، أخبرنى القمندان بانى منقول إلى هنا ولم يعدل من تلك التعليمات شيئاً ولكنه سمح لى بأن أجلس على ظهر السفينة الأدنى الذى كان يجلس الضباط فيه أغلب الأوقات

» لما رست السفينة هنا صبيحة يوم الأحد ٣ الجارى استقبلنى بها كل من سكرتير الحاكم العام والحكيم ورئيس أركان حرب وبلغونى سلام الحاكم » انفرد الأول بى فبلغنى أنهم أعدوا منزلاً لسكنائى ويتعشم أن أجده موافقاً لى وانهم أعدوا كل ما يلزم لضياقتى وإنى أعتبر نفسى ضيفاً لا سجيناً . وكانوا قد أعدوا اتوموبيلين لى وللاتباع . وعند ما نزلت من السفينة ودعنى القمندان والحكيم وبقية الضباط فى مدخل السلم وداعاً حسناً ، وركبت الاتوموبيل وعلى يسارى السكرتير وأمامنا رئيس أركان حرب ، وسرنا الى المنزل فوجدته فى وسط الحارة الانجليزية وهو منزل واسع وغرفته كبيرة وبه حديقة ويظهر انه كان مهجوراً من مدة ثم أعدوه أخيراً . وكانت رائحة البوية تتطاير منه

» ورأيت فيه رئيس البوليس الذى شرع فى الحال أن يسلمنى القرار المرفق بهذا . فأخذنى السكرتير ووضعنى الى جانبه وقال إن هذا أمر شكلى

لا أهمية له وأنت حرقى هذه الجهة ولك أن تتحرك كيف تشاء وتذهب حيث تريد ما دمت لا تخرج عن الأرض الإنجليزية . وبعد يومين أخبرنى السكرتير بأن المنزل وأنواره وحديقته على مصاريف الحكومة والباقى على مصاريفك وأنه ترتب لى فى الشهر خمسون جنيهها فاستقلت هذا المبلغ الذى كان مرتبا مثله لى فى سيشل لأن العيشة هنا أغلا منها هناك بكثير جدا وكنا ستة أشخاص فى معيشة واحدة . وكان مع ذلك مأذونا لى فى أن أصرف ما يلزمنى زيادة عن ذلك المرتب من أموالى . ففهمت منه أن هذا المبلغ تقدر لى باعتبار كونه أكثر مما كان مرتبا فى سيشل فافهمته أنه اذا كان مأذونا لى باستجلاب نقود من مصر فانى لا أطلب زيادة المرتب المذكور . فصرح بآنى حرقى استجلاب ما أريد من أموالى من غير أن تعارض حكومة هنا فى أى مبلغ يرد منها

« يزورنى كل يوم طبيب من الحكومة ويصرف وقتا ليس بقليل فى الاستفهام عن الأحوال الصحية والوقوف على حقيقتها ووجدت فيه رجلا مهذبا وديعا هشا ذا خبرة فيما يظهر لمثلى . وقد حلل البول مرتين فكانت النتيجة فى الأولى ٩ جرام فى الألف والأخرى ١٢ جرام فى الألف ولكنها لم تكن من محصول ٢٤ ساعة كالأولى بل محصول مرة واحدة . وستحلل غدا وفى كل أسبوع . وظهر فى التحليل أثر خفيف للزلال ولكن هذا ليس حديثا إذ كان يوجد شىء منه فى مصر . وقد كنت أتناول على الأكل بيرة استوت فاستحسن استبدالها بقليل من الوسكى واستحضر من لندن عيشا ودقيقا لأن أتناول منه وسأبدأ فى التعاطى من الليلة

« أشعر الآن بشىء من القوة واعتدال الصحة وجودة الشهية وأخذت أنام أحسن من ذى قبل

« المراسلات حرة والتلغرافات ترد الى وتصدر عنى فى أوقاتها ولا يستغرق الصادر منها والوارد الا مسافة الطريق . وأيد هذه الحرية عندى وصول خطابى اليك

« أنا حر في الذهب والمجىء على الأرض الانجليزية ولكن على باب المنزل حرس من البوليس السرى ليلا ونهاراً يتبعنى من بعيد حيثما سرت
« كنت أحسب أن زيارتى غير ممنوعة ولكنى قرأت في الجرائد اليوم أن الجنرال اللبى نشر في مصر ما يفيد منعها إلا باذن من الحكومة الانجليزية لا تعطيه إلا فى أحوال استثنائية، ومن هنا فهمت مقدار الصعوبات التى تلاقونها فى سبيل الحصول على هذا الاذن، وإذا لم توفق للحصول عليه مع توفر هذه الأحوال الاستثنائية بالنسبة لمرضى ولكونكم من الحكماء الذين سبقت لهم معالجتى فلا أمل فى أن يحصل عليه غيركم . وانى أستقبل هذه الشدائد بكل صبر واثقاً بالله فى حسن العاقبة . أرجوكم كلما وقفتم على شىء فى الجرائد الانجليزية يختص بى أو بمصر أن ترسلوا قطعة الى
« وفى الختام اشكركم على جميل مساعيكم العامة والخاصة وارجوكم أن تبلغوا فائق تحياتى الى جميع اخوانكم المصريين . »

كذلك أجمل سعد أحوال المعيشة التى لقيها فى منفاه بجزائر سيشل اجمالاً يعنى عن المزيد . ولم يتجاوز أن ترك الوقائع تتكلم فى غير هوى ولا مرارة كما يتكلم العالم المحقق الذى يراقب الأمور للدرس والتدوين ولا تعنيه منها شكاية أو نكايه . والى جانب هذه الأحوال أمور شتى لم يعرض لها فى خطابه لانها لا تنتظم فى موضوع هذا الخطاب ، ونحن مشيرون اليها بالايجاز على مقدار ما يقتضيه المقام

نزل سعد وأصحابه فى قلعة عدن فلم يلبسوا قليلاً حتى جاءهم رسول من مصر هو موظف سورى كبير كان يعمل فى دار الحماية فاستأذن فى لقاء سعد على انفراد وخرج معه فى مركبة للرياضة ، وافتتح معه حديثاً وجيزاً عن المفاوضات والحلول المعروضة ثم فاجأه بكلمة مقتضبة لا علاقة لها بحديثه السابق قائلاً : « ستكون ملكاً على مصر . . . » فدهش سعد لهذه المفاجأة

وأجابه في حدة واستغراب : ما لنا ولهذا ؟ وما شأنى أنا والمملك ولست إلا واحداً من الرعايا ؟ فعاد الرجل الى الكلمة يكررها وأضاف اليها : « أنك زعيم الأمة الذى لا ترتضى سواه ، ولو قبلت ما يعرضه الانكليز عليك وعلى الامة لما خالفك أحد . فاختصر سعد هذه المحادثة وقال للرجل : « اننى افضل أن أكون فرداً من الافراد فى أمة مستقلة على أن أكون ملكاً لبلاد مستعبدة فى ظل حماية أجنبية » . . . ولزم الصمت فى عودته الى القلعة بعد أن قال له على ما أذكر : « اننى احسب اننى لم أسمع شيئاً مما تقول ، ولا أود أن اسمعه مرة أخرى منك أو من سواك »

هذه حادثة محققة لاشك فيها برواية سعد نفسه . اما قصد السياسة الانجليزية منها فلا ندرية على التحقيق . فقد تكون المسألة جداً وقد تكون احدى المناورات ، ولم نسمع من سعد ما يدل على رأيه فى ترجيح أحد الوجهين

وقد لبث سعد وأصحابه فى عدن الى أن تم الاتفاق على مشروع ٢٨ فبراير الذى سياتى الكلام عنه فى الفصل التالى . ثم صدر الأمر بنقله الى جزائر سيشل ، ثم كان الاحتجاج الذى أسفر عن الاذن بسفر واحد من رفاقه معه وهو الاستاذ مكرم عبيد لانه أصغرهم سناً ويعرف اللغة الانكليزية . قال سعد فى وصف الرحلة من عدن الى سيشل من خطبة له بعد رجوعه الى مصر : « جاءوا فى الساعة التاسعة وكنا فى قلعة عدن مسجونين وقالوا : يجب أن تنزل فى الساعة العاشرة والنصف فى مركب حربى تنتظر كليتوجه بك الى سيشل وأمامك نصف ساعة تحزم متاعك فيها وتركونى وتوليننا حزم متاعنا فى هذا الوقت القصير . ونزلنا فى مركب حربى حمولته ٩٠٠ طن كزورق ولكننا لم نساfer فى هذا اليوم الاربعاء بل مكثنا فيه الأربعة والخميس وسافرنا يوم الجمعة مساء

« انزلنا فى يوم الاربعاء لكى نساfer الى سيشل ، ولكننا لم نساfer إلا يوم الجمعة لاجل ان يقال أن زغولاً نزل فى البحر وهو فى طريقه الى سيشل .

فعلوا ذلك في اليوم الذي اعلنوا فيه تصريح ٢٨ فبراير وان مصر استقلت
والغيت الحماية التي ضربت عليها

« » أخذونا في ذلك اليوم وقد كان في المقرر ان نساfer جميعا
بعد خمسة اوسمة أيام ولكنهم ما انتظروا بنا حتى يأتي هذا اليوم ، وما انتظروا
بل عجلوا بسفري مع مكرم ومع خادمي وسرنا في هذه السفينة مسافة ستة
أيام كدت أشرف فيها على الهلاك

« أخيرا وصلنا إلى جزيرة سيشل ولا أحدثك عن حرارتها ورطوبتها
وبعدها وكانوا يشددون علينا تشديداً كبيراً الى حد أنهم حرموا
علينا أن نتكلم في الصحة وان نكتب في الهواء وحجروا علينا هذا فكان لا ينبغي
لنا ان نقول بان صحتنا غير جيدة ولا يصح لنا أن نقول ان هواء سيشل غير
مناسب ، لأنه معتبر ان هذا التكلم في الصحة ضد النظام !! »

ولا حاجة الى الخيال الواسع في ادراك الحالة التي يكون عليها شيخ
مصاب بالربو في جزيرة معرضة للحرارة والرطوبة ومختلف التيارات الهوائية
في وقت واحد . فقد كان هذا الجو يثقل عليه حتى يصاب بالاختناق في بعض
الأيام ويعجز عن الكلام الا بالايماء وسامت حاله وهو كما تقدم ممنوع من
الاشارة الى هذا الوصب الذي يعانيه

واحتال سعد على علاج الوقت وازجاء الفراغ بتعلم اللغة الإنجليزية
على الأستاذين مكرم عبيد وعاطف بركات ، فكان يقضى في اليوم ساعات في
القراءة والدراسة واستظهار الكلمات : يستيقظ نحو السادسة فيرتدى
ثيابه ويجلس في شرفة الدار لبدأ القراءة في الصباح الباكر الى ان يوافيه أحد
الأستاذين فيقرأ عليه ما يحتاج الى مدارسة ومساعدة ، وقد يواصل الدرس
وهو في فراشه بعد الغداء وقبل الرقاد في المساء ، وكان قليل الخروج من الدار
لأنه كان يكره النظر الى الحراس ويلقى كثيراً من التعب في الصعود والنزول ،
ولا يألّف الرياضة هناك إلا على شاطئ البحر حيث يروق الجو ويطيب

الهواء . وقد يلعب « السبيجة » باصداف البحر مع بعض زملاء على رمال الشاطئ . البيضاء ، وهي اللعبة الريفية التي يحدقها الفلاحون ويشعر زعيم مصر وهو يلعبها انه فلاح ابن فلاح قبل كل شيء ، وكان أحب القراءات اليه بعد دراسة اللغة الانجليزية قصاد البارودي التي قالها في منفاه : يقرأها ويرتلها على سبيل التأسي أو الأعجاب ، ويستطرد من ذكرها أحياناً إلى ذكريات الثورة العراقية وأحاديث زعمائها في الأدب والسياسة ، ومنهم البارودي ومحمد عبده وعبدالله النديم ، ويمزج أحاديثه في تاريخ هذه الثورة ببعض الفكاهات والأغاليط التي كان أناس من زعماء الثورة يقعون فيها عن جهل أو اضطرار ولما برح سيشل اتفقوا على طريقة للتفاهم يتحللون بها قليلاً من قيود الرقابة ، وهي اتخاذ « صفر » من الأسماء التي ترد في الرسائل البرقية حسب المعهود في كل واحد من أصحابها . فاذا أرسلت بتوقيع « سينوت حنا » فعنها إنهم في حاجة إلى النقود لاشتغال سينوت بك بالمسائل المالية ، وإذا أرسلت بعنوان « مصطفى النحاس » فعنها إن الحماسة في مصر شديدة لاستحساس مزاجه ، وإذا كانت بعنوان مكرم عبيد « فعنها إن الدعاية في إنجلترا ناشطة لأنه قام بهذه الدعاية قبل ذلك ، وإذا كانت بتوقيع زغلول فالأخبار عادية أو بتوقيع « سعد » فذلك بشير الافراج

تصريح ٢٨ فبراير

أرسل المركز كرزون في الثالث والعشرين من ديسمبر البرقية الآتية إلى الفيكونت اللنبي كما جاء نص ترجمتها في الكتاب الأبيض : —

« ليس ثمة اعتراض من جانب وزارة المستعمرات على إبعادك زغولاً وأنصاره إلى سيلان في أول فرصة كما اقترحت في تلغرافك المؤرخ في ٢٣ ديسمبر . والتعليمات مرسلة إلى حاكم سيلان طبقاً لذلك . ولكن إذا ظهر أنه من غير المرغوب فيه حجزهم هناك لاعتبارات محلية ، فإن في الوسع ارسالهم إلى سيشل . ومعلوم لدينا أن الاستعداد اللازم لهم يمكن توفيره في سيشل . وينبغي الابراق إلى حاكم سيلان مباشرة بالتفاصيل الوافية عن تاريخ الابحار من السويس وعن تأليف القوم المبعدين »

فاستطير الفيكونت اللنبي فرحاً بهذه الموافقة كما بدا من برقيته التي بادر بارسالها ليشكر المركز كرزون كثيراً وانتظر ابعاد زغول وأصحابه إلى سيلان ليوقع اليأس في قلوبهم وقلوب المصريين من كل مستقبل مرجو لهؤلاء القوم المبعدين في عالم السياسة المصرية . ولأمر ما — لا يعنيننا بحثه هنا — تغير المنفى واستبدلت جزائر سيشل بجزيرة سيلان ، ولبت سعد وأصحابه في انتظار النقل إلى المكان المقدر ، حتى أعلن تصريح ٢٨ فبراير في مصر فكان يوم إعلانه — إعلان الاستقلال ! — هو يوم انتقال « القوم المبعدين » من عدن إلى منفاهم السحيق

ولولا الحرص الشديد على الانتقام من سعد والتشفي منه ومن أنصاره لكان التمهيد بنفيهم لتأسيس النظام الجديد من أعجب ما يخطر على العقول ، لكان رجاء النجاح بعد ذلك التمهيد من أغرب الأحلام التي يحلم بها الساسة العمليون ، وهي أغرب من محترعات الخيال

فان النفي ليصلح عنواناً لكل شيء إلا أن يكون عنواناً للحرية والاستقلال
ودليلاً على أن البلاد قد ظفرت بحكم نفسها وتحقيق مشيئتها ، وإن بلداً
يضيق بزعمائه في يوم إعلان حرّيته واستقلاله لأعجوبة من أعاجيب النقائض
والأضداد . وما كان بدعاً من المصريين أن يتشاءموا بتصريح يمهّد له ذلك
التمهيد ، ولا أن يسمعوا في يوم واحد بنفي سعد إلى سيشل وباستقلالهم هم
في وطنهم بما يرومون ومن يرومون فلا يستطيعون التوفيق بين الأمرين
ولا يحدون بدأً من الشك في إحدى الروايتين . وإنما البدع أن تؤكد لهم
النفي والاستقلال في وقت واحد وأن لا تتركهم ينسون نبأ النفي في ذلك اليوم
خاصة ثم تطمع منهم في اعتقاد غير ما اعتقدوه ويقين غير ما يقنوه ، وتريدهم
على أن يستبشروا بالتصريح وبالعهد الذي يليه

ولو كان التصريح استقلالاً حقاً لما عيب على المصريين أن يتشاءموا به
ويوجسوا منه ويعرضوا عنه وعن دعاة ومروجيه ، لأن نسيان الأعزاء
المنكوبين والانتصار لخصومهم الظافرين اغتباطاً بغنيمة سياسية أو منفعة
وزارية أمر قد يفهمه الساسة ويحمدونه في حساب المساومات والمعاملات ،
ولكن النخوة في الشعوب أولى بالتقدير والاعجاب من جميع المنافع والغنائم
التي تنطوي في النظم والديساتير ، لانك إذا بحثت عن النخوة في سواد الأمة
فوجدتها عندهم فليس يضيرك أن لا تجد فيهم موازين الساسة المحنكين ، وإذا
بحثت عنها فلم تجدها فهناك الضير كل الضير والوخامة شر الوخامة والاسفاف
الذي لا تغنى فيه حنكة ولا نظم ولا وزارات

ان المصريين لم يشعروا بتصريح ٢٨ فبراير الا كما ينبغي أن يكون شعورهم
به سواء في ذلك من حمدوه ومن انكروه ومن دقوا له الطبول ومن حثوا
على وجهه التراب .. واظرف ما يروى في هذا الباب ما رواه البارون « فان
دن بوش » البلجيكي في كتابه « عشرين سنة بمصر » نقلاً عن مذكراته التي
وصف بها الاحتفال بالاستقلال في محافظة الاسكندرية . فقد روى كيف

خطبوا يوم ذلك وكيف هللوا بالعهد الجديد. ثم قال : « إلا أن رجلاً قصيراً
على رأسه طربوشه المنحرف تقدم في مشية إبليسية ورفع يده في وقار وعينه
تلعان ثم نادى : ليحي الاستقلال التام ! فهبطت كلماته في وسط سكوت
مكروب... »

أين الاستقلال ؟ لأحد يصدق أنه الاستقلال حتى المبتهجين يوم
الاستقلال !!

وكان من الميسور أن يتنبأ الفيكونت اللبني وأصدقائه الوزراء المصريون
بما يوشك أن يلقاه التصريح الذي مهدوا له ذلك التمديد ، ولكنهم بلغوا
بالتמיד غاية فيها الكفاية : وهي الخلاص من زغلول والغلبة عليه . وهي غاية
مقصودة لذاتها ولو لم تعقبها نتيجة مرموقة من النتائج السياسية . وقيل ان
بعض أولئك الوزراء قد لجت به الضغينة على سعد حتى اقترح محاكمته
واعدامه بتهمة الثورة والخيانة العظمى ، وقيل ان الفيكونت اللبني لم يرفض
ذلك الاقتراح ولم يحجم عن الرجوع به الى الحكومة البريطانية ، وأنها هي
التي ساومت في الصفقة المعروضة الى ان قنع من الاعدام بالابعاد !

وبما يعزز أن اللورد اللبني نفسه طلب لزعماء الوفد جميعاً الأعدام في هذه
المناسبة أو غيرها مارواه السفير الأمريكي الدكتور مورتون هول عن مقابلة
اللورد اللبني ومستر أسكويث بعيد مقتل السردار حيث قال في كتابه مصر
« ماضياً وحاضراً ومستقبلاً » : « عند ما لقيته قدمني الى مستر أسكويث
وكنا جميعاً واجمين واللورد اللبني بصفة خاصة مهتاج الشعور ، وكان يقول
ان الأطباء الآن يفحصون حالة الحاكم العام وانه يخشى أن تكون الإصابة
قاتلة . ثم قال إن زغلولاً باشا رئيس الوزراء حضر قبيل ذلك ليعرب عن
أسفه لهذه الفعلة الشنيعة ولكنه لم يجد متسعاً من الوقت ولا من الكلام
لهذه المقابلة . ثم ختم كلامه عن هذه المسألة بقوله : اننى قد أردت أن أشنق
جميع هؤلاء الناس في وقت قبل هذا فلم توافق الحكومة ، وكأنه يعنى كما فهمت

ساعتئذ أنه لو أجيب إلى طلبه وترك لرأيه لما وقعت هذه الفاجعة .
فالانتقام من زغلول ومن — هؤلاء الناس — كان إذن غرضاً يراد
لذاته أو كان هو الغرض الأول من قضية التصريح والاستقلال المزعوم ...
لعله بعد نفي زغلول يعين على نسيانه وإهماله

وبعد الفراغ من هذا الغرض الأول تفرغ للورد النبي والوزراء المصريون
أصدقائه لما بقي لهم من الغرض الآخر الذي لا يهمل النجاح فيه كما يهمل النيل
من زغلول والغرض من مكائده وكبريائه ، ونعني بالغرض الآخر إرضاء مصر
بالتسوية الجديدة من طريق اقناع المعتدلين وإجبار المتطرفين على الاعتدال ،
فلم تطل الأيام حتى وجدوا ان « التصريح » كان عبثاً باطلاً وجهداً ضائعاً
من حيث تحقيق هذا الغرض الآخر ... لانهم قد اضطروا الى اتباع الخطة
التي كانوا مضطرين الى اتباعها لو لم يوجد هذا التصريح ؛ وهي خطة القمع
والتجسس والمحامكات العسكرية تقابلها من الجانب المصري المظاهرات
والهياج وسلسلة من حوادث القتل السياسي لم تكن معروفة قبل ذلك في
تاريخ الثورة المصرية ، لأن الانجليز الذين أصيبوا قبل تصريح ٢٨ فبراير
إنما كانوا يصابون في أثناء المظاهرات أو في أثناء الصدام والمقاومة وكانوا
جميعاً من الجنود ، ولكن حوادث الاعتداء بعد ذلك التصريح كانت تصيب
الجنود والموظفين وغير الموظفين ، وكان القائمون بها أناس يتآمرون
ويدبرون ويقدمون عليها للحفيظة والانتقام

وانقلب العداء إلى عناد والعناد إلى مناجزة يبذل فيها كل فريق قصارى
ما عنده لتحدى الفريق الآخر وإحباط مسعاه ، فاذا منعت الحكومة
الاجتماعات والمظاهرات التي تهتف بحياة سعد زغلول نابت عنها الأغاني
الشعبية في الشوارع والأزقة والحواضر والقرى وكل مكان يتسع فيه الفضاء
للغناء والترنم والانشاد ، وإذا حظرت الحكومة على الصحف أن تذكر سعداً
أو تشير إلى اسمه أو اسم الجزيرة التي هو منفي فيها استورد الناس الآنية الخزفية

من أوربا وعليها رسمه ، وكتبوا اسمه على الجدران وعلى ورق النقد الذي كانت تتداوله الأيدي بمئات الألوف في تلك الأيام لانتشار الأوراق الصغيرة من جميع الفئات ، وإذا اعتقلت الحكومة أعضاء من الوفد قام في مكانهم على الأثر أعضاء غيرهم يعرضون أنفسهم للاعتقال والجزاء وهم مستبشرون ، فأصبحت العلاقة بين الفريقين علاقة غالب أو مغلوب ومنتصر أو منهزم ، وهذا كل ماظفر به التصريح من «التقريب» و «تسوية» العلاقات بين البلدين

وقد ظهر من سفر اللورد اللنبي إلى لندن أيام المفاوضات في التصريح — كما ظهر بعد ذلك من الوثائق الرسمية — أن الوزارة البريطانية لم تخل من أناس يعارضونه معارضة شديدة ويستكثرونه على مصر كأنه غنيمه لا ينبغي لها أن تطمح إليها . وراق الوزراء المصريين أن يحسبوه كذلك من الغنائم التي لا تنال إلا بالدهاء «والمرونة» ولطف المدخل على عقول الانجليز ، بل راقهم وراق اتباعهم أن يحسبوا أنفسهم خادعين ويحسبوا الفيكونت اللنبي ومستشاريه الانجليز مخدوعين في هذه المساومة التي ما كانت لتفلح في زعمهم لولا ماوهبوه من قدرة على طرق الأبواب وتذليل الصعاب ، ومن الطبيعي ان يكون هذا رأيهم أو زعمهم في تعظيم ما عملوه وتسويغ ما فعلوه ، ومن الطبيعي كذلك أن تمنع الحكومة البريطانية في المبادرة باعلان التصريح ما دامت تستطيع أن تمنع وتساوم وتعطى بالثمن الكبير ما هي خليفة أن تعطيه بالمجان ، ولكن الحقيقة أن الدولة البريطانية كانت وشيكة أن تفرض ذلك التصريح أو ماشابهه على مصر بغير جهد من الفيكونت اللنبي ولا مخادعة من الوزراء المصريين . لأنها اتبعت هذه السنة في كل أمة شرقية غير مصر بعد الحرب العظمى وبعد رواج المبادئ الولسنية التي استغلتها بريطانيا العظمى في سياستها الاستعمارية ، كدأبها في جميع المبادئ والدعوات الصالحة للاستغلال . فاعترفت بمملكة الحجاز ومملكة العراق وخولتهما مظاهر الملك وألقابه وحقوق الدول والعروش دون أن يزعم زاعم ان وزيراً بارعاً أو غير بارع

ضحك من عقول الأنجليز هناك فساقمهم بدهائه ولباقته الى التسليم بالاستقلال من حيث لا يدرون ولا يشعرون . وعمم الأنجليز هذه السياسة حتى اعترفوا بالحكومات الوطنية في مستعمرات افريقيا التي لا نصيب لها من الحضارة . فهناك اليوم امراء وطنيون ومحاكم وطنية ورؤساء وطنيون ومراسم من هذا الطراز تخدع من يعبرون بالبلاد عبور السائح ولا ينفذون فيها الى مواطن الأمور . ولم تخسر بريطانيا العظمى كثيراً ولا قليلاً بهذه البدعة الطريقة من بدع الحرب العظمى بل استفادت كل ما تبغيه وفوق ما تبغيه من السطوة والمصلحة والدعاية . لأنها كسبت سمعة الحرية والأناصاف بين أمم العالم على أثر الدعوة الولسنينية ، وكسبت ايقاع الفتنة بين الوطنيين وتدويخهم بالمنازعات الداخلية بدلا من الاتفاق بينهم على السيطرة الأجنبية ، وكسبت القاء التبعة عن كاهلها والقائها على كواهل الوطنيين لتعود في يوم من الأيام فتتخذ من سوء الإدارة الذي لا بد منه في جو المنازعات والدسائس وتغليب المفسدين وطلاب الفرص والمغانم حجة لها على أولئك الوطنيين ، وكسبت إرضاء الأغرار وذوى الأغراض الذين ترضيهم المظاهر والصور الخالية فيحسبون أنهم مستقلون لأنهم يوصفون بأوصاف المستقلين . ونجحت هذه السياسة نجاحاً أغرى الدول الاستعمارية باقتباسها والحدو على مثالها فاقترنت بها فرنسا في سورية والبلاد المغربية واليابان في الأقطار التي اقتطعتها من الصين ومعلوم أن بريطانيا العظمى احتفظت لنفسها في تصريح ٢٨ فبراير بشروط أربعة هي : (١) تأمين مواصلات الامبراطورية في مصر و (٢) الدفاع عن مصر في كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة و (٣) حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات و (٤) مسألة السودان ، وهي لو لم تحتفظ بهذه الشروط الأربعة لكان في جيشها المقيم بالبلاد الكافية لتحقيق كل دعوى تدعيها وتضيع كل استقلال تعتصم به البلاد المحتلة ، فاذا أضيفت الى القوة العسكرية هذه الشروط أو هذه الحقوق كما تريدها

الحكومة البريطانية فالذى يبقى من الاستقلال لا يساوى عناءه، والذى يبقى
من الحماية أو من الضم الصريح هو الجوهر الصميم الذى ليس يعنى القوم
شئ سواه

تحدث سعد بعد عودته من المنفى عن تصريح ٢٨ فبراير فقال على أسلوبه
فى سرد الأمثال : هو ناقة البدوى التى تباع بمائة درهم وتباع التيممة التى فى
رقبته بألف، ولكن لا تباع الناقة بغير التيممة . . . فما أملحها من صفقة « لولا
الملعونة فى رقبته » !!

من المنفى الى الوزارة

كان عدلى هو الذى قطع المفاوضات مع كرزون

وكان سعد هو الذى نفي إلى سيشل بعد قطع هذه المفاوضات !

وليس هذا كل ما هنالك ، بل كان اللورد اللنبى حريصاً على بقاء الوزارة
العدلية فى الحكم ، ولما استقالت وأكدت استقالتها مرة أخرى كان حريصاً
على « اقناع أعضاء من حزب عدلى بالانضمام إلى الحكومة » لأنه يشعر
كما قال فى برقية العشرين من ديسمبر الى حكومته « بأن هذا الحزب لا محالة
ممزق ما لم يتقدم الآن »

وهذا تصرف من جانب الانجليز لا معنى له إلا أنهم يعتقدون ان
المعارضة التى أحبطت المفاوضات هى معارضة زغول وان ما عداها إنما هو
معارضة « المظاهر » والمراسم ومقتضيات الأحوال

وقد اجتمعت المعارضة الحقيقية ومعارضة المظاهر بعد نفي زغول
وأصحابه فى صف واحد ، فاجترفت كل مادبرته السياسة الانجليزية وخيبت
رجاءها فى كل ما قدرته من تخويف المصريين بتهديد اللورد كرزون فى كتابه
إلى السلطان ، وشملت المعارضة السياسيين وغير السياسيين فاشترك فيها كبار
القضاة والمحامين والأطباء ، و « حزب » عدلى كما يسميه اللورد اللنبى وسائر
الأحزاب التى تنضوى الى هذا الجانب أو ذاك ، أو تقف بين بين فى انتظار
الطوارئ والتقلبات

استقال عدلى وأكد استقالته مرة أخرى بعد اعتقال سعد وأصحابه لكي
لا ينسب إليه الاشتراك فى هذا التصرف ، وأسرع إلى اللورد اللنبى « يؤكد
له أنه شخصياً سيظل مؤيداً لحكومة السلطان ولقوى القانون والنظام » أى

للأحكام العسكرية البريطانية بطبيعة الحال ، لأنها هي القوى التي تدعى حفظ القانون والنظام فيما عدا حكومة السلطان !

واستحال تأليف وزارة جديدة بعد المعارضة الاجتماعية من جميع الطبقات للسياسة التي رسمها اللورد كرزون في كتابه .

وبعد مفاوضات بين ثروت والنبي أعلن في الثامن والعشرين من فبراير التصريح المنسوب إلى هذا التاريخ لأن أحداً لم يستطع أن يسميه تصريح إلغاء الحماية أو تصريح الاستقلال ، أو ما إلى ذلك من الصفات ، لافرق بين أنصاره المرشحين به ، وخصومه المعترضين عليه !

تألفت الوزارة الثروتية عقب هذا التصريح ، وأرسلت وزارة الخارجية المنشأة حديثاً منشوراً في منتصف شهر مارس إلى وكالات الدول السياسية تبلغها النطق الملكي المعلن استقلال مصر واتخاذ ولي الأمر فيها لقب صاحب الجلالة ملك مصر

وفي الوقت نفسه أعلنت الحكومة البريطانية الدول أن كل معاملة بينها وبين مصر على غير الخطط التي رسمتها لاستقلالها تنظر إليها بريطانيا العظمى كأنها عمل من أعمال العداء

وبقيت الأحكام العسكرية وبقى اللورد النبي صاحب السلطان الأكبر في مصر المستقلة . وبمقتضى هذه الأحكام العسكرية كانت تغلق الصحف وتمنع الاجتماعات وتصادر الحريات في كل صباح ومساء . بل بمقتضى هذه الأحكام العسكرية حوكم سبعة من أعضاء الوفد بعد إعلان الاستقلال بنصف سنة لأنهم أصدروا منشوراً فيه إغراء وتحريض ضد نظام الحكم الحاضر . . . أي ضد الاستقلال ! فوقف حمد الباسل باشا (١) وكيل الوفد إذ ذاك يتلو على المحكمة الكلمة الوحيدة التي قبلوا أن يلفظوا بها في هذه المحاكمة . ومنها

(١) الستة الآخرون هم : مرقص حنا بك وواصف غالى بك وعلوى الجزار بك ومراد الشريعى بك

والاستاذ ووصاف

قولهم : « لو أن المحكمة تأخذ بتصريح حكومتها أو تعتبره تصريحاً جدياً وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة لكان حقاً عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا . لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحكمونا . نحن لانعرف مهيماً علينا غير ضمايرنا وتوكيل الأمة التي شرفتنا وقوانين بلادنا ومحاكمتنا فهما تكن العقوبة التي يروقكم أن تشرفونا بها فاننا سنقابلهما بالسرور والفخار ، لأنها خطوة إلى الأمام في طريق المجد الذي تسير فيه مصر إلى مصيرها الخالد »

وقد حكمت المحكمة العسكرية عليهم بالاعدام . ثم عدل الحكم إلى سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه على كل منهم وأبلغوا حكم الاعدام أو لا فتهنؤوا « لتحي مصر » قبل أن يسمعوا ما وراء ذلك . ثم تليت عليهم تمة الحكم وفيها ذلك التعديل ، فكرروا الهتاف لمصر بالحياة

أما الوفد بعد اعتقال سعد فقد عاد إليه بعض أعضائه المنفصلين ، ثم تركوه بعد أيام لسبب ظاهره أنهم اختلفوا على اختيار عضو من الأعضاء الجدد ، وباطنه أنهم عرفوا السياسة التي رسمت للمستقبل وهي سياسة « حزب عدلى » كما سماه اللورد اللنبي ، فرجعوا إلى تأييد هذه السياسة

وقد أصدر الأعضاء الباقون منشوراً مفصلاً ببرنامج المقاطعة ، وسياسة عدم التعاون مع الانجليز في الحكومة وخارج الحكومة ، فقبض عليهم ثم أفرج عنهم ، وعادوا فأصدروا منشوراً حضوا فيه الأمة على بذل ما في الطاقة لاعادة سعد وأصحابه من منقاهم ، فقبض عليهم في الرابع والعشرين من شهر يوليو وحوكموا في التاسع من شهر أغسطس . وانهت المحاكمة بعد ثلاث جلسات وجيزة ، لأن الأعضاء رفضوا بتاناً أن يجيبوا على أى سؤال

أما الوزارة الثروتية فأهم مصادفها من العقبات — غير مقاومة الأمة — احتجاج الحكومة البريطانية على كثرة الجرائم السياسية التي كانت تقع على

الموظفين وغير الموظفين الانجليز ، ومنها ما كان يقع نهراً في أعمر الأحياء بالسكان . وقد قالت الحكومة البريطانية في احتجاجها :

« إن عدم الاهتداء إلى مرتكبي تلك الجرائم وبقاءهم بعيداً عن طائلة العقاب يدل أوضح الدلالة على عدم كفاية التدابير التي اتخذت لمنع وقوع تلك الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية تجد نفسها تلقاء هذه الحالة مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض من يقع به اعتداء من الأجانب أو تعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير ما إذا كان التعويض الذي تمنحه الحكومة المصرية كافياً أو غير كاف »

وفيما عدا ذلك الاحتجاج الرسمي كانت العلاقات بين الانجليز والوزارة الثروية علاقة مودة وتأييد متبادل ، وكانت العقبة الكبرى التي تلقاها الوزارة إنما هي الخلاف المتعاضم بينها وبين الملك فؤاد على مسألة الدستور

✓ وخلاصة المسألة الدستورية أن الوزارة أنشأت برأيها ورأى أصدقائها لجنة مؤلفة من ثلاثين عضواً برئاسة « حسين رشدي باشا » لوضع الدستور الجديد ، تمهيداً لانتخاب الهيئة التي تبرم الاتفاق بين مصر وانجلترا على القضية المصرية . ودعت الوزارة عضوين أو ثلاثة من الوفد المصري إلى الاشتراك في اللجنة فلم يجيبوا الدعوة لأن تمثيل الوفد بهذا العدد القليل بين ثلاثين من أنصار الوزارة المعادية للوفد ورئيسه عبث لا يناله منه إلا التبعية وتصحيح مركز الوزارة تصحيحاً يقويها ويضعفه ويفل سلاحه ، ولأنه كان من ناحية أخرى يقترح انتخاب جمعية تأسيسية لوضع الدستور برأي نواب البلاد لا برأي الوزارة ومن يشايعها ، ولأنه كان يستريب بمقاصد عبد الخالق ثروت ويناصبه العداء مقابلة لعدائه بمثله وتطبيقاً لسياسة عدم التعاون التي أعلنها بعد اعتقال سعد وأصحابه

وارتسمت الخطة التي كان ينويها ثروت باشا وأصدقائه ويطمئنون إلى جريان الأمور في مجراها إلى الغاية المنشودة : وهي تنفيذ الاتفاق بينهم وبين الانجليز باسم النواب المنتخبين وضمان الحكم على القواعد الدستورية فسعد وأصحابه في المنفى ، والبقية الباقية من أعضاء الوفد البارزين في السجون أو المعتقلات ، والانتخابات تجري على الأسلوب الذي يحسنه ثروت باشا وجرى عليه في جمع التوقيعات ، وهو وأصدقائه من « حزب عدلى » ينزلون إلى ميدان الانتخاب بغير منازل أو يقهرون منازلهم بمعونة الحكومة وما عندها من وسائل الترهيب والترغيب وقضاء المصالح من هنا ومنعها من هناك . ولا يبقى إلا النجاح والاستئثار بالأمر إلى زمن طويل

ولهذا كانت الوزارة وأنصارها يقررون المبادئ التي تلائمهم في الدستور وهي مبادئ التبعية الوزارية والاعتراف بالأمة وحدها مصدراً للسلطات ، بدلاً من حصر السلطة الدستورية في أيدي الملك وهو الجانب الذي كانوا لا يأمنونه ولا يرجون منه المساعدة على نجاح الخطة المرسومة وجريانها في ذلك المجرى المعلوم . وكان يشايعهم المخلصون من أعضاء اللجنة الذين لا ينظرون إلى المآرب الحزبية ويؤثرون المبادئ الديمقراطية في الدستور على مبادئ الاستبداد

فاستفاد الدستور كثيراً من حيطة الوزارة وإخلاص المخلصين ، وجاء على الجملة دستوراً لا بأس به في القواعد والنصوص

لكن الملك فؤاداً كان يريد الدستور على غير هذه القواعد فيما يرجع إلى التبعية الوزارية ومصدر السلطات ، وبمحل ما يريده في هذا الباب أن تكون الوزارة مسؤولة بين يديه وأن لا ينص في الدستور على أن الأمة مصدر السلطات جميعاً . فتوترت العلاقات بين القصر والوزارة الثروتية ، ولاح في الأفق أن الملك فؤاداً يترقب الفرصة التي يتلخص فيها من تلك الوزارة دون أن يفتح للانجليز باب التدخل في الموضوع ، وقد سنحت

هذه الفرصة بعد زمن وجيز بما نقله محمد سعيد باشا الى الملك من حديث رواه حسن صبرى « بك » المحامى عن الخديوى السابق ، وخواه أن الخديو يعتبر ثروت باشا من رجاله ولا يخشى منه أن يقيم الصعوبات فى تسوية ماله من المسائل المالية . . . وواجه الملك ثروت باشا بهذه الرواية فلم يبق للرجل الا أن يستقيل بعد قيام هذه الشبهة ، ثم قضى على ترده فى نية الاستقالة أنه دعى للصلاة مع الملك فى الجامع الازهر وسمع من المصادر المختلفة أن مظاهره كبرى ستلقاه فى داخل المسجد وخارجه بما يكره من هتافات التشهير والاتهام على مسمع ومشهد من ولى الأمر والحاشية الملكية ، فعجل بالاستقالة ولم يذكر فيها من أسبابها إلا أنه قال فى ختامها : « وقد كنت أرجو أن أمضى مع زملائى فى تنفيذ برنامجنا حتى تمامه ولكن أرى أن أترك الأمر لغيرى »

فجاءه الأمر الملكى بقبول الاستقالة بعد نصف ساعة من رفعها ، وكان ذلك فى التاسع والعشرين من نوفمبر وفى اليوم التالى قامت الوزارة النسيمية وقرضها الأول تعديل الدستور وتوسيع حقوق الملك فى التبعة الوزارية وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ أما وسيلتها إلى هذه الغاية فهى التقرب من الوفد واسترضائه بما يجنح به إلى السكوت عن التعديل المقصود ، فلا يرى الانجليز وجها للاعتراض مع موافقة الملك والشعب على المبادئ الدستورية التى يستقر عليها القرار ولهذا أكثر من دعوة الوفد إلى القصر الملكى وإلى الصلاة فى المساجد التى يحضرها الملك أيام الجمعة . وكتب رداً على مذكرة اللورد اللنبى التى يحتج فيها على حوادث الاعتداء السياسى قال فيه إن « تكرارها المؤلم منذ نحو سنة يحمل على الاستنتاج أن هناك رد فعل ضد سياسة لاتراعى عواطف الأثرية من الأهلين المراعاة الكافية ، وهو رد فعل يؤسف له كما أنه صادر عن قلة روية من قبل بعض العناصر المتهوسة غير المسئولة ، كما يوجد لسوء

الحظ في كل بلد . والذي يزيد في ترجيح هذا الافتراض أمر يستوقف النظر وهو أنه في كل المدة التي كان يؤمل فيها الوصول الى اتفاق ودي بين لسان حال تلك الاكثرية والحكومة البريطانية ليس فقط لم ترتكب جريمة من تلك الجرائم بل أن العلاقات بين المصريين والانكليز لم تكن قط أكثر ثقة وأوفر ولاء مما كانت في تلك الفترة . مع أن الأمر صار على العكس من ذلك من يوم ما أصبحت الحكومة البريطانية غير متصلة بممثلي الاكثرية المصرية بسبب المفاوضات غير الرسمية أو لا ثم بسبب تدابير العنف التي تلت قطع المفاوضات الرسمية ، وأخيراً بسبب التدابير التي صاحبت الاتفاق مع أقلية لا تأثير لها حقيقة في الأمة فزادت الحالة تخرجاً والعواطف تألماً مما جعل الاتفاق المرغوب فيه أكثر صعوبة »

بيد أن هذا التقرب الى « الاكثرية » لم ينفخ الوزارة النسيمية طويلاً في تخدير الأمة وتهيئة الجو لتعديل الدستور ذلك التعديل الذي يضيق من حدوده ويكاد ينقضه من أساسه ، وهو الاعتراف بسلطة الأمة والتبعية الوزارية فقد كانت الأمة أيقظ من أن تؤخذ بهذه الأساليب أو تستمع فيها الى رأى أحد ، وزادها يقظة وحذراً أن الوزارة لم تصنع شيئاً في مسألة المنفيين والمعتقلين كما كان منتظراً منها ، ولم تصنع شيئاً لتمثيل مصر في مؤتمر لوزان الذي كان منعقداً للنظر في مسائل الشرق وتنقيح المعاهدات بين الحلفاء والدول التركية صاحبة السيادة القديمة على مصر ، فاذاع الوفد المصرى بياناً في العشرين من يناير قال فيه : « ما زالت الوزارة ملتزمة خطة الصمت وما زالت مصالح البلاد معطلة ، فلا مثلت مصر في مؤتمر لوزان تمثيلاً شعبياً ولا ألغيت الأحكام العرفية ولا احترمت حق الأمة في أن يكون الدستور وليد ارادتها ، ولا عاد الوكلاء المنفيون ولا أطلق سراح الزعماء المسجونين ، وهذا سر ما استولى على النفوس من الحيرة والقلق » ثم قال : « والاخبار متواترة أيضاً على وقوع أمور خطيرة بشأن مشروع الدستور ، فانهم يؤكدون أن هناك أخذاً ورداً بين

الوزارة والانكليز متعلقين بالنص الخاص بالسودان ، وإن الوزارة قد ادخلت من جهتها تعديلا جديداً على نص المشروع يقضى بزيادة عدد الاعضاء المعينين في مجلس الشيوخ الى النصف وتقرير مسئولية الوزارة أمامه »

واتبع هذا البيان بيانات أخرى في معناه

ثم استقالت الوزارة النسيمية لأن الانجليز تخطوها ووجهوا الى الملك انذاراً يطلبون فيه حذف النص الخاص بالسودان من الدستور والاكتفاء فيه بلقب « ملك مصر » بدلاً « من ملك مصر والسودان » . . . فقبل نسيم باشا هذا الطلب واستقال بعد قبوله وتنفيذه !

وهنا يجب أن نلخص الحالة كلها من حيث المناورات الوزارية لنفهم حقيقة الموقف الذي وقفه سعد باشا من هذه الوزارة ، لأنه موقف في حاجة إلى التوضيح

وذلك انه لما أحس رؤساء الوزارات والمرشحون لرئاسة الوزارة ان رشدى وعدلى وثروت وأصحابهم قد احتكروا الميدان في السياسة المصرية تألبوا حزبا واحدا على مقاومة هذا الفريق ، وأصبحوا فريقا آخر يرأسهم محمد سعيد واحمد مظلوم وتوفيق نسيم ويوسف وهبه واخوان هذا الطراز ، وأصبح في مصر على هذا التقسيم فريق وزارى يصح أن يسمى بالمدرسة المتفرنجة وهم عدلى وأصحابه ، وفريق آخر يصح أن يسمى بالمدرسة التركية وهم محمد سعيد وأصحابه

وبحكم العداء بين الفريقين أصبح لزاما على « المدرسة التركية » أن تخطب ود الوفد وتتقرب إليه ، وتلوذ بالقصر الملكى لتستند اليه في وجه المعاونة المكشوفة من الانجليز لعدلى واصحابه

وهذا سر الصداقة التي كان يبديها محمد سعيد وتوفيق نسيم واحمد مظلوم لسعد زغلول بعد أن كانوا جميعا يحاربونه أو لا يتقدمون إلى مساعدته بعمل من الأعمال . فسعى محمد سعيد في إنشاء وفد غير الوفد السعدى ، وأبى توفيق

نسيم أن يوقع التوكيلات القومية ، ولبت احمد مظلوم على صداقته للثنين
فلها جاء توفيق نسيم عقب عبد الخالق ثروت المجاهر بعداء سعد وانصاره ،
وأتبع سياسة التقرب إلى الوفد ، وكتب مذكرته يطلب فيها الاعتراف
بالكثرة القومية ، واستقال قبل أن ينسخ الدستور وتنكشف أغراضه الخفية
بلغ ذلك كله الى سعد في جبل طارق وهو بعيد من مجرى الحوادث ووسائل
الاستقصاء الوافية فكتب إليه البرقية التي يقول فيها « انكم بعملكم الشريف
المفعم بالوطنية والحكمة استحققتم تقدير الوطن » ونظر الى الموقف في جملته
بين أن ينصر حزب ثروت أو ينصر حزب نسيم ، فاختر ما اختاره بعد هذه
الموازنة المجملية ، وحداه به الى حسن الظن بالرجل وعدم استغراب سياسته
الجديدة انه كان صهرآله اذ كانت شقيقة نسيم زوجا لشقيق سعد المرحوم
احمد فتحي زغلول

ولسنا نقول هذا لتسويغ ذلك التقدير فاننا لا نسوغه الآن كما لم نسوغه
في حينه ، ولكننا نقوله لتبيين الأسباب التي باعدت بين حكم سعد على
الوزارة النسيمية وما تستحقه هذه الوزارة بما عملته وبما تنويه

بعد سقوط الوزارة النسيمية اتجهت الانظار الى عدلى يكن باشا
لاستئناف الخطة التي اقتضت على ثروت باشا قبل تمامها ، وكان عدلى باشا
قد أنشأ حزباً ينزل به الى ميدان الانتخاب وسماه من أجل ذلك حزب
« الاحرار الدستورين »

ولكن الملك كان لا يرغب في استيزاره ولا يزال يرجو أن تقوم
وزارة من رجاله تعيد النظر في الدستور على المبادئ التي يريدها ، وتعاضمت
المصاعب أمام عدلى بين مقاومة الوفد ومقاومة القصر وكثرة الجرائم
السياسية في أيام ترشيحه وصعوبة اصلاح الخطأ الذي وقعت فيه الوزارة
النسيمية وانجاز الوعود التي لم تنجزها ، فاعتذر من تأليف الوزارة وأصر

على اعتذاره ، وأتتهى الأمر فى منتصف شهر مارس (١٩٢٣) باسنادها الى يحيى ابراهيم باشا وهو قاض نزيه ولكنه رجل ضعيف كان يخشى كثيراً أن يتم تعديل الدستور المطلوب على يديه ، وضاعف هذه الخشية قوله فى اليوم التالى لتأليفه الوزارة : « إن كان الناس قد تكلموا كثيراً عن التعديل الذى أدخل على الدستور وتساءلوا عما إذا كانت وزارتنا تسلم بالتعديل الذى قد أدخلته الوزارة النسيمية فتصدره الدستور كما عدلته أم ترجعه الى أصله كما وضعته اللجنة فان ما وضعناه نصب عيوننا هو أن يحقق الدستور رغبات الأمة كل التحقيق »

وهذا كلام ليس فيه من نفي التعديل بقدر ما فيه من ترجيحه . فاسترابت الاحزاب بما وراء هذه الفاتحة ، وكتب الوفد المصرى بياناً يقول فيه : « أن ما نشر عن رئيسهم - رئيس الوزراء - كله تنصل وابهام . . . فى الدستور لم تكن سيادة الأمة وارادتها موضع عناية بل انه أقر من سبقه على اغتصاب حق الأمة فى ضعه ورفع الأحكام العرفية ليس لديه الا مجرد أمل من الآمال ، واصدار قانون التضمنات بالقيود التى يود الانجليز أن يقيدوا بها سيادة البلاد وحرية أبنائها قضاء محتوم لا يرجو فيه كما قال سوى لطف فخامة اللورد والتخفيف . أما مسألة السودان على أهميتها فقد اكتفى بأنها ستكون موضع مباحثاته مع زملائه »

واحتج حزب الأحرار الدستوريين على التعديلات التى قيل إنها أدخلت على الدستور فى عهد الوزارة النسيمية ، وأبلغ الوزارة الجديدة مطالبه فى السياسة العامة وأهمها العمل على اتباع سياسة الاتحاد والوئام ، لأنه أيقن أن جمالة الكثرة خير من مجافاتها ، ومن ثم طلب رفع الأحكام العرفية فى الحال وفك المعتقلين والافراج عن المبعدين والمسجونين السياسيين ، كما طلب إصدار الدستور كاملاً شاملاً للبلادى التى قررت لها لجنة الدستور

ونشر الاستاذ عبد العزيز فهمى بك خطاباً مفتوحاً الى رئيس الوزارة

سرد له فيه المبادئ التي لا يستغنى عنها في الدستور وقيل إنها مست بالتعديل في عهد الوزارة النسيمية ، وهي سلطة الأمة ، واشترك الوزارة في الانعام بالرتب والنياشين ، واقتصر حق الحل على مجلس النواب دون مجلس الشيوخ ، وابقاء عدد الشيوخ المعينين دون عدد المنتخبين ، واشترك مجلس الشيوخ في تعيين رئيسه ، وعدم اصدار مراسيم اثناء دور انعقاد البرلمان قبل عرضها عليه ، وعرض معاهدات التجارة والملاحة على البرلمان ، واشراف الوزارة على المعاهد الدينية ، وترك القيود التي قيد بها تنقيح الدستور على ما هي عليه

أمام هذا الاجماع من الأحزاب المختلفة تراجعت الوزارة ، وأفضى وزير الحقانية في وزارتين النسيمية والابراهيمية بحديث إلى الصحف اعترف فيه بحذف المادة التي تنص على أن الأمة مصدر السلطات وقال فيه عن عدد الشيوخ : « أوكد لكم أننا قبل أن نخطر لنا فكرة الاستقالة عدلنا عن تعديل كنا عدلناه في المادة الخاصة بمجلس الشيوخ بالنسبة إلى عددهم ، لأن اللجنة الاستشارية لفتت نظرنا إليها ولم تزل هذه المسألة باقية تحت البحث كغيرها من المسائل »

ثم سرت الحملة في مسألة الدستور من مصر إلى الصحافة الانجليزية فقالت النيمس بالعبرة الصريحة أن الملك فؤادا هو المعطل لصدور الدستور ، وساندها صحف أخرى من صحف الأحرار والمحافظين ، وتماوج الرأي العام في مصر حول هذه المسألة فثبتت للوزارة أن التعديل على المبادئ التي يريدونها القصر عسير غير مأمون العواقب ، وصدر الدستور بغير تعديل ذي بال في التاسع عشر من شهر ابريل

وفي خامس يوليو صدر قانون التضمينات ، وهو وقانون تعويضات الموظفين الاجانب اهم ما أصدرته الوزارة الابراهيمية بعد الدستور ، وقد أفرغ في قالب اتفاق بين مصر وانجلترا ليمتنع تعديله على البرلمان ، واعترف بالحالة الفعلية فيما يتعلق بالأرض التي استولت عليها الحكومة

البريطانية ، وعهد بالأشخاص المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية إلى لجنة يسود فيها رأى الانجليز دون رأى المصريين ، ولم تقبل الحكومة الانجليزية فيه أن تحمل التبعة فيما اتخذته من التدابير أيام الحرب وما بعدها بل اكتفت بوعدهم « أن تكون مستعدة على الدوام للاتفاق مع الحكومة المصرية على الحل الذى تقتضيه الحالة بروح العدل والانصاف » إذا حدثت حالة من الأحوال التى تعود فيها الخسارة من جراء التدابير الانجليزية وبصدور هذا القانون تم التمهيد لالغاء الأحكام العرفية الانجليزية فالغيت « مع استمرار السلطات العسكرية على مباشرة الحقوق التى خولتها إياها الاعلانات المختصة بتنفيذ معاهدات الصلح فيما عدا الحقوق الجنائية ، وذلك إلى أن تتم التدابير المقررة فى تلك الاعلانات ، وتبقى القضية المنظورة أمام المحاكم العسكرية إلى أن يحكم فيها »

ومن القوانين التى أصدرتها الوزارة الابراهيمية ولا تقل عن هذا القانون فى الخطورة قانون تعويضات الموظفين الانجليز ، وهو الوثيقة التى تعهدت مصر بموجبها بأداء ما لا يقل عن عشرة ملايين من الجنيهات لتعويض الموظفين الأجانب ، ثمنا لحررتها فى الاستغناء عنهم واختيار غيرهم ، وهى لا تملك إلى الساعة هذه الجرية !

قبل صدور قانون التضمينات بثلاثة أشهر أفرجت الحكومة البريطانية عن سعد فى جبل طارق وقالت فى بلاغها أن الطبيب المعالج لزغول باشا قرر « أن تغيير نظام الحياة والاستحمام بالمياه المعدنية فى أوربا ضروريان لصحة الباشا . ولهذا الأسباب قررت الحكومة بعد استشارة المندوب السامى أن تفرج عن زغول باشا من جبل طارق »

وكانت الأسباب الصحية فى الواقع من أقوى الأسباب التى حملت الحكومة البريطانية على هذا القرار ، لأن الدكتور موريسون الذى زار

سعدا في الثاني والعشرين من اكتوبر رأى أن الحالة الصحية على جملتها مقلقة
معرضة للمفاجآت على الرغم من أنه لم يجد عنده أثراً للسكر أو الزلال أو
الاسيتون ، وأخفى الخبر عن سعد فلم يطلعه على تقريره المفصل بعد كتابته ،
تفادياً من ازعاجه

وكان في النية التعجيل بالافراج عنه عقيب ذلك ، ولكن اللورد النبي
ظل يعارض أمر الافراج ويتوعد بالاستقالة ، وصرح مستر بونارلو بذلك
لأحد النواب المهتمين بالسؤال عن حالة سعد وقرار الحكومة بشأنه في
السابع عشر من شهر ديسمبر ، فقال للنائب : « تريدون الافراج عنه !
حسن . ولكن ذلك معناه اقالة اللورد النبي على الأثر »

إلا أن الأسباب الصحية لم تكن هي كل الباعث الى شروع الحكومة
البريطانية في اطلاق سعد زغلول . ففي مقدمة الأسباب الأخرى اقتناعها بفشل
اللورد النبي في المقاصد التي كان يرمى إليها باعتقاله وتأيد ثروت وأشياعه ، فقد
سامت العلاقات بين المصريين والانجليز أشد ما يتاح لها من سوء ، وبلغت
من الحرج ما لم تبلغه قط في وقت من الأوقات ، وتعاقبت أعمال القمع
والقضايا العسكرية من جهة ، وحوادث الاعتداء ومظاهرات الاحتجاج من
جهة حتى أصبحت مصر المستقلة المطلوب منها الرضى والاستقرار كأنها ميدان
حرب دائمة بين عدوين متناحرين ، وليس هذا هو المقصود بسياسة التصريح
ولا يمكن أن يكون مقصوداً بسياسة أخرى في بلد من البلدان

ولما سقط ثروت وأخفق عدلى في تأليف وزارة بعد الوزارة النسيمية
وصار الوزراء والاحزاب يقدمون طلب الافراج عن سعد وسائر المنفيين
والمعتقلين على كل طلب آخر في البرامج الوزارية والحزبية ، شعرت
الحكومة البريطانية بأن نجاح كل سياسة في مصر مستحيل مع بقاء هذه الحال
أو بقاء سعد في منفاه ، وشعرت قبلها — أو بايعاز منها — صحف الاحرار
والعمال وبعض صحف المحافظين بخنطل السياسة التي سار عليها اللورد النبي

فانحبت باللائمة عليه ، واجتمعت كلها على وجوب النظر من جديد في عواقب تلك السياسة الخرقاء .

ومن الأسباب التي دعت إلى الافراج عن سعد تلك القضية التي رفعها وكيل سعد في انجلترا طالبا الحكم فيها ببطلان أمر اعتقاله لأنه سجن بغير محاكمة ولا تهمة معروفة .

نعم ان الحكم من المجلس الأعلى قد صدر برفض هذه الدعوى ولكنه لم يصدر إلا بعد جهد شديد من النائب العام السير دجلاس هوج « اللورد هيلشام الآن » لاقتناع الأعضاء باجتنب هذه السابقة الخطيرة في معاملة الثائرين على الامبراطورية ، ويغلب عن الظن أن أعضاء المحكمة كانوا يفهمون بالايحاء أن الافراج حاصل عما قريب فلا ضرورة لتسجيل المبدأ الخطير من أجل تحصيل الحاصل . وقد نمتي إلى بعض المطلعين أن الوزارة البريطانية قررت الافراج في أول فبراير وارجائه إلى أن ينتهي الفصل في القضية وقد انتهى في التاسع من شهر مارس ، وليس معنى ذلك أن القضية لم تفعل فعلها في تقرير الافراج ، بل معناه أن الوزارة اهتمت بها واهتمت في الوقت نفسه بحسن التخلص منها ومن مثيلاتها ، ثملا يقال إن الحكم هو الذي أكرهها على اتخاذ ذلك القرار .

وربما كان أهم الأسباب جميعا — إلى جانب سبب الصحة — تلك الحركة التي أحسن توجيهها الدكتور حامد محمود بين فريق كبير من نواب الاحرار والعمال بلغت عدتهم تسعة وتسعين . فقد كثر الكلام في الدوائر البرلمانية عن فشل السياسة الانجليزية المصرية وعن وصمة العار التي تصم الدولة البريطانية باعتقالها ذلك الشيخ العظيم وتعريضه للموت في منفاه ، فترددوا على الوزارة سائلين ملحين في وجوب الافراج ، وأجمعوا آخر الأمر على كتابة عريضتهم المشهورة فقدموها في التاسع والعشرين من شهر مارس وأذيع الأمر بالافراج بعدها يومين .

يضاف إلى ذلك أن قانون التضمينات سيصدر ، وان الأحكام العسكرية ستلغى ، وان الانتخابات ستجرى ، ولا بد ان تسفر عن انتخاب نواب بجمعين على المطالبة بعودة سعد إلى بلاده ، لأن خصومه وأصدقائه كانوا يعلمون علم اليقين أن رضاه الشعب بغير هذه الوسيلة من وراء كل رجاء ، ولا معنى لالغاء الأحكام العسكرية في مصر واجراء الانتخاب فيها وزعيم النواب المنظورين خاضع للأحكام العسكرية في منفاه

ولقد كان الرجاء قوياً في تحضير الانتخابات على الوجه الذي يهواه اللورد اللبني أيام ثروت وأشياعه ، ولكن أى رجاء هناك في هذه النتيجة بعد سقوط ثروت وإحجام عدلى عن تأليف الوزارة وصعوبة المضى في هذه السياسة من جميع الانحاء ؟

فالافراج عن سعد كان كجميع الحوادث التاريخية متعدد الأسباب غير محصور في سبب واحد . وانما كانت المسئلة مسئلة الزمن ، أو الانتظار حتى تتفق جميع هذه الأسباب

غادر سعد جبل طارق بعد خمسة أيام من اعلان الافراج عنه إلى طولون ومعه السيدة الجليلة صفية زغلول وكانت قد وافته في منفاه لما اشتد عناؤه من الوحدة مع انحراف الصحة والحاجة الى حسن الرعاية

فتلقاه الطلبة المصريون في عرض البحر بالترحيب والتهليل ، ومنهم مندوبون عن زملائهم في جامعات فرنسا وسويسرا حضروا خصيصاً لتحيته وتجديد عهده . وخطبوا يذكرون مآثره ، وخطب فيهم راجياً أن ينسوه في تلك اللحظة ليفكروا في الذين لا يزالون يرسفون في قيود السجن والاعتقال ثم قال : إن مصدر قوتي هو إني لست إلا معبراً عن شعور الأمة وآرائها معرباً عن تصميمها على أن تعيش حرة مستقلة «

ثم توالى الافراج عن المعتقلين في مصر فأفراج أولاً عن أعضاء الوفد الذين كانوا معتقلين بقصر النيل ، ثم أفراج في الرابع عشر من شهر مايو عن

المعتقلين في صحراء المماظة وهم حمد الباسل باشا وأصحابه الذين كتبوا منشور المقاطعة والاستبسال في رد سعد الى وطنه ، ثم افرج في آخر مايو عن المنفيين الى سيشل ، ثم سمح بزيارة بيت الأمة بعد اغلاقه برهة مع منع الاجتماعات فيه ، ثم نشرت الحكومة المصرية بلاغا في العشرين من شهر يوليو صرحت فيه « بامكان عودة جميع المبعدين » ومنهم سعد باشا لأنه كان الى ما قبل صدور قانون التضمينات ممنوعا من العودة الى بلاده

وفي الثالث عشر من سبتمبر أبحر سعد من مرسيليا فوصل الى الاسكندرية في السابع عشر منه ، ووصل الى القاهرة في غده ، وتكررت مظاهر الحفاوة الكبرى التي قوبل بها في العودة الأولى ، وزاد عليها في هذه المرة اشتراك الأجانب في الاستقبال بما كانوا ينثرون عليه من الأزهار والرياحين بأيدي السيدات والأطفال ، حتى امتلأت بها السيارة .

وقد انحلت مشكلة الاستقبالات الرسمية في هذه المرة لأن القصر الملكي لم يعد مقاطعا الوفد كما كان في العودة الأولى ، ودار المندوب البريطاني لم تعد دار الحماية بعد الغائها ، فزار سعد القصر وزار دار المندوب .

ونشطت مساعي التوفيق بين القصر وسعد على يدي توفيق نسيم ومحمد سعيد وأحمد مظلوم ، فتمت المقابلة الأولى بين الملك فؤاد وسعد في تاسع نوفمبر بعد ظهور نتيجة الانتخابات التلاثينية ، وتحقيق النجاح للوفدين فيها ، وكان المظنون يومئذ أن سعدا لا يشكل الوزارة وانه قد يعهد بها الى توفيق نسيم أو احمد مظلوم على الأرجح أو الى محمد سعيد على احتمال بعيد ، وكان هو لا يبوح بنياته لمن يسألونه في هذا الموضوع ، والى ذلك أشارت صحيفة التيمس في بعض مقالاتها فزعمت أن سعدا لا يقدم على تأليف الوزارة لأنها « مقبرة الشهرة » . . ولا يبعد أن يكون هذا الاحتمال ملحوظا في مساعي التوفيق . وقد جرت الانتخابات التلاثونية في السابع والعشرين من سبتمبر لأن الانتخاب كان على درجتين لا على درجة واحدة ، وجرت الانتخابات لمجلس

النواب في الثاني عشر من يناير (١٩٢٤) فاسفرت عن نجاح مائة ونيف وتسعين نائباً وفدياً من مائتين وأربعة عشر عدة الأعضاء في مجلس النواب ، ومن حسنات الوزارة الابراهيمية أن رئيسها كان قاضياً نزيهاً في مباشرة الانتخاب كما كان قاضياً نزيهاً في المحاكم ، فأدار المعركة الانتخابية بالحيدة الواجبة ، وشهد الكثيرون من رجال الاحزاب المختلفة أن الانتخابات في عهده كانت انزه الانتخابات في جميع العهود ، حتى لقد أخفق هو نفسه في دائرته ولم يظفر بالنيابة التي كان يبتغيها

بقيت انتخابات الشيوخ وتعيين الخمسين من الاعضاء الذين تعينهم الوزارة القائمة فلم يبق مناص من تأليف الوزارة الدستورية لمباشرة هذا التعيين ، وعلى هذا أعرب سعد لمكاتب روتر عن رأيه حين سأله فقال : « اذا اتبعت القواعد الدستورية وجب على يحيى ابراهيم باشا أن يستقبل أمام حقيقتين كبيرتين : الأولى أن البلاد أوضحت رأيها بشكل لا يمكن الشك فيه ، والثانية أن رئيس الوزارة قد هزم في الانتخابات »

وبدا من هذا جلياً أن سعداً زعيم الكثرة البرلمانية لا يؤيد بقاء الوزارة إلى أن تتولى اختيار الشيوخ المعينين ، فاستقال يحيى ابراهيم باشا في السابع عشر من يناير ، وتأجل النظر في قبول استقالته إلى أن يعود الملك من السويس ، فلم تقبل إلا بعد عشرة أيام

وقبل اعلان قبولها يومين أدب النواب لسعد مأدبة كبرى في فندق شبرد خطب فيها مظلوم باشا وسعيد باشا راجياً ان يقبل سعد رأسه الوزارة اذا عرضت عليه ، فهض سعد وتلا خطاباً مكتوباً لم يشر فيه إلى شيء في قبول الوزارة ولكنه لم يشر فيه كذلك إلى رفضها ، وعرض على السامعين ما يصح أن يسمى برنامجاً وزارياً يسير عليه

وفي اليوم التالي لقبول استقالة الوزارة الابراهيمية دعى سعد إلى القصر الملكي فمكث في حضرة الملك نحو نصف ساعة ثم خرج وتلا على الجموع

المحتشدة في بيت الأمة نص الأمر الملكي الصادر بتأليف الوزارة وإسناد
رتبة الرأسة إليه

وفي ذلك اليوم كتب سعد بيانه الوزارى وهذانصه : —

مولاي صاحب الجلالة

إن الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتمكم ثقة الأمة ونوابها بشخصي
الضعيف توجب على والبلاد داخلة في نظام نيابي يقضى باحترام ارادتها ،
وارتكان حكومتها على ثقة وكلائها أن لا أنتحى عن مسئولية الحكم التي طالما
تهيئتها في ظروف أخرى ، وأن أشكل الوزارة التي شاءت جلالتمكم تكليفى
بتشكيلها ، من غير أن يعتبر قبولى لتحمل أعبائها اعترافاً بأية حالة أو حق
استنكره الوفد المصرى الذى لا أزال متشرفاً برأسته

« إن الانتخابات لأعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جلاء اجماع الأمة
على تمسكها بمبادئ الوفد التي ترمى إلى ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعي في
الاستقلال التام لمصر والسودان ، مع احترام المصالح الأجنبية التي لا تتعارض
مع هذا الاستقلال . كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم عليهم سياسياً
ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التي صدرت بعد ايقاف الجمعية
التشريعية وأنقصت من حقوق البلاد ، وحددت من حرية أفرادها ، وشكواها
من سوء التصرفات المالية والادارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ
الأمن وتحسين الأحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقدم
والعمران ، فكان حقاً على الوزارة التي هي وليدة تلك الانتخابات وعهدا
مسئولا منها أن توجه عنايتها إلى هذه المسائل الأهم فالمهم منها ، وتحصر أكبر
همها في البحث عن أحكم الطرق وأقربها إلى تحقيق رغبات الأمة فيها وازالة
أسباب الشكوى منها وتلافي ما هناك من الاضرار مع تحديد المسئوليات عنها
وتعيين المسئولين فيها ، وكل ذلك لا يتم على الوجه المرغوب إلا بمساعدة
البرلمان . ولهذا يكون من أول واجبات هذه الوزارة الاهتمام باعداد

ما يلزم لانعقاده في القريب العاجل وتحضير ما يحتاج الأمر إليه من المواد
والمعلومات لتمكينه من القيام بمهمة خطيرة الشأن

« ولقد لبثت الأمة زمناً طويلاً وهي تنظر إلى الحكومة نظر الطير للصائد
لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصماً قديراً يدبر السكيد لها لا وكيلاً أميناً يسعى
لخيرها ، وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً في ادارة البلاد وعاق
كثيراً من تقدمها . فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء
هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة ، وعلى اقتناع الكافة بأنها ليست إلا قسماً
من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدير شؤونها بحسب ما يقتضيه صالحها
العام . ولذلك يلزمها أن تعمل ما في وسعها لتقليل أسباب النزاع بين الأفراد
وبين العائلات واحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على اختلاف
أجناسهم وأديانهم ، كما يلزم أن تبث الروح الدستورية في جميع المصالح
وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع لأحكامه ، وذلك إنما يكون
بالقدوة الحسنة وعدم السماح لأى كان بالاستخفاف بها والاخلال بما تقتضيه
« هذا هو بروجرام وزارتي وضعته طبقاً لما أراه وتريده الأمة شاعراً
كل الشعور بأن القيام بتنفيذه ليس من الهنات الهيئات خصوصاً مع ضعف
قوتي واعتلال صحتي ، ودخول البلاد تحت نظام حرمت منه زمناً طويلاً .
ولكنني أعتمد في نجاحه على عناية الله وعطف جلالتهكم وتأييد البرلمان
ومعاونة الموظفين وجميع أهالى البلاد ونزلائها

« فأرجو إذا صادف استحسان جلالتهكم أن يصدر المرسوم السامى
بتشكيل الوزارة على الوجه الآتى مع تقليدى وزارة الداخلية :

« محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية ، وأحمد مظلوم باشا لوزارة
الأوقاف ، ومحمد فتح الله بركات باشا لوزارة الزراعة ، ومصطفى النحاس بك
لوزارة المواصلات ، ومحمد نجيب الغرابلى أفندى لوزارة الحقانية ، ومحمد
توفيق نسيم باشا لوزارة المالية ، وحسن حسيب باشا لوزارة الحرية والبحرية

ومر قص حنا بك لوزارة الأشغال العمومية ، وواصف بطرس غالى أفندى
لوزارة الخارجية

« وإنى على الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم »

ومن الملاحظات التى وردت على هذا البيان مالو حظ فى القصر الملكى
وهو أن رئيس الوزارة ذكر « الرعاية السامية التى قابل بها جلالة الملك ثقة
الامة ونوابها » فجعل الأصل فى ولاية الوزارة ثقة الناخبين

وإنه قال : « شاكر نعمتكم وخادم سدتكم » ولم يقل كما جرت العادة
« عبدكم الخاضع أو خادمكم المطيع »

ولوحظ فى الدوائر القضائية تعيين الأستاذ الغرابى لوزارة الحقانية
وفىها قدماء المستشارين وكبار الموظفين من رجال القانون ، وقد كان
لهذه الملاحظة صداها فنقل الأستاذ إلى وزارة الأوقاف ، كما لوحظ فى
الصحف والدوائر السياسية تعيين سعيد باشا لوزارة المعارف ، وهو رئيس
وزارة قديم وهى من الوزارات التى لا تعد فى الصف الأول بين وزارات
الحكومة ، وفهم من ذلك أن اشترك سعيد وصاحبيه مظلوم ونسيم فى الوزارة
إنما كان فى مقابلة الدور الذى داروا به لمعاونة الوفد على خصومه والتقريب
بين الوفد والقصر بعد سقوط الوزارة الثروته ، وليس اشترآكهم فيها عن
تجانس أصيل فى الميول والأفكار

ومن قبل ذلك لاحظ بعض الناقدین أن دخول سعد فى ميدان الانتخاب
يعد اعترافاً بتصریح ٢٨ فبراير الذى أنكره واحتج عليه ، وهى ملاحظة
لا محل لها من الاعتبار ، لأن تمثيل المصريين فى الحكومة حق لانزاع فيه ،
فاذا اعترف به الانجليز فليس ذلك سبباً داعياً لصاحب الحق إلى النزول عنه
وإسقاطه بيديه ، وقد دخلت جميع الأحزاب المصرية ميدان الانتخاب حتى
ما كان منها منكرآ للمفاوضات والمعاهدات مع الحكومة الانجليزية ، فلا
موجب إذن لانفراد الوفد بمقاطعة الانتخاب ، وهو لو قاطعه لما كان لذلك

من نتيجة إلا تمكين خصومه من ادعاء النيابة عن الأمة ، وأن يرموا باسمها
ما ياباه الوفد وتأباه

ولاحظ بعض الناقدین ان سعداً قبل الوزارة وكان عليه أن لا يقبلها ،
وأن يعهد بها الى أحد أنصاره وحلفائه ، لكلا يضطر وهو في الوزارة أن
يجيز مالا يجيزه الزعيم الوطنى فى حل القضية المصرية ، وفات هؤلاء أن
مجرد التنحى عن رئاسة الوزارة لهذا الغرض معناه اعلان الاستعداد للرضى
بما دون المطالب الوطنية ، واتخاذ المناورات المصطنعة لتسهيل النزول عن
تلك المطالب ، ثم ماذا يكون إذا تطلب الأمر موافقة النواب وسعد
رئيس النواب ؟ فليس هنا من ضرر يتقى باجتناى سعد رئاسة الوزارة عقب
الانتخابات الأولى ، ولكن الضرر كل الضرر فى ذلك الاجتناب . إنما ينبغى
للزعيم الوطنى أن يتنحى عن الانتخاب أو يتنحى عن رئاسة الوزارة إذا
حبطت وسيلة الدستور لتحقيق المصالح العامة والمطالب القومية وذلك تقدير
لا يطالب سعد بافترضه فى ذلك الحين ، ولو كان يعلم الغيب العلم القاطع
الذى لا مرأى فيه لوجب عليه أن يقنع الجماهير بما هو مقتنع به ، وأن يضع
أيديهم على الحقيقة بتجربة لا تحتمل الجدل

وخير مقياس نقيس به خطة من الخطط أن ننظر الى الخطة التى تناقضها
ونذهب معها الى جميع نتائجها لكى نوازن بين النتائج فى الحالتين ، وليس فى
نتائج رفض الانتخاب ورفض الوزارة فى ذلك الحين ما هو أجدى وأحق
بالاطمئنان من نتائج القبول على أسوأ الفروض

ومن ثم نحن من المعتقدين أن سعداً أصاب فى قبول الوزارة هذه المرة
وانه كان يخطئ لو رفضها بعذر من تلك الأعذار ، وليس منها ما يستحق المبالاة

فى أثناء وضع الدستور كان الملك فؤاد ينوى أن يجعل نصف مجلس

الشيوخ من المعينين وأن يكل إلى هذا المجلس حق النظر في الثقة بالوزارة
وبعد الانتخاب كان يأمر باستدعاء النواب الناجحين إلى القصر واحداً
بعد واحد ، لينشئ بينه وبينهم الصلة التي ينال بها من السلطان النيابي ما لم ينله
بنصوص الدستور

فلما استقر حكم الدستور على تعيين الخمسين من أعضاء مجلس الشيوخ
وحرمان هذا المجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة كان من رأى الملك
بداهة أن يتولى هو حق اختيار الأعضاء ولا يكون للوزارة إلا التنفيذ ،
وهكذا نجم أول خلاف بين الملك فؤاد وسعد في عهد الدستور ، وانحسم
الخلاف في حينه بتقرير المبدأ الذي يخول الوزارة حق الاختيار ، واجابة
الرغبة الملكية في ترشيح فئة من الأعضاء

ثم جاءت أزمة أخرى من أزمات المراسم والأشكال ، ولكنها تلبس
الخلاف بين الوفد وخصومه في صميم المبادئ الأصلية ، ساقها التقويم
السنوي في ركابه ولم يسقها أحد باختياره .

وذاك أن اليوم الخامس عشر من شهر مارس يقترب والحكومة القائمة
وفدية والبرلمان وفدى وتصريح ٢٨ فبراير نظام بغض لجميع هؤلاء . فكيف
يحتفلون بهذا اليوم ؟ لقد احتفلوا به في السنة الماضية لأنه عيد الاستقلال ،
والرأى الغالب بين المصريين أن الاستقلال لم يترتب ولن يترتب على ذلك
التصريح ، فهل يحتفلون به هذه السنة على هذا المعنى أو يهملونه مع ما يرتبط
به من تبليغات مصر إلى الدول وإعلان لقب صاحب الجلالة ؟ مشكلة بحق
من مشاكل الأيام . وقد حلها سعد باختيار ذلك اليوم لافتتاح البرلمان . فإذا
تعطلت فيه دواوين الحكومة فلن شاء أن يفهم أنها تتعطل احتفالاً بعيد
الدستور ، وافتتاح الهيئة النيابية الأولى في البلاد !

وهكذا كان ، وخرج سعد في ذلك اليوم إلى جانب الملك يفتتحان البرلمان

الأول ، وتلاحت الجماهير والجند بين قصر عابدين ودار النياحة . وسمع لأول مرة
هتاف الجماهير بحياة الملك وسعد في صوت واحد ، وكان شعار ذلك الموكب
« يعيش الملك ويحيى سعد » وهي كلمة لم تسمع قبل ذلك في أنحاء وادى النيل ،
إذ كان الحجاب كثيفاً بين القصر والرعية ، ولم يزل كذلك إلى أن عاد سعد
من منفاه ، فعوداً للجماهير كلما هتفوا بحياته أن يحييهم قائلاً بل نادوا : « لتحي
مصر . وليحي الملك » فكانوا يحيون عليه موقفين بين الأمرين : « يعيش
الملك ويحيى سعد » ... وكذلك كان هتافهم يوم اجتمع الملك وسعد في موكب
واحد ، ومن عجائب التقدير ان هذه البدعة الناشئة لم تقع من المسامع
الملكية موقع الاستحسان .

في رئاسة الوزارة

كان سعد باشا يقول إذا ذكرت وزارة الشعب الأولى وأزماتها
ومعضلاتها : « أن عيننا الأ كبر في تلك الوزارة أننا أخذناها جداً وصدقنا
أننا مستقلون !! »

وهذا عيب من وجهة النظر الانجليزية لاشك فيه ، لأن الذي كان مطلوباً
من سعد — على ما يظهر — هو أن يصدق أنه رئيس حكومة مستقلة ولكن
بمقدار ما يؤدي ثمن الاستقلال ويحمل ما فيه من المغارم والتكاليف ، ثم
ينسى الاستقلال كلها كان للسياسة البريطانية مطلب تبتيغيه ، وهو شأنه بعد
ذلك في تمثيل هذا الدور ذي الوجهين

لكنه لم يخلق لتمثيل دور ذي وجهين في رواية طويلة كرواية الاستقلال ،
فاكتفى بتمثيل الدور من جانب واحد وهو جانب الاستقلال الصحيح ،
ومضى في وزارته كما يمضى كل رئيس حكومة في أمة مستقلة ، وترك للسياسة
البريطانية أن تقنع بهذا الدور الصريح أو تعلن أغراضها الخفية من وراء
الظواهر والمراسم ، فتقوم هي بتمثيل الدور ذي الوجهين

بدأ وزارته بالافراج عن جميع السجناء السياسيين وألغى نفقات جيش
الاحتلال الانجليزي التي كانت تدرج في الميزانية المصرية ، كأن بقاء الاحتلال
مطلب من مطالب البلاد !

ورجع بالموظفين الانجليز إلى حدودهم القانونية التي ترسمها لهم صفتهم
الرسمية . وهي صفة المستشارين والخبراء الفنيين ، الذين هم موظفون يخدمون
الحكومة المصرية لا الحكومة الانجليزية ، يسألون فيجيبون بما يعلمون ،
ويتركون الرأي الأخير للوزير المسئول

وأصبح هؤلاء الموظفون خاضعين للقوانين بعد ان كانت إرادتهم وحدها هي القانون . فلما ظهر الخلل في أعمال بعضهم بوزارة المالية ووزارة المواصلات أمر بتحقيق التهم المنسوبة إليهم وقدم واحداً منهم إلى مجلس التأديب ، وأصر على تقديمه للمحاكمة على الرغم من احتجاج دار المندوب وكان على الحكومة المصرية أن تتلقى الأوامر من كل انجليزى له مصلحة أو هوى في السيطرة عليها ولو لم يكن من الموظفين ، فكان مستر كارتر يعمل — مثلاً — في تنظيف مقبرة « توت عنخ آمون » ويستبد بفتحها وإغلاقها حين يشاء ولمن يشاء ولا يبالي بما تقرره مصلحة الآثار من مواعيد الفتح والاعلاق . وكل حقه في المقبرة أنه رجل مرخص له في التنقيب عن الآثار بالشروط التي تسمح بها الحكومة لجميع المنقبين . فلما نبهته الحكومة إلى خطئه لم يكثر لها وأرسل إلى سعد باشا برقية ينذره فيها « بأفعال المدفن ومقاضاة الحكومة المصرية » . . . وهو ينتظر في هذه الحالة ما ينتظر من كل حكومة مصرية ينتهى إليها تهديد واحد من السادة المحتالين كيفما كان ، لأن المرجع في الوزارات لمستشار أو مفتش انجليزى ، وهو لا يقبل من المصريين أن يسمعوا هذا التهديد ولا يسرعوا إلى الخوف والأذعان ، فلما وصل الانذار إلى سعد كتب إليه يقول : « لكم الحرية في أن تقاضوا الحكومة ، ولكن الحكومة تريد ان تكون مواعيد الزيارات مصنونة ومحترمة ، وأما ما يتعلق باغلاق المدفن كما تقولون ، فانه يشق على أن اضطر إلى تذكيركم بأن المدفن ليس ملكاً لكم ، وأن العلم الذى تدعونه بحق لا يمكن أن يسلم باقدامكم مع زملائكم — من أجل أمر خاص بزيارة أفراد تريدون تمييزهم ، على ترك التنقيبات العلمية ، التي لا تهتم بها مصر وحدها أعظم إهتمام ، بل يهتم بها العالم كله أيضاً »

إنه جواب لا يعدو حدود الانصاف ولا حقوق الحكومة ، ولكنه قوبل بالاستياء بين الجالية الانجليزية . لأنه يخالف ما تعودوه ، لأنه يخالف الانصاف

ولما نهي إلى سعد أن السودان سيمثل رسمياً في معرض « ويمبلي » مع
المستعمرات البريطانية كتب إلى حاكم السودان يسأله : « على أي قاعدة
دعى السودان للاشتراك في هذا المعرض الخاص بالمستعمرات ؟ وكيف قبلتم
أن تشتروا فيه من غير إذن الحكومة المصرية ؟ »

فجاء الرد من دار المندوب البريطانى بأن حاكم السودان أبلغه نبأ
تلك البرقية وأنه كتب إلى حكومته يستفسر عن المسألة ، وسيكتب إلى
الحكومة المصرية بفحوى جوابها

فكتب سعد مرة أخرى إلى حاكم السودان يسأله ما سبب تأخير رده ؟
ويقول له « إن المسائل التي كلفتموها من شأنكم دون سواكم لتعلقها بأعمال
هي من خصائصكم . وإني ما زلت في إنتظار الرد منكم ، وأرجو أن لا يتأخر
الرد زيادة عما مضى »

وأبرق إلى وزير مصر المفوض بالعاصمة الانجليزية ليبلغ حكومتها
احتجاج مصر على دعوة السودان إلى معرض خاص بالمستعمرات البريطانية
بدون علم الحكومة المصرية ، وعلى قبول حاكم السودان الدعوة بغير إذن
من تلك الحكومة ، وفي كلا الأمرين إعتداء على حقوق مصر وعمل غير
وذى موجه للحكومة المصرية «

وقد جاءه الرد من الحاكم العام بالاعتذار من التأخير لأنه أبلغ المعلومات
المطلوبة إلى المندوب السامى الذى هو الطريق المعتاد للمخاطبة بين الحكومة
المصرية وحكومة السودان عملاً بالاجراءات المتبعة «

وجاءه الرد بهذا المعنى من اللورد اللبى مشفوعاً ببيان عن دعوة السودان
إلى المعرض يقول فيه : « ان الحكومة البريطانية لم يكن ليخطر لها أن تطلب
أخذ رأيها إذا وجهت الحكومة المصرية دعوة لحكومة السودان لتشارك
في معرض تجارى شبيه بهذا يعقد في مصر . وقد سبق أن قبلت حكومة
السودان مباشرة ودون رجوع إلى دار المندوب السامى أو الحكومة البريطانية

ما عرضته الحكومة المصرية من تخصيص حجرة لمعروضات السودان في المكتب المصرى للتجارة والصناعة بالقاهرة وذلك في يونيه سنة ١٩٢٠. ومن جهة أخرى فان معرض ويمبلى ليس وقفاً على الامبراطورية البريطانية بل إن فيه أشياء أخرى متنوعة ذات فائدة عامة ، مثل صورة لمسجد فارسى ونماذج لشلالات نياجرا ومعرض من التبت ، والسودان موصوف فى الخرائط والفهارس المعروضة فى القسم الخاص بأفريقيا الشرقية باسم السودان الانجليزى المصرى ، ولذلك لا محل لتساءل الزائرين للمعرض عن اشتراك السودان فيه »

وقد أجاب سعد بخطاب الى اللورد اللبى يقول فيه : « يتضح جلياً من نص المادة الثالثة من الاتفاق المذكور — اتفاق سنة ١٨٩٩ — أن حاكم السودان العام موظف يعينه ملك مصر ويستمد سلطته من هذا التعيين ذاته ، وتنص المادة الرابعة صراحة على أن كل إعلان للقوانين والأوامر واللوائح يجب أن يبلغ فى الحال إلى المعتمد البريطانى فى القاهرة والى رئيس مجلس نظار سمو الخديو المعظم ، وبناء عليه يكون الطريق الطبيعى الوحيد للتخاطب بين الحكومة المصرية وحاكم السودان العام انما هو الطريق المباشر وهذا ما قصده واضعو اتفاق سنة ١٨٩٩ . وفعلاً كانت الحكومة المصرية وحاكم السودان العام يتخاطبان مباشرة فى غضون المدة التى تلت توقيع الاتفاق ... »

ثم قال : « أما من جهة تمثيل السودان بمعرض ويمبلى فقد بينت انه بالنظر إلى الظروف التى حدث فيها لا يمكن أن يبرره الحكم الشئ ، فى ادارة السودان الداخلية ، كما أوضحت انه ما كان يوجد لدى الحكومة المصرية أى اعتراض على أن يمثل السودان فى معرض صناعى أو تجارى بحت ، وليس هذا حال معرض ويمبلى ، ولذلك احتججت على تمثيل السودان فى معرض المستعمرات البريطانية . ولا شك انه كان يسرنى الا يكون تمثيل السودان فى هذا المعرض الا فى نفس الموضع الذى وضع فيه تمثيل العجم والولايات

المتحدة وتبيت في المعرض المذكور . ولست في حاجة لأن أزيد على ما تقدم
انى آسف لأن الحادث وقع ونحن على أبواب المفاوضات . نعم ان مسألة
السودان كلها سيدور البحث عليها بينى وبين المستر مكدونالد ولكن من
واجبى أن أحتج على كل عمل اعتبره ماساً بحقوق مصر »

ولما حان موعد المفاوضات بين سعد ومكدنالد كان الاستقلال هو الحق
الأول الذى بنى عليه المفاوضات وجعله مبتدأ الحديث فيها ، ليكون ملحوظاً
بعد ذلك فى كل دعوى أو مطلب عن المصالح البريطانية ، وفى ذلك يقول
مستر مكدونالد من الكتاب الأبيض الذى صدر فى سابع اكتوبر :
« أثناء محادثاتي مع رئيس الوزارة المصرية أوضح لى زغلول باشا
ما هى التعديلات التى لا يرى بدمناً ادخالها فى الحالة الحاضرة فى مصر . فاذا
كنت قد فهمته حق الفهم فهذه التعديلات هى كما يأتى :

أولاً — سحب جميع القوات البريطانية من الأراضى المصرية

ثانياً — سحب المستشار المالى والمستشار القضائى

ثالثاً — زوال كل سيطرة بريطانية على الحكومة المصرية ، ولا سيما فى
العلاقات الخارجية التى ادعى زغلول باشا انها تعرقل بالمذكرة التى أرسلتها
الحكومة البريطانية إلى الدول الأجنبية فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ . قائلة ان
الحكومة البريطانية تعد كل سعى من دولة أخرى للتدخل فى شئون مصر
عملاً غير ودى

رابعاً — عدول الحكومة البريطانية عن دعواها حماية الأجانب
والأقليات فى مصر

خامساً — عدول الحكومة البريطانية عن دعواها لاشتراك بأية طريقة
كانت فى حماية قناة السويس

أما فى شأن السودان فانتى لفت النظر إلى بعض البيانات التى فاه بها

زغول باشا باعتباره رئيس مجلس الوزراء أمام البرلمان المصرى فى الصيف فى ١٧ مايو. ويؤخذ مما علمته فى هذا الصدد أن زغول باشا قال: « إن وجود قيادة الجيش المصرى العامة فى يد ضابط أجنبى وإبقاء ضباط بريطانيين فى هذا الجيش ، لا يتفق مع كرامة مصر المستقلة » فبدأ مثل هذا الشعور فى بيانات رسمية من رئيس الحكومة المصرية المسئول لم يقتصر على وضع السردار السرى ستاك باشا فى مركز صعب بل وضع جميع الضباط البريطانيين الملحقين بالجيش المصرى أيضاً فى هذا المركز

« ولم يفتنى أيضاً انه قد نقل لى أن زغول باشا أرمى لمصر فى شهر يونيو غاصبة الماضى حقوق ملكية السودان العامة ، ووصف الحكومة البريطانية بأنها « فلها حادثت زغول باشا فى ذلك قال لى إن الأقوال السابقة التى قالها لم يكن مردداً فيها صدق رأى البرلمان المصرى فقط ، بل رأى الأمة المصرية أيضاً ... »

وبعد العودة من المفاوضات أو شكت مدة المستشار القضائى أن تنتهى فرفض سعد إبقاء هذه الوظيفة وأبى تجديد العقد لمن كان يشغلها ، وكان ذلك فى الثانى عشر من شهر نوفمبر لذلك العام ، لأنه لم يذهب إلى المفاوضات ليكون كل ما كسبه منها أن يعود متطوعاً لتنفيذ السياسة الانجليزية ، قانعاً من قضيته بطلبات لا تجاب

لا جرم صدق سعد اننا مستقلون وعمل بما صدق !! لكننا نسأل هل كان فى وسعه أن لا يصدق ؟ وهل كان ينفعه عند الانجليز — فضلاً عن المصريين — أن يمثل الدور على وجهين ؟

إن الكثيرين ليفهمون أنه لم يفعل بمسلكه هذا فى الوزارة الا ما ينبغى لزعيم ينادى بقضية وطنية ، ولكنهم لو نظروا إلى الموقف من جميع جوانبه

لفهموا كذلك انه فعل ما ينبغي للسياسى اللبق الذى يلبس الواقع ويحذر
العواقب ، ولا يفرض فى شىء قلة أو أكثر من أجل « لاشىء »

ولا حاجة إلى القول بأن سعداً لم يكن يطمع من المفاوضات فى الوصول
إلى كل ما جاء فى الكتاب الأبيض من المطالب ، وهو نزول الانجليز دفعة
واحدة عن كل دعوى يدعونها وتهاونهم فى كل مصلحة يرومونها . ولكنه
كان مسؤولاً أن يقر الأمور فى نصابها ويضع القضية المصرية فى موضعها .
وليس فى استطاعته أن يأمل النجاح من مفاوضة يكون الأساس فيها أن مصر
هى المطالبة وانجلترا هى صاحبة الحق فى المنع والاعطاء ، وإنما الأساس
الصالح للمفاوضة أن مصر هى صاحبة الحق فى بلادها . وانها إذا قبلت أن
تراعى بعض المصالح البريطانية فذلك من حسن نيتها ورغبتها فى السلام
والصداقة . وقد سأل مستر مكيدنالد سعداً فى بداية المفاوضات : ماذا تطلبون ؟
فكان الجواب الطبيعى اننا لا نطلب من انجلترا سخاء ولا مبرة . وإنما شأن
البلاد المستقلة أن تكون على الصفة التى تقدمت فى الكتاب الأبيض : لا
احتلال ولا سيطرة على الحكومة فى سياستها الداخلية والخارجية ، وكل
ما نقص من ذلك فهو عطاء من مصر ، ودليل على الهوادة والرغبة فى الوفاق

هذا من جهة . ومن جهة أخرى يعلم سعد أن الانجليز لم يخلوا بينه وبين
الوزارة ليمكنوا له فى الحكم ويثبتوا مركزه من الزعامة ، ولكنهم أخلوا
بينه وبين الوزارة عسى أن تكبجه أعباء الحكم ومطامعه وتكف من غيرته
وشنآنه ، فيسمعوا من سعد الخاكم غير ما سمعوا من سعد الزعيم ، ولا يلبث
المصريون أن يروا زعيمهم على حال غير الذى عهدوه وضعف غير الذى
توقعوه . فيقال لهم إن الزعامة الوطنية ليست إلا جعجعة فى الخلاء يلغظ بها
غير المسئولين طمعاً فى المناصب ومنافسة على المآرب ، ثم يصبح الزعماء
وغير الزعماء سواء فيما يقبلون ويرفضون ، وفيما يعملون ويقولون ، وينذهب
عناء الأهم وجهادها مع الريح !

وعلى كون هذه النية واضحة من سوابق الانجليز مع سعد وازدادت وضوحاً في أيام الحكم وبعد تلك الأيام — لم يقتصر الأمر فيها على الظن والاستقراء بل فاه بها اللورد اللنبي فعلا في السودان بعد قيام الوزارة السعدية ، حيث راح يقول لمن يلقاه من رؤساء الانجليز الناقمين على تلك الوزارة : لقد وضعت زغلولاً في قفص ! وسنرى كيف يخرج منه أو يبقى فيه ولعله كان يقول ذلك ليحفظ مهابته ويدخل في روع رؤسياه إنه لم ينهزم ولم يكن رجوع زغلول إلى مصر ثم إلى الوزارة على كره منه وبغير تدبير مقصود على حسب رأيه ، ولكنه لم يقل في الحقيقة غير ما ينويه ، وينويه معه رجال دونج ستريت

ولا شك أن مستر مكدونالد كان يود — بل كان يتمنى — أن ينجح في حل القضية المصرية وإبرام الاتفاق بصددها مع سعد زغلول ، إلا أنه كان يود ذلك لنجاحه هو في توطيد وزارته المتداعية وإرضاء المحافظين والأحرار عن بقائه ، والحل الذي يرضى المحافظين عن وزارة عمال متداعية يريدون إسقاطها لن يكون نجاحاً لسعد ولا نجاحاً للقضية المصرية

ولقد دلت الطوالع من أحاديث مكدونالد وتصريحاته على العواقب التي يرجى أو يخشى أن تؤدي إليها ، فان مكدونالد كان يعلم أن سعداً لا يقر تصريح ٢٨ فبراير وان هذا التصريح لم يتيسر إعلانه في مصر إلا بعد أن يهد بنفيه إلى سيشل ، وإنه إذا جرت مفاوضات مع سعد فليس بالمعقول أن يقبل دخولها على أساس هذا التصريح . ومع هذا كان مكدونالد لا يفتأ يعلن مرة بعد مرة أن التصريح هو أساس ما يدعو إليه من مفاوضات ، وأن السياسة البريطانية لا تتحول في هذا الموضوع ، ولو أنه قال ان المفاوضات حرة من كل قيد لما اعتبر ذلك نزولاً من الحكومة البريطانية عن تصريحها ، ولكنه كان يبسر للزعيم المصري دخول المفاوضات على ذلك الأساس . فكأنما كان المقصود هو اضطرار سعد عاجلاً إلى الاعتراف بما لم يكن

يعترف به قبل الوزارة ، وهو يقدم على مفاوضات لا يضمن فيها النجاح ، وقد يكون كل ما يصيبه منها أن ينقض موقفه بيديه وأن يقيم الحججة عليه لخصومه ، وأن يسجل على نفسه التقلب من أجل المناصب الحكومية بين النقيض إلى النقيض

وما جاءت هذه المفاوضات إلا بعد مطاولة في المواعيد وتقاذف بالخطب والتصريحات وحوادث مدبرة في مصر والسودان ، وعزى في اثناء ذلك إلى مستر مكدونالد حديث جاء فيه انه « حدثت في الوقت نفسه حوادث يؤسف لها في السودان ، تقع المسؤولية في حدوثها على الحكومة المصرية بلا جدال . واني معتقد تمام الاعتقاد ان القلاقل الحديثة دبرها بعض أعضاء الحكومة المصرية ، وأن دولة زغلول باشا غض الطرف عن أعمال المتطرفين »

ثم انتهى الحديث بوعيد جاء فيه انه « لا يمكن بحال ما أن يكون هناك محل للكلام في جلاء الجنود البريطانية عن مصر أو ابعاد القوات البريطانية عن منطقة القناة وفي استطاعتي أن أقول إننا أعددنا العدة التامة لجميع الطوارئ » فاغضى سعد عن هذا الوعيد ، واكتفى بأن صرح في حديث مع مراسل الديلي اكسبرس بأنه أخذ تذكرة العودة إلى مصر في يوم ١٧ سبتمبر — وكان يومئذ في باريس — ثم قال : إنه ظل ينتظر أن تعين الحكومة البريطانية الزمان والمكان للاجتماع ولكنه لا يرغب أن ينتظر أكثر من ذلك الآن وبعد أن صرح مستر مكدونالد بأن مواعيدته المقبلة لا تسمح له بترتيب موعد قريب للمقابلة «

فكان لهذا التصريح أثره ، وكذب مستر مكدونالد الحديث المعزول إليه قائلا : « إنه دهش أشد الدهش لسماع ما عزى إليه ... ووصف أقوال المراسل بأنها مناورة خبيثة مما يسمونه صحافة » !

وكتب مستر مكدونالد الى سعد قائلا : « إنه يرغب رغبة شديدة في

الاشترك في إعادة حسن التفاهم في العلاقات بين البلدين ، وانه يكون مسروراً لمقابلته بلندن في أواخر هذا الشهر

وعلى ذلك سافر سعد إلى لندن ، فكان من المصادفات التي لها دلالتها أن وفد السودان الذي استقدمته الحكومة الانجليزية لتمثيل السودان في معرض ويمبلي كان بين المستقبلين على المحطة عند وصول سعد الى العاصمة الانجليزية وكان أشد الهاتفين هتافاً لاستقلال وادي النيل ، وشارك السودانيون رهط من أبناء الهند وفارس فجعلوا يهتفون بلغاتهم وباللغة الانجليزية لزعيم الشرق الكبير ، وكذبوا بذلك ما يقال من أن هذه المظاهرات لا تحصل حيث حصلت إلا بتدبير وتحضير

أنذرت الظواهر بالفشل من أول لقاء ، وكان مستر مكدونالد لم يكفه ما هنالك من النذر والعلامات فعمد الى « مناورة » صيدانية لا خير فيها غير التكدير والاساءة والاغراء بالتشائم والعناد . فبعد أن استقبل سعداً في حجرة بيته معتذراً بالمرض والاعياء ، جاءته رسالة على حين غرة فوثب مهرولاً الى الديوان ونسى مرضه وإعياءه ، وخرج يعتذر في غير اكثرات وكانه يقول : هناك مسائل لحجرة البيت ومسائل للديوان !! ولعله استكثر من رئيس وزارة مصرية أن يأتيه من مطاولة المواعيد ويستوثق من أساس المفاوضات قبل البدء فيها كما فعل سعد . فأراد أن يريه بهذه المناورة الصيدانية مبلغ ما تستحقه قضية مصر عند رئيس وزارة بريطانيا العظمى من لاحتفال والاهتمام وانقطعت المفاوضات في أوائل اكتوبر ولم تكمد تستغرق الأسبوع . وقال سعد لمراسلي الصحف الانجليزية : « ... لاحظت مع ذلك أن وزارة مكدونالد ترتطم الآن بصعاب عديدة جعلتها مهددة بالسقوط وقال لي مستر مكدونالد بالرغم من كثرة شواغله انه على استعداد للمناقشة وإيأى ، وليكني أختار المناقشة مع رجل أكثر حرية وأقل مشغلة منه ، وهو محاط بالشواغل من كل جانب

ولا يظن ظان أنتى أتيت إلى لوندرا الأوقع على اتفاق يمس حقوق مصر !
فمن ظن هذا وقع في الخطأ . إننى أتيت لا أكسب لا لأخسر . فإذا كنت لم
أكسب شيئاً فانتى لم أخسر شيئاً »

وقال فى حديث مع الماتان بعد عودته من باريس : « إن المحادثات
فشلت نظراً للتمسك بحفظ قوات بريطانية على قناة السويس ... وإنما إذا
كانت حماية القطر المصرى للقناة تلوح غير كافية فقد يقبل المصريون أن
يضعوا القناة تحت حماية عصبة الأمم . وإن مصر لا يسعها أن تتخلى عن
السودان »

وقال فى حديث مع البتى باريزيان : إنى قبل الدخول فى المحادثة
اشترطت أن الشروع فى المباحثات لا يمكن على أى وجه من الوجوه أن يمس
حقوق مصر أو يضر بها . ثم إن هناك أمراً تم التسليم به ، وهو انه إذا أفضت
المحادثات الى مفاوضات ، فان هذه المفاوضات تجرى على حد المساواة التامة ،
أو تكون مفاوضة الند للند »

فيرى من جميع ما تقدم أن سعداً الزعيم لم يسلك فى الوزارة إلا كما ينبغى
أن يسلك الوزير المحنك الخبير بعواقب الأمور . إنهم كانوا يسوقونه الى
شرك لا مفر له من الوقوع فيه أو النجاة منه ، وقد اختار هو النجاة واختار
لها آمن طريق ، وليس فى مقدور ناقد أن يدلّه على طريق آمن ولا أجدى
عليه وعلى القضية الوطنية مما توخاه

نعم كان فى الوسع تأجيل المفاوضات إلى موعد آخر . ولكن ماذا عسى
أن يفيد هذا التأجيل ؟ إن مستر مكدونالد إذا سقط فليس الذى يليه بأسهل
قياداً منه ولا أقرب إلى إجابة المصريين ، فالدخول فى المحادثات كان ضربة
لازب . وكان ضربة لازب أن تفشل ، وكان ضربة لازب مع هذا التقدير

أن يسلك سعد في مفاوضاته وفي علاقاته بالسياسة البريطانية مسلك الزعيم ،
وهو بعينه مسلك الوزير القدير والسياسي الخبير

* * *

على ان المتاعب قد صادمت الوزارة السعدية من اللحظة الأولى ولا سيما
في مسألة السودان . فلما أراد أن ينص في خطاب العرش على الاستقلال
التام لمصر والسودان حال بينه وبين ذلك عبرة الانذار الذي وجهته بريطانيا
العظمى الى جلالة الملك مباشرة — في عهد الوزارة النسيمية — لاشتمال
الدستور على اسم « ملك مصر والسودان » . ولم يشأ صاحب العرش أن
يستهدف لازمة أخرى من ذلك القبيل . فاستغنى سعد عن عبارة تحقيق
الاستقلال التام لمصر والسودان بعبارة « تحقيق الأمانى القومية بالنسبة
لمصر والسودان »

وهي العبارة التي أوشكت أن تدفع بسعد الى الاستقالة ، حين تعرض
النواب لها بالتعديل والتفسير ، وقد اتبعها في بعض أحاديثه بتفسير
يقول فيه إن الآمال القومية هي الاستقلال التام

وما زالت مسألة السودان مثار السؤال والجدال والاحراج والتعننت من
خصوم سعد الانجليز والمصريين في وقت واحد ، كلا الفريقين يريد أن
ينقلب المنصب الوزاري على سعد شركا مردياً ، وكلاهما يريد أن يرى كيف
يعجز ويفشل ، ولا يريد أن يرى كيف يقدر وينجو بكرامة الزعامة
وكرامة القضية .

فالمعارضون في مجلس النواب يطالبونه بعرض ميزانية السودان كما كانت
تعرض على مجلس الشورى ، وهي أخرى أن تعرض على أول برلمان
والموظفون الانجليز في السودان يجمعون الأذنان والأتباع ليعلموا
ولا هم للحكومة البريطانية دون غيرها ، واستمسا بهم بالتبعية والاخلاص
لتلك الحكومة العادلة المحبوبة تعريضاً بحكومة المصريين

وإذا قوبلت هذه المظاهرة بمظاهرة من السودانيين المتعلقين بوحدة
وادي النيل حل بهم البطش الشديد وحق بهم العذاب الأليم
فاذا شكوا الى الحكومة السعدية ، وليس لهم من يشكون اليه غيرها ،
نحوصم سعد الانجليز يمعنون في إحراجه بزيادة البطش والتعذيب وخصومه
المصريون يمعنون في إحراجه بطلب الافراج عن المعاقبين وتعجيل الحساب
والعقاب للموظفين المسؤولين ، وكان من هذا وذاك أنه استقال ولم يكده
يمضى على الوزارة ثلاثة أشهر

استقال بعد تصريح اللورد بارمور باسم الحكومة البريطانية —
حكومة العمال — « بأن الحكومة البريطانية لن تترك السودان بأى
معنى كان » .

فأجاب سعد على هذا التصريح بتصريح مثله في مجلسي النواب والشيوخ
جاء فيه : —

« إننى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه ، وفى حضرته تكلم الموقرة ،
أصرح بأن الأمة المصرية لن تتنازل عن السودان ما حيت وما عاشت ...
إن حقوق الأمم لا تضيع بمجرد أن يقول الغاصب إنى أريد أن أتمتع بها
دون أصحابها نعم أيها السادة لا يمكننا مطلقاً أن نتنازل عن السودان ،
لا لأنه مستعمرة ، بل لأنه جزء من كياننا ، بل لأنه منبع حياتنا ، بل لأنه
لا يمكن لمصر أن تعيش بدون السودان أصلاً »

وربما ظنت الحكومة البريطانية أنها تبيح نفسها مثل ذلك التصريح دون
أن يجسر سعد على اباحة مثله لنفسه ، لأنه قائم فى منصب الوزارة ، فيسمعه
ويغضى عنه ويذهب الى المفاوضة وهو مسلم به سكو تاً قبل أن يسلم به مقالاً !
فكانت اجابته على التصريح بمثله حتماً ، وكان حتماً معها أن يعرب عن زهده
فى الوزارة التى يحسبونها قيماً له يجبره على الاغضاء ، وقد استقال فرفض

الملك قبول استقالته ، وأبدى له كما أبدى الشيوخ والنواب إن فيما صرح به
الكفاية للرد على التصريحات الانجليزية

لم يكن المقصود إذن أن يرى خصومه الانجليز والمصريون كيف يعمل
في الوزارة بل كان المقصود أن يروا كيف يعجز عن العمل وكيف يتغير في
الوزارة ويخل بأمانة الزعامة فلا هو وزير ولا زعيم ، وليس له وهو محاط
بهذه النيات المدخولة أن يصنع غير ما صنع وأن يعالج الشرك المنسوب بغير
ما عالج به من ثبات ومراس ، هما في وقت واحد إقدام الزعامة وحيلة السياسة ،
وإخلاص المجاهد وحيطة الأريب

ولقد أصيبت وزارة سعد بالأجرام كما أصيبت بالأحراج ، ف وقعت في عهدها
جنايتان وييلتان ، احدهما موجهة إلى حياته والأخرى موجهة إلى وزارته ،
وكلتاهما لها مساس بالمفاوضات ، وكلتاهما في اعتقاد سعد من تدبير واحد
أما الجناية الأولى فهي حادثة الاعتداء عليه في محطة العاصمة حين كان
ينوى السفر إلى الاسكندرية لحضور تشريفات عيد الأضحى (١٢ يولييه
سنة ١٩٢٤)

اعتدى عليه شاب مفتون من أعداء المفاوضات لأنها في رأيهم تصد الأمة
عن سبيل الجهاد الناجع ، وقال في التحقيق انه تعمد ارهاب سعد لأنه يرغب
في المفاوضات ، ولأنه قال إن الانجليز خصوم شرفاء معقولون «
وقد أصابته الرصاصة في الساعد الأيمن ثم في صدره ، وحاول الجاني
أن يطلق غيرها فتكاثرت عليه الجماهير ، وهموا بتمزيقه لولا رجال الشرطة
الذين أحاطوا به فأنقذوه ، ومن غرائب ما حدث في هذا الاعتداء أن
المسدس الذي كان مع الجاني اختفى عقب الاعتداء فلم يعثر له على أثر ،
وشهد محام كان على مقربة من الجاني انه رأى ضابطا انجليزيا من ضباط الشرطة
يخفيه في جيبه ، وأنكر الضابط ذلك واعترف بأنه أخفى شيئا في جيبه ولكنه
كان مقبض المنشة التي كان يحملها وانكسرت في الزحام

وأشرف على التحقيق بعض الوزراء ، واستمر على الاشراف عليه حسن نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف يومذاك ، وبعد بحث طويل أحيل الجاني إلى الكشف الطبي فقرر الدكتور ددجن كبير الأطباء العقلين انه مجنون وتقرر اعتقاله في مستشفى المجاذيب ، وهو المعتدى الوحيد على الوزراء الذي صار إلى هذا المصير

لقد تبينت شجاعة سعد منذ صباه في شدائد السجن والنفي والاضطهاد كما تبينت شجاعته بالجهر برأيه وامضاء عزمه ولو تصدى لاغضاب أقوى الأقوياء . ففي هذه الجناية تبينت منه شجاعة أخرى قد لا يتاح ظهورها كثيرا في حياة الابطال المجاهدين بسلاح الحججة والايمان لا بسلاح النار والحديد ، وتلك هي شجاعة الرجل في وجه الموت الداهم وهو منه على يقين . فقد نفذت الرصاصة إلى صدره وهو مصاب بثتى الامراض التي لا تؤمن معها الجراح إذا نجح صاحبها من الموت بفتك الرصاص ، فما وجم ولا تردد ولا فكر لحظة فيما أصابه ، وليث كأنه ينظر إلى مصاب أحد لا يعنيه ، والتفت إلى الوزراء الباكين حوله يقول لهم : « لا تحزنوا .. ولا تبتئسوا ... إذا مات سعد فبدأ سعد باق لا يموت . اعملوا من بعدى وثابروا على تحقيق سعي » ولما قال بعض الوزراء : إن الله أرحم بمصر من أن تصاب بسوء ، عاد يقول : وماذا في ذلك ؟ نحن ميتون . فلنمت نحن وليحي الوطن

ونظر إلى جماهير الطلبة والشبان وهي تندفع على باب الحجره التي نقل إليها ، فوثب على قدميه وجرحه لا يزال ينزف ، وناداهم بصوت جهير يضرم الحمية في النفوس « لا تكتئبوا ولا تهتموا . إلى الامام . دائما إلى الامام ! ثم قالها بالفرنسية En Avant ...! En Avant

أما الجناية الثانية — وهي التي اعتبرها سعد مواجهة «ضده» كما قال عند سماع خبرها — فهي حادثة الاعتداء على «السرदार» لى ستاك باشا بعد عودته من المفاوضات بنحو شهر واحد

فقد عاد سعد من المفاوضات فوجد خصومه مجدين في محاربتة بالشغب تارة والدسياسة تارة أخرى ، وسعى هؤلاء الخصوم بالوقعة عند الأزهرين لأنهم يعلمون من ماضى سعد انه هو صاحب الرأى قديما فى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى التى تخرج القضاة الشرعيين ، وأن الأزهريين كانوا ينقمون من نشأة هذه المدرسة لأنهم يطلبون أن تنحصر فيهم وظائف القضاء وما إليها من وظائف التعليم الدينى وتعليم اللغة العربية قبل السماح باجراء الاصلاح فى برامج التعليم الأزهرية ، وكانوا قد عرضوا على الوزارة السعدية مطالب لتحسين أحوالهم فألفت الوزارة لجنة خاصة لدرسها والاشارة بما تراه فيها ، وعاد سعد من المفاوضات فاستشارهم خصومه مدخلين فى روعهم أن مدرسة القضاء عائدة وأن مطالبهم غير مجابة . فخرجوا فى الطرقات يتظاهرون ويهتفون ويعرضون بسعد فى هتافهم مهددين متوعدين ، ونسوا أو نسى صغارهم ان أمر المعاهد الدينية بيد الملك لا بيد الوزارة ، فاذا تأخرت اجابة المطالب فليست الوزارة صاحبة الرأى الفصل فى التأخير او فى الرفض والقبول

ثم تعاقبت أمثال هذه الدسائس والسعايات واجترأ بعض الموظفين على الخوض فيها والحض عليها لا اعتقادهم أن الملك فؤاداً من جهة وأن الانجليز من جهة أخرى يرحبون باضعاف الوزارة السعدية وتنفيذ الناس منها ولا سيما رجال الدين والموظفين

وكان يساعد على سريان التذمر بين طبقة الموظفين أن الوزارة فكرت فى إصلاح نظام الدرجات والترقية والتعيين ، فخشى جمهرة منهم أن يتبع ذلك نقص المرتبات أو الاستغناء عن بعض الوظائف ، واستقال أحد الوزراء وهو محمد توفيق نسيم باشا المعروف بعلاقاته بالقصر الملكى فكان هذا وأشباهه من دواعى الظن بقرب أيام الوزارة وسهولة الخروج عليها والاساءة اليها

وهكذا توالى الأزمات والمشكلات والمساعي الظاهرة والخفية ، فبرم سعد بما يلقاه من كل ذلك وقدم استقالته إلى جلالة الملك في منتصف شهر نوفمبر مينا لجلالته الأسباب الصريحة التي تدعوه إلى الاستقالة ، وفيها أن أناساً من كبار الموظفين المنسوبين إلى القصر يستخدمون اسم جلالته لمحاربة الوزارة في الخفاء . . . فقال له جلالته انه يثق به ويعتمد عليه ، ورغب في عدوله عن عزمه ، فاعتذر بأنه قد فرغ من التفكير في هذا الموضوع

فقال الملك لنبق المسألة إذن إلى غد . وحدث في هذه الاثناء أن الشيوخ والنواب أوفدوا إلى جلالة الملك من يتوسل إليه أن لا يقبل الاستقالة ، وأوفدوا إلى سعد من يرجوه العدول عنها . فقبل أخيراً أن يستعفى من الاستعفاء كما قال ، ولكنه طلب إلى جلالة الملك تأكيداً للثقة وقطعاً لدسائس الدسائس أن تدخل مسائل الأزهر والمعاهد الدينية ومناصب السلك السياسي ومناصب القصر والرتب والنياشين في اختصاص مجلس الوزراء . ولكل طلبة من هذه الطلبات سبب من الحوادث التي مرت بالوزارة السعدية وبخاصة في الايام الأخيرة

فهو يريد أن تنظر الوزارة في مسائل الأزهر ليكون مسئولا حقا عن الاصلاح لا ليحرجه المحرجون بطلب الاصلاح ويمنعوه عمداً مبالغة في الاحراج ، وهم يتظاهرون بصدقة الأزهريين

ويريد أن تنظر الوزارة في مناصب السلك السياسي لثلاثيتمادي الوزراء المفوضون والسفراء في إحراجها مع الدول — كما حدث من بعضهم في أوائل قيام البرلمان — وهم آمنون ما يستحقون من جزاء

ويريد أن تنظر الوزارة في مناصب القصر والانعام بالرتب والنياشين لأنه طلب اقضاء حسن نشأت باشا من وكالة الأوقاف فنقل إلى القصر وجاء على أثر ذلك إلى شرفات مجاس النواب وهو يتشج بالوشاح الاكبر من نوط النيل ، وقد أنعم به عليه بغير رأى الوزارة

فأجاب الملك سعداً إلى هذه الطلبات ، ووعدته أن تضاف إلى صلب الدستور ، وأن يشرع في ذلك عقب رد الاستقالة إذا شاء

هذا في اليوم السادس عشر من نوفمبر ، وفي اليوم السابع عشر أعلن سعد في مجلس النواب والشيوخ أنه « تشرف أمس بمقابلة جلالة الملك فأعرب له أنه متفق تمام الاتفاق مع الأمة ومجلس الشيوخ والنواب في الثقة بالوزارة ، وإنه أمام هذا الأجماع لا يسعه قبول استعفاء الوزارة ، وبناء على هذا وعلى التصريحات التي لظفت من عبء العمل عليه ومن عنائه ، لم يبدأ من سحب الاستقالة والعود إلى العمل في حدود صحته »

سبق إلى بعض الظنون أن الوزارة سوف تستريح برهة بعد عودتها إلى العمل لتتفرغ لشؤون الإصلاح التي شغلتها عنها الأزمات السياسية ، ولكن لم يمض يوم واحد حتى وقع الاعتداء على حياة السردار « لى ستاك باشا » وهو خارج من وزارة الحربية ، ولسوء الحظ كان الرجل على نية السفر إلى السودان قبل ذلك بيوم ، ثم أرجأ سفره لحضور مأدبة أقيمت له في القاهرة ، فصادفته المنية على أيدي أولئك الجناة

ولو شاءت السياسة البريطانية لعلمت أن جنائية كهذه قد وقعت في العاصمة الانجليزية — وهي قتل المارشال ولسون — فلم يقل أحد إنها دليل على خلل الحكومة أو سوء النية أو التقصير في حفظ الأمن والنظام

ولو شاءت لعلمت أن سعداً خليق أن يكره وقوع هذا الاعتداء أشد من كراهة الحكومة البريطانية ، لأنه اعتداء يصيبه هو ويصيب وزارته ويصيب الحكومة النياية التي يمثلها ، ولا ينفعه في شيء بل ينفع خصومه من الانجليز والمصريين

ولو شاءت لعلمت أنه قد أصيب باعتداء على حياته من جراء المفاوضات قبل أن ينزع الجناة إلى إصابة حاكم السودان
ولو شاءت لعلمت أن حاكم السودان هو قائد الجيش المصرى ولا مانع

يمنعه من « تقدير الظروف » وحماية حياته بما لديه من الحراس والجنود ،
وليس بالانصاف ولا بالميسور أن تطالب الوزارة السعدية بعناية أكبر من
عناية الرجل بنفسه ، وفي البلاد « إدارة أوربية » للأمن والاستعلامات
لا يفوتها الانتباه والتحذير

ولكن السياسة البريطانية لم تشأ أن تعلم شيئاً من ذلك وهو معلوم غير
مجهول ، وكل ماشاءته أنها اغتتمت الفرصة كأنها كانت في انتظارها أو كانت
تشفق أن تضيع منها ، وهي قد كانت حقاً في انتظار فرصة تزعج بها الوزارة
السعدية جهد ما استطاعت من إزعاج

قال اللورد جورج لويد في الجزء الثاني من كتابه « مصر منذ عهد كرومر » :
« تخلت وزارة مستر رامزي مكدونالد عن الحكم في نهاية أكتوبر
وخلفتها وزارة محافظة تولى فيها مستر أوستن شميرلن وزارة الخارجية .
وكان مستر مكدونالد يفكر — بمعاونة المندوب البريطانى — فى توجيه
تبليغ إلى الحكومة المصرية يسرد لها المخالفات المكررة التى خالفت بها
النظام المتبع أو الحالة الواقعة . فواصل مستر شميرلن بحثه مع القاهرة فى
الصيغة التى يفرغ فيها هذا التبليغ ، وكانت هذه المخالفات تزداد أثناء ذلك
وآخرها رفض زغلول فى الثامن عشر من نوفمبر بقاء وظيفة المستشار القضائى
وامتناعه من تجديد العقد للسرم . إيموس الذى كان يشغلها إذ ذاك »

سنتحت الفرصة إذن فينبغى أن لا تضيع ، وبلغ من التهافت على
انتهازها أنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة إخفاء النية المبيتة وراءها ، فجاء فى
الانذار البريطانى أنهم يطلبون من الحكومة المصرية « أن تبلىح المصلحة
المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الأطيان التى تزرع فى الجزيرة ،
فبدلاً من أن تكون ثلاثمائة ألف فدان تكون غير معينة المقدار على نسبة
ما تقتضيه الحاجة » . . . وجاء فى ملحق الانذار « ان القوانين والشروط
الخاصة بخدمة الموظفين الأجانب الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية

وتأديهم وخروجهم من الخدمة ، يجب أن يعاد النظر فيها وتنقح طبقاً لرغبة الحكومة البريطانية « وإنه » إلى أن يتم الاتفاق بين الحكومتين على موضوع حماية مصالح الأجانب في مصر تحافظ الحكومة المصرية على مركز المستشار المالي ومركز المستشار القضائي ، وتحترم سلطتهما وإمتهانتهما كما نص عليهما عند إلغاء الحماية ، وتحترم بالمثل مركز المكتب الأوروبي في وزارة الداخلية ، ومهام المالية كما حددت بالقرار الوزاري ، وتأخذ بعين الاعتبار المشورة التي يقدمها مديره العام في الأمور الداخلة في اختصاصه »

أما الطلبات الأخرى فمنها الاعتذار الوافي السكاني ، ووقع كل مظاهرة شعبية سياسية ، ودفع نصف مليون جنيه ، وإصدار الأوامر برفع الضباط المصريين والوحدات المصرية البحتة في الجيش المصري من السودان خلال أربع وعشرين ساعة . . . ومهد لهذه الطلبات بعبارة جاء فيها ان حكومة جلالة الملك « ترى أن هذا الاغتيال — الذي يعرض مصر بالحالة التي تحكم بها الآن إلى إزدراء الشعوب المتمدينة — هو النتيجة الطبيعية لحملة عدوانية على حقوق بريطانيا العظمى وعلى الرعايا البريطانيين في مصر والسودان » وعلم اللورد اللنبي أن أمنيته المرقوبة قد حانت آخر الأمر فاحتفى ماشاء بمظاهر التخويف والتشفي والارهاب ، وذهب في ركب يتقدمه مئات من حاملي الرماح إلى مجلس الوزراء ، وأعلن وصوله بنفخ الأبواق وقعقة السلاح ، فلم يتمالك سعد كعادته أن يلبح الجانب المضحك من هذه المبالغة في استغلال فاجعة اليمية ، وقال واللورد اللنبي يدخل عليه : « ماذا ؟ هل أعلنت الحرب ؟ ! »

أما جواب الحكومة المصرية على الانذار فقد قبلت فيه ماله علاقة بالجريمة كالاغتيال ودفع التعويض واقتفاء أثر الجناة ومنع المظاهرات المخلة بالنظام ، ولم تقبل ما عدا ذلك من المطالب التي لا علاقة لها بسبب الانذار ، فغاضى إلا ساعات حتى أخذت البلاغات تتعاقب من اللورد اللنبي بأنه أمر

حكومة السودان أن تسرح الضباط المصريين وأن تطلق يدها في زراعة الجزيرة ، وانه سيتخذ ماشا. لحماية الأجانب ، وأنه سيحتل الجمارك ويتبع ذلك بضروب أخرى من النذر والقوارع

وكانت الوزارة قد رفعت استقالتها إلى جلالة الملك فلما تعاقبت هذه التبليغات كتبت إلى جلالته عريضة تقول فيها انها « ازام هذه التعدييات المتتالية المضرة بالبلاد لايسع الوزارة إلا أن تلح على جلالتهكم بأن تتفضل بالأسراع في قبول الاستقالة ، لأنه ربما كان في هذه الاستقالة وفي ثبوتها ما يبق شر الأضرار المتواليية » فقبل جلالته الاستقالة وأعلن سعد في المجلسين قبولها ، وعقب على ذلك بقوله : « كذلك أصرح لكم أنا وزملائي بأننا مستعدون بكل إخلاص لأن نؤيد في مجلس النواب الذى نحن أعضاء فيه كل وزارة تشتغل لمصلحة البلاد ، ليس فينا عاطفة معارضة إلا فيما يختص بالمصلحة العامة ، فاننا نخدم هذه المصلحة ونؤيد كل من يؤيد هذه المصلحة » وبذلك تم للسياسة البريطانية ما أرادته من إقصاء سعد ، وان لم يتم لهما ما هو أفضل لديها من الاستقالة العاجلة ، وهو قبول المطالب ثم معاودة الاحراج لاقتضائه بعد حين

وأن الانسان لا يدري بعد ذلك هل تعتبر السياسة الاستعمارية هذه الحوادث من المصادفات السعيدة أو من الفواجع المخدورة !
فمقتل غردون فى الخرطوم — وإنما قتل لأن الانجليز القابضين على الحكومة المصرية لم يبادروا إلى إنقاذه — قد أ كسب السياسة الاستعمارية نصف السودان وهو القطر الذى يعدل القارات فى الاتساع وخصوبة الموارد ولا تنال الدول مثله إلا بسفك دماء العشرات من القواد وعشرات الألوف من الجنود

وقالت السياسة الاستعمارية يومئذ أنها لا تشارك مصرأ فى السودان

لأنها تدعى حقاً في ملكه أو السيادة عليه ، ولما كمنها تريد هذه الشركة توسلا
بها إلى منع سريان الامتيازات الأجنبية عليه ، وهي تسرى على كل قطر تابع
للدولة العثمانية ، وقد يكون في سريانها على السودان تعطيل لاصلاحه وتقييد
لحرية المصريين في حكمه ... وفيما عدا ذلك لا مطمع للدولة البريطانية في
الحكم ولا في الاستغلال

وباسم مصر وحقها احتجت إنجلترا على فرنسا حين احتل القائد مرشان
فاشودة لأن التعليمات قد صدرت « بتوطيد السيادة المصرية على ذلك
الاقليم »

وباسم مصر وحقها دفعت الخزانة المصرية أكثر من عشرين مليوناً من
الجنيهات لتعمير السودان وحراسته وتحصينه وتسديد العجز في موارده !
ثم جاء مقتل لى ستاك بعد مقتل غردون بنحو أربعين سنة فضيع على مصر
كل ما بذلته من مالها ودمها في العصور القديمة والحديثة ، ونقل ذلك حلالاً
زلالاً سائغاً إلى أيدي السياسة الاستعمارية تتخذة ذريعة إلى زرع ما تشاء من
الأرض ، واقصاء جميع الموظفين المصريين ، وطرده الجيش المصرى كله ، مع
تكليف الخزانة المصرية سبعمائة وخمسين ألف جنيه للدفاع عن السودان !
إن السياسة الاستعمارية لو راجعت نفسها لحارت كما نحار نحن فلم تدر
هل هذه الحوادث من المصادفات السعيدة أو من البلاء المحذور !

ونعود إلى مصاعب الوزارة السعدية فنقول إن الشواغل والأزمات
لم تكن موقوفة على العلاقات المصرية الانجليزية وحدها وما يتفرع عليها .
فإن الوزارة السعدية لم تقم في الحكم أياماً حتى قابلتها مشكلة عسيرة مع
الحكومة الإيطالية ، وهي الحاج هذه الحكومة في تسليم عشرة من اللاجئيين
السياسيين من أهل طرابلس قدموا إلى مصر واعتقلتهم الوزارة الإبراهيمية
قبل قيام الوزارة السعدية . وكانت حكومة موسليني تأتي أن تقنع بما دون

التسليم ، وثار تآثر الأمة المصرية لهذه المطاردة العنيفة لأناس لم يقترفوا من وذر إلا الدفاع عن حرية بلادهم كما يحق لكل انسان ، بل كما يجب على كل انسان . واحتمت النفوس غيظاً من هذا اللدد الغريب في ملاحقة اللاجئين بالعقاب بعد أن هجروا ديارهم وألقوا سلاحهم وذاقوا مرارة الخيبة والهزيمة ، كما تهاجم الواترون وايطاليا هي المتورة المعتدى عليها التي لا ينبغي لها أن تنسى جزاء الوتر والعدوان

والطرابلسيون بعد جيران المصريين واخوانهم في اللغة والدين وفي قضية الحرية والاستقلال ، والوزارة السعدية لا تشعر إلا بهذا الشعور ولا يحمل بها وعلى رأسها زعيم المجاهدين الوطنيين في الشرق العربي أن تسلم بيديها أولئك الغرباء المساكين للموت والبلاء . فرفضت تسليمهم وأصرت على الرفض كل الاصرار ، وخشيت في الوقت نفسه أن يتفاقم الخلاف بينها وبين الحكومة الايطالية تفاقماً يجر الى دخول الحكومة البريطانية في القضية ... لأنها مسؤولة — كما تدعى — عن حماية الأجانب وعن علاقات مصر الخارجية حيث يؤذن الخلاف بتعريض مصر لاعتداء أو تهديد من إحدى الدول القوية ! فتوسط سعد في فض هذه المشكلة بحل لا يسخط الحكومة الايطالية كل السخط وإن كان لا يرضى المصريين كل الرضا ، واكتفى باطلاق اللاجئين المعتقلين ليبرحوا القطر إلى حيث يشاءون

ولم ينته الخلاف مع ايطاليا بهذه المشكلة بل نشبت بعدها مشكلة أخرى لا كراه الحكومة المصرية على ضم واحة جغبوب إلى البلاد الطرابلسية ، وقد استغرب الناس هذا التحرش بالوزارة السعدية من الحكومة الايطالية حتى بدر إلى ظنهم انها مغرارة بذلك من أناس يتصلون بها ويجوز أن يحرضوها على خلق الأزمات لاجراج سعد وتكبير المصاعب عليه ، وطال الأخذ والرد في هذه المشكلة ، حتى انتهت بالاتفاق بين قائد السلوم ومنسحب الحكومة الايطالية على حد موقوفات بين مصر وطرابلس تدخل به جغبوب

والسلوم في الأرض المصرية ، وسرعان ما عادت الحكومة الإيطالية وحدها
الى تغيير هذا الحد بغير مشاورة ولا استئذان !

يضاف الى هذه المشاكل كلها شواغل البرلمان الأول التي لا بد منها ، فقد
كان على الوزارة البرلمانية الأولى أن تعرض عليه جميع القوانين والمعاهدات
التي حدثت بعد فض الجمعية التشريعية ، وكان عليها وعلى البرلمان أن يشتركا
في ترتيب نظامه الداخلي وعلاقته بالوزارة ومصالح الحكومة ، وأن يشتركا
في تعديل قانون الانتخاب على الوجه الذي يرضاه السعديون ، وهم لا يرضون
عن قانون الدرجتين

والبرلمان هل كان يخلو من صعوباته ؟ وهل كانت الوزارة السعدية لا
تحسب حسابه الا لتستعين به على خصومها في جميع قراراته ومناقشاته ؟
كلا ! فقد كانت لأبي الديمقراطية المصرية صعوباته ومساجلاته أيضاً مع
البرلمان بمجلسيه من نواب وشيوخ ، وكان يحتاج أحيانا إلى قوته كلها ليروض
بها قوة هذا البرلمان . ولا نعني المعارضة وحسب فانها لم تكن تتجاوز عشر
المجلسين في عدة الأعضاء ، ولكننا نعني الأعضاء الوفديين وهم أنصار سعد
وأبناؤه ومريدوه ، وكانت تتألف منهم الهيئة الوفدية التي اكتمل تأليفها بعد
انعقاد البرلمان بنحو شهرين لتنظيم المناقشات ومنع الاحتكاك بينها وبين
الوزارة ، وقال سعد في خطابه لأعضائها من مجلس النواب : « النظام يتطلب من
كل منكم أن ينزل عن جزء يسير من حريته حتى تجتمع الحرية كاملة من هذه
الأجزاء للهيئة التي قبلتم العمل تحت لوائها ، والحرية متوافرة من قبل في اختيار
الهيئة التي تتضامنون معها واختيار النظام الذي تسيرون عليه فلا معنى للقول بأن
الحرية تنعدم مع النظام . ان الحكومة منكم وأنتم عضد الحكومة ، فيجب
أن تكون هيئتكم منظمة ليتمكن أن يكون سير الحكومة منظما »
ومع هذا لم تخل جلسات الشيوخ والنواب من معارضة للحكومة في أمور

أصرت فيها الحكومة على رأيها وأصروا فيها على رأيهم ، فلم يرجعوا عنه بعد طول المساجلة والجدال

أودعت الحكومة القوانين التي صدرت قبل اجتماع البرلمان مكتب مجلس النواب وفيها قانون الاجتماعات المنظم لحق الاجتماع المباح بحكم الدستور في حدود القانون ، فنظر مجلس النواب هذا القانون في غيبة الوزارة دون أن يكون مدرجا بجدول الأعمال ، وقرر الغاءه الغاء باتأ بلا تقييد ولا تعديل ... فجاء سعد في الجلسة التالية (٢ يوليو) ولاحظ على مبدأ نظر القوانين في غيبة الحكومة المصرية قائلا أن : « المسألة التي أريد عرضها على حضراتكم هي انكم نظرتم قانون الاجتماعات مع انه غير وارد بجدول الأعمال ، ولم تكن الحكومة حاضرة فهل يجوز أن يتخذ مثل هذا القرار في غيبة الحكومة ؟ هذا ما أردت طرحه على حضراتكم لابتداء الرأي فيه »

فقال أحد الأعضاء : « المجلس صاحب الحق المطلق في جدول أعماله فموضوع البحث هو : هل للمجلس إذ لم تكن الحكومة ممثلة أن يغير جدول أعماله قبل أن يخطر بها بذلك أم لا . فيجب أن نقرر أولا أن الحكومة تعمل على تمثيل نفسها دائما في المجلس لتتوقى مثل هذه المسائل ، والذي أفهمه أن مكتب المجلس كان يجدر به أن يخطر للحكومة من باب المجاملة ... »

فقال سعد : « ليست المسألة مسألة مجاملة . انى لا أقبل المجاملة في هذا ! ومحل ذلك في المسائل الشخصية . ولكنى اعرض المسألة الآن رسميا ، وليس هذا حق الحكومة فقط بل حق كل عضو علم بجدول الاعمال ولم يحضر الجلسة ثم عدل جدول الاعمال ، فله أن يعترف . وأولى بالحكومة ان تعترض على ذلك باعتبارها الطرف الآخر « طرفا مهما » . . . وان مصلحة المجلس تقضى باعلانها ، لانها اذا كانت لا تقبل قرارا صدر في غيبتها فلها أن ترده للمجلس لا من باب المجاملة بل من باب الالزام »

واحدت المناقشة طويلا ثم اصرت الحكومة على رأيها وأصر المجلس

على رأيه ، وغاية ما سمح به ان تنتظر الحكومة الفرصة التي تسنح عند اعادة القانون في مجلس الشيوخ اذا اعاده الى مجلس النواب ، او تتقدم الى مجلس النواب بقانون اجتماعات جديد ، اما الالغاء فلا رجوع فيه

وعرض القانون على مجلس الشيوخ فعدل بعض أحكامه ولا سيما في العقوبات ، وعلم وكيل الداخلية أن الحكومة ستنهزم في المناقشة فاستنجد بوزير الداخلية محمد توفيق نسيم باشا ، ووجد هذا أن لا قبل له بصد التيار فأرسل في طلب سعد باشا ، ودارت المناقشة بعد حضوره كأشد ماتكون بين خصمين متناجرين ، ثم سأل رئيس المجلس : ماهو رأى الحكومة النهائى في هذه التعديلات ؟

فقال سعد باشا : إن الحكومة لا تزال عند رأيها

وأخذت الأصوات فاذا المجلس يؤيد التعديلات ويخذل الحكومة ، ولم يكن سعد يتوقع هذا ولكنه اغتبط به بعد ذهاب سورة المناقشة وحمد الله « أن في مصر نواباً وشيوخاً لا يقولون نعم نعم ولا لا كلما قالها الحاكم أو الزعيم »

هذه الصعوبات البرلمانية كانت تتعب الوزارة في بعض الأحيان ، فاصطلحت فيها الوزارة والبرلمان على حد سواء بين الفريقين : فأما المسائل التي يتأزم بها مركز الوزارة والبرلمان معاً فقد كان سعد يعتصم فيها بالثقة وكان البرلمان يجاريه فيها لأنه يعلم أن ليس وراء قدرة الوزارة فيها قدرة قصرت في استخدامها . كذلك حدث في مسألة خطبة العرش وتفسير الأمانى القومية ، وكذلك حدث في مسألة الجزية التركية التي رأى سعد أن يبطل التزام مصر بها ويودعها في الوقت نفسه احد المصارف انتظاراً للفصل فيها محافظة على سمعة البلاد المالية ، ورأى المجلس غير ذلك ثم تاب إلى رأى سعد في ختام المناقشة ، وان لم يعرض سعد مسألة الثقة في هذه الجلسة .

وأما المسائل الأخرى فقد كان موقف سعد فيها كوقفه في قانون

الاجتماعات يدلى برأيه ويصغى إلى رأى النواب والشيوخ، ويعمل بما يقرون

* * *

وبعد هذه الشواغل جميعها لا عجب اذا كان وقت الوزارة لم يتسع لانجاز اعمال الاصلاح التي كانت فى نيتها وفى مقدورها . وهى لم تلبث فى الحكم الا تسعة شهور تحسب منها أيام البطالة وايام السفر وأيام الاستشفاء والعلاج . فحسبها مع هذا جميعه انها استطاعت ان تحقق معنى الحكومة الأول وهو اطلاق الحرية للمحكومين فى أوسع الحدود . فقد كان المصرى يستمتع فى عهد الوزارة السعدية بحرية واسعة لا يستمتع الانجليزى ولا الفرنسى بأوسع منها ، وكان الانصار والمعارضون فى هذه الحرية على حد سواء . فمن قرأ ما كانت تكتبه صحف المعارضين عن سعد وآل سعد ووزارة سعد علم ان الحرية المنشودة لا تتسع فى بلد فى البلدان لا كبر من هذه الحقوق فى النقد والمعارضة ، بل فى المهاجمة والتجريح

واستطاعت الوزارة السعدية أن تشرع فى إصلاح ميناء السويس وفى مد السكك الحديد بالوجه البحرى والتمهيد لتوسيعها بين الأقصر وأسوان وفى إنشاء الطرق الهامة بالقاهرة كطريق الأزهر وطريق الأمير فاروق وما شابه ذلك من أعمال العمران ، وان تشرع فى تعميم التعليم الاجبارى حسبما تنهياً له موارد الدولة ، ولم تحجم عن تشييد الجامعة المصرية إلا لأنها كانت تفهم من معنى الجامعة ان تجعلها شيئاً غير اجتماع المدارس العليا فى صعيد واحد ، كما قال سعد فى حديثه مع كاتب هذه السطور عند ما كان ناظراً للمعارف العمومية ، أو كما قال وهو رئيس للوزارة « إن الذى أفهمه أن الجامعة — بمعنى اجتماع المدارس العليا — موجودة الآن وهى وزارة المعارف ! » وهو يعنى أن الجامعة التى يريد انشاءها — وقد وضع حجرها الأول يوم كان قاضياً بمحكمة الاستئناف — هى الجامعة التى تعلم الطلاب

الاستقلال بالبحث والتوسع في الاختصاص ، ولا تكتفي بالبرامج المعهودة في
المدارس العالية قبل إنشائها

* * *

ترى ماذا كان شعور سعد بسultan الحكم الذي جلب عليه جميع هذه
المتاعب وحمله جميع هذه الأعباء وأحاطه بجميع هذه الدسائس والنكيات ؟
أسرور؟ نعم لاشك أنه تقبل سلطان الحكم في بادىء الأمر بشيء غير قليل
من السرور والرجاء . ولكنه سرور غير سرور الضعيف المزهو بمرتبة رفعته
أو ارتفع هو لها بين سائلها والمتطلعين اليها ، وإنما هو سرور الانتصار على
الذين حسبوا أنهم حائلون بينه وبين هذا المكان عنوة وقهراً فإذا هو يدركه
بحوله وقدرته ولا يحتاج فيه إلى شفاعة شافع أو معونة معين . فهو شعور
الظافر في الميدان والرايح في الرهان ، لاشعور الكسب أو المتعة بالعتاء ؛
ولكنه سرعان ما فقد حتى هذا السرور قبل أن يستقيل بيضعة أيام ،
ففي الليلة التي استرد فيها استقالته كنت أتناول العشاء على مائدته مع بعض
المدعويين ، وكانت الطرقات حول « بيت الأمة » تموج بالهاتفين والمهتئين ،
وهو في موقف خليق أن يحسبه انتصاراً على الخصوم ونجاحاً فيما طلب وفتاحة
لعهد جديد . فتحولنا بالحديث الى الحكم ومتاعب الحكم الدستوريين
والمستبدين على السواء فقال رحمه الله وهو يزعم شفتيه في امتعاض
وأسف : إن أردتم الحقيقة . . . أنا غير ملذوذ ! وهكذا حوافز
الحياة : أقوى ما فيها من عزاء للأقوياء العاملين انهم قادرون على النهوض بها
وقادرون على احتمال صدماتها وعقاييلها ، ولولا ذلك لما ثابروا على رجائها
ولا ثابروا على عنائها والعودة اليها ، اما سرورها فبها لا فرق فيه بين الاقوياء
العاملين والضعفاء الخاملين

الملك فؤاد وسعد

كان ميدان السياسة المصرية من لدن استقالة سعد الى عودة الحياة النيابية بعد أكثر من عام ميدان الملك احمد فؤاد وحده ، يعمل برأيه في توجيه السياسة العليا وتدير المسائل العامة دون مشارك من أحد ، إلا ما اقتضى تدخلا في بعض المسائل من ناحية الانجليز

والملك فؤاد أقوى شخصية ملكية ظهرت على عرش مصر بعد جده محمد علي الكبير . واسع الاطلاع عظيم الخبرة نافذ التفكير في شؤون السياسة ، تولى الملك وهو في أوائل الشيخوخة فقضى ست سنوات أو سبعا لا تبدو منه حركة ولا يشعر الناس له بسيطرة في الحكومة أو في الحياة الشعبية ، فأخطأ الكثيرون فهم هذا السكوت أو هذا الانتظار وحسبوه ضعفاً وخمولا وقناعة بما وصل اليه من الملك بعد أن كان الوصول اليه في رأيه ورأى الآخرين حلماً من الأحلام

لكنه في الحقيقة لم يكن ضعفاً ولا خمولا وإنما كان تديراً مقدرآ وتأهباً مدخراً الى حين ، لأن السنوات الست أو السبع الأول من حكمه كانت بين حرب عظمى يترقب نهايتها إلى أي حال تصير ، وبين صراع قائم على القضية المصرية لا تؤمن فيه عاقبة المصادمة مع هذا الفريق أو ذاك ، قبل أن تنجلي الغاشية وتطمئن الأمور

فلبث الملك احمد فؤاد يترقب ويتأهب في هذه السنوات ، وطفق يجمع المعلومات ويستميل الأنصار في فترة سكونه الطويل ، فلم تنقض تلك السنوات حتى كان قد أحاط بكل كبيرة وصغيرة من دخائل الكبراء والسراة ورؤساء الحكومة ، وعرف من أين يستمالون ومن أين يرجون ويخافون ، وعرف

من هو صالح منهم للاستعانة به وفي أى مناسبة من المناسبات تجدى معونته
وتستجاب الاشارة اليه ، فلما أعلن الاستقلال وجاء دور الدستور ، أصبحت
هناك « سلطة » يريدان من وراء ذلك الصراع الذى لم يجهر بالاشترك فيه ،
وأصبح كامل الأهبة لاغتنام تلك السلطة بما جمع من معلومات واستمال من
أنصار ، فقلب الوزارة الثروتية بتلك الضربة الماضية وهى تهم بانشاء الحياة النيابية
وتحفز للقبض على ناصية السياسة المصرية بتعديل الدستور وتقريب الكثرة
وتوجيه الانتخابات الى حيث يريد . فحال بينه وبين ذلك أن الكثرة لم تستدرج
على حسب المرام ، وان الانجليز لم ينسوا له الاقدام على اسقاط الوزارة الثروتية
وهى وزارة التصريح وما يرتبط به من مجرى السياسة المقبلة الى تمام الغرض
المقصود . فعجلوا بأزمة الوزارة النسيمية وأفهموه جيداً أنهم لا يريدون له
السلطة المطلقة ولا يزالون يستمسكون بقيود الدستور ، كراهة منهم للمزاحمة
فى النفوذ لا حباً للشعب المصرى وحقوقه ، وأملا منهم فى أن يجدوا من
البرلمان قوة يقابلون بها قوة العرش عند الضرورة ، ومن العرش قوة يقابلون
بها قوة البرلمان . فعاد الى سكونه الأول يترقب الفرصة الى أن تحين

والآن قد حانت الفرصة واستقال سعد وهو الرجل الوحيد الذى
يحول بينه وبين الانفراد بسلطان الدستور ، واتفقت رغبته ورغبة الدولة
البريطانية ورغبة اللورد اللبني فى صد هذه القوة الكبيرة التى تشق طريقها
بارادتها ولا تنتظر الأقوياء حتى يشقوا لها الطريق لتمضى فيه مضى الأتباع ،
فقبض الملك فؤاد بيديه على أعنة السياسة المصرية ووطن العزم على الاستئثار
بسلطان الحكومة ، وتحقيق الغاية التى تأهب لها منذ سنوات

ولكن ما العمل فى الدستور ؟ إن الشعب يقدره ، ولم ير له سيئات
تسوّل له الزهد فيه ، وإن الانجليز يأبون الغاءه ولا يسمحون للملك بالسلطان
المطلق فى الحكومة . فما العمل إذن فى هذا الدستور ؟ وما العمل مع بقائه
فى البرلمان والوزارة المسؤولة أمام الشيوخ والنواب ؟

يبقى الدستور حتى لا يتدمر الشعب ولا يتنمر الانجليز ، ويكون النواب والشيوخ من أتباع الحاشية المختارين ، ومن أجل ذلك ينشأ في البلاد حزب اسمه حزب الاتحاد ، يدخل فيه كل من يريد الحظوة والجاه ويخشى الغضب والاعراض

ولم حزب الاتحاد؟ لم يسمى بهذا الاسم دون سائر الأسماء؟ نعم . لأن « الاتحاد » يجمع الأحزاب والهيئات المتفرقات ، فالمقصود إذن أن تفي في حزب الاتحاد جميع الأحزاب المصرية ، ولا يعود في البرلمان بعد فترة قصيرة أو طويلة نواب أو شيوخ من غير الاتحاديين المقربين ، ولا بأس في هذه الحالة بأن يدوم الدستور وأن تتسع حقوق مجلس الوزراء ويتقرر نظام التبعية الوزارية أمام البرلمان !

وأخذ حسن نشأت باشا وكيل الديوان الملكي يعمل مع الوزارة الجديدة ، على هذه الوتيرة . فلم تمض أسابيع حتى اضطرت عشرات من النواب والشيوخ المقيدون بمصالح الحكومة الى اعتزال الوفد توطئة لدخول الحزب الجديد لأنهم كما كانوا يقولون يخلصون للعرش ويتمون اخلاص سعد للسدة الملكية ، وانهالت على الوفد دعاية التنفير والتشهير بكل ما في وسع الصحافة والخطابة والصنائع والاتباع

وكان أناس يتساءلون فيم كل هذه الكراهية لسعد زغلول وهو صاحب اليد التي لا تنكر في تحسين مركز البلاد ومركز العرش كائناً ما كان مدى ذلك التحسين ؟ وفيم كل هذه الكراهية وهو أول رجل عود الجماهير أن تهتف باسم الملك فؤاد ؟

لا يقول الأنصار طبعاً إن هذا الرجل مكروه لأنه يمثل قوة الدستور ، ولكنهم يقولون تارة إنه طامع في الجمهورية ، وتارة أخرى إنه على صلة بالخدوي عباس ، إلى أشباه ذلك من الأسباب

فأما إن سعداً كان طامعاً في الجمهورية ، فذلك ما لم يظهر منه بكلام ولا

ايحاء إلى أحد من المصريين أو الانجليز ، ثم لماذا يكون طمع سعد في الجمهورية
مسوغاً للحكم بغير دستور والعمل لتحقيق ذلك منذ زمن طويل في حياة سعد
وبعد مماته بسنوات ؟

وأما إن سعدا كان على صلة بالخديو السابق ، فالعلاقة بين الرجلين
لا تسمح بهذا الفرض ولو من باب التخمين ، وما مصلحة سعد في تحويل
الملك من فؤاد الى عباس وهو تحويل لاهوى له ولا فائدة فيه ؟ لقد عرض
عليه الاتصال بالخديو السابق مرات ، فكان جوابه ما يعلمه أعضاء الوفد
والوسطاء والمطلعون من لا يزالون على قيد الحياة

ولسنا نعتمد هنا على النفي القاطع الذي سمعناه من سعد وحسب وفيه
الكفاية كل الكفاية ، ولكننا نعتمد على لسان الحال الذي هو كما قيل
أصدق من لسان المقال .

فكثيراً ما كنا نشاهد الاستغراب من سعد كلما سمع نبأ من أبناء
الكراهية التي تنصب عليه وعلى أتباعه ، ومن ذلك أنه قال يوماً وقد بدا عليه
الاستغراب الشديد : لعل مولانا يكرهني بالتوكيل لا بالاصالة ! وهو يعنى
بذلك أن الكراهية الأصلية إنما هي من حق الانجليز والانسان
لا يستغرب هذا الاستغراب أن يعنى بالكراهية إذا كان قد أسلف من
الاساءة ما يستحق العداة والبغضاء

على أن سعداً لم يكن منفرداً بالكراهية والغضب عند الملك فؤاد ولكنه
كان صاحب النصيب الأوفى منه على قدر نصيبه من تمثيل قوة الدستور ،
ولكل رجل غيره من رجال السياسة المصرية الذين يوافقون سياسة
الملك فؤاد نصيب على قدره من الجفاء والاعراض ، فعلى ورشدي وثروت
ومحمد محمود وزكى أبو السعود وغيرهم من الوزراء والكبراء لم يكونوا محبوبين
ولا مقربين في كثير من الأحيان ، لأنهم ليسوا من الرجال الذين يعتمد
عليهم في توجيه الدستور وتحريك دواليب الحكومة الى حيث يريد

والحق أن رجلين قويين عنيدين كنفؤاد وسعد ما كان من الميسور أن يعيشا في عصر واحد ويحتمعا في ميدان واحد دون أن ينشب بينهما النزاع على نحو من الأنحاء ، ولو جاء فؤاد الى الملك بعد توطيد الدستور لكان من الجائز أن يحتمل الزعماء الأقباء والوزراء المقتدرين العاملين معه في نطاق الحكومة النيابية . ولكنه جاء قبل استقرار الدستور بل قبل إنشائه فكان من العسير عليه النزول عن سلطانه ، وهو ما هو من دراية وكفاءة واعتداداً بالنفس واستعلاء على من لا يساوونه — في رأيه — في حق القدرة أو حق السلطان روى أميل لدفع في كتابه عن أحاديث موسليني انه قال للملك فؤاد مرة إن الدكتاتورين يخافون . أما الملوك فيحبون

فأسرع الملك فؤاد قائلاً : لكم وددت أن أكون الدكتاتور !

وحدثني أميل لدفع حين لقيته في القاهرة بعد لقائه للملك فؤاد ، فسألني ما رأيك فيمن يغلب غداً على مسرح السياسة المصرية ؟ قلت المستقبل للحرية بعد عراق طويل . قال : أرجو أن يكون ذلك ، وما أظن لكم خيراً عند هندرسون . أما الملك فؤاد فهو بحكم تربيته وماضيه لا يستريح إلى قيود الدستور وقيل إن شعار الملك فؤاد كان كلمة « الصبر » يضعها أمامه في اطار جميل مكتوبة وحدها بغير تعقيب ولا زيادة

وانها في الواقع لعنوان طبيعته كلها ، وأن أول معانيها هو الصبر على من يكره وما يكره وعلاجهم بالمجاملة والمداراة مع الدأب واتتهاز الفرص والعرفان بمواضع التجارب والمحاولات ومواقع الاقدام والاحجام ونحن إذ نعرف ما عنده من القدرة والعزيمة ، والرغبة في الحكم ، والصبر على تحقيق الغاية لانتحاج الى مشقة كبيرة في تعليل الجفاء الذي كان بينه وبين سعد زغلول

لم يكن طموح فؤاد مقصوراً على ميدان السياسة المصرية في حدودها
الداخلية ، بل كان يطمح الى إنشاء دولة كبرى تمتد الى الأقطار العربية ويحمل
وهو على عرشها لقب الخلافة الاسلامية ، ويعتقد أن الانجليز لا يتفرون
من قيام الخلافة في دولة كالدولة المصرية . لأنهم يحالفونها وتحالفهم على
سياسة شرقية فيها النفع والمبادلة الصالحة للفريقين
ولو طال عمره لمضى في تحقيق هذا الأمل الى شوط بعيد ، ولعله كان
يطمع أول الأمر في الجلاء بعض الممالك العربية التي تستمد العون من أموال
مصر وخيراتها الى مبايعته بالخلافة والاعتراف له بها قبل الآخرين ، ويأتي
بعدهم من الممالك من تقنعه الدولة البريطانية باتباع هذا السبيل
لهذه المطامح كلها جمع المال واستكثر منه وبلغت ثروته بضعة عشر مليوناً
من الجنيهات ، وقلها يعني هذه العناية بجمع المال من خلا ذهنه من طموح بعيد
إلا أن الحساب الذي كان يختل أبداً في ميزان الملك فؤاد الدقيق انما هو
حساب العاطفة وما لها من الأثر القهار في أطوار الجماعات والأفراد ، فلو كانت
العلاقات السياسية والدوافع الشعبية قائمة كلها على العقول والمصالح والمساومات
لما اختل حساب الملك فؤاد قيد شعرة في جليل ولا دقيق من الأمور ، ولكن
العقول والمصالح والمساومات ليست كل شيء في كل ما يجري على مسرح
السياسة وإن كان شاغلوه من الشيوخ المحنكين والعقلاء المدربين . . . ولهذا
طراً الاختلاف على بعض التقديرات التي عول عليها الملك فؤاداً كبير تعويل
وكأنما كان الملك الراحل طياراً ماهراً يحسب حساب الآلات والوقت
والمسافة أدق حساب ، ولكنه لا يعطى عوارض الأجواء حقها من الحسبان
والاهتمام ، فتقف به الطائرة دون الغاية كلما تغيرت الأجواء والأهواء
كان أناس يزعمون أن الملك فؤاداً كان يمضى مع نفوذ هذا ، ويتأثر
بدسياسة ذلك ، وهم فيما زعموا مخطئون جد مخطئين ، لأن هؤلاء الذين كانوا
يذكرونهم بأسمائهم لم يكونوا مع الملك فؤاد إلا كالتلاميذ المقتدين الذين
يتدربون على يديه ويستفيدون من ارشاده ، وأقصى ما يذهبون اليه أن يفهموا

بعض المرامي البعيدة التي كان يرمى اليها الأستاذ الكبير ، وإن ما يحيط به هو في يوم واحد لا يحيطون به هم في سنين

والفضل في هذه القدرة العقلية البالغة هو قبل كل شيء فضل المملكة المطبوعة والفطرة الموروثة ، ثم يضاف اليها تعليم جيد ودراسة واسعة وتجربة سياسية وافية ، تارة في مصر وتارة في تركيا وتارة في ايطاليا والنمسا ، وهي تجربة شملت البيئات الشعبية كما شملت بيئات الملك والامارة ، وانتفعت بمعارف العسكريين كما انتفعت بمعارف الوزراء

وقد جاء وقت كان سعد يعتقد فيه أنه كسب المودة من قلب فؤاد وازال ما بنفسه من الموجدة عليه ، وذلك في الأسابيع القليلة بعد قيامه في الوزارة . وكان يغتبط بطول الجلسات التي يقضيها في الحديث معه بقصر عابدين ، وأخرج الساعة مرة وهو عائد من هناك فقال : لقد طال الحديث خمسين دقيقة !

في تلك الأيام كان الملك فؤاد ينزل من قصر القبة خصيصاً إلى قصر عابدين لثلاث بجشم سعدا مشقة الصعود بقدميه حيث لا يصعد هناك ، وأمر بإنشاء مصعد في القصر لتخفيف هذه المشقة عليه . ثم عاد سعد بعد تلك الأيام يقول : « لقد طواني الرجل ! وأنه لتقدير »

ومن الصعب أن نحكم على طبيعة العلاقات بين الملك فؤاد وسعد من النظر إلى المواقف الرسمية أو المواقف الشخصية على انفراد . فانهما ليتناقضان أشد التناقض في الآونة الواحدة ، فيبلغ من وئام المواقف الرسمية أن يقول الملك فؤاد في رسالته البرقية إلى سعد عقب الاعتداء عليه : « ان صحتك أعز شيء في الدولة » ويبلغ من جفاء المواقف الشخصية أن يشاع أن الملك فؤادا أمر بوقف التشريعات في العيد بعد حادث الاعتداء إذا عاش سعد . وأمر باجرائها حسب المعتاد إذا مات

وأوجز ما يقال أن العلاقات بينهما على السواء في أيام المقاطعة وأيام المجاملة كانت علاقات ضرورة لا اختيار فيها لواحد من الاثنين

من رئاسة الوزراء

إلى رئاسة النواب

فكر سعد في بقاء الدستور بعد ذهاب الوزارة فأعلن في خطابه الذي ألقاه على النواب تبليغا للمجلس باستقالة الوزارة : « أنه مستعد مع أصدقائه الكرام من أعضاء هذا المجلس لأن يؤيدوا كل وزارة تشتغل لمصلحة البلاد »

وأعلن مثل ذلك في ندائه إلى الأمة باعتباره رئيسا للوفد ، وفي خطاب ألقاه على الجموع الذين وفدوا إلى بيت الأمة بعد استقالته حيث قال : « اني مستعد لتأييد كل وزارة تأتي وتكون حائزة للرضاء العام ، عاملة على تحقيق أمانى البلاد ، فان الموقف دقيق جدا وأنا واثق من أنى وأنا خارج الوزارة سأستطيع خدمة البلاد أكثر ألف مرة مما لو كنت داخلها . وتأكدوا أن الله معنا ، ولا بد أن تفوز الأمة في النهاية إن شاء الله »

ولكن الغرض الأكبر في تلك الأيام لم يكن هو الخلاص من حادث السردار بوسيلة من الوسائل المرضية ، بل هو استغلال ذلك الحادث لتحطيم سعد ومن يواليه ، ولا سبيل إلى هذا التحطيم مع بقاء البرلمان وسريان أحكام الدستور

وقد احتج البرلمان بمجلسيه إلى عصبة الأمم على استغلال الحكومة البريطانية لحادث السردار في اهتضام السودان وتمزيق الاستقلال المصرى ، فلم يجد هذا الاحتجاج صدى له بين أعضاء العصبة الامندوبى إيران والسويد وارغواى الامريكىة ، وتعل مندوبو الدول الكبرى بان الاحتجاج لم يعرض على العصبة من قبل حكومة قائمة ، لأن الوزارة السعدية كانت قد استقالت

والوزارة الزيورية التي تلتها لا تحب أن تحتج على شيء من مطالب الانجليز ،
ولا ترى للمسألة حلاً مستطاعاً عندها الا الاذعان لما طلبوه

واذعنت الوزارة الزيورية فعلاً لجميع المطالب البريطانية ، وأرسلت
من مصر رسولا إلى الضباط المصريين في السودان تأمرهم بالجلأ والعودة
إلى بلادهم ، لأنهم كانوا قد امتنعوا عن العودة وتسليم السلاح حين بلغهم
نائب الحاكم العام أمره باسم الحكومة البريطانية ، وردوا عليه بأنهم
لا يطيعون غير ملك مصر وأوامر حكومتها ، فجاءهم هذا الأمر من الوزارة
مع رسول في طيارة بريطانية ، فأطاعوا راغمين وتمسكوا بالعودة حاملين
السلاح والأعلام ، غير مخفورين بالجنود الانجليزية في طريقهم إلى الحدود
وقد ترك زيور باشا رئيس الوزارة كل شيء للانجليز من جانب ولحسن
نشأت باشا وكيل القصر الملكي من جانب ولا سماعيل صدقي باشا وزير
الداخلية فيما بقي له من شئون الوزارة ، فلا رأى له ولا برنامج ولا إرادة ،
وسلمت الوزارة للانجليز في مسألة جغوب بالصحراء الغربية ومسألة نهر
الجاش في السودان ، وهما الهديتان اللتان ساومت عليها بريطانيا العظمى
صديقتها إيطاليا على حساب الحقوق المصرية والسودانية ، وسلمت على
الاجمال في كل ما أراده الانجليز واستباحوا به نصوص الدستور والقانون
التي لا تقبل التأويل ، ومنها القبض على النواب وهم في كنف الحصانة
البرلمانية قبل أن يعرض الأمر على مجلس النواب ، وجعلت شكوى النواب
من عدوانها على الدستور والقانون وتفريطها في حقوق البلاد ذريعة إلى
حل المجلس وتعطيل البرلمان قبل أن تتقدم اليه

ولم تعارض في مطلب من المطالب الانجليزية إلا التوسع في زراعة القطن
بالسودان ، لأنه المطلب الذي فضح المناورة الاستعمارية وأحست الحكومة
البريطانية أن اللورد اللني أخطأ خطأ فاحشاً في تضمينه ائذاره النهائي إلى
سعد زغلول ، وكان له دخل كبير في اقالة اللورد اللني بعد ذلك بشهور ،

فاهتمت بمداراته واصلاحه وأوعزت إلى أحمد زيور باشا بالمراجعة فيه ،
ولولا ذلك لما تحرك هو لمراجعة أو استدراك ، لأنه رجل أشهر ما اشتهر
به قلة الاكتراث وفلسفة المعيشة الرخية وعلى الدنيا بعد ذلك السلام . فما
كلف نفسه قط قراءة الصحف المعارضة أو الموالية ، وأعجب من ذلك أنه
لم يكلف نفسه قراءة الدستور . . . فاذا عرضت عليه حملة في إحدى الصحف
على الوزارة قال : اغلقوها : اغلقوها . ونسى أن الدستور يمنع اغلاق
الصحف بالوسائل الادارية ، وأن اغلاقها بهذه الوسائل مما تضيق عنه دائرة
الاحتيال على النصوص ويعرض الحكومة للمطالبة بالتعويضات ، وكلما
كرروا له التنبيه كرر هو النسيان !

ولم يكتمل لوزارته في الحكم شهران حتى كان « حزب الاتحاد » قد
ظهر في عالم الوجود وظهرت له صحيفة عربية وصحيفة فرنسية بأموال ليست
من أمواله على كل حال . وأصبح معيار الترقية عند عمال الادارة عدد
الأعضاء الذين ينضمون على أيديهم إلى حزب الاتحاد وينفضون من الهيئة
الوفدية ، وأيسح لهم في ذلك كل ما يباح ، وتمادى بعضهم في حرب الدعاية
لهذا الحزب ولغيره تمادياً يزرى بشرف الانسان فضلا عن شرف الموظف
الأمين ، ومن أمثلة ما استباحوه في اضطهاد الوفديين فظائع الدقهلية التي
عرفت بفظائع اخطاب وضجت منها أرجاء البلاد وأهبت في صدور المصريين
كافة ذحولاً لا ينطقى لها أوار ولا يرجى معها فلاح لحكومة من الحكومات ،
وصدر فيها حكم القضاء على ملاحظ البوليس بالسجن خمس سنوات جزاء
له على ما ثبت من جنائياته وهو أيسر ما اتهم به ونسب إليه ، ومنه اجهاض
الحوامل وقص شوارب الفلاحين بمقصات الحمير ، واكراههم على التسمي
بأسماء النساء ، واهراق الماء على الأرض وتمريغ أنفسهم بأنفسهم في الوحل
الذي صنعوه .

أما الانتخابات فقد كان الواجب أن تتم في ميعاد لا يتجاوز الشهرين
على حسب نص الدستور ، وأن ينعقد المجلس الجديد في خلال الأيام العشرة

التالية ليوم الانتخاب ، ولكن الوزارة تعطلت بتعديل قانون الانتخاب وتنقيح الجداول للمطاوله في هذه المدة ، فلم تحصل الانتخابات إلا في اليوم الثاني عشر من شهر مارس ولم ينعقد المجلس إلا في الثالث والعشرين منه ، ويكفي لبيان الأساليب التي جرت عليها الانتخابات أن يعرف أن سعد زغلول أخفق في الانتخابات الثلاثينية ولم يظفر بخمسة عشر صوتاً يجعله مندوباً ثلاثينياً في الحى الذى هو فيه !! وعلى هذه الطريقة جرت الوزارة في تقسيم الدوائر حسبها يروق مرشحها وكتابة أسماء الناخبين وحذفها كما يميل أولئك المرشحون ، وإقامة الحراس في الطرقات ليصدوا أناساً عن الصناديق ويدفعوا إليها بأناس آخرين ، وبعد هذا كله ظهرت النتيجة فإذا بسعد قد فاز بمائة وأحد عشر صوتاً في اليوم الأول ولا تزال في الدوائر بقية لم تظهر لها نتيجة . ثم أدب النواب السعديون مآدبة لزعيمهم في فندق سميراميس فحضرها مائة وثلاثة عشر نائباً واعتذر ثلاثة بمرضهم مع تأييدهم للزعيم ، وفي هؤلاء وحدهم الكثرة اللازمة لاسقاط الوزارة المهزومة

إلا أن الوزارة زعمت أنها هي الفائزة بالكثرة المطلقة وحسبت من أصواتها أصوات جميع الأحزاب الأخرى وهي حزب الأحرار الدستوريين وحزب الاتحاد والحزب الوطنى مضافاً إليهم المستقلون وهم بطبيعة الحال لا يرجحون فريقاً على فريق إلا بعد اجتماع البرلمان والاقتراع على الثقة ، وبهذه الدعوى استقالت الوزارة لتتألف مرة أخرى من جميع الأحزاب وفاقالما ظهر لها من نتيجة الانتخاب ، وقال زيور باشا في خطابه إلى جلالة الملك : « لما كان البرلمان قد أوشك أن ينعقد فان الوزارة ستعلن خطتها السياسية عند تقدمها إليه . وانى أتشرف بأن أعرض على سدتكم أسماء حضرات الوزراء الذين قبلوا معاوتى في هذه المهمة محتفظاً لنفسى بمنصب وزارة الخارجية ، وهم يحيى ابراهيم باشا لوزارة المالية واسماعيل صدقى باشا لوزارة الداخلية وموسى فؤاد باشا لوزارة الحربية ، وعبد العزيز فهمى بك لوزارة الحقانبة وتوفيق

دوس بك لوزارة الزراعة ، واسماعيل سرى باشا لوزارة الأشغال العمومية
ويوسف قطاوى باشا لوزارة المواصلات وعلى ماهر بك لوزارة المعارف
العمومية ومحمد على بك لوزارة الأوقاف »

ومن هؤلاء الوزراء أربعة من الأحرار الدستوريين ، وأربعة من
الاتحاديين والبقية من المستقلين ، واحتفظ زيور باشا لنفسه بوزارة الخارجية
خلافاً للعرف الذى اطرده بالجمع بين رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية ، ودليلاً
على أن وزير الداخلية لا يزال فى هذه الوزارة منوطاً بمهمة خاصة فى
الإشراف على الانتخابات ، وتسخير الإدارة فى ضم الأنصار وتشثيت
الخصوم ، لا يضطلع بها كل وزير ولا يضطلع بها زيور باشا من باب أولى
وألحت الوزارة فى دعواها إلى أن كان يوم انعقاد البرلمان وانتخاب
رئيس مجلس النواب ، فلم يظفر مرشح الحكومة عبد الخالق ثروت باشا
بأكثر من خمسة وثمانين صوتاً وبلغت أصوات سعد مائة وثلاثة وعشرين
صوتاً عدا صوته ، لأنه انصرف قبل الاقتراع لانتخاب الرئيس

وتأجلت الجلسة إلى المساء لاتمام انتخاب المكتب والوزارة فى هذه
الأيام تعد المرسوم بحل مجلس النواب ، للسبب الأول الذى حلته من
أجله فى السنة الماضية وهو الإصرار على تلك السياسة التى كانت سبباً لتلك
النكبات التى لم تنته البلاد من معالجتها ..!! وهو مناقض لنص الدستور
الذى يحرم حله مرتين بسبب واحد .

وجاء المساء فدخل زيور باشا ومعه ثلة من الجنود وقرأ المرسوم
وانصرف ، وكان يلتفت قبل تلاوته إلى منصة الرئاسة ليرى سعداً عليها وينعم
هو وشركاؤه بما رتبوه من رؤيته نازلاً من المنصة بعد انتصار الصباح ،
ولكنه كان قد سمع بالمناورة قبل إنجازها يبضع دقائق فترك المنصة إلى حجرة
الرئاسة ولم يعد إلا فى أثناء تلاوة المرسوم

غاية ما يقال فى تلخيص الحرب الانتخابية فى هذه المرة أنها كانت حرباً

بين من استفادوا بحادثة السردار ، ومن أصيبوا بهذه الحادثة ومنهم الأمة
بحذافيرها ، فلا جرم أن تكون الأمة في الجانب الذي ينبغي أن تكون فيه
ولا يعقل أن تنحاز إلى غيره . ومن خطأ اللورد اللبني وحلفائه أنهم قدروا
للاتخابات المصرية ما لا غير هذا المال

ويظهر أن إقالة اللورد اللبني عقب الخطأ الفاحش الذي ارتكبه في
الانذار النهائي كانت أمراً مبتوتاً فيه منذ أوائل العام ، ولكنهم أجلوه في
الوزارة البريطانية ريثما تنجلي المعركة الانتخابية عن مصيرها ، خوفاً على
أصدقائه الوزراء المصريين من الفشل والهزيمة من جراء تلك الإقالة أو
الاستقالة ، وأملاً في الظفر من وراء الانتخابات بمجلس نيابي يساعده ويتوج
سياسة التصريح — تصريح ٢٨ فبراير — بالنجاح . ولكن الانتخابات
أسفرت عن خيبة جديدة وتقويض لسياسة الرجل لا أمل بعده في الترميم
والتلفيق . فعادت الصحف الانجليزية تتحدث باستقالته وهو ينفى في القاهرة
ويوعز إلى الصحف الاحتلالية بتكذيبها . وتحققت الإشاعة بعد أسابيع ،
فأبلغها اللورد اللبني إلى جلالة الملك في التاسع عشر من شهر مايو ، وغادر
البلاد بعد أيام .

* * *

إن السياسة المصرية — على التخصيص بين السياسات العالمية — لا تتغير
لسبب واحد . ولكننا إذا أردنا أن نعرف لها قاعدة واحدة تتكرر في جميع
التغيرات الهامة فالأغلب أن الانجليز يشجعون في التغيير كلما انحصر النفوذ
في ناحية واحدة سواء أكانت ناحية القصر أم ناحية الأمة . وعلى هذا غيروا
سياسة الوفاق بعد ما تبين لهم في عهد السير الدون غورست أن نفوذ
الخدوي عباس ينسبط في أنحاء الأمة والحكومة ، وغيروا سياسة الحكم
الدستوري بعد ما تبين لهم أنه يقوى سعداً ولا يضعفه كما كانوا يقدرون .
وأنشأوا حكومة زيور وهم يظنون أنها حكومة متزنة يتعارض فيها نفوذ القصر

ونفوذ الأحرار الدستوريين . وأن هؤلاء جميعا يسلطون نفوذهم على سعد
زغلول . فلا يرجح جانب على جانب من نفوذ الأمة أو نفوذ القصر أو نفوذ
الوزارة . . . فسرعان ما ظهر لهم أن تعطيل الدستور قد حصر النفوذ بأيدي
القصر وهياً له أن يستبقه بين يديه في غياب الدستور وفي وجود الدستور .
وانكشف لهم ما وراء إنشاء حزب الاتحاد من المقاصد والتدبيرات . . . ان
الانتخاب الأول بعد استقالة سعد قد اشترك فيه الاتحاديون والدستوريون
من جماعة الوزراء . أما الانتخاب الثاني فلن يتسع لحزب غير الاتحاديين
لأنهم سيوحدون فيهم جميع الأحزاب . !!

وبرزت هذه النية بعد تشكيل الوزارة الزبورية الثانية وانطلاق حسن
نشأت باشا وكيل القصر الملكي في السيطرة على دواوين القاهرة وفروع
الأقاليم . فكانت أوامره تصدر إلى المأمورين في المراكز مباشرة بغير وساطة
الوزير أو المدير ، وكانت أوامر الوزراء تلغى ولا تطاع ، ولم يلبث الاشتراك
أن أفضى إلى الاحتكاك بين الأحزاب وبين أشخاص الوزراء ، ثم سنحت
الفرصة أخيراً للخلاص من الدستوريين بضربة واحدة ترمى إلى هدفين . فقد
ألف الأستاذ علي عبدالرزاق — وهو عالم ديني من أبناء بيوتهم الكبيرة —
رسالة في الاسلام وأصول الحكم أدحض بها القول القائل بوجود الخلافة
في الاسلام ، فاهتم الاتحاديون بتجريد هذا العالم من صفة العالمية لأن تجريده
يرضى القصر بما يقتض من رجل يعوق مسعاه إلى الخلافة ، ويرضيه من
طرف آخر بما يخرج الأحرار الدستوريين ويضطرهم إلى اعتزال الحكومة .
فتم هذا التجريد واستقال الوزراء من الأحرار الدستوريين ، واستعد
الاتحاديون لخوض معركة الانتخاب منفردين

فلما وصل السير — اللورد جورج لويد خلف اللورد اللبني — إلى مصر
وصل وله وجهة مرسومة في السياسة المصرية لا يطول فيها التردد
والاضطراب . نفوذ القصر يجب أن يقف عند حد محدود . والحياة النيابية

يجب أن تعود، ولكن هل تعود الحياة النيابية ليعود سعد زغلول إلى نفوذه
الحكومي القديم؟ كلا. بل تعود الحياة النيابية في برلمان مؤتلف من جميع
الأحزاب. فيحول البرلمان دون انفراد القصر بالسلطان، ويحول الائتلاف
دون انفراد سعد بالوزارة والبرلمان. ولا ينحصر النفوذ في يد واحدة
من أيدي المصريين...

وفي الوقت الذي كانت فيه السياسة البريطانية تتجه إلى هذا الاتجاه
كانت الأحزاب المصرية تشعر بالخطر الواحد يهددها جميعاً وتعلم أن لا نجاة
لها بغير الائتلاف. فتحدث رجالها في توحيد الصفوف وتزاوروا لتقريب
ما بينهم من شقة الخلاف، وأزف موعد انعقاد البرلمان بحكم الدستور في
السبت الثالث من شهر نوفمبر، فعول الأعضاء على الاجتماع مدعويين أو غير
مدعويين، وأعلنت الوزارة أنها تمنع بالقوة كل اجتماع داخل البرلمان أو في
مكان آخر واحتلت دار النيابة بنحو ألفين من الجنود. ولكن النواب
والشيوخ اجتمعوا في فندق الكنتنتال وباتوا من أجل ذلك في الفندق لسكى
لا يحال بينهم وبين دخوله في الصباح. ومن ظرائف زيور باشا أنه — وهو
يسكن ذلك الفندق — لم يدر بما كان يجرى فيه واستغرب هذه الضجة هناك
على خلاف المؤلف!

وافتمتحت الجلسة قبل الظهر فانتخب سعد رئيساً ثم أصدر المجلسان
قراراً بالاحتجاج على تصرفات الوزارة وعلى منع الأعضاء من الاجتماع في
دار البرلمان بقوة السلاح، وباعتبار دور الانعقاد موجوداً قانوناً واستمرار
اجتماعات المجلس في المواعيد والأمكنة التي يتفق عليها الأعضاء.»

ثم ندب الحاضرون وفدأ من حضرات فتح الله بركات باشا ومحمد
محمود باشا وعبد الحميد سعيد أفندي لرفع القرار إلى جلالة الملك وتبليغه
إلى الوزارة.

أما الوزارة فقد كان كل ما وسعها بعد هذا الاجتماع أنها كتبت إلى

مفتش الجيش العام تلفته إلى مسلك الضباط والجند الذين أدوا التحية العسكرية لسعد وهو يمر بمجلس النواب في طريقه من بيت الأمة إلى فندق الكنتنتال !

وقد اجتمع أصحاب السمو الأمراء بعد اجتماع البرلمان وانفقوا على كتابة عريضة إلى جلالة الملك يؤيدون فيها إعادة الحياة النيابية اجابة لقرار الشيوخ والنواب .

وبين هذه المآزق التي لا تعيش معها وزارة في بلد مستقل لم ينقطع رجاء الوزارة الزبورية في التعمير وحكم البلاد بالدستور أو بغير الدستور بل راحت تشرع القوانين لفض الأحزاب وتمحو وتثبت في قانون الانتخاب ، وعندها أنها بخير ما دامت لا تسمع من الانجليز شرا ولا تحس منهم نفورا ، والانجليز لم يسمعوها الشر ولم يشعروها النفور لأنهم كانوا ينتظرون منها الخدمة الأخيرة وهي تسليم جغوب الى الحكومة الايطالية ، فسلمتها ووقعت المعاهدة في سادس ديسمبر ، وظنت أنها قد اشترت البقاء من الانجليز بهذا الثمن الفادح ، ولم تدر أنها قد ختمت يديها على كتاب موتها وكتبت وصيتها حين كتبت تلك الوثيقة

ففي اليوم السادس أمضيت المعاهدة وفي اليوم الثامن قابل اللورد جورج لويد جلالة الملك وطلب إلى جلالاته اقضاء حسن نشأت باشا عن القصر ، متذرا بما حام حول اسمه من الأقاويل في قضية مقتل السردار ، فأجيب إلى طلبه بعد ممانعة قصيرة الأجل ، وأقصى نشأت باشا إلى وظيفة في السلك السياسي لم تكن مما يرضيه

وقد استمر التحدى والنضال بين الوزارة والاحزاب فاجمعت الاحزاب على تجاهل قوانينها وأضرب العمدة عن تنفيذ قانون الانتخاب وحكم القضاء ببراءتهم حين أحيلوا اليه بتهمة عصيان القوانين ومخالفة الأوامر . وازداد التقارب بين الاحزاب بهذه الوحدة بينها في محاربة الوزارة فكان أقوى مظاهرها

مأدبة النادي السعدي التي أديها سعد للنواب والشيوخ على اختلاف أحزابهم
« ليتم التعارف بينهم ويزول ما يكون في نفوس بعضهم لبعض من نفرة وجفاء
ويحل مكانهما ما تقضى به روح التسامح من عطف وولاء »

ثم أعلنت الأحزاب في أوائل السنة الجديدة (١٩٢٦) اجتماعها على
مقاطعة الانتخابات على غير القانون الذي تريده ، وخطا الزعماء خطوة أخرى
في سبيل الوفاق فزار معظمهم بيت الأمة ورد لهم سعد الزيارة في بيوتهم ،
واتفقوا على الدعوة إلى مؤتمر وطني يجمع الوزراء السابقين والشيوخ
والنواب ورجال الأحزاب وأعضاء مجالس المديرية والمجالس المحلية وسائر
الجماعات التمثيلية في القطر كله ، ليقنعوا الوزارة باجماع المرشحين على مقاطعة
الانتخابات حسب قانونها الجديد . فعجبت الوزارة قبل انعقاد المؤتمر باجابة
طالب الأحزاب (في ١٨ فبراير) وبلغته إلى المؤتمرين ، وقالت في بلاغها إنه
« توخيا لخطوة الاتفاق التي سلكتها الحكومة الحاضرة في أعمالها على الدوام
وابتغاء التعجيل باجتماع البرلمان قرر مجلس الوزراء في مساء هذا اليوم أن
يعرض مشروع مرسوم على حضرة صاحب الجلالة الملك للتصديق على
إيقاف العمل بقانون الانتخابات الصادر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٥ واجراء
الانتخابات على مقتضى القانون نمرة ٤ لسنة ١٩٢٤ »

أما المؤتمر الوطني فقد التأم في اليوم التالي بمنزل محمد محمود باشا، وجلس
سعد على منصة الخطابة وعلى يمينه عدلي وعلى يساره ثروت . ثم تكلم في الحالة
العامة فلخصها تلخيصا سريعا منداستقالت وزارته إلى قبول الوزارة الزبورية
قانون الانتخاب المباشر الذي يرضاه الوفديون ولا يرضاه الأحزاب الأخرى...
وأشار إلى أن الوزارة عجت بقبوله لتوقع الشقاق بين الأحزاب قبل انعقاد
المؤتمر ، فقال في ختام خطابه ليقضى على رجائها هذا : « اذا عوا بأن الانتخاب
على أساس ذلك القانون أريد به إيقاع الشقاق بين الأحزاب المؤتلفة لتتحل

رابطتهم وتنقسم وحدتهم ، ولكنهم واهمون في زعمهم لأن الاتحاد متين
بين هذه الأحزاب »

ثم دارت مناقشة طويلة في دخول الانتخابات أو عدم دخولها اعتماداً
على أن المجلس القديم قائم والحل باطل ، فاتفق الحاضرون على دخولها
ما عدا أربعة ، وتلى عليهم اقتراح فخواه المطالبة باقامة وزارة موثوق بها
للاشراف عليها . ثم انفضت جلسة المؤتمر بعد تأليف لجنة من الأحزاب
المختلفة لانفاذ القرارات وبحث المقترحات

على أن الوزارة لم تستقل ولم يصر المؤتمرون على استقلالها لعلهم بعجزها
عن مقاومة الأحزاب المؤتلفة في المعركة الانتخابية ، واكتفوا باستعجال
يوم الانتخاب فصدر المرسوم بدعوة الناخبين في اليوم الثاني والعشرين من
شهر مايو لانتخاب أعضاء مجلس النواب ... وليس في المرسوم موعد لانعقاد
البرلمان ١

وكانت الأحزاب قد تفاهمت مع الوفد المصري على الدوائر التي يتركها
لها ولا يرشح فيها أحداً من أنصاره . فلما كان يوم الانتخاب أسفرت النتيجة
عن انتخاب مائة وخمسة وستين وفدياً وتسعة وعشرين حرادستورياً وخمسة
من الحزب الوطني وستة من المستقلين وخمسة من الاتحاديين الخ

* * *

على هذا وجب أن يدعى سعد باشا لتأليف الوزارة الدستورية . ولكن
الوزارة الزبورية لم تستقل ، وهي لم تعلن من قبل ذلك موعد انعقاد البرلمان...
فهل قصدت اغفاله لأنه كان من الجائز عندها— أو عند من أوعزوا إليها—
أن يحصل الانتخاب ولا يحصل الانعقاد أو يحصل ولكن بشروط؟؟

تداولت الألسن أن زيور باشا فاتح اللورد جورج لويد في أمر الاستقالة
بعد الانتخاب توأ فاستمهله بضعة أيام ريثما يتم الاتفاق على اختيار الخلف ،
وتحقق أن الانجليز يريدون عدلي يكن ولا يريدون سعد زغلول في رئاسة

الوزارة ، وتقابل سعد وجورج لويد في هذه الأثناء فسأله جورج لويد : هل ينضم عدلى إلى وزارتك إذا ألفتها ؟ قال سعد . أعتقد ذلك . فقال جورج لويد : « ولكن الاحساس الذى عندى لا يسمح لى بهذا الاعتقاد ! »

غير أن سعدا هو زعيم الكثرة الغالبة على الرغم من تجاوزه عن بعض الدوائر فى الانتخابات ، فكيف السبيل إلى منعه بمشيئة حكومة اجنبية أن يلى الوزارة الدستورية ؟

لا سبيل إلى ذلك لو جرت الأمور فى حدود الصراحة ، ولكن قضية الاغتيالات السياسية باقية ، ولا تزال فيها بقية صالحة للاستغلال . فلتكن هذه القضية إذن وسيلة امتناعه من تأليف الوزارة ، كما كانت قضية مثلها بالأمس وسيلة اعتزاله الوزارة وهو قائم فيها

أصدرت محكمة الجنايات حكما فى قضية الاغتيالات السياسية اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو (١٩٢٦) فقضت « بالنسبة لمحمود أفندى عثمان مصطفى والحاج احمد جاد الله ، والدكتور احمد ماهر ، والأستاذ محمود فهمى النقراشى ، والأستاذ حسن كامل الشيشينى ، وعبد الحليم البيلى بك براءتهم من التهمة التى نسبت إليهم وبالإفراج عنهم فوراً إلا إذا كانوا محبوسين رهن قضايا أخرى »

وعلى ذلك يكون اتهام الوفد بتدبير هذه الجنايات باطلا بحكم القضاء كما بطل من قبل ذلك اتهامه بتدبير مقتل السردار ، لأن الرجلين البارزين من رجال الوفد اللذين كانا بين المتهمين — وهما الأستاذان ماهر والنقراشى — قد برثا من التهمة ، ولم تعد للوفد صلة بهذه القضايا على جميع الاعتبارات .

إلا أن ما يبطل بحكم العقل أو يبطل بحكم القضاء قد تشاء السياسة أن لا تبطله فيكون لها الحكم النافذ متى كان من ورائها الجيوش والأساطيل فبعد أسبوع من صدور الحكم — أى بعد قيام مشكلة الوزارة —

كتب مستر كرشو أحد القضاة الثلاثة الذين كانوا في محكمة الجنايات خطابا إلى وزير الحقانية استهله بقوله :

« آسف لاضطراري إلى إبلاغ معاليكم أنني — بعد مداولة مع زميلي دامت خمسة أيام — أجدني لا أستطيع الموافقة على الحكم الصادر في قضية محمد فهمي على وآخرين إلا فيما يتعلق بمحمد فهمي على المحكوم باعدامه ، ومحمود فهمي النقراشي المحكوم ببراءته وعبد الحلیم البيلي المحكوم ببراءته . فان الأدلة على الاثنين الآخرين كانت غير كافية ، أما باقي الحكم فهو لزميلي وعندى أن حكم البراءة في تهمة محمود عثمان مصطفى والحاج احمد جاد الله واحمد ماهر وحسن كامل الشيشيني يناقض وزن الأدلة إلى حد الاخلال بتنفيذ العدالة . وقد بلغت خطورة هذا الاخلال في رأي وخطورة النتائج التي تنجم عنه حدا جعلني أعتبر أن من واجبي الخروج في هذه الحالة على مبدأ المحافظة على سر المداولة وتوجهت بعد إصدار الحكم إلى دار المندوب السامي فأطلعت نخامته على رأي باعتباره حاميا للجانب »

ويرى من هذا الخطاب أن مستر كرشو خالف أمانة القضاء ، وأنه قاض واحد من ثلاثة قضاة ، وأنه نسي أنه قاض مصري لا شأن له بدعوى المندوب السامي في المسائل السياسية ، ومع هذا كان من رأى الحكومة البريطانية أن حكمه وحده هو الحكم الصحيح وأن ماعداه لغو لا يجوز الاستناد اليه . فكتب اللورد جورج لويد إلى زيور باشا بلاغا يعلنه فيه : « بأن حكومته حسب النصيحة المقدمة إليها في الوقت الحاضر ترفض أن تعتبر الحكم دليلا على براءة الأربعة المذكورين كائنة ما كانت الأسباب التي بناه عليها القاضيان المصريان »

وسيلة صالحة — سواء كانت حسنة أو غير حسنة — لاستغلال القضايا في الأزمات السياسية . فاذا ألف سعد الوزارة فهناك هذا البلاغ كفيل بمخلق المشكلات وإكراه الوزارة على الاعتزال العاجل ، لأنه قد يؤدي إلى قبض

السلطة البريطانية على « الأربعة المذكورين » وإعنات الحكومة الجديدة
إعناتا لا حيلة فيه إلا أن تطلق أولئك السجناء وهي لا قوة لها على إطلاقهم ،
أو تستقيل

هذا إذ ألف سعد الوزارة . أما إذا ألفها غيره فلا ضرورة لاتخاذ عمل
من الأعمال ولا خطر من الاخلال بتنفيذ العدالة وتبرئة الجناة !

وهكذا كان . فان سعدا تنحى عن الوزارة وعدلى يكن ألفها ، فلم يسمع
أحد بعد ذلك بخبر لذلك البلاغ ، أو ذلك الانذار ، ونفعت قضايا الاغتيال
سياسة الاستعمار نفعها السريع في إقصاء سعد زغلول عن الحكومة

والواقع أن سعدا لم يكن يأبى أن يتولى عدلى تأليف الوزارة ، وأنه
صرح بذلك لبعض أصحابه قبل الانتخابات وبعد الانتخابات ، ولكنه بعد
الأنباء التي نشرتها الصحف الانجليزية وصحف القصر في مصر بأنه مرغم
على ذلك وأنه لن يتولى الوزارة أبد الآبدن لأن حزبه متهم في مقتل السردار
وغيره من الانجليز أحب أن يكشف الرياء حول هذه المسألة كلها ، ولا سيما
وقد صدر الحكم ببراءة الاستاذين ماهر والنقراشى من كل تهمة . فاذا شاء
الانجليز أن يقصوه عن الحكم فليظهروا بعد ذلك بالسبب الصحيح من
مقاصدهم السياسية المكشوفة ، لا بما يتعللون به من التعللات

فلما حدثت الأزمة وانكشفت الحيلة كلها تنحى عن الوزارة ورجع
إلى رأى الذى ارتضاه أولا وصارح به أصحابه وهو إسناد الوزارة إلى
عدلى باشا واختيار أعضائها من النواب والشيوخ المؤتلفين
والرأى عندنا فى موقف سعد من تأليف الوزارة فى هذه المرحلة أن
ولايته الوزارة لم تكن ضرورة لازمة ولم يكن فيها كذلك ضرر محذور على
المصالح الوطنية لولا تلك الأزمة التى خلقها اللورد جورج لويد فى آخر لحظة ،
وعلى هذا لا ملامة عليه فى طلبها ولا فى التنحى عنها .

أما تأليف الوزارة العدلية الجديدة فكان على النحو الآتي :

عدلى يكن باشا للرأسة والداخلية . وعبد الخالق ثروت باشا للخارجية
ومحمد فتح بركات باشا للزراعة ، ومحمد الغرابي باشا للاوقاف وأحمد محمد خشبة بك
للحربية والبحرية ، ومحمد محمود باشا للمواصلات ، وأحمد زكي أبو السعود
باشا للحقانية ، ومرقس حنا باشا للمالية ، وعلى الشمسي أفندي للمعارف
العمومية ، وعثمان محرم بك للأشغال العمومية

ومن تأليفها على هذا النحو يبدو لنا مقدار التساهل الذي ارتضاه سعد
لرعاية الائتلاف ، إذ لم يكن في هذه الوزارة أكثر من خمسة وزراء على اتصال
صحيح بالوفد ، والباقيون كلهم من غير الوفديين . ولم يعهد بوزارة هامة إلى
أحد من وزراء حزب الكثرة ، وهم أكثر من ثلاثة أرباع النواب

وقد وصف سعد هذه الوزارة بأنها وزارة « اندماج » Amalgamation
لا وزارة ائتلاف Coalition . كما شاع اسمها في الصحف وأروقة البرلمان ،
فدل بذلك على نظره البعيد وتفريقه الدقيق بين الأوضاع البرلمانية ، فان وزارة
الائتلاف قد أقيمت اقالة بعد بضعة عشر شهراً لخروج حزب القلة منها ؛
وليس خروج القلة بالعذر الصالح لاقالة الوزارة لو كانت وزارة اندماج في
حزب الكثرة النيابية

رأيت سعداً في أوقات كثيرة منذ قيامه بالدعوة الوطنية ، فما أعرف
وقتنا تسرب فيه السأم والتعب إلى بنيته وإلى نفسه كما كان يتسرب أحياناً
خلال الفترة من مقتل السردار إلى عودة الحياة النيابية .

كانت هذه الفترة أقل أوقاته حركة ولهذا كانت أكثرها سأمًا وتعباً ،
وكان قصارى ما اهتدى إليه خصومه من محاربتة أن يحاصروه في بيت الأمة
بالجند والسلاح ويمنعوا وفود الناس إليه ، فكان يراقب الحالة على بعد
ولا يملك النهوض لها بجهد من جهوده . . . وكان يؤلمه في الوقت نفسه أن

يستطيع الموظفون الاداريون كل ما اجتروحه من ارهاق الناس واستفزازهم دون أن ينالهم جزاؤهم الذي يستحقونه ، وفي أكثر الأيام كان يسأل : ما الذي يوغر صدور هؤلاء الموظفين على الأمة ؟ وما الذي يبغضهم في أيام الوزارة الشعبية ؟ وقد قلت له يوماً أنهم تعودوا أن يكونوا طول حياتهم مأمورين وأميرين . ووزارة الشعب فرضت لهم حرية وفرضت للناس حرية فلاحم مأمورون ولاهم أمرون . ولو عرفوا أنها دائمة لخافوها وعلقوا رجاءهم برضاها . ولكنهم لا يحسبونها تدوم قال لا يبعد أن يكون كذلك . فقد كنا نعامل هؤلاء الموظفين معاملة الشركاء في الحكومة ولا نعاملهم معاملة الآلات ، وكنا ننتظر منهم غيرة وطنية ولا ننتظر منهم طاعة عمياء . فوجدوا منا غير ما تعودوه

وذات ليلة كان يسأل : ما الذي يبعث القوة في الشعب ؟ وكنا ثلاثة على مائدته : محامياً معروفاً والأستاذ عبد القادر حمزة وكاتب هذه السطور . فقال المحامي وظن أنه يرضيه بما قال :
يا باشا كلمة منك تبعث فيه القوة ... كلمة منك تبث فيه الحياة الفتية ...
واسترسل في مثل هذا الكلام

فنظر اليه سعد هنيهة ثم قال : ما هذا ؟ أتريد أن تخطب ؟ أتريد أن تتحمس ؟ طيب : تفضل اخطب وتحمس . وانتظر من يسمع
وكانت نفسه برمة جداً بمن يعشون بهذا الموضوع لأنه كان مهموماً به لا يطبق الهزل فيه . بل كثيراً ما سمعته يتضجر في تلك الأيام من حب النكتة في الطبيعة المصرية ويقول : لولا إن المصريين يضحكون من زيور وغرائبه لما احتملوه هذا الزمن الطويل

وفي أوائل هذه الفترة زرته بفندق « مينا هوس » وكان يأوي إليه أحياناً أيام الشتاء . فرأيته كثير التفكير كما يكون حين يلتبس عليه وجه العمل وطريق الحركة : وسألني وهو ينظر الى الصحف على مقربة منه : ماذا يقولون ؟

قلت : وماذا غير قولتهم المعهودة ! إن سعداً ترك الميدان واستقال !!
قال لو بقيت في الحكم لقالوا إنه يخرب البلد تشبثاً بالمنصب
هؤلاء لا يعتد لهم بكلام

ثم نشط كعادته حين ينبعث الكلام في موضوع نضال بينه وبين خصومه
ومضى يقول : وهذه الصحف الانجليزية ما بالها تسمى وتصبح وهي تلغظ
بزغلول ؟ . . . إن زغلولاً يدبر . . . إن زغلولاً يتربص . . . زغلول .
زغلول . نعم يا هؤلاء انكم لن تستريحوا من زغلول

وهكذا كان في هذه الفترة يسأم ويتعب ويخيل الى من رآه انه يهم بان
ينفض يديه . ثم يتحداه متحد فاذا هو واقف على قدميه لا يسره أن يستريح
منه الخصوم .

رئاسة مجلس النواب

كانت رئاسة مظلوم باشا لمجلس النواب الأول مشهورة بضرب الجرس لحفظ النظام . بحيث يصح أن يقال ان الجلسات — مالم يحضرها رئيس الوزارة أو تحتم فيها المناقشة لأمر يشغل النواب — كانت مقسومة بين لفظ الرئيس بدق الجرس ولفظ النواب بالكلام

وأذكر أن زميلنا الأستاذ محمود عزمي حرمه مجلس النواب تذكرته التي يحضر بها المجلس لما كان يكتبه عنه من القوارص والغمزات . فانتقل الى مجلس الشيوخ واستمر على نشر أخبار مجلس النواب وهو يزعم انه يتلقى تلك الأخبار من طريق المكاشفة والتنويم ! فلقيته يوماً بمجلس الشيوخ وسألته أن يرينا معجزة من معجزاته على سبيل المداعبة فيذكر لنا ما يجري الساعة في المجلس الآخر ، فهم بنظرة قليلا كأنما كان يستطلع الغيب وقال : مظلوم باشا يدق الجرس ! قلنا جميعاً : آمنا لك بالمكاشفة ما في ذلك جدال ! ففي عهد رئاسة سعد للمجلس بطل دق الجرس أو كاد . ولاحظ المختلفون الى المجلس في العهدين ان الجرس قد أصبح من الأدوات النيابية الملغاة . وكان الأجانب والمصريون على السواء يقولون : ليس هنا مجلس ورئيس ، ولكنه معلم محبوب بين تلاميذ مطيعين

ولم يكن سعد يستعين في حفظ النظام بنصوص القانون ولا بحق الرئاسة في منع الكلام وفض المناقشات . انما كان يستعين بسلطان هو أشد رهبة من جميع النصوص والحقوق وهو سلطان العارضة القوية والفكاهة الحاضرة ، فكان العضو من الأعضاء يقول قولاً سديداً أو يصمت . لأنه يخشى إذا أطلق لسانه بغير السداد أن يستهدف على الأثر لجواب مفحم أو نكتة لا ذعة من منصة الرئاسة

حدث لما ذهب ثروت باشا إلى لندن لمصاحبة جلالة الملك والتماس الفرصة الملائمة لفتح باب المفاوضات في القضية المصرية أن عضواً من الأعضاء الذين يخالفون مبدأ المفاوضات من أساسه وجه استجواباً إلى نائب رئيس الوزارة يستوضح فيه موقف ثروت باشا في لندن ويخرج الوزارة احراجاً لا تملك الجواب فيه، لأن المفاوضات لم تكن هي الغرض الرسمي لسفر ثروت باشا وإنما كانت بغية متفقاً عليها بين ولاية الأمر يرجى أن تتاح لها الفرصة الملائمة بعد جس النبض واستطلاع الأحوال . فاذا قالت الوزارة — ردأ على الاستجواب — إنها ستفاوض أو أنها لا تتفاوض فليس في ذلك تسهيل لما كانت تنويه

والح كثير من الأعضاء على صاحب الاستجواب أن يلغى استجوابه فلم يفعل ولم يستمع وجنح إلى الاحراج والعناد . وأشار الوزراء بالمطالبة والمرادغة في عرض الاستجواب فأبى عليهم سعد أن يخالف نظام المجلس ، وقال لهم : بل يعرض الاستجواب ، ونعالجه بما يستحقه الاحراج والعناد وجاء الموعد المحدود وتلى الاستجواب ، وانتظر العضو المحترم جواب الوزارة وهو موقن بأنه قد وضعها في الفخ الذي لا خلاص منه بغير احباط المفاوضات . ولكنه لم يكذب يتهياً لسماع الجواب المأمول حتى فاجأه وزير الحرية — باتفاق سابق مع سعد — قائلاً : إن هذا الاستجواب موجه إلى شخص غير موجود

وقال سعد : ما قول حضرة العضو المحترم في ذلك ؟ في الواقع أنه لانائب لجلالة الملك ولا لرئيس مجلس الوزراء ، فسأل صاحب الاستجواب : أيؤخذ من ذلك أن الحكومة لا تريد أن تجيب ؟ فقال سعد : ليست المسألة مسألة ارادة أو عدم ارادة . وإنما ألفت حضرة العضو فضلاً عما ذكرته الى أن الاستجواب يحتاج إلى ثمانية أيام حتى لو كان مستوفياً جميع الشروط ، والدورة البرلمانية على وشك الانتهاء . فهل لا يرى العضو المحترم أن تأجيله أولى ؟

أما سر الغلطة في شكل الاستجواب فهو كما رأى القارىء انه كان موجهاً إلى « نائب رئيس الوزراء » ولم يصدر عند سفر ثروت باشا أمر رسمي بانابة أحد عنه في رئاسة الوزارة ! اكتفاء بأن يؤدي عمله في وزارة الداخلية أقدم الوزراء الموجودين عهداً بالمناصب الوزارية

قال صاحبنا : كيف ؟ أليس هنا فلان باشا ؟

فقال سعد : نعم . ولكنه ليس بنائب رئيس الوزراء !

فتردد صاحبنا وصاح مذهولاً : إذن من نسأل ؟

قال سعد : اسأل محامياً !

وقعد الرجل بين القهوة والضجيج ، وتأجل الاستجواب الى موعد غير مسمى بموافقة العضو المحترم !

وتناقش المجلس في قانون خلط الأقطان ، وفيه عقوبة مفروضة على من يخلطون صنفاً منها بصنف . فهض أحد الأعضاء وقال :

ولكن ألا يتفق أن يسهو أحد فيحصل الخلط على غير قصد منه ؟

فضحك سعد ضحكته المعروفة وقال : نعم يا حضرة العضو المحترم ! يتفق ! ولكن أتقدر حضرتك أن تقول لنا : كم كيساً من القطن تملأه وأنت ساه عن نفسك ؟ !

وبهذه الأجوبة الحاسمة وهذه الفكاهة السريعة ، كان يحفظ النظام في المجلس ويحفظ الألسنة في الأفواه فلا تنطق إلا بما يفيد

واستطاع من ثم أن يقف في ميدان الفصل بين جميع السلطات وجميع الهيئات ، فيفصل بين الأعضاء من أنصاره ومعارضيه ، ويفصل بين المجلس والوزارة ، ويفصل بين الوزارة والانجليز ، ويمشى بالوثام بين القصر والنواب والوزراء ، ويأخذ من كل لسلك حسبما تتجه الحوادث ، وتبديل الأحوال .

ومن أخطر الأزمات التي وقعت في أثناء رئاسته لمجلس النواب وعالجها بماله من النفوذ والحنكة أزمة الوزارة العدلية ، وأزمة ميزانية الأزهر ، والمخصصات الملكية ، وأزمة الجيش التي أثارها اللورد جورج لويد عقب الحملة التي حملها عليه مجلس النواب

فأما أزمة الوزارة العدلية فقد نجمت من اقتراح اقترحه بعض النواب لشكر الوزارة على مساعدتها بنك مصر ثم قيل في الرد على هذا الاقتراح إن الشكر غير لازم لأنه من قبيل تحصيل الحاصل . فاغتم عدلى باشا هذه المناسبة واستقال لأنه كان على ضجر وامتعاض من مطالب اللورد جورج لويد التي لا تجرى على قانون ولا اتفاق ، وفي مقدمتها مطالبته الدائمة بتعيين موظفين من الانجليز

وبذل سعد باشا زغلول جهده في اقامة وزارة أخرى — هي الوزارة الثروتية — قبل أن يتسع الافق للدسائس والمناورات التي لا تنقطع في السياسة المصرية

والذي نعتقده نحن أن أزمة الوزارة العدلية وافقت رضى من سعد في تلك الآونة لانه لم يستحسن من عدلى تهديده بالاستقالة اذا تعرض المجلس لتصرفه في مسألة كتاب « الشعر الجاهلي » للدكتور طه حسين ولم يكل اليه الرأى كله في هذا التصرف . وقد كان على الشمسى باشا وزير المعارف من قبل الوفد وكان رأيه كراى عدلى باشا في هذه المسألة على خلاف المظنون والمقدور ، فكان نصيبه أيضا من المجلس تجريح قوانينه التي عرضها لتعديل برامج الدراسة وافهامه من ثم أن اضطرار وزير الى الاستقالة أمر غير عسير ، ولودخل في حماية رئيس الوزراء وحسب له حسابا قبل حسابه لرعيه

وسلك سعد في مسألة ميزانية الأزهر ومسألة المخصصات الملكية مسلك الجمالة للقصر مع المحافظة على نص الدستور . فقد كان كثير من النواب يلحون في وجوب عرض الميزانية الازهرية على المجلس وكان المجلس يكاد أن

يتخذ قراراً بتأييد هذا الطلب . فذكر لهم سعد أن الدستور ينص على أن المعاهد الدينية تنظم بقانون . فالاقترح سابق لأوانه قبل وضع ذلك القانون وفي مسألة المخصصات الملكية كان بعض الأعضاء ينسى الدستور ويطالب الحكومة بنقصها في الميزانية وهو مالا يجوز لأنه مخالف للمادة المائة والحادية والستين من الدستور ، فكان سعد يسمح للأعضاء بالمناقشة في هذه المسألة ويمنع الشطط فيها ، ويكتفي بتوجيه المجلس إلى التماس تعديل المخصصات من جلالة الملك رعاية للاقتصاد . ويصيح احترام النصوص التي لا يحيص عنها بصيغة المجاملة على هذا المنوال

أما أزمة الجيش فهي أعجب الأزمات وأد لها على العنت الذي يلقاه الساسة المصريون من الأعياب السياسة البريطانية حيث تعتمد الى خلق الأزمات . فكل ما حدث من أسباب هذه الأزمة أن لجنة الحرية في مجلس النواب اقترحت زيادة عدد الجيش وتحسين سلاحه ، وهو اقترح قديم عرضه سبنكس باشا نفسه في عطلة الدستور وليس فيه خروج على حدود النيابة ولا سوابق الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية .

إلا أن المندوب السامي كان مورتوراً من المجلس ومن الشعب لأنهم استنكروا منه أن يباشر عمله دون أن يقدم أوراقه كسائر السفراء والوزراء المفوضين ، كما استنكروا رحلاته في الأقاليم واستقباله الأعيان والوجهاء والموظفين كأنه ملك يستقبل رعاياه . وليس للمجلس بد من هذا الاستنكار لأن سكوته عنه أمر غير مفهوم إلا على معنى الاقرار والتفريط في أمانته الوطنية وأمانته الدستورية ، ولكن اللورد جورج لويد لا يعرف عذراً لأحد في معارضة أهوائه وبدواته ، ولا يرى للمصريين - حكومة ونواباً وشعباً ومتطرفين ومعتدلين - إلا أن يذعنوا لتلك الأهواء والبدوات . . . فكظمها في صدره حتى سنحت مناسبة كأنها لا مناسبة على الاطلاق . . . وراح يمطر الحكومة المصرية باحتجاجاته الشفوية والكتاتبية ، ويطلب منها مالا طاقة لحكومة في الدنيا بقبوله وهو

مد خدمة سبنكس باشا ثلاث سنوات ومنحه رتبة الفريق وتحويله السيطرة على الضباط في الترقية والتعيين واتصاله المباشر بجمالة الملك وتعيين وكيل له ووكيل للوكيل من الانجليز ! وغير ذلك من المطالب التي أفلقت الحكومة والمجلس وأضاعت عليهما الوقت في غير طائل : فان خضعت الحكومة لهذا والا فالبورج البريطانية على شواطئ الاسكندرية . وأرواح الأجانب في خطر داهم وأن قالوا هم ونادى بعض سفرائهم بأنهم في أمان يعيشون بين المصريين معيشة الاخوان

وقام وزير الخارجية البريطانية السير أوستن شامبرلن بمجلس النواب البريطاني فقال في بيان أسباب الأزمة « أن أنظار فريق من رجال السياسة في مصر اتجهت إلى الجيش منذ زمن وهم يرمون «أولاً» إلى زيادة الجيش الحالي ، و «ثانياً» إلى اتخاذه سلاحاً في يد حزب سياسي . ولا ريب أن هذه المساعي من المسائل التي تهم الحكومة البريطانية مباشرة ، لأن الدفاع عن القناة من المصالح الجوهرية ، وحماية الأجانب من العهود التي قطعناها على أنفسنا »

الى أن قال : « والحكومة البريطانية على استعداد للشروع توأ في فتح باب المفاوضات للوصول إلى هذه الغاية - وهي الاتفاق على المسائل المختلف عليها ولكن علينا الى أن يتم ذلك الاتفاق أن نصر على بقاء الضمانات التي دلت الخبرة الماضية على أنها فعالة ! » . نعم ... وعلى المصريين طبعاً أن يفهموا أنه لا سلامة من هذه الأزمات حتى يساقوا سوقاً إلى المفاوضات !

وبعد مجال وجدال استقر الرأي على اجابة بعض المطالب وهي ترقية سبنكس باشا ومد خدمته وتعيين وكيل له ، وانهت أزمة من تلك الأزمات التي تخلق منها الهباء ويضاع فيها الوقت على سياسة المصريين ثم لا يسلمون بعدها من اللوم والاثام بالتقصير في أعمال الانشاء والاصلاح ! وقد بذل سعد من الجهد في تهدئة النواب والجمهور ما ليس يقدر على بذله سواه، وكان

موضع الملاحظة عليه من بعض أنصاره - ومنهم كاتب هذه السطور - أنه يشترى الدستور بأعلى من ثمنه ويطيل المسألة حيث لا يرجي أن تقابل بمثلها أو يكف عن العدوان

و كنت في أمثال هذه المناسبات أقول وأكتب في تأكيد هذا المعنى كما قلت في أواخر مايو سنة ١٩٢٦ من مقال في صحيفة البلاغ :

« ويلوحون لنا بعهد كرومر والغاء الدستور وما عهد كرومر بشر من دستور كهذا لا ينال المصريون منه إلا التبعات الجسام ، ولا يجنون منه إلا الأباطيل والأوهام . فأما أن نسلم للانجليز بكل زعم يزعمونه وكل مطلب يدعونه وإما أن ينسخوا الدستور ويعبثوا بالعلاقات بين الشعب والعرش والبرلمان . ثم ماذا نأخذ نحن من هذا الدستور الذي يسوموننا فيه هذا السوم الغشوم ؟ لاشيء على الاطلاق . نعم لا شيء الا الضرر والمحال مشفوعاً بالفرقة والانقسام »

وانما ذكرت هذه الملاحظات لأذ كر رد سعد عليها وحجته في ردها ، فقد كنت إذا حدثته فيما يلاحظ من فرط الحرص على الدستور أمام التهديد والوعيد يقول لي : « ليذهب الدستور حيث يذهب هذا حسن . ولكن يجب أن نذكر أن الانجليز قادرين على تضييع جهودنا كلها في طلب الدستور ، وانهم لولا رغبتهم فيه لضاع علينا ما سلف من جهود . يافلان ! إن في صلب الدستور كلمات لا تزال مكتوبة بخط موظف انجليزي في دار المنسوبة »

وحجته في موقفه من أزمة الجيش خاصة ان تضييع الدستور من أجلها عجلة لا تقضى بها الضرورة . ومتى كان القوم يشيرون الى المفاوضات بلسان وزيرهم فلا ضرر من ارجاء الخلاف كله بضعة أشهر الى أن نتفق على قرار أو يذهب الدستور الى حيث يذهب كما تقول

وعلى ضيق الوقت وغلبة الشواغل السياسية والأزمات المصطنعة قد اتسع المجال لأعمال شتى ومقترحات صالحة كإلغاء السخرة وتعميم التعاون بين الفلاحين وفتح الطرق ودرس مشكلة العمال ، وما إلى ذلك من مطالب الإصلاح الاجتماعية .

غير أننا لا نريد هنا أن نسرد سجلاً للأعمال والمقترحات التي أشرف عليها سعد في أثناء رئاسته لمجلس النواب ، فإن هذه الأعمال والمقترحات قد يشرف عليها كثيرون من رؤساء المجالس النيابية ثم لا يمتازون بقدرة غير معهودة في الرؤساء عامة . إلا أن الغاية التي مابعداها غاية في هذه الصناعة أن يستوى المرء فيها على مستوى الواجب كما يتخيله المتخيل ويصبو إليه المتأمل .

والمثل الأعلى في الرأسة هو الرئيس الذي يملك القدرة على القصد في أوقات المجلس والقصد في جهوده ، ويملك القدرة على حفظ نظامه بغير حاجة إلى زواجه وقوانينه ، ويملك القدرة على تعليم أعضائه وهدايتهم إلى أكبر ما يستطيعون من صواب وأقل ما يتعرضون له من خطأ ، ويكون مع صيائه لحقوق مجلسه قائماً بالقسط بينه وبين جوانب الحكومة الأخرى ، مانعاً للصدام بينه وبين ما يحيط به من القوى والعراقيل ، فهذه القدرة استحقت رأسة سعد أن تحسب مزية من مزاياه وصفحة من صفحاته ، لا أن يكون مبلغها من الذكر استقصاء جزء من تاريخه والامام بعام أو عامين من حياته

زعامته وأثرها

يقول لنا علماء التوحيد إن المعجزة الكبرى لنبي من الأنبياء هي المعجزة التي تطابق خلائق الأمة المبعوث فيها . فموسى بعث بالعصا الساحرة في أمة السحر والكهانة ، وعيسى بعث بآية الشفاء في أمة المصابين والضعفاء ، ومحمد بعث بالقرآن في أمة الفصاحة والبيان ، فلكل منهم معجزة تطابق أحوال قومه وتستمد الاقتناع من معدنه وأصله

فما أصدق ما يقول العلماء فيما رأيناه في عصرنا من سير الزعماء ! فغاندى كان خير زعيم في الهند لأنه ناسك من أمة النساك ، ومصطفى كمال باشا كان خير زعيم في الترك لأنه جندي من أمة الجنود ، [وسعد كان خير زعيم في مصر لأنه فلاح من أمة الفلاحين] . وحسبك أن تعتمد الى نموذج الفلاح المصري فتضاعف ما فيه من خلائقه وعاداته وخصائص بيئته لترى أمامك سعداً ماثلاً في عظمته المصرية ، قائماً على مرتقى المثل الأعلى لتلك الخصائص القومية ، وليست آية أفصح من هذه الآية على صدق النهضة السعدية وجريانها مع طبائع الأمور

[وقد اجتمعت لسعد من مزاياه الشخصية ومن توفيقاته العصر في حياته صفة الزعامة الواجبة على المصريين ، أو الزعامة الملائمة لأطوار النهضة الأخيرة في هذه الأمة]

[فهو لأنه كان فلاحاً من أصحاب المراتب العالية قد استطاع أن يجمع حوله السواد والعلية من أبناء الفلاحين ، وهم قوام الأمة المصرية]

ولأنه كان صديقاً لقاسم أمين على رأيه في تهذيب المرأة قد استطاع أن يقود النهضة الأولى التي اشترك فيها الرجال والنساء وشملت الأمة كلها لأنها شملت البيت كله

ولأنه كان يطلب الاستقلال من الترك كما يطلبه من الانجليز قد استطاع
أن يمحو الفوارق الدينية والعصية المذهبية في الحركة الوطنية ، لأن المسيحيين
والاسرائيليين قد علموا أنهم شركاء في دعوة واحدة ، وليسوا مسوقين في
حركة دينية يطلب دعواتها سيادة الترك لأنهم مسلمون ، وإنما الحق أن يطلبوا
السيادة المستقلة لأنهم مصريون

ولأنه كان حاضر الفتوة وافر الحماسة في الشباب والكهولة والشيخوخة
قد استطاع أن يقود الشبان المتلهبين كما يقود الشيوخ المحنكين ، أو استطاع
أن يجمع الجليلين في ثورة واحدة ، وقلما يجتمعان

قالت صحيفة التيمس في رثائه : « بما عهد في الزعماء الشرقيين أنهم يعتزلون
العمل قبل زملائهم الغربيين . إلا زغولوا ، فانه احتفظ بنشاطه الغزير الى
النهاية ، وليس بين الثائرين المتطرفين في التاريخ الا عدد قليل بقيت له عقيدته
السياسية في شدتها وعنفوانها بعد الخمسين ، ولكنه هو بلغ أقوى ما بلغ من
السلطان على الجماهير عند ما ناهز الستين ، وكانما كان تقدمه في السن يزيد
من حماسة الشباب ونزواته ! على أن مفاجآت طبيعته وأطوار حياته وتقلبه
في تحصيل العلم بين الفقهاء العرب والاساتذة الفرنسيين ، ومضاء عزيمته
وفصاحته وما كان من الأثر على تربية ذهنه لأناس بينهم من الاختلاف مثل
ما بين جمال الدين داعية الجامعة الاسلامية واللورد كرومر — كل هذا لا يكفي
لتفسير قبضته الغريبة على شعب كثير التحول . فان وراء كل هذا ، وفوق
كل هذه العوامل المؤهلة للنجاح قدرة خاصة قبضت له ذلك النفوذ على أبناء
وطنه ، ومغناطيسية شخصية تجذب اليه الألوف من التابعين »

وقد أدى البحث في أصل سعد الى اختلاف الأقاويل بين قائل يزعم
أنه من البدو وقائل يزعم أنه من المغاربة وقائل يزعم أنه ليس من هؤلاء
ولا هؤلاء ، ولكنه يشبه الترك في بعض الملامح والأخلاق ، فليختلفوا
ماشاءوا وليعزز كل منهم أقاويله بما شاء ، فان الحقيقة التي لا تقبل الجدل الكثير

[أن صفات سعد التي لاشك فيها هي أصلح الصفات لزعامة المصريين . وأن
مزاياه الشخصية ، وتوفيقات زمانه السياسية والاجتماعية قد جعلته الزعيم
المصرى الذى ليس بين معاصريه أحد أجدر منه وأولى بالزعامة ، وذلك
وحده كفيل بتقرير مكانه كما قرره لنفسه وقررت الأحداث والتوفيقات
فهو فى طبيعته العملية ، وفصاحته المقنعة ، وفكاهته المرتجلة ، وعزيمته
الماضية ، وسماته المهيبه ، ومنزلته الرفيعة ، خير من ترشحه مصر لزعامتها من
صميم تكوينها ، وإنه لأصل فى زعامة الشعوب ليس بعده رسوخ ولا عمق
فى الأصول]

كان ساحراً للفلاح الساذج وابن البلد الظريف : سمعه فلاح من قنا فى
الاحتفال بعيد النيروز فبكى . ثم أفاق لنفسه وهو شيخ لم يتعود أن يبكى
إلا لحادث يصيبه فى آله أو ماله ، فظفق يعجب لنفسه ويسأل من حوله :
مابالى أبكى ؟ أمات أبى ؟ أمات أمى ؟ أغرقت مرا كى ؟ أأجذب زرعى ؟
وما لهذا الرجل يبكىنى ؟ أساحر هو ؟ أفاتن هو ؟ والله لا أدرى !! ولكن
الفلاح الساذج الحائر فى بكائه قد بين لنا أوجز البيان أن سلطان سعد على
النفوس المصرية حادث كحوادث القضاء والقدر أو هو من قبيل الحوادث التى
تحرك تلك النفوس وتهزها فى أعماقها ، أو هو من قبيل تلك العوامل التى ظن
الفلاح الساذج أنها هى وحدها خليفة أن تسيل الدموع من عينيه

وسمعه مصرى من أبناء البلد يخاطب فى نادى « سيروس » ويضحك
ضحكته العالية من خصومه . فما تمالك أن صاح : ياسلام ياباشا ! ضحككتك
حلوة . حلوة جداً ، الله ! الله ! فما ترك سعد هذا التعقيب « البلدى » على
ضحكته الساخرة أو الساخرة دون أن يشفعه بتعقيب من جنسه ، وهتف
بالحاضرين فى طلب السكوت كما يناسب المقام : سمع . سمع . هس !

[فمواقف الخطابة أو مواقف الزعامة لم تكن عند هذا الزعيم إلا تياراً

جارفاً ينبعث من قرارة وجدانه ، فيحتوى الحاضرين في غمراته ويردهم الى عنصرهم الاصيل فيشعرون على البديهة انهم وهذا الزعيم من موطن واحد في الشعور وموطن واحد في الارادة ، وموطن واحد في الجدل والفكاهة ، غير أنه يقدر من حيث لا يقدر ، أو يقدر لهم وهم من ورائه تابعون

والزعامة إذا بلغت هذا المبلغ من الاصاله كانت قوة مطبوعه — بل فرصة الهية — لا تفرط فيها أمة رشيدة ، ولا تقدر على التفريط فيها أمة ولو كان ديدنها التفريط . لأن الأمر في هذه الزعامات من وراء المشيئة والتدبير .

وقد يكون في الأمة عشرات أو مئات يقاربون ذلك الزعيم في جملة الصفات أو يفوقونه في بعض الصفات ، لكنهم لا يغنون عنه ولا يعوضونه وهو واحد وهم عشرات أو مئات . لأن الفضل في الزعامة للدرجة والنوع لا للعدد والكثرة ، والشأن هنا كالشأن في درجات الجمال . لو اجتمع ألف وجه على اعتدال في المحاسن لما بلغت كلها في الأثر والفتنة ما يبلغه الوجه الواحد الفائق في حسنه ، ولالوم على القلوب إذا هي آثرت أن تفتن بذلك الوجه الواحد أضعاف ما تفتنها تلك الوجوه الكثيرة ، والالوم على الشعوب إذا هي آثرت أن تفتن بتلك الزعامة الواحدة أضعاف ما تفتنها تلك الزعامات الشتى ، لأن الطبيعة لا تحس إلا هكذا ولا يحسن بها ولا ينفعها أن تنحرف عن سوائها ، وكل احساس مطبوع فهو قوة مطبوعه نافعة في ايقاظ قوى الأفراد وقوى الشعوب ، ومتى كان سبب التأثير طبيعياً فالتأثير لا جرم طبيعي لا اصطناع فيه ، وإنما الآفة الكبرى أن تكون الزعامة من توليد الاصطناع والمواربة والتمويه والتواطؤ على الغش والمغالطة والانتفاع ، فانها تكون حينئذ كالصحة التي تصطنعها المخدرات ليست من الصحة وليست من الشفاء ، ولكنها من السقام

لما نهض سعد بالدعوى الوطنية لم تكن مصر خالية بطبيعة الحال من أولئك المحكمين الأذليين أو أولئك المتحذلقين أحلاس القهوات الذين

يخطئون كل عمل ويخطئون كل رجل ويخطئون كل رأى ولا يحسبون
الأمور فى الدنيا تجرى أبدا إلا على خلاف ما يحكمون ويستحسنون ... ثم
لا يعرفون بعد ذلك انهم هم المخطئون

كان هؤلاء المحكمون الأزليون يرون كل إنسان فى مصر صالحا للزعامة
إلا الزعيم القائم بها فى حينها . لأن أصول الصناعة تقضى بذلك ، وإلا لم
تكن هناك صناعة ولم تكن هناك قهوات ... ولم يكن هناك محكمون

أفما كان زيد أولى بحل القضية المصرية لأنه مقرب من الانجليز؟ أم
كان عمرو أولى بحلها لأنه مشهور بالمرونة؟ أمما كان فلان أولى منهم جميعا
لأنه خليفة فلان . ولعلمهم لو طولبوا بالاتفاق فيما بينهم لما اتفقا إلى اتفاق ،
لأن الثروة لم تكن قط وسيلة الاتفاق . وإنما كانت وتكون أبدا وسيلة
المحال والشقاق

وأوجز ما يوصف به هؤلاء - على أحسن الظنون بهم - انهم كسما سره
الزواج : كل خطيب عندهم غير أهل لخطيبته وكل خطيبة عندهم غير أهل
لخطيبها . إلا ان يكون لهم نصيب فى الوساطة والمهر والوليمة . وعندئذ يكون
كل خطيب وخطيبة فى الدنيا على ما يرام

وإذا حاورتهم باصطلاح سماسة الزواج فليس بالنادر أن يصيبوا من
حيث يخطئ الأزواج والاصهار . فهذا الفتى الممقوت خير من جميع الفتيان
لأنه يملك المستقبل وينتظر الميراث ، وهذه الفتاة الدميمة السقيمة خير من
جميع الفتيات لأنها تدخل إلى بيت قرينها والوظيفة معها بجاه أبيها أو ذويها ،
وهذا الشيخ خير من جميع الشبان لأنه غدا يموت ، وهذه المرأة النصف
لا تضارع فى بيت القرين لأنها تغنيه ولا تحاسبه على ما يبقيه ويفنيه : نصائح
نافعة من حيث ينظر السمسار وأشباه السمسار ، ولكن النصائح التى هى
أففع منها وأعلى هى النصائح التى يستمع إليها الناشئ الصغير بالهامه والناشئة

الصغيرة بالهامها ، لأنها هي النصائح التي توحى بها الفطرة الخالدة وتنوط
بها بقاء الحياة وتقدم الأحياء

وهذا الإلهام هو الذي استمعت إليه الأمة المصرية ولم تستمع إلى حكمة
السماسرة وأحلاس القهوات ، فمما كانت تلبية سعد إلى نداءه سييلا إلى المنافع
أو سييلا إلى الوظائف أو سييلا إلى الراحة والاطمئنان ، ولكنها كانت
على نقيض ذلك مضيعة للمنفعة والوظيفة مجلبة للحننة والبلاء . فطاعتها هي
من قبيل الطاعة التي يلهمها الناشئ والناشئة لصوت الفطرة ودعاء السريرة .
يخطيء من يسمعها في بعض الأحيان من الوجهة الدنيوية ، ويخطيء ألف
مرة من يصم عنها أذنيه من وجهة الحياة الباقية والحكمة الخالدة ، وان كان
خطأه لا يظهر له ولا للآخرين . لأن الذي يفقد الكمال لا يشعر بفقد
الكمال ، أو لا يعترف بخسارته كما يعترف فاقد الخبز والحطام

وإذا ظفرت الأمة بالزعيم الذي تكون طاعته من قبيل هذا الإلهام فذلك
هي الزعامة التي تنتظر الأجيال بعد الأجيال ، وتلك هي الفرصة التي يخشى
عليها الضياع . لأن الزعامة التي تكون طاعتها من قبيل الاهتداء بحكمة
السماسرة واحلاس القهوات هي فرصة لن تضيع ، إذ هي فرصة موجودة
كوجود المنافع وعلم الحساب في كل زمان

هذا الإلهام الفطري هو الأثر الأكبر لزعامة سعد زغلول ، وهو شيء
لا يدخل في الإحصاء والأرقام ، ولكنه مع هذا شيء لا غنى عنه لكل
منفعة أو مصلحة يدركها الإحصاء وتحصرها الأرقام

والزعيم لا يحاسب في التاريخ بحساب الدقتر الذي يحمله الأجير فلا
يعطى فيه درهما إلا بما يقابله من عمل في ساعات النهار ، ان الرجل الذي
لا تظهر ما آثره إلا بهذا الحساب لهو أنقص الناس في صفات الزعامة
وقيادة الشعوب ، لأنه أذن يعمل بيديه كما يعمل الآخرون ويتلقى جزاءه كما
يتلقاه سائر الناس ويحاسب بمفرده ولا يحاسب بما يدعو الناس إليه ، وإنما

يحاسب الزعيم حساب الشمس التي تشرق على الحقول أو حساب النهر الذي
يجرى بين الأعشاب والأشجار . لا يضرب كلاهما فأساً ولا يغرس
جذرا ولا يخطط سطرأ بهندسة ولا يبني جدارا على حوض أو خزان ، ولكن
الضارين بالفؤوس جميعاً والغارسين للجذور جميعاً والعاملين في الهندسة
والبناء جميعاً لا يثبتون سنبله واحدة بغير الشمس والماء

فإذا استطاع هذا الزعيم أن يبت هذا الروح أو يوقظه أو يجمعه حو اليه
فكل ما تنشئه الأمة وهي مأخوذة بهذا الروح فهو من عمله وصنع يديه ،
أما إذا كان عمله كله هو ما يعمله بنفسه ويرسم عليه طابع يديه فما هو بزعيم
وسعد زغلول قد بث في مصر هذا الروح ، أو هو قد أيقظه ، أو هو قد
جمعه حو اليه . فكل ما نهضت به الأمة من اشتغال بالصناعات أو مصارف
الأموال أو شركات التجارة أو معاهد التعليم أو مجامع السياسة مما لم يكن
فيها قبل تلك النهضة ففيه سهم لا ينكر لزعامه سعد زغلول

هذه الزعامه هي التي التقي حولها المصريون فعملوا أنهم أمة ، وعلموا أنهم
مسلمون ومسيحيون ولكنهم أمة ، وانهم رجال ونساء ولكنهم أمة ، وانهم
شيب وشبان ولكنهم أمة ، وانهم حضريون وريفيون ولكنهم أمة ، فانبعثت
للأمة حياة ماثلة إلى جانب حياة كل فرد وكل طبقة وكل طائفة وكل
جنس وكل دين ، ورأينا الايام التي نسي فيها اللص انه سارق ولم يذكر
إلا انه مصري من المصريين ، ونسيت فيها البائسة الموصومة أنها متاع مهين ولم
تذكر إلا انها مصرية تطالب بقضية ، وفهم حتى هؤلاء أن هنالك معنى من
معاني الرفعة الانسانية يسمى الشرف ويسمى الحياء ، بل رأينا السنين التي
لبث فيها المئات والألوف يسامون الخسار فيقبلون الخسار ولا يقبلون المراء
في العقيدة ، ويخبرون بين منفعة النفس ومنفعة الأمة التي يدنون بها فيختارون
منفعة الأمة ولا يحفلون بمنفعة النفس ولا بمنافع الآل والبنين . وتلك
غنيمة قومية لا تدخل في حساب الأرقام ، ولكن الأمة التي تهملها وتبخس
قدرها لا تدخل هي نفسها في حساب

وسرى قبس من روح الوحدة المصرية إلى كل أمة في الشرق تعلم ان
شأنها في طلب الحرية كشأن المصريين ، وأن حاجتها إلى الوحدة الوطنية
كحاجة المصريين . فظهر الوفاق بين الطوائف في بلدان لم تعرف قط وفاقا
ولارغبة في وفاق ، وأصبح سعد زغلول علماً للنهضة الشرقية بأسرها لالنهضة
المصرية ووحدها ، ورمزاً لدعوة الوحدة في كل بلد ممزق بين العصابات الداخلية
والمطامع الأجنبية

روى موظف مصرى أنه لقي المهاتما غاندى في لندن حين زارها لحضور
المؤتمر الهندي فيها فجرى الحديث بينهما عن القضية المصرية واستطرد إلى
ذكر سعد فقال المهاتما : « انى تتبعت سيرة هذا الرجل القدير من سنة ١٩١٩
الى الآن ، ولا يزال له في نفسى أثر عظيم ، وأنا أعده قدوة وأراه بمثابة أستاذ »
قال الموظف المصرى : ذلك تواضع منك ولا ريب . إن الأمة المصرية
أربعة عشر مليوناً وأنت قد شملت حركتك ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الناس
قال المهاتما : « على هذا التقدير يكون سعد هو صاحب الفضل في السبق
والابتداء . ثق أن الحركة الهندية سارت على أعقاب الحركة المصرية . انى
اقتديت بسعد في اعداد طبقة بعد طبقة من العاملين في القضية الهندية ، فلا
تعتقل طبقة منهم إلا لحق بها خلفاؤها على الأثر ، وعن سعد أخذت توحيد
العنصرين ولكنى لم أنجح بعد كما نجح فيه . . . ان سعداً ليس لكم وخدمكم
ولكنه لنا أجمعين »

وأيا كان نصيب هذه الرواية من الصحة فالحقيقة التي لا تحتاج إلى اثبات
ولا استشهاد هي أن الوحدة المصرية سابقة لكل وحدة في دعوات الشرق
الوطنية ، وان الوحدة المصرية مدينة لسعد بمزاياه التي توافرت له أو توافرت
حولها ، فجعلته دون غيره أصلح الزعماء للزعامة على جميع المصريين
لقد كانت الزعامة بداهة فيه تقابلها التلبية البديهية من الجماهير . كان يدبر
ويقدر ويأخذ الأمور بالروية والنظر البعيد ولكنه لا يعول على التقدير

والتدبير بعض تعويله على البداهة التي ترتجىها الشعوب في غير تكلف ولا استعصاء ، وعنده أن العناية الالهية تعمل في هذه البدايات المرتجلة ما ليس يخطر على بال : ومن ثم كانت كلمته التي يرددها كلما اتجهت الحوادث في غير اتجاهها المنظور أو انفرجت الأزمات من غير مظنة الفرج المقدور : انها العناية ! انها العناية ! ويرفع بصره إلى السماء ولا يزيد

أذكر في الأيام التي أعقبت عودته من المفاوضات مع مستر مكدونالد أننا زرناه وعنده الأستاذ حامد جودة المحامي يقترح عليه بعض الآراء

فقال سعد بدعابته المعهودة : يا حامد . أنا ختمت العلم ! فهاتوا العمل الناجع ، فلا حاجة بي إلى اقتراح

ثم قال : ماذا تروننا صانعين في مواجهة الانجليز ؟

قال أحد الحاضرين : الاضراب العام يشترك فيه الموظفون حتى تجاب مطالب البلاد

٤

فسأل الباشا : وهل يقع هذا الاضراب ؟

فقال بعض الحاضرين يقع عاماً وقال غيرهم يقع في بعض الجهات ، وخالفهم آخرون فقالوا انه لا يُنتظر ولا يطول

قال سعد : الدليل على أنه لا يقع ولا يصمد طويلاً إن وقع انكم مختلفون فيه ... ان هذه الحركات لا تأتي إلا عفواً . وقالها بالفرنسية « Spontanément » وعند ما يكون الجو مهيباً لن تختلفوا فيها بل تجيوا بلسان واحد : انها أمر واقع لا ريب فيه

ولتعويل سعد على هذه البداهة كان لا يكره ذهنه كثيراً بهموم المستقبل ولا يزيد على أن يعطيها حقها من التفكير والروية ثم يدع البقية للمفاجأة أو للبداهة أو العناية كما يقول . واطمئنانه إلى المستقبل من هذه الناحية كاطمئنان التاجر الغني الوطيد المسكان الذي يعمل عمل الرجاء ولا يضيره أن تفاجئه السوق

بالهبوط أو الكساد ، لأنها كيفما تقلبت واضطربت لن تجده إلا على استعداد
للصعود والهبوط ، وغيره قد يطمئن إلى المستقبل هذا الاطمئنان فيضيع
ويبور ، أما هو فالثروة التي لديه ضمان لا يعتريه خذلان ، فمن فضول الوهم
أن يكرب نفسه طويلاً بالوساوس والهموم

كان لقومه مدد من عزمه وكان لعزمه مدد من قومه ، وكانا كالشحنتين
الكهربائيتين كلتاهما بمفردها في سكون . ولكنهما لا يلتقيان حتى تندفع القوة
السكائمة التي لا تندفع على انفراد

ولم يكن أقدر منه على الاتجاه والتوجيه ان لم يكن بوحى البداهة فبالكلام
الذي يبلغ مبلغ البداهة من اخلاص سامعيه

كان خصومه يدسون عليه في بيت الأمة أناساً من المشاغبين الذين لا خلاق
لهم ليلغظوا في مواقف التأثير والاحتدام ، فيفسدوا الخطاب عليه وعلى
السامعين ، وكان الجمهور يحار في تأديب هؤلاء لأنه لا يدري هل يتركهم
فيفوته حظ السماع أو يجاوبهم فينقطع الخطاب . وتمادى سليط من هؤلاء
يوماً فضاق الجمهور به ذرعاً وأخذوا بتلابيبه وبهم اشفاق من ضياع الخطابة
فهم يترددون ولا يدرون كيف يصنعون : هل يضربونه فيقع الاضطراب
أو يرسلونه فيعود ويحترى أمثاله السلطاء على مثل عمله وكخطف
البرق تبدر الكلمة من سعد فيكون فيها فصل الخطاب مع هذا السليط ومع
من تحدثه نفسه من زملائه بر كوب هذا المركب العسير ، ويقول سعد :
لا يضرب في بيتي ! ويترك مقام الخطابة ! وكخطف البرق يفهم الجمهور
ما يريد وينقطع دابر هؤلاء السلطاء فلا يرجعون

كتب سعد وهو في نحو العشرين من عمره في الوقائع المصرية — صحيفة
الحكومة — يشهر بالاستبداد ، ويحض الناس على دفعه ويستشهد بقول النبي
عليه السلام : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن

يعمهم الله بعقاب من عنده » ويختم كتابته بقوله : « إن شريعتنا شريعة سمحة تأتي أن يتولى أمور ذويها من لا يراعون للشرع حرمة ولا يحفظون للسنة ذمة . وتوجب الشورى على كل من الرعية والحاكم جميعاً . ذلك هو الحق والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل »

ويروى عن السيد جمال الدين الأفغانى أنه أمر تلاميذه بالكتابة في موضوع الحرية فكان سعد وهو أصغر التلاميذ سناً أحسنهم كتابة في هذا الموضوع . فقال السيد : ان من علامة نشأة الحرية في هذه الأمة أن لا يجيد الكتابة فيها إلا ناشئ كهذا الفتى !

وحضرته أثناء الحرب العظمى يسمع قصيدة حافظ العمرية فما استعاد ولا صفق فيها لأبيات كما استعاد أبيات الشورى وصفق لها ، حتى مال إليه محمد محمود باشا يداعبه قائلاً : معلوم !... وكيل الجمعية التشريعية !

فكرامة الاستبداد في طبعه

وقيادة الشعوب في طبعه

ولو لم يكن حبه الحرية مصلحة عامة وعقيدة راسخة لكان مصلحة خاصة تقوم عنده مقام العقيدة ، فهو يزود عن كبريائه حين يقضى للفلاح بحق الحرية ولا يرى فيه رأى الزملاء من حكام الترك الذين يقضون عليه بالخضوع ويقضون لأنفسهم بالسيادة . ومن اتفقت له كراهة الاستبداد ، والقدرة على دفعه ، واستنهاض الشعب إلى صدع قيوده ، والشعور مع الشعب بعزته وهوانه ، فقد رشحته ارادة الغيب ولم ترشحه ارادة الناس للزعامة والاضطلاع بهذه الأمانة ، واصطلحت هداية الالهام وهداية التفكير على تقديمه لهذا الأمر الكبير

لقد وجدت الأمة المصرية نفسها على يدى سعد . ولم يكن لها قط وجود أكمل من وجودها إلى جانب هذا الزعيم ، وهذا أثر لزعامته لاشك فيه ! وهذا وحده في عالم السياسة أثر يعلو على جميع الآثار [

سعد وخصومه

من غير النادر أن يلام الزعيم على النقيضين في وقت واحد ومسألة واحدة : على التشدد والتسهل ، وعلى الاقدام والأحجام ، فيحسبه قوم مضيعاً للمصلحة لأنه تشدد وغلاً ويحسبه آخرون مضيعاً للمصلحة لأنه تساهل وتهاون ... وغالباً ما يكون الزعيم الوطني هو الواقف في مفترق الصواب والخطأ عند ما يتناقض الخصمان

وكان نصيب سعد من ضريبة الزعامة في هذه الخصلة كمنصيب أكثر الزعماء ، فوهم المعتدلون انه متشدد تعوزه المرونة ، ووهم المتطرفون انه لين تعوزه الصلابة . والصواب انه لو تساهل كما أراد أولئك أو تشدد كما أراد هؤلاء « لتلاشى » بينهم في الوسط ولم يكن له عمله اللازم في الزعامة الوطنية ، وانما عليه أن يعمل عمله ولغيره أن يصف ذلك العمل بما يشاء فلا ضير في اختلاف الصفات إذا تحققت الأعمال

كان المعتدلون يطلبون منه المرونة لأنها هي وحدها سبيل الخلاص ، ولقد كانوا مرنين يوم قبلوا الحماية ، وكانوا مرنين يوم رحبوا بها أحسن ترحيب ، وكانوا مرنين يوم قبلوا مشروع ملنر وروجوا له في الصحافة والأندية الخاصة ، وكان هو على خلاف ما كانوا عليه لأنه اشترط الغاء الحماية الغاء صريحاً بين مصر وإنجلترا وبين مصر والدول . فاذا حكمنا « الواقع الحاصل » وهو الحكم الذي يحلو للمعتدلين أن يحكموه في جميع القضايا فهو المصيب وهم المخطئون ... لأن الحماية قد ألغيت وما كانوا يظنونها تلغى ، ولأنه لم يكتف حين اكتفوا فعادوا يطلبون مثل ما طلب ، وانحرفوا عن طريق المرونة كارهين

أما المتطرفون أعداء المفاوضات - ومنهم الفتي الذي أطلق الرصاص عليه - فهم قد حسبوا عليه مجرد قبوله الدخول في المفاوضات مع الانجليز تفريطاً في حقوق البلاد ، لأن القضية المصرية قضية دولية لا تنفرد بريطانيا العظمى فيها بصفة خاصة فلا يصح أن تحل بالاتفاق معها وحدها ، ولأن المفاوضات تضعف عزيمة الجهاد وتعلق آمال الشعب بالمحال ، فيركن إلى أمل لا يفيد . إذ كان من غير المعقول أن ينزل الانجليز عن منافعهم في مصر باختيارهم من أجل المفاوضات

لكن الصحيح أن اعتمادنا على الصفة الدولية للقضية المصرية يضيعنا بل قد ضيعنا قبل ضياع المفاوضات... فلم تبسط القضية المصرية قط للبحث بين الدول بعد الحرب العظمى إلا اعترفت فيها الدول جميعاً بدعوى الانجليز . سواء في مؤتمرات السلام أو في غيرها من المجالس الدولية

أما ان المفاوضات تضعف عزيمة الجهاد فالحقيقة أنها لا تخلق الضعف ان لم يكن موجوداً ولا تمنع الشعب أن يرفض نتائجها إذا كان قوياً لا يرضى بالقليل . ومن الجائز أن يؤمن بنذ المفاوضات إذا جرب الفشل فيها مرات عديدة . ولكن ليس من الجائز أن يؤمن بنذها ويجمع على هذا الايمان قبل تجربتها ، ومن هنا ينشب الخلاف والضعف الويل

نعم ان المفاوضات لا يليق أن تكون هي وسيلة الشعب الوحيدة إلى الحرية ، ولكن لا يليق كذلك أن تكون محرمة ذلك التحريم البات في جميع الأحوال والمناسبات ، وليس من الضروري أن تنتظر إلى المرحلة الأخيرة والمكسب الحاسم أو الجلاء التام حتى ندخل في مفاوضة مع الانجليز . فقد تكون المفاوضات لازمة لتصفية المكاسب الصغيرة كما تكون لازمة لتصفية المكاسب الكبيرة والأخيرة ، والمعول في ذلك على مناسبات الأحوال وعلى اختبار الزعماء والسياسة ، الذين يجب أن يعملوا كما يعمل أصحاب الإرادة والتفكير لا كما تعمل الآلات تحرم الشيء وتصمد على تحريمه في جميع الأوقات بغير تفرقة بين المناسبات والأحوال

ولقد خالف سعد خصومه المعتدلين كما خالف خصومه المتطرفين ، فلم
يثبت انه مفتقر إلى المرونة ولا ثبت انه مفتقر إلى الصلابة ، ولكن ثبت
من مخالفته اياهم انه زعيم يصلح للقيادة ويمضى في طريقه المستقيم أمامه ، لأنه
يعمل ما يوحيه اليه وحي الساعة وان أغضب أصحاب الآراء من الجانبين

في بعض أحاديث سعد كان يقول إن العمل للمصلحة العامة « جذبة »
تستولى على الانسان كجذبة الدراويش ، وانه لو شاور الفكر وحده لما
اشتغل بالمصلحة العامة ولفضل عليها الاشتغال لنفسه ولدنويه

والحقيقة أن المداورين النفعيين الذين يفكرون في أنفسهم ولا تملكهم
تلك « الجذبة » للمصلحة العامة جديرون بالغبطة والتهنئة حتى من وجهة النظر
إلى النتائج التاريخية والاعتبارات العامة التي ينالونها ، فانهم يفكرون في
مصالحهم ولا يفكرون في غيرها إلا بمقدار ما يدارون أغراضهم ويدفعون
التهمة عنهم ، وإذا وجدوا في بلد مصاب بالسيطرة الأجنبية عرفوا كيف
يرضون القوة ويستقبلون قبلتها في كل حالة ويرتقون على يديها إلى المناصب
ويقدرن بجاه المناصب على كسب الأشياع والاتباع . فيقال إنهم مصلحون
وأنهم غيورون صادقون ! ولا ينالهم من الجزاء على خدمة القوة واغتنام
الفرصة إلا غضب الرأي العام ونفور الجماهير . ثم تنصرم الأيام والأعوام
فيقال إنهم قوم ممتازون ارتفعوا عن شأو الجمهور فغضب عليهم الجمهور ،
وانهم ليسوا من قادة العامة والدهماء ولكنهم من الخاصة والعلية المنتقاة . فاذا
بالعقوبة الوحيدة التي تعرضوا لها من أجل خدمة أنفسهم وقد انقلبت شرفاً
لهم وسبب من أسباب التعظيم

وهناك من الطرف الآخر الزعماء أصحاب « الجذبة » يعضبون القوة
فتقف لهم بالمرصاد وتسلب عليهم أشياء واتباعها من المداورين والنفعيين
وتتعمد القوة أن لا تعطيههم مطالبهم ومطالب أقوامهم إذا انهزمت أمامهم

بل تعطىها المداورين النفعيين لتزيدهم قدرة على خدمتها ومحاربة خصومها .
فيقال إنهم هم الذين بلغوا تلك المطالب وما بأيديهم من حول ولا حيلة
يبلغون بها مطلباً لولا معارضة الزعماء المناضلين

يفعل هؤلاء الزعماء المناضلون ذلك فلا ينالهم من الجزاء إلا إعجاب
الرأى العام وولاء الجماهير . ثم تنصرم الأيام والأعوام فيقال إنهم قوم من
قادة الجماهير التي تتبع كل ناعق . فاذا بالشئ الوحيد الذي نالوه وقد انقلب
خسارة في ميزان التاريخ ، أو ميزان بعض التواريخ . وأقل ما هنالك أنهم
يتساوون هم وجماعة المداورين في بعض الموازين

والعجيب أن في فطرة الناس جميعاً أن يحسبوا المطامع على العظماء
ولا يحسبونها على الصغار أو الأوساط . كأنما هؤلاء الصغار والأوساط
قد يسون لا يعملون إلا للآخرين ، أو كأنهم مباح لهم أن يطمعوا وينتفعوا
لمجرد كونهم صغاراً وأوساطاً ينالون مطامعهم بالوسائل التي يقدر عليها جميع
الناس ، ولا يحشمون من يقتدى بهم أن يكون على امتياز خارق في القدرة
والخلاق !!

أليست المداورة إذن « رأياً سديداً » الى جانب جذبة المخدوعين ؟

لقد وجد خصوم سعد ما يقولون عنه لقيادته الجماهير واضطلاعه بالهمم
الكبار ، لأنهم لا بد أن يقولوا ، لا لأن ما يقولونه يصدر عن عقيدة منهم
أو يستحق مؤونة الاصغاء

فالرجل قاد الجماهير لأنه لا يستطيع أن يقاوم دولة أجنبية وهو بمعزل
عن جماهير قومه ، وإنما تعاب هذه القيادة إذا كان صاحبها لا يحسن ما هو أرقى
منها وأحوج الى الكفاءة ، وتعاب إذا كان صاحبها يقود الجماهير بالغرائر
الدينئة والغواية الأثيمة ، ولا يقودهم بالحمة والأريحية ليقدّموا على التضحية
والمشقة ، وتعاب إذا هبط اليهم الزعيم وتخلق بأخلاقهم ليملك مقاديرهم
ويزدلف اليهم ، وتعاب إذا كان ممدوحاً محموداً من الجماهير أن تسكن وتستكين

وفي بلادها قضية بينهم وبين غاصبيهم . أما إذا كان صاحب القيادة مبعجلاً متحلياً بالصفات التي يعجب بها العلية والسواد ، وكان متزن الكلام لا ينطق بكلمة واحدة تستهوى العقول السخيفة ولا تقبلها العقول الراجحة الحصيفة ، وكان جانبه جانب التضحية والمشقة والمثل الأعلى ، ولم يكن جانب الغنائم والمآرب والاسفاف الى الغوايات الوضيعة ، وكان واجباً على الجماهير أن تهتم وتقلق وتشرب إلى أفق الرجاء وتنقاد لمن يحسن أن يقودها ، فهناك يكون قائد الجماهير هبة من هبات السماء ، وتكون قيادة الجماهير واجباً تنحني أمامه رهوس الجماهير وغير الجماهير .

ومع هذا ظن بعض الصغار والأوساط أنهم يسامون الرجل لأنهم عاجزون عن هذه القيادة ، كأنهم استطاعوها وزهدوا فيها ، أو كأنما وجود الحقراء من قادة الجماهير ينفي أن للأمم قواداً في الذروة العليا من المقدره والكرامة

* * *

وتعود الناس في خلافات الأحزاب السياسية أن يسمعوها التهمة الواحدة تقال وتعاد من الجانبين أو من الجوانب الكثيرة . فكل حزب هو الحزب المخلص العامل النافع الرشيد ، وكل من عداه هو الحزب المغرض المتواكل الذي لا ينفع ولا يهتدى الى صواب . وإذا كانت الآونة من آونات الثورة واشتعال الخصومة وغليان الحقود فالخيانة والاجرام وسوء الدخيلة وقبح الصنيع تهمة أو تهمة لا يسلم منها انسان مشترك في السياسة : يقولها هذا الفريق كما يقولها ذلك الفريق ، ويعلم أناس من المطلعين بطلانها أو صدقها في حينها ثم يتراخي الزمن ويقدم العهد ويجيء اليوم الذي يحار فيه التاريخ بين الأقاويل المتضاربة والنقائض المتراكبة ، فيفصل فيها على طريقة الفصل بين المرأة الصادقة والمرأة الكاذبة في ادعاء الأمم ، وهي شطر الحقيقة نصفين شطراً لهذا وشطراً لذلك . فكلاهما مصيب وكلاهما معيب ، لأن الشأن في

كل سائس وكل زعيم أن يقول في خصومه وأن يقال فيه ، فلا حاجة إذن
بالمؤرخين الى الفصل والانصاف ، ولا موجب إذن للتدقيق والتحقيق
لكن هذا الحكم لو أخذ على إطلاقه لظلم فيه أناس كثيرون ، ونجا من
العقاب العدل أناس كثيرون — وليس هذا هو المقصود من عبر الحوادث
ودراسة العظماء والزعماء ، بل المقصود أن يعطى كل إنسان حقه وأن لا
يتساوى المصلحون والمفسدون

إذ ليس من البعيد أن يصل الى الحكم في أيام القلاقل والمنازعات الدامية
رجال محتالون ما كرون نفعيون يدارون ظواهرهم وهم في باطن الأمر على
أخبث ما يكون الحاكمون . بل الشأن في إبان القلاقل والمنازعات الدامية أن
يكثر هذا الطراز من طلاب المغنم ورواد الفرص والعارفون باستغلال
النقائص الانسانية والذائل الخلقية في الشعوب المتبتلة بالنزاع والطفينان .
ومتى وصل واحد من هؤلاء الى منصة الأحكام واستولى في يديه على أزمة
النفع والضرر والتقريب والاقصاء والوعد والوعيد فإى شئ أيسر لديه من
خلق المادحين والقادحين ؟ يمدحونه وهم يعلمون أنهم كاذبون ، ويقدحون
في خصومه وهم يعلمون أنهم كاذبون ، ويغالون في الكذب والصفافة وهم يعلمون
أنهم آمنون كاسبون ، وأن المستقبل كفيل بطمس المعالم وتبديل الظواهر
والبواطن ، والمساواة بين التهم من هنا والتهم من هناك ، فلا فرق بين أنصار
المبدأ والمصلحة العامة وبين أنصار النذالة والمنافع القريبة . بل يرجح هؤلاء
بالمصلحة التي غنموها ويبقى نصيبهم من الحمد والقدح كنصيب الآخرين

ومن يضمن العواقب ؟؟ فلعل أنصار المبدأ والمصلحة العامة يعجزون عن
تحقيق آمالهم وتصديق وعودهم فينقلب الأمر عليهم وتسام الأسماع الأصغاء
إلى مبادئهم ودعاواهم ، فاذا هم هم الخاسرون في الرأي والخاسرون في فرص
الحياة ، وإذا بالعبرة الخالصة من هذه المعمة الخاسرة أن المبادئ والفضائل
لغو وعبث وضياع ، وإن الضعة والأثرة العمياء حكمة وجد وغنيمة ، وبئس

ما يكون التاريخ وكتابة التاريخ ان كان هذا خلاصة العناية به والبحث فيه من الواجب عند النظر في سيرة كل زعيم وطني أن نذكر هذه الحقائق ولا نسهو عنها كلها نصبنا الميزان بينه وبين خصومه في عمل من الأعمال أو أو زعم من المزاعم أو مصائر فشل أو بواذر نجاح . ولا نقول إننا يجب أن نصدق حزبه في كل دعواه وأن نكذب يقال فيه بلا استثناء ، وإنما نقول إن الظلم البين في هذه الحالة هو شطر الحقيقة شطرين والخروج من القضية بين بين ، لأننا لن نربح في ذلك إلا أن نقتل الحقيقة ونقتل العظمة ونحني الخسة والخبث والمصانعة ، إذ نلحقها بالعظمة ونسوى بينها وبين الرفعة والبطارة والشجاعة في تقدير بني الانسان

فالسيف الذي يقطع الحقيقة نصفين لا يجدي في انصاف سعد من خصومه كما أجدي في الانصاف بين المرأتين على طريقة سليمان الحكيم ، ولا بد هنا من التفرقة بينه وبين خصومه على نمط غير هذا النمط وتقدير غير هذا التقدير

لا ريب أن أناساً خاصموا سعداً للرأى والعقيدة ، ولم يخاصموه للنبعة والضعينة ، ولكننا يجب أن نعلم أن حقوق الناس في العقيدة لا تتساوى ولا تماثل ، ولا سيما إذا كانوا طلاب زعامة أو كانوا وزراء وساسة يعملون في مصائر الشعوب

فأنا أعتقد وأنت تعتقد وكل إنسان يعتقد ، ولكن الرجل الذي يعتقد وهو قادر قدرة الزعيم هو أولى بالاعتقاد وأحق به بمن يناقضونه ويناقضونه ولو كانوا مخلصين مؤمنين بما يعملون

ورشدى وعدلى حين خالفا سعداً لم يخالفاه الا وهما يعتقدان انهما على صواب فيما رأياه وأن سعداً على خطأ فيما رآه ، ولكن ليس معنى ذلك ان الناس مطالبون بالتسوية بين الحزبين لأن الحزبين يعتقدان ما يدعوان اليه ، وإنما الناس مطالبون بأن يعرفوا صاحب الزعامة الذي هو بها حقيق وعليها

قدير ، ولا يلامون بعد ذلك إذا فضلوا اعتقاداً على اعتقاد وإخلاقاً على إخلاق
وقد نال سعد من خصومه كما نال منه خصومه ، وقد تمادى كما تمادوا
مع اللدد في الخصومة ، وأسكن العذر في جانبه أظهر من العذر في جانب غيره
وكثيراً ما كان الابتداء منهم والرد على ذلك الابتداء ضرورة لا طاقة
بدفعها لأنسان

ولست أذكر من تماديه في اللدد ما هو أولى بالنقد والمؤاخذة من مثلين
يحضر اني الآن ، ويتلخص فيهما كل مثل آخر على قلة هذه الأمثال
فلما كان عدلى في لندن لمفاوضة الحكومة الانجليزية جرى حديث بين
سعد ومندوب شركة روتر قال فيه :

« لا أعرف عن المفاوضات شيئاً غير ما أراه في الصحف ، ولكنى
أعتقد من ظواهر الأمور أن كثيراً من الخداع يجرى الآن ، وان هناك
محاولة لاطهار عدلى باشا في مظهر الرجل القوى الذى يقاوم فكرة الانجلىز
في بقاء جيش بأنحاء مختلفة من القطر المصرى ، وانه يشدد في أن يكون مقر
هذا الجيش أما في منطقة القناة أو فيما يجاورها . وهذا خداع . لأن نقطة
البحث الحقيقية ليست تنحصر في المسكان الذى تعسكر فيه الجنود البريطانية
ولكن في هل تقبل وجودهم عندنا على الاطلاق ، وفوق ذلك لا حق لبريطانيا
العظمى في وضع جنود بمنطقة القناة بمقتضى معاهدة الحياد . وقد اقترحت
يوماً ما أن تعسكر الجنود البريطانية شرق القناة ، وأن يعطى شبه جزيرة
سيناء لبريطانيا العظمى عدداً من السنين ، ولكن الأمة لم تقبل هذا الرأى ،
وأنا طبعاً أوافقها على رأياها »

وهذا كلام لا يقوله القائل إلا ذهاباً مع اللدد والنكايه ، لأن مفاوضات
عدلى اذا أسفرت عن جلاء الجيش البريطانى عن القطر كله وبقائه الى أجل في
ناحية من القناة لا تستحق الرفض والاحباط ، ولا يصح ان تنتظر الامه
المصرية في المفاوضات على يد عدلى أو على يد غيره مطلباً أكبر من هذا

المطلب الذى يوشك ان تتفق عليه الآراء . ولكن الرجل السياسى اذا قال مثل هذا المقال فى عناد الخصومة لا يأتى بعمل عجيب من الانسان ، ولا سيما اذا كان القتل والارهاق والمكابرة وتضييق الخناق وانتزاع ثمر الاعمال عنوة وقسرا وانتهاك الحرمات والامعان فى النكاية « واصنع ماشئت » . . . بعض ما كان يستهدف له فى تلك الآونة من أولئك الخصوم

والمثل الآخر ان سعدا كان يظاهر الحانقين على الاستاذ على عبد الرازق حين تعرض للتجريد من لقب العالمية لانه الف كتابا فى الاسلام وأصول الحكم يخالف به بعض العلماء ، وكان سعد يسوغ ذلك التجريد بكل ما أوتى من قوة المنطق والبرهان . قال يوما وكنت اناقشه فى ذلك : أوليس من حق كل طائفة من الناس ان تقبل فيها من تشاء وتقصى عنها من تشاء ؟ هب هؤلاء العلماء جماعة انشأوا لهم ناديا وحكموا فى يوم من الايام على واحد من حظيرتهم بالاقصاء من هذه الحظيرة . أترأه يحق له ان يبقى بينهم على الرغم منهم ولو كان مصيبا وكانوا هم المخطئين ؟ قلت يا باشا : ليس من حق جماعة ان تحرم واحدا منها حقوقه المصرية . لأن وظيفة القضاء التى يليها الاستاذ على عبد الرازق حق من حقوقه الوطنية التى لاسلطان عليها لغير القانون . ولو كان قصارى الأمر أن يخرج الرجل من ناد أو زمرة لا تريده لما استوجب الخلاف ، ولكنه بمجرد من وظيفة القضاء بعد التجريد من لقب العالمية ، وليس هذا بحق لهم يستأثرون فيه بالمنع والاعطاء ، فضلا عما فيه من مصادرة الحرية والخرج على التفكير

فوافق كعادته حين تتضح له الحجة ، وقال : أما ان كان الأمر هكذا فقد اختلف على هذا الوجه

ولكنه ظل مع هذا يود لو تم التجريد ويستريح الى اخباره ولو لم يجادل فيه من وجهة الحق والشريعة ، لانه كان يقدر من ورائه شقاقا بين حزب الاتحاد وحزب الاحرار الدستورين القائمين بالوزارة ، فسقوطا للوزارة بعد

ذلك ، فعودة الى الدستور والحياة النيابية ، وفي انتظار هذه النتيجة كان رجاؤه في تحقيقها أغلب على نفسه من نصرة مظلوم يرى أنه هو وحزبه ظالمون من غير هذا الطريق ... ولا ازال أقول ان سعدا كان بغير هذا المسلك أجدر وأحرى ، ولسكني أقول كذلك انه مسلك ان لم تظهر فيه بطولته فقد ظهرت فيه انسانيته التي لا تستغرب من انسان ، أو كما قلت حين هنأته باعتزال وزارة الحقانية أيام الخديو عباس

ولئن هفوت فما اخالك مخطئاً الا لتتقى عصمة الانسان

ويلحق بهذين المثليين ما كان يجري احياناً في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ من قبول طعون في الانتخاب لا يصح أن تقبل أو رفض طعون أخرى لا يصح ان ترفض ، وكنت اشفق ان يقع ذلك ، فاقترحت ان يكون الفصل في الطعون من عمل القضاء لا من عمل المجلسين ، اتقاء لطغيان الاحزاب وغلبة الاهواء ، ولكن سعدا آثر ان يستبقى هذا الحق للمجلسين ، وهو لم يشترك في قبول ما قبل أو رفض ما رفض من طعون ، ولكنه كان لا ينكر ما حدث ولا يمنعه بمجهود

على انه كان يسامح خصومه اكثر مما سامحوه ، ويحاملهم اكثر مما جاملوه ، مع انهم لم يجتمع عليهم من العداوات مثل ما اجتمع عليه ، ولم يصيبهم من الذحول والترات مثل ما اصابه ، ولم ينهضوا بمثل ما نهض به من النقائص والتبعات . وكان لا يالو جهداً في نزع ما بصدورهم من غل وتقريب ما بينه وبينهم من قطيعة . فلما عاد من باريس بعد النفي الأول ذهب الى منزل صديقه علي شعراوى باشا يزوره ويصل ما انقطع من صداقته وولائه . وكانا قد افترقا في باريس على جفوه . فلم ينسه استقبال الأمة برمتها أن يخف هو الى استقبال ذلك الصديق القديم ، ولم يكن به من حاجة الى استرضائه وإزالة ما بنفسه غير الواجب وبراء الضمير . وكذلك اغتتم فرصة الائتلاف في سنة ١٩٢٦ وقام يوم الاحتفال بالثالث عشر من نوفمبر يثنى على عبد العزيز فهمي « بك » ثالث

الثلاثة الذين ذهبوا الى دار الحماية في فجر الثورة ، وهم سعد وشعراوى وعبد العزيز ، وقال حين أثنى عليه انه هو أولى منه بفضل ذلك اليوم ، وما كانت به من حاجة سياسية الى استرضاء عبدالعزیز (بك) وقد رجعت الأمة بجميع احزابها اليه واعتزل عبد العزيز بك السياسة يومئذ وخرج من مضارها لا ينصر هذا ولا يخذل ذاك . وكثيرا ما كان يهيم بهذا التقرب او هذه المجاملة كلما وقعت النبوة بينه وبين صديق او زميل ، فيثنية عنها ما لقي قبلها من سوء اللقاء ورد المحاسنة بالجفاء .

ومما حسبه عليه جوابه على عبد الخالق ثروت باشا بعد أن دعاه الى الاحتكام الى الامراء والوزراء فيما كان بينهما من عداة و ثروت باشا رجل من طراز غير طراز رشدى وعدلى ، وخصومته لسعد غير تلك الخصومة واغراضه من الحكم غير تلك الاغراض ، وجوابه نفسه الى سعد دليل على طريقته فى السكيد مع اصطناع الطيبة والبراة .

فقد كتب اليه بعد عودته من المنفى يقول : « غير أنه وقد رفع الامراء صوتهم عالياً لضم الصفوف وتوحيد الكلمة رأيت ان مما يعين على تحقيق ما دعوا الأمة اليه تمحيص الحق واماطة اللسان عن واقع الحال والأعمال السياسية التي تمت على يدي . سواء ما كان منها سابقا على تشكيل الوزارة مما أفضى الى تصريح ٢٨ فبراير أو جرى فى عهدها كسياستها فى وضع الدستور وموقفها فى أمر تعويضات الموظفين الأجانب وتمثيل مصر فى مؤتمر لوزان وقانون التضمينات ، وذلك بان نحتكم كلانا فى أوجه الخلاف بيننا الى مجلس من الامراء يضمون اليهم رؤساء الوزارات والوزراء السابقين وأعضاء الهيئات النيابية وغيرهم من أولى الرأى فى البلاد ، يدلى فيه كل منا بحجته ويبسط ما لديه من الأدلة والمستندات . وانى لأرجو وأتم لا تريدون إلا خير البلاد أن لا تجدوا ما يمنعكم من قبول هذا الاقتراح الذى يمهّد سبيل الوفاق والوئام ان شاء الله والسلام »

كتب ثروت هذا فكل ما فهمه « الطيبون الأبرياء » أنه رجل وديع
سموح يعني ما يقول ويطلب السلام والوئام ... لم يكن على سعد شيئاً وإنما سعد
جنى عليه في شرعة المنصفين ، وها هو ذا يحتكم الى الامراء والوزراء ويقبل
حكم القضاة المنصفين ، وكل ما فهمه « الطيبون الأبرياء » ان الاحتكام على
هذا النحو الغريب أمر معقول ناجع في فض المشكلات بين الأحزاب :
يدع سعد برلماناً وانصاره ويقبل مع ثروت الى عشرين أو ثلاثين من الامراء
والوزراء يعرضان ما يعرضان من الشكايات ويبسطان الحوادث والاسانيد
والاوراق ، ويقولان ويردان وينتظران فصل القضاء ، فاما خرج سعدنازلاً
عن وكالة الأمة وعن البرلمان ، وإما خرج ثروت نازلاً عن تصريح ٢٨ فبراير
وهو لا يملك النزول عن شيء في هذا المقام

نعم . فهم الطيبون الأبرياء ذلك أو شاءوا أن يفهموه ولم يشاءوا ان
يفهموا الغرض الذي لاختفاء به على أحد يريد النظر ويحب ان يفتح عينيه ،
وهو أن ثروت يوقع بين سعد والامراء والوزراء ليقول : انظروا اليه
يرفض اليد المبسوطة اليه وترفح على قضاء المخلصين ، وانظروا الى انا الرجل
الوديعة الودود أسالمة وأناجيه ولا التقي منه غير الاعراض والاحجام

فهي مكيدة جديدة وليست بيد مبسوطة ولا مودة معروضة ، ولم يكن
في وسع سعد أن يقابلها بغير ما صنع وان يجيب عليها بغير ما أجاب حين
قال . « ... ما أنت بزعيم في الأمة ولارئيس حزب منها ، حتى يكون هناك
أهمية لخلافك أو وفاقك ، واسكنك فرد اختبرته السلطة الانجليزية فوجدت فيه
آلة صالحة لترويج سياستها ضد بلاده ، فسلطته عليها فاذاقها عذاب الهون ،
وسعى جهده في اسكات حركتها واخضاع نهضتها بوسائل من الارهاق بلغت
حد الاعدام ، ومن الاضلال وصلت الى الكذب والبهتان ، وكاد يصل
بها الى تلك الغاية السيئة لولا عناية من الله ادركتها ولفته من المليك اغاثتها
فأقصته عن منصة الحكم وانقذت البلاد من ذلك الخطر العظيم . وأصبحت

بعد ذلك فردا لا يهيم منك الا التحذير من ماضيك والاعتبار بحاضرک
والاحتياط لقابلك . امامك المنابر العامة فاعلمها ان وجدت سميعا ، والجرائد
السيارة فاكتب بها ان وجدت قارئاً ، والنوادى الخاصة فتحدث اليها ان
وجدت نصيرا . اما التجاؤكم الى الامراء فشر فو لكن لا يحوزه الا الاكفاء
ولخير لبنى الانسان ألف مرة أن يكون الناس صرحاء على هذا الأسلوب
من أن يكونوا طيبين على أسلوب ثروت في ذلك الخطاب

* * *

ومن الحق أن نذكر أن خصومه كانوا يخاصمونه ومن ورائهم سطوة
الدولة البريطانية وفي أيديهم سطوة الحكومة المصرية ، ولا شاغل لهم
بالليل والنهار الا أن يدبروا الأحيال وينصبوا الشباك ولا يدخروا من السطوتين
وسعاً في سبيل تحطيمه واغتصاب سعيه واستثارته إلى أقصى حدود الاستثارة
فأغرب شيء بعد هذا أن يستغرب « المنصفون الطيبون » أن يحمل على خصومه
وأن يقول عن بعضهم انهم « برادع الانجليز » وعن بعضهم أنهم مجرمون ،
وما في هذه ولا تلك ما هو أشد من كلمة السيد المسيح حين خاطب الكتبة
والفريسيين بقوله « يا أولاد الأفاعى » وهو هو مثال الصفيح والاحسان
لكن « المنصفين الطيبين » الذين لا يتحيزون لخصومه عليه — معاذ
الله ! — قد استغربوا ما ليس بغريب ولم يروا حرجاً فيما كان يصنعه الخصوم
لأنهم صنعوه باسم الحكومة والنظام والقانون ، ورأوا حرجاً فيما كان يقوله
لأنه لا يقوله باسم الحكومة والنظام والقانون ! ترى ما ذا يرى المنصفون
الطيبون لو انه جعل خصومه أولئك مجرمين حقاً بدلا من أن يقول عنهم
إنهم مجرمون ؟ ترى ماذا يرون لو انه استطاع وهو في الوزارة أن يدينهم
بسفك الدماء وتزوير الوثائق والتحريض على انتهاك القوانين وتعذيب الأبرياء
وتلويث سمعة القضية الوطنية بالمذابح والآثام ؟ ماذا يرى المنصفون الطيبون
لو انه جعل خصومه المجرمين مجرمين قانوناً ورسمياً بدلا من وصفهم بالاجرام
بلفظ اللسان ؟ الا يكونون إذن مجرمين وتكون معاملتهم معاملة المجرمين

ونعتهم بنعوت المجرمين واجبا مفروضا على المجتمع الانساني يخطيء من
يقصر في أدائه؟ وإذا كان لم يستطع أن يدينهم لأن السطوة البريطانية
تحميهم أيكون ذلك شفاعة لهم تشر فهم وملازمة عليه تعيينه في نظر المنصفين الطيبين!
لخير لبني الانسان ألف مرة أن يدان الزعماء ههذه الادانة من أن
يظفروا عند المنصفين الطيبين بالثناء والاعجاب!

وقد رد سعد كثيراً من الأيدي التي انبسطت اليه ولكنه كان يرد
النفاق والغفلة ولا يرد الصدق والاخلاص . حضرته مرة وعنده فتح الله
بركات باشا يعالج إقناعه باستقبال أناس خرجوا عليه ثم عادوا اليه لما أقبلت
عليه الدولة وصلحت الأمور

قال يا فتح الله : إني لا أطيق أن يستغفني هؤلاء الناس

قال فتح الله باشا : إنهم يا باشا يستغفرون ولا يستغفون ! وما زال به حتى
رضى باستقبالهم على مضض ، ولو أصر على اقصائهم لأحسن غاية الاحسان
وله في كراهة النفاق وتبكيك المنافقين كلما عرضت لذلك مناسبات
الحديث نوادر من حضور البديهة وصراحة القول قلما نجأ منها مستحقو التبكيك
سأله أديب كبير كان من الخارجين عليه ثم عاد إلى تمليقه حين صارت
الدولة اليه : أحق يا باشا انك كنت تقرأ صحيفة « كذا » في منفاك ! ويعني
صحيفة كانت تتهمكم بأصحابه وتنحى على حزبه وتفحش في كثير من الأباطيل
قال : نعم وخير ما كان يعجبني منها حديثها عن نادى المنافقين أو حزب
المنافقين !!

وكان من عاداته على المائدة إذا كثرت الحاضرين أن يوكل بكل صف
صديقاً يعني بمن يليه ، فسمع يوماً صديقا من هؤلاء يسأل جاره على سبيل
المداعبة أتأخذ مني أم تأخذ من فلان؟ وكان ذلك الجار من أقرباء سعد الذين
يقبلون عليه في دولته كما يقبلون على خصومه إذا تغيرت الجدود . فسرعان
مأجاب سعد : دعه فهو بارع في الأكل على الجنين !

فمن هذا وأمثاله لم يكن المنافقون ليقاربوه الا وهم على حذر شديد

ولم تعرف لسعد خصومة عنيفة قبل ولاية الوزارة . فقد كان في القضاء محبوباً مبعجلاً بين زملائه وإخوانه ، وبين المحامين وأصحاب القضايا والموظفين الذين كانت تربطهم به روابط العمل . وكان مجمعاً على الثقة به والاعجاب بفضلته وسجاياه بين عارفيه وصحابته حتى المتنازعين الذين لا يتفقون على شيء في مذاهب السياسة وتقدير الرجال . أما بعد ولاية الوزارة فقد انتقل إلى المجال الذي لا يسلم فيه من العداوة والأراجيف إلا رجل لا يفكر ولا يعمل ولا يستحق صداقة الأصدقاء . وقد كان هو أول وزير حرك بركة الوزارة الرائدة وأقلق الهاجعين عليها فيما كانوا مستغرقين فيه من سباب عميق . فجعل زملائه ومنافسوه من طبقة الوزراء يتهمونه لأنهم لا يريدون أن يتهموا أنفسهم ، ووصفوا أقدامه على ما يحجمون عنه بالطمع تارة وبالبلادة تارة أخرى . وطاب لهم أن يسموه «أبا طويلة» لأن هذا اللقب يطلق في البيئات البلدية على الطوال الذين يتهمون لما يعوزهم من رصانة ودهاء . كأنما كان أولئك الضعفاء المهزلة يحجمون لأنهم حكياء لا لأنهم جبناء ، وكأنما كانوا قادرين على مثل سعيه ولكنهم يأبونه قياماً بواجب الرصانة والدهاء .

يرى الجبناء أن الجبن حزم . وتلك خديعة الطبع اللئيم

فلا جرم تضطرب حوله الأهواء وتضطرم حوله العداوات والمنافسات وأحجى أن يكون ذلك في بلاد تعددت فيها مناحي السلطة وأغراض الحاكمين ودسائس طلاب الحظوة والغنيمة عند أصحاب السلطات المتفرقين المتنازعين وقلبا عرفت لسعد — مع هذا — خصومة في هذه الفترة كان هو جانبا والبادى بالعدوان فيها ، ولو شاء أن يتجنب الخصومات ويحيد عن سبيلها لما استطاع لانه إذا نسي أنه عظيم لم ينس زملائه ومنافسوه عظمتهم وضآلتهم بالقياس اليه ، وقد يغتفر بعضهم عداوة بعض لانهم يملكون وسائل الغلب

وأسلحة الصراع فيما بينهم فلا يأس أحدهم من بلوغ ما قد بلغه سواه : إن كان حامل لقب فغدا يحمل مثل لقبه بسعى مثل سعيه ، وإن كان محسودا على وظيفة فغدا يدركه في تلك الوظيفة مع مضي الزمن أو موأتاة الأسباب والشفاعات . اما المزية التي لا يدركونها ولا يطمعون في ادركها فهي القوة التي من أجلها يحسب لسعد حسابه وتعرض عليه من أجلها مودة الاقوياء الذين لا يحفلون بهم ولا ينتظرون منهم غير الخضوع والزلفي والاستعطاف ، وذنوب سعد في ذلك ذنب كل عظيم ، أما فضيلته في محاسبة خصومه فليست مما نراه في كل عظيم ، لان كثيراً من العظماء لا يقنعون بما كان يقنع به من نقمة أو عقاب أو عتاب

ومقطع الحكم في هذا الباب أن تسأل : كم زعيما ووطنيا في العالم كان أقل خصومة وارفق في الملاحاة من سعد زغلول ؟ فأن كان سعد من أقلهم خصومة وارفقهم ملاحاة فذلك حسبه من عذر وحسبه من ثناء واذا هو لم يكن بطلا في كل خصومة فعذره الواضح بل حجته القائمة انه لم يكن دائماً في خصومة ابطال ، بل كان من خصومه من لا يستحقون صفح البطولة وسماحة الانفة ، ويرجع اللوم اليهم في ذلك وقلما يرجع اليه

* *

في أوقات قليلة كان يجري الحديث بين سعد ويني في الشعر والادب والفنون: احادثه في ذلك اذا قصدت خدمة لأهل الفن استعين به على قضائها ، أو احادثه اذا فاتحنى في بعض ارأى عن الأدباء المعاصرين أو الأقدمين أو عن مقالاتي الأدبية التي كنت انشرها يوماً من كل أسبوع ولا أكتب يوماً في السياسة . وكنت اشعر اذا انقضى الحديث ولم اتجه بالقول اليه انه كان يراقبنى طويلا ولا يلبث ان يقول بين الجد والفكاهة : « يا فلان ، ما أحسبك إلا تعجب منا ومن خصوماتنا وانت فوق سحابك بين الشعر والخيال ! » قلت له يوماً على اثر كلمة من هذه الكلمات : الحق اتنى لا اعجب من هذا

ياباشا لأنه ليس بعجيب أن تكون للسياسة خصومات ، وأن يكون لهذه
الخصومات أهلها والقادرون عليها . ولكن الحق أيضا اني لا أنصر رأيا على
رأى رعاية للبرامج الحزبية أو المناوشات الموقوتة ، فانها كما تقول يادولة الباشا
لا تستغرق انسانا مشتغلا بالأدب والخيال . انما انصر الرأى على الرأى رعاية
للقيم الانسانية العليا التي هي عندى أرفع من القيم الحزبية ، بل أرفع حتى من
القيم الوطنية

ولا أدري هل أعجبه ذلك أو لم يعجبه ، ولكنى اعلم ان الخصومات
السياسية فى عهد سعد لم تكن تعينى الا لأنها كانت تمثل لى جانبين فى أحدهما
القوة المستقيمة والدعوى الصحيحة وفى الجانب الآخر الحيلة الملتوية
والدعوى الزائفة أو التقليدية على احسن ما توصف به من صفات

ها هنا رجل قادر لم يكسب قدرته من المناصب والتقاليد وانما كسبها
من خلقته وتكوينه وميراث آباءه واجداده ، وها هنا رجال يناضلونه بمن
لا يعز وجودهم فى كل زمان ومن يقضون الحياة فى الزلنى الى السادة الغالبين
ينالون منهم المظاهر والمراسم او ينالون المظاهر والمراسم لأنهم منسوبون
الى هذه الأسرة أو تلك بين طبقات الموظفين . ثم يخيل اليهم انهم عملوا كل
ما عليهم لا كتساب العظمة وتسخير التاريخ ، ويسائلون أنفسهم مخلصين أو غير
مخلصين : ما هى العظمة الانسانية بعدما بلغناه وادركناه ؟ ومن هؤلاء أبطال
الأمم وأصحاب القيادة فيها ونحن فى الذروة العليا من المراتب والألقاب ؟
يتبيخ الدم فى العروق حين يصطدم الانسان بدعوى هؤلاء الادعياء ، ويتبيخ
الدم فى العروق حين يصطدم باحتياهم ونجاحهم وما هو إلا نجاح فى تزييف
الحقائق الكبرى والقيم الخالدة وابرار للمساعي الانسانية فى صورة كلها
تمويه على تمويه

ومتى نظر الانسان الى سعد وخصومه هذه النظرة فانه لينصره لأنه إنسان
قبل ان ينصره لأنه من حزبه أو من وطنه ، فان القيم الانسانية هى الباقية
الهادية من وراء ضلال المطامع والاضغان وحروب الاحزاب والاطان .

سعد في بيته

[في ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطب سعد شريكة حياته السيدة الجليلة أم المصريين صفية زغلول/كريمة المرحوم مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء في ذلك الحين، وفي شهر فبراير من السنة التالية احتفل بزواجه، إذ كان يومئذ في السادسة والثلاثين]

والسادسة والثلاثون ليست بالسن المبكرة للزواج بين المصريين . فقد جرت العادة — ولا سيما في تلك الأيام — أن يفكر الآباء في تزويج أبنائهم وهم دون العشرين أو في العشرين على أقصى تقدير ، ولكن سعداً لم يكن ينظر الى الحياة نظرة الفتيان الذين يعيشون معيشتهم الدارجة من الدراسة الى الزواج الى التجارة أو الوظيفة على نظام رتيب لا يطرأ عليه تبديل ولا تغيير . بل كان قتي يتطلع الى المجد والمستقبل من بداية حياته ، وكان رجلا له رأى في المرأة وفيما ينبغي أن تكون عليه شريكة الحياة يخالف رأى السواد الغالب في تلك الأوقات وفي جميع الأوقات ، وحسبه من ذلك أنه هو الذى أعان قاسم أمين زميله وصديقه الحميم على إظهار كتابه في « تحرير المرأة » وتشجيعه على احتمال مالمقى في سبيله من سنخ وعناء ، وكان فضلا عن ذلك يتما يتصرف في أمر زواجه كما يشاء هو لا كما يشاء الآباء والأهلون . ولو عاش أبوه حتى بلغ سن الزواج في القرى لجاز أن يختلف تاريخ حياته من هذه الناحية بعض الاختلاف ، ولكنه ترك لنفسه في هذا الأمر فأصبح في حل من اختيار الزمن واختيار القرينة كما يريد ، وأصبح في حل من الانتظار الى أن يدرك الشأو الذى يتيح له أن يتطلع الى قرينة توافقه في العقل والخلق وتجاربه في مضمار الحياة ، وقد كان فوق ذلك تلميذاً للسيد جمال الدين الذى عاش عيشة المتبتلين واستطاب حياة الانفراد والجهاد

فلم يكن غريباً عنده أن يبقى الرجل الى الثلاثين أو ما بعد الثلاثين بغير زواج
وكانت السيدة قرينته في الثامنة عشرة حين بنى بها ، أى في السن
المألوفة لزواج البنات بين الأسر التركية والبيوت المهذبة الى الآن .
وكان هذا الزواج من أسعد توفيقاته في جميع أدوار حياته ، لأنه وفق فيه
الى قرينة هي نعم القرينة للرجل العظيم : كانت في سن بنته فتعلمت ماتعلمه
البنات من الآباء ، واطاعته طاعة الصغير للكبير الموقر المحبوب ، ولكنها
عاشت معه حتى رثمته وتكفلت به تكفل الامهات بالبنين الذين هم في
حاجة الى العطف والعناية والتدبير . ولم يرزقا الابناء في قرانهما الطويل
فاستحالت عاطفة الالفة الزوجية الى عاطفة الأمومة الحنون ، وامتزجتا
أحسن امتزاج

وكان من دلائل نبوغ سعد وامتيازه على الجيل الذي هو فيه انه أصهر
الى بيت مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء . فقد كانت الأسر التركية جميعا -
فضلا عن الأسر الرفيعة من تلك الطبقة - ترفع عن مصاهرة الفلاحين وسعد
فلاح . وكانت ترفع عنه مصاهرة المحامين وسعد كان محاميا في العهد الذي لم
تسم فيه صناعة المحاماة الى ذلك المقام . فصاهرته لمصطفى فهمى باشا تدل على
سعة في تفكير ذلك الوزير الكبير وطيبة في سريرته وسجاياه ، كما تدل على
مكانة لسعد لم تكن لنظرائه في ذلك الجيل

وقد وقع ذلك الزواج موقع الاستغراب عند كثيرين فزعموا أنه لم يكن
ليوفق هذا التوفيق لولا وساطة الأميرة نازلى فاضل صديقة سعد وصاحبة
المنزلة الرفيعة عن الساسة المثقفين . لكن الحقيقة التي سمعناها من الثقة ان
الأميرة لم تكن ترتاح الى هذا الزواج ولم تساعد على اتمامه ، بل لعلها ساعدت
على نقضه وارجائه ، وانما كان قاسم أمين صديق سعد هو هاديه الى هذا
التوفيق ، لما كان يعلم من شرط سعد في الزوجة الصالحة كلما تحدثنا في شأن
المرأة والزواج ، وكثيرا ما كانا يتحدثان في هذا الموضوع

وقد سئل سعد مرة — كما سمعت — في حقيقة ما يروى عن وساطة الأميرة نازلي في زواجه بالسيدة صفية . فابتسم وقال : لا . لم تكن الأميرة رحمها الله هي صاحبة هذا الفضل ولكنه كان قاسم أمين . . . ثم قال بعد صمت يسير : تلك أكبر مآثرة أذكرها لقاسم مدى الحياة

ولم يرق زواج سعد بصفية كثيرين من «عذال» الزواج الملازمين لكل بيئة شرقية إلى هذه الأيام . فلا يكاد يشرع في زواج حتى تكثر الأقاويل من هنا وهناك عن الزوج والزوجة وعن الاصحار والآباء . فأشاعوا فيما أشاعوا أن سعداً تزوج في شبابه من إحدى بنات بلده وأن له منها ذرية في قيد الحياة ، وساعد على رواج هذه الاشاعة كبر سنه عن السن المألوفة لزواج الموسرين من أبناء الفلاحين . ولكنها أشاعة سمعت ما ينفى نفيًا قاطعاً ولم أسمع ما يؤيدها من أحد يعول له على كلام . وسألت العالم الفاضل المرحوم الشيخ محمد زيك بك الايباني فيها فاستبعدها جداً وقال : « إني أعتقد أنها غير صحيحة . ويؤكد اعتقادي أن ايبانة قائمة على أسر ثلاث هي أسرة الزغاللة وأسرة زيد وأسرة حسام الدين ، فلو تزوج من بلدته لتزوج من إحدى هذه الأسر ولاشهر ذلك . وبعيد جداً أن يتزوج من فتاة من المجهولات الأنساب لأنه كان عاراً شديداً بين أبناء الريف . وقد كان سعد مشغولاً بتحصيل دروسه حتى في أجازات الصيف . فغير بعيد أن يتحصن طويلاً أيام الشباب »

وتظل هذه الاشاعة تتردد حتى بعد الزواج ، ويتفق أن يشتغل سعد بالتحضير لشهادة الحقوق ودراسة اللغة الفرنسية عقيب زواجه بوقت قصير وأن يعكف على الدراسة في حجرة لا يدخلها أحد الى السحر أو مطلع الفجر في بعض الأحيان ، ويزور السيدة صفية صديقاتها وصويجباتها أثناء تلك الليالي فلا يرين سعداً حيث ينبغي أن يرينه في تلك الأيام ، ويشاء الفضول أن تسألها بعضهن : أصحيح أن قرينك له بيت آخر وقرينة أخرى كما يقال ؟

والسيدة صافية إن لم تكن متهمكة بطبعها فقد تعلمت التهمك من ذلك الرجل الذي كان يتسلح بالفكاهة كما كان يتسلح بالجد في تزييف الاشاعات والاقاويل ... فتقول السيدة : نعم . له زوجة أخرى ولكنها في هذا البيت . انظرن ! سأريكن إياها وأسمعكن سرار سعد معها في هذه اللحظة . فيعجبن ويزداد بهن الاستطلاع والفضول والاستغراب من رضى السيدة بهذه المشاركة ، وينهضن معها الى حيث يكون سعد منكباً على الأوراق يقرأها بصوت جهير على عادة الأزهرين ، والى جانبه سرير أعده للنوم إذا تأخر به الدرس الى هزيع الليل الأخير ، مخافة أن يزعب السيدة بعد هذا السهر الطويل

— أسمعتن ؟

— نعم . ولكن أين الزوجة

— الزوجة هي هذه الأوراق ، وهي هي الضرة التي سمعتن بها ...

فيما يقال .

] وجد سعد بعد زواجه البيت الذى يحتاج اليه أمثاله ويأوى اليه قلبه وعقله والعهد برجال العمل والكفاح جميعاً أن ينشدوا الدعة والسكينة فى البيوت لافرق فى ذلك بين ميدان الحرب وميدان العمل والطموح ، فالجنود وأبناء الأمم المتجندة عامة مشهورون بتوقيع زوجاتهم ، والاطمئنان إلى تديرهن للمنازل ، واستقلالهن بكل ما فيها من شؤون .

اشتهر بذلك رجال الترك والفرس الاقدمين واليابان ، واشتهرت به عصور

الفروسية فى جميع الشعوب

وسعد فى بيته كان هو المناضل المكافح فى ساعة السلام . لا يسمع له صوت ولا يعرض لشأن من شؤون المنزل . حتى استغربت أمره خائطة من الخائطات اللواتى يزرن بيت الأمة . وبنات هذه الطبقة يعجبن دائماً من الرجل بارترفاع صوته فى الدار ، وعندهن أن صوت الرجل الجهير المسموع

الذى يرى بالزجر والنهر والدعاء والنداء هو نحر الزواج وهيبة البيوت ،
فقلت يوماً للسيدة الجليلة أم المصريين : أين هو الباشا ياسيدتى ؟ ألا يسمع
له صوت ؟ ألا يحس له وجود ؟ فقلت لها : بلى يسمع صوته فى كل مكان
إلا هذا المكان

وبلغ من ذلك أن الخدم كانوا لا يرهبونه ولا يتقونه ، وكانت أم المصريين
تشكوهم إليه وتدعوه إلى تخويفهم وزجرهم ، فكان يقول لها : هذا شانك ،
فاصنعى بهم ما بدالك ، وعاقبيهم بما تشائين إلا قطع العيش . فدون ذلك
ويكنى العقاب والتأنيب .

وجرت معاملته الخدم على ذلك فلم يطرد من بيته أحداً دخل خدمته
إلا لسرقة أو وقاحة لا تطاق . أما من برىء من السرقة والوقاحة فهو فى
أمان ولا يزال فى أمان مدى الحياة . يتولاهم ببره ويوصى ببرهم بعد مماته ،
وفى إحدى وصاياه يقول لأم المصريين : « إذا حم القضاء وأدركتنى الوفاة
أرجو أن تصرفوا من تركتى مبلغ خمسمائة جنيه للحاج أحمد تابعى وخمسمائة
إلى محمد أحمد ومائة إلى على الفراش إذا كانوا فى خدمتنا عند حلول الأجل »
وأوصى للآنسة « فريدا » الوصيصة الألمانية بمبلغ خمسمائة جنيه ، كما أوصى
لآخرين بمبالغ تقل أو تزيد على حسب طول الخدمة وحسن السلوك

وعرف الخدم منه هذا العطف وهذه السماحة فكانوا يحترثون عليه ولا
يتهيئون الصراحة فى التحدث إليه : حدث مرة حين كان فى قصر كارنارفون
بانجلترا أن نظر تابعه الحاج أحمد إلى تلك الدنيا العريضة والمجد الأثيل فوق
فى روع التابع الساذج أن الانجليز يساومون سعداً بكل هذا ليركن إليهم فى
قضية البلاد . فصاح به وهو مشدوه : « يا باشا « اوع » للبلد يا باشا
هذا شىء مهول !! »

قال سعد وهو يروى لنا هذه القصة . فضحكت وطمانت الحاج أحمد ،

وقلت في نفسي : إن قضية يخشى عليها هذه الخشية أمثال هذا الرجل الساذج
لهي في حرز حريز »

وربما تبسط في ملاحظة الخدم في اخرج الاوقات ليدفع وحشتهم
ويسرى عنهم همومهم وأوجالهم ويداعب حبلهم كما يداعب الأب جهل
الأطفال الصغار ، ومن نوادره في ذلك انه كان معهم عند نفيهم الى جزيرة مالطة
خادم لخدم الباسل باشا اسمه حسن ، فلما وصلوا الى بورسعيد وايقن الخادم بالسفر
البعيد اضطرب اشفاقا على ابنائه وتوجسا من هذه الغيبة المجهولة التي لا يعرف
مداها ولا يدري متى تقسم له الأوبة منها . فقال سعد لخدم : ضاعف له ولهم
أجرهم ليطمئن على رزقه ورزقهم ، ولما وصلوا الى مالطة والرجل لا يزال
في جزع واضطراب قال سعد : أما المرتب فقد زيد وبلغ حد الرضى ! فلم يبق
إلا القاب التكريم والتشريف ، ونحن هنا صالحون لتأليف مجلس وزراء
فهلوا نجتمع وننظر في أمر صاحبنا حسن بما يرضيه ! واجتمع المجلس
- مجلس الوزراء المعتقل - وقرر منح الخادم حسن رتبة البكوية السنية ! ،
وتعاهدوا من تلك اللحظة ان لا ينادوه إلا يا حسن بك ولا يذكره إلا
باسم حسن بك . وسر الرجل بالمنحة واعتقد انها منحة رسمية ، وظل معتزا
باللقب غيورا عليه ، إلى أن مات

وبهذه الملاحظة كسب قلوب الخدم واطمئنناهم إلى حبله وقلة خشيتهم
منه واتقاهم لجزره وعقابه . وهكذا كان من عجائب الطبائع الانسانية ان
الرجل الذي كان يملاً صوته الدنيا لم يكن يسمع له صوت في بيته ، وان
الرجل الذي كان يهابه الكبراء والأمراء لم يكن يهابه الخدم والاتباع

[ومضت السنوات ولم يرزق سعد نعمة الذرية] فكأنما كان هذا الحرمان
يزيد عطف الزوجين كل منهما إلى الآخر ولا ينقص منه ولا يكدره بأسف
ظاهر ولا شجن دخيل ، فليس بين الأزواج الممتعين بالأبناء والأحفاد

من كان يحب زوجه أكثر من حب سعد لصفية أو من كانت تحب زوجها أكثر من حب صفية لسعد ، ولحده عليها وحرصه على سلامتها آثر السفر إلى أوروبا في الصيف الذي مات فيه محمد عبده رحمه الله . مع ولاته الشديد لذلك الصديق العظيم والأستاذ الكريم ، ووفائه المعروف لخاصة الصحب والاخوان ، لأن السيدة صفية كانت ذلك العام على حالة من المرض لا يؤمن فيها الإهمال ولا غنى فيها عن العناية والعلاج

ولم يسمع عن سعد أنه كان يذكر الحرمان من البنين أمام أهله أو شريكه حياته . وإذا ذكره لها فأنما يذكره في معرض التهوين والمواساة ، فكان يقول لها : لقد فاتنا النسل فاصبحت هذه الأمة كلها من أبنائك وأبنائى . ونعم العوض الذى عوضنا الله

ولدقة الحس فى نفسه من هذه الناحية كان يؤثر أن لا يمسها بكلام أو إشارة على مسمع من الأزواج المحرومين : رأى يوما إحدى قريباته تشتري تذكرة بريد عليها صورة طفل جميل . فقال لها : ما عساك أن تصنعى بها ؟ قالت أرسلها إلى فلانة وأتمنى لها أن يرزقها الله طفلا مثله فى صباحته وجماله . قال : وهل هناك ما يدعو الآن إلى ذلك الأمل ؟ إن كان فابعثى بها ، والا فخير أن لا تثيرى فى قلبها هذه الذكرى ، فلعلها لا تظفر بالولد فتقلب إلى حسرة وشقاء

[وإذا كان سعد لم ينعم بعطف الأبوة فقد كان عطفه على أهله وأقربائه مضرب الأمثال بين عارفهم وعارفيه . بل لقد كان هذا العطف يبلغ به أحيانا مبلغ الضعف والتسليم] فكان لأخيه أحمد فتحى سلطان عليه عظيم ، وكان لابن أخته فتح الله باشا دالة عليه لا يتعذر معها رجاء . ولما مات أخوه أحمد فتحى ووقف لشكر المحتفلين بتأيينه أحقم أمام الجمع وهو الخطيب المنطوق ، ولبث هنيهة لا ينطق ولا يتحرك . ثم احتبس صوته وانفجرت عيناه بالدموع ولم يقو على الكلام

ولاحظ عليه بعض الصحف انه يعين أقربائه فى المناصب الكبيرة ،

وتحدث اليه بعض الصحفيين فقال : « إنهم يدهشون لأنى عينت فى بعض المصالح رجالا كان الانجليز قد اتخذوا ضدكم اجراءات يقولون إنها جنائية وقد كان الواجب ألا يروا فى عملي هذا غير انه أمر طبيعى ما دام على رأس الحكومة رجل كان الانجليز قد نفوه »

قال الصحفي فقلت : ويلومونك أيضاً على انك عينت بعض أقاربك فى وظائف عالية فقال : أو كد لك ان لى أقارب كثيرين . كثيرين جدا فى الغربية ، وفى مناطق عديدة من أقاليم القطر ، وأنا آسف جداً للأسف لأنهم ليسوا على معرفة ولا كفاءة ، والا لكنت عينتهم فى كل مكان ، لتكون لنا بهم إدارة زغلولية حقيقة اسماً ومعنى ودما . ثم ضحك الرئيس وواصل كلامه فقال :

« لما نفونى نفوا معى اثنين من اقرب اقربائى الى فهل نفيا لأنهما من دمي ؟ أو لأنهما كان يمثلان قوة حقيقية فى خدمة القضية الوطنية ؟ سواء اكان هذا أم ذاك فواجبى مرسوم يقضى بأن أضع هذين الرجلين الى جنبى ليقاسماني مسئوليتى مادام قد قضى عليهما بان يكون حظهما من حظى . . . قل عنى اننى عند تساوى المعرفة والكفاءة أفضل قريبي على غيره لانى بطبيعة الحال اثق بقريبي ثقة تامة فى تنفيذ سياستى وجعل الحكم سائرا على وجهة نظرى ، اليست على جميع مسئولية الحكومة والادارة ؟ فهل تكون مسئولية على الرئيس اذا لم تترك له حرية تامة فى اختيار معاونيه ؟ وهل ألام على سوء الادارة اذا كنت مضطرا للاحتفاظ بجميع رؤساء المصالح الذين عينهم غيرى ؟ لقد قلت لك ان انتقادات خصومى لم تؤثر فى ، وسأواصل المهمة التى بدأت بها »

قال الصحفي : قلت ويزكرون ايضا ان هناك سعديين مستائين

فقال : قرأت هذا فى جريدتك ولكن لم أصدقه !!

ودع أن سعداً لم يعد فى كلامه الانصاف ، ودع أن الكفاءة التى شهد بها لأقربائه قد شهدت بها وزارات غير الوزارات السعدية ، ودع انه كان يستحق

اللوم — لا الثناء — لو تخطى الأكفاء من رجاله لأنهم أقرباء ، ودغ ما في كلامه ذلك من التحدى والاعاظة التي كان يتعمدها في أمثال هذه الأحاديث دع هذا كله ويبقى أن عطف سعد على أقربائه أمر مأثور مشهور ، وأنه كان لا ينسأهم حين ينبغي أن يذكرهم بالخير والمبرة . نعم وكان يذكرهم بما له كما يذكرهم بجأهه وسلطانه ، وقد ترك قليل ما بقي من ثروته لينفق منه بعد موته على الأقرباء الفقراء ، وكتب إلى الأستاذ محمد زيد بك رحمه الله عن الضياع التي كان يملكها سعد فقال ما يأتي بنصه :

« سلاما وتعظيما واحتراما . وبعد فقد قلت لسيادتكم ان المغفور له سعد زغول كان قد اشترى عزبتين بجوار دمنهور ثم باعهما . وازيد على هذا انه كان قد اشترى أيضا أرض المرحوم سيد احمد القاضي عمدة مطوبس بالأشتراك مع المرحوم سيد احمد بك زغول ، ومساحة هذه الأرض أربعمائة فدان تقريبا ويصعب بالمزاد العلني لوفاء دين عليه (أى على العمدة) ولم يزل المرحوم سيد احمد بك زغول يباشر ادارتها حتى توفي فانتقل نصيبه الى نجله سيد احمد بك زغول الصغير وهي مملوكة له للآن . وقد باع المغفور له سعد باشا زغول نصيبه إلى المغفور له عبد الله بك زغول رغبة منه في ترقية أفراد الأسرة ماديا وأديبا ، وأشيع في وقتها انه نزل له عن نصيبه كما نزل له عن الأطيان التي ورثها من والده في ابيانه »

والذي سمعته من مصدر آخر أنه أعطى من ملكه ستين فدانا لابن أخيه عبد الله بك زغول لانه تونس في النجاة كما قال ، ثم أعطاه الاربعمائة الفدان التي ذكرها الأستاذ زيد بك ، وأنه أوصى بالثلث من جميع الأموال التي يتركها سواء كانت ثابتة أو منقولة الى كل من سعيد ورتيبة ولدى شقيقته . لكل منهما النصف أى نصف الثلث المذكور ، وذلك قبل ان يدرك الموت سعيداً في عنقوان صباح

فالرجل كان يتخذ من ذوى قرابته ابناء شملهم بأجمل ما تشملهم به الابوة

من معونة واشفاق ، وكان عطفه في حياته الخاصة مقسوما بين آله وشريكه
حياته ، وقد أخلف أناس من أقاربه ظنونه بما جزوه من عقوق وكنود ،
فاما في بيته فقد جوزى على عطفه الكريم أوفى الجزاء

نعم . نعتقد نحن كما يعتقد جميع العارفين بمناقب السيدة الجليلة أم المصريين أنه
قد استفاد من عشرتها في حياته العامة كما استفاد من عشرتها في حياته الخاصة
فهي قد مهدت له الدعة والهناء في البيت ، وهي قد مهدت له النصر والرجاء
في معترك النضال . وكان قلبها الكبير يعرف الحنو على مجد سعد كما يعرف
الحنو على شخص سعد ، فلم تكن تستسلم للجزع حين لا بد من الجلد والاقدام
ولم تكن تضعف اشفاقا على سلامة قرينها حين ينبغي ان تقوى اشفاقا على
مجده الباقي على السنين

يوم جاءها سعد يقول لها في فجر الثورة : يا صافية ؟ اني وضعت رأسي
على يدي هذه . وبسط لها يمينه - كان جوابها : وضع رأسي هذه على يسراك
ويوم جاءها الرسل ينقلون لها ما يعاينه سعد في منفاه بسيشل وبيالغون
في سوء ما يعاينه ويسألونها أن تستعطفه على نفسه وعليها وترجوه أن
يعتزل السياسة ليضمن العودة الى بلاده وبيته - كان جوابها : ان كانت حياة
النهضة في بقاء سعد بمنفاه فبقاؤه في ذلك المنفى هو الذي آتمناه .

ويوم تحدثت إلى دار الحماية بعد نفيه إلى سيشل كانت تحادثهم باللغة
العربية وتأبى أن تتكلم بغيرها وهي تحسن الفرنسية والانجليزية ، وكانت
تطلب اللحاق به إلى الجزائر السحيقة وهم لا يجيبون . ثم بدا لها انها
استطاعت أن تخلف سعداً في إذكاء روح الأمة وشحن عزائمها فابت إلا البقاء
بعد أن عادوا يابون عليها البقاء ويسمحون لها بالذهاب إلى حيث تشاء ، وكانت
يومئذ أكبر عطفاً على قرينها وأيقظ عيناً على مجده وخلوده مما كانت يوم
استطارها الأشفاق إلى موافاته ، وأنساها ما يكون عليه بيت الأمة وتكون
عليه الديار المصرية كلها بعد غيابها وغيابه

ومواقفها من هذا القبيل لا تحصى في هذا المقام . لكن موقفين اثنين منها
فيهما الكفاية للدلالة على المعين الغزير الذي كان يأوى اليه سعد من نبل نفسه
ورجاحة لبها وسرعة تصرفها في مقابلة كل حالة بما يناسبها ويستدعيها ، فهي
التي أنكرت أن يحمل سعد في نعش تناط به الأوسمة والأنواط وعلامات
المناصب الرفيعة ، وأبت إلا أن يدفن وهو «سعد زغلول» وحسب كما سيعيش
في ذكريات التاريخ وهو «سعد زغلول»

ذلك موقف جليل من زوجة في ساعة الفراق الأخير

وموقف آخر يشف عما عندها من روح الفكاهة في رد الاساءة بما
تستدعيه من سخر وتقرير . ذلك يوم أن تسور بعض المحققين دارها ولم
ينتظروا حتى يفتح لهم الباب بل هبطوا الدار على سلم جاءوا بها لهذه المفاجأة ...
فقد أصرت بعد ذلك أن لا تفتح لهم الباب ليخرجوا ووقفت في حديقة
الدار تنظر اليهم وهم يصعدون على السلم متعثرين ، وتقول لهم : من جاء من
الحيطان فليذهب من الحيطان . أما الباب فأنما يفتح لمن يأتون البيوت
من الأبواب

هذه اللباقة وتلك النبالة كانت ولا شك مصدر عون كبير في الحياة
العامة والحياة الخاصة للزعيم العظيم

وان من دلائل العظمة في سعد — ولا شك — ان استحق الحب في
حياته وبعد مماته من هذه النفس الكريمة وهذه الفطنة الألمعية وهذا القلب
الكبير ، بل استحق الطاعة فيما لا طاعة فيه بين النساء العصريات حتى للزوج
المحبوب والآب الموقر ، وهو مخالفة الزى الشائع والعرف المصطلح عليه ،
فان للزى سلطانا فوق كل سلطان وللزينة حكما يصعب نقضه بغير مضاضة
واستكراه ، لأن نقضه لا يفيد ترك الزينة وحسب فهذا خطب يسير وخسار
لا يضير . ولكنه يفيد أحيانا معنى التعرض للزوجة في خصائص أمرها والمشاركة

لها في منظرها وملاح وجها ، وهو شيء إذا فهمته الزوجة على هذا المعنى
فسرعان ما تنكره وتتمرد عليه ، ومع هذا كانت السيدة صفيية تعلم أن
سعداً لا يرضى عن المساحيق التي كانت ولا تزال شائعة بين السيدات
فأخذت نفسها باجتنب هذه المساحيق طوال الحياة ، ولم تبال أن تظهر بغيرها
بين صديقات وقريبات كلهن يجارين العرف ويلتزم شعائر الأزياء

وكانت تنسى في معيشتها الزوجية كل تفرقة في الحقوق والمعاملات التي
كثيراً ما انفصل فيها الأزواج والآباء والأبناء ، فكأننا كأنهما شخص واحد
له مورد واحد وحساب واحد ، ولم انفصل حسابها من حسابها إلا بعد ما
تكررت حوادث النقي والمصادرة لأموال الوفد وأموال سعد ، وخيف من
ضياع حقوقها وهي وحدها في مصر تحتاج إلى مال معروف لها ليس ينازعها
فيه منازع أو يلتبس حسابها بحساب غيره ، ولو لذلك لنسيت مدى العمر أن
لها وجوداً مستقلاً في المال كما نسيت أن لها وجوداً مستقلاً في العطف والعناية
ولعله مما يستحق الإثبات في تاريخ سعد ، لانه قلما يخطر على البال ، ان
خزائمه لم تكن تحتوى يوم نفيه الأول أكثر من خمسين جنيهاً ويوم نفيه الثاني
أكثر من جنية واحد ! لان سعداً لم يكن حريصاً على المال وليس الاشتغال
به من شهوات نفسه وهموم فكره ، وقد أسلفنا أنه لم يقبل في قضية من
قضاياه أيام المحاماة أكثر من خمسمائة جنية على كثرة المتنافسين على توكيله
واستعداد معظمهم لارضائه ، وان غالى في الطلب والاشترط

ومما يذكر عن زهده في المال أنه لم يقاض في طلب حقوقه أحداً في
مستأجرى أرضه أو أرض حرمه والفقراء منهم بصفة خاصة . فاذا أبطأ
أحدهم في سداد ما عليه وعلم أنه معذور أمهله زمناً وربما نزل له عن بعض حقه ،
وقد يتجاوز عن ثلث الاجرة أو نصفها إذا كانت السنة من سنوات العسر
والكساد ، وكان تصرفه هذا مع المستأجرين مثلاً اقتدى به أصحاب الحقوق
راضين أو كارهين في سنة ١٩٢٦

ولم يتردد في بيع ضيعة كانت باقية له باقليم البحيرة في بداية الحركة الوطنية ، لأنه اراد ان ينفق على نفسه وعلى الاعمال التي يعملها باسمه في أيام جهاده ، ولا يكلف خزانة الوفد درهما مما جمعه الوفد باسم القضية الوطنية وكذلك اتفق مزاج الزوجين في قلة الاشتغال بالمال الا بالقدر الضروري المعقول

وكانت السيدة صفية — وهي ربيبة البيت العامر بالخدم والاتباع — تأتي ان تكل شأننا من شئون سعد في بيته الى خادم أو خادمة ولو كان من اتفه الشئون ، فكانت لا تأنف من الاشراف على تنظيم الاثاث وطهو الطعام ولا سيما بعد أن أصيب بالاسقام التي تستدعي العناية الخاصة باعداد طعامه ، وجعلت همها الا كبر أن يجد البيت — في كل حين وفي كل حالة على النظام الذي يحبه والتدبير الذي يستريح إليه ، فلم يسأل هو قط عن عمل من أعمال المنزل ولم تغفل هي قط عن عمل من هذه الاعمال ، وبذلك كان الزواج لسعد « سكننا » بالمعنى الرحيب الذي اراده القرآن الكريم ، وسهل على سعد ان يتعب في ميدان الكفاح لأنه قد سهل عليه ان يستريح في البيت

ومن المشهور عنه انه كان لا يغير نظام معيشته في بيته أقل تغيير على تعاقب السنين الا لطارىء غير منظور ، ففي نحو الساعة السادسة الى السادسة والنصف يستيقظ فيتناول القهوة ثم يستحم ويتناول طعام الافطار . ويأخذ بعد ذلك في حلاقة ذقنه يبيده وهو يستمع الى ما يقرأ له من الصحف والرسائل ، ثم يهبط الى مكتبه قريبا من الساعة العاشرة فيلبث به قليلا ان كان على نية الرياضة أو يبقى فيه الى الساعة الواحدة ان كان على موعد من عمل أو مقابلة زائرين ، وفي اكثر الاحيان يركب سيارته مع صاحب من أصحابه أو مساعد من مساعديه الى الجيزة أو الزمالك أو حدائق القبة أو القناطر الخيرية للرياضة والترويح عن الخاطر ، وقد يتمشى هنالك نحو نصف

ساعة اذا صفا الجو واعتدل الهواء . ثم يعود الى البيت ليتناول الغداء فيما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية ، ولا يأكل على انفراد بل يرسل احيانا في طلب اناس من اصحابه ومعارفه ان لم يجد في بيت الأمة من يجالسه على المائدة ، وحديثه على الطعام من امتع ما يكون الحديث : بين ذكريات الماضي وحوادث الحاضر والتعليق على الأحوال والاشخاص ، فاذا فرغ من غدائه لبث على المائدة نحو نصف ساعة يشرب القهوة ويستطرد في الحديث ، وينام ساعة أو ساعة ونصفاً ثم يقرأ صحف المساء ورسائله ويهبط الى مكتبه حوالى الساعة الخامسة ، فيخرج للرياضة أو يبقى للعمل واستقبال الزائرين الى ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، اذ يتناول العشاء مع من يدعوه من الحاضرين ، ويقضى ساعة في العشاء والحديث . ثم يستريح لحظة ويأخذ في القراءة الى الساعة الواحدة وهى موعد نومه في اكثر الأوقات .
ويكفيه في النوم من اربع الى خمس ساعات

هذا في غير أيام الوظيفة ، أما أيام العمل في الوزارة أو القضاء فكان يلاحظ مواعيد الديوان قبل كل شيء ، ثم ينظم أوقاته في غير تلك المواعيد على نحو ماتقدم ، وقد يأخذ نفسه بمواعيد العمل حتى حين يتطوع به في غير دواوين الحكومة . فلما كان يتولى رقابة الجامعة قبل ان تلحق بالحكومة كان يثابر على الحضور والانصراف كل يوم في موعد محدود ، ويندر ان يغيره لقلّة العمل في موسم الاجازات

ولم تكن له صنوف خاصة من الطعام يجهتها ويستكثر منها . لكنه كان كسائر المصريين يحب الملوخية الخضراء في أوانها ، وكان كسائر ابناء الاقليم الرشيدى يحب الارز ويميل الى الافتنان في طبخه ، ومن خلائقه التي تدل على ملكات نفسه اكثر من دلالتها على ذوق الطعام انه لم يقطع الارز والحلوى قط عن مائدته بعد أصابته بداء السكر ، وكان يلذ له ان يراها تؤكل وان لم يكن من الآكلين ، وتلك خصلة سعدية فيها مثال من قوة الارادة

المطبوعة بلا كلفة ، وفيها تفسير لمعنى الانانية أو الشخصية فيه . . . لا ينسى ما يشتهي ولكن يكفيه من اشتهاه ان يستمتع به الآخرون باذنه وعلى يديه وكان يحب العنب والبرتقال ، ولعله كان يحب كروم العنب ومروج البرتقال أكثر من حبه الفاكهة لمذاقها وغذائها . فاذا رأى تلك الكروم والمروج قال فى لهجة الشاعر المغتبط بمنظر الوفر والجزالة : هذه بلاد غنية أو هذه تربة خصيبة ، وسره أن يلح الخصوبة ممثلة فى دوالى العنب وأشجار البرتقال

ومن عنايته بضيوفه انه كان يأكل من الأصناف التى تطبخ لهم وان لم تكن به رغبة فيها . أذكر انه لحظ يوماً أن ضيفاً من ضيوفه القبط فى مسجد وصيف كان يحجم عن معظم الأصناف فسأله : ما بالك لا تأكل معنا يا فلان ؟ قال انه الصيام يا باشا . . . قال وماذا تشهى أن تأكل فى الصيام ؟ قال الفول « البيسارة » وما اليها . . . فأمر الطاهى أن يصنع له ما يطلبه من هذه الأصناف كل يوم . وجىء بالبيسارة فى اليوم التالى فتناول منها وأمر الخادم أن يطوف بها علينا ، لئلا يشعر ضيفه بعزلة الانفراد

ولم أره قط يدخن أو يشرب خمرًا . الا انه كان يتعاطى كأساً من الكونياك اذا اجهدته الخطابة أو أحس ضعفاً فى نبضه ، واذا لعب الورق جعل للعبه حداً يقف عنده ولا يتجاوزه باغراء كائنا ما كان ، وقد كان يدخن فى صباه ويستكثر من التدخين ، ثم نهى عنه بعد اصابته بالربو وهو فى القضاء . فامتنع عنه بته ولم يعد اليه ، وظل على ذلك نحو عشرين سنة لا يقرب التبغ ولا يطيقه حتى ادركته الوفاة .

والآن وقد مضت تسع سنوات على وفاة سعد يزور الزائر بيته أو بيت الامة فيرى كل ما فيه على العهد به أيام حياته : كل صورة فى مكانها وكل كرسي فى مكانه ، وصاحبة الدار قد جعلت من الوفاء لذكراه أمانة كأمانة الشعائر

الدينية ، تزور ضريحه كل صباح ولا تغير من البيت شيئاً تعوده ووقعت عليه عيناه ، ولا تلقى أحداً لم تلقه اذ هو في عالم الأحياء ، وكأنها لا تزال تعيش باذنه بعد الممات كما كانت تعيش باذنه أيام الحياة .

واضطرتني دواعي البحث عن تاريخ الزعيم العظيم الى سؤال السيدة الجليلة عن بعض ما تعلمه وتذكره من أحواله وعاداته ، فما استرسلت في الحديث هنيئة استرجع فيها بعض الذكريات التي أسأل عنها وأستقصي أنباءها وحقائقها حتى غلب عليها الشجن وعز عليها التملك وفاضت عبراتها كأنها تبكيه ساعة وفاته ، وهذا بعد ثمانى سنوات من يوم الوفاة .

[ان سعدا لعظيم لانه استحق هذا الحب العظيم ، وانه لمن العظماء الذين انتصروا في الحياة لانهم وجدوا من البيت حصناً منيعاً لا تقتحمه الطوارق وان جازت جدرانها وشغلت اركانها ، لانه حصن في عالم الروح قبل أن يكون حصناً في عالم الحجر والتراب ، وان أمثال هؤلاء العظماء لسعداء ، وانهم لظافرون .

شخصيته وأخلاقه

سعد زغلول قوة نفس وقوة بدن . من الزعماء الذين اثبتوا صدق القائلين ان متانة البنيان شرط لازم لمن ينهضون بقيادة الامم ويضطلعون باعباء السياسة ومصاعب الأمور . تعاورته الاسقام في شيخوخته ولكنها لم تسلبه ما ركب فيه من الجلد والصلابة ومكافحة الاسقام كما كان يكافح الخطوب ، وعلى الرغم من الربو وتصلب الشرايين وضغط الدم وداء السكر وداء الزلال بقي الشيخ المسكين قادرا على عمله ماضيا فيه نشيطا اليه في انبساط نفس وتجدد اقبال تراه فترى من النظرة الاولى انك على مقربة من رجل ممتاز في الصورة كما تميزه في الطبيعة ، وطلعته تذكرك على الفور طلعة الأسد في بأسه ونبهه وجلالة محياه ، وليس بين الوجوه الآدمية ما هو أشبه بالاسد في قسامته وهيبته من وجه سعد زغلول .

لهقامة مديدة ووجه أقرب الى البياض ورأس مستطيل في غير ضخامة ، وجبين يميل الى السعة وينحدر قليلا الى الأعلى ، وعينان ثابتان فيهما انحراف قليل نحو اللحاظ ، يطبقهما أحيانا عند الحماسة والغضب فلا تنفتحان إلا بمقدار ما ينطلق منهما الشعاع كأنه سهم نافذ أو إبحاء منوم جبار ، وله صدغان ناتئان وأذنان بسطاوان ، وأنف منفرج واسع المنخرين ، وفم أهرت الشدقين كما يصف العرب أفواه الخطباء المطبوعين ، وذقنه من تحت ذلك بارزة في غير حدة ولا استعراض كثير ، تتمم ملامح البروز في ذلك الوجه فيلوح للوهلة الأولى كأنه مفصل من زوايا حديد لا من اللحم والعظام . يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين وصدر فسيح أقعس واسع التجويف . . . وقد نفذ الرصاص عن قرب إلى ذلك الصدر وصاحبه مصاب بتلك الأدوات فاندمل الجرح بعد أيام وتألبت أسقام الشيخوخة وسكرات الموت ونبضه لم يزل موزونا سليما الى ما قبل الموت بساعات معدودات ،

فاذا كان في ذلك علامة على الطبع كما فيه علامة على البنية فلا شك أنها علامة على طبع من أقوى الطباع

أول ما تطلعك من رؤية سعد مهابة بالغة تملأ ما حوله من فضاء ، ويكون في المجلس من يكون فيه من كبار أو صغار ، ومن أقوياء أو ضعفاء ، ومن كثرة أو قلة ، فلا يخطر لك وأنت تغشاه ان في المجلس أحداً غير سعد زغلول يحس ذلك أعداؤه كما يحسه أصدقاؤه ويلقاه من يدخل للتحدى والمناوأة كما يلقيه من يدخل للتحية والولاء . وقد حضرنا يوماً وفي المجلس وزير كان من ألد خصوم سعد وأشدهم إمعاناً في الاساءة اليه وإلى أنصاره وتحريضاً لمرءوسيه على حربه واستباحة العنت له والتضييق عليه . وكان يقول للوظفين : افعلوا ما بدا لكم ولا تخافوا عاقبة ولا حساباً فانا الملهم لكم بكل ما تفعلون . فاذا به وهو بين يدي سعد كالتليذ الخائف بين يدي الاستاذ الخفيف ، وإذا به يخف الى طرف الكرسي ولا يتمكن في مجلسه كلما اتجه اليه سعد بسؤال أو كلام . فالتفت حافظ ابراهيم رحمه الله الينا وقال يا عجباً : اليس هذا هو الملهم ؟ فأين ذهب الالهام ؟

وتحدث عبد الحلیم عاصم باشا صاحب مصنع الطرايدش في قها عن مهابة سعد بين زملائه فقال وهو يظهر الغرابة : والله ما أدري بماذا يسحر الناس هذا الرجل ؟ لقد رأيت عدلي باشا معه في باريس ، ورأيت خادما يناوله رسالة من البريد . فابقاها في يده ولم يقرأها حتى قام . وليس في قراءة رسالة ما يتخرج منه حتى امثال عدلي باشا من أصحاب الكياسة المشهورة

وكان بعض خصومه في مجلس النواب يعتمدون على نائب منهم سليط اللسان جرى على المهاجمة في غير هذا المقام ، فكان اذا دخل المجلس مستعداً بالحجج والردود متحفزاً للتحدى والمناجزة لم يزد على ان يفوه ببعض كلمات متقطعات ثم يجلس وهو لا يدري ما يقول . فكان اصحابه يتلقونه اذا خرج ويسألونه مستثيرين ومحرزين : اين ما وعدت ؟ واين ما أعددت ؟ فلا يججم ان

يقول في صراحة صاحب العذر الظاهر الذي لا يضيره هذا الاعتراف : « كل استعداد لا يفيد مع هذه الشخصية الطاغية ! »

ومن الواضح ان صاحب هذه الشخصية لن يكون الا رجل صراع وجلاد قبل كل شيء . شجاعا في الحق كما وصفه اللورد كرومر ، أو عظيما يضرب ضربات قوية ويتلقى مثلها كما قالت صحيفة التيمس في تأبينه ، أو مقداما يرد العدوان بمثله كما قال الكولنل الجود El good في كتابه مصر والجيش ... وقد تم له ما ليس يتم لجميع المناضلين من عزة النفس وشدة المراس ومضاء العزيمة وجرأة العمل والصراحة في القول ، فهو لا يدس ولا يطبق الدسيسة ، ولا يرأى ولا يطبق الرياء

ومن هوى الصدق في نفسه ما يحقق بيت أبي الطيب اذ يقول :

ومن هوى الصدق في نفسى وعادته تركت لون مشيبي غير مخضوب

وانه من كراهته للرياء ليكرهه حتى في الطلاء ، ويؤذيه ان يرى سيدة تتجاوز الحد في طلائها وزينتها المصطنعة فلا ينسى ان يكشف هذا الضرب المؤلف من الرياء بضرب من الصراحة يناسبه ويلاقيه وان يكن غير مألوف ... يرى السيدة التي تفرط في تدميم وجهها فيلتفت الى غيرها من الحاضرات ويقول لها يا فلانة ! مالك قد أكثرت اليوم من الاصباغ ؟ فتفهم المقصودة أنها هي المعنية بهذا الكلام . وتقول : لا يا باشا ! أنا التي أكثرت من الاصباغ وليست فلانة ! فيقول متجاهلا : اصحيح ؟ لقد حسبتها هي ساحها الله !

ومن طرائفه في فضل الصراحة والاستقامة - حتى عند غير المستقيمين - نادرة قصها على في ساعة كان فيها مستريح الخاطر وادع الفؤاد ، على أثر اجتماع المؤتمر الوطنى سنة ١٩٢٦ وتقرير الانتخاب المباشر وانتصار سياسة الصراحة والاستقامة على سياسة اللف والمرونة . وذلك انى قابلته يومذاك مهنتاً فسألنى سؤاله المعتاد : ما أخبارك ؟ وما قولك اليوم ؟

قلت : كلها أخبار خير يادولة الرئيس . شيء لم يكن في الحسبان . قال
دولته مهتلا : أو ليس كذلك ؟ ثم أظهر ثقته بعناية الله . وهي العناية التي
كان يطعمن إليها في كل حال ويعتقد أنها تلاحظه وتلحظ الأمة في جهادها
الشريف . وقال إنها نتيجة لو توصلنا إليها بغير وسيلة القصد الصريح
لما بلغناها

وتبسط للكلام كعادته حين يستريح بعض الراحة من همومه الكبيرة
فقال : إن استقامة القصد قلما تخيب عند مستقيم أو غير مستقيم . أذكر اني
كنت في مكنتي أيام المحاماة وإذا بسيدة في زى نساء البيوتات تدخل المكتب
وتحيني تحية الأدب والاحتشام ، فأشرت إليها بالجلوس والتفت إليها بعد أن
فرغت من عمل الحاضرين وسألتها : من السيدة التي شرفتنى بهذه الزيارة ؟
قالت محسوبتك ع . اسكندر اسم امرأة من أصحاب البيوت المربية المشهورة
في ذلك الحين ، فما سمعت الاسم حتى ثارت ثائرتي وعجبت للوكيل كيف
سمح لها بالدخول وعجبت لها كيف اختارتني هي لقضيتها أو للسألة التي
قصدتني لأجلها ، وخاطبتها بكلام قارص لم أرفع فيه حق الأنوثة ، فلم تحر
جواباً وتركتني أقول ما أريد . حتى إذا هدأت ثائرتي وسكتت قالت أتسمح
لي بكلمة ؟ قلت تفضلي ! قالت : إن الناس إذا رآني عندك في قضية كان
هذا شهادة لك لا عليك . إذ لو كنت أنت من معارفى لما صدقوا اني أثق
بك واثمنك على المصالح . ولولا إنك مستقيم لما جئتك اليوم ، وإلا فان
زوارى المحامين كثيرون لم أفكر في واحد منهم لأننى أعرفهم وفكرت فيك
لأننى لا أعرفك ، ولا أراك فيمن أراهم كل يوم

قال رحمه الله : فسمعت كلاماً أريباً ولباقة معجبة ، وسرتنى هذه الشهادة
بالسمعة الحسنة من صاحبة السمعة السيئة

* * *

ولاشتهاره بالصراحة تعرض فيها لكل ما يتعرض له المشهور بصفة

من الصفات ، إذ ينسب الناس اليه ما حصل وما لم يحصل وما يحسن لديه وما لا يحسن كعادتهم في كل شهرة وكل مشهور . وكانت تنمى اليه بعض هذه الروايات فتضايقه لأنه — كما يقول — لا يجب أن يكون قول الحق سبياً لأن يقال فيه غير الحق ، ويهتم بتصحيح ما ينمى اليه أحياناً ولا سيما ما يؤخذ منه أنه يضع الصراحة في غير موضع ، أو يذهب بها مع الغلواء في غير موجب

من ذلك حكايتهم التي يتناقلونها عن المناقشة بينه وبين الخديو عباس في مسألة « القضاء الشرعي » وقد أسلفنا تصحيحها بلسانه

وشاعت اشاعات كهذه عن محادثات جرت بينه وبين صاحب الجلالة الملك فؤاد في مسألة الكبراء أنصار الوفد ومسألة الأعضاء المعينين بمجلس الشيوخ . فكل الحقيقة فيها كما سمعت منه أن صاحب الجلالة الملك ذكر له مرة إن أحمد مظلوم باشا لا يزور القصر منذ عهد بعيد . فقال دولته : ذلك يا صاحب الجلالة لأنه استأذن في مقابلة جلالته فقبل له إنكم لا تستقبلونه حتى يكتب براءة من الوفد . فقال جلالته الملك : إني لا أعلم هذا . قال الزعيم : إن هذا ما سمعه مظلوم باشا من بعض موظفي الديوان

أما مسألة الأعضاء المعينين في مجلس الشيوخ فقد شرحها شاهد عيان كما حضرها ورآها بعينه وهو البارون « فان دن بوش » البلجيكي الذي كان نائباً عمومياً للمحاكم المختلطة أيام الوزارة السعدية . ثم استقال وألف عن ذكرياته المصرية كتاباً أسماه « عشرون سنة في مصر » . فانه قد دعي لاستشارته في حق التعيين هل يكون بواسطة الوزارة أو يكون بغير واسطتها لأنه رجل شريعة من أهل البلجيك ، والدستور المصري ملحوظ في قواعده نظام تلك البلاد . فقال البارون : « دخلت الى مكتب الملك وكان ظاهر التأثير يقلب في يده مقطعاً للورق بحركة عصبية ، وكان زغلول باشا جالساً قبالة وهو مالك لنفسه يتكلم في تودة وهدوء

« ودار الحديث امامي . وادركت توأخواه وخطره ، فمن ناحية ملك نشأ على التقاليد الشرقية من تقرير سلطانه الشخصي يجاهد ليحفظ بقلده من ذلك السلطان ، ومن ناحية اخرى رئيس وزارة عنيد في غيرته على كرامة الحقوق التي كفلها له الدستور ، وقد لمحت وراء ادب الخطاب صراعا بينهما يجب تسكينه من غير ابطاء ، حذرا من بادرة لا تلبث أن تنقلب الى كارثة

« واخذ الحديث يحمي وطيسه فقال زغلول : « لو استفتينا الأمة ؟ »

قال فان دن بوش : « وتطلعت في هذه اللحظة من الشرفة الواسعة الزجاجية الى رحبة عابدين ورملمها المذهب تحت وهج الشمس ، والناس غادون الى اعمالهم هادئين والصبية هنا وهناك يلعبون . فقلت في نفسي : كلمة واحدة من هذا الرجل السياسي ومصر كلها اليوم معه ارواحاً وأجساداً فاذا بهذه الحياة الوادعة الباسمة المائلة لناظري الآن وقد استحالت لمراى العين ميداناً يعيث فيه الشعب جامحا لا يكبحه عنان

« غير أن صوت زغلول ارتفع قائلاً : أسمح يامولاي بأن يفتى حضرة النائب العمومي في الخلاف وأن تكون فتواه فصلا في الموضوع ؟ فتأمل جلالته هنيهة ثم ارتضى مسلماً وقال « نعم ! »

وهذا هو الحديث كما رواه شاهده بلا مبالغة ولا تحريف . ليس فيه كلمة لا يقولها للملك وزير دستوري يدافع عن رأى كراى سعد زغلول . فاذا كانت هيبة سعد ومكانته قد جعلتا لحديثه « تأثيراً » في نفس الملك لا كتأثير غيره من الوزراء فليس ذلك ذنبه ولا هو بالأمر الذي يحاسب عليه وليس من قبيل هذا ما استعظمه اللورد جورج لويد من حديث سعد معه في المقابلة الأولى ، ولكنه شيء قد يذكر في هذا الصدد ليدل على اختلاف الروايات والتقديرات فيما يحمد وما لا يحمد من القول الصريح

زعم اللورد لويد أن زغلولاً فاجأه بالصلف والكبرياء في أول خطاب وأول لقاء ، وكل ماجرى في ذلك اليوم أن سعداً لقي اللورد بعد صدور

الحكم ببراءة الأستاذين ماهر والنقراشى فسأله مازحاً: ألا تخاف منى؟ فقال اللورد ولم ياباشا أخاف؟ قال. لأنهم يحسبوننى زعيم سفاحين! ... وبعد استطراد قليل سأله اللورد: ماذا فى نيتك نحو انجلترا والأجانب؟

فأجاب سعد: انها نية الصداقة لجميع الأجانب حتى الانجليز. فعاد اللورد يقول: أحسب أنك تعنى مصادقتهم جميعاً والانجليز على الخصوص

أى ان اللورد يطلب منه أن يشهد على نفسه بأنه لا يحسن التعبير عما يعنيه وانه يلغى زعامته الوطنية التى تقوم على قضية بينه وبين الانجليز لا على مودة خاصة بين الطرفين، فليس بغريب فى هذه الحالة أن لا يقبل الرجل مايسومه اللورد وأن يردد قوله الأول بشىء من التوكيد: بل حتى الانجليز! هنا لجأ اللورد الى تهديده الدائم قائلاً. اذا سمحت فسأبلغ ذلك الى حكومتى!

واتهى بذلك الحديث فى هذا الموضوع

أفرايت إذن ذلك الصلف الذى وقع فيه سعد زغلول؟ أن السؤال الفكاهى طبيعى فى مثل ذلك اللقاء عقب تلك البراءة وعقب ماكان من قطعة واتهام. وطبيعى كذلك أن يعنى سعد أنه يريد صداقة الأجانب جميعاً حتى الانجليز الذين بينهم وبين المصريين قضية ونزاع على الاستقلال. ولكن غير الطبيعى أن يفرض اللورد على الزعيم الوطنى أن يميز الانجليز بالصداقة الخاصة لانهم احتلوا بلاده... فمالم يكن اللورد لويد يحسب الصلف حقاً من حقوقه فلا صلف هناك ولاوجه للاستغراب

* * *

[وصفوة القول أن سعد زغلول كان مثلاً فى الصراحة والجرأة وطبيعة الكفاح، ولكن الذين يفهمون أنه كان لذلك يحمل سلاح الصراحة ليضرب به ذات اليمين وذات الشمال يخطئون فهمه ولا ينصفونه. إنما كانت صراحته وسيلة لابتداء الحق والأعراب عن الرأى وكشف رذيلة الرياء ودفع مذلة الخنوع.] فأما الصراحة التى هى لغوى يؤذى ولا يفيد فليست هى من شأنه وليست هى من الخلال التى يتسم بها طبع مثل طبعه

كذلك يخطيء فهمه ولا ينصفه من يعلم أنه رجل كفاح فيحسب أنه لذلك لا يحسن غير مصارعة الخصوم واقتحام المعارك وأثارة الشحنة . فتلك صورة لا تشبه سعد زغلول ولا تمت إليه بقراءة ، وإنما كان الرجل مناضلاً لأنه كان حياً جيش الطبيعة على مقربة من الميدان الذي يدعو إلى النضال ، وهو — لأنه حتى جيش الطبيعة — لم يكن أصلح منه للعطف والصدقة وحسن المودة والآنس بالناس والارتياح إلى المعاشرة ، وقد حفظ قلبه الكبير ما أودعته الفطرة من ذخيرة العطف الزاخر إلى آخر أيام الحياة . فاذا تأثرت نفسه بحالة مفرحة أو محزنة فكثيراً ما تغرورق عيناه أو تنهلان بالدمع الغزير . وكان في مجالسه الخاصة من أقدر الناس على مؤانسة الجلساء بالحديث الشائق والفكاهة الحاضرة والحذب المطبوع ، وأكبر ما كان يشكو منه أطباؤه أنه كان لا يمنع لقاء الناس ولا ينقطع عن محادثة الجلساء عند اشتداد المرض عليه لأنه مطبوع على أن يتصل بالناس كما هو مطبوع على أن يقودهم في ميدان النضال ، والطبعان فيه شيء واحد أو هما شيئان متجاوران وهذا المناضل المكافح طول الحياة لم يكن أبغض إليه من رؤية العنف ولا مشاهدة الحزن والمحزونين . ذهب بعد الافراج عنه في جبل طارق ليشهد صراع الثيران على الأرض الإسبانية فلم يطق ما رآه من تعذيب هذه الحيوانات وانصرف بعد فترة وجيزة وهو يتأفف من هذا اللعب الممقوت ، وعرف عنه ذووه أنه لا يطيق أن يرى البكاء لأنه يؤذيه ويستبكيه ، فكان يقول لهم : لا تبكوا أحداً أمامي وإذا مت فخذوا ثأركم مني ولا تبكوني ! ومن عادته أن لا يظهر أمام الناس في موقف يخشى فيه من جيشان نفسه وغلبة دموعه . ولهذا لم يستقبل أم المصريين على المرسي في جبل طارق واكتفى بأن ينتظرها في حجرة الاستقبال . مخافة أن تجيش نفسه لهذا اللقاء بعد ذلك الفراق فلا يملك الدموع على مشهد من الناظرين

شبهه مستر جورج يونج في كتابه « مصر » بابراهيم لسكولن الزعيم

الأمريكي الكبير المعروف بالطيبة والقوة والمزاح . والتشبيه قريب في كثير من الوجوه بين هاتين « الشخصيتين » العظيمتين . فكلاهما فلاح وكلاهما مناضل وكلاهما طيب القلب صريح اللسان لا صبرله على سفاسف المجاملات وكلاهما يمزح ويتنادر ويحب الحياة . إلا أننا لا نعرف لسعد زغول خشونات في المعاملة والكلام كخشونات لسكولن ، ولا نعرف للزعيم الأمريكي العظيم حظاً من ملكة الحديث ولا من ملكة الفكاهة الحاضرة كالحظ الموفور الذي كان لسعد زغول من هاتين الملكتين

تسمع سعداً محدثاً فلا تسأم ولا تزال بين أزواد من الخبرة وصدق الملاحظة وطرائف الذكريات تشتاق أن تسمعها لذاتها ولو لم يكن المحدث سعد زغول الذي يعينك أن تعرف كل ما لديه لتعرف كل ما ينطوى عليه هذا الزعيم المبجل المحبوب ، وهو يجد غاية الجد في أحاديثه وذكرياته دون أن تلمح فيها شيئاً من فيهقة العالم أو لجاجة الشيخ في تقرير آرائه وتجاربه على سامعيه ، ومن عاداته في الحديث أن يقرن الحوادث الكبيرة الحاضرة بالذكريات الماضية أو الملاحظات العارضة أو الأمثال الشعبية التي يحفظ منها الشيء الكثير

دخلت عليه يوماً والبحث دائر بين الأحزاب على تقسيم دوائر الانتخاب . فسألني : أتعرف يا فلان حكاية « فطير وإلا أرمى روحى ! » فعلمت ما وراء هذا المثل من استطراد إلى الحالة الحاضرة . ولكنني قلت : كلا يا دولة الرئيس لا أعرفه ، ولعلني أعرفه اليوم !

قال إذن فاعلم أن بدوياً من البدو الذين تروى عنهم الحكايات ضاقت به الدنيا وسئم الفاقة نخرج من محلة قومه يضرب في الأرض إلى أن نزل بمحلة أخرى لقوم من الأعراب ، فأضافوه ثم برموا به وتجاهلوه ؛ وسول له الضيق أن ييخع نفسه فعمد إلى مأذنة الجامع الذي في البلدة فصعد إليها وهم بأن يلتقي نفسه منها ، وأنه ليفعل وإذا بيد تجذبه وقائل يناديه : ما خطبك يا هذا ؟

وماذا بك أن تصم الجامع الشريف هذه الوصمة؟ فقال الجوع . إنه الجوع ...
لقد جعت في بلدكم وضاق بي العيش فلم يبق إلا أن أموت
فكبر الأمر على القوم وتنادوا فيما بينهم أن أدركوا الرجل وأنقذوا
المحلة من وصمه هذا العار : أيموت رجل من الجوع بين العرب؟ أيوصم
مسجد الصلاة عندهم بهذه الفضيحة؟ لأهون عليهم أن يكرموه من أن يهونوا
على أنفسهم هذا الهوان

قال الباشا . وطاب المقام لصاحبنا وكثر الفطير عنده ، وعرف كيف
ينذر القوم بسوء العاقبة كلما تناقلوا عنه وضمنوا عليه بالضيافة ، فأقرب شيء
إليه أن يقصد إلى المسجد ويصعد إلى المئذنة ويصيح بالقوم صياح المؤذن
للصلاة : « فطير يا عرب وإلا أرمى روحى ! فطير وإلا أرمى روحى »
ولا يزال يردد هذا النذير حتى يجيئه الفطير !

قال الباشا : وهؤلاء أصحابنا السياسيون الأجلاء . لا تسمع منهم كل
يوم إلا طلبا لكراسى البرلمان يفرضونه علينا وإلا أنذرونا بخراب البلد
وخيانة القضية ! وعلينا نحن أن نعطي الفطير وأن نحمل المسجد من العار !
وبشره يوماً أحد أصحاب الرؤى والأحلام بنجاح الوفد في الانتخابات
فقال رحمه الله : وماذا عليه؟ إن أخفقنا لم نر له وجهاً وأن نجحنا جاءنا
يطلب البشارة . وحكى لنا حكاية جرت للشيخ جمال الدين الأفغانى في سفينة
خيف عليها الغرق العاجل . قال الرئيس : « أخبرنا الشيخ أنه لما رأى الصيعة
والنساء وضعاف القلوب في السفينة يضطربون ويهلعون ذهب يؤكد لهم
أشد التوكيد أن سفيتهم لن تغرق في تلك السفرة ويقسم لهم أنها لناجية بلا
مراء . قال الشيخ : وكان الركب يظنون في القداسة ويروني بالعمامة الخضراء
فيحسبوني من دراويش الهند الذين يكشفون الغيوب ويطلعون على أسرار
المستقبل . والمسألة بعد مسألة حساب ، فان غرقت السفينة لم أجد منهم من
يكذبنى ، وان سلمت ظفرت بالقداسة من أقرب سبيل

ومن عادته أيضاً في أحاديثه أن يتبع الأحكام الاجتماعية الخطيرة بملاحظات صغيرة تدل عليها . قال مرة : إن آفتنا الكبرى أن لانحمل تبعاتنا وأن نحاسب غيرنا على واجباتهم ولانحاسب أنفسنا على واجباتنا . ثم استطرد قائلاً : منذ نحو ثلاثين سنة دعونا بفراش مشهور طلبنا إليه أن يقيم سرادق عرس وأوصيناها أن يفرغ من إقامته قبل المساء . وفي عصارى اليوم مررنا بالمكان فاذ بالسرادق أكوام من الأخشاب والكراسى والثريات والمصاييح ولاسرادق إلا العمدان مفرقة هنا وهناك لا تؤذن بالانتهاء قبل أيام . . . ما الخبر ؟ الخبر أن العمال اختلفوا في التنظيم والتقسيم فراح كل عامل منهم يشير على غيره بما يعمل وينتظر هو تنفيذ الاشارة ! واضع الكراسى يقول إنه لا يدري كيف يصفها قبل أن تقام العمدان فيأمر من يقيم العمدان بأن يقيمها حسبما يأمره ويملى عليه ! ومعلق الثريات في خلاف مع الاثنين يقول إن الكراسى ينبغى أن تصف هنا والعمدان يجب أن تقام هناك ، ولو أقبل كل على عمله لاتهموا جميعاً واستطاعوا أن يفضوا فيما بينهم هذا الخلاف

وقال مرة أخرى أن الحرية تتقدم في بلادنا . لقد كنا نحضر الولايم الرسمية قبل سنين فكنا نرى المدعويين من الوجهاء والموظفين يأخذون من الطبق الذى يأخذ منه الأمير أو الوزير ويعرضون عن الطبق الذى يعرض عنه ، أما اليوم فهم يسمحون لأنفسهم بذوق فى الطعام يخالف أذواق الأمراء والوزراء هذا فضل كبير . وهذا تقدم غير يسير

وله أسلوب من الحديث فى تقريب القضايا البعيدة التى لا رابطة بينها يذكر بقدرة الفارس الماهر الذى يقود عشرين جواداً بزمام واحد

كان فى انجلترا يدعو إلى القضية المصرية ، وكان من همه أن يقرب بين موقف الانجليز وموقف المصريين من هذه القضية . ولكن كيف يتقاربان وهما جد نقيضين : لالغة ولا جنس ولا دين ولا وحدة فى المطالب السياسية ولا تضامن فى الأحاسيس القومية . غير أنه استطاع بجملة واحدة أن يجمع

بين مصر وإنجلترا بشعور واحد في قضية الاستقلال . فقال لبعض محدثيه من الصحفيين : « لو استحضرتنا روح يوليوس قيصر لأنبأنا أنه لم يتعب في إخضاع بلدين كما تعب في إخضاع الانجليز والمصريين ! »

وهذا التقريب البعيد ولا شك لمحة من لمحات الالهام

وقال مرة أخرى وإن كان التقريب هنا لا يحتاج إلى مثل ذلك المجهود :
إننا أبناء أ كبر دولة في العالم القديم وأنتم معشر الانجليز أبناء أ كبر دولة في العالم الحديث

وبهذه القدرة على الحديث يقول مايريد ، بل يعمل مايريد

* * *

أما فكاهة سعد فهي حاضرة على البديهة يستعين بها على لطف مؤاخذه أو رد مكيدة أو الزام حجة أو صرف حادثة مؤلمة بكلمة مضحكة ، فهي تارة بلسم جراح وتارة عدة كفاح ، وهي مؤنة تصلح حيناً لمساجلة الأصدقاء كما تصلح حيناً لمناجزة الأعداء

أنبأه صحفى انجليزى أن اللورد جورج لويد صاحب الأزمات المعروفة يقول : إن صحة سعد باشا تتقدم على الأزمات ... فقال سعد للصحفى : قل له « ربنا يطول عمره ! »

وكانت صحيفة البلاغ تنشر أسئلتها التى تستند إلى أوراق ومراسلات خاصة يتبادلها بعض الموظفين وبعض زعماء حزب الاتحاد . فأشيع يوماً ما قضية دبرت لاضطرار صاحب البلاغ إلى التصريح باسم الرجل الذى ينقل اليه تلك الأوراق . ثم زرنا ليلة الاشاعة بيت الأمة فسأل الرئيس الأستاذ عبد القادر حمزة متهمكا : ما العمل ؟ ها أنت ذا تسأل عن « سر مهنة » فماذا تجيب ؟ ثم قال : ما رأيك إذا كنت أنت تأخذ هذه الأوراق من رئيس حزب الاتحاد نفسه ؟ ألا يصدقونك ؟ ومضى يقص علينا قصة وقعت له أيام المحاماة حين كان يتولى الدفاع عن موظف فصلته نظارة الحقانية بغير حق قال الباشا

وكانت النظارة مخطئة في فصله . وأقنى قلم قضاياها باستحقاقه التعويض
ووصلت اليها هذه الفتوى فاعتمدنا عليها في الدفاع . وقد حضر عن نظارة الحقانية
رجل كانت فيه خفة وحذقة فترك موضوع القضية وأراد أن يوجه إلى تهمة
الحصول على ورقة سرية أو بعبارة أخرى تهمة السرقة ! وكان رئيس
المحكمة رجلا ظريفا فسألني وهو يتظاهر بالحيرة : ما العمل يا فلان ؟ ان
مندوب الحقانية يتهمك فهل أنت مستعد للجواب ؟ قلت نعم : قال من أين لك
هذه الورقة ؟ هل أنت مستعد لذكر اسم الموظف الذي أعطاك إياها ؟ قلت
نعم بعد استئذان حضرة المندوب ! .. فصاح المندوب يرجو الرئيس أن
يسألني لأجيب في الحال ويبادر باتخاذ الاجراءات قلت : إذن هو حضرة
المندوب نفسه الذي أعطاني هذه الورقة جزاء الله خيراً قال الباشا :
فوقع الرجل في حيص بيص . وخاف أن يبلغ الأمر النظارة فتصدق التهمة
ويلحقه العقاب ، فعاد يتزلف ويتملص ونحن نطاول في قضية الورقة ولا
نريد أن نصرفها ، فاذا هو المتهم ونحن المطلوب منا السماح

هذا نوع من فكاهة الزعيم الكبير أو من الكيد الظريف الذي يسلطه
على من يريد أن يخرجه فاذا هو داخل في الشبكة التي كان يريد أن يدخله فيها
وجاءه جماعة من الأزهريين فطلبوا إليه أن يتوسط في ارسال بعثة منهم
إلى أوروبا أسوة بطلاب المدارس العليا ، فضحك وأجابهم مداعبا : وإلى أين
نرسلكم ؟ إلى الفاتيكان ؟

وهذا نوع آخر لا فرق فيه بين النكتة اللاذعة والحجة الصادقة . فهي
نوع من المنطق المختصر الذي اشتهر به سعد في نقاشه ، وكأنه يقول في سلسلة
من القضايا المنطقية المسلية : إن طلاب البعثات يرسلون إلى أوروبا لإتمام
الدراسة في معاهدها ، وأنتم طلاب علوم دينية ، فأنتم تريدون إتمام دروسكم
العالية في معاهد أوروبا ، وليس في أوروبا من معهد للعلوم الدينية غير الفاتيكان
أو ما يشبه الفاتيكان . فأنتم إذا تطلبون الذهاب إلى الفاتيكان للتخصص في

وجاءه عمدة من أنصاره في ابان احتدام الخلاف بين الوفد والحكومة
فشكا اليه انهم فصلوه ولم يجن ذنباً بعد أن قضى سبعة عشر عاماً في
العمدية . قال سعد : وهل ذنب أكبر من ذاك ؟؟ أو لم تسمع يا بلك بعذر الرجل
الذي طلق امرأته بعد عشرة طويلة في صفا . ووثام ؟؟ طلقها فراحت تشكوه
وتعتب عليه ! ما ذنبي يا فلان ؟ أبعده خمس وعشرين سنة تعمل هذه العملة ؟
قال لها : مهلاً يا أم فلان هداك الله . وهل ذنب أكبر من خمس وعشرين سنة
في عيشة لا تتغير ؟

ولما وصل أصحابه منفيين إلى مالطة جلسوا ذات مساء يتذكرون حالة
أسراتهم وما تعانیه أزواجهم من هذه المباغته التي لا يعلن ما وراءها . فقال
سعد هلا أشير عايكم بمشورة تقلب وجدهن سرورا بنفيكم وتنسيهن غيا بكم
وحضوركم ؟؟ أكتبوا اليهن انكم قد تزوجتم في مالطة وسكنتم إلى الإقامة فيها .
فلا يتمنين لكم بعدها الا طول الغياب

وهكذا كانت فكاهته كلها أو معظمها من النوع البري والسليم الذي لا أذى
فيه ولا ضغينة ، ولا يعدو أن يكون « مقلباً » أو مناوشة يضحك بها
الغالب والمغلوب

على انه إذا تحدث عن خصم كرية لم يبال أن يرسمه بالفكاهة رسمه الهزلي
الذي ينطبق عليه أو يرد عليه شيئاً من عداوته وأذاه . قال في حديث
عن خصومه : إني أطيق هذا وذاك ولو كانا من خصومي . أما فلان أخزاه الله
فلا يطاق . انه كالمخاط لا تدري ماذا به تصنع ؟ تمسحه قشمتز وتركه قشمتز ،
فهو مقزز على الحالين

وقيل إن صحفياً ممن يحملون عليه مريض . فسأل : ماذا أصابه ؟ قالوا عسر
هضم ومغص معوى ... قال لعله بلع مقالة من مقالاته !

وربما حكمت « النكتة » فلم يدعها دون أن يلتقطها ولو كانت مريبة في
مبادرتها الأولى : جلس عنده يوسف وهبه باشا وهو بمكتبته في رئاسة مجلس

النواب فلم يستقر به المقام حتى دخل عريان أفندي يوسف سعد يعرض بعض الأوراق وهو الشاب الذي ألقى القنبلة على وهبة باشا يوم كان رئيساً للوزارة ثم أفرج عنه ووظف بمجلس النواب . فضحك سعد لهذه المصادفة وسأل : ألا تعرف هذا يا باشا ؟ فتأمله وهبة باشا وكان فيه ضعف نظر وغروب تفكير ثم قال : لا أحسبني عرفته ! قال سعد : عجباً . أو هكذا تنسى أصدقاءك بهذه السرعة ؟ فأكد وهبة باشا انه لا يعرفه وسأل : من هو يا ترى هذا الصديق ؟ قال عريان يوسف يا باشا . أنسيته ؟ .. فاضرب الباشا اضطراباً يسيراً وتمتم كالمستغيث : الله يهديه ويكفيننا شره

وقد شاعت الاشاعات التي لا تحصى عن استبداد سعد برأيه وغضبه في حديثه وقلة صبره على مناقشيه . فالذي أعرفه عن هذه الاشاعات انها في جوهرها خرافة من الخرافات . فان سعداً لم يكن يكره المناقشة بل كان يطلبها ويستدعيها وينفر من الجلساء الذين لا عمل لهم غير التسليم والتأمين ، وكان كلاعب السيف البارع يحب المبارزة لذاتها ولو لم ينتصر فيها على قريبه ، وشعوره بالتسليم إذا لزمته الحججة أمام من هو أصغر منه كشعور الأب الذي يعلم ابنه المصارعة فيغلبه ابنه في بعض الأحيان : هو شعور اغتباط لا شعور استياء . وليس من النادر أن يسلم الحججة علانية ولو كان القائل بها من خصومه ، كما حدث مثلاً حين انتقد الكاتب الصحفي المعروف الأستاذ محمود عزمي اشتراك الرئيس في المناقشات وهو على منصة الرئاسة بمجلس النواب ، فانه كان يترك المنصة بعدها كلما خطر له الاشتراك في المناقشات ، وما يسلمه علانية يسلمه في مجالسه الخاصة عن طيبة وارتياح

وقد لازمت سعداً سنوات ووافقته كثيراً وخالفته كثيراً كما يعلم القراء فلا أذكر يوماً انه طلب مني أو طلب من غيري أمامي أن نكتب في رأى بغير ما نراه ، وانما كان أسلوبه في هذه الحالة أن يفتح باب المناقشة

فيما يريد الكتابة فيه ، فان خالفناه وأقنعناه لم يطلب منا كتابة ولم يلبح إلى طلبها أقل تلميح ، وكثيرا ما كان يتلطف فيقول : أنت جبار المنطق يافلان ... وهذا هو اللقب الذي تفضل فاطقه على كاتب هذه السطور

وإن وافقناه ورأينا رأيه قال : حبذا لو وقف القراء على جليلة هذا الموضوع ، وهذا غاية ما كنا نسمع من طلبه الكتابة في موضوع من الموضوعات كذلك لم يحدث قط انه طلب اليينا الكف عن الكتابة في مسألة من المسائل ولو جلبت عليه الأزمات وأوقعت النزاع بينه وبين ذوى السلطان ومن ذلك اننا كتبنا مع السكاتبين عن زيارة اللورد جورج لوييد للهنيا واستقباله في الأقاليم استقبال أصحاب العروش . واشتدت الحملة على اللورد من جراء هذه الزيارات حتى اشترك فيها مجلس النواب على اختلاف الاحزاب ، فبلغ الحنق باللورد أن يخاق بعدها أزمة يستحضر من جرائها سفن الاسطول إلى الاسكندرية ليزيل ما أصاب هيئته من تلك الحملات . كل ذلك وسعد لا يشير اليناول إلى غيرنا بكلمة ولا ايجاء . وظل كذلك حتى انقضت الأزمة ومضى على انقضائها أسابيع ودخلت عليه يوما فقال : أتدرى ماذا صنعتنا لنا يافلان ؟ ! إن اللورد جورج يتهمنا بأننا كنا الموعزين بحملة الصحافة وحملة مجلس النواب على زيارته للأقاليم ... أما أنا فأقول له : « إنها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه »

ولقيته بعد خطبة العرش الأولى وكان حساس النفس من ناحية الخلاف عليها لأنه أول خلاف تعرض فيه نفوذه الشعبي للامتحان ، وكان الوفديون وغير الوفديين مختلفين في شأنها يكتفى بعضهم بما قيل ويطلب بعضهم المزيد من الايضاح ، وكان في المجلس فتح الله بركات باشا والأستاذ محمود فهمى النقراشى والأستاذ عبدالقادر حمزة . فسألني دولته :

ما رأيك فيما يقال عن خطبة العرش؟

قلت رأيت يا دولة الرئيس إنها كان يمكن أن تكون أوضح مما هي عليه
قال : وهل لا ينطبق هذا على كل كلام ؟
قلت : بلى . ولكن إذا تساوى الوضوح وغيره في جميع الاعتبارات
فرأيت يا دولة الرئيس إن الوضوح أولى بالتفضيل
فلبث رحمه الله نصف ساعة يناقشني في رأيت بلا ضجر ولا استياء ،
ومضت فترة بعد ذلك ، وانتقل الكلام إلى شأن آخر فأصغى إلى أحسن
إصغاء . ثم سألتني : ولماذا تحاسبني أنا في هذا ولست أنا المسئول عنه ؟
قلت : لأن دولتك وكيل الأمة والمسئول عن عمل الآخرين !
فضحك رحمه الله طويلاً . ثم قال : لو حاسبني كل فرد في الأمة حسابك
يا فلان لعجزت عن اعباء هذه الوكالة
قلت وفي نفسي غضب أغالبه : يا باشا .. ولكن ليس كل فرد في الأمة
عباس العقاد . فتبسّم مؤمناً وقال : نعم ! ليس كل فرد عباس العقاد ... صدقت
إنما كان يضجر سعد من المناقشة في حالة واحدة لم أشاهده غاضباً في
سواها . فقد علمت عاداته في تبسيط المسائل وتفصيل وجوهها وتقريبها
من البدهة بالبرهان الصادع والعبارة الجلية ، فإذا حادثه من لم يتعود هذا
النسق من البحث أو من يضمّر غرضاً غير الاقتناع بالحجة الظاهرة بدا عليه
الضجر وتكدر من ضياع الوقت في غير طائل ، وما أحسب غيره كان يكون
أصبر منه أو أقل ضجراً في أمثال هذه الأحوال . فكل المنطقة السكبار
يناقشون ويجادلون ولكنهم يفرضون التسليم والاذعان في بعض الأمور .
وما ذا يصنع الرجل الذي يرى على بعد ميل مع الرجل الذي لا يرى ماتحت
قدميه ؟ انه ليفرض عليه التسليم شاء أو لم يشأ . وذلك هو الواجب ، وذلك
هو المنطق القويم

وكل شخصية عظيمة من قادة الأمم عرضة لمظنة متشابهة في جميع
الأزمان وهي مظنة الأنانية أو الاثرة . لأن الأنانية والاعتداد بالنفس
خصلتان متساويتان في رأى النظر القريب

وسعد زغلول لم يكن بالمستثنى من هذه المظنة العامة ، فان خصومه كانوا
لا يلحون في وصفه بشيء كما يلحون في وصفه بالافراط في الاثرة ، وقلة
الاكتراث للآخرين

[إن سعداً لم ينس خدمه فضلاً عن أن ينسى واجب الوفاء لأصدقائه]
وقد نقل من سيشل الى جبل طارق وهو في حالة أخرى أن تشغله بنفسه ،
فكان أول ما فكر فيه بجبل طارق كتابة بيان سلمه الى حاكمها فصل فيه ما يعانیه
أصحابه بسيشل وحاجتهم الى العناية والانتقال من تلك الجزيرة ، وكان أول
ما فكر فيه بعد الافراج عنه أن يطلب من الدكتور حامد محمود إعادة الكرة
في كتابة عريضة من نواب الانجليز الى حكومتهم ، للافراج عن أولئك
الأصحاب

هذه أريحية مشكورة إلا أنها غير نادرة في ذوى المروءة . انما النادر
حقاً أن يأخذ الرجل نفسه بواجب النجدة لمن كانوا أصدقاء له ثم ضربت بينه
ويبينهم ضربات الأيام وطالت بينه وبينهم القطيعة . وإحدى ما ترسعد في هذا
الباب أنه سمع من بعض جلسائه أن منزل الأستاذ الهلباوى بك المحامى الكبير
يعرض للبيع فى المزاد ، ولم يخطر لمحدثه أنه يلقي عليه خبراً يكدره أو يشق عليه .
ولكنه ما عتم أن رآه بادی الحزن مشغول البال ثم التفت الى فتح الله بركات
باشا وهو يقول : إن السكوت عن هذه المسألة لا يليق ! وأمر بأن يؤخذ من ماله
ألف جنيه لتفريج هذه الضائقة وابقاء المنزل فى حوزة صديقه القديم . فاستمهل
فتح الله باشا ريثما يتحرى الأمر لئلا يكون فى هذا التدخل تعطيل لمصلحة
مقصودة أو تسوية مالية يجهلونها . وعلم الهلباوى بك أثناء البحث فى هذه

المسألة بما يريد سعد فأرسل اليه يشكره ويبلغه إنه دبر للأمر تدييره واستعد
لا لقاء ضرره .

ومن المحامين القدماء رجل لم تمكن بينه وبين سعد علاقة غير علاقة
المعرفة ولكنه بلغ الشيخوخة وقعدت به الفاقة فرتب له سعد أربعين جنيهاً
يرسلها اليه في كل شهر إلى أن توفاه الله

وما من منصف يرمى رجلاً كهذا بالأنانية المحدودة والآثرة المذمومة
وبعد فنحن نعتقدان الآثرة والآثار يتلاقيان في كل عمل عظيم ، لأن العمل
العظيم يشتمل بطبيعته على مصالح الألوف بل الملايين من الناس . فلا فرق
في نتائجه بين الآثرة والآثار مادام الخير فيه عاماً شائعاً لا ينفرد به صانعه
ولا ينفرد به ذووه ، فإذا كان المقصود بالآثرة عند سعد أنه كان يهتم بأعماله
ويغار على تحقيق مطالبه وآرائه وأنه لا يقبل من الآخرين أن يجبطوا سعيه
وينتصروا عليه فالآثرة هنا صفة لا تضير . أما إن كان المقصود بها أن أعمال
سعد تنفعه ولا تنفع غيره وتنحصر في شخصه ولا تتجاوزته إلى قومه فذلك
هو الكذب الصراح ، وأما أن كان المقصود بها أن سعداً كان يعنى نفسه من
الجهود والضحايا في سبيل عمله ، ويذهب مذهب الأنانية الضعيفة في الضن
براحته وصغائر شئونه فذلك أيضاً كذب صراح ، ومادامت الأنانية لا تمنع
الإنسان أن يعمم الخير وأن يبذل الضحية فهي والآثار صنوان والأنانية
هنا والغيرية تتلاقيان

الا أن الخطأ الذي يقع فيه أصدقاء سعد كما يقع فيه خصومه هو الخلط
بين طبيعة النضال فيه وطبيعة التمرد أو الثورة
طبيعة النضال في سعد على أمها وأندرها ، وهي ان شئت ضرورة حيوية
في بنيتها أو ضرورة «فيزيولوجية» يعيش بها الجسم ويلتمس فيها علاجه وشفاءه
واستعادة نشاطه ، وما من زائر حميم من زوار بيت الأمة إلا وهو يذكر
كيف كان يرى سعداً في الشتاء وهو ملتف بالدفتر والكوفيات من عنقه الى

قدمه وكيف يراه بعد هنيهة اذا استطرد الجدل الى أمر يمسه ويمس خصومه ولقد تزحزحت الكوفية حتى انحلت ، وتزحزح الدثار حتى سقط وانبرى الرجل كأنه قتي في ميعة العمر يتوثب بحمية الشباب ولا يبالي ما يفعل الشتاء ولا ما يقول الأطباء .

وليس بالمجدي أن يمنعه الأطباء أن يعمل ويتكلم إذا دفعته طبيعته الى العمل والكلام ، فانه ليصدق من وحيها ما ليس يصدق من وحي الطب ووحى التفكير ، وانها لتصيب حيث لا يصيب هذا ولا ذاك . وقد حدث مرة — في الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩٢١ — أن أطباءه رأوا من حالة الصدر وضغط الدم خطراً على حياته إن هو أجهد نفسه أو خطب في ذلك اليوم . ولكن اليوم يوم الذكرى الوطنية ، وهو عائد من رحلة الصعيد وعنده كلام كثير يقوله ولا يؤديه عنه غيره . فليتكلم إذن وليبطل كلام الطب ونصيحة الزوج الرؤم ورجاء الأصدقاء . وقد تكلم كما شاء وحي الطبيعة واعتلى المنبر أكثر من ثلاث ساعات فاذا الخطبة من أجود ما قال وأفضل ما ارتجل . وماذا حدث ؟ هل تحقق الخطر ؟ هل تعب وأعي ؟ هل اقتصر الأمر على السلامة ؟ لا . . . عولج بما كان يشكوه من وصب وعاد كاقوى ما كان

وإنك لتبصره في أيام الأزمات والأخطار فتبصر الحوت في بحره والطائر في سمائه : لا كرب ولا وجوم حين يكون هناك مراس ونضال ، وانما الكرب والوجوم حين يكون الفراغ والسكون

تلك طبيعة النضال على أتمها وأندرها . أما طبيعة التمرد والثورة فشيء آخر طبيعة النضال لا تناقض المحافظة على العرف الشائع ، بل كثيراً ما يكون الجنود في ميدان القتال وفي ميدان الرأي محافظين جد المحافظة وهم شجعان مستبسلون . أما طبيعة التمرد فتناقض المحافظة كل المناقضة ، ولا يندر أن تنشأ من الضعف والاختلال كما تنشأ من القوة والاستواء

وإن كثيراً من أصدقاء سعد ليحسبونه من الثوار المتمردين ولا يخطر

لهم على بال أنه من المحافظين الواقعيين، وعذرهم في هذا الحسبان قريب مفهوم، وإلا فأى شيء أقرب إلى الثورة والتمرد من خليقة الرجل المنطور على المقاومة وهو يقود أمة تغضب وتثور؟ إن الذي يصفه بالتمرد لا يقرر إلا واقعاً يؤيده العيان ولا يحتاج إلى استقصاء.

لكن الواقع إن سعداً كان في قرارة نفسه من المحافظين لا من المتمردين وإن كان يثور على الظالمين ويجب الثائرين كما قال في بعض الأحاديث، فلم يبن دعوته قط إلا على أساس القواعد المصطلح عليها بين الناس، وهي قواعد الحرية والمساواة وانصاف الضعفاء واحترام الدساتير، ومقالاته التي كان يحمل بها على وزارة خصومه وينشرها بعنوان: « ثورة الوزارة على الدستور » ليست لعباً بالألفاظ ولا احتيالا على التعبير ولكنها عقيدة تشف عن سليقة، وعنوان يترجم عن إيمان، فهو في ثورته على الوزارة إنما يطلب شيئاً تعترف به الوزارة ولكنها تغالط فيه، أو هو بعبارة أخرى

ثائر على ثائرين

ولست هذه خليقة المتمردين المطبوعين على التمرد والانتقاص، فإن هؤلاء يهدمون قواعد مؤسسة مصطلحاً عليها، ويقيمون في مكانها قواعد أخرى لا يعترف بها أحد غيرهم في بداية الدعوة إليها. ولم نعرف لسعد قط دعوة من هذا القبيل، ولا نستثنى من ذلك رأياً من الآراء، ولا ميلاً من الميول حتى مشايعته للسفور ومناصرته لقاسم أمين. فإنه قد كان يعيش في جو سفور ويقابل النساء السافرات فلم يزد على مجارة الواقع الذي هو فيه، ولم يكن من طبعه الرياء وأن يعمل الشيء ويظهر بنقيضه أمام الناس وأنه لعمله واقعي حتى في ثورته وهجومه. وكل ما هنالك أنه يبدو متمرداً نظرياً لمن هم أضعف منه عزماً وأقل منه طاقة، كالرجل الذي لا يستطيع أن يحمل الأبطال بحسب المصارع الذي يتحدث عن حمل القناطير ضارباً في أوهام الخيال. لكن في الحقيقة واقعي مثله لا يختلف عنه إلا بالعزيمة والاعتدال

لقد كان سعد يشور على أفراد خالفوا القواعد المقررة فهو غير الشائرين
على قواعد مقررة يؤمن بها جميع الأفراد . وما أحسب ثورته على الدولة
البريطانية وتحديه لسلطانها تحليقا منه في جو النظريات ولا جهلا منه بوقائع
العمليات . كلا ! فانما كان يشور على الظلم الذي يلحقه به وبالامة أذئاب تلك
الدولة وآلاتها من الانجليز والمصريين ، ويأبى أن يخنى رأسه لأولئك
الأذئاب والآلات ، ويعلم انه قادر على مكافحتهم في الميدان الذي يناوئونه
فيه ، وان الثبات أمامهم أجدى وأصلح من التسليم

وتتمثل الطبيعة العملية الواقعية التي انطوى عليها هذا الزعيم العظيم في
كثير من أعماله وكثير من شواغله وتصرفاته : أوضحها وأقربها إلى الفهم
عنايته بتحصيل « شهادة الحقوق » في سن الكهولة مع أنها لا تزيده علماً
ولا تدل على كفاءة ولا تزيد على قصاصة ورق بالقياس اليه . ولكنها وسم
معترف به شائع بين أقرانه فلا مناص له إذن من تحصيله . ولو رجل غيره
من أصحاب الطبائع النظرية كان في مقامه لما جشم نفسه هذا العناء من أجل
الاصطلاح والشيوع ، ولا غنى نفسه باحتقار الاصطلاح والمصطلحين عليه .
لكنه يكون حينئذ رجلا غير سعد زغلول ، ويكون شاعراً أو متصوفاً أو
عالماً بين الكتب وليس زعيماً مخلوقاً لقيادة الشعوب : يعنيه أن يقنع
الآخرين ولا يكتفى باقناع نفسه ، وأن يرى الأمور كما يراها الناس بعين
الواقع . ولا يكتفى برويتها كما هي في عالم النظر والتجريد ، ويعيش بين
الأحياء ولا يعيش بين الأفكار والأوراق

وربما شابه هذا في الدلالة على طبيعته العملية الواقعية انه أراد أن يكون
لزملائه في وزارته الأولى ما كان لسائر الوزراء قبلهم من الرتب والألقاب.
وكنت قد اقترحت أن يظل الوزراء بألقابهم التي دخلوا بها الوزارة ، لأن
الجمهير ينبغي أن تتعود توقير العظماء لجهادهم لا لعناوينهم ، ولتمثيلهم اياها
واخلاصهم في خدمتها لا لما يحملونه من الملابس والشارات ، ولأن الوزراء

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY
RECEIVED
FEBRUARY 19 1933
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY
RECEIVED
FEBRUARY 19 1933

في عهد الحكومة النيابية غير الوزراء في عهد النظام القديم . فقد كان الوزير في العهد القديم لا يستوزر إلا بعد الترقى في الرتب والألقاب إلى أرفع المناصب الحكومية وهو منصب الوزارة . فاذا حصل على الباشوية وما يرافقها من الأوسمة والأنواط فذلك هو الترقى الطبيعي الذي لا حيلة فيه . أما الوزير الدستوري فاليوم وزير وغدا غير وزير ، وربما دخل الديوان ولم تسبق له قط خدمة في الحكومة ولا علاقة بالمظاهر الحكومية . فلا وجه إذن للتقيد بالنظام القديم في تلقيب الوزراء ، ولا نتيجة لذلك إلا تثبيت النظام القديم الذي لا يحسن أن يدوم

فلما اقترحت ذلك لم يقع اقتراحى عند سعد موقع الارتياح ، وقال : أتريدون أن يكون وزراءنا نحن وحدنا بدعة بين الوزراء ؟ فهو في جميع أعماله وتصرفاته نائر لأسباب عملية أو محافظ لأسباب عملية . والنائر والمحافظ لهذه الأسباب على حد سواء

أو هو واقعى ولكن دائرة الواقع عنده واسعة لا تنحصر في القريب الصغير من الشؤون ، ومبادئه مبادئ الواقع لا مبادئ النظريات ، ويقينه يقين الواقعيين لا يقين المثاليين ، وإنما أكبر أسباب الشك عند الناس في المبادئ والعقائد هو عدم القدرة على تنفيذها والاضطلاع بأعبائها ، فاذا كان سعد زغلول قليل الشك فذاك لأنه عظيم القدرة ، لا لأنه يؤمن على طريقة المثاليين

وتقدير سعد للرجال لا يرجع إلى مقياس غير الأثر المحسوس والعمل المشهود . فقيمة الرجل عنده هي قدرته على إثبات شأنه وتقرير وجوده . ويوشك أن يكون اعتبار المراسم والتقاليد في هذا التقدير هو المقياس الراجح على غيره من المقاييس

* * *

وقد كان من رأي دائماً أن سعد زغلول لو لم يشتهر بالصراحة والجرأة

لاشتهر بالدهاء والحيلة ، لأن معرفته بالرجال وحيلته في علاج المشكلات لا يفوتهما كثيرون ممن اشتهروا بالدهاء وقامت شهرتهم عليه كما ولا تناقض بين هذا وبين ما فطر عليه من طبيعة المناضلة والصراع . لأن الحيلة نقيض الهوج وليست نقيض الشجاعة والنضال . بل كثيراً ما تكون الحيلة من أسلحة المناضل المقدم في نضاله ، لأنها داخلة في طبيعة الحرب والغلاب

وربما غلا سعد في الحيلة إلى حد يحير عارفيه ويحسبونه لغزاً يضطربون في تعليقه . وقد سئل هو في ذلك يوماً فقال كما أسلفنا في فصل سابق أنه ورث الحيلة من أمه والاقدام من أبيه

ولعل هذا هو التفسير الصحيح . لكنه على كل حال لا يدل على تناقض واضطراب في هذه « الشخصية » المنتظمة التي يندر فيها التناقض والاضطراب .

لقد كان سعد منطقياً بتكوينه ولا غرابة في حيلة المنطقي ولو كان أقوى الأقوياء . بل لا غرابة في نبذه الحيلة أحياناً لأنه لا ينبذها إلا في حالة اضطرار ، وعند ما ينبذ المنطقي الحيلة لأنه لا يملك إلا نبذها يكون منطقياً مقبولاً حتى في المجازفة واهمال التدبير إلى حين ، وإلا فإلى أي شيء يهديه المنطق غير ذلك !!

ومهما تختلف التفسيرات والتأويلات فالأمر الذي لا نحسبه قابلاً للخلاف هو جلاء طبيعة سعد جلاء لا غموض فيه ولا إبهام ولا شذوذ عن النمط القويم . فلم تكن في هذه الطبيعة أسرار ولا ألغاز ولا سرايب ، وكل شيء فيها معروف أو ميسور العرفان ، وقوته كقوة الجيش الكبير الذي تستطيع أن تراه بعينيك والذي يخطيء فيه من يخطيء بالمقدار لا بالكثرة والعنصر : يجوز أن يكون مائة ألف ويجوز أن يكون مائة وخمسين ، ولكن لا يجوز أن يكون شيئاً مجهولاً في عالم الحساب وعالم التعبئة والاستطلاع ... لذلك لم يتصوف قط ولا جنح إلى التصوف في شبابه أو كهولته مع أنه حضر

على جمال الدين الأفغانى وصاحب الشيخ محمد عبده وكلاهما تصوفاً ودرسا
التصوف أيام الشباب ، لأن التصوف لا يتطرق إلى الطبائع التي تخلو من
الخفاء ، وإنما يتطرق إلى كل طبيعة بعضها معروف وبعضها مجهول ، أو بعضها
مفهوم وبعضها متروك للحدس والتخمين ، وليس في طبيعة سعد شيء من ذلك
ومن شاء مسباراً لطبيعة هذا الرجل الصريح في تكوينه وفي كلامه
فمسبار الصادق هو منطق الحيوية الجياشة القوية حيثما كانت وحيثما كان .
كل ما وافق هذه الحيوية فهو من صفاته ، وكل ما ناقضها وخرج عليها
فليس من صفاته ، وكل خصلة في سعد فردها إلى نفس منطقية قوية تحب
ما تحب وتكره ما تكره لأسباب لا تستعصى على تفسير

سل عن حبه للراحة وكرهته للرياء تجد أنهما كانا عنده ضرباً من منطق
الأحياء الأقوياء ، لأن المنطق السليم يقول ان الانسان يدارى رأيه لجنب
أو جهل ، وليس القوى بجبان وليس المنطقى بجاهل . فلا يحصى له من
الراحة وبغض الرياء

المنطق يقول أن سكوت العارف عن الرياء الذي يعرفه إرغام وإذلال ...
والفطرة القوية الجياشة لا تدعن للإرغام والإذلال ، ففي كل لحظة يجترى .
فيها الرجل على قول صريح إنما يعمل — على غير قصد منه — بقضية
منطقية لا تتواء فيها ، وكأنه يسأل نفسه : لماذا يسومنى هذا أو ذاك أن أَرْضَى
بكذبه ولا أسومه أن يَرْضَى بصدقى ؟ فلا يعرف جواباً يلائم المنطق السليم
ويلائم القوة الحية إلا الصراحة والأنفة من تعاطى الرياء أو قبول الرياء
وفكاهاته كلها لو راجعتها لخرجت من كل واحدة منها بقضية منطقية
مستقيمة المقدمات والنتائج ، وإقدامه كله إقدام يطرد مع منطق الأقوياء
وإن لم يطرد مع منطق الضعفاء ، إذ الجائز في المنطق عند القوى غير جائز في
المنطق عند الضعيف ، لأن سداد الرأى أن يهرب الانسان من القوة الغالبة

إذا كان ضعيفاً ، وليس هذا عند القوى القادر على الغلبة والآنف من الضيم بسداد

وجملة ما يقال في هذه الشخصية الكبرى أنها شخصية رجل جدير بالا كبار جدير بالحب والولاء ، شخصية إنسان مهيب محبوب في مواقف الزعامة والنضال وفي مواقف المزاملة والمواخاة .

لقد أحبه الشعب حب التقديس وهتف بحياته المسوقون إلى الموت وهم على مصاريع المشائق وفي غياهب السجون وشوهد اثنتان من السيدات تتعابtan في المعرض الزراعي عتاباً أليماً لأن إحداهما حظيت بتقويل يده ولم تخبر صاحبها بنيتها لتحظى هي أيضاً مثل هذه الخطوة . إلا أن أناساً من الزعماء والساسة قد ظفروا بمثل هذا الحب من الجماهير دون أن تؤثر عنهم تلك المناقب الانسانية والعواطف القلبية التي تستحق الحب الخالص والموودة الكريمة . فاذا قلنا أن سعداً كان جديراً بالحب كما كان جديراً بالمهابة فنحن لا نعني حب الزعامة وحده بل نعني معه حب النفوس القرية الحميمة نفوس الأصدقاء والأكفاء ، وحسب سعد من ذلك حب رجل كقاسم أمين وسيدة كأم المصريين . فقد كان قاسم مثلاً نادراً في نزاهة الرأي ولطف الحس وعزة النفس ودقة التعبير وكان يكتب إلى سعد حين أهدى إليه كتابه في تحرير المرأة :

« إلى صديق سعد زغلول

« فيك وجدت قلباً يحب ، وعقلاً يفكر ، وإرادة تعمل ، أنت الذي

مثلت لي الموودة في أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء ، وان فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها

« من هذا أمكنني أن أحكم ان هذه الموودة تمنح ساعات أحلى اذا كانت

بين رجل وزوجته . ذلك هو سر السعادة الذي رفعت صوتي لأعلنه لأبناء وطني رجالاً ونساءً »

وان القلب الذى يجد فيه رجل كقاسم أمين هذه « الصداقة الحلوة »
لهو ولا شك قلب منظو على رحمة ومودة تفوقان مايرى على صاحبه من شدة
ومهابه ، وان كانت المهابة يستحقها منه ألوف ، والمحبة لا يستحقها منه إلا
أفراد أفذاذ

أما السيدة الجليلة أم المصريين فما الذى يلجئها الى محبة سعد إلا أنه يستحق
المحبة ؟ لاهى فقيرة فأغناها ، ولاهى خاملة فرفع نسبها ، ولاهى جاهلة
فتجهل ماينبغى لها من المعاملة ، ولاهى أم فيقال إن الأواصر البنوية هى التى
تلجئها الى قبول ما لا يقبل من الأزواج . فلولم يكن سعد أهلا للحب الخالص
والمودة الكريمة لما استحق منها فى حياته وبعد مماته ذلك الولاء النبيل الذى
يقبل مثله بين زوجات مدينت لأزواجهن بكل شرف ونعمة

ومن شهادة ثروت باشا له وهو يؤنبه باسم الحكومة مايدل على ان عذوبة
النفس فيه صفة من الظهور والاصالة بحيث لا ينساها الانسان بعد العدا
الشديد وهو غير مطالب بذكرها لو كان يريد أن يتخطاها ... قال ثروت باشا :
« أما الصديق وعهدى بصداقته طويل فقد الفيت منه طول هذا المدة خير
مايجد الصديق لدى الصديق : طيب أخاء ، وصدق عهد فى المشهد والمغيب
ووفاء على القرب والبعد ، وصراحة فى غير جفاء ، واخلاص نصح وسداد
رأى فى المشورة . وما أنس لا أنس سعدا محدثا فقد كان متاعا لايمل وذخرا
لايبلى . فما شئت من حسن محاضرة ، وحلو فكاهة ، ولطف مدخل ، وبراعة
تنقل ، وسحر حديث ، فاذا جادل أو ساجل فهو البحر تدفقاً وأندفاعاً ،
هذا الى خصوبة فى الفكر ومتانة فى التدليل كان فيها لايجارى »

وقد تدل على شخصية سعد أكبر من هذه الدلالة آراء اناس من غير
جنسه ومن غير وطنه ومن غير منحاه فى السياسة مثل كرومر الانجليزى
ومورتن هول الامريكى ومايل جايار الانجليزية وانى فيفاتى الايطالية
فكرومر هو القائل فيه : انه علمه كيف يحترمه . وهى كلمة لايقولها كرومر

في مصرى صغير ، ولا يقولها في مصرى كبير الا اذا كان من الكبر بحيث
لا تنكر مزاياه

ومورتون هول سفير الولايات المتحدة الأول في مصر يقول عنه في
كتابه « مصر ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها » :

« اظن انه من المتفق عليه انه لا يكمل تاريخ مصر الحاضرة بغير الاشارة
الى رجل من أكبر ابناءها شجاعة ووطنية وطيبة وحكمة وأعنى به المرحوم
سعد زغلول . فأما انه كان أنسانا من البشر له نصيب من ضعف البشرية الذى
لا يخلو منه انسان فذلك أمر لا يحفل أحد بنقصه وتفنيده ، ولكننا نستطيع ان
نرى ان هذه المآخذ القليلة التى لاغنى له عنها في مظهره ومسعاها انما كانت من
مآخذ الرؤس ولم تكن من مآخذ القلوب

« وان زوجته الرؤم المهذبة وسائر من لازموه في بيته لهم شهود على انه
كان زوجا دائم الحب والعطف والرحمة ، وقد كان على هذا النحو صديقا
صادقا وفاقا لايسهل عليه ان يصدق ان أخا وثق به وأتمنه ينقلب الى نقيض
الثقة والامانة . فاذا أصابته هذه المحنة كما حدث من قليل منهم بين ألوف
الأصدقاء المعجبين به فهو أبدا على استعداد لأن يبسط يده اليهم بالغفران
والطيبة ، ولم أر قط بين من رأيت من مسيحيين أو مسلمين أو يهود من كان
أوفى نصيباً من هذه السجية التى هى اعظم السجايا » (١)

وقالت السيدة مابل جايار تصف لقاؤه الأول في زيارة لأسرتها بالقاهرة
« لم أعرفه قبل ذلك ، فكان الأثر الأول منصرفا بطبيعة الحال الى ملاحظته
ومرآه . وهى ملاحظ لم تكن من دواعى تمليقه قبل أن تسبغ عليها السن
جلالها ووقارها . الا أن الأثر الذى لا يقل عن ذلك ولا يزال حيا في
ذكري هو الأثر الذى يقع في النفس من مسلكه المستقيم وقلة اضطباره على

(1) Egypt Past, Present, and Future. By Dr. Morton
Howell

صغائر المجاملات التي تعودنا أن نقرنها بالآداب الشرقية . فقد كان مسلكه خاليا كل الخلو من الكلفة والتصنع ، وقد تقدمنا في جلالة وهيبته الى حجرة المائدة مختارا لنفسه المكان الذي رأى باعتباره الضيف المميز أنه هو المكان الذي يليق به الى جانب صاحبة الدار . وبدأ الحديث في غير ما تردد ييقين الرجل الذي يعلم أن لديه ما يقال وما يسمع ، وكنا قد تفاهمنا من قبل فيما بيننا على اجتناب مواضع الجدل والمناقشات السياسية لا اعتقادنا أن زغولا يفضل أن يتمتع عن ابداء الآراء التي لاتروق مضيفيه ، ولكنه سرعان ما أرانا خطأنا وتطرق هو نفسه الى الموضوع بصراحة تامة لم تدع لنا شكاً في نفوره من الحكم البريطاني ، أو لم تدع لنا شكاً في العزيمة الصارمة التي انطوى عليها ذلك الضيف الكبير » (١)

وقالت الكاتبة الايطالية أنى فيفانتى في كتابها أرض كليوباترة «يبدولى الزعيم المصرى كما كنت أعرفه تماما في باريس منذ خمس سنوات مضت ، فلا العظمة ولا الاضطهاد ولا سلطان الحكم ولا النفي ولا السجن ولا الهتاف باسمه ولا الدس عليه ولا شيء مما جرى في هذه السنوات الخمس استطاع أن يحدث أقل تغيير في ذلك الوجه العبوس المائل الى السمرة أو يقلل من عظمة تلك القامة الطويلة النحيلة أو أن يضعف نور هاتين العينين القاسيتين الغارقتين تحت جبينه واللتين يشعر الناظر اليه أن نظراتهما تخترق صميم احشائه وتبحث عن طيات نفسه وأعماق فؤاده . ولقد حيانى تحية شعرية هادئة نطق بها دون ابتسام بصوت كأنه ينبعث من بعيد ، فتحركت لها نفسى وأثرت في أثر كبيراً ، فاردت اذذاك أن أعبر له بكل قوتي عن عظيم اخلاصى وأن أعرب له عن إعجابى وابته كل آلامى وأسفى لذلك الحظ القاسى الذى اصابه وأصاب وطنه فلم أستطع ، وكأنه فهم ذلك منى وعرف ما يجيش في صدرى

(1) A. Lifetime in Egypt 1879-1935 By mnabel Gaillard

ويدور في خاطري فرد على سكوتي هذا بابتسامة مشرقة نادرة تهلت على وجهه المتألم الذي هجره الابتسام ...» (١)

هذه الآثار التي كانت تقع من نفوس ناظريه من الرجال والنساء الأجانب هي الآيات على مكان تلك الشخصية بمعزل عن عبادة الجماهير ، أو بمعزل عن العصبية الوطنية ، فلو كان سعد في غير مصر ، لبرز فيها بروزه في مصر ، ولاستحق المحبة والمهابة ولو لم ينهض للقيادة التي تذكي النخوة وتجمع أهواء الشعوب

ومن الاضافة اللازمة هنا لتمام العلم بجوانب هذه الشخصية الرحبية أن نقرنها بالخصائص الذهنية التي كانت أظهر من غيرها في هذا الرجل العظيم . فهي الخصائص التي توأم هذه الطبيعة وتجري مجراها من الانتظام والاستقامة والوضوح والنفاز : قياس سليم وفتنة جيدة ، وملاحظة صادقة وذاكرة واعية يقظي ، لا يخطئ . قياسه الأمور ولا يرى شيئاً إلا أحسن ملاحظته وأحسن فهم الدلالة التي يدل عليها ، وقد ينتهي من قراءة مئات الصفحات ويذكر تفصيلات الوقائع الهامة منها ، وقد يمر به الاسم فيذكر ما يتصل به من الذكريات قبل عشرات السنين ... قرأ التحقيقات في قضية السردار وهي تستغرق آلاف الأوراق فحضرته بعد ذلك وهو يصحح للمحاميين فيها ما يسردونه عن بعض الشهادات ، وقدمت له يوماً رجلاً من قرية سلوى باقليم باسوان فما أسرع ما سمع الاسم حتى سأله : أأنت قريب فلان ؟ وفلان هذا كان صاحب قضية اشترك سعد في دفاعها قبل نيف وعشرين سنة ، ولم يحدث بعدها ما يذكره بها الا ذلك اللقاء

هي على الاجمال شخصية تكثر فيها الأنوار وتقل الظلال ، والأنوار التي تنبعث منها خليقة أن تريك سطوة البرق كما تريك صفاء الربيع .

ترجمة الاستاذ طه فوزي Terra Di Cleopatra, annie Vivanzi (1)

ثقافة سعد

كان سعد عملياً في ثقافته كما كان عملياً في مساعيه وأخلاقه ، فكانت مكتبته مكتبة الأزهرى القانونى الوزير ، لأنه نشأ فى الأزهر ، وجنح بعد ذلك إلى دراسة القانون . وانتظم بعد ذلك فى سلك الوزراء ورجال السياسة . فالكتب التى فى مكتبته كلها هى كتب فقه دينى أو فقه مدنى أو فقد دستورى أو كتب تجمع بين هذه الأغراض بجامعة الاشتراك فى دراسة الشريعة والاجتماع .

وإذا قرأ كتاباً فى غير هذه المباحث فغالباً ماتدعوه إلى قراءته حركة عملية تحوم حول ذلك الكتاب وتتصل بالسياسة أو بأمر من أمور الواقع الذى يشغل الأذهان . فقرأ كتاب « الاسلام وأصول الحكم » للأستاذ على عبد الرازق حين ثارت حوله ضجة المعارضين وأذنت هذه الضجة باسقاط الوزارة من جراء الأزمة التى استحكمت بين الاتحاديين والأحرار الدستوريين ، ومنهم الأستاذ على عبد الرازق . وقرأ كتاب « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين حين ثارت حوله مثل تلك الضجة وأذنت بمثل تلك النتيجة ؛ وكان يقرأ فى أيامه الأخيرة مطبوعات دار الكتب التى تهدى إليه ، تجديدًا لمادة اللغة التى كان يشعر أن السياسة شغلته عنها منذ زمن بعيد

درس بعض التراجم الشرقية وبعض التراجم الغربية ، ولكنه كان يرجع فى حكمه على الرجال إلى اختبارات عامة ومبادئ مجملة قلما تتناول التفصيلات أو المزايا غير المحسوسة . مثال ذلك ما قاله لمسيو « جايار » الذى كان يعنى بجمع آثار نابليون فى القاهرة : « ومن هو نابليون ! انه جزار » وما قاله عن عدلى وقد عرض الحاضرون لطريقته فى علاج المسائل الشعبية فقال سعد : « ان عدلى يكن ارسقراطى والاستقراطى يأخذ ولا يعطى . . »

وقلت له مرة ان الناس يقيسون عظمة السياسى بعظمة الدولة التى يخدمها وهذا قياس خاطىء . فربما كان فى دويلة من دويلات البلقان وزير أورئيس وزارة أكبر وادرى بالعلاقات الدولية من جراى أو مكدونالد قال أصبت . الحق يقال اننى ماشعرت وأنا أحادث مكدونالد الا ان الرجل واحد من أمثال أولئك المفتشين الانجليز أو المستشارين الذين نراهم عندنا فى الدواوين . . . وقد يكون الجانب المحسوس من مكدونالد فى السياسة والمراسم الشخصية كما قال سعد . أما الجانب الذى نعرفه من كتبه ومحاولات حياته الأولى فهو صفحة اخرى بغير نزاع

* * *

واللغات التى كان يعرفها هى الفرنسية فالألمانية فالانجليزية، ولدراسة كل لغة من هذه اللغات سبب من أسباب الواقع وداع من الدواعى العملية . فاما الفرنسية فقد تعلمها لأنها ضرورية لدارسة القانون ، واما الألمانية فقد تعلمها لانه كان يتردد على البلاد الألمانية فى رحلة الصيف ، وأما الانجليزية فقد شرع فى تعلمها منذ سنة ١٩١٩ ووجد اهتمامها فى سيشل لأنها لغة لازمة فى علاج المفاوضات والعلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا العظمى
ورأيت فى مكتبته بمسجد وصيف كتاب « ألمانيا الحديثة وتطوراتها »
لهنرى لختنبرجر

« L'Allemagne moderne, son evolution par Henri Liehtenberger »

قرأه حين شغل الحديث عن ألمانيا ونهضتها ومطامعها اذهان العالم المتحضر فى أبان الحرب العظمى ، ورأيت فى تلك المكتبة كتابا عن أصل الاعتقاد بالله الأستاذ سرتيانج أستاذ الفلسفة بالمعهد الكاثولىكى بباريس

Le Sources de La Croyance en Dieu, Par Sertillangeo
Professeur de philosophie a L institut cat holique de Paris

وخطر لى ن أسأله فى موضوعه - وكان الحديث يدور احدى الليالى على

اثبات وجود الله - فعلمت انه اقتناه ليقابل بين أدلة علماء الدين المسلمين وادلة علماء الغربيين من المتدينين وغير المتدينين على اثبات وجود الاله ، واستطرد الحديث في شعاب هذا الموضوع فكانت خلاصة رأيه وهو يرفع أصبعه الى السماء انه يؤمن بالعناية الالهية ، وتلك كانت عادته كلما جد في السياسة المصرية طارىء لا يقع في حسابان . فكان يقول « انها العناية » أو يقول : « ياما أنت كريم يارب » ويشير الى السماء .

وأعجب قراءاته طرأ قراءته للامير كروبتكين ومذهبه في الفوضى والغاء الحكومة وأين سعد من هذه الاودية السحيقة في أطراف الفلوات الاجتماعية ؟؟ بيد أنك حين تستطلع الامر ترى أنه لم يقرأه الا عجباً من أن يكون في الدنيا من يخرجون على النظام هذا الخروج ، وتشوفا الى الحجج العقلية التي يؤيدون بها مذهبها لا يلوح عليه أنه قابل للتأييد ، فهو اطلاع التشوف والامتحان والاستنكار ، وليس هذا الاطلاع بالذي ينفي المحافظة العملية في التفكير .

وبعد فان أوجز ما توصف به ثقافة سعد أنها ثقافة رجل خطيب بطبعه وتكوين فكره وملكاته . اذا اتصل بالناس صلة التفاهم والارشاد فانما يتصل بهم من طريق التأثير الشخصي والمخاطبة اللسانية ، ولهذا كانت موضوعات درسه كلها من الموضوعات التي تنفع فيها الخطب والمحادثات الشفوية ، ولم يتفرغ قط للتأليف في بحث من البحوث التي يحسنها خيراً من احسان بعض الكتابين فيها ، لأنه كان « شخصية » تؤثر في شخصيات ، ولم يكن دارساً يؤثر من طريق الاقلام والاوراق

نعم أنه وقف وهو دون العشرين على تصحيح كتاب لم يتم طبعه وهو كتاب الاخلاق لابن مسكويه ، ونعم أنه تفرغ حيناً لترتيب آيات القرآن على حسب الشواهد والموضوعات ، ولكنه لم يؤلف كتاباً مفصلاً فيما يعلمه

ويحيط به من الدراسات القانونية أو الاجتماعية ، ولعله تفرغ لترتيب آيات القرآن على حسب شواهدها وموضوعاتها ليستعين بها في مواقف الخطابة عند الاحتجاج والاستشهاد .

وقد خطر له في سنة ١٨٨٦ وهو محام أن ينشئ صحيفة باسم العدالة لدرس المباحث القانونية من الوجهة النظرية ، ولكن هذه الصحيفة لم تظهر وما كان ظهورها ليصرفها إلى الدراسات النظرية البحت ، وفيها مجال واسع للدراسات العملية كنشر الأحكام والوقائع والمرافعات

وهو اذا لم يخطب تحدث كأنه يخطب ، وفضل الاملاء على الكتابة لأن الاملاء ضرب من الخطابة ، فهو خطيب حيث يكتب على الطرس وحيث يلقي على الاسماع

سألني مرة : هل تخطب يا فلان ؟

قلت : قد تعودت القاء الدرس في التاريخ وأدب اللغة ، وفي الالقاء شئ من الخطابة

قال : نعم - ولكن الخطابة تبادل ، والقاء الدروس يأتي من ناحية المعلم ولا يشاركه فيه تلاميذه ، إلا أن تكون مشاركتهم بسرعة الفهم وحسن الاصغاء وهنا ذكرت أن سعداً كان أكثر ما يتدفق في خطبه عند ما يتعدى

التبادل بينه وبين سامعيه حد الشعور إلى المجازبة بالكلام . فاذا سئل ونوقش قليلا تفتح في القول وأخذ من طواع الملتفتين به ما يوحى اليه فنون المقال المناسب لذلك المقام ، وكان أسرع ما يكون إلى الافاضة إذا تكلم أمامه المتكلمون وأحسنوا التعبير والالقاء ، فاذا أجابهم بعد ذلك جمع أغراضهم كلها وتأهب للكلام كما يتأهب الفرس الكريم للايفاض في مجال السباق

وقال لي وقد دخلت عليه يوماً على أثر أيام توالى فيها خطبه وجهوده :
أسمعنا مما عندك ؟

قلت : إنما جئت أسمع من الرئيس

قال : ولكن الرئيس يريد أن يكون اليوم سامعاً . ثم ضحك وقال :

لا المعنى يحق أن يطلب الطرب ولا الخطيب يحق له أن يطلب الكلام ،
أليس كذلك ؟ وأخذ يتحدث عن الكاتب والخطيب ومزاج كل منهما فقال :
أن الكاتب تناسبه العزلة ويخاطب قراه من وراء حجاب فلا يراهم ولا
يروونه ، أما الخطيب فالاجتماع ميدانه ولرؤيته السامعين أثر في نفسه يستجيشه
ويهب بملكته

ثم قال : ان الكتابة أصبحت تتعبنى اكثر من الكلام . قلت يا باشا ان
بياناتك خطب مكتوبة . قال نعم . اذا أمليتها كانت كالخطب واذا كتبها
استحضرت موقف الخطابة

على ان الأمر الجدير بالملاحظة في خطب سعد وبياناته أنك تقرأ خطبه
فتجد فيها دقة علمية لا تجدها في أقوال الخطباء ، وتقرأ بياناته فتجد فيها رنة
بيانية لا يعنى بها في خطبه ، وتعليل ذلك عندي ان محضره المهيب الجذاب
يغنيه في موقف الخطابة عن الرنة الحماسية فيحرص على التدقيق ، وانه يجب
أن يودع بياناته روح الخطابة على البعد ، فيكون الخطيب فيه أيقظ من
الكاتب والمتحدث

فهو يعنى بالدقة حين يخطب ، ويعنى بالنغمة حين يكتب ، ولا يفوته
التمحيص في الحالتين

كتبت الآنسة النابغة « مى زيادة » تحية جميلة في ذكرى من ذكريات
سعد عنوانها : « ذكرى جبار الوادى » قالت فيها عن سعد الخطيب :
« سمعت سعداً متكلماً على المنبر فأدركت ثمة كيف الوجه العادى يصبح
أجمل من الجمال وأوفر إغراء ، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبان
فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف ، وكيف ينفتح الجفن الكشيف
المتهدل عن بؤبؤ العين فينجلى البصر حساماً استل من غمده وتشيع النظرات
أنصلاً تشق الصدور »

ثم قالت — وهنا موضع الملاحظة من هذه التحية — « وكيف يشذ

خطيب عن جميع أصول الخطابة ولا تصمد جميع بياناته للتحليل والتمحيص وهو مع ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضى يتقاذفه ويلهبه وأنت من نشوتك لا تفيق . وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء وتزجر خلاله العواصف لتنجلي فيه ارادة شعب يقول :
أنا ... إني موجود »

والأثر النفسى لخطابة سعد هو الأثر النفسى الذى وصفته الآنسة وصف النفس الحساسة والطبع المجيب ، لكنى لا أرى مسوغاً ظاهراً من خطبه الكثيرة لقولها « أن بياناته لا تصمد للتحليل والتمحيص » ... كل خطب سعد وبياناته تصمد للتحليل والتمحيص ولا تبدو عليها صفة واحدة كما تبدو عليها هذه الصفة الشائعة فى كل ما يقول

وأنى لا قلب الآن أمامى مجموعة من خطبه السياسية فى أعنف أيام النضال الحزبى ثم أتعمد أن أختار أقواها حماسة وغضباً فلا أجد واحدة منها تشدعن تلك الصفة الشائعة فى جميع خطبه وأحاديثه ومسامراته
وهذه خطبة له فى أيام النزاع على المفاوضات يقول فيها :

« ... الثقة التى شرفتنى الأمة بها لا يمكن أن تنعدم كما قلت لو فدكم بالأمس إلا فى واحدة من حالتين : إحداهما أن تعدل الأمة نفسها عن طلب حريتها واستقلالها وترضى الحماية ، وإنى أعيدها من هذا الخبال . والثانية أن يكون موضع ثقة الأمة قد خالف مبدأها ، فبدلاً من أن يسعى للاستقلال سعى فى غيره وعمل لسواه ، وفى هذه الحالة لا يصح أن يكون جزاؤه سحب الثقة منه فقط بل يجب أن تحكم الأمة عليه بالاعدام ويكون حكمها من أعدل الأحكام ، وإنى أبيع دمي إذا رأيت منى انحرافاً عن قصدكم أو تسامحاً فى حقوقكم أو خروجاً عن حدود المهمة التى عاهدتكم على القيام بها ، وما عدلت ولن أعدل عنها مادام فى عرق ينبض أو نفس يتردد ، وانى أحارب كل شخص يسير ضد هذه الخطة ويضع العقبات فى طريقها مهما كانت رابطته معنا

وحاله من الصداقة لنا . ولقد قاطعت كثيراً من أصدقائي لا لأسباب شخصية بل غيرة على القضية العامة وحرصاً على التمسك بحقوق الأمة . فكل من رأيت فيه تهاوناً في السعي وتواكلاً في العمل أو تسامحاً في الحق وأعيتني الحيلة في اصلاح شأنه قطعت بيني وبينه كل صلة ولو كانت أقوى الصلات وأمتنها ... أفعل ذلك غير آسف ، لأن حقوق الأمة لا تقبل مجاملة ولا مسايرة لصاحب «

فهذه خطبة متوجهة مرتجلة في ساعة لم تكن فيها دعوة الخطابة منظورة ولا مرجحة ، وكلها كما يرى القارىء كلام على العقاب وقطع الصلات وتحدى الخصوم . فأى حشو فيها ؟ وأى عبارة من عباراتها لا تثبت على التخصيص والتحليل ؟ بل أى عبارة لا تصلح أن تكون نصاً من نصوص القانون أو حكمة من حكم السلوك ؟ فيها ولا شك تأكيد وجزم واشتداد ولكن ليس فيها مخالفة للنطق وأصول التحرير والتخصيص . حتى حين عرض لقطع الصلات وهو معنى تنطلق فيه الألسنة ويقل الاحتراس لم ينس أن يقول : « وأعيتني الحيلة في اصلاح شأنه » شرطاً لقطع تلك الصلات بعد أن يتهاون المتهاون ويتواكل المتواكل ويتسامح المتسامح ، وكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث : التهاون والتواكل والتسامح لها معنى لا تؤديه الكلمتان الأخريان كأنه في معرض التقسيم والتفصيل لا في معرض الانذار والوعيد . واننا لنسمع اليوم زعماء الأمم يندرون خصومهم فاذا البطش والفتك والسحق والتحطيم وماقارب ذلك من الایعاد والارعاد جزاء عاجل لكل من اشتبهت فيه نظرة أو حامت حوله غيرة أو زلت به عثرة

بل حتى حين تسكلم عن سحب الثقة وخيانة الأمانة لم ينس أن يتم فيها الشروط القانونية التي لا بد منها في تقرير الجزاء ، فلا يكفي أن يقصر الوكيل في أداء الأمانة ليستوجب الحكم عليه بالاعدام ، بل يجب أن يقصر في أدائها ويعمل لغيرها

وقس على ذلك كل خطبة ، وكل حديث ، وكل وعد أو وعيد ، وأقول

ذلك عن يقين الاختبار . لأننى سمعت سعداً خطيباً ومتحدثاً وسميراً
ومناقشاً فلا أذكر فى كل ما سمعت شذوذاً عن قاعدة التدقيق المحكم فى كل
مقال .

وكان من عاداته أن يقطع الكلمات أحيانا فى أثناء الخطابة ، فينطق بها
متفرقة بين كل كلمة وما بعدها فترة وجيزة ، كأن يقول مثلا :

« ولقد قاطعت كثيراً من أصدقائى » لأنه
لا يريد أن يفوه إلا بالكلمة المعنية دون سواها على سهولة الفيض بالكلمات
عنده .

ولو أن خطيباً غيره قطع الكلمات ذلك التقطيع لجاز أن يفتر فى حضرته
اقبال السامعين ، ولكن سعداً كان يرسل فى نفوس سامعيه تياراً من السحر
والجاذبية يصل ما انقطع من الكلمات ويعلق الأسماع بشفتيه كيفما أبطأ أو
أسرع وكيفما وصل أو قطع ، وتلك هى ميزته « الشخصية » على كل
من سمعته من الخطباء ، ومن فتنة هذه المزية الشخصية للناس فى أيامه أن
نطقه بحرف القاف — وكان ينطقه بين القاف والكاف — غلب على
ألسنتهم فأهملوا التفخيم ليلفظوا بهذا الحرف كما يلفظ به سعد زغول
نعم هى مزية شخصية وليست مزية فنية يستفيدها كل مستفيد . وقد
صدقت الكاتبة الفضلى حين قالت « انه كان يشذ أحيانا عن جميع أصول
الخطابة » وينزع مع ذلك قلوب سامعيه

نعم . انك لا تقنع من كل خطيب بوقفة سعد الساكنة التى قلما ينقل فيها
قدما أو يتحول عن مكان أو يستعين بايماء غير مد الذراع أو رفعها فى الحين
بعد الحين . ولكنك تقنع من الشيخ المهيب بهذا السكون فيزيدك روعة
وتبجيلا ويغنيك بالنظرة الماضية والطلعة الحية عن الافراط فى حركات
الخطباء الشبان

وكذلك لا تقنع من كل خطيب بذلك الصوت الذى لا جهد فيه ولا

أكثر من التثنية والتنغيم ، ولكن « المزية الشخصية » في صوت سعدانه صوت رفيع لين الوقع على الأسماع يخفى فيه الجهد ويظهر الارتفاع الذي يعم أجزاء المكان ولو كان من أرحب ميادين الخطابة ، فهو صوت مرتفع لا شك في ارتفاعه . . . إلا أنك إذا نظرت إلى صاحبه وهو يهدر بالقول لم تر أوداجاً تنتفخ ولا ملامح تلتوى وتتغضن ، وأحسست بسهولة القول وسهولة الصوت فأحسست بالقدرة التي تلازم السهولة ، وبالسيطرة التي تملك الأسماع ، وليس بعد السيطرة على السامعين من مطمع لخطيب

وكذلك لا تعجبك من كل قائل تلك الكلمات الموزونة والأحكام المسبية والقضايا المقيسة ، ولكنك إذا وقع من نفسك توكيده موقع القضاء المبرم ، واشتعلت في نفسك شدته كما يشتعل الحريق المضرم ، واطمأنت بك عظمتها اطمئنان الطود الأعظم ، فهناك ليست الكلمات الموزونة كلمات موزونة ، وليست الأحكام المسبية أحكاماً مسبية ، وليست القضايا المقيسة قضايا مقيسة ، بل هي عاصفة جارفة كأقوى ما تكون المبالغة في اجتراف السامع ، وكأضنى ما تكون الصرخات الجاحات في خروجها على المنطق والتحليل والتعليل ، لأنها قطعة من نفس قوية انتقلت اليك فنقلت معها القوة كما هي في جوانح صاحبها ، فلا حاجة بها إلى مبالغة المبالغين ولا جموح الجاحين

هذا شأنه في الخطابة وهذا شأنه في الحديث ، واني لأذكر اني سمعته يصف اجتماعاً واحداً ثلاث مرات في جلسة واحدة ، فكادت أعتقد أنه كان يحفظ الوصف لقلة الاختلاف في ألفاظه الجوهرية

كان ذلك يوم انعقاد المؤتمر البرلماني في الكنتنتال لعهد الوزارة الزبورية ، وذهبت الى بيت الأمة فسمعت سعداً يصف ما كان في اجتماع ذلك اليوم لبعض مهنتيه . ثم انصرف الزائرون وجاء بعدهم آخرون ، واستبقاني يومئذ للعشاء فحضرت فوجاً بعد فوج من زائريه ، وسمعته يعيد وصف الاجتماع وماحدث قبله وفي أثناءه وبعده ثلاث مرات

ثم جاء محام من أعضاء الوفد كان في الاجتماع فقال له سعد مازحاً : « والله
أني مكسوف من العقاد . فقد أسمعته حديثاً واحداً ثلاث مرات ، فتول أنت
شرح ما رأيت »

فما هو إلا أن شرع ذلك المحامي في شرحه حتى استوقفه سعد مرة بعد
مرة . مراجعة لبعض الكلمات أو ترتيباً لبعض الوقائع ، وتوخياً في كل
أولئك للتدقيق وسرد الأمور كما حدثت بلا تصرف أو تحريف ، فقال المحامي :
يظهر يا باشا ان من حظ الزائرين أن يسمعوا منك الحديث مرة ، ومن حظ
العقاد أن يسمعه أربع مرات

وإذا كان كبار المحامين — رجال الفصاحة والدقة الفقهية — لا يسهون
من ملاحظاته في سرد وصف لا ينشر ولا يبنى على الخطأ فيه ضرر يذكر
فللقارىء أن يقيس على ذلك تمحيصه للكلام في الخطب والأحاديث . وإنما
عذر الأنسة مى فيما وهمت أنها لم تسمع سعداً إلا قليلاً وان الخطباء الذين
يستهوون الجماهير دون أن ينسوا التحليل والتمحيص قليلون ، لأن الاستهواء
بالمبالغة والتهويل كثير . أما الاستهواء مع التزام المنطق ووزن الكلام فلن
يتاح إلا لخطباء لهم مثل ما لسعد من سحر المحضر وهيبة المنظر وقوة
الروح المغناطيسية ، وهم أقل من القليل

حدثنا الشيخ محمد زيد بك رحمه الله عن بعض نوادر سعد أيام الطفولة
فقال انه — أى الشيخ زيد — كان قريناً لفتحي زغلول في المكتب ، وكان
سعد قد ذهب إلى القاهرة ليحضر الدروس : في الجامع الأزهر ، فكان إذا عاد
في اجازة الصيف امتحن تلاميذ المكتب في قراءة القرآن وطلب اليهم أن
يشكلوا أواخر الكلمات ولا يقفوا عليها بالسكون

قال الشيخ زيد : وأذكر من امتحانه لنا في قراءة القرآن هذه الآية خاصة :
« واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فإنه كان يسألنا لماذا هذه الضمة

على نون اليقين فلا ندري ، وكنا نعجز عن وضع الحركات على الحروف
الأخيرة إلا أن نرجع إليها في المصحف الشريف . لأننا كنا نحفظ القرآن
ولا نفقه قواعد الاعراب

والذين سمعوا سعدا يخطب يعرفون من هذه الحكاية كيف تتأصل خواطر
الطفولة وتتمكن في طبائع العقل وخصائص التعبير بعد ذلك بأزمان طويلة
فإن سعدا كان في خطابه يعرب أو آخر الكلمات ولا يسكنها على عادة الفريق
الأكبر من خطباء العربية ، ولا شك أن عاداته هذه من عاداته تلك أيام الطفولة ،
ولا شك أيضا أن العادتين معاً ترجعان إلى طبيعته الأصلية التي تمتزج بجميع
أحواله وعاداته ، وهي الكشف عن الرياء وحب الامتياز فقد علم أن
الذين يسكنون أو آخر الحروف يفعلون ذلك جهلاً بحركاتها في الاعراب ،
ويدتغون السلامة في التسكين اعتماداً على القاعدة المشهورة : «سكن تسلم» ... !
علم هذا فلم يشأ أن يفلتوا بهذه الحيلة وأن يعتصموا منه بهذا الرياء ، وأحب مع
ذلك أن يعلم هؤلاء الصبيان انه لم يذهب إلى القاهرة عبثاً وانه قد عاد منها
بشيء يعرفه هو ولا يعرفونه : وهو قواعد الاعراب ... فظهر هنا سعد زغلول في
خاطرة الطفولة كما كان يظهر في كل مرحلة من مراحل العمر وكل ميدان من
ميادين المنافسة : وأي عمل من اعمال سعد زغلول الكبير أو سعد زغلول
الصغير لم يكن باعثة حب الامتياز وكرهه الرياء ؟

على أننا نعود فنقول إن سعداً الخطيب هو سعد كله في الحقيقة بجميع عاداته
وأطواره وخلائقه وملكاتة . فما من خصلة ولا ملكة إلا ومردّها إلى الخطابة
أو هي واجدة لها مظهراً من المظاهر في الخطابة : قوة المعارضة وجلاء البرهان
في المحاماة والسياسة والقدرة على الاقناع أو القدرة على التأثير وقيادة الجماهير ...
كل أولئك هو سعد الخطيب سواء تكلم في القوم أو لم يتكلم . وينبغي أن نوسع
نطاق الخطابة على هذا الاعتبار إلى أبعد مداه وهو القدرة على التأثير كيفما
كان هذا التأثير ، فعلى هذا الاعتبار يدخل في معنى الخطيب معنى الزعيم أو معنى

القائد الغالب على من دونه من الأصحاب والأعداء

وكان سعد يقرأ الشعر ويأتي في خطبه وأحاديثه بأبيات أو شطرات يترنم
بها ويستشهد بمدلولها . ومنها قول المعري

هذا كلام له خبي . معناه ليست لكم عقول

ومنها بيت عبدالله بن الزبير يريد مالكا الأشر

اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي

ومنها قول البارودي

خلقت عيوفا لأرى لابن حرة على يداً اغضى لها حين يغضب

ومنها هذه الشطرة لعدي بن زيد العبادي

« لو بغير الماء حلقي شرق » (١)

وكان يقرأ المتنبي ويحفظ له أبياتا كثيرة ويستشهد بها في بعض الأحاديث
ويذكر أقوال المتنبي ويعزوها إليه إذا استشهد بها أحد أمامه . ولكنه على
الجملة لم يكن يتكلم كثيرا في الشعر والشعراء ، وهمس لي مرة كأنه يمزح : كلام في
سرك . أنا ليس لي في الشعر « وقال مرة أخرى « إنما أحب الشعر الواضح
المبين . أما الشعر الذي يحوجني الى التنجيم فلا أستطيعه » وكان يرى أن
شعر الحكمة أفضل الشعر وأعلاه ، ولهذا يفضل المتنبي على سائر الشعراء .
رأيت مرة في عباءة محمّدة كان يلبسها أيام كان طالبا بالأزهر واحتفظ بها
على سبيل الذكرى يعاود لبسها في الشتاء بالمنزل من حين إلى حين . فخطر لي
أن أسأله : ألم يحاول قط وهو في الأزهر أن ينظم الشعر على عادة الطلاب
الأزهريين في ذلك الزمان؟ فلم يجبني جوابا مباشرا ولكنه قال : إنهم قبضوا
عليه بعد الثورة العراقية واتهموه بالاشتراك في جماعة سرية هي جماعة الانتقام
التي زعموا أنها تألفت لقتل أعداء الثورة والشهود على رجالها ، ولم يكن عند

(١) بقية البيت : كنت كالنصان بالماء اعصاري

محافظ العاصمة من دليل على التهمة الا بشطرة من بيت وجدها مكتوبة
بغير خطى على غلاف كتاب : وهى « لى فى ضمير الدهر سر ظاهر » ؟...
فكان المحافظ يقول ما هو هذا السر ان لم تكن فيه اشارة إلى جماعة سرية ؟...
وهذا ما صنعتها بنا شطرة واحدة لم ننظمها فكيف بالشعر لو نظمناه ؟

وحضرته يوماً فى مسجد وصيف يستمع إلى شيخ من أبناء إقليمه ينشده
قصيدة فى مدحه من الشعر الذى لا يغبط الممدوح عليه . فاصغى اليه حتى
فرغ من انشاده ثم قال له : إنهم يقولون يا شيخ فلان إن الفاضى يعمل قاضى...
فهل سمعتهم قالوا إنه يعمل شاعر ؟ ... ولا أدرى هل هذا رأيه فى المديح
الردىء وحده أو هو رأيه فى كل مديح

أما الكتابة فسعد يعد فيها من الرواد الذين سبقوا المعاصرين باربعين أو
خمسین سنة إلى أسلوب الكتابة الحديثة . ونعنى به الأسلوب السهل الدقيق
الخالص من قيود السجع والفضول ، وأثره فى تجديد الأسلوب العربى منذ
اشتغاله بالوقائع المصرية قبل الثورة العرابية أثر جدير بالتنويه فى تاريخ
الأدب العربى الحديث

وهو يستسهل الشائع أحياناً فيخالف القواعد الصرفية والنحوية وتزداد
هذه المخالفة فى كتاباته الأخيرة على كتاباته الأولى أيام التحصيل والدراسة ،
غير انه يدقق فى اختيار كلماته ما استطاع التوفيق فى تدقيقه بين أحكام
الفصاحة ومفهوم الجمهور . وأغرب ما ورد فى كلامه الحديث كلمة « الامعات »
ولكنها أصبحت من المألوفات بعدما تناقلتها الأفواه وتساءل عن معناها
جمهرة القراء

ومن أمثلة الاستسهال للشائع كلمة « يمكن له » التى كانت ترد فى
بعض خطبه ورسالاته ، وقوله فى خطابه الى الدكتور حامد محمود :
« انكسرت سنة فى طقم أسنان عاطف بك » وقوله فى ذلك الخطاب : تخصص
لكل واحد من إخوانى فى الشهر ثلاثين جنيه تقريباً » وقوله فيه : ولما

وصلت الى السفينة استقبلني كومنذائها على السلم « الى أمثال ذلك مما يقل في بعض الخطب والرسائل ويكثر في بعضها على حسب حالته من الارتياح وتوخى الألفهام ، وربما استحسن الكلام بالعامية في بعض الخطب بعد الشروع في الكلام بالفصحى ، فيقول لسامعيه مازحاً « إن هذا « النحوى » يتعبني أحياناً فتعالوا نتحدث كما نتحدث في كل ساعة » ولكنه لم يكن قط ينسى الاحتفال بصياغة بياناته الهامة ، فيرتقى بها الى غاية الوسع من الايقاع والبلاغة ، وينقحها ويعيد كتابتها ثلاث مرات أو أربعاً في بعض الأحيان

وله في الأدب والنقد آراء الذهن السديد الذى يتجه الى القصد القويم بغير عناء كثير : جرى الحديث فى أساليب بعض الكتاب فى يوم عيد والمجلس حافل بالأدباء والفضلاء فقال رحمه الله « اتنى أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فاذا هى جمل مفهومة لا بأس بها فى الصياغة ، ولكنى أتتبع هذه الجمل الى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ، ولا أعرف مكان احداها مما تقدمها أو لحق بها ، فلعل هؤلاء الكتاب يبيعون بالمفرق ولا يبيعون بالجملة ؟ » قال الشيخ المنفلوطى وكان حاضراً : يغلب يا باشا أن يشيع هذا الأسلوب بين الصحفيين الذين يكفون ملء الفراغ ، ولا تيسر لهم المادة فى كل موضوع .

فابتسم الباشا وقال للشيخ : انك يا أستاذ تتكلم عن الصحفيين وهنا واحد منهم ، ثم التفت الى وقال : مارأيك يا فلان ؟ قلت : هو ما يقوله الشيخ المنفلوطى مع استدراك طفيف .

قال : ما هو ؟ قلت ان هذا الأسلوب هو أسلوب كل من يتصدى لملء فراغ لا يستطيع ملئه سواء كتب فى الصحافة أو فى غير الصحافة . . . وعاد الشيخ المنفلوطى فقال : ان « العقاد » لا يحسب من الصحفيين لأنه من الأدباء . قال الباشا : أو كذلك ؟ ثم تفضل بوصف موجز لأسلوب كاتب هذه السطور ليس من حقنا أن نرويها

واستطرد الكلام الى الايجاز والاطناب فقال الباشا : ان الايجاز متعب
ولكن الاطناب مريح ، لأن القلم يسترسل فيه غير مقيد ولا ممنوع . وقص
علينا قصة رجل كتب الى صديق له رسالة مسهبة ثم ختمها بقوله : « اعذرني
من التطويل فليس لدى وقت للايجاز » . . .

وعقب عليها بقوله : ان هذا الاعتذار قد يبدو عجيباً لمن لم يمارس الكتابة
أما الذين مارسوها فهم يعلمون صعوبة الايجاز وسهولة التطويل
وجاء ذكر المحسنات والشغف بها فقال رحمه الله : إن المحسنات حلية
والشأن فيها كالشأن في كل حلية . ينبغي أن تكون في الكتابة بمقدار والا
صرفت الفكر عنها وعن الكتابة . وعندى ان المقال الذى كله محسنات
كالخلة التى كلها قصب . لا تصلح للبس ولا للزينة

وكنا عنده يوماً وفي المجلس صروف وحافظ ومكرم فجاء ذكر كتاب
حديث فقال الباشا : إن عيب صاحبه كثرة الاستعارة . ثم قال ما أظن
صاحبه يريد ما يقول ، لأن الذهن الذى يملك معناه يملك عبارته بغير حاجة
كثيرة إلى المجاز

قلت يا باشا إن الاستعارة ما برحت دليل الفاقة في المال وفي اللغة

قال هذا معنى حسن . ولذلك أنت لا تستعير ! ومضى يقول : إننى أفهم
الاستعارة للتوضيح والتمكين ، ولكنى لا أفهم أن تكون هي قوام الكلام
كله . لأن الذهن يطلب الاستعارة ليستعين بها على التحديد ، فاذا وصل إلى
التحديد كان في غنى عن الاستعارة وعن المجاز ، وكان يقول هذا الرأى
وأسأله في إتمام بعض جملة لأننا متفقان عليه جد الاتفاق

ولما كتبت الفصلين اللذين ظهرا في «المراجعات» عن المنفلوطى وفرقت
بين الكاتب والمنشى . ووفعت منزلة الكتاب على منزلة المنشئين ناقشني في هذا
التفريق وهذه التسمية فقال : إن الانشاء - فيما يبدو له - هو أعلى من الكتابة
لأنه خلق وابداع ولا يشترط في الكتابة أن تكون كذلك . فالمنشى كاتب

وزيادة والكاتب قدياً بشيء من عنده وقدياً ببيضاة غيره . قلت إنما عنت
الاصطلاح ولم أعن الأصل في وضع اللغة ، والانشاء عندنا هو تمرين التلاميذ
على صف الكلام وتمييق الألفاظ فهو بهذا المعنى دون الكتابة في مراتب
الأدب ، والذي ينشئ يحفل بلفظه وتنزيده أما الذي يكتب فله فيه معناه
يفرغه في القالب الذي يؤديه ... فاجاب دولته : ما أحوج الاصطلاح إذن
إلى تغيير أو تفسير

ولك أن تقول على الاجمال أن آراءه في النقد الأدبي من هذا القبيل
كانت كأقوم ما تكون آراء رجل لا ينقطع للنقد ولا يتوفر على الصناعة
الأدبية . فهي آراء قوامها الذوق السائد والقياس المعقول ، وجانب الملاحظة
عليها هو جانب الملاحظة على نظائر هذه الآراء

ويسأل سائل في هذا السياق ، هل كان سعد مشغوقاً بفن من الفنون الجميلة ؟
فأقول إنه كان يميل إلى السماع ولكن لا إلى حد الشغف ، وميله إلى الغناء
أقرب إلى جيل عبده الحمولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى دون من تبعهم
من المعاصرين

أما التصوير فكان يحسبه من وجاهات الأمم المترفة كوجاهة الرجل
الغنى بالآثاث الفاخر والسمت الجميل . ولم يقتن صورة فنية من صور
المناظر الطبيعية أو صور المعانى الرمزية ، ولا أذكر أنى سمعته يتحدث عن
الصور والتماثيل تحدث المشغول بهذه الأمور . ففي مكتبته وحجر استقباله
صور شمسية له ولصهره مصطفى فهمى باشا وللسيدة قرينته وأخيه وجمال
الدين الأفغانى ومحمد عبده ولورد كرومر وبسمارك وغيرهم من الأصحاب
والمعارف المصريين والأجانب ، وليس فيهما غير ذلك رسوم أو نقوش من
أعمال الفنانين

وهو على هذا كان سريع التلبية الى تشجيع الفنون الجميلة اذا فاتحه في ذلك أحد المعجبين بها من أصدقائه وأنصاره ، وقد أسدى اليها في أيام وزارته ورأسته لمجلس النواب أيادي مشكورات

فلا الفنون الجميلة كانت من شواغل طبعه ، ولا هي كانت من نقائص طبعه . انما كان مصروفا عنها الى ما فطر عليه وجذبته الحوادث اليه بغير هيام وبغير نفور .

الوفاة

كان فصل الانتقال في الشتاء الى الربيع متعباً لسعد . فلزم الراحة نحو ثلاثة أسابيع من شهر ابريل ، ونصح له الأطباء بتبديل الهواء في الصعيد فأمضى في النيل ثلاثة أيام عاد بعدها الى القاهرة ليستأنف عمله في بيت الأمة وفي مجلس النواب، وكان يجاهد نفسه ليثابر على حضور الجلسات ومراقبة الخلاف عن كشب . بين دار المنسوب البريطاني والحكومة المصرية - ومعها مجلس النواب - فيما يطرأ من الأزمات الدائمة التي يفتأ يثيرها اللورد جورج لويد وفي مقدمتها أزمة الجيش

وازداد شعوره بجهد العمل يوماً بعد يوم قبيل انتهاء الدورة البرلمانية فكان يحضر حيناً ويغيب حيناً ويعانى مشقة بالغة في متابعة الأعمال البرلمانية وغير البرلمانية ، وكثير منها كان يجرى وراء الستار ، وهو الذي يجهده ويضنيه ولا ينشط الى الخوض في دخائله وخوافيه .

وقبل اليوم الأخير للدورة البرلمانية استجم في المنزل ليستطيع أن يشهد الجلسة الأخيرة ويلقى فيها كلمة الختام التي تعودها منه النواب . غير أنه لم يقو على التحضير كدأبه في المناسبات الرسمية واجتزأ بكلمة قال في مطلعها :
« حاولت عند اقتراب انتهاء هذا الدور أن أعد خطبة كما فعلت في الدور السابق ، ولكنني لم أتمكن من ذلك لضعف في صحتي » وختمها قائلاً :

« لقد كنت أود أن أتحدث إليكم كثيراً ، ولكنني أشعر أنني تعبت وأتعبتكم ، ولا أريد أن أجعل احداً يمل مني . ولكنني قبل أن أختم كلامي أرجو منكم حينما تغادرون هذا المكان أن لا تنسوا وظائفكم . . . لا تنسوا أنكم نواب دائماً ليحدوكم هذا العلم الى البحث عن آمال مواطنيكم واحتياجاتهم

ورغباتهم . لكي تبدوها للحكومة مباشرة أو بطريق هذا المجلس في الدورة القادمة ان شاء الله .

« والآن استودعكم الله جميعا وأسأله لكم الصحة والعافية ، وأرجو أن أراكم قريبا وأن يهني الله جل وعلا من القوّة ما يعينني على مشاركتكم في خدمة البلاد حتى نصل بها الى ما نوده جميعا »

وغادر القاهرة بعد يوم الى بساتين بركات في بلبس فوصل اليها مساء يوم الأحد السابع عشر من شهر يولية ، وقضى بها عشرة أيام في سكون ورياضة وادعة استرد بها كثيراً من نشاطه وانشراح صدره ، وأعرب عن اغتباطه بهذه الرحلة يوم سفره من البساتين بالتبرع لفقرائها بمائة جنيه من ماله تذكراً لهذه الزيارة ، ثم برحها الى مصطافه في مسجد وصيف

وكان قد ظهر على أذنه اليمنى احمرار خفيف لم يؤلمه في بادىء الأمر ولكنه شعر بالألم منه بعد أيام حيث كان بمسجد وصيف . وأخذ هذا الألم يضايقه في الثانى عشر من شهر أغسطس فظن بعض الأطباء أنه التهاب أو « اكزيميا » وعالجه على هذا الاعتبار . وفي الخامس عشر منه انتشر الاحمرار وانتقل الى جلد الرأس وأخذت الحرارة فى الارتفاع فدعى الدكتور وديع لبنان لفحصه فقرر أنه الحمرة وانه من الواجب أن ينتقل سعد الى القاهرة الآن أو يبقى بمسجد وصيف الى انتهاء العلاج ، ثم دعى الدكتور عبد العزيز اسماعيل بك واشترك معهما الدكتور حامد محمود والدكتور احمد شفيق صهر السيدة الجليلة أم المصريين . وكانا يرددان على مسجد وصيف فى زيارة الرئيس ، فتمين من فحصهم جميعاً أن الرئيس مصاب بداء الحمرة ، وبدأوا علاجه على هذا الاعتبار ، فحقنوه بالمصل المقاوم لهذا الداء ، والأرجح أن الاصابة بالحمرة طارئة ، وان الاحمرار الأول كان من أثر التهاب او اكزيميا سهلت نفاذ جراثيم الحمرة الى الجلد ، لأن المعروف عن هذه الجراثيم أنها لا تمسكث فى الجسم بغير فعل أربعة أسابيع .

ثم حسنت حاله في اليومين التاليين وعادت الحرارة الى الهبوط ، فاستحسن
الأطباء الحاضرون نقله الى القاهرة ليكون بها على مقربة من وسائل العلاج ،
واختلف المقيمون بمسجد وصيف يومئذ في الانتقال أو استمرار العلاج
بمسجد وصيف الى أن يتم الشفاء أو تهدأ سورة الداء . فأما الموافقون على
الانتقال الى العاصمة فقد فضلوا لما يتوافر فيها من وسائل العلاج الحاضرة
التي لا تتوافر في الريف ، وأما الذين كرهوا هذا الانتقال فقد استكثروا
ما فيه من الجهد على شيخ مريض ، ولم يروا صعوبة في اقامة الأطباء بمسجد
وصيف ولا في اتصالهم من ثم بالعاصمة كلما طلبوا وسيلة من وسائل الفحص
والعلاج ، وخشوا أن ينزعج الشعب لهذه المفاجأة وأن يدخل في روع
الرئيس أنه على خطر قريب فيثقل عليه ذلك ويسوء أثره في خاطره وجسمه ،
والقرية بعد أنقى هواء وأبعد من الضجيج والحركة وأصلح من المدينة للعلاج
وكان كاتب هذه السطور على هذا الرأي فأبدى لآخوانه ما يعن له من
الأسباب ، ثم استأذن في العودة إلى القاهرة

وصعد بعض المعارضين في الانتقال إلى الطبقة العليا حيث يلقون الرئيس
ويلحون في رجائه أن يؤجل هذه النقلة ولو بضعة أيام ، وان لا يجشم نفسه تعباً
قبل تمام الشفاء ، فتبسم رحمه الله قائلاً : إني معكم لا أرى ضرورة للسفر .
ولكن الكثرة ليست معنا فهل نخرج على النظام ؟»

وصحت نيته على السفر صباح الجمعة التاسع عشر من شهر أغسطس ،
وكأنما أراد أن يغلب المرض بالعزيمة فأبى أن يعتمد على أحد في نزوله ،
ورفض أن يحمل الى الباخرة على كرسي يجره الخدم . وقال : اما المشى واما
الركوب كما يركب الناس .. ! وجيء بمركبة صغيرة يجرها جواد واحد فركبها
الى الباخرة وأبى أن يعتمد هناك على أحد في صعوده الى المقصورة

سارت الباخرة على هينة وهو لا يشكو شيئاً الا المضايقة من
العرق الغزير في المقصورة المقفلة . لأن الجو جو الفيضان في شهر أغسطس

والرطوبة فيه كثيرة . فاضطر الى تغيير قميصه مرات ولكنه وصل الى القاهرة وهو مستريح وكان أول سؤال له عند ما قاربها : أرانى فى صحة جيدة فلماذا إذن هذه العودة ؟ كما تخامر الشك أن تكون العودة لخطورة الحال ، وهو لم يعلم بحقيقة مرضه الى أن أدركته الوفاة

وأصدر الأطباء بياناً للناس عقيب الوصول قالوا فيه : « ان الالتهاب الذى أصاب صاحب الدولة الرئيس الجليل سعد زغلول باشا فى أذنه ثم فى رأسه قد زال بحمد الله مع الحمى التى نشأت عنه ، ودولته الآن فى دور النقاهة ولكنه يحتاج الى الراحة التامة ، ويمكنه أن يفارق غرفته ويقابل زواره بعد قليل من الأيام ان شاء الله »

واطرد التحسن الى يوم الاثنين ، وصمدت البنية المكينه لمغالبة الداء الويل تلك الأيام . الى ان كانت ليلة الاثنين فاستيقظ حول الساعة الثانية بعد نصف الليل وهو يعانى ألماً فى المعدة ، ثم ذرعه القيء واشتد به التعب وارتفعت الحرارة حتى بلغت فى الصباح أربعين وخطين ، وعاده الأطباء فأوجسوا أن يكون ذلك علامة على سريان الجراثيم وسرعة فعلها فى البنية ، وداخلهم الرجاء أن يكون ذلك طارئاً عارضاً فى الأمعاء ، فعالجوه علاجاً يقاوم سموم الداء ويخفف هذا الطارئ المفروض . ولكن الحرارة لم تهبط عن الحادية والأربعين ، وارتفعت فى صباح الثلاثاء الى الحادية والأربعين وثلاثة خطوط... وسألته السيدة صفية ، والدكتور حامد محمود والدكتور أحمد شفيق عنده يعودانه : كيف أنت ياسعد ؟ فنظر اليهم فى هدوء وتسليم وقال : « أنا انتهيت » وكانت آخر ما فاه به رحمه الله

واستمرت الحرارة فى الارتفاع حتى بلغت الحادية والأربعين وسبعة خطوط ، ولو حظ احتباس البول فحقنه الأطباء بمادة الجلو كوز ثم ضعف النبض دفعة واحدة بعد انتظامه فى جميع الأدوار الماضية فغلب اليأس على الرجاء ، وعاده الأطباء للمرة الأخيرة فى التاسعة والدقيقة الخامسة

والأربعين ، ونزلوا الى المكتب لكتابة تقريرهم الأخير . وانهم كذلك
إذ دعى فتح الله بركات باشا الى غرفة خاله وهو يجود بنفسه في غيبوبة لم
تنقطع منذ الصباح . فاشرأبت الأعناق وأمسك الناس أنفاسهم ينتظرون .
وما هي إلا دقائق معدودات حتى عاد فتح الله باشا الى المكتب يمشى كالشبح
الهائم شاحب الوجه مذهول العينين . ولم يجرؤ أحد على سؤاله مخافة أن يكون
الجواب المحذور ، ولكنهم علقوا أنظارهم جميعاً بعينه ولبثوا شاخصين
ينتظرون . دقيقة واحدة أو دقيقتين ، ولكنهما كاتتا من أزمان الأبد في روع
الشاخصين المنتظرين . وفي تلك اللحظة ارتفع صوت ناحب عند الشرفة
المطلّة على المكتب ، فضرب فتح الله باشا يديه على ركبتيه ، وجلس وهو في
جمود الأموات

ومضت ثوان أخرى ، مضت والناس في سكون عميق مرهوب ، وكان
كل ما في بيت الأمة وكل ما حوله على أعقق ما يكون السكون ، لاصدى في
المنزل ولا في الطريق طوال اليومين الماضيين ، حذراً من ازعاج المريض
العظيم المأمول الشفاء . فلما ارتفع الصوت الناحب وجم الحاضرون ثوانى
قلاتل . كأنما كانوا يستطيّلون الأمل المدبر ، أو كأنما كانوا بين تصديق
وتكذيب . ثم انفجروا صيحة واحدة بالنشيج والعجيج ، فلم يكن أرباب
من ذلك السكون إلا هذا الضجيج الذي اتصل صدهاء في لحظات معدودات
بكل مكان في القاهره ، وكل مكان في أرجاء البلاد

كان الارتياح أشبه الأشياء يوصف ما أصاب الناس من ذلك النبأ الهائل .
لأن الأذهان لم تتمهد لسماعه بل تمهدت لسماعه نقيضه ، وكان كل نبأ منظوراً في
تلك المرحلة من مراحل السياسة المصرية الاموت سعد زغلول باشا : الدستور
قائم لا يعلم مامصيره ، والمفاوضات على القضية المصرية ماضية لا يعلم
ما مصيرها ، والمساعي كثيرة : والفروض أكثر ، وسعد وحده هو ميزان
الأمور بين ذلك البحر اللجج من المساعي والفروض . على أن الناس بغتوا

بالروعة في غير تفكير ولا انتباه لحقيقة ما يروع ، يستوى منهم من يكثرث للسياسة ومن لا يكثرث لها أقل اكرثا . ففي تلك الليلة دخل الى مسرح من مسارح اللهو في القاهرة ناع يسير بالنبا المخيف حيث ساقه قدماء : مسرح من مسارح القصف والغناء لا يقصده الرواد إلا للهو والمجون ، وتوسط الجميع ثم وقف وصاح وهو لا يدري لم يحمل النعي الى ذلك المكان : « أيها الاخوان . البقية في حياتكم ! الباشامات » فما لفظ بها حتى صرخت المغنية وألقت بالعود من يديها وولت كأنما هي هاربة ، ووجه الحاضرون هنيهة ثم تسللوا مجتمعين ومتفرقين

أما رجال الحكومة — ومنهم أنصاره وحلقاؤه — فقد علموا أن أقصى ما استطاع في تشييع سعد زغلول قليل ، فتشاوروا فيما يصنع لتشييعه بما ينبغي له من التجلة والولاء . وصدرت الأوامر بأن يحمل النعش على مدفع في رعاية الضباط والجنود ، وأن تطلق المدافع أثناء الطريق ، وخطر لبعضهم أن تكون شعائر الجنازة « رسمية » من جميع الوجوه ، حتى ما يكسى به النعش من الأوسمة والأنواط والشارات . وبرزت هنا حرم الفقيد بعظمة في الجنان لا تجمل بأحد كما تجمل بقرينة سعد زغلول . فأبت أن يكون لنعش الفقيد غطاء غير راية البلاد ، وأن يزينه وسام غير جلال الموت ، أو جلال الخلود وأصبحت القاهرة في يوم التشييع على حال نصفها هنا كما وصفناها وفي حى الساعة في ذلك اليوم المشهود . فقد كتبنا بعد عودتنا من تشييعه نقول :

« من نسيج الأحلام ومن تعلات الغرور هذه الحياة ، ينتقل المرء فيها من منظر الى منظر ومن حادث الى حادث كما ينتقل النائم من رؤية الى رؤية ومن أضغاث أحلام الى أضغاث أحلام . فالقاهرة التي شهدت يوم سعد منذ ست سنوات هي القاهرة التي شهدت يوم سعد منذ يومين ، والجموع التي توافت للقاءه الأول هي الجموع التي توفت لوداعه الأخير ، ولكن شتان داع وداع

وشتان لقاء ووداع . وما أبعد البون بين المشهدين حتى في حلم الحالمين وأوهام
الواهمين

أصبح الناس يوم الأربعاء وأكثرهم لا يعلمون من أبناء الرئيس الفقيه
إلا أنه قضى النهار متعبا كما يتعب كل مريض في بعض أدوار السقام . وكما
كان يعتريه التعب رحمه الله في بعض ساعاته ثم ينصل منه ويعود إلى جهاده
محصد العزيمة مستجمع المضاء . وقد كان من خوارق حب هذه الأمة سعدا
وشعورها بحاجتها إليه ولزومه لها أنها كانت تقدر كل شيء وتنتظر كل شيء
إلا أن رجلا في نحو السبعين أضناه الجهاد والألم واصطلحت عليه الأسقام
والعلل يمكن أن تدركه الوفاة وينفذ فيه قضاء الموت في كل مولود ... فاذا وسوس
للناس هذا الخاطر مرة في بعض ساعات الاشفاق والحذر أخطروه في أذهانهم
ليستهولوه ويستبعدوه ويطردهوه إلى ناحية سحيقة من الفكر لا تقبل المناقشة
والتفكير ، وسلهوا أن الموت جائز على سعد كما جاز على الأبطال والعطاء من
قبل . ولكن كما يسلمون القضايا العقلية لا كما يسلم الانسان أمرا له وقع وأثر
في عالم الحقيقة . فلما شاع في مساء الأربعاء أن الرئيس يعاني من مرضه بعض
العناء غلب الأمل على النفوس في هذه المرة غلبته عليها في كل مرة . ولم يشأ
أحد أن يتوجس من هذا التغير في حالة المريض العزيز شرا أو يتوقع من
ورائه النهاية المحذورة . إلا الذين كانوا على مقربة من سرير السقام فقد أخذ
الروع يتسرب اليهم من صباح يوم الثلاثاء وخالط رجاءهم جزع الخطب الداهم
وشك المززع المستغيث . ولكن حتى هؤلاء ظلوا يرجون في وجه اليأس
ويعرضون عن شبح الموت متغاضين أو متجاهلين . فلما انتشر النبأ المشؤوم
صباحا بوغت به الناس وتلقوه بين مصدق ومكذب وهم لا يعلمون كيف
يصدقون وكيف يكذبون . وعز حتى على الذين سلهوا واستسلموا للحقيقة
التي لا مناص منها أن يوطنوا قلوبهم واخلادهم على هذا التسليم بعد أن وطنوا
له العقول . فان سعدا ملء تلك القلوب والاخلاق يعمرها ذكره ويتردد فيها

كلامه وعمله . ومن أصعب الصعب على النفس أن تصدق أو تقبل أن إنساناً
ينقضى ويموت وهي تحسه هذا الاحساس وتمتلي به هذا الامتلاء . فالعقل في
تحليله وتعليقه يقبل هذا ولا ينكره . أما النفس المهيجه فلها منطق غير هذا
المنطق وفي أعمالها صوت غير هذا الصوت ، يقول لها أبداً إن الحياة التي
تعمرها بالمحبة والاعجاب لا تموت ، ولن تموت .

وأخذ الناس يتجمعون ويتفرقون بغير وجهة وعلى غير هدى ، ثم عرفوا
لهم وجهة يتجهون إليها حين قارب موعد التشييع وأن أوان الشروع في تنظيم
الجنائز . ففريق منهم وجد مكانه على جوانب الطريق من بيت الأمة إلى
القبر الذي يوشك أن ينزله صاحب ذلك البيت ورافع مناره وقبلة زواره
وفريق قصد إلى بيت الأمة ليشارك في تشييع الجنائز أو ليتزود النظرة
الآخيرة من الرفات المسجي في نعشه . وما اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر
حتى كانت القاهرة كلها ومن قدم إليها من الأقاليم محشورة بين البيت والمقبرة...
بين دار سعد وقبر سعد . فلا يتحرك السائر في تلك الطريق إلا اندفاعاً وزحاما
ولا تقطع مسافة الدقائق منها إلا في الساعات . ثم كانت اللحظة المرقوبة
المرهوبة : لحظة ينزل فيها الفقيد الراحل من بيته إلى غير عودة ... لحظة يفارق
فيها سعد البيت الذي رده اليه الأمة كلها أبعده عنه قوة الأقوياء وشدة
الأشداء ، وهامى ذى تنقله منه بأيديها إلى حيث شاء أقوى الأقوياء ،
وأشد الأشداء .

أفاق الناس . سعد يبرح داره ! سعد يفارقهم إلى غير لقاء . . يا للهول
القاصم ويا للفرع الأكبر ... كأنما نسوا هذا . كأنما كانوا في حاجة إلى مذكر
به فوق ما هم فيه من كآبة وذهول

عادت الحقيقة اليهم جائحة فادحة في صورة ذلك النعش الأخضر ينحدر
من بيت الأمة في تودة وسكون ، نعش سعد وفيه سعد . لاشك في ذلك
ولا مرأ . فيالها من لحظة تطيش فيها العقول ويذهب فيها حلم الحليم وصبر

الصبور ، صيحة واحدة لا فرق فيها بين رجل وامرأة ولا بين شيخ و غلام .
أحزمهم في تلك اللحظة من ذكر الله وصاح لاحول ولا قوة إلا بالله . وما
يقولها وهو يفقه لها معنى ويتأسى فيها بأسوة ، وإنما هي كلمة مقولة في هذا
المقام ، تنبعث من الأفواه عفوا فتختلط بالصياح الممزق والابنين الصارخ
المذبوح . . .

ثم سار النعش تتعالى الاصوات حوله ويتصاعد النواح . وياعجباً لمنطق
العواطف في موقف الحزن والبلاء : اختلف المشيعون بعد فترة فسكن منهم
من سكن واتصل الضجيج بين الآخرين : فأما الذين وقفوا على جوانب
الطرق فقد كانوا يتلقون النعش ويودعون بالتفجع والعيويل لأنهم علموا
أنه الوداع الذي ما بعده وداع والفراق الذي ما بعده لقاء . وأما الذين
مشوا خلف النعش فقد علتهم السكينة وطواهم رواق واسع من الصمت
والوجوم ، فلا همس ولا ركز إلا خفقات الأقدام وزفرات الألم
المكتوم . أترأهم أنسوا بالفقيد الذي ما يزال بينهم فنادى عنهم هاجس
الفراق وعاودتهم طمأنينة اليقين بالقرب من سعد إلى حين ؟ هو ذاك
فيما أخال . فانهم ما انقطعت عنهم هذه الطمأنينة المختلصة عند جامع قيسون
وما شهدوا النعش يتحرك من مكانه ليدكرهم باقتراب مغيبه حتى ثارت الثائرة
الهاجعة وتدفقت الجماهير كالسيل الجارف إلى الفقيد المنذر بالرحيل : هذا
سعد بين أيديهم فلماذا يسلمونه للهوت ؟ ولماذا يفرطون فيه هذا التفريط ؟
لا عقل هنا ولا تدبر ولا نصيحة ولا اصغاء ... هذا سعد ونحن نريد سعداً
فمن الذي يحول بيننا وبين ما نريد ؟ هذا سعد ونحن نريد سعداً فلماذا نرسله
بأيدينا إلى ذلك المكان السحيق ؟ كذلك تفكر العواطف المجنونة إذا عصفت
بالعقل محنة الحزن الأليم . وأقسم ما ثاب هؤلاء الهاجمون إلى أما كنهم لأنهم
تابوا إلى الرشاد ، وإنما رجعوا عن بغيتهم كما يرجع السيل صدمه السد القوى
المتين . رجعوا لأن الشرط نافحهم هناك حتى عجزوا وتقهرقوا ، فأمدهم
الجيش بكل قوته التي رابطت حول ذلك المكان

ثم عدنا إلى المدينة . إلى القاهرة بغير سعد ، إلى القاهرة اليتيمة . فوالله
للقاهرة في تلك الليلة أشبه بوحشة القبر من ذلك الضريح الذي تلقى الأانس
والطمانينة في رفات الفقيد المتروك ، ووالله لقد كانت الاسماع يطرقتها كل
صوت فاذا هو بكاء ونحيب . وقد كانت السيارات الذاهبة الآية تهتف
بأبواقها في وسط تلك الوحشة فكانما هو نعيب متصل ، ينطق به قلب
يشعر ولسان مشلول عن المقال «

اللقاء الأول

واللقاء الأخير

لقيت « سعد زغلول » أول مرة صباح يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٨ بمكتبه فى وزارة المعارف العمومية يوم ان كانت فى ديوانها المعروف بدرب الجمايز

و كنت يومئذ أعمل فى تحرير صحيفة الدستور ، وهى زميلة اللواء لسان حال الحزب الوطنى الذى كان يوالى الحملة على سعد وينتقد سياسته فى وزارة المعارف أشد انتقاد . و كنت فى التاسعة عشرة أى فى سن الجليل الناشئ الذى استولى عليه « اللواء » وجعله من قرائه وجنده ومصداق مدحه وهجائه ، ولكنى كنت أعجب بسعد وأرجو لمصر خيرا كثيرا على يديه ، ولا يسىغ طبعى أن يكون مثل هذا الرجل ممن يخون عهده وينسى واجبه وينقاد على غير بصيرة لأمر الموظفين الانجليز فى الوزارة ، كما كان يقال عنه فى ذلك الحين

وزادنى ثقة به أنه كان من أصحاب « الأستاذ الامام » الشيخ محمد عبده و كنت لآثاره متبعا وبسيرته جد معجب . فلما اشتدت الحملة عليه وشاعت شيوعتها بين قرائها أخذتى حمية الشباب ورأيت من الحق على أن أدفعها عنه وأمهّد لظهار الحقيقة بما فى وسعى ، فلم أجد أفضل من حديث مع الباشا مدعوم بالوثائق والبراهين التى تدفع اللبس وترفع الغشاوة عن نظر السواد ، وقلت فى مقدمة ذلك الحديث حين نشرته : « أصبحوا - أى القراء - يتساملون عن الضجة القائمة حول التعليم ومبلغها من الصدق والاخلاص ، لأن عليها يتوقف مستقبل أبنائهم وذريتهم فاذا بهم يسترشدون ولا يرشدون ، لذلك أردت أن أرجع إلى رجل اعتقد فيه الصدق والغيرة على مصلحة هذا البلد

وأرى أن في قوله خير حاسم لهذا النزاع الذي استطار شرره واستفحل ضرره ... ذلك الرجل هو سعد زغلول باشا ناظر المعارف »

ولم أكن رأيت الرجل قبل ذلك ولا نظرت إلى صورة له لأن الصحف اليومية لم تكن قد تعودت نشر الصور لمشاهير الرجال في تلك الأيام . وكل ما كنت أعرفه عن شخصه هو ما سمعت عن عدله في القضاء ووصل أثر من آثاره إلى بلدتي اسوان في قضية من القضايا انشق لها البلد قسمين ووضع فيها الحق لكل ذى عينين ، وما سمعت عن مبادئه الحرة في إبان الثورة العراقية وهو بعد في مقتبل الشباب ، وعن ملازمته الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ، ووفائه لهذين الامامين الكبارين

فغدوت إلى مكتبه في موعد الحديث وأنا أصوره لنفسى في الصورة التى تطابق ما سمعت وعلمت من خلاله . والعجيب أن الصورة الجثمانية لم تخطيء الظن فى الكثير من هيئته وسمته ، إلا انى كنت أتخيله ملتجيا وهو لم يكن كذلك ولا أحسبه أرسل لحيته فى ماضى حياته ، وأحسبني تخيلت ذلك لأننى استبعدت أن يتلذذ لجمال الدين ومحمد عبده ولا يرسل لحيته كما كانا يرسلانها ، وهو من الأزهريين

فلما دخلت المكتب استقبلنى واقفاً وأشار إلى كرسى أمامه فجلست . وسألنى : أعرفت الشيخ محمد عبده ؟ قلت نعم ! قرأت رسائله وتفسيراته وترجمة حياته . قال . هل رأيتيه ؟ قلت رأيتيه مرتين . قال أين ؟ أفى الأزهر ؟ قلت لا . بل فى اسوان . قدمنى إليه أستاذى فناقشنى فى علومى المدرسية وبعض الآراء العامة ثم سمعت منه بشرى طيبة

قال : ماذا سمعت منه ؟

قلت : انه التفت إلى الأستاذ وقال وهو يرت على كتفى « ما أجد هذا أن يكون كاتباً بعد » ثم أوصانى أن لا أقنع من العلم بوظيفة الحكومة فتبسم الباشا وقال : أرى أن نبوءة الامام تتحقق . واستطرد إلى كلام

عن الشيخ يثني عليه ويحمد مناقبه ، وإنما سألتني الباشا ذلك السؤال لأتني
ذكرت في الخطاب الذي طلبت فيه محادثته اتني أكبر جماعة الامام أن يضل
لها قصد في الوطنية ، وان كثرت حولها النائم والوشايات

ثم جرى الحديث في موضوعات شتى . ولكنه كان حديثين نشر أحدهما
والآخر لم ينشر ، لأنه ورد عرضاً في أثناء الكلام ولم يكن هو المقصود
بالمحادثة ، ولأن الباشا نهى الى مواضع منه لا يجب ان تذاع في الصحف ،
واذ كر الآن من كلماته التي لم أنشرها أنه أتني على مصطفى كامل ووصفه بالجد
والاخلاص ، ولكنه أنكر الضجة التي قامت بعده ووصفها بأنها « كفورة
القازوزة لا تلبث أن تلعو حتى تهبط » . . .

وجاءت مناسبة في عرض الحديث فعلمت انه يلقي مشقة في تغيير عادات
الموظفين الأجانب والوطنيين على السواء ، فالأجانب تعودوا أن يستأثروا
بكل شيء والوطنيون تعودوا أن يسلموا في كل شيء ، وربما منحهم السلطة
وهم يتهيئون استعمالها ويرجعون بها الى الأجانب عن رغبة وطواعية ، ومن
حوادث العناية الذي لقيه من الموظفين الأجانب أن مدير المكتبة الخديوية
— وكان ألمانياً — أتني أن يمثل أمراً أصدره اليه فكرر الباشا الأمر فتشبهت
المدير بالاباء : وأرسل اليه الباشا انذاراً كالذي يرسل الى صغار الموظفين
فكبر على الرجل أن يعامل هذه المعاملة ولجأ الى الوكالة البريطانية لأنه كان
أشبه شيء بموظف دولي في الحكومة المصرية . اذ كان منصبه يحفظ للألمان
كما تحفظ ادارة المتحف المصري للفرنسيين باتفاق عرفي متفاهم عليه ، وكان
الرجل من أصدقاء البلاط الألماني وله دالة على الأسرة الامبراطورية في برلين...
فتعقدت المسألة وأبدت الوكالة البريطانية رغبتها في سحب الانذار ، فكان
جواب الباشا انه يخير المدير بين أحد أمرين : قبول الانذار أو الاستقالة ، وانه
لا يستطيع أن يعمل في نظارته اذا لم تنته المسألة بأحد هذين الأمرين . فأذعن
المدير وعدل في تصرفاته بعدها عن دعوى الاستقلال بالمكتبة والعمل فيها
كما يشاء هو لا كما تشاء النظارة

وإذا سألت نفسى الساعة عن الأثر الذى تركته فى خلقى تلك المقابلة الأولى فأنا أذكر انى خرجت من عنده وأنا أشعر أنى كنت أمام رجل مفتوح النفس كبير العزيمية يحب الانصاف للناس ويحب الانصاف لنفسه كذلك ، ولهذا يسوءه النقد ويحسن عنده وقع الاعتراف بالفضل . غير أن النقد يناله فى موضع قوة لا موضع ضعف : يسوءه لأنه يعطله لا لأنه يزعجه ، أو يسوءه لأنه يشعر بالغضب من الكذب والعدوان لا لأنه يشعر بالفقر الى الثناء ، وقد يسهل عليه أن يصنع الخير ولا يلقى جزاءه . فأما أن يصنع الخير ويغتصب منه صنيعه اغتصاباً واقتداراً فذاك الذى لا يقره ولا يسكن اليه . لأنه يجعله خاضعاً لرحمة أعدائه ويلبس فى ضميره مكان العدل والانصاف ، ومكان القدرة على مكافحة البغى والاعتساف

وقد لمحت منه سروراً لا يخفى ولا هو حاول أن يخفيه عندما علم أنى أعرف له فضله وأنى قادم اليه يباعث من الاعتراف بذلك الفضل لأجلو عنه التهم وانفض عنه الأكاذيب ، وهى اريحية مألوفة فى كثير من العاملين الذين يمتحنون بنكران ذوى الاغراض

خرجت ذلك اليوم وفى نفسى صورة وافية للمصلح الذى كنت أعجب به على غير رؤية . فعرفت سعاداً رجلاً مهيب الطلعة قوى العارضة فصيح العبارة يملأ الناظرين والسامعين ثقة وتوكيداً ويشعرهم بقدرته ويشعر هو بتلك القدرة ويعتد بها مفطوراً على ذلك فى غير صلف ولا تكلف ، وتسمع حجته الدامغة فى صوته الشجى فتجد للنطق عذوبة الفن وسلاسة التلحين ، بل تسمع سليقة الرجل كلها تتحدث اليك عن يقين لا ينتهى عندك الا الى يقين . فهو فى كلامه وعمله شىء متسق منسجم كامل تقبله جملة أو تدعه جملة ولا تحس عنده بنشوز أو تردد ، وقد كان عند ما قابلته المرة الأولى يمشى الى الخمسين من عمره ، ولكننى لو سهوت عن العيان لحظة لحسبته فى عشرة الثلاثين

ودارت الأيام دورتها واعتزل سعد الحكومة ورشح نفسه للجمعية التشريعية وتجرد لقيادة الحركة الوطنية ونفى من مصر وعاد إليها ثم نفى منها مرة أخرى وعاد من المنفى ، فلم ألقه في خلال ذلك كله الا مرتين : الأولى حين خطر لي أن أنتظم في بعثات الجامعة المصرية وأردت أن يكون الامتحان مباحا لجميع الطالبين ، والثانية حين قدمت اليه ديوانى الثالث الذى أهديته اليه فأما في المرة الأولى فقد رفض طلبي ، وأنا أعتقد أن رفضه لم يكن حتما لزاما لآتى لم أطلب إلا أن أدخل الامتحان مع الممتحنين ثم أنتظم في البعثات الجامعية إذا كنت من الناجحين ، فأبى سعد إلا أن تكون لدى الشهادة المشروطة قبل الامتحان . قلت : أولو كانت هذه الشهادة غير ضرورية للنجاح ؟ قال : وماذا نصنع ؟ لتكن كفاءتك ما تكون . فهل في وسعنا أن نرشح للأستاذية في الجامعة — وأذكر أنه نطق اسمها بالفرنسية — من ليست عنده الشهادات التى ينتظم بها الطلاب في تلك الجامعة ؟

غير أن رفضه لطلبي لم يمنعنى أن أبادر إلى نصرته بما استطعت يوم تجرد لقيادة الأمة في القضية القومية . فقد كنت يومئذ أقضى الشتاء بأسوان مستشفيا لا أقوى على الكتابة في الصحف ولا على الاشتراك في الحركة ، فرأيت أن لا يفوتنى تسجيل المشاركة فيها بما استطعت ؛ وأهديت اليه الديوان الذى طبعته في الصيف ، ثم قدمته اليه قبل عودتى إلى أسوان ، وكانت هذه كما أسلفت هى المقابلة الثانية قبل اتصال الصداقة السياسية بينى وبينه

ثم اتصلت المقابلات بيننا من سنة ١٩٢٤ اتصالا لا تقطعه إلا فترات قليلة من سفر أو مرض أو نحو ذلك . فما تغيرت الصورة الأولى إلا بما أضاءها من وهج الحركة الوطنية ونفخار الفداء وحماسة الاعجاب والاجماع من المعجبين .

وكان اللقاء الأخير في مسجد وصيف قبيل الوفاة بأيام

ذهبت إلى مسجد وصيف لأول مرة في ذلك العام ، فراقني منها أول
مما قاربتها هواء صاف جميل لا كالهواء الرطب الذي يهب على شواطئ البحر
ولا كالهواء الجاف الذي يهب علينا في صحراء مصر الجديدة : قوام بين هذا
وذاك ، فيه لين وفيه جفاف ، أو هو كما كان سعد « هواء حنون »

وراقني أكثر من ذلك ما يوحيه اليك المكان من شعور العزلة والسكينة :
يخيل اليك أنك في واحة معزولة بين آفاق بعيدة . نعم في واحة لا تحيط بها
رمال ولا نجود ووهاد ، بل مروج فيح لا ينتهي الطرف إلى مداها من حيثما
نظر إليها . فهي محجوبة وراء الجسر والأشجار تحس أنك سكنت منها إلى مكان
خاص منفرد وان لم تنقطع عما حولها . وتحس أنك محوط فيها بجو من الحب
والعطف يجعلها كالقبلة الميممة من جميع الأنحاء ، وكنا نقاربها فيقابلنا
الفلاحون بالتحية على غير معرفة كأنما كل ما هنالك وكل من هنالك قرابة
يجمعها حب صاحب المكان ، وما تحيتهم هنالك حين تعبر بهم سيارة
تمضي إلى تلك الوجهة إلا الهتاف « ليحي سعد » ... فنسمعها ونردد لها
لهم باسمين

والفلاحون على مسافات بعيدة من الضيعة يعنون بالطريق فيمتطعون
برشها وتنظيمها تخفيفاً على زوار الزعيم المحبوب ؛ وقد رأيت أطفالهم هناك
لا يكاد أحدهم يبلغ العاشرة وهو سارح بجاموسته أو بقرفته يلبح الزائرين
فيرفع صدره فخوراً ويمد عنقه هاتفاً : « يحي سعد » ! مرة واحدة ... كأنما
هي اصطلاح التحية . ولا يلميه عنها اجفال الدواب من السيارات
ولم نعجب حين علمنا أن هذه القرية والقرى المجاورة لها أقل بلاد الريف
شقاقا وجريمة ، لشعور أهلها بجرمة ذلك الحرم الذي يحبونه ويجلونه

فاذا انتهيت إلى الضيعة نفسها وإلى منزل الرئيس فيها فأنت تحت جناح
وارف ظليل ، وأنت عند المنزل الذي يستريح اليه النزير : هنالك ينبوع المحبة
الفياضة الذي تجتمع حوله الجداول . فكل ما في البيت حنان ورعاية

وطمانينة ، يسهر عليها ذلك القلب الكبير قلب السيدة الجليلة التي سميت بحق
أم المصريين

والمنزل من طبقتين ، يقيم الرئيس في الطبقة العليا ويستقبل زائريه ويتناول
طعامه في الطبقة الأرضية . وعلى مقربة من المنزل دار للضيافة تتسع لخمسة
أو ستة من الضيوف الذين يستقبلهم للبيت . ويطل كلاهما على حديقة المنزل
وبستانه وفيهما الأزهار ودوالي العنب وأشجار الثمار

وكان الرئيس قد استعد للراحة صيف ذلك العام لأنه عانى في أوائل
الصيف ضعفاً لازمه ثلاثة أسابيع ، ولقى نصبا في رأسه مجلس النواب إلى
ختم دورته السنوية ، فأعد نفسه في المصيف لراحة مستحقة بعد ذلك
العناء الطويل في مثل سنه ، ولا سيما وهي راحة قصيرة الأمد في انتظار
ما تأتي به المفاوضات بين ثروت وشمبرلين ، وما يعقب المفاوضات من جهد
جهيد في حالي الفشل أو النجاح ، ولم يتعباً لسعد قبل ذلك العام أن يهدأ في
المصيف منذ بدأت الحركة الوطنية في اعقاب الحرب العظمى ، لأنه كان
يقضى الصيف بين نفى أو معركة انتخابية أو مناظرة حزبية أو سفر للمفاوضات
فأما وقد جاء الصيف مرة والوزارة المؤتلفة قائمة والبرلمان المؤتلف
موجود والمفاوضات لا تزال في دور التمهيد فلا بأس بالراحة والاستجمام
واغتنام الفرصة العابرة التي قلها تتاح

وعلى هذا أمر الرئيس أن لا يلقاه إلا من يدعوهم إليه أو يأذن لهم في
الزيارة . واستثنى من ذلك الفلاحين أصحاب المظالم ، وبخاصة من كانت لهم
شكايات عن القطن والأرز والماء ، لأن الصحف لغطت بحديثها وألقى بعضها
اللوم على وزير الأشغال ، وهو من الوزراء الوفديين وله صداقة حميمة بأحد
المقربين إلى سعد من خاصة أقربائه ، وكان سعد يعلم أن ذلك القريب يحمي
الوزير ويلطف شكايات الشاكين من أعماله . فأحب أن لا يحجب عنه أحد
من أصحاب تلك الشكايات

إلا ان حافظا (١) رحمه الله كان يستبيح لنفسه من الجرأة والفكاهة معا أن يمنع حتى هؤلاء أو يوصيهم باجتنب الحديث في القطن والأرز والماء بين يدي الرئيس ، ويقول لهم : ان لم تعجبكم هذه الفدادين العطشى التي تشكون منها فها توها لنا نحن لانجد فدانا واحدا ريان أو عطشان فاحمدوا الله واذا أفلت إلى حضرة الرئيس واحد من هؤلاء المتحدثين عن القطن والأرز والماء نظر إليه حافظ في غيظ وحرده كأنه الكاهن الغيور يحمي محرابه من الواغلين ، وحاول جهده أن يقطع عليه الحديث أو يستعجله إلى الانصراف

جاء مسجد وصيف وكيل اقليم من الاقاليم البحرية فظفك «سعد» يسأله عن مناوبات الري وما يقال عن مظالم الأرز وزراعة الثلث وما إليها ، وطفق الرجل يشرح الحالة بشيء من المبالغة والاطناب ، ونظر حافظ إلى الرئيس فاذا به يتجهم وينقبض ويوشك أن يثور بأولئك الذين يحجبون عنه الحقائق أو يموهونها ثورة لا تحمد عقباهما عليهم ولا عليه

فاستدار حافظ من الباب الآخر وقال للوكيل : أنت تقوم حالا ! ..

فارتاع الرجل وظن أنه أخطأ في حق الرئيس ، ورجح عنده هذا الظن أنه رأى تجهم الرئيس وانقباضه فأيقن أنه لم يعرف من خلائقه وعاداته ما يعرفه مجالسوه ، وفي مقدمتهم حافظ ابراهيم

وهم الرجل بالنهوض والانصراف ولكنه رأى الرئيس يعيد عليه السؤال وينتظر الجواب . فارتبك أيما ارتباك ، ولبث لا يدري أيقعد أم ينهض ، وحافظ من ورائه لا يرحمه ولا يني عنه ، ويقول له مرة أخرى في لهجة الجزم والوعيد :

قلت لك يجب أن تقوم حالا !

فتمتم المسكين بضع كلمات واستأذن للانصراف

قال سعد بعد انصرافه : عجباً ما خطب الرجل ؟ انه كان يتكلم حسناً .
فماذا دهاه ؟

(١) حافظ ابراهيم الشاعر المعروف

قال حافظ : دهاه مغص فجائي ، وهو يعتذر لمولانا الرئيس !
وكأنما كان سعد قد تنبه لخروج حافظ ورجوعه فقال :
جزاك الله يا حافظ . ما أظن هذا المغص الا من . . . توليد الخيال !

وكانت المتعة الكبرى في رياضات مسجد وصيف تلك المناوشات التي
لا تنقطع بين حافظ. والدكتور محبوب ثابت ، الطبيب المعروف وعضو
مجلس النواب

ومن المعلوم أن الدكتور محبوبا كان يومئذ مشغولا بأمرين اثنين
لا ينفصلان : أحدهما وزارة الصحة التي يتمناها ويعتقد أن الانجليز يتوعدون
بالشر اذا تولواها ، لأنه من المطالبين الملحين في المطالبة بالسودان
والأمر الآخر زوجة غنية شابة من بيت عريق . أو كما قال حافظ :

يرغى ويزيد بالقافات تحسبها	قصف المدافع في أفق البساتين
من كل قاف كأن الله صورها	من مارج النار تصوير الشياطين
قد خصه الله بالقافات يعلمكها	واختص سبحانه بالكاف والنون
تغيب عنه الحجى حيناً وتحضره	حيناً فيخلط مختلاً بموزون
لا يامن السامع المسكين وثبته	من كردفان الى أعلى فلسطين
بيننا تراه ينادى الناس في حلب	إذا به يتحدى القوم في الصين
ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل	لكنها عبقریات الاساطين
يبعث ينسج أحلاماً مذهبة	يعنى تفاسيرها علم ابن سيرين
طوراً وزيراً مشاعراً في وزارته	يصرف الأمر في كل الدواوين
وتارة زوج عطبول خدلجة	حسناً تملك آلاف الفدادين
يعفى من المهر اكراماً للحيته	وما أظلمت من دنيا ومن دين

ولبلى الدكتور محبوب شغله الله بالوزارة والزواج في الوقت الذي
كان فيه حافظ. ابراهيم بمسجد وصيف ، فما من يوم ينقضى ولا ليلة الا على

رسالة مختلقة من الزوجة المنظورة ، أو شرط لها تشتطه في هندام الدكتور
أو منام يحتاج الى تفسير ، أو أشاعة تترامى عن الوزارة الموعودة ، والدكتور
في كل ذلك يقول : ما بيننا ياسيدى وبين الوزارة الا زارة من زارات سعد
فاذا الانجليز ينثنون عن عنادهم صاغرين

فيقول سعد : حسن . ولكن لماذا أزار يادكتور؟

وكل زائر جديد يصل الى مسجد وصيف فهو مشترك طوعا أو كرها في
مناورة مبتكرة يتبلى بها الدكتور

جاء يوما الدكتور نجيب اسكندر من القاهرة — وكان البطريق قد توفي
قبل ذلك بأسابيع — فالتف به الضيوف وقالوا له : اسمع يادكتور : انك
لم تحضر الى مسجد وصيف للسؤال عن الباشا ولكنك حضرت لدعاء
الدكتور محبوب الى مرافقة الوفد المسافر الى الحبشة لاستفتاء أهلها في
اختيار البطريق الجديد !

قال الدكتور نجيب : ما هذا الكلام ؟ الدكتور محبوب عضو في وفد
قبلى لاختيار البطريق ؟

قالوا : نعم . هو ذاك . وهو بعد شأن الدكتور يصرفه كما يشاء ،
فمالك ولشؤونه ؟

ونزل سعد بعد ساعة فاذا بالدكتور نجيب يمثل الرواية أحسن تمثيل
قال : يا باشا ، إني قادم لاستشارة دولتكم في أمر يتعلق بالدكتور محبوب
فاشرأب الدكتور محبوب وهمس متاقلا : ماهو ياسيدى ؟
فأجابه الدكتور نجيب : السفر الى الحبشة !

قال الدكتور محبوب : وهل فرغنا ياسيدى من السودان حتى نشغل
أنفسنا بالحبشة ؟

قال الدكتور نجيب : انما تسافر لسؤال الأحباش عن رأيهم في اختيار
البطريق الجديد

فرد عليه الدكتور محجوب متبرماً : ولماذا لا تسافر أنت وأنت بهذه المهمة أولى ؟

قال الدكتور نجيب : هكذا وقع الاختيار

فخفق الدكتور محجوب وزمجر قائلاً : دعونا من هذا العيب ... دعونا في الجد الذي نحن فيه ، وخشى المتآمرون أن تفشل المناورة فخطر الخبيث منهم أن يستفز الدكتور الى الحرص على المهمة والمبادرة بقبولها فقال :

ومع ذلك ياباشا لا أظن الدكتور محجوباً يصلح لهذه المهمة الخطيرة فالتفت اليه الدكتور غاضباً وقال : ماذا ؟ ماذا تقول ياسيدي ؟ لا أصلح لهذه المهمة ؟ أتقول اني لا أصلح لماذا ياسيدي لماذا ؟ فقال الخبيث : لأنك تتحدث عن السودان فتوقعنا في أزمة مع الحكومة الانجليزية .

فصاح به الدكتور : ياسيدي نمسك عن ذكر السودان ، ونسلكم عن المدارس والتعليم

قال : إذن تكون الطامة اكبر . أليس العرف قد جرى بالتمهيد بالمدارس والتعليم لفتح مناطق النفوذ السياسية ؟ فعاد الدكتور يقول : ونمسك يا ولدي عن المدارس والتعليم أيضاً ، ونسلكم عن الصحة

قال الباشا : وهل ضروري يا دكتور أن تتكلم ؟ أنت ذاهب للاستفتاء في اختيار البطريق . فلماذا لا تقصر عمك على ما أنت ذاهب لأجله ؟ ثم قال ضاحكاً : أراك قد قبلت ورضيت وعهدنا بك منذ لحظة أنك أبيت ونفرت

قال الدكتور : لأجل خاطرک يا باشا نقبل والله كل شيء ... نقبل ياباشا نقبل . ومن يصلح لها غيرنا ... لقد شربت القهوة في دير السلطان أيام الخلاف عليه بين القبط والأحباش . فأنا ابن بجدتها . نعم أنا ابن بجدتها ! ولأجل خاطرک ياباشا نذهب الى أقصى مكان

وفض الباشا الحوار في هذه المهمة الخطيرة بقوله : الآن قد انحلت المشكلة
وحرمت المهمة على غيرك ما دمت قد شربت القهوة في دير السلطان ...
لم لم تقل ذلك من البداية يا دكتور ؟
وحدث بعضهم صباح يوم أنه رأى الدكتور في منامه على ناقة ورأى رجلا
يرفع اليه ورقة وهو ينحن ليأخذها ، ووراءه جحفل كبير من الحمير
فقال الباشا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ... فمن
هنا يعلم تفسير الأحلام ؟

قال حافظ : أنا أفسرها وأبشر الدكتور سلفا
قال الدكتور : وفيم البشارة ياسيدى ؟
قال حافظ : بالوزارة فهي الناقة ، وبأمر التعيين فهو الورقة التي تنحنى
لتأخذها !

فسأل أحد الحاضرين : بقي شيء يا حافظ قد نسيته . فما هذا الجحفل
الكبير من الحمير الذي كان وراء الناقة
فلم يتردد حافظ أن قال : وهل في تفسير ذلك مشقة ؟ هم ولا ريب ...
ناخبون

وعلى هذا النمط كان ضيوف الرئيس يزجون أوقاتهم في ذلك الجو
الرائق وتلك العزلة السعيدة . فاذا فرغ الرئيس من رسائله وتوجيهاته فأما
الأحاديث والذكريات وأما هذه المناوشات أو المخترعات التي لا يسلم منها
أحد ولا يأمن على سهوة أن تصديه قرعتها ويدور عليه دورها . وليس
الرئيس بمستثنى من قضائها إذا لزم الأمر وحكمت القافية كما يقولون ، ففي
ضحوة من الضحوات ذهب فريق من الضيوف مع الرئيس الى الساقية
التي يجلس اليها في أثناء الرياضة اليومية وتختلف فريق آخر في حجرة المكتب
التي فيها التلفون ينتظرون رسالة هامة ... فلما عاد الرئيس تلقاه أحدهم

في جد ووصانة وقال : يادولة الباشا وفد من القاهره يستأذنون في السفر
الى دولتكم

قال : هل كتبت أسماءهم ؟

قال : نعم . ومضى يتلو من ورقة في يده : فلان وفلان وفلان وفلان .
جماعة يستنقلهم الرئيس لوخامة أرواحهم وكثافة حسهم وشدة فضولهم .
فما هو الا أن سمي الاسم الثالث منهم حتى صاح به : على رسلك ! هؤلاء
لا تحملهم بقعة واحدة من الأرض ، ولا أدري كيف يجتمعون حتى على اللسان !

وكان نظام المعيشة في مسجد وصيف يجرى على وتيرة واحدة : يستيقظ
الرئيس باكراً ويتناول طعام الافطار في الطبقة العليا ثم ينزل الى مكتبه
حوالي الساعة التاسعة فيجلس فيه ريثما يراجع بريد الصباح . ثم يخرج
للرياضة فيركب حماراً خاصاً معداً له يستريح الى مشيته أو خطوته كما كان
يقول رحمه الله . فيجول في الغيطان نحو ساعة ومعه واحد أو اثنان من
الصحاب يركبان الخيل أو الحمير أحياناً ، وأحياناً يمشيان

فان لم يجد نشاطاً للركوب تمشى مع بعض الصحاب الى الساقية التي في
جوار المنزل ، فيجلس هناك ساعة أو نحو ذلك يقضيها في الحديث وتذاكر
الشئون العامة ، ثم يعود ماشياً فيصل الى المنزل حوالي الساعة الحادية عشرة
ويجلس في استقبال الزائرين الى نحو الساعة الثانية وهي موعد الغداء ، ومن
عادة الرئيس أن يتناوله مع ضيوفه وأن يقضى على المائدة ساعة على الأقل
يتنقل خلالها من حديث الى حديث ومن موضوع إلى موضوع يلاحظ فيها
جميعاً أن تناسب أذواق الزائرين وأن يشتركوا فيها جميعاً بما لهم من خبرة
فيها أو رغبة ، فاذا فرغ من الطعام تناول القهوة وودع ضيوفه ليقل في
الطبقة العليا الى ما بعد الساعة الخامسة بقليل ، ثم ينزل إلى المكتب ليراجع
بريد المساء ، ثم يخرج للرياضة مرة أخرى مشياً على الأقدام ، ويعود الى حيث

يجلس عادة ما بين حجرة المكتب وحجرة المائدة في طرقة مجاورة للحديقة
هي في الغالب أصلح الأماكن هناك لتلقى الهواء الطلق من وراء المروج ،
ويقضى هنيهة في استقبال الزائرين ثم يحين موعد العشاء في نحو الثامنة فيتناولوه
كذلك مع الضيوف وهو يسامرهم بأمثع الأحاديث وأطيب الفكاهات ،
وينتقل الى الطرقة أو الى المكتب اذا برد هواء الليل ، فيلبث هناك حتى
الحادية عشرة أو الثانية عشرة ولا يطيل السهرة الى ما بعد ذلك الا فيما ندر
وأكثر ما كان يقضى السهرة في استعراض الأعمال السهلة أو التعقيب على
الحوادث والأشخاص ، ويستطرد أحياناً الى الذكريات والملاحظات بأسلوب
يمزج فيه الجد بالفكاهة ويتوخى فيه راحة السامعين، ويتعمد أحياناً أن يسألهم
ويجاذبهم أطراف الأحاديث ليستدرجهم الى الكلام ويستطلع ما عندهم من
الآراء والخواطر . فاذا حان موعد نومه ودعهم وتمنى لهم رقاداً هنيئاً وليلة
سعيدة . وصعد الى الطبقة العليا وذهبوا هم الى دار الضيافة ينامون أو يلبثون
بعد ذلك ماشاءوا من وقت يلعبون النرد ويسمرون

وصلنا إلى مسجد وصيف عصارى يوم الخميس الحادى عشر من شهر
أغسطس . فاستقبلنا الرئيس في الطرقة ورحب بنا وأوصانا أن نستعد للبقاء
في مسجد وصيف فترة طويلة ، فقلت : يا باشا ذلك ما تمنى . لولا أنى أتيت
على نية المبيت ليلة واحدة فلم أحضر معى ما يلزمنى من الدواء والملابس ،
فأما وقد أنالنى الرئيس شرف ضيافته فأنا أعود إلى القاهرة غداً وأرجع منها
متأهباً للاقامة في مسجد وصيف بقية الصيف . . . ان شاء دولة الرئيس
قال : لا تمزح . انى أحسبك فى حاجة إلى هذه الراحة فى هذا الهواء .
وحسبك كداً لذهنك ونصبا لجسدك طوال العام .

فشكرت لدولته دعوته واهتمامه ، وأمضيت المساء والسهرة على أطيب
ما يكون السمر وأطيب ما يكون الأوان وأطيب ما يكون الهواء : تارة

يحدثنا عن المصطافين الذين يذهبون إلى أوروبا لانفاق ما جمعه من بلادهم كأنهم يؤدون الاتاة المضروبة عليهم ، أو المصطافين الذين يذهبون اليها مرغمين كأنهم في سخرة مفروضة عليهم وعلى أبناء طبقتهم لا حيلة لهم في أدائها ولا لذة لهم في قضائها ، فيعيشون في شظف وعسر ليعوضوا على أنفسهم نفقات رحلاتهم ، ثم يرجعون وما استفادوا من الرحلة سلوة ولا نفعاً ، ولا عرفوا من الديار التي طافوا بها أكثر مما يعرفون وهم بعيدون منها . وتارة يحدثنا عن انتخاب البطريق وما اصطاح عليه العرف في انتخاب البطارق الأقدمين وما اشتهروا به من النسك والانزواء عن العالمين ، وتارة أخرى يسألنا رأينا في هذا وعهدنا بذلك وما يقال عن هذا الأمر وما يشاع عن ذلك البلد ليشارك كل منا في حديث يرضاه ويستريح اليه . وكانت الليلة قراء والسكينة في الأرض وفي السماء ، وبعض الحاضرين من طلاب المناوشات يقول للرئيس كلما رأى أسرح النظر في المروج والفضاء واستقبل الهواء « الحنون » الذي لا نستمتع به في القاهرة ولا الاسكندرية : العقاد ياباشا ليس معنا . العقاد ينظم قصيدة ! والباشا يقول وهو ضاحك : حسبه اذن شيطانه . فلا تزيدوه شياطين !

وصعد الباشا وأوينا نحن إلى حجراتنا فنام من نام ولبث الآخرون يلعبون أو يفتنون في تدبير المكائد والمناوشات !

ثم استيقظنا مبكرين لنشاط النفس وجودة الهواء ، وجاءنا من قبل المنزل من ينبئنا بنزول الباشا إلى المكتب . فذهبنا اليه وحينئذ تحية الصباح فكان أول ما سألنا عنه بعد التحية : كيف كان مييتنا وماذا نقترح من الطعام في يومنا ؟ وعلمت أنها كانت عادته رحمه الله مع جميع ضيوفه الذين يعلم أنهم لا يأكلون كل طعام ، وأنهم يلتزمون نظاما خاصا في المعيشة والغذاء

وقبل الرياضة الصباحية دعانا الرئيس وزميلا لنا من ضيوفه فقضينا ساعة في الطريقة يستعرض لنا بعض المواقف ويصف بعض الجماعات

المصرية . ثم نهضنا للرياضة مشيا الى الساقية فالتفت الرئيس في أول الطريق وسأل :

ألم يأت فلان بعد ؟

وفلان هذا ثرثار غريب الأطوار يستطاب حديثه وتملح بدواته . فقال أحدنا : كلا . يا باشا ، ولا نحسبه يأتي ، لأنه لا يزال عاتبا على البيغاء !

أما البيغاء هذه فلها قصة ظريفة مع ذلك الثرثار ، وهي في الأصل هدية إلى الرئيس أهداها اليه بعض مروضي الطيور لأنها تعلمت الهتاف باسمه لطول المرانة من جهة ، ولطول ما سمعت من هذا الهتاف في المظاهرات من جهة أخرى . فكانت بين لحظة وأخرى تنطق هاتفة « يحيي سعد . يحيي سعد » وتشفع ذلك أحيانا بالوثب والرقص الموزون كلما صفق لها المصفقون على نغمة الهتاف فنقلها أصحابنا « أولا » إلى دار الضيافة ثم أخذوا في تعليمها اسم ذلك الثرثار بتلقينها اياه في الصباح والمساء وكلما عبروا بها أثناء النهار ، فطرب الرجل لهذه الشهرة التي بلغت إلى مسامع الطير . وظل يأنس اليها ويروضها على ترديد اسمه ، ويفرح بتنغيمها اياه تارة تمده وتارة تقتضبه وحينما تكرر على عجل وحينما آخر تفرده على مهل ، وهو جد مسرور بهذه التحية يحسبها الهاما من البيغاء تخصه به دون سواه . حتى كان يوم فاذا هي تناديه باسمه وتشفعه بلقب لا يسره . فقفز من المفاجأة وهم أن يبطش بها من الغضب وانحدر على السلم متوعداً بالشكاية إلى الرئيس ثم غادر الدار دون أن يلتقي الرئيس أو يودع الصحاب

قيل لنا حين حضرنا — ولم نكن قد شهدنا شيئا من هذا — أنه قد أقسم لا يعودن أو تعتذر البيغاء من هذه الزلة وتمسك عن التناول الذي اجترأت به على مكاتته وفضله !

فسأل الرئيس : ! أو لا تزال البيغاء مصرة على رفض الاعتذار

فقالوا جميعاً : كل الاصرار

قال الرئيس : لا عجب ، ببغاء تعتب على ببغاء !

وبلغنا الساقية جالسنا قليلا ، ولحق بنا من الزوار من كان يعجلهم الوقت عن الانتظار ، فأنشده بعضهم قصيدة وبلغه بعضهم تحية من الطلاب المصريين في باريس ، وأوشكت الضحوة أن تنقضى على خير لولا خبر حملته الصحف عن التعيينات القضائية سمع به الرئيس فتكدر أما كدر ، وزاد في غضبه انه لم يسمع بشيء من تمهيدات هذه التعيينات كما كان أنصاره في الوزارة يتعمدون اخفاءها ليضطر إلى قبولها بعد وقوعها ، مع علمهم باعتراضه الشديد على بعضها . فرجع الرئيس إلى المكتب منقبضا وأمر باستدعاء وزير الحقانية في الاسكندرية على التلفون ليسأله عن خبيثة هذه المناورة المسيئة . ففهم منه أن الأمر قد عرض على جميع الوزراء الوفدين فأقروه ولم يلاحظوا شيئا عليه ، فوقع ذلك في نفسه موقعا ألما وأتعبه في حالة المرض التي كان فيها بين النقاها والاعياء . ولم ننتفع بحديث الرئيس بقية اليوم حتى ودعته مستأذنا في الاياب

وأنتت القاهرة وفي نيتي أن أرجع منها إلى مسجد وصيف آخر الأسبوع بعد ترتيب العمل والاستعداد للأجازة بضعة أسابيع . فلم يمض السبوت حتى طلبني الرئيس صباح الأحد على التلفون وقال لي إنه ينتظرنى مساء ذلك اليوم ، فشكرت لدولته واستمهلته إلى الاثنين . فاذن ، وأمر كاتبه أن يكرر تذكيري بالموعد مساء الأحد . وما كنت في حاجة إلى التذكير والتكرير ، ولكنه لطف الرئيس رحمه الله وإيناسه لضيوفه ومدعويه

ووصلت إلى مسجد وصيف مساء الاثنين فلقيت إخواننا بين باب الحديقة وباب دار الضيافة وقد بدأ عليهم شيء من الوجوم فسألتهم : ما بالكم هنا في هذا الأوان ؟ قالوا : إن الباشا متعب قليلا فهو عاكف في المنزل ونحن مبتعدون من نوافذ الحجر التي ينام فيها لئلا يرتفع اليه صدى من ضوضاء الحديث . ولم تمض دقائق معدودات حتى أقبلت الأنسة المهذبة « فريدا »

تحييني باسم الرئيس وتبلغني أسفه لأنه لا يستقبلني هذا المساء ، ورجاه أن يراني في الصباح

وفي تلك الليلة أنبأنا الدكتور حامد محمود ان المرض لا يخلو من خطورة ولكن بنية الباشا القوية كفيلة بالتغلب عليه ، وانه يحتاج الى الراحة والاقبال من الحركة والكلام والاشتغال بمرهقات السياسة والمشاكل العامة . فقضينا الليلة تنفاهل وتشاءم ونحن على غير هدى من هذا ولا ذاك ، وجاء الصباح فسألنا فقيل لنا : إن الحالة أحسن . ولكن الحاجة الى الراحة والعكوف بالمنزل لا تزال

وكان أول ما تلقيناه بعد تناول الافطار تحية من الرئيس واعتذارا من احتجابه عنا ، ووعدا بأن يرانا قريباً حسبما يستطيع أو حسبما يأذن الطبيب ثم جاءتني الأنسة فريدا تدعوني الى لقائه ، فلم أنس ولا أحسبني أنسى ذلك الشعور الذي خامرني وأنا أخطو خطواتي المتتدة المتقاربة الى حجرة نومه . فاني أحسست أنني في حضرة القدر الذي لا يكشف ما أضمر . وعنده الرجاء العظيم ، وعنده كذلك الخوف العظيم ، ونحن منه بين ستارين لا ندرى أيهما الرجاء وأيهما الخوف ، وأيهما ينشره وأيهما يطويه

واقتربت من الحجرة وأنا أعلم أن الحديث يتعبه وانه أتعب ما يكون له إذا خاض في السياسة ومشاكل الحكومة . ووجدته راقداً فخيتته فرد التحية معتذراً لا اضطراره إلى قلة الحركة . وأسرعت بإبتداء الكلام لأعفيه من مشقة الحديث ، وطرقت كل موضوع عن الجو وعن الصحة وعن المصيف وعن الصحاب الا السياسة وما إليها فاني اجتنبتها أبعداً اجتناب ، وطفقت أسرع في وصل كل حديث بما قبله على خلاف عادتى لكي لا يتكلم ثم أجا إلى مقاطعته فأسوءه بذلك . وقد تسمع الأنسة فريداصوته بين فترة وأخرى فتظهر وتناديه بلمهجة المستعطف المترفق : يا باشا . لا كلام الا كلام . . . فيصمت حتى تخرج ثم يقول : إن على يابني هنا رقيبين لا يرحمان . إذا أمر الطبيب

لم ياذنا لشفتي أن تفترا بكلام ولا للهواء أن ينفذ من هذه الأبواب ...
« وأقول له إن رقيبك يامولاي لا يرحمان لأنهما يرحمان
وعلى الرغم من هذا استطرد الكلام إلى أنباء الصحف والحكومة وجاء
ذكر الخصوم والأصدقاء فقال رحمه الله : « ليس لي يا بني خصوم أحسب
حسابهم إنما آقتي كلها من الأصدقاء . ثم تمثل قائلاً : « لو بغير الماء حلقي
شرق » وكررها مرتين

ثم أمر باستدعاء نخري عبدالنور بك فسأله عن زملائه وعمه وصل من
الزائرين . ففاض برواياته المعهودة ومخترعاته الحاضرة والباشا بين سامع
وناعس . حتى أحسبنا انه يغفو فإوماً بعضنا إلى بعض بالسكوت ،
وخرجنا متمهلين

وكان ذلك هو اللقاء الأخير

تخليد الذكرى

توفي سعد والوزارة التي في الحكم وزارة الائتلاف التي يؤيدها الوفديون وحلفاؤهم من الأحزاب الأخرى ، فقامت الوزارة بواجبها في تشييع جثمان سعد إلى قبره الموقوت بصحراء الأمام ، وأمرت بنقل الجثمان على مدفع وإطلاق سبع عشرة طلقة في أثناء سير الجنازة ، واشتركت هي والمجلس النيابي وعلية الشعب وسواده في تشييع الجنازة عصر اليوم التالي لوفاته ، وعلى الرغم من القيظ وأجازات الصيف وغياب الكثيرين في الأقاليم والبلاد الخارجية كان المشتركون من أهل القاهرة والذين استطاعوا إدراك موعد الجنازة من أهل الأقاليم يعدون بعشرات الألوف

وأمرت الوزارة بشراء بيت الأمة وحسابه من أملاك الدولة لصيانة آثار سعد الباقية فيه ، وأمرت كذلك بتشديد ضريح إلى جانب بيت الأمة ينقل إليه الجثمان بعد الفراغ من بنائه ، وبصنع تماثيلين يقام أحدهما في القاهرة والآخر في الإسكندرية

وبلغت الاكتابات الشعبية لتخليد ذكرى الزعيم نحو عشرين الف جنيه ثم وقفت عند هذا القدر اكتفاء بما أقامته الحكومة الممثلة للشعب من الذكريات

ولما تم بناء الضريح كانت الوزارة القائمة — أو كان الحكم كله — حكم خصومة لسعد والسعديين . فتباطأت الوزارة في نقل الجثمان ثم حولت الضريح إلى مقبرة لبعض الملوك الفرعنة الأقدمين ، وتعللت لذلك بأن السيدة الجليلة قرينة سعد رفضت أن ينقل رفاته إلى الضريح إذا كان في النية تحويله إلى مقبرة عامة له ولبعض الوزراء الآخرين ، ولكنها حيلة سياسية لا تخفى . لأن الوزارة عطلت إقامة التماثيل كما حالت دون نقل الجثمان إلى الضريح .

وفي عهد الملك فاروق الأول عادت الحياة النيابية على أساس الدستور القديم وقامت في الحكم وزارة وفدية فسمح بنقل الرفات إلى الضريح بعد وفاة سعد بتسع سنوات في يوم الجمعة التاسع عشر من شهر يونيو سنة ١٩٣٦ ، وكان كثير من أصدقاء سعد يخشون أن تكون الجثة قد سرقت من مدفنها ليحال بينها وبين الضريح المشيد لمشاها في يوم من الأيام مهما تتعاقب الدول والوزارات ، ولكنها وجدت في مدفنها النقى سليمة من عوارض الفناء لم يصبها إلا جفاف وضمور يسير

والضريح الذي استقر فيه رفات الزعيم العظيم بنية لا ثقة بتخليد ذكراه ، لأنها بنية مصرية توافرت فيها البساطة والفتخامة وأخذت من الطراز المصرى القديم مالا تناقض بينه وبين الأصول الإسلامية . أما التمثالان فلا يوحيان شيئاً من السمائل الانسانية والقوة النفسية والأريحية الخلقية التي بها كان سعد عظيماً وبها كان مستحقاً للتخليد . وكل ما فيهما من سعد شبه مادي لم يوفق فيه الأستاذ محمود مختار رحمه الله حتى إلى إختيار أحسن الصور الشمسية وأقرب الملامح إلى المعاني النفسية

وتزداد النفس شعوراً بيبوسة المعاني المفرغة في التمثال عند ما تنظر إلى ذلك المعطف الطويل المفرغ على القامة المديدة بلا حركة ولا ثنية كأنه خارج من عند الكواء . ومما لاشك فيه أن تمثيل رجل كسعد في المعدن أو الرخام أو الصخر ليس بالأمر اليسير ، فهو أصعب من تمثيل العسكريين لأن ملامح القوة العسكرية ليست بالعسيرة التصوير ، وهو أصعب من تمثيل الفلاسفة والشعراء لأن ملامح الحالمين والمثاليين ليست كذلك بالعسيرة التصوير . إنما العسير في تصويره تلك المعاني والأخلاق التي تراها في جميع الناس ولا تراها في انسان واحد بهذا المقدار ، فإذا صورتها كما تراها في جميع الناس خرجت عادية لا تهمل سمات العظمة التي يتسم بها صاحبها الفريد ، وإذا عمدت إلى إظهار الفرق بين صاحبها وسائر الناس بتكبير

المقدار كانت المسألة مسألة احجام لا مسألة معان وأخلاق وملكات . لهذا أخفق محمود مختار مع اصابته في كثير من التمثيل الأخرى ، وأخفق من قبله « يورقتش » صاحب التمثال النصفي الذي نقله عن سعد وهو مريض معتكف في الطبقة العليا من بيت الأمة ، فلم يكن فيه إلا الشبه المادى دون المشابه النفسية التي تظهر بالدراسة والاختبار

والسبيل إلى اصلاح التمثالين أن يتولى إصلاحهما رجل يدرس سعداً دراسة نفسية ويعلم من أخباره ونوادره ما يوحى اليه جوانب العظمة في ذلك الانسان الذي تختلف فيه القوة من قوة العسكريين وقوة الفلاسفة والشعراء ، فيترجم الفرق بينه وبين سائر الناس بلغة الشعور والبداهة لا بلغة المقدار والمظاهر المادية . وعسى أن يتم هذا الاصلاح قبل اقامة التمثالين حيث يستقبلان أنظار التاريخ

ولهذه المناسبة في تخليد ذكرى سعد ، وفي ختام هذا الكتاب الذى أودى به واجب الوفاء لذكراه - أرى كما رأى كثير من القراء أن أختمه بآخر ما نظمت في تحية سعد زغلول ، وهو القصيدة التى نشرتها يوم نقل رفاته إلى الضريح قبل صدور هذا الكتاب بشهر واحد :

فاز سعد

عرف النفي حياة ومماتا وأصاب النصر روحا ورفاتا
كلما أقصوه عن دارٍ له رده الشعب اليها واستماتا
كيف يجزيه افتياتا وهو من كان لا يرضى على الشعب افتياتا
أصبحت دارك مِثْواك فلا تخش بعد اليوم ياسعد شتاتا
حبذا الخلد ثماراً للذي غرس المجد ونماه نباتا

كل أرض للصلى مسجد غير أن الكعبة الكبرى مقام
هكذا قبرك مرفوع الذرى فى جوار البيت أو سفح الامام
أرض مصر حيث أمسيت بها فبنو مصر حجيج وزحام
غير أن الذكر يبغى منسكا مثلما يبغيه حج واستلام
فالق فى قبرك خلداً كلما مر عام تبعته ألف عام

جيرة الأحياء أولى بالذى بعث الدنيا حياة لن تبيد
معشر الأحياء أتم لكم مدد من ذلك الميت مديد
مستعدين رجاء كلما جزتموه، وهو منكم مستعيد
إنه فى كل جيل ذاكر من بنيه، أبد الدهر وليد
تلك ياسعد مغانيك فما فى سواها يسكن اللحد شهيد

أعبر القاهرة اليوم كما كنت تلقاها جموعاً ونظاما
ساعة فى أرضها عابرة بين آباء طوال تترامى
ساعة من عالم الفردوس لا تشبه الساعات بدءاً وختاماً

كل من شاهدها زيد بها من معانيك جلالاً ودواماً
قل لهم أبلغ ما قلت لهم أيها الواعظ صمتاً وكلاماً

جردوا الأسياف من أغمادها ذلك يوم النصر لا يوم الحداد
ارفعوا الرايات في آفاقها أين يوم الموت من يوم المعاد ؟
لا يلاقي الخلد بالحزن ولا يكتسى الفتح بجلباب السواد
ذلك يوم ماتمناه العدى بل تمناه ولاء ووداد
فانفضوا الحزن بعيداً واهتفوا فاز سعد وهو في القبر رماد

الفراعين الأولى أجليتهم لتمنوا لو أجازوك الطريق
أنت أضيفت على أوطانهم سعة ، وهي من الأسر مضيق
أنت أيقظت لهم تاريخهم وهو في نومته لا يستفيق
فضلك اللاحق أحياء فضلهم فاستوى منه طريف وعريق
آية في الحق لا ينسخها في مدى الدهر عدو أو صديق

يابنى مصر اجعلوا نقلته رمز إحياء وعزم ومضاء
وانظروه كيف حالت دونه غير شتى ، وما حال القضاء
المنحون تنحوا جانباً آخر الأمر ، وسعد في البناء
كل ذى حق سيعطى حقه ليس للهجد من الخلد نجاه
كل ما عارض سعياً باقياً عرض فان وزور ورياء

ترمز الشمس (١) إلى نقلته بسفور غالب بعد حجاب
صرعت ليلين صباحاً فروت عن حضور ناصع بعد غياب

(١) إشارة إلى كسوف الشمس صباح ذلك اليوم

هو أيضا قد طوى ليل الردى وطوى ليل الغواشى والكذاب
فى السموات وفى الأرض له أثر ينبيء عن يوم المساب
أثر الفجر إذا انجاب لنا عن ضحاه بعد لآى وغلاب

دان ياسعد لك الذكر بما شيد البانى وما خط الزبور
قدر نادى فلبته على موعدا لذكرى صخور وسطور
أنا بان لك فى ملك النهى منزلا يبق ولا تبق الصخور
من أسانيدك آساس له ومن الحق له حسن ونور
إن أنل شأوك فيه إتنى بالذى شيدت منه لفخور

فتية الوادى بسعد فاقتدوا إن تخيرتم له خير وفاء
أذكروه بالذى يعمله منكم العامل فى غير ونا
واذكروه بالذى امتاز به من مزاياه الآيات الوضاه
هكذا يخلد سعد بينكم بتماثيل حياة ورواه
كل ما يعظم من أعمالكم هو تخليد لذكرى العظام

عباس محمود العقاد

i13 220908

B 1190 8555

AUC - LIBRARY

DA

RECEIVED

RECEIVED

MAR 29 1997

- JUN 1984

DT
107.2
Z2
A7
1936



1 0 0 0 0 0 8 1 5 0

